تهذيب كتاب السلوك
فــي معرفـة
دول الملـوك

تأليف
تقي الدين أحمد بن علي المقريزي
(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ)

اختصار

دكتور / رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة الفهرسة

اسم الكتـــاب:	تهذيب كتاب السلوك في معرفة دول الملوك
قام بالتهـــذيب:	دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعـــــــــة:	طبعة أولى / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م
الناشـــــــر:	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيـــداع:	
الترقيم الـــدولي:	

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة / ميدان حليم
خلف بنك فيصل شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا
٠١٢/٩٩٦١٦٣٥ - ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤
٠١٠/٠١٠٤١١٥ - ٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة
شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر
٠١٢/٢١٠٨٤٩٣ - ٠٢/٥١١٤٣٧١

مكتبة الإيمان - المنصورة
أمام جامعة الأزهر
٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

المقدمة

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، حمدا إذا قابل النعم وفى، وسلاما إذا بلغ المصطفين شفى، وخص الله بخاصة ذلك نبينا المصطفى، ومن احتذى حذوه من أصحابه وأتباعه واقتفى، وفقنا لسلوك طريقهم...

قد ظهر لي من خلال عملي حاجة الناس إلى اختصار مبسط لكتب التاريخ الإسلامي ذات الحجم والقطع الكبير، وخاصة تلك التي تتناول تاريخ مصر بصفة حولية ويومية، والتي تمتد فتراتها التاريخية إلى حقب زمنية طويلة، يجمع بين الحقيقة التاريخية البسيطة في ثوب مختصر وبين أصالة الحدث التاريخي، يكون في متناول الكل، يتميز بخلوه من التكرار أو الإسهاب، مع الحفاظ على طبيعة الحقيقة التاريخية؛ وذلك لأن الوقت في هذا العصر أصبح قليلاً جدًّا بسبب تزاحم المعلومات في شتى المعارف، كما أن إيقاع الحياة السريع يجعل من الصعب على غير المتخصص أن يستمتع بقراءة كتب حولية متعددة الأجزاء، تحتاج قراءتها إلى فترات زمنية ووقتيه لا يمكن لعاقل غير متخصص أن يفرط فيها بسهولة، فرأيت من المناسب عمل مختصر يلبي حاجة من أراد الاطلاع على كتاب أصيل عن تاريخ مصر. يغطي جزءً كبيرًا من فتراتها التاريخية يتميز بالأصالة التاريخية ومعاصرة الحدث التاريخي.

ولما كان كتاب " السلوك في معرفة دول الملوك " للمقريزي يجمع بين الأصالة التاريخية ومعاصرة الحدث التاريخي مع وضوح العبارة، وجمعه لكثير من المعلومات التاريخية التي أوردها المؤرخون السابقون له أو المعاصرون له، بأسلوب سهل مقتضب بعيدًا عن الألغاز والتعمية مع ما يتميز به من الالتزام بتوثيق الحقيقة التاريخية أو نقلها من مصدر موثوق منه ومتعارف عليه لدى المؤرخين المعاصرين، وما خص به من ثناء العلماء والأئمة، وما حظي به من القبول لدى الأمة.

وكتاب " السلوك في معرفة دول الملوك " - موضوع الاختصار - كتاب ضخم، يعتبر من أهم المصادر في تاريخ الدولتين: الأيوبية والمملوكية. وهو الحلقة الرابعة من سلسلة ألفها المقريزي في تاريخ الدول المتعاقبة على مصر والقاهرة، وهي:

١- (البيان والإعراب فيمن دخل مصر من الأعراب).

٢- (عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط) أرخ فيه لمصر حتى قيام

الدولة الفاطمية.

٣- (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا).

- قال ابن تغري بردي في ذيله عن كتاب السلوك: (وأجل تحفة اخترعها وعمدة ابتدعها كتابه المسمى بالسلوك.. انتهى فيه إلى أواخر سنة ٨٤٤ هـ وهي السنة التي توفي فيها). بنى المقريزي كتابه السلوك على نظام الحوليات الشاملة لعهد كل سلطان من السلاطين، مدونًا حوادث كل عام تدوينًا مستقلاً، وختم الحوادث بذكر وفيات العام، من غير أن يربط بين سنة وأخرى بأي رابط، ما عدا أنه يذكر أحيانًا الوظائف الكبرى ويسمَّي من عليها. لاسيما إذا جاءت فاتحة السنة موافقة لقيام سلطان جديد، أو حدوث أمر جليل. وهو يكتب اسم السلطان الجديد بخط كبير ومداد مخالف. وبقي يعمل فيه حتى آخر سنة من حياته، وهكذا فرغ المقريزي من الكتاب مقدمًا لمصر سجلاً يوميًا طويلاً، صافيًا بأخبارها وأخبار ما يليها من البلدان.

قال د. محمد مصطفى زيادة - وهو مرجعنا في هذه الترجمة -: (وعندي الجزآن الثالث والرابع من نسخة مكتوبة بقلم أنيق فاخر، لخزانة الأمير يشبك مِنْ مهدي الدوادار، كتبت سنة (٨٨٠) أي: بعد (٤٥) سنة من وفاة المقريزي، وكان ناسخها سجينًا، فأراد بتجويد خطه أن يكون شفيعًا له بالخروج من السجن.

وعلى كتاب (السلوك) هذا وضع ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) كتابه: (حوادث الدهور) ليكون ذيلاً للسلوك. وكذلك فعل السخاوي (ت ٩٠٢هـ) في كتابه: (التبر المسبوك في ذيل السلوك) المطبوع قديمًا في مصر.

و ما يجده القارئ في هذا المختصر هو كله من كلام المقريزي فقد التزمت بنصه التزامًا تامًّا ولم أتصرف فيه بالزيادة إلا ما استدعى السياق إضافته لربط كلام المقريزي بعضه ببعض كواو العطف ونحوها، ليبقى الكتاب الأم " السلوك لمعرفة دول الملوك " بأسلوبه السهل الميسر وجماله الناصع مع تمام الترابط والانسجام.

وما عملته في الاختصار لا يخرج في الغالب عن أحد الأمور التالية:

١- استبعاد ما لا ضرورة له مما أورده المقريزي من وفيات أو أحداث قد لا يحتاج لها القارئ غير المتخصص أو تلك التي يشكل على القارئ العادي فهمها وتركت لمن أراد الاستزادة الرجوع إلى الأصل المختصر.

٢- إذا تعددت الروايات التاريخية التي يوردها المؤلف لحادثة تاريخية واحدة، اقتصرت على ذكر واحدة فقط منها، لاسيما وإن كانت تؤدي الهدف منها دون الحاجة إلى غيرها.

٣- جرى تخريج الأحاديث الشريفة والتعريف ببعض المصطلحات والكلمات المبهمة والغير واضحة التي وردت في المختصر في بداية العمل في هذا المختصر، ولكن وجدت أن هذه الإضافة سوف تخرج المختصر من حجمه المستهدف وهو مجلد واحد ولهذا اضطررت - آسفا - عدم سلوك هذا الدرب.

٤- الإبقاء ما أمكن على الآراء التي استشهد بها المؤلف ودلل في ترجمته لملوك أو سلاطين أو ولاة مصر.

٥- تجريد المختصر مما ورد به من أمر زيادة النيل أو انخفاضه على أساس أنه لا يهتم بهذا الأمر كثيرًا سوى المتخصصين فقط.

٦- تجريد المختصر من كثير من الوفيات التي أوردها المقريزي في نهاية كل سنة إلا ما كان منه مشهورا أو يخدم سياق المختصر.

٧- جرى الاكتفاء بالأحداث التاريخية الهامة التي وقعت في مصر أو كان لمصر علاقة بها من قريب أو بعيد، أو كان لمتوليها دور في صياغتها، لا سيما العلاقة مع الصليبيين سواء في المشرق أو الغرب الأوربي، والعلاقة مع التتار انتصارًا واندحارًا ومعاهدة ومراسلة، مع الإعراض عن بقية الأحداث التي صاغها المؤلف، حيث أن أصل الكتاب كان بمثابة حولية تم فيها تدوين جميع الأحداث التاريخية في العالم، وليس مصر فقط.

٨- جرى حذف بعض التراجم والوفيات التي تخص بعض الشخصيات السياسية أو العسكرية أو العلمية، مع الالتزام بذكر جميع تراجم ولاة وسلاطين وملوك مصر.

أسأل الله التواب الغفور أن يغفر لنا ويرحمنا، ونشهده أنا نحبه ونحب نبيه محمدًا ﷺ والأنبياء والمؤمنين ونبغض الكافرين...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

نبذة عن المقريزي [1]

هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم تقي الدين المقريزي، (بفتح الميم نسبة إلى مقريز - محلة من بعلبكّ) البعلي ثم المصري الفقيه المؤرخ الشافعيّ. وأصله من (بعلبك)، ثم هاجرت أسرته واستقر بها المقام في مصر.

ولد سنة (٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ م) بحارة برجوان، بقسم الجمالية، بمحافظة القاهرة، بمصر.

نشأ المقريزي في أسرة معروفة بالاشتغال بالعلم في دمشق وبعلبكّ والقاهرة. وعبر عشرين سنة - هي سنوات طفولته ومراهقته وشبابه - شهد المقريزي حوادث ذلك العصر الآفل من نافذته الفكرية المصرية البعيدة عن شؤون الدولة المملوكية وأمرائها الذين جعلوا من السلاطين الأطفال وأشباه الأطفال وقتذاك، ستارا رقيقا شفافا ساذجا يعملون من ورائه لتحقيق مطامعهم.

---

(١) مصادر ترجمة المقريزي:
- (هدية العارفين للبغدادي): ٥/ ١٢٧.
- (السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي): ١/ ٢٢ - ٢٣، ٣/ ٥٢ وما بعدها.
- (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر): ٢/ ٢٩١ - دار الجيل - بيروت.
- (إنباء الغمر لابن حجر): ٩/ ١٧١ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.
- (دراسات عن المقريزي)، د. محمد مصطفى زيادة، د. جمال الدين الشيال، وآخرين، هيئة الكتاب - القاهرة.
- (المقريزي مؤرخا): د. محمد كمال الدين عز الدين علي، رقم (٦) من سلسلة المؤرخين، عالم الكتب - القاهرة.
- (أربعة مؤرخين، وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة): د. محمد كمال الدين عز علي رقم (٥٣) من سلسلة تاريخ المصرين - هيئة الكتاب - القاهرة.
- (الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربيّ إلى نهاية العصر المملوكي): د. سهام مصطفى أبو زيد - هيئة الكتاب القاهرة.
- (البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك): أحمد عبد الرزاق أحمد، دراسة عن الرشوة - هيئة الكتاب - القاهرة.
- (المقريزي وكتابه درر العقود الفريدة - في تراجم الأعيان المفيدة): دراسة وتحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين علي - عالم الكتب - القاهرة.
- (ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداريّ) للمقريزي: المقدمة، تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور.
- (معرفة ما يجب لآل البيت النبوي للمقريزي): المقدمة، تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور، هو والذي قبله، طبع دار الاعتصام - القاهرة.

ثقافته:

وفي وسط تلك الحوادث الصاخبة المتقلبة، عكف الشاب أحمد المقريزي على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته، وهي دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو ودراسة الفقه والتفسير، والحديث، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ، وتقويم البلدان، والأدب، والحساب.

مصادر ثقافته:

ترجع مصادر ثقافة المقريزي إلى:

١- أنه كان يملك مكتبة كبيرة ضخمة تضم العديد من الكتب في مختلف أنواع العلم والمعرفة المتداولة في عصره، والدليل واضح في الكثرة الكثيرة من المراجع التي أشار في مؤلفاته إلى أنه رجع إليها وأخذ عنها.

٢- أنه ولي وظائف كثيرة مختلفة، مكنته من التعرف على دولاب العمل وكيف يدار، وعلى مختلف النظم الإدارية والمالية، وعلى أحوال الشعب الاجتماعية والاقتصادية.

٣- اشتغاله بعلمي الحديث والتاريخ، وهما علمان يعتمدان أصلاً على الجرح والتعديل، والنقد والتحليل، والتثبت من كل قول، أو رواية أو حقيقة علمية.

شخصية المقريزي:

أودع المقريزي في صفحة العنوان من كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك)، شيئا من صفاته الشخصية، حيث يقول بعد كتابة اسم الكتاب واسمه هو، وكأنما يخاطب نفسه:

(لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديته، ولا ألجأك إلى قبض عوض عن جميل أوليته، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هي العليا، وأعاذك من عز مفقود، وعيش مجهود، وأحياك ما كانت الحياة أجمل لك، وتوفاك إذا كانت الوفاة أصلح لك، بعد عمر مديد، وسمو بعيد، وختم بالحسنى عملك، وبلغك في الأولى أملك، وسدد فيها مضطربك، وأحسن في الأخرى منقلبك، إنه سميع قريب، جواد منيب).

الوظائف التي تولاها المقريزي:

التحق المقريزي بالخدمة الحكومية، بعد أن غدا بحكم طبقته وتعليمه من (أهل العلم والمعرفة) وهي التسمية المخصصة لهذه الطبقة تمييزا لها عن طبقة (أهل السيف) وهم المماليك وحدهم، دون غيرهم من سكان البلاد المصرية والشامية جميعا.

وأول عهد المقريزي بالخدمة الحكومية كأبيه من قبله: (ديوان الإنشاء بالقلعة)، وهو الديوان الّذي يقابله في العصر الحاضر (وزارة الخارجية)، فعمل المقريزي الشاب سنة ١٣٨٨ م موقعا - أي كاتبا - وهي وظيفة لا يبلغها وقتذاك سوى أصحاب الموهبة والمعرفة والتفوق في اللغة والأدب والتاريخ. ثم تعين المقريزي نائبا من نواب الحكم - أي قاضيا - عند قاضي قضاة الشافعية بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعيّ منذ أيام دراسته، وتحوله عن مذهب الحنفية الّذي نشأ فيه، ثم صار المقريزي إمام الجامع الحاكم الفاطمي، وهي وظيفة في ذلك العصر.

وتولى المقريزي بعد ذلك وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة المؤيدية، وهي وظيفة يقابلها في المصطلح الجامعي في العصر الحاضر (أستاذ ذو كرسي).

- وربما كان تعيين أحمد المقريزي في تلك الوظيفة التعليمية بتوصية خاصة من أستاذه (عبد الرحمن بن خلدون) لدى صديقه (السلطان برقوق).

ثم انتقل المقريزي من التدريس إلى الحسبة حين عينه (السلطان برقوق) سنة ١٣٩٨ م محتسبا للقاهرة والوجه البحري، فانتقل بذلك من دائرة الإدارة والاختلاط بمختلف طبقات المجتمع، ذلك أن وظيفة المحتسب التي يقابلها في الوقت الحاضر عدة وظائف وزارية شملت وقت ذاك النظر في الأسعار الجارية، وأحوال النقود، وضبط الموازين والمكاييل والمقاييس، ومراقبة الآداب العامة ونظافة الشوارع، وتنظيم حركة المرور، مع الإشراف على المدارس والمدرسين والطلاب، والعناية بالمساجد والحمامات والوكالات، فضلا عن مراقبة أصحاب الصناعات الفنية من الأطباء، والصيادلة، والمعلمين (أي المهندسين المعماريين).

ويضاف إلى هذه الواجبات الكثيرة الداخلة في اختصاص المحتسب أحوال الباعة الجائلين، والمتعيشين، والشحاذين، والمتعطلين الذين كانوا خطرًا دائمًا على الأمن.

ويتضح من ضخامة هذه الوظيفة ومسئوليتها: أن أحمد بن علي المقريزي الّذي تعين عليها بأمر (السلطان برقوق)، لا بدّ أنه اشتهر وقتذاك بالكفاية والدقة في الإدارة

والأمانة في تطبيق الأحكام الشرعية.

غير أنه لم يلبث أن تنحى عن هذه الوظيفة مرتين في عامين متتالين، إذ ضاق بمسئوليتها التي شغلت وقته ليلا ونهارا، وصرفته عن القراءة، وتطلبت منه الجلوس في دكة المحتسب - (بوابة المتولي الحالية) - للفصل في شكاوى السوق والسوقة، وتوقيع عقوبات علي المخالفين، وإصدار الأوامر إلى العرفاء والأعوان والنقباء، مع العلم بأن وظيفة (محتسب القاهرة) شملت الوجه البحري كله.

مؤلفات المقريزي:

ترك المقريزي - رحمه الله - مؤلفات عديدة، في مجال التاريخ، والأنساب، والعقائد، والفقه، والأدب، والعلوم البحتة، زادت على نحو مائتي مجلدة كبار في مكتبات العالم، أو المثبت عنواناته لدى من ترجم له، أو اعتني بالفهرسة العامة للمؤلفات العربية، ويمكن إجمال مؤلفاته على النحو التالي:

١ - (اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء):

أرخ فيه المقريزي للدولة الفاطمية منذ قيامها في المغرب العربيّ، وحتى سقوطها في مصر، مترجما لخلفائها، مشيرا من خلال ترجماتهم إلى الحوادث الواقعة في زمانهم، وقد انتظمتها عدة حوليات متتابعة، مقدما لترجماتهم بالحديث عن أولاد علي بن أبي طالب وأعقابهم، مع تحقيق نسب الخلفاء الفاطميين، والتعريف بنشأة دولتهم في المغرب العربيّ، ومذيلا عليها بالتعريف برسوم دولتهم في مصر، وما عابه الفقهاء والمؤرخون عليهم، فضلا عما صار إليه أمر أهليهم وذويهم، بعد سقوط دولتهم في مصر.

نشره بالقاهرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، فيما بين سنتي (١٩٦٧)، (١٩٧٣)، في ثلاثة أجزاء بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، والدكتور محمد حلمي عبد الهادي.

٢ - (أخبار قبط مصر):

و هو في تاريخ الأقباط، مستخرج من كتاب (المواعظ والاعتبار).

نشره هماكر بأمستردام سنة (١٨٢٤)، ونشره وستنفيلد بغوطا سنة (١٨٤٥).

٣ - (الإخبار عن الأعذار):

عالج المقريزي من خلاله موضوعا تاريخيا اجتماعيا، يدور حول ما يقام من

ولائم في البناء (الزواج)، والختان. ذكره السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٢.

٤ - (إزالة التعب والعناء في معرفة الحال في الغناء):

ذكره ابن تغري بردي في (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨، السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، منه نسخة في دار الكتب (فهرس الخديوية): ٧/ ٥٦٤، ونسحة بالمكتبة الوطنية بباريس.

٥ - (الإشارة والإيماء في حل لغز الماء):

و هو رسالة لطيفة الحجم، كتبها المقريزي يوم الثلاثاء، لأربع عشر ليلة خلت من المحرم سنة (٨٢٣ هـ، ١٤٢٠ م) على سبيل التسلية، مستعرضا من خلالها معارفه الأدبية، واللغوية، البلاغية، والفقهية، والعلمية البحتة، وهي تدور حول حل (تفسير) لغز الماء. لكن يعيب هذا المؤلف ما تخلل مادته من التسليم ببعض الخرافات ومستغربات الحدوث، مع احتوائه على بعض المعاني المستغلقة، بعيدة المرمى، تحتاج إلى إيضاح.

توجد منه عدة نسخ خطية، في مسودتين، تحتفظ بهما مكتبة جامعة القاهرة، تحت رقمي (٢٢٠٧٥) و(٢٦٢٤٧) ضمن مجموع رسائل المقريزي - رحمه الله - ومنه نسخة في دار الكتب المصرية (فهرس الدار): ٣/ ١٢، ونسخة في مكتبة نور العثمانية في استامبول برقم (٤٩٣٧/ ٠١٥).

٦ - (الإشارة والإعلام ببناء الكعبة البيت الحرام):

أو تاريخ بناء الكعبة ذكره المقريزيّ - رحمه الله - في (الذهب المسبوك): ٢٦. منه نسخة خطية في دار الكتب الظاهرية بدمشق، وهي بخط المؤلف برقم (٤٨٠٥)، ولندن برقم (٩٤٣).

٧ – (**إغاثة الأمة بكشف الغمة**):

وهي رسالة لطيفة الحجم، فرغ المقريزيّ - رحمه الله - من تأليفها في المحرم سنة (٨٠٨ هـ، ١٤٠٥ م) كما ذكره هو في (إغاثة الأمة): ٤٣، ٨٦، على أثر المجاعات والكوارث الاقتصادية، التي لحقت بمصر فيما بين عامين (٧٩٦ هـ)، (٨٠٨ هـ) عارضا من خلالها لما حل بمصر من غلاء، وما ترتب عليه من مجاعات أو كوارث مجيحة فيما قبل نشوء الإسلام وبعده، حتى سنة ثمان وثمانمائة للهجرة، محصيا منها ستا وعشرين حادثة، خصّ مصر الإسلامية منها عشرين، وردت على سبيل التمثيل لا الحصر، وقد أشير من خلالها إلى أن فيها ما هو أشدّ وأنكى من المحن المعاصرة، معللاً لهذه المحن بأسباب طبيعية، كقصور جري النيل في مصر، وعدم نزول المطر في الشام، والعراق، والحجاز، وما يصيب الغلال من الآفات وسمائم الرياح.

وأخرى غير طبيعية، ترجع إلى سوء تدبير ولاة الأمور، **وتنحصر في** ، **أمور ثلاثة هي:**

١- ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشاء.

٢- غلاء إيجار الأطيان الزراعية على مبلغ ما تغله الأرض من محصول.

٣- رواج الفلوس النحاسية.

و في هذا العامل الأخير يكمن لب المشكلة وحلها في رأي المقريزيّ - رحمه الله - ولذا صرف جل اهتمامه إليه، مستطردا منه إلى **ثلاثة موضوعات، هي:**

١- النقد الإسلامي، وتطور صك العملة، وأثره في النظام النقدي في مصر.

٢- نشأة الفلوس المضروبة من النحاس الأحمر في مصر، وتراجع الدراهم المضروبة من الذهب لعدم ضربها، وسبكها حليا.

٣- أسعار النقد (ذهبا وفضة)، وبعض السلع الرئيسية من المحاصيل الزراعية.

لكن شاب هذه الرسالة - كذلك - تسليم المقريزيّ - رحمه الله - من خلال مادتها بكثير مما جاء في مصادره من المبالغات، أو مستغربات الحدوث، في مصر والشام. ومن ذلك إشارته إلى نطق ثور جبة عسال - قرية من قرى دمشق بالشام -.

منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية (فهرس الدار): ٥/ ٣٦، ونسخة خطية في مكتبة نور العثمانية برقم (٤٩٣٧/ ١).

نشره في القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، ١٩٥٧ م، بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة، والدكتور جمال الدين الشيال.

٨- (الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام):

هو رسالة لطيفة الحجم، كتبها المقريزي - رحمه الله - أثناء مجاورته في مكة سنة تسع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٥ - ١٤٣٦ م)، مرتبًا لها على مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة قصيرة جدا، اقتصر فيها على الصلاة والتسليم.

منه نسخ خطية في: مكتبة جامعة ليدن برقم (٩٩٢)، (٩٩٣)، مكتبة نور العثمانية برقم (٤٩٣٧/ ١١)، دار الكتب المصرية برقم (٥٠٠) (فهرس الدار): (٥/ ٣٨) مكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤١ ه). وظهرت لهذا الكتاب طبعتان: نشره رينك، ليدن، سنة (١٧٩٠ م)، نشر في القاهرة سنة (١٣١٣ هـ).

٩ - (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع):

وهو مؤلف مطول في سيرة الرسول ، جمع مادته من مصادر رئيسية ومتعددة، محررا فيه الخلاف حول كثير من الوقائع، مع العناية بتحقيق الكثير من المسائل الفقهية المتصلة بحوادث السيرة، حدّث به المقريزيّ في مكة، أثناء مجاورته فيها سنتي (٨٣٤ هـ) (١٤٣١ م)، (٨٣٩ هـ) (١٤٣٦ م).

توجد منه نسخ خطية محتفظ بها في مكتبة كوبريللي - تركيا برقم (١٠٠٤)، كتبت في شوال سنة (٨٣٩ هـ/ ١٥٦١ م)، كوبريللي زاده محمد باشا كتابخانة سند محفوظ، صحيفة (٦٦) وهي في جزء واحد ضخم، تقع في ستة أجزاء ضخمة، ضمت (٩١٩) ورقة، مقاسها ٢٧ ×٤٠ سم، ومسطرتها نحو ٣٥ سطرا، وعنها مصورتي: دار الكتب المصرية في القاهرة، برقم (٨٨٦) تاريخ، ومعهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة، برقم (٦٣) تاريخ، لكن عدد صفحاتها (١٨٣٩) صفحة نسخة بمكتبة غوطا برقم (١٨٣٠)، وهي في ستة أجزاء، وهي ناقصة، وقد أنكر أمناء مكتبة غوطا أن تكون في ستة أجزاء، نسخة في مكتبة ليدن، برقم (٨٧١)، وهي نسخة صغيرة ناقصة جدا، كما توجد نسخة أخرى في خزانة عموجة حسين باشا في الآستانة، برقم (٣٥٤) طبع الجزء الأول منه بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، القاهرة (١٩٤١)، على نفقة السيدة قوت القلوب الدمرداشية. ثم طبع نفس الجزء مصورا على الأوفست في دولة قطر بإشراف الشيخ عبد الله الأنصاري. ثم طبع الجزء الأول مرة أخرى، نشرته دار الأنصار بالقاهرة (١٩٨١)، ثم أعيد

نشر الكتاب كاملا بالمقدمة والفهارس في سبعة عشر مجلدا، نشرته دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، (١٩٩٨).

١٠ – (الأوزان والأكيال الشرعية):

و هي رسالة في الموازين والمكاييل، منها نسخة خطية في: مكتبة ليدن، برقم (١٠١٤)، دار الكتب المصرية، (فهرس الخديوية): (٥/ ١٨٦). نشرها تيكس، روستوك بألمانيا سنة (١٧٩٧ م)، (١٨٠٠ م).

١١ – (البيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد):

منه نسختان خطيتان في ليدن، (فهرس أمين المدني) برقم ١٨٨، وهي بخط المؤلف، دار الكتب المصرية، (فهرس الخديوية): ٧/ ٥٦٥، لكن جاء في فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، أن هذه المخطوطة تصنيف أحد علماء المائة الثامنة الهجرية، وأن المقريزي - رحمه الله - ناسخها فقط، (فهرس المخطوطات المصورة): ١/ ١١٩، عمود ٢.

١٢ – (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب):

هي رسالة لطيفة الحجم، كتبها المقريزي - رحمه الله - سنة (٨٤١ هـ/ ١٤٣٧ م) مشيرا من خلالها إلى القبائل العربية التي دخلت مصر مع الفتح العربيّ، وأماكن وجودها في عصره، مقررا أن العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر، وجهلت أكثر أعقابهم، وقد بقيت من العرب بقايا بأرض مصر حضرت لديه ست عشرة قبيلة، وهي ثعلبة، وجرم، وسنبس، وجذام وبني هلال، وبلى وجهينة، وقريش، وكنانة والأنصار، وعوف، وفزارة، ولواته، ولخم، وحرام، وبني سليم، غير مرتب لها على حروف المعجم، ولا على أصول الأنساب: (قحطانية وعدنانية)، أو بحسب منازلهم في مصر، فأتت أشبه شي ء بمذكرات كتبت على عجل، وعلى غير نظام واضح.

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية (فهرس الدار): ٥/ ٦٤، مكتبة جامعة كمبرج، برقم (١٥٧)، مكتبة نور العثمانية، برقم (٤٩٣٧/ ١٠)، مكتبة ليدن، برقم (٩٧٥)، المكتبة الوطنية في باريس، برقم (١٧٢٥)، مكتبة فينة برقم (٩١٠). ظهرت لهذا الكتاب طبعتان:

نشره وستنفلد، غوطا سنة (١٨٤٧ م)، نشر في القاهرة سنة (١٣٣٤ هـ)، ثم أعاد نشره محققا الدكتور عبد الحميد عابدين، القاهرة، عالم الكتب، ط ١ سنة

١٩٦١، مع دراسة عن تاريخ العروبة في وادي النيل.

١٣ – (التاريخ الكبير المقفى في تاريخ أهل مصر والواردين عليها):

هو معجم تأريخي ضخم، أتى في ست عشرة مجلدة، ترجم المقريزي - رحمه الله - فيه لمشاهير أهل مصر، فيما قبل الإسلام وبعده حتى وقته، على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم، ممن استقروا فيها، أو تحولوا عنها إلى غيرها من البلدان (ميتا محنطا) أو (رأسا مقطوعة)، حيث يقول (لما دخل المعز لدين الله أبو تميم معد إلى القاهرة، كان معه توابيت آبائه: المنصور إسماعيل - هذا - والقائم أبي القاسم محمد، والمهدي عبيد الله، فدفنهم بتربة القصر من القاهرة، فلذلك ذكرته في كتابي هذا). (المقفى): كما ترجم لخلف بن جبير، أحد ثوار المغرب، وقد قتل في المغرب، وطيف برأسه في القيروان، ثم حملت إلى مصر فطيف بها في القاهرة. (المقفى)، أشار المقريزي - رحمه الله - إلى هذا الكتاب في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٢٦٦ بتحقيقنا.

منه نسخة خطية في مكتبة باريس، برقم (٢١٤٤)، بخط المؤلف - رحمه الله - ميونخ برقم (٩٥٧)، ليدن، بأرقام (١٠٣٢)، (١٨٤٧)، (١٨٥١)، تم نشره بتحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، الغرب الإسلامي، ط ١، سنة ١٩٨٧.

١٤ – (تاريخ بناء الكعبة):

منه نسخة خطية في: دار الكتب الظاهرية في دمشق، وهي بخط المؤلف، ونسخة في مكتبة ليدن، برقم (٩٤٣)، نسخة بالظاهرية في دمشق، برقم (٤٨٠٥).

١٥ – (تجريد التوحيد المفيد):

هو مؤلف لطيف الحجم، يدور موضوعة حول علم التوحيد، أجمل المقريزي - رحمه الله - الإشارة إليه في مقدمته بقوله وبعد، فهذا كتاب جم الفوائد، بديع الفرائد، ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة، سميته: تجريد التوحيد المفيد، والله أسأل العون على العمل بمنه وكرمه.

وهذا المؤلف على وجازته لم يأت مؤرخنا فيه بموضوع ديني تقليدي، وإنما أحاط فيه إلى جانب ذلك بالتعريف بكثير من الفرق الإسلامية، ذاكرا من خلالها مذاهبها وأدلتها، مناقشا لها.

منه نسخة خطية في مكتبة جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧/ ١١)، مكتبة البلدية بالإسكندرية، برقم (٩٩/ ٦) فنون، ومكتبة نور عثمانية، برقم (٥٩٣٧/ ٠٢)، مكتبة باريس برقم ٠١٢، مكتبة جامعة برنستن (مجموعة كاريت) برقم (٠١٤٩٦)، مكتبة

ليدن (هوتسما)، برقم (٩٩٣).

وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة (١٣٤٣ هـ)، ثم طبع في المطبعة المنيرية بالقاهرة، سنة (١٣٧٣ هـ) بتحقيق طه الزيني.

١٦ – (التذكرة):

هو مؤلف في التاريخ - كما يوهم ملخصه - أشار إليه ابن تغري بردي في (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨، إلا أنه كمل منه ثمانون مجلدا.

١٧ – (تراجم ملوك المغرب):

احتوى على بعض ترجمات ملوك المغرب العربيّ، وقد يكون مذكرات جمعها المقريزي - رحمه الله - من المصادر للانتفاع بها في بعض مؤلفاته.

١٨ – (تلقيح العقول والآراء، في تنقيح، أخبار الجلة الوزراء):

ذكره المقريزي - رحمه الله - في (الخطط): ١/ ٤٤٣، ٢/ ٢٢٣.

١٩ – (جني الأزهار من الروض المعصار):

منه نسخة خطية في مكتبة برلين، برقم (٦٠٤٩)، مكتبة فينه، برقم (١٢٦٦)، دار الكتب المصرية، (فهرس الدار): ٦/ ٢٥، مكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤١ هـ).

٢٠ – (حصول الإنعام والمير، في سؤال خاتمة الخير):

هي رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول سؤال العبد ربه - تعالى - أن يختم له ولأخيه المؤمن بخير، مستلهما ذلك من قول يوسف - عليه السلام - مناجيا ربه:{تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١].

٢١ – (الخبر عن البشر):

هو مؤلف ضخم، جعله المقريزي - رحمه الله - مدخلا لكتاب (إمتاع الأسماع)، مؤرخا من خلاله للخليقة حتى ظهور الإسلام، هادفا من وراء ذلك إلى التعريف بقبائل العرب، وتمييزها من سائر الأجناس، ليعرف لها حقها من المحبة والإعظام، والتجلة والإكرام لكونه هاشميًا، قرشيًا، عربيًا.

قال عنه المقريزي - رحمه الله: ثم لما رأيت فضل الله علي - بما علمني وفهمني - عظيما، ومنته وطوله - بما رزقني من كثرة الإشراف على مقالات الخليقة - جسيما، جعلته كتابا مستقلا، لاتساعه وكثرة فوائده، وشرف أوضاعه، وسميته:

(الخبر عن البشر): ورقة ٤ أ، مخطوطة تونس.

وترجع أهمية هذا الكتاب - كذلك - إلى احتوائه - فضلا عن ذلك - على مادة رئيسية، تكشف عن مفهوم المقريزي - رحمه الله - لموضوع (علم التاريخ)، وأقسامه، وإقراره بفوائده، وتحمسه للدفاع عنه.

ومنه/ نسخة خطية في ليدن، برقم ١٠٨٠٠، ونسخة في مكتبة أياصوفيا في الآستانة، تقع في ستة أجزاء متسلسلة، أرقام (٣٣٦٢) حتى (٣٣٤١)، وتشمل الأجزاء ١، ٤، ٥، ٦ (غير متسلسلة). (دفتر كتب خانة أياصوفيا): ص ٢٠٢، (دفتر فاتح كتبخانه سي): ص ٢٤٨.

٢٢ – (خلاصة التبر في كتاب السر):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (الخطط): ٢/ ٦٣.

٢٣ – (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة):

هو معجم في ترجمات أعيان عصر المقريزي - رحمه الله - أشار في مقدمته إلى دافعه لتأليفه، قائلا وبعد، فإنّي ما ناهزت من سنى العمر الخمسين، حتى فقدت معظم الأصحاب والأقربين، فاشتد حزني لفقدهم، وتنغص عيشي من بعدهم، فعزيت النفس عن لقائهم بتذكارهم، وعوضتها عن مشاهدتهم باستماع أخبارهم، وأمليت ما حضرني من أنبائهم في هذا الكتاب وسميته (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة).

له نسخة في مكتبة غوطا، المجلد الأول منها بخط المؤلف - رحمه الله -، ونسخة في الموصل، لدى الدكتور محمود الجليلي، في جزأين، تاريخهما (٨٧٨ هـ) وعن هذه النسخة الأخيرة تم نشر (٣٠٠) ترجمة - حيث يحتوي الكتاب على (٥٥٦) ترجمة - بعالم الكتب - بيروت سنة (١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م)، بتحقيق الدكتور محمد كمال الدين عز الدين علي، بعد تصديره بدراسة وافية عن المؤلف والكتاب بشكل موسوعي يستحق التقدير.

٢٤ – (الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية):

منه نسخة خطية في كمبرج، برقم (٣٦٥)، أشار إليه السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣.

٢٥ – (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك):

رسالة لطيفة الحجم يدور موضوعها حول التأريخ لمن حج من الخلفاء والملوك في خلافته أو ملكه، فرغ المقريزي - رحمه الله - من تصنيفها في ذي القعدة سنة (٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م)، مرتبا لها على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

- أما المقدمة، فقد أشار فيها إلى تسميته للكتاب، مهديا إياه إلى شخصية كبيرة في عصره، عزمت على الحج، لم يفصح عن اسمها.

- وأما الفصول، فقد أجمل في أولها الإشارة إلى (حجة الوداع)، لكونه هو الذي بين للناس معالم دينهم، مشيرا من خلال ذلك إلى بعض شعائر الحج والعمرة، كالقران، والتمتع، والهدي.

وجعل ثانيها من حج من الخلفاء في خلافته، مترجما من خلاله بترجمات قصيرة لثلاثة عشر خليفة، مؤرخا لحجهم.

وجعل ثالثها للترجمة لثلاثة عشر ملكا أو سلطانا ممن حج في ملكه أو سلطنته، منذ انقسمت الخلافة الإسلامية إلى دويلات يحكمها ملوك، وحتى عهد الأشرف شعبان - أحد سلاطين المماليك - مع التأريخ لحجهم.

- وأما الخاتمة، فقد أتت مقتضبة للغاية، تبين عن الفراغ من كتابته، وانتهاء مادته، على النحو التالي:

"... والله - سبحانه - هو أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم - والحمد لله رب العالمين).

منه له نسخة خطية في: مكتبة الإسكوريال (في أسبانيا)، برقم (١٧٧١)، مكتبة كمبرج، برقم (٤٤٢)، (٤٤٣)، مكتبة نور عثمانية، برقم (٦/ ٤٩٣٧).

٢٦ – (رسالة في حرص النفوس على الذكر):

رسالة لطيفة الحجم، أنشأها المقريزي - رحمه الله - هادفا من خلالها إلى الترغيب في عمل الخير، مقدما لموضوعه بقوله:

".. وبعد فهذه مقالة لطيفة، وتحفة سنية شريفة، في حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر، أسأل الله - تعالى - أن يجعل لنا ثناء حسنا في الصالحين، وأن يحبونا بالزلفى إلى يوم الدين بمنه وكرمه).

متبعا ذلك بموضوع الكتاب، وقد أشار من خلال مادته إلى أن البقاء من أعظم

وأحسن صفات الله - تعالى - في حين ليس للعبد من نفسه إلا العدم، والفاضل هو الذي يحرص على بقاء ذكره دائما، على النحو الوارد في القرآن الكريم علي لسان إبراهيم - عليه السلام -:{وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾} [الشعراء: ٨٤].

منه نسخة خطية في: خزانة ولي الدين في الآستانة، ضمن مجموع خطي يشمل خمس عشرة رسالة كلها للمقريزي - رحمه الله - برقم (٣١٩٥) راجع دفتر كتابخانه. ولي الدين، صحيفة (١٩٥)، مكتبة جامعة القاهرة برقم (١١/ ٢٦٢٤٧). وقد نشره في القاهرة الخانجي سنة (١٩٥٥) بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال.

منه نسخة خطية في خزانة ولي الدين في الآستانة، وقد جاء في (تاريخ آداب اللغة العربية) لجورجي زيدان: ٣/ ١٨٧، أن اسم هذا المخطوط: (مقالة لطيفة في حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر)، وأنه محفوظ في المتحف البريطاني في لندن.

٢٧ - (السلوك في معرفة دول الملوك):

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية (فهرس الدار): ٥/ ١٢٩، المكتبة الظاهرية بدمشق، مجلد رقم (٧٣٠٤)، مكتبة كوبريللي برقم (١١٣٧)، مكتبة بني جامع (ضمن المكتبة السليمانية في استامبول)، برقم (٨٨٧)، مكتبة باتنا في الهند، برقم ١/ ١٦٦ (٢٢٢٣)، مكتبة غوطا، برقم (١٦٢٠)، (١٦٢١)، مكتبة باريس، برقم (١٧٢٦)، (١٧٢٨)، مكتبة الفاتيكان، (٥/ ٧٢٥)، مكتبة جستربتي في دبلن، (فيها المجلد الثامن منه) برقم (٤١٠٢)، مكتبة المتحف البريطاني، الذيل: (٤٨٠).

طبع هذا الكتاب بكماله في القاهرة في أربعة أجزاء علي النحو التالي:

- الجزء الأول في ثلاثة أقسام، بتحقيق محمد زيادة (١٩٣٤ - ١٩٣٩).
- الجزء الثاني في ثلاثة أقسام، بتحقيق محمد زيادة (١٩٤١ - ١٩٥٨).
- الجزء الثالث في ثلاثة أقسام، بتحقيق سعيد عاشور (١٩٧٠ - ١٩٧٢).
- الجزء الرابع في ثلاثة أقسام، بتحقيق سعيد عاشور (١٩٧٢ - ١٩٧٣).

٢٨ - (شارع النجاة):

أشار السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، إلى أنه يشتمل على جميع ما اختلفت فيه البشر من أصول دياناتهم وفروعها، مع أدلتها، وتوجيه الحق منها، ذكره

المقريزي - رحمه الله - في (الذهب المسبوك)، ٥، ٧.

٢٩ – (شذور العقود في ذكر النقود):

رسالة لطيفة الحجم، انقسمت إلى مقدمة وخاتمة، فيما بينهما ثلاثة فصول.

- أما المقدمة فقد أشار فيها إلى موضوع الكتاب: «نبذة لطيفة في أمور النقود الإسلامية». وأنه أنشأه تلبية (للأمر العالي) الذي يرجح أن يكون شخصية كبيرة في بلاط المؤيد (شيخ المحمودي).

- وأما الفصل الأول فقد جعله للحديث عن (النقود القديمة)، التي كانت على وجه الدهر، وجعل الفصل الثاني للتعريف ب (النقود الإسلامية) - نشأتها وتطورها - وجعل الفصل الثالث للحديث عن (النقود المصرية)، وهو في هذه الفصول الثلاثة يشير إلى أنواع النقود، وأوزانها، وأعيرتها، وزيوفها، وما حدث فيها من التغيير والتبديل، على اختلاف عصورها.

منه نسخة خطية في: مكتبة نور العثمانية، برقم (٤٩٣٧)، مكتبة برلين، برقم (٦٠٢٤)، مكتبة ليدن، برقم (١٠١٢)، (١٠١٣)، مكتبة كمبرج، برقم (٤٧٥)، مكتبة الأسكوريال، برقم (١٧٧١).

وقد ظهرت لهذا الكتاب طبعات مختلفة:

- نشرها تيكسن في روستك (١٧٩٧ م).

- نشرها أحمد فارس الشديقان، مطبعة الجوائب إستامبول، (١٢٩٨هـ)، ضمن ثلاث رسائل.

- نشرها ماير، الإسكندرية (١٩٣٣).

- نشرها محمد آل بحر العلوم، النجف (١٩٣٨) ثم توالت طبعات لهذا الكتاب في النجف، فكانت الخامسة سنة (١٩٦٧).

- نشرها الأب أنستاس ماري الكرملي، ضمن كتابه (النقود العربية وعلم النميات، القاهرة (١٩٣٩ م).

٣٠ – (ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداريّ):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول صحابي جليل، هو (تميم بن أوس الداريّ) - رحمه الله - وكان نصرانيا، جاء إلى الرسول ، ورأى الرسول وأسلم، وروى الرسول عنه حديث (الجساسة والمسيخ الدجال)، فانفرد هو من دون

الصحابة بذلك، وكانت روايته من باب رواية (الفاضل عن المفضول، والمتبوع عن تابعه)، وقد استعرض المقريزي - رحمه الله - من خلال مادتها الحديث عن أنساب الناس وأنساب العرب، وقدوم وفد الداريين على رسول الله وإسلام تميم، وتحديثه - عليه السلام - عنه، وإقطاعه إياه قريتي (جبرون وعينون)، ولم يكن فتحهما حدث بعدا!! وما كان من أحوال تميم في الجاهلية والإسلام، معددا لمآثره، مؤرخا لوفاته بسنة أربعين للهجرة، مناقشا من خلال تلك الرسالة (قضية الهبة)، مناقشة فقهية قضائية، مختتما لها بالتعريف بما آل إليه مصير (جبرون وعينون) حتى وقته.

له نسخة خطية في خزانة ولي الدين بالآستانة. تم طبع هذا المخطوط تحت اسم (ضوء الساري في خبر تميم الداريّ)، بتحقيق الأستاذ محمد أحمد عاشور، في دار الاعتصام بالقاهرة وبيروت، سنة (١٣٩٢ هـ)، اعتمادا على نسختين خطيتين: الأولى منقولة من الخزانة الوليدية في الآستانة - لعلها نفس خزانة ولي الدين آنفة الذكر - ويدل على ذلك الرقم الذي بينه المحقق، فهو نفس رقم المجموع الذي منه (ضوء الساري)، والأخرى منقولة عن المكتبة الأهلية في باريس.

٣١ - (الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة):

رسالة لطيفة الحجم، استفاد المقريزي - رحمه الله - مادتها في مكة، أثناء مجاورته فيها سنة (٨٣٩ هـ / ١٤٣٦ م) من بعض القادمين عليه من أهل حضرموت، ابتدأها بمقدمة موجزة، أشار فيها إلى ذلك قائلا: «و بعد، فهذه جملة من أخبار وادي حضرموت، علقتها بمكة - شرفها الله تعالى - أيام مجاورتي بها في عام (تسعة وثلاثين وثمانمائة)، حدثني بها ثقات من قدم مكة من أهل حضرموت».

ثم أتبعها بوصف جغرافي موجز لبلاد حضرموت، وما تردد في بعض المصادر من الاختلاف في نسب (حضرموت)، وما شهرت به هذه البلاد من مزروعات أو حيوان (كالماشية والإبل)، مذيلا عليها بطائفة كبيرة من الروايات الشفهية، المتضمنة الكثير من الخرافات أو مستغربات الحدوث، مما وثق مؤرخنا به، كنحو قوله:

«وفي جبال ظفار قوم يقال لهم: القمر، أهل بادية، وقد جرت العادة في ظفار أنها تمطر ثلاثة أشهر متوالية ليلا ونهارا، مطرا غزيرا جدا فإذا أراد أحد أن يسافر في مدة المطر إلى جهة من الجهات، طلب واحدا من القمر، ودفع له مالا ليدفع عنه المطر، ثم سار معه والمطر نازل، فيصير عن يمينه وشماله ولا يصيبه هو ولا أحماله منه قطرة واحدة، حتى يبلغ حيث يريد.

له نسخة خطية في مكتبة جستربتي - برقم (٤١١٨/ ٠٢)، مكتبة نور العثمانية، برقم (٤٩٣٧/ ٤)، مكتبة ليدن، برقم (٨١٠)، مكتبة كمبرج، برقم (٦٥٤)، (٦٥٥)، معهد المخطوطات العربية في الكويت، برقم (٧٧٦/ ٠٢)، المصورة عن مخطوطة (شستربتي)، ومخطوطة ولي الدين في مصورتها المحتفظ بها لدى جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧)، وقد نشرها (نوسكوى) مع ترجمة لاتينية في بون سنة (١٨٦٦).

٣٢ – (عجائب تيمور):

٣٣ – (عقد جواهر الأسفاط في أخبار مدينة الفسطاط):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في صدر كتابه (اتعاظ الحنفاء): ١/ ٤ بقوله: «ضمنته ما وقفت عليه، وأرشدني الله - سبحانه - إليه من أحوال مدينة الفسطاط، منذ افتتح أرض مصر أصحاب رسول الله وصارت دار إسلام، إلى أن قدمت جيوش الإمام المعز لدين الله أبي تميم معد من بلاد المغرب، مع عبده وقائده وكاتبه، أبي الحسين جوهر القائد الصقلي، في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ونزلت في شمالي الفسطاط بالمناخ، وأسس مدينة القاهرة، وحل بها»، كما ذكره أيضا في (السلوك): ١/ ٢٨.

وقد اشتمل هذا المؤلف على فترة من تاريخ مصر الإسلامية، امتدت فيما بين الفتحين الإسلامي والفاطمي لها.

٣٤ – (قرض سيرة المؤيد لابن ناهض):

ذكره السخاوي في (الضوء اللامع): ٢/ ٢٣.

٣٥ – (ما شاهده وسمعه مما لم ينقل في كتاب):

يبدو أنه احتوى على كثير من النوادر التاريخية وغير التاريخية، مما عايشه المقريزي - رحمه الله - أو أخبر به، على النحو المدرك من قول السخاوي: «... ومن أعجب ما فيه أنه كان في رمضان سنة (إحدى وتسعين وسبعمائة) مارا بين القصرين، فسمع العوام يتحدثون أن الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك، واجتمع عليه الناس. قال: فضبطت ذلك اليوم فكان كذلك. (الضوء اللامع): ٢/ ٢٥ - ٢٤.

٣٦ – (مجمع الفرائد ومنبع الفوائد):

ذكره السخاوي، مشيرا إلى أنه يشتمل على العقل والنقل، المحتوى علي فني

الجد والهزل، بلغت مجلداته نحو المائة، بينما أشار ابن تغري بردي إلى أنه كمل منه نحو ثمانين مجلدا كالتذكرة.

(الضوء اللامع): ٢/ ٢٣، (المنهل الصافي): ١/ ٣٩٨.

٣٧ – (مختصر الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة لابن عدي):

منه نسخة خطية بخط المقريزي - رحمه الله - مؤلف هذا المختصر، كتبها سنة (٧٥٩ هـ)، وهي في مكتبة مراد ملا باستامبول، برقم (٥٦٩)، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة، برقم (٤٥٦) تاريخ. أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١١/ ٣١١.

٣٨ – (معرفة ما يجب لآل البيت النبوي من الحق على من عداهم):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول ما يجب لآل البيت النبوي على المسلمين من حبهم وإجلالهم، ونصرتهم ومودتهم، فرغ المقريزي - رحمه الله - من تأليفها في ذي القعدة سنة (٨٤١ هـ / ١٤٣٨ م) مرتبا لها على مقدمة، أشار فيها إلى دافعه إلى تأليفها قائلا:

«... وبعد فإنّي لما رأيت أكثر الناس في حق آل البيت مقصرين، وعما لهم من الحق معرضين، ولمقدارهم مضيعين، وبمكانتهم من الله - تعالى - جاهلين، أحببت أن أقيد في ذلك نبذة تدل على عظم مقدارهم، وترشد المتقي لله - تعالى - على جليل أقدارهم ليقف عند حده، ويصدق بما وعدهم الله ومن به عليهم من صادق وعده».

تتبعها فصول خمسة، شارحة من خلال أقوال أئمة اللغة والتفسير لخمس آيات قرآنية، مع ما اتصل بها من الأحاديث النبويّة، عالج موضوعة من خلالها، وهي قوله تعالى:

-{إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا} [الأحزاب: ٣٣].

-{وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ} [الطور: ٢١].

-{وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا} [الكهف: ٨٢].

-{جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ} [الرعد: ٢٣].

-{قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ} [الشورى: ٢٣].

مختتما لهذه الرسالة بعدد من الرؤى والحكايات الشفهية - التي أمده بها شيوخه

ورفقته - وتدور كلها حول الحث على حب آل البيت النبوي وتعظيمهم.

منه نسخة خطية في فينه، برقم (٨٩٠). طبع في دار الاعتصام، ط ٢ سنة ١٩٧٣ م بالقاهرة وبيروت بتحقيق محمد أحمد عاشور.

٣٩ – (المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية):

مؤلف علمي بحت يبحث في المعادن، أشار المقريزي - رحمه الله - من خلاله إلى كروية الأرض، وحركتها، وإحاطة الماء باليابسة من سائر جهاتها، والأجسام المتولدة عليها، وتكويناتها، وصفاتها، وأمكنة وجودها، والقيمة العلمية والمادية والطبية لها.

ومنه نسخة خطية في مكتبة نور عثمانية، برقم (٤٩٣٧/ ٩)، ومكتبة باريس، نسخة تاريخها (٨٤٢ هـ)، مكتبة كمبرج، برقم (١٠٨٢)، مكتبة جامعة القاهرة، برقم (٢٦٢٤٧/ ١٠).

٤٠ – (منتخب التذكرة في التاريخ):

مؤلف في التاريخ الإسلامي العام، اقتصر فيه المقريزي - رحمه الله - على ذكر العرب والفرس، دون غيرهم من الأمم المطيفة بهم في أطراف الأرض، اختصره من مؤلف أبسط منه سماه (التذكرة)، فكان ما أودعه في هذا المؤلف اللب منه.

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الدار): (٥/ ٣٦٨)، مكتبة باريس برقم (١٥١٤) عرب، ونسخة أخرى بدار الكتب المصرية، برقم (١٦٥٨)، تاريخ عن مخطوطة مكتبة باريس ذات الرقم (١٥١٤) عرب، وتقع في نحو ١٦٦ ورقة لطيفة الحجم، مزدوجة الصفحات، باستثناء أولها وآخرها، مسطرتها نحو أربعة عشر سطرا.

٤١ – (المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر):

يضم الفترة فيما بين سنتي (٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م)، (٥٥٣ هـ/ ١١٥٩ م)، انتقاه المقريزي - رحمه الله - في ربيع الأول للآثار الشرقية سنة (٨١٤ هـ/ ١٤١١ م).

طبع في القاهرة - المعهد الفرنسي للآثار الشرقية سنة (١٩٨١) بتحقيق أيمن فؤاد سيد.

٤٢ – (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار):

وتعرف بخطط المقريزي:

منها نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الخديوية):

(١/ ١٦٢)، المكتبة العمومية بدمشق، الأرقام (٣٤٣٧)، (٥٦٩٦)، (٥٦٩٧)، (٧٠٠٤)، مكتبة أياصوفيا بإستامبول، الأرقام (٣٤٧١)، (٣٤٨٤)، مكتبة طوب قبو سراي باستامبول، الأرقام (٢٩٤٧)، (٢٩٥٤)، مكتبة محمد الفاتح باستامبول برقم (٤٤٩٥)، (٤٤٩٩)،.. وغير ذلك.

طبع في مجلدين، بولاق (١٢٧٠ هـ)، وقد أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعه بالأوفست، طبع في أربعة أجزاء، مطبعة النيل - القاهرة (١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ)، طبعت منه خمسة أجزاء بتحقيق المستشرق الآثاري فييت، القاهرة (١٩١١ - ١٩٢٧) ولم تتم.

وظهرت لهذا الكتاب طبعات جزئية، نذكر منها:

- أخبار قبط مصر، وقد سبقت الإشارة إليه.

- (القول الإبريزي للعلامة المقريزي)، نشره مينا إسكندر، وهو يتضمن تاريخ الأقباط وأحوالهم - نقلا عن (خطط المقريزي).

٤٣ – (نبذ تاريخية):

ليس مؤلفا مستقلا - على ما يبدو - ولكنه ملتقطات مما جمعه المقريزي - رحمه الله - من المصادر، ليضمنه بعض مؤلفاته.

منه نسخة خطية بمكتبة بلدية الإسكندرية برقم (٢١٢٥ د/ ٢٥٩)، تقع في (٥٢) ورقة مقاسها نحو (١٣ ١٦ سم)، وعنها مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة برقم (٨٤٥) تاريخ.

٤٤ – (نحل عبر النحل):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول النحل، وما يتخلف منه من عسل وشمع، مستلهما منه العبرة والعظة لبني الإنسان، وقد رتبت على مقدمة وعشرة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فقد أشار فيها إلى موضوع الكتاب قائلا: (... وبعد، فهذا قول وجيز في ذكر النحل، وما أودع فيه البارئ - جلت قدرته - من غرائب الحكمة وعجائب

الصنع، ليعتبر أولو الأبصار، ويتذكر أرباب الاعتبار) وأما الفصول - فقد اتصلت بعلوم: الحيوان، واللغة، والتفسير، والحديث، والفقه، والطب، والبيطرة، والنبات، والاقتصاد، والتاريخ، والأدب، فيجمل المقريزي - رحمه الله - فيها الحديث عن النحل من الناحية الحيوانية، ذاكرا أسماءه، وألوانه، وأحجامه، وصفاته، وخلاياه، وآفاته، وعلاجها، وعسله، وأنواعه وأصنافه - وجامعه، (مشتاره) وآلاته التي يستعين بها في جمعه، وما يرعاه النحل من أزهار وأنوار، وما ينتجه من شمع، مفصحا عن مركزه الاقتصادي في مصر الإسلامية، وما ورد في النحل والعسل من الآيات القرآنية، والأحاديث النبويّة، وأقوال الحكماء، والفقهاء والمفسرين، وما اتصل بالشمع من الحوادث التاريخية، سواء بالاستصباح (الإضاءة) به لدى الخلفاء، والسلاطين، والفقهاء، أو باستخدامه في القصور، والمواكب السلطانية، وحفلات العرس والزواج، أو بالختم به على تركات الموتى من أولاد الخلفاء، مختتما بذلك بما أنشئ في (الشمع) من أشعار وأما الخاتمة فقد أشار فيها إلى انتهاء مادة الكتاب باكتماله، قائلا:

(... تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين، سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ).

منه نسخة خطية في: مكتبة نور عثمانية برقم (٤٩٣٧/ ٠٣)، مكتبة كمبرج، برقم (٦٦٤)، (٩٢٣)، مكتبة جستربتي في دبلن، برقم (٤١١٨/ ٠٢)، وقد طبع في القاهرة، مكتبة الخانجي، سنة (١٩٤٦) بتحقيق د. جمال الدين الشيال.

٤٥ - (النـزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم):

رسالة لطيفة الحجم، يدور موضوعها حول استئثار بني أمية وبني هاشم بالخلافة من دون (عليّ بن أبي طالب) وبنيه، أشار المقريزي - رحمه الله - من خلالها إلى ما كان من منافرة ومنافسة بين بني أمية وبني هاشم قبل الإسلام وبعده.

منه نسخة خطية في: دار الكتب المصرية، (فهرس الدار) ٥/ ٣٨٥، المكتبة الظاهرية بدمشق، برقم (٣٧٣١)، مكتبة نور عثمانية، برقم (٤٩٣٧)، ومكتبة ستر اسبورج، مكتبة ليدن، برقم (٨٨٥)، مكتبة فينة، برقم (٨٨٦) وقد طبع هذا الكتاب مرتين:

الأولى في ليدن، نشره فوس، سنة (١٨٨٨)، والثانية في القاهرة سنة (١٩٢٧) ثم طبع عدة طبعات آخرها بدار المعارف - القاهرة - سنة (١٩٨٨) بتحقيق الدكتور حسين مؤنس. وقد أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٣٥٥.

٤٦ – (النحل وما فيه من غرائب الحكمة):

منه نسخة خطية في مكتبة جامعة كمبرج، راجع (تاريخ آداب اللغة العربية) جورجي زيدان، ٣/ ١٧٨، فقرة ١٢.

٤٧ – (نهاية الجمع لأخبار القراءات السبع):

أشار إليه المقريزي - رحمه الله - في (إمتاع الأسماع): ١٢/ ٣٢ ولم أقف له على مصدر آخر يشير إلى نسخ منه مخطوطة أو مطبوعة.

من هذا العرض الموجز لمجهودات المقريزي - رحمه الله - في الكتابة التاريخية، نجد أنه قد ألح من خلالها على التوكيد على ثلاث صفات امتاز بها، وهي:

(مصريته) و(عروبته) و(إسلامه).

أما مصريته، فتبدو في تحمسه للتأريخ لمصر في أطوارها المختلفة، فيما قبل الإسلام وبعده، حيث أنشأ فيها مؤلفا مجملا، لتاريخها، وخططها، وعمرانها - منذ القدم وحتى وفاته - وهو:

إمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع - (١ / ٢٦)

(المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، ثم عمد إلى تفصيل أكثر، أجمل فيه بالتأريخ لمصر الإسلامية، منذ الفتح الإسلامي لها وإلي قبيل وفاته، في عدة مؤلفات متتابعة، وهي: (عقد جواهر الأسفاط) و(اتعاظ الحنفاء) و(السلوك) و(المقفى) وأما عروبته، فقد كانت دافعا قويا لديه إلى إنشاء عدة مؤلفات، منها (الخبر عن البشر) و(البيان والإعراب) و(تراجم ملوك المغرب) و(الطرفة الغريبة).

وأما إسلامه، فيتبدى - فضلا عن العاطفة الدينية الجياشة، المبثوثة في سائر مؤلفاته - في (إمتاع الأسماع)، وقد جعله تاريخا مجملا للرسول وسيرته، و(النزاع والتخاصم) وهو مبحث في الخلافة، و(التذكرة) و(منتخبها) و(الدرر المضيئة) و(الإمام).

وقد جعل من هذه المؤلفات تاريخا عاما للدولة الإسلامية في مختلف أطوارها

وأمصارها. بل إن أكثر رسائله ومؤلفاته الموجزة، المفردة بالتأليف في موضوع بعينه، تنزع إلى أي من هذه الصفات الثلاث [٢].

* * *

(٢) مقدمة تحقيق كتاب فضل آل البيت عليهم السلام تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ٧٦٦ هـ - ٨٤٥ هـ، تحقيق السيد علي عاشور، ضيف الله بن يحي الزهراني،

مصادر السيرة النبوية، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، مقدمة تحقيق كتاب إمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع لتقى الدين أحمد بن على المقريزى (م ٨٤٥)

تحقيق: محمد عبد الحميد النميسى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعه: الأولى، ١٤٢٠هـ /١٩٩٩م.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

" قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ".

فسبحان الله من إله حكيم قادر، ومليك مقتدر قاهر، يعطي العاجز الحقير، ويمنع البطل ذا الأيد الكبير، ويرفع الخامل الذليل، ويضع ذا العز المنيع والمجد الأثيل، ويعز المحتقر الطريد المجفو الشريد، ويذل أولى الحد الحديد، والعد العديد، وأرباب الألوية والبنود، ومالكي أزمة العساكر والجنود، ويؤتى منه من لم يكن شيئًا مذكورا، ولا عرف له أبا نبيها وجدا مشهورًا، بل نشأ كلاً على مولاه وخادما لسواه، تجبهه وتشنؤه الناس، ولا يرعاه سائر الأجناس، لا يقدر على نفع نفسه فضلا عن الغير، ولا يستطيع دفع ما ينزل به من مساءة وضير، عجزا وشقاء وخمولا واختفاء، وينزع نعت الملك ممن تهابه أسد الشرى في غِيلها، وتخضع لجلالته عتاة الأبطال بقضها وقضيضها، وتخنع لخنزوانة سلطانه حماة الكماة بجمعها وجميعها، وتذل لسطوته ملوك الجبابرة وأقيالها، ويأتمر بأوامره العساكر الكثيرة العدد، ويقتدي بعوائده الخلائق مدى الأبد.

والحمد لله على حالتي منعه وعطائه، وابتلائه وبلائه، وسرائه وضرائه، ونعمه وبأسائه، أهل الثناء والمجد، ومستحق الشكر والحمد: " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون"، " بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون " ولا إله إلا الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي " لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " والله أكبر، " لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء " ولا تدرك من عظمته العقول إلا ما أخبر به عنه الرسل والأنبياء. وصلى الله على نبينا محمد الذي أذهب الشرك من الأكاسرة، ومحا بشريعته عظماء الروم القياصرة، وأزال بملته الأصنام والأوثان، وأخمد بظهوره بيوت النيران، وجمع له أسود العرب وقد كانت في جزيرتها متفرقة، ولم ببركته شعثها بعدما غبرت زمانًا وهي متمزقة، وألف قلوبها على موالاته وطاعته، وحبب إليها المبادرة إلى مبايعته على الموت ومتابعته، فتواصلوا بعد القطعية والتدابر، وتحابوا في الله كأن لم ينشأوا على البغضاء والتنافر، حتى صاروا باتباع ملته،

والاقتداء بشريعته، من رعاية الشاء والبعير، إلى سياسة الجم الغفير، وبعد اقتعاد سنام الناقة والقعود، وملازمة بيت الشعر والعمود، وأكل القصوم والشيح، ونزول القفر الفسيح، إلى ارتقاء المنابر والسرير، وتوسد الأرائك على الحرير، وارتباط المسومة الجياد، واقتناء ما لا يحصى من الخدم والعتاد، بما فتح الله عليهم من غنائم ملوك الأرض، الذين أخذوهم بالقوة والقهر، وحووا ممالكهم بتأييد الله لهم والنصر، وأورثوها أبناء أبنائهم، وأحفادهم وأحفاد أحفادهم. فلما خالفوا ما جاءهم به رسولهم من الهدى، أحلهم الرزايا المجيحة والردى، وسلط عليهم من رعاع الغوغاء وآحاد الدهماء من ألحقهم بعد الملك بالهلك، وحطهم بعد الرفعة، وأذلهم بعد المنعة، وصيرهم من رتب الملوك إلى حالة العبد المملوك، جزاء بما اجترحوا من السيئات، واقترفوا من الكبائر الموبقات، واستحلوا من الحرمات، واستهواهم به الشيطان من اتباع الشهوات، وليعتبر أولو البصائر والأفهام، ويخشى أهل النهى مواقع نقم الله العزيز ذي الانتقام، لا إله إلا هو سبحانه.

أما بعد، فإنه لما يسر الله وله الحمد، بإكمال كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط، وكتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء، وهما يشتملان على ذكر من مَلَكَ مصر من الأمراء والخلفاء، وما كان في أيامهم من الحوادث والأنباء، منذ فتحت إلى أن زالت الدولة الفاطمية وانقرضت، أحببت أن أصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية، والسلاطين المماليك التركية والجركسية، في كتاب يحصر أخبارهم الشائعة، ويستقصي أعلامهم الذائعة، ويحوى أكثر ما في أيامهم من الحوادث والمجريات، غير معتن فيه بالتراجم والوفيات، لأني أفردت لها تأليفًا بديع المثال بعيد المنال، فألفت هذا الديوان، وسلكت فيه التوسط بين الإكثار الممل والاختصار المخل، وسميته كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. وبالله أستعين فهو المعين، وبه أعتضد فيما أريد وأعتمد، فإنه حسبي ونعم الوكيل.

* * *

سنة ثمان وستين وخمسمائة

فيها خرج السلطان صلاح الدين بعساكره يريد بلاد الكرك والشوبك، فإنه كان كلما بلغه عن قافلة أنها خرجت من الشام تريد مصر خرج إليها ليحميها من الفرنج، فأراد التوسيع في الطريق وتسهيلها، وسار إليها وحاصرها، فلم ينل منها قصدا وعاد. وفيها جهز صلاح الدين الهدية إلى السلطان نْور الدين، وفيها من الأمتعة والآلات الفضْية والذهبية والبلور واليشم أشياء يعز وجود مثلها، ومن الجواهر واللآلئ شيء عظيم القدر، ومن العين ستون ألف دينار، وكثير من الغرائب المستحسنة، وفيل وحمار عتابي، وثلاث قطع بلخش فيها ما وزنه نيف وثلاثون مثقالا، وكان ذلك في شوال. وفيها خرج العبيد من بلاد النوبة لحصار أسوان، وبها كنز الدولة، فجهز السلطان الشجاع البعلبكي في عسكر كبير فسار إلى أسوان، وقد رحل العبيد عنها، فتبعهم ومعه كنز الدولة، وواقعهم وقتل منهم كثيرا، وعاد إلى القاهرة.

وفيها سار الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين تورانشاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين، إلى بلاد النوبة، وفتح قلعة إبريم وسبى وغنم، وعاد إلى أسوان، وأقطع إبريم رجلا يعرف بإبراهيم الكردي، فسار إليها في عدة من الأكراد، وانبثوا يشنون الغارات على بلاد النوبة، حتى امتلأت أيديهم بالأموال والمواشي بعد فقر وجهد فوافى كتاب ملك النوبة إلى شمس الدولة وهو بقوص مع هدية، فأكرم رسوله وخلع عليه، وأعطاه زوجين من نشاب، وقال له: " قل للملك: مالك عندي جواب إلا هذا " وجهز معه رسولا ليكشف له خبر البلاد، فسار إلى دنقلة وعاد إليه، فقال: " وجدت بلادا ضيقة، ليس بها من الزرع سوى الذرة ونخل صغير منه إدامهم، ويخرج الملك وهو عريان على فرس عرى، وقد التف في ثوب أطلس، وليس على رأسه شعر. فلما قدمت عليه وسلمت ضحك وتغاشى، وأمر بي فكويت على يدي هيئة صليب، وأنعم علي بنحو خمسين رطلا من دقيق وليس في دمقلة عمارة سوى دار الملك، وباقيها أخصاص ". وفيها عظم هم السلطان نور الدين بأمر مصر، وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد، وأكثر من مراسلته بحمل الأموال، ثم بعث بوزيره الصاحب موفق الدين خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني إلى مصر، لعمل حساب البلاد، وكشف أحوالها، وتقرير القطيعة على صلاح الدين في

كل سنة، واختيار طاعته، فقدم إلى القاهرة وكان من أمره ما يأتي ذ كره إن شاء الله.

وفيها مات أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب نجم الدين الملقب بالملك الأفضل أبي سعيد الكردي، والد السلطان صلاح الدين يوسف وذلك أنه خرج من باب النصر بالقاهرة، فألقاه الفرس إلى الأرض يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي الحجة، فحمل إلى داره في تاسع عشره وقيل لثلاث بقين منه، فقبر عند أخيه أسد الدين شيركوه، ثم نقلا إلى المدينة النبوية في سنة ثمانين وخمسمائة.

* * *

سنة تسع وستين وخمسمائة

فيها وصل إلى القاهرة موفق الدين أبو البقاء خالد بن محمد بن نصر بن صغير المعروف بابن القيسراني من عند السلطان الملك العادل نور الدين، مطالبا لصلاح الدين بالحساب عن جميع ما أخذ من قصور الخلفاء وحصل من الارتفاع. فشق ذلك عليه وقال: " إلى هذا الحد وصلنا؟ " وأوقفه على ما تحصل له، وعرض عليه الأجناد، وعرفه مبالغ إقطاعاتهم وجامكياتهم، ورواتب نفقاتهم ثم قال: " وما يضبط هذا الإقليم العظيم إلا بالمال الكبير، وأنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم معتادون بالنعمة والسعة، وقد تصرفوا في أماكن لا يمكن انتزاعها منهم، ولا يسمحون بأن ينقص من ارتفاعها "، وأخذ يجمع المال.

وفيها سار الأمير شمس الدولة تورانشاه، أخو السلطان صلاح الدين، إلى اليمن وذلك لشدة خوف صلاح الدين وأهله من الملك العادل نور الدين أن يدخل إلى مصر وينتزعهم منها، فأحبوا أن يكون لهم مملكة يصيرون إليها. وكان اختيارهم قد وقع على النوبة، فلما سار إليها لم تعجبه وعاد(٣).

وفيها اجتمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد، وأن يفتكوا بصلاح الدين، وكاتبوا الفرنج، منهم القاضي المفضل ضياء الدين نصر الله بن عبد الله ابن كامل القاضي، والشريف الجليس، ونجاح الحمامي، والفقيه عمارة بن

---

(٣) هذه إسقاطات وقع فيها المقريزي ـ ربما عن دون قصد ـ هدفها الإساءة إلى صلاح الدين الأيوبي، وإظهاره بمظهر الخارج عن طاعة سيده نور الدين محمود، كما أنها تهدف إلى تشويه صورة كلا من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والإساءة إلى شخصيهما بتصوير العلاقة بينهما بصورة العداء والبغضاء، وقد فندنا تلك المزاعم في كتابنا تاريخ الدولة الأيوبية. المختصر.

علي اليماني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي الأعز سلامة العوريس متولي ديوان النظر ثم القضاء، وداعي الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى والواعظ زين الدين بن نجا، فوشى ابن نجا بخبرهم إلى السلطان، وسأله في أن ينعم عليه بجميع ما لابن كامل الداعي من الدور والموجود كله، فأجيب إلى ذلك، فأحيط بهم وشنقوا في يوم السبت ثاني شهر رمضان بين القصرين، فشنق عمارة وصلب فيما بين بابي الذهب وباب البحر، وابن كامل رأس الخروقيين التي تعرف اليوم بسوق أمير الجيوش، والعوريس على درب السلسلة، وعبد الصمد وابن سلامة وابن المظبي ومصطنع الدولة والحاج ابن عبد القوي بالقاهرة، وشنق ابن كامل القاضي بالقاهرة يوم الأربعاء تاسع عشر شوال، وشنق أيضا شبرما وأصحابه وجماعة من الأجناد والعبيد والحاشية وبعض أمراء صلاح الدين، وقبض صلاح الدين سائر ما وجد عندهم من مال وعقار، ولم يمكن ورثتهم من شيء البتة، وتتبع من له هوى في الدولة الفاطمية، فقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر ورجال السودان إلى أقصى بلاد الصعيد. وقبض على رجل يقال له: قديد بالإسكندرية، من دعاة الفاطميين، يوم الأحد خامس عشر رمضان، وقبض على كثير من السودان، وكووا بالنار في وجوههم وصدورهم.

وفيها مات السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي، في يوم الأربعاء حادي عشر شوال، بعلة الخوانيق، وكان قد تجهز لأخذ مصر من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد خطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن. وقام من بعده ابنه الصالح إسماعيل وعمره إحدى عشرة سنة، فخطب له السلطان صلاح الدين بمصر، وضرب السكة باسمه.

* * *

سنة سبعين وخمسمائة

وفيها جمع كنز الدولة والي أسوان العرب والسودان، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية، وأنفق في جموعه أموالا جزيلة، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم، فقتل عدة من أمراء صلاح الدين. وخرج في قرية طود رجل يعرف بعباس بن شادي، وأخذ بلاد قوص، وانتهب أموالها. فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل في جيش كثيف، ومعه الخطير مهذب بن مماتي، فسار وأوقع بشادي وبدد جموعه وقتله، ثم سار فلقيه كنز الدولة بناحية طود، وكانت بينهما حروب فر منها

كنز الدولة، بعدما قتل أكثر عسكره. ثم قتل كنز الدولة في سابع صفر، وقدم العادل إلى القاهرة في ثامن عشريه.

وفيها ورد الخبر على السلطان بسير الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن نور الدين إلى حلب، ومصالحته للسلطان سيف الدين غازي صاحب الموصل، فأهمه وخرج يريد المسير إلى الشام فنزل ببركة الجب أول صفر، وسار منها في ثالث عشر ربيع الأول، على صدر وأيلة، في سبعمائة فارس. واستخلف على ديار مصر أخاه الملك العادل. ونزل بصرى وخرج منها، فنزل الكسوة يوم الأحد تاسع عشري ربيع الأول، وخرج الناس إلى لقائه، فدخل إلى دمشق يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر، وملكها من غير مدافع. وأنفق في الناس مالا جزيلا، وأمر فنودي بإطابة النفوس وإزالة المكوس، وإبطال ما أحدث بعد نور الدين محمود من القبائح والمنكرات والضرائب، وأظهر أنه إنما جاء لتربية الصالح بن نور الدين، وأنه ينوب عنه ويدبر دولته، وكاتب الأطراف بذلك. وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع، فأنزل بها أخاه ظهير الإسلام طغتكين بن أيوب، وبعث بالبشارة إلى القاهرة، وخرج مستهل جمادى الأولى، فنازل حمص حتى تسلمها في حادي عشرة، وامتنعت عليه قلعتها، فأقام على حصارها طائفة، وسار إلى حماة فنزل عليها في ثالث عشريه، وبها عز الدين جرديك، فسلمها إليه.

وسار صلاح الدين إلى حلب، وبعث إلى الصالح إسماعيل في الصلح مع جرديك، فأبى أصحابه ذلك، وقبضوا على جرديك وقيدوه، فبلغ ذلك صلاح الدين، وقد سار عن حماة يريد حلب، فعاد إليها. ثم سار منها إلى حلب، ونزل حبل جوش ثالث جمادى الآخرة، واستعد أهل حلب وخرجوا لقتاله، وقاتلوه قتالا شديدا إلى أول رجب. فرحل صلاح الدين يريد حمص، وقد بلغه مسير القومص ملك الفرنج بطرابلس، بمكاتبة أهل حلب، وأنه منازل لحمص. فلما تعب من حمص عاد القومص إلى بلاده، فنازل صلاح الدين قلعتها، ونصب المجانيق عليها إلى أن تسلمها بالأمان، في حادي عشري شعبان، وسار إلى بعلبك، حتى تسلم قلعتها في رابع رمضان، وعاد إلى حمص. وكانت بينه وبن أصحاب الصالح وقعة على قرون حماة، في يوم الأحد تاسع عشرة، انتصر فيها صلاح الدين، وهزمهم وغنم كل ما معهم، ولم يقتل فيها أكثر من سبع أنفس، وسار حتى نزل على حلب، وقطع الخطبة للصالح، وأزال اسمه عن السكة في بلاده، فبعث أهل الصالح إليه يلتمسون منه الصلح، فأجاب إليه على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها، واستزاد منهم المعرة وكفر

طاب، وكتبت نسخة يمين وعليها خط صلاح الدين، بعدما حلف وعاد إلى حماة.

وكان صلاح الدين قد كتب إلى بغداد يعدد فتوحاته وجهاده للفرنج، وإعادته الخطبة العباسية بمصر واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى بلاد اليمن كلها، وأنه قدم إليه في هذه السنة وفد من سبعين راكبا، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا. وطلب صلاح الدين من الخليفة تقليد مصر واليمن والمغرب والشام، وكل ما يفتحه بسيفه. فوافته بحماة رسل الخليفة المستضيء بأمر الله، بالتشريف والأعلام السود، وتوقيع بسلطنة بلاد مصر الشام وغيرها. فسار ونزل على بعرين، ويقال: بارين، وحاصر حصنها حتى تسلمه في العشرين منه، ورجع إلى حماة.

وسار صلاح الدين إلى دمشق ثم رحل عنها، فنزل مرج الصفر ووافته به رسل الفرنج في طلب الهدنة، فأجابهم إليها بشروط اشترطها.

* * *

سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

وفيها تجهز الحلبيون لقتال صلاح الدين، فاستدعى عساكر مصر، فلما وافته بدمشق في شعبان سار في أول رمضان، فلقيهم في عاشر شوال. وكانت بينهما وقعة تأخر فيها السلطان سيف الدين غازي صاحب الموصل، فظن الناس أنها هزيمة، فولت عساكرهم، وتبعهم صلاح الدين، فهلك منهم جماعة كثيرة، وملك خيمة غازي، وأسر عالما عظيما، واحتوى على أموال وذخائر وفرش وأطعمة وتحف تجل عن الوصف. وقدم عليه أخوه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن، فأعطاه سرادق السلطان غازي بما فيه من الفرش والآلات، وفرق الإسطبلات والخزائن على من معه، وخلع على الأسرى وأطلقهم. ولحق سيف الدين غازي بمن معه، فالتجؤوا جميعا لحلب، ثم سار إلى الموصل وهو لا يصدق أنه ينجو، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل. ورحل صلاح الدين ونزل على حلب في رابع عشر شوال، فأقام عليها إلى تاسع عشره، ورحل إلى بزاعة، وقاتل أهل الحصن حتى تسلمه. وسار إلى منبج، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشريه، ولم يزل يحاصرها أياما حتى ملكها، وأخذ من حصنها ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية والأسلحة ما يناهز ألفي ألف دينار. ورحل إلى عزاز، وحاصرها من يوم السبت رابع ذي القعدة إلى حادي عشر ذي الحجة، فتسلمها وأقام فيها من يثق به،

وعاد إلى حلب.

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرة: وثب عدة من الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين، فظفر بهم بعدما جرحوا عدة من الأمراء والخواص. ثم سار إلى حلب فنزل عليها في سادس عشره، وأقطع عسكره ضياعها، وأمر بجباية أموالها، وضيق على أهل حلب من غير قتال، بل كان يمنع أن يدخلها أحد أو يخرج منها.

* * *

سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

فلما كان رابع المحرم سنة اثنتين وسبعين: ركب العسكران وكانت الحرب، فقتل جماعة من أصحاب صلاح الدين. ثم تقرر الصلح بينه وبن الملك الصالح، على أن يكون للصالح حلب وأعمالها. ورحل صلاح الدين في عاشره، فنازل مصياف، وفيها راشد الدين سنان بن سلمان بن محمد، صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدم الباطنية، وإليه تنسب الطائفة السنانية، ونصب عليها المجانيق والعرادات من ثالث عشريه إلى أيام، ثم رحل ولم يقدر عليهم، وقد امتلأت أيدي أصحابه بما أخذوه من القرى.

وفيه أغار الفرنج على البقاع فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم من بعلبك، فأوقع بهم وقتل منهم وأسر. وخرج إليهم المعظم شمس الدولة من دمشق فلقيهم بعين الحر، وأوقع بهم، ثم سار إلى حماة وبها صلاح الدين، فوافاه فى الثاني من صفر. ثم سار السلطان منها ودخل دمشق سابع عشره، فأقام بها إلى رابع شهر ربيع الأول، وخرج منها إلى القاهرة، واستخلف على دمشق أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، فوصل إليها لأربع بقين منه.

وفيها أبطل السلطان المكس المأخوذ من الحجاج في البحر إلى مكة على طريق عيذاب وهو سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان، وكانوا يؤدون ذلك بعيذاب أو بجدة، ومن لم يؤد ذلك منع من الحج، وعذب بتعليقه بأنثييه، وعوض أمير مكة عن هذا المكس بألفي دينار، وألف أردب قمح، سوى إقطاعات بصعيد مصر وباليمن، وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه إلى جدة.

* * *

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

وخرج السلطان من القاهرة، لثلاث مضين من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، لجهاد الفرنج. وسار إلى عسقلان فسبى وغنم وقتل وأسر ومضى إلى الرملة، فاعترضه نهر تل الصافية في يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، فازدحم الناس بأثقالهم عليه وأشرف الفرنج عليهم، ومقدمهم البرنس أرناط صاحب الكرك في جموع كثيرة، فانهزم المسلمون وثبت السلطان في طائفة، فقاتل قتالا شديدا، واستشهد جماعة وأخذ الفرنج أثقال المسلمين، فمر بهم في مسيرهم إلى القاهرة من العناء ما لا يوصف، ومات منهم ومن دوابهم كثير، وأسر الفرنج جماعة منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري. ودخل السلطان إلى القاهرة منتصف جمادى الآخرة، لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج، وقطع أخبار جماعة من الأكراد، من أجل أنهم كانوا السبب فى هذه الكسرة.

وفيها نزل الفرنج على حماة، فقاتلهم الناس أربعة أيام حتى رحلوا عنها، ونزلوا على حارم فحاصروها أربعة أشهر، ثم رحلوا إلى بلادهم.

وفيها أطلق شرف الدين قراقوش التقوى، وسار إلى أوجلة وغرها من بلاد المغرب. وخرج السلطان في سادس عشري شعبان سنة ثلاث وسبعين من القاهرة يريد الشام، واستخلف بديار مصر أخاه العادل، فلم يزل مقيما على بركة الجب إلى أن صلى صلاة عيد الفطر. فبلغه نزول الفرنج على حماة، فأسرع في المسير حتى دخل دمشق في رابع عشري شوال، فرحل الفرنج عن حماة. ووافته بدمشق رسل الخليفة بالتشريفات.

وفيها سار الفرنج إلى قلعة صدر، وقاتلوا من بها فلم ينالوا قصدا، فساروا يريدون الغارة على ناحية فاقوس، ثم عادوا بنية الحشد والعود. وفيها عصى شمس الدين بن المقدم بمدينة بعلبك على السلطان.

وفيها مات الأمير شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، خال السلطان صلاح الدين ونائب حماة، في سابع عشري جمادى الآخرة بحماة، وحمل إلى حلب فدفن بها، وكان شجاعا عاقلا سيوسا ممدحا.

* * *

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

وفى أوائل شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين، هجم العدو من الفرنج على مدينة حماة، فنهض إليهم المسلمون وأسروا مقدمهم في جماعة، وبعثوا بهم إلى السلطان بدمشق، فضرب أعناقهم.

وفيها أغار أبرنس مالك الفرنج بأنطاكية على شيزر، وغدر القومص ملك طرابلس بالتركمان.

* * *

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ودخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة والسلطان مواصل الإغارة على بلاد الفرنج، وكان نازلا على بانياس، وسرح العساكر ومقدمها عز الدين فرخشاه بن أيوب، فأكثر من قتلهم وأسرهم. وفتح بيت الأحزان في رابع عشري ربيع الآخر، بعد قتال وحصار، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة، وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها، وأسر عدة نحو السبعمائة، وخرب الحصن حتى سوى به الأرض، وسد البئر التي كانت به، وعاد بعدما أقام عليه أربعة عشر يوما، فأغار على طبرية وصور وبيروت ثم رجع إلى دمشق، وقد مرض كثير من العسكر ومات عدة من الأمراء.

وفي يوم الأحد ثامن المحرم: ركب السلطان ومعه صمصام الدين أجك والى بانياس في عسكره، فلقيه الفرنج في ألف رمح وعشرة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل، فاقتتلوا قتالا كثيرا انهزم فيه الفرنج، وركب المسلمون أقفيتهم يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل، وعاد السلطان إلى مخيمه، وقد مضى أكثر الليل، وعرض الأسرى، فقدم أولهم بادين بن بارزان، ثم أود مقدم الداوية، وابن القومصية، وأخو صاحب جبيل في آخرين، فقيدوا بأجمعهم وهم نحو المائتين وسبعين، وحملوا إلى دمشق فاعتقلوا بها، وعاد السلطان إلى دمشق، ففدى ابن بارزان بعد سنة بمائة وخمسين ألف دينار وألف أسير من المسلمين، وفدى ابن القومصية بخمسة وخمسين ألف دينار صورية، ومات أود فأخذت جيفته بأسير أفرج عنه. وقدم الخبر بأن الملك

المظفر تقي الدين أوقع بعسكر قلج أرسلان صاحب الروم السلجوقية فهزمهم وأسر منهم جماعة، فكتب السلطان البشائر بظفره بالفرنج على مرج عيون وبظفر أخيه بعسكر الروم وسيرها إلى الأقطار فأتته تهاني الشعراء من الأمصار، ثم اهتم السلطان بأمر بيت الأحزان، وكتب إلى الفرنج يأمرهم بهدمه فأبوا، فراجعهم مرة ثانية فطلبوا منه ما غرموا عليه، فبذل لهم حتى وصلهم إلى مائة ألف دنيار فلم يقبلوا. فكتب حينئذ إلى التركمان وأجناد البلاد يستدعيهم، وحمل إليهم الأموال والخيول والتشاريف، فقدم إليه خلق كثر، وسار الملك المظفر من حماة، فقدم دمشق أول شهر ربيع الآخر، وقد تلقاه السلطان، ثم سار السلطان من دمشق يوم الخميس خامسه، في عسكر عظيم، ونزل على حصن بيت الأحزان يوم الثلاثاء حادي عشره، وكانت قلعة صفد للداوية، فأمر بقطع كروم ضياع صفد، وحاصر الحصن ونقبه من جهات، وحشاه بالحطب وأحرقه، حتى سقط في رابع عشريه، وأخذه فقتل من فيه وأسرهم، ووجد فيه مائة أسير من المسلمين، فقتل عدة من أسرى الفرنج، وبعث باقيهم في الحديد إلى دمشق، وأخرب الحصن حتى سوى به الأرض، فكانت إقامته عليه أربعة عشر يوما وعاد إلى دمشق، فمدحه عدة من الأمراء والشعراء وهنأوه بالفتح.

وفيها أغار عز الدين فرخشاه على صفد فأكثر من القتل والسبي وأحرق الربض في رابع عشر ذي القعدة، وعاد إلى دمشق.

وفيها مات الخليفة المستضيء بأمر الله أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد، يوم الجمعة لاثنتي عشرة مضت من شوال، وكانت خلافته عشر سنين غير أربعة أشهر. واستخلف من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد، فخرج الشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل من بغداد رسولا إلى الملوك وإلى السلطان صلاح الدين وسار معه إلى مصر شهاب الدين بشير الخاص كما يأتي ذكره.

* * *

ست وسبعين وخمسمائة

ودخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة وفيها سار السلطان إلى حرب عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وعاد بغير قتال، فدخل دمشق أول شهر رجب.

وفيها مات السلطان سيف الدين غازي بن السلطان قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل في ثالث صفر، وجلس أخوه عز الدين مسعود مكانه، فكتب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يسأل أن يفوض إليه، فوصل شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحمن وشهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف في رجب، فتلقاهم السلطان وترجل لهم، ونزلوا له وبلغوه سلام الخليفة، فقبل الأرض، ودخل دمشق بالخلع، وأعاد الجواب مع بشير، وصحبته ضياء الدين الشهرزورى. وسار السلطان إلى بلاد الأرمن لقمع ملكهم، فأوغل فيها وأطاعه ملكهم، ثم عاد بعدما وصل إلى بهسنا وأحرق حصنا وخربه، وخرج من دمشق يريد مصر في ثامن عشر رجب، ومعه شيخ الشيوخ صدر الدين، فوصل إلى القاهرة ثالث عشر شعبان، وخرج شيخ الشيوخ إلى مكة في البحر، وعاد منها إلى بغداد.

* * *

سنة سبع وسبعين وخمسمائة

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة في محرم خرج الأمر بالحوطة على مستغلات العربان بالشرقية، وأمروا بالتعدية إلى البحيرة، ووقعت الحوطة على إقطاع جذام وثعلبة، لكثرة حملهم الغلال إلى بلاد الفرنج، وكثر الفار بالمقاثي والغلال بعد حصادها، فأتلف شيئا كثيرا، واحترق النيل حتى صار يخاض، وتشمر الماء عن ساحل المقس ومصر، وربى جزائر رملة خيف منها على المقياس أن يتقلص الماء عنه، ويحتاج إلى عمل غيره، وبعد الماء عن السور بالمقس، وصارت قوته من بر الغرب، وخيم السلطان في بركة الجب للصيد ولعب الأكرة، وعاد بعد ستة أيام وورد الخبر بأن الإبرنس أرناط ملك الفرنج بالكرك جمع وعزم على المسير إلى تيماء ودخول المدينة النبوية، فخرج عز الدين فرخشاه من دمشق بعساكره إلى الكرك،

ونهب وحرق، وعاد إلى أطراف بلاد الإسلام فأقام بها، وورد الخبر من نائب قلعة أيلة بشدة الخوف من الفرنج.

وفي صفر: قدم رسول ملك القسطنطينية إلى القاهرة، فوقع الصلح مع صاحبها، وأطلق في جمادى الآخرة مائة وثمانين أسيرا من المسلمين، وسار صارم الدين خطلبا إلى الفيوم، وقد أضيفت إليه ولايتها، وأفردت برسمه الخاص، ونقل عنها مقطوعها، ثم صرف عن ولاية الفيوم بابن شمس الخلافة، وأحضر خطلبا ليسير إلى اليمن، وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين، وسد مراكب السلسلة وتسييرها ليقاتل عليها، ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها.

وفي ربيع الأول: طرق الفرنج ساحل تنيس وأخذوا مركبا للتجار، ووصلت مراكب من دمياط كانت استدعيت من خمسين مركبا لتكون في ساحل مصر وكمل بناء برج بالسويس يسع عشرين فارسا، ورتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد، التي يجلب منها الشب إلى بلاد الفرنج، وأمر بعمارة قلعة تنيس، وورد تجار الكارم من عدن، فطلب منهم زكاة أربع سنين. وكثرت بيوت المزر بالإسكندرية، فهدم منها مائة وعشرين بيتا.

* * *

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

وأهلت سنة ثمان وسبعين، والسلطان مبرز بظاهر القاهرة، فلما خرج الناس لوداعه، وقد اجتمع عنده من العلماء والفضلاء كثير، وهم يتناشدون ما قيل في الوداع، فأخرج بعض مؤدبي أولاد السلطان رأسه من الخيمة، وقال:

تمتع من شميم عرار نجد ::: فما بعد العشية من عرار

فتطير الحاضرون من ذلك، وصحت الطيرة، فإن السلطان رحل من ظاهر القاهرة

في خامس المحرم من هذه السنة، ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة، فسلك في طريقه على أيلة، فأغار على بلاد الفرنج، وسار على سمت الكرك، وبعث أخاه تاج الملوك بالعسكر على الدرب، وخرج عز الدين فرخشاه من دمشق، فأغار على طبرية وعكا، وأخذ الشقيف أرنون، وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم، وأنزل فيه طائفة من المسلمين وألفى الريح بطسة

للفرنج إلى بر دمياط، فأسر منها ألفًا وستمائة وتسعين نفسا سوى من غرق، فدخل السلطان إلى دمشق، يوم الاثنين لثلاث عشرة بقيت من صفر، فأقام بها يسيرا، ثم أغار على طبرية، واشتد القتال مع الفرنج تحت قلعة كوكب، واستشهد جماعة من المسلمين، وعاد إلى دمشق في رابع عشر ربيع الأول، وخيم بالفوار من عمل حوران، وأقام به حتى رحل إلى حلب. وخرج سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب بن شادي، من القاهرة إلى اليمن، بعد مسير السلطان، ووصل إلى زبيد فملكها، وأخذ منها ما قيمته ألف ألف دينار، واحتوى على عدن أيضا.

وخرج السلطان من دمشق يريد حلب، فنزل عليها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى، ونازلها ثلاثة أيام، ثم رحل إلى الفرات، فخيم على غربي البيرة، ومد الجسر، وكاتب ملوك الأطراف، ورحل إلى الرها فتسلمها، وسار عنها إلى حران فرتبها، وانفصل عنها إلى الرقة فملكها وما حولها، ونازل نصيبين حتى ملكها وقلعتها، فورد الخبر بقصد الفرنج دمشق ونهبهم القرى، فسار ونازل الموصل في يوم الخميس حادي عشر رجب، وألح في القتال فلم ينل غرضا، ورحل يريد سنجار، فنازلها وضايقها من يوم الأربعاء سادس عشري شعبان.

ودخل رمضان: فكف عن القتال، ثم تسلمها بالأمان يوم الخميس ثانيه، وأعطاها ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر، ورحل إلى نصيبين فأقام بها لشدة البرد، وسار عنها إلى حران، ثم رحل ونزل على آمد، لثلاث عشرة بقيت من ذي الحجة.

وفيها قصد الفرنج بلاد الحجاز، وأنشأ البرنس أرناط صاحب الكرك سفنا، وحملها على البر إلى بحر القلزم، وأركب فيها الرجال، وأوقف منها مركبين على حرزة قلعة القلزم، لمنع أهلها من استقاء الماء.

وسارت البقية نحو عيذاب، فقتلوا وأسروا، وأحرقوا في بحر القلزم نحو ست عشرة مركبا وأخذوا بعيذاب مركبا يأتي بالحجاج من جدة، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب، وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين، وأحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلها، ولا وصل قبلهم رومي إلى ذلك الموضع، فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية. فجهز الملك العادل، وهو يخلف السلطان بالقاهرة، الحاجب حسام

الدين لؤلؤ إلى القلزم فعمر مراكب بمصر والإسكندرية، وسار إلى أيلة، وظفر بمراكب للفرنج، فأحرقها وأسر من فيها، وسار إلى عيذاب، وتبع مراكب الفرنج، فوقع بها بعد أيام واستولى عليها، وأطلق من فيها من التجار المأسورين، ورد عليهم ما أخذ لهم، وصعد البر، موكب خيل العرب حتى أدرك من فر من الفرنج وأخذهم، فساق منهم اثنين إلى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن، وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة، فضربت أعناقهم كلهم. وعاد الأسطول من بحر الروم بعد نكاية أهل الجزائر، ومعه بطسة للفرنج كانت تريد عكا، بها أخشاب ونيف وسبعون رجلا.

* * *

سنه تسع وسبعين وخمسمائة

وأهلت سنة تسع وسبعين والسلطان على آمد، فتسلمها في أوئل المحرم، فقدمت عليه رسل ملوك الأطراف يطلبون الأمان. وخرج الفرنج إلى نواحى الداروم ينهبون، فبرز إليهم عدة من المسلمين على طريق صدر وأيلة، فأظفرهم الله، وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين.

وفيه سار الأسطول من مصر، فظفر ببطسة فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجا، قدموا بهم في خامس المحرم إلى القاهرة، وتوجه سعد الدين كمشبه الأسدي وعلم الدين قيصر إلى الداروم، فأوقعوا بالفرنج على ماء، وقتلوهم جميعا، وقدموا بالرؤوس إلى القاهرة في رابع عشريه. ورحل السلطان عن آمد، وعبر الفرات يريد حلب، فملك عين تاب وغيرها، ونزل على حلب " بكرة يوم السبت سادس عشري المحرم " وقد خرب السلطان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قلعته في جمادى من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة. وتسلمها صلاح الدين بصلح، يوم السبت ثامن عشر صفر، على أن تكون لعماد الدين منجار.

ومات تاج الملوك بوري بن أيوب بن شادي في يوم الخميس ثالث عشريه بحلب. وسار عماد الدين إلى سنجار، فولى السلطان قضاء حلب محيي الدين محمد بن الزكي علي القرشي قاضي دمشق، فاستناب بها زين الدين ندا بن الفضل بن سليمان البانياسي، وولي يازكج قلعتها، وجعل ابنه

الملك الظاهر غياث الدين غازي ملكا بها، ورحل عنها لثمان بقين من ربيع الآخر. فدخل دمشق ثالث جمادى الأولى، وأقام بها إلى سابع عشريه، وبرز وسار إلى بيسان، فعبر نهر الأردن في تاسع جمادى الآخرة، وأغار على بيسان فأحرقها ونهبها وفعل ذلك بعدة قلاع، وأوقع بكثير من الفرنج واجتمع بعين جالوت من الفرنج خلق كثير، ثم رحلوا، وأسر السلطان منهم كثيرا، وخرب من الحصون حصن بيسان وحصن عفر بلا وزرعين، ومن الأبراج والقرى عشرة، وعاد إلى دمشق لست بقين من جمادى الآخرة، ثم خرج في يوم السبت ثالث رجب يريد الكرك، فنازله مدة ولم ينل منه غرضا، فسار إلى دمشق، وقد وصل إليه أخوه الملك العادل من مصر في رابع شعبان. فاجتمع السلطان بأخيه الملك العادل على الكرك، وقد خرج إليه بعسكر مصر.

* * *

سنة ثمانين وخمسمائة

وأهلت هذه السنة: والسلطان بدمشق، فبعث إلى الأطراف يطلب العساكر، فقدم عليه ابن أخيه تقي الدين بعساكر مصر، ومعه القاضي الفاضل. وخرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء النصف من ربيع الأول إلى جسر الخشب، وقدم الملك العادل من حلب ومعه نور الدين بن قرا أرسلان إلى دمشق يوم الخميس رابع عشريه، وخرجا إلى الكسوة، فرحل السلطان في ثاني ربيع الآخر من رأس الماء يريد الكرك، وخرج تقي الدين في عسكر مصر، ومعهم أولاد الملك العادل وأهله، يوم الأربعاء مستهله، فساروا إلى أيلة، ووصلوا إلى السلطان في تاسع عشره وهو على الكرك.

وسار أولاد العادل في حادي عشريه، فلقوا العادل وهو على الفوار في خامس عشريه ووصل معهم زرافة، فاجتمعوا به وساروا إلى حلب، ومعهم بكمش بن عين الدولة الياروقي، وعلي بن سليمان بن جندر، ونزل العسكر الحلبي على عمان مدينة البلقاء في ثامن جمادى الأولى، ورحل عنها في ثاني عشره إلى الكرك، وقدم العادل وابن قرا أرسلان إلى الكرك في سابع عشره، وعملت المجانيق إلى ليلة الخميس حادي عشريه ثم رميت تلك الليلة، ورحل العسكر كله لخبر ورد عن اجتماع الفرنج، وساروا إلى اللجون، ونزل الفرنج بالواله. ثم سار العسكر إلى ناحية البلقاء، فنزلوا حسبان تجاه الفرنج، إلى نصف نهار الاثنين سادس عشريه. فرحل الفرنج إلى الكرك، والعسكر وراءهم إلى نابلس، فهاجمها العسكر يوم الجمعة سلخه، وحرقوها ونهبوها، وساروا فأخذوا أربعة حصون، ونزلوا على جينين ونقبوا قلعتها حتى وقعت، وقتل تحتها من النقابين عدة، وأخذت عنوة وغنم منها شيء كثير. ورحلوا في ليلتهم إلى زرعين وعين جالوت، وأحرقوهما في الليل، وعبروا الأردن يوم الأحد ثاني جمادى الآخرة، ونزلوا الفوار رابعه.

ودخل السلطان دمشق يوم السبت سابعه، ومعه عساكره كلها، وقدم أخوه العادل من حلب، وأتته العساكر المشرقية وعساكر الحصن وآمد، وسار بهم يريد الكرك لأخذها من الفرنج، فنازلها في رابع عشر جمادى الأولى ونصب عليها تسعة مجانيق رماها بها.

وقدمت الأمداد من الفرنج، فرحل السلطان إلى نابلس، ونهب كل ما مر به من البلاد، وأحرق نابلس وخربها ونهبها، وقتل وسبى وأسر، واستنقذ عدة من المسلمين كانوا أسرى، وسار إلى جينين، وعاد إلى دمشق، فقدم عليه رسل الخليفة، وهما

الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد أحمد، وشهاب الدين بشير الخادم، ومعهما خلع السلطان والملك العادل، فلبساها. وطلب الرسولان تقرير الصلح بين السلطان وبن عز الدين صاحب الموصل، فلم يتقرر بينهما صلح، وخرجا من دمشق، فماتا قبل وصولهما إلى بغداد.

وخلع السلطان على جميع العساكر، وأذن لهم في المسير إلى بلادهم، بعدما أعطاهم شيئا كثيرا، فساروا.

وفي نصف شعبان: سار المظفر تقي الدين بعساكر مصر يريد العودة إلى القاهرة، وقرأت وصية سلطانية، تضمنت ولاية الملك العزيز عثمان ابن السلطان لمصر بكفالة ابن عمه تقي الدين عمر، وولاية الملك الأفضل أكبر أبناء السلطان على الشام بكفالة عمه العادل صاحب حلب، وان مدة الكفالة إلى أن يعلم المسلمون باستقلال كل واحد بالأمر، ويستقر الكافلان في خبزيهما وما بأيديهما، ومن عدم من الولدين قام الأمثل من إخوته مقامه، أو من الكافلين قام الباقي منهما مقام الآخر، واستحلف الحاضرون من الأمراء، وولي قراءة العهد بذلك القاضي المرتضى بن قريش. وسومح بها إلى البهسنا، وهو ألف ومائتا دينار، وسومح بالأتبان، وما تقصر عن ألفي دينار، ومنع من ضمان المزر والخمر والملاهي، وترك ما كان يؤخذ من رسم ذلك للسلطان بديار مصر.

وخرج السلطان من دمشق يريد البلاد الشرقية، فأقام بحماة بقية السنة، وكان نزوله عليها في عشري ذي القعدة.

* * *

تتمة سنة ثمانين وخمسمائة

أول المحرم يوم الاثنين: فيه ابتدئ بالتدريس في المدرسة الفاضلية بدرب ملوخيا من القاهرة.

وفي ثامنه: وردت كتب السلطان من دمشق، باستدعاء العساكر، وجمع الأموال والأسلحة والأمتعة.

وفي ثامن عشره: وردت كتب السلطان من دمشق، لاستنهاض العساكر لغزاة الكرك، وأن يستصحبوا من الرجال ما قدروا عليه، فبرزت الخيام إلى بركة الجب في عشريه، وخرج من الغد الملك المظفر تقي الدين النائب بمصر.

وفي ذي القعدة: ورد كتاب سيف الإسلام بأنه فتح باليمن مائة وثلاثة وسبعين حصنا، وقدم أهل خطاب بن منقذ وأخوه محمد إلى مصر. وخرج تقي الدين ابن أخي صلاح الدين إلى البحيرة ليكشف أحوالها.

* * *

سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

وأهلت سنة إحدى وثمانين فسار السلطان وبلغ حران، في يوم الجمعة ثامن عشري صفر فقبض على صاحبها مظفر الدين كوكبري، واستولى عليها. ورحل عنها في ثاني ربيع الأول فوافته رسل الملك قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب الروم باتفاق ملوك الشرق بأجمعهم على قصده، إن لم يعد عن الموصل وماردين، فسار يريد الموصل، وكاتب الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل، ونزل عليها وحاصر أهلها وقاتلهم. فورد الخبر بموت شاه أرمن بن سقمان الثاني ناصر الدين محمد بن إبراهيم صاحب خلاط في تاسع ربيع الأول، فرحل صلاح الدين في آخره يريد خلاط، ثم عاد ولم يملكها، وسار إلى ميافارقين فتسلمها، ثم عاد إلى الموصل، ونزل على دجلة في شعبان، وأقام إلى رمضان، فمرض مرضا مخوفا، فرحل في آخر رمضان، وهو لما به وقد أيس منه، فنزل بحران، فتقرر فيها الصلح بينه وبين المواصلة في يوم عرفة، وخطب له بجميع بلاد الموصل، وقطعت خطبة السلجوقية، وخطب له في ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية، وضربت السكة باسمه، وأمر بالصدقات في جميع ممالكه.

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

وأهلت سنة اثنتين وثمانين: وقد أبل السلطان من مرضه، فرحل من حران، ونزل حلب في رابع عشر المحرم، ومر من حلب إلى حمص، فرتب أمورها واسقط المكوس منها. ودخل إلى دمشق في ثاني ربيع الأول، واستدعى ابنه الأفضل عليا من مصر، لمنافرة كانت بينه وبن ابن عمه المظفر تقي الدين، فقدم عليه بأهله وحشمه، لسبع بقين من جمادى الأولى، وصرف العادل عن حلب، ولقرر عوضه بها الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن السلطان، وعوض العادل الشرقية بديار مصر.

ووقع الخلف بين الفرنج بطرابلس، فالتجأ القومص إلى السلطان، وصار يناصحه، واستولى الإبرنس ملك الفرنج بالكرك على قافلة عظيمة، فأسر من فيها وامتنع من إجابة السلطان إلى إطلاقهم، فتجهز السلطان لمحاربته، وكاتب الأطراف بالمسير لقتاله.

وفيها مات بمصر عبد الله بن أبي الوحش بري بن عبد الجبار بن بري النحوي، ليلة السبت لثلاث بقين من شوال، ومولده بدمشق في خامس رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة.

* * *

سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وأهلت سنة ثلاث وثمانين وقد برز السلطان من دمشق لجهاد الفرنج يوم السبت أول المحرم، واقر ابنه الأفضل على رأس الماء، ونزل بصرى، فأقام لحفظ الحاج حتى قدموا في آخر صفر. فسار إلى الكرك، في اثني عشر ألف فارس، ونازلها وقطع أشجارها، ثم قصد الشوبك، ففعل بها مثل ذلك. وخرج الحاجب لؤلؤ على الأسطول من مصر، وهو خمسة عشر شينيا، ليسير إلى الإسكندرية. وخرج العادل من القاهرة في سابع المحرم إلى بركة الجب، وسار إلى الكرك، فمر على أيلة، والتقى مع السلطان على القريتين، وعادا إلى الكرك، فنازلاها في ربيع الأول، وضايق السلطان أهلها، ثم رحل عنها، ونازل طبرية، فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفا بأرض عكا، ورفعوا صليب الصلبوت، فافتتح السلطان طبرية عنوة في ثالث عشري ربيع الآخر، وغاظ ذلك الفرنج وتجمعوا، فسار إليهم السلطان، وكانت

وقعة حطين، التي نصر الله فيها دينه، في يوم السبت رابع عشريه. وانهزم الفرنج بعد عدة وقائع، وأخذ المسلمون صليب الصلبوت، وأسروا الإبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك، وعدة ملوك آخرين وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لا يعد كثرة.

ثم قدم الإبرنس أرناط، وضرب السلطان عنقه بيده، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والاسبتارية ورحل السلطان إلى عكا، فنازلها سلخ ربيع الآخر، ومعه عالم عظيم.

فلم يزل صلاح الدين على محاصرة عكا إلى أن تسلمها بالأمان، في ثاني جمادى الأولى، واستولى على ما فيها من الأموال والبضائع، وأطلق من كان بها من المسلمين مأسورا، وكانوا أربعة آلاف نفس، ورتب في كنيستها العظمى منبرا، وأقيمت فيها الجمعة.

وأقطع عكا لابنه الأفضل علي، وأعطى جميع ما للداوية من إقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري. وسار العادل بعساكر مصر إلى مجدليابا فحصره وفتحه وغنم ما فيه. وافتتحت عدة حصون حول عكا: وهي الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والتولع والطور ونهب ما فيها، وسبيت النساء والأطفال، فقدموا بما سد الفضاء. وأخذت سبسطية ونابلس، وكتب السلطان للخليفة بخبر فتح هذه البلاد. ونزل العادل على يافا، حتى ملكهاعنوة ونهبها، وسبى الحريم وأسر الرجال، ونازل المظفر تقي الدين عمر تبنين، وأدركه السلطان فوصل إليها في حادي عشر جمادى الأولى ومازال محاصرا لها حتى تسلمها في ثامن عشره بأمان، وجلا أهلها عنها إلى صور، وتسلم السلطان العدد والدواب والخزائن، وسار فأخذ صرخد بغير قتال، ثم رحل إلى صيداء، ففر أهلها وتركوها، فتسلمها السلطان في حادي عشريه. ونازل بيروت وضايقها ثمانية أيام، إلى أن طلب أهلها الأمان، فأجابهم واستولى عليها في تاسع عشريه، وأخذ جبيل فكان من استنقذ الله من المسلمين

المأسورين عند الفرنج، في هذه السنة، ما يزيد على عشرين ألف إنسان، وأسر المسلمون من الفرنج مائة ألف أسير.

وهلك في هذه السنة القومص صاحب طرابلس، وقدم المركيس " أكبر طواغيت الفرنج " إلى صور، وقد اجتمع بها أمم من الفرنج، فتملك عليهم، وحصن البلد، فسار السلطان بعد فتح بيروت، وتسلم الرملة والخليل وبيت لحم، واجتمع بأخيه العادل، ونازلا عسقلان، في سادس عشر جمادى الآخرة، ونصبا المجانيق عليها، ووقع الجد

في القتال، إلى أن تسلم السلطان البلد في سلخه، وخرج منه الفرنج إلى بيت المقدس، بعد أن ملكوه خمسا وثلاثين سنة. وتسلم السلطان حصون الداوية وهي غزة والنطرون وبيت جبريل وقدم عليه بظاهر عسقلان ابنه العزيز عثمان من مصر، ووافته الأساطيل وعليها الحاجب لؤلؤ. وكانت الشمس قد كسفت، قبل أخذ عسقلان بيوم، حتى أظلم الجو وظهرت الكواكب في يوم الجمعة ثامن عشريه.

وسار السلطان " وقد اجتمعت إليه العساكر " يريد فتح بيت المقدس، فنازله يوم الأحد خامس عشر رجب، وبه حشود الفرنج وجميعهم، فنصب المجانيق، واقتتل الفريقان أشد قتال، استشهد فيه جماعة من المسلمين، وأيد الله بنصره المسلمين، حتى تمكنوا من السور ونقبوه، وأشرفوا على أخذ البلد فسأل الفرنج حينئذ الأمان، فأعطوه بعد امتناع كثير من السلطان، على أن يعطى كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة، دنانير مصرية، سواء كان غنيا أو فقيرا، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل طفل من الذكور والإناث دينارين. ثم صولح عن الفقراء بثلاثين ألف دينار وتسلم المسلمون القدس يوم الجمعة سابع عشري رجب، وأخرج من فيه من الفرنج، وكانوا نحو الستين ألفا، بعدما أسر منهم نحو ستة عشر ألفا، مابين رجل وامرأة وصبي، وهم من لايقدر على شراء نفسه.

وقبض السلطان من مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية، سوى ما أخذه الأمراء، وما حصلت فيه الخيانة.

والتحق من كان بالقدس من الفرنج بصور، وتسامع المسلمون بفتح بيت المقدس، فأتوه رجالا وركابنا من كل جهة لزيارته، حتى كان من الجمع مالا ينحصر، فأقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان، وخطب القاضي محيي الدين بن الزاكي بالسواد خطبة بليغة، دعا فيها للخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين، وانتصب بعد الصلاة زين الدين بن نجا، فوعظ الناس.

وأمر السلطان بترميم المحراب العمري القديم، وحمل منبر مليح من حلب، ونصب بالمسجد الأقصى، وأزيل ما هناك من آثار النصرانية، وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد، وبخرت وفرشت، ورتب في المسجد من يقوم بوظائفه، وجعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية، وغلقت كنيسة قمامة، ثم فتحت، وقرر على من يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤديها. وخرجت البشائر إلى الخليفة بالفتح، وإلى سائر الأطراف. ورحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان يريد عكا، وسار العزيز عثمان إلى مصر فكان آخر العهد به. وسار العادل مع السلطان، فنزلا على عكا أول شهر

رمضان، ثم رحل السلطان منها، ونزل على صور في تاسعه، وكانت حصينة، وقد استعد الفرنج فيها، فتلاحقت العساكر بالسلطان، ونصب على صور عدة من المجانيق وحاصرها، واستدعى السلطان الأسطول من مصر، فقدم عليه عشر شواني، وصار القتال في البر والبحر فأخذ الفرنج خمس شواني ووردت مكاتبة الخليفة على السلطان، وفيها غلظة وإنكار أمور، فأجاب بالاعتذار، ورحل عن صور في آخر شوال. وعادت العساكر إلى بلادها، وأقام السلطان بعكا، وسار العادل إلى مصر، فطرق الفرنج قلعة كوكب، وقتلوا بها جماعة من المسلمين، ونهبوا ما كان بها، وأتته على عكا رسل الملوك بالتهنئة من الروم والعراق وخراسان بفتح بيت المقدس.

* * *

سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فيها نازل السلطان حصن كوكب أياما، ولم ينل منها شيئا، فأقام الأمر صارم الدين قايماز النجمي في خمسمائة فارس عليها، ووكل بصفد الأمير طغرل الخازندار في خمسمائة فارس، وبعث إلى الكرك والشوبك الأمير سعد الدين كمشبه الأسدي، واستدعى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي من مصر، فاستخلف على عمارة سور القاهرة، وقدم والسلطان على كوكب، فندبه لعمارة عكا، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها، بمن قدم به معه من مصر من الأسرى والأبقار والآلات والدواب، وسار السلطان يريد دمشق، فدخلها سادس ربيع الأول، وقد غاب عنها سنة وشهرين وخمسة أيام، كسر فيها الفرنج، وفتح بيت المقدس، فلازم الجلوس في دار العدل بحضرة القضاة، وكتب إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد، وخرج بعد خمسة أيام على بعلبك، فوافاه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار على أعمال حمص، فنزلا على بحيرة قدس. وبعث السلطان ابنه الظاهر، وابن أخيه المظفر صاحب حماة لحفظ طريق أنطاكية، وسار أول ربيع الآخر وشن الغارات على صافيتا وتلك الحصون المجاورة. وسار في رابع جمادى الأولى على تعبية لقاء العدو، فأخذ أنطرسوس، واستولى على ما بها من المغانم، وخرب سورها وبيعتها، وكانت من أعظم البيع، ووضع النار في البلد فأحرق جميعه، وسار يريد جبلة، فنازلها لاثنتي عشرة بقيت منه، وتسلمها بغير حرب، ثم أخذ اللاذقية بعد قتال، وغنم الناس منها غنيمة عظيمة. وسار إلى صهيون، فقاتل أهلها إلى أن ملكها في ثاني جمادى الآخرة،

واستولى على قلعتي الشغر وبكاس وعدة حصون، وأسر من فيها، وغنم شيئا كثيرا.

فلما فتح بغراس بعث الإبرنس ملك أنطاكية يسأل الصلح، فأجيب إلى ذلك، على شريطة أن يطلق من عنده من الأسارى المسلمين، وهم ألف إنسان، وعاد صاحب سنجار إلى بلده، وسار السلطان إلى حلب، فأقام بها ثم سار عنها، ودخل إلى دمشق في آخر شعبان وما زال كمشبه محاصرا للكرك حتى تسلم قلعتها، ومعها الشوبك والسلع، وعدة حصون هناك، في رمضان. فلما وردت البشرى بذلك على السلطان سار من دمشق، ونازل صفد حتى ملك قلعتها بالأمان في رابع عشر شوال ولحق من كان فيها من الفرنج بصور ثم سار إلى كوكب وضايقها حتى تسلمها، في نصف ذي القعدة بأمان، وأرسل أهلها إلى صور. فكثر بها جموع الفرنج، وكاتبوا إفرنج صقلية والأندلس، وكتب السلطان إلى الخليفة الناصر بخبر هذه الفتوح، ورحل فنزل في صحراء بيسان.

وفيها ثار بالقاهرة اثنا عشر رجلا من الشيعة في الليل، نادوا: " يال علي.. يال علي". وسلكوا الدروب وهم ينادون كذلك، ظنا منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم، ويقومون في إعادة الدولة الفاطمية، فيخرجون من في الحبوس، ويملكون البلد. فلما لم يجبهم أحد تفرقوا.

وسار السلطان إلى القدس، فحل به في ثامن ذي الحجة، وسار بعد النحر إلى عسقلان، وجهز أخاه العادل إلى مصر لمعاضدة الملك العزيز، وعوضه بالكرك عن عسقلان، وكان قد وهبها له، ثم نزل بعكا.

* * *

سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ودخلت سنة خمس وثمانين: فسار السلطان عن عكا، ودخل دمشق أول صفر، فورد عليه في ثاني عشره ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة، رسول الخليفة الناصر، بالخطبة لابنه ولي العهد، عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد، فأقيمت له. وجهز الرسول، ومعه ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري، وبعث معه بهدايا وتحف وأسارى من الفرنج للخليفة، ومعهم تاج ملك الفرنج والصليب الذي كان فوق صخرة بيت المقدس، وأشياء كثيرة. فدفن الصليب تحت عتبة باب النوبى ببغداد وديس عليه، وكان من نحاس مطلي بالذهب.

وخرج السلطان من دمشق في ثالث ربيع الأول ونازل شقيف أرنون وهو منزعج، لانقضاء الهدنة مع صاحب أنطاكية، ولاجتماع الفرنج بصور، واتصال الأمداد بهم، فكانت للمسلمين مع الفرنج في بلادهم الساحلية عدة وقائع، قتل فيها من الفريقين عدة، وكثر القتل في المسلمين، واشتدت نكاية الفرنج فيهم، فرحل السلطان إلى عكا، وقد سبقه الفرنج ونزلوا عليها. ونزل السلطان بمرج عكا وصار محاصرا للفرنج، والفرنج محاصرون للبلد. وتلاحقت به العساكر الإسلامية، والأمداد تصل إلى الفرنج من البحر. فلم يقدر السلطان على الوصول إلى البلد، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا إلى السلطان. وشرع السلطان في قتال الفرنج من أول شعبان، إلى أن تمكن من عكا، ودخلها في ثانيه، فما زالت الحرب قائمة إلى رابع رمضان. فتحول إلى الخروبة، وأغلق من في عكا من المسلمين أبوابها، وحفر الفرنج خندقا على معسكرهم حول عكا من البحر إلى البحر، وأداروا حولهم سورا مستورا بالستائر، ورتبوا عليه الرجال، فامتنع وصول المسلمين إلى عكا.

وقدم العادل بعسكر مصر في نصف شوال، وقدم الأسطول من مصر إلى عكا في خمسين قطعة، وعليه الحاجب لؤلؤ في منتصف ذي القعدة، فبدد شمل مراكب الفرنج، وظفر ببطستين للفرنج. فاستظهر المسلمون الذين بعكا، وقوى جأشهم بالأسطول، وكانوا نحو العشرة آلاف.

وبعث السلطان إلى الأطراف يحث الناس على الجهاد، وأرسل إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين باليمن، يطلب منه الإعانة بالمال، وإلى مظفر الدين قر أرسلان صاحب العجم، وكتب إلى الخليفة. ووصلت الأمداد إلى الفرنج، وورد الخبر من حلب بخروج ملك الألمان من القسطنطينية، في عدة عظيمة تتجاور الألف ألف، يريدون البلاد الإسلامية، فاشتد الأمر على السلطان ومن معه من المسلمين.

* * *

سنة ست وثمانين وخمسمائة

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان بالخروبة على حصار الفرنج، وقدمت عساكر المسلمين من الشرق ومن بقية البلاد، فرحل من الخروبة لاثنتي عشرة بقيت من ربيع الأول إلى تل كيسان وتتابع مجيء العساكر. وكملت أبراج الفرنج الثلاثة، التي بنوها تجاه عكا في مدة سبعة أشهر، حتى علت على البلد، وامتلأت بالعدد

والعدة، وطموا كثيرا من الخندق، وضايقوا البلد. واشتد خوف المسلمين، واشتدت الحرب بين الفريقين، حتى احترقت الأبراج الثلاثة، وخرج أهل عكا منها، فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر، وغنموا ما كان في الأبراج من الحديد، فتقووا به.

وكان بين أسطول المصريين وبين مراكب الفرنج عدة معارك، قُتل فيها كثير من الفرنج. ودخل ملك الألمان بجيوشه إلى حدود بلاد الإسلام، وقد فنى منهم كثير، فواقعهم الملك عز الدين قلج بن أرسلان السلجوقي، فانكسر منهم، فلحق به الفرنج إلى قونية وهاجموها، وأحرقوا أسواقها، وساروا إلى طرسوس يريدون بيت المقدس، واسترجاع ما أخذ منهم السلطان من البلاد والحصون، فمات بها ملكهم. وقام من بعده ابنه، فسار إلى أنطاكية. وندب السلطان كثيرا ممن كان معه على حرب عكا إلى جهة أنطاكية، ووقع فيمن بقي معه مرض كثير، وأمر بتخريب سور طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل فخرب ذلك، ونقل من كان فيها إلى بيروت وطمع الفرنج في السلطان لقلة من بقي معه، فركبوا لحربه ونهبوا وطاق الملك العادل. وكانت للمسلمين معهم حرب، انكسر فيها الفرنج إلى خيامهم، وقتل منهم آلاف، فوهت قواهم. غير أن المدد أتاهم، ونصبوا المجانيق على عكا، فتحول السلطان إلى الحزوبة، فوافى كتاب ملك الروم بقسطنطينية، يخبر بوصول المنبر من عند السلطان، وكذلك الخطيب والمؤذنين والقراء، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله.

وسار ابن ملك الألمان عن أنطاكية إلى طرابلس في جيوشه، وركب منها البحر إلى عكا، فوصل إليها سادس رمضان، فأقام عليها إلى أن هلك ثاني عشر ذي الحجة، بعدما حارب المسلمين فلم ينل منهم كبير غرض. ودخل الشتاء وقد طالت مدة البيكار، وضجرت العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل.

وفيها تولى سيف الدولة أبو الميمون مبارك بن كامل بن منقذ شد الدواوين بديار مصر، وباشر الأسعد بن مماتي معه الديوان في محرم.

* * *

سنة سبع وثمانين وخمسمائة

ودخلت سنة سبع وثمانين: فسار الظاهر صاحب حلب إليها، وسار المظفر إلى حماة.

وبقي السلطان في جمع قليل، والحرب بين أهل عكا وأميرهم بهاء الدين قراقوش وبين الفرنج. ودخل فصل الربيع، فوافت العساكر السلطان، ووصل إلى الفرنج مددهم، فضايقوا عكا وجدوا في حصارها، ونصبوا عليها المجانيق. وتوالت الحروب إلى أن ملكها الفرنج، يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وأسروا من فيها من المسلمين وكانوا ألوفا. وخرجوا يريدون الحرب، فواقعهم السلطان وكسرهم، ووقع كلامه في الصلح وإطلاق الأسرى ولم يتم.

فلما كان في سابع عشري رجب برز الفرنج بخيامهم، وأحضروا أسارى المسلمين، وحملوا عليهم حملة واحدة قتلوا فيها بأجمعهم في سبيل الله صبرا، واليزك الإسلامي ينظر إليهم. فحمل المسلمون عليهم، وجرت بينهما حرب شديدة، قتل فيها عدة من الفريقين.

ولما أهل شعبان: سار الفرنج إلى عسقلان، ورحل السلطان في أثرهم، وواقعهم في رابع عشره بأرسوف، فانهزم المسلمون، وثبت السلطان إلى أن اجتمع عليه المسلمون، وعاد إلى القتال، حتى التجأ الفرنج إلى جدران أرسوف.

ورحل السلطان في تاسع عشره، ونزل على عسقلان يريد تخريبها، لعجزه عن حفظها، ففرق أبراجها على الأمراء، ووقع الضجيج والبكاء في الناس أسفا وغما لخرابها، وكانت من أحسن البلاد بناء، وأحكمها أسوارا، وأطيبها سكنا، فلم يزل التخريب والحريق فيها إلى سلخ شعبان.

ثم رحل السلطان عن عسقلان وقد خربت في ثاني رمضان، ونزل على الرملة فخرب حصنها، وسم كنيسة لد، وركب إلى القدس جريدة، ثم عاد وهدم حصن النطرون.

وكانت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع في البر والبحر، فعاد السلطان إلى القدس في آخر ذي القعدة. وقدم أبو الهيجاء السمين بعسكر مصر، ووقع الاهتمام في عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق.

* * *

سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

وأهلت سنة ثمان وثمانين: والسلطان بالقدس مجتهد في عمارته.

وفي ثالث المحرم: نزل الفرنج على ظاهر عسقلان، لقصد عمارتها فما مكنوا، وواقعهم جماعة من الأسدية منهم يازكج وغيره، وتوالت الوقائع بينهم.

وفي صفر: سار الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان إلى البلاد الشرقية، على ما كان بيد الملك المظفر تقي الدين عمر من البلاد التي هي قاطع الفرات، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى الخلع والتشريفات. ثم نزل الملك العادل أبو بكر عن كل ماله في الشام، ماخلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء ونصف خاصة بديارمصر، وعوض البلاد الشرقية.

وسار السلطان من القدس في أوائل جمادى الأولى، وكتب بعود الملك الأفضل، فعاد منكسر القلب إلى السلطان. ولحق العادل بحران والرها وقرر أمرهما، ثم عاد إلى السلطان في أخر جمادى الآخرة.

وفي جمادى الآخرة: ملك الفرنج قلعة الداروم، وخرج العسكر المصري يريدون السلطان، فكبسهم الفرنج وأخذوا جميع ما معهم، وتبدد الناس في البرية. وأسر الفرنج منهم خمسمائة رجل، وأخذوا نحو ثلاثة آلاف جمل، وعادوا إلى خيمهم وقد طمعوا، فقصدوا المسير إلى القدس، ثم اختلفوا ونزلوا بالرملة، وبعثوا رسلهم في طلب الصلح، فبرز السلطان من القدس في عاشر رجب، وسار إلى يافا فحاصرها، ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن أخذ البلد عنوة، وغنم الناس منها شيئا عظيما. وتسلم السلطان القلعة، وأخرج من كان فيها من الفرنج، فقدم من الفرنج نجدة كبيرة في خمسين مركبا، فغدر أهل يافا بجماعة من المسلمين، وعاد القتال والمراكب في البحر لم تصل إلى البر، فسارع أهل المراكب إلى البر، وحملوا على السلطان، فرحل إلى يازور وأمر بتخريبها، وسار إلى الرملة ومنها إلى القدس، وعزم على لقاء الفرنج، فاختلف عليه أصحابه، وأسمعه بعضهم كلاما جافيا، فانثنى عن ذلك. وقدم عسكر مصر فخرج إلى الرملة، ووقع الصلح بين السلطان والفرنج لثمان بقين من شعبان. وعقدت هدنة عامة في البر والبحر مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها حادي عشر شعبان وهو أول شهر أيلول على أن يكون للفرنج من يافا إلى عكا إلى صور وطرابلس وأنطاكية. ونودي في الوطاقات وأسواق العسكر: ألا إن الصلح قد

انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل. وكان يوم الصلح يوما مشهودا، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور، لما نالهم من طول الحرب. فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة، فأكرمهم السلطان ومد لهم الأطعمة وباسطهم. ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا، ورحل السلطان إلى القدس، وسار منها إلى دمشق، ملقيه الأمر بهاء الدين قراقوش " وقد تخلص من الأسر " على طبرية.

ودخل السلطان إلى دمشق، لخمس بقين من شوال، فكانت غيبته عنها أربع سنين.

وأذن للعساكر في التفرق إلى بلادهم فساروا إليها، وبقي عند السلطان ابنه الأفضل علي والقاضي الفاضل.

* * *

سنة تسع وثمانين وخمسمائة

أهلت: والسلطان بدمشق، فخرج العادل إلى الكرك، وقدم من اليمن الملك المعز إسماعيل ابن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين في نصف صفر، فسربه السلطان.

فلما كانت ليلة السبت سادس عشره: نزل بالسلطان مرض، فأمر يوم السبت ولده الفضل أن يجلس على الطعام، فجلس في موضع السلطان. وتزايد به المرض إلى اليوم الحادي عشر من مرضه، فحلف الأفضل الناس، واستمر السلطان في تزايد من المرض إلى ليلة الأربعاء سابع عشري صفر " وهى ليلة الثاني عشر من المرض " فاحتضر ومات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور. فركب الأفضل، ودار في الأسواق، وطيب قلوب العامة.

وكان - رحمه الله - كثير التواضع، قريبا من الناس، كثير الاحتمال، شديد المداراة، محبا للفقهاء وأهل الدين والخير محسنا إليهم، مائلا إلى الفضائل، يستحسن الشعر الجيد ويردده في مجلسه. ومدحه كثير من الشعراء، وانتجعوه من البلدان. وكان شديد التمسك بالشريعة، سمع الحديث من أبي الحسن علي بن إبراهيم بن المسلم بن بنت أبي سعد، وأبي محمد بن بري النحوي، وأبي الفتح محمود بن أحمد الصابوني، وأبي الطاهر السلفي، وابن عوف، وجماعة غيرهم. وكان كريما: أطلق

من الخيل بمرج عكا لمن معه اثني عشر ألف رأس، سوى أثمان الخيل التي أصيبت في الجهاد. ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وتأخر عنه الأمير أيوب بن كنان في بعض سفراته لدين لزمه، فتقبل لغرمائه باثني عشر ألف دينار مصرية. وكان ورعا، رأى يوما العماد الكاتب يكتب من دواة محلاة بالفضة فأنكرها، وقال هذا حرام، فلم يعد يكتب منها عنده. وكان لا يصلى إلا في جماعة، وله إمام راتب ملازم، وكان يصلي قبيل الصبح ركعات إذا استيقظ، وكان يسوي في المحاكمة بين أكبر الناس وبين خصمه. وكان شجاعا في الحروب، يمر في الصفوف وليس معه سوى صبي. وقرئ، عليه جزء من الحديث بين الصفين، وهو على ظهر فرسه، وكان ذاكرا لوقائع العرب وعجائب الدنيا، ومجلسه طاهر من المعايب، رحمه الله وغفر له.

ولما مات جلس الأفضل للعزاء، وكثر بكاء الناس عليه. وغسله الفقيه خطيب دمشق، أخرج بعد صلاة الظهر، وصلى الناس عليه أرسالا، ودفن بداره التي مرض فيها بالقلعة، ثم نقل في يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة إلى تربة بنيت له بجوار جامع بني أمية. وكتب بوفاته إلى العزيز بمصر، وإلى العادل بالكرك. وكان عمره يوم مات نحوا من سبع وخمسين سنة، منها مدة ملكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وأيام. وترك من الأولاد سبعة عشر ذكرا وبنتا واحدة صغيرة، ولم يخلف في خزائنه سوى سبعة وأربعين درهما، ولم يترك دارا ولا عقارا. وكان القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني صاحب سره، وبمنزلة الوزير منه.

* * *

السلطان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

ولد بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، ومات أبوه بدمشق وهو على سلطنة ديار مصر مقيم بالقاهرة، وعنده جل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد. فلما بلغه موت أبيه جلس للعزاء وأخذ بالحزم، وقرر أمور دولته، وخلع على الأمراء وأرباب الدولة يعد انقضاء العزاء. فقام أخوه الأفضل نور الدين علي بدمشق، وكتب إلى الخليفة الناصر يطالعه بوفاة أبيه، من إنشاء العماد الكاتب. وبعث بذلك مع القاضي ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري، ومعه عدد والده وملابسه وخيله، وهدية نفيسة. وسار العادل من الكرك إلى بلاد المشرق، فأقام بقلعة جعبر وبعث نوابه إلى حران والرها، واستوزر الأفضل الوزير ضياء الدين نصر ا لله بن محمد بن الأثير، وفوض إليه أموره كلها، فحسن له إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه، وأن يستجد أمراء غيرهم، ففارقه جماعة منهم الأمر فخر الدين جهاركس، وفارس الدين ميمون القصري، وشمس الدين سنقر الكبير، وكانوا عظماء الدولة، فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة فأكرمهم، وولى فخر الدين أستاداره، وفوض إليه أمره، وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيداء وأعمالها، وكان ذلك لهما، وزادهما نابلس وبلادها، وسار القاضي الفاضل أيضا من دمشق ولحق بالقاهرة، فخرج العزيز إلى لقائه وأجل قدومه وأكرمه، فشرع القوم في تقرير قواعد ملك العزيز والأفضل في شغل عنهم، وكانت مدينة القدس مضافة للأفضل، فكتب إلى أخيه العزيز يرغب عنها له. وكان ذلك من تدبير وزيره ابن الأثير؛ لأنها كانت تحتاج حينئذ إلى أموال ورجال لمدافعة الفرنج، فسر العزيز بذلك، وجهز عشرة آلاف دينار إلى عز الدين جرديك النوري متولي القدس، لينفقها في عسكر القدس، فخطب له به. وخشي العزيز من نقض الهدنه بينه وبن الفرنج، فبعث عسكرا إلى القدس احترازا من الفرنج. ثم بدا للأفضل أن يعود فيما رغب عنه لأخيه من القدس، ورجع عن ذلك، فتغير العزيز من هذا، وأخذ الأمراء في الإغراء بينهما، وحسنوا للعزيز الاستبداد بالملك والقيام مقام أبيه، فبلغ ذلك الأفضل.

سنة تسعين وخمسمائة

ودخلت سنة تسعين: وقد تنافرت القلوب، وقويت الوحشة بين الأخوين، واجتمعت الأمراء الصلاحية على أن يكون الأمر كله للعزيز، فاضطربت أحوال الأفضل. وخرج العزيز من القاهرة بعساكر مصر، من الصلاحية والأسدية والأكراد وغيرهم، يريد الشام وانتزاعها من أخيه الأفضل، من أجل أمور منها أن جبيل " وهو من جملة الفتوح الصلاحية " كان مع رجل كردي فقيه أقامه صلاح الدين مستحفظا بها، فأرغبه الفرنج بمال حتى سلمه لهم. وخرج الأفضل من دمشق ليستنقذه من الفرنج، فتعذر عليه، وظهر العجز عن استخلاصه، فامتعض الأمراء لذلك، وخوفوا العزيز من عاقبة أمر الفرنج، فسار في صفر واستخلف أخاه الملك المؤيد نجم الدين مسعود، وترك بالقاهرة بهاء الدين قراقوش الأسدي وصيرم وسيف الدين يازكج وخطلج في تسعمائة فارس. واتفق أن الأمير صارم الدين قايماز النجمي " أحد أكابر الأمراء الصلاحية " استوحش من الأفضل لإعراضه عنه، فخرج من دمشق يريد إقطاعه، ولحق بالعزيز فأكرمه ورفع محله. وهم الأفضل بمراسلة أخيه العزيز واستعطافه، فمنعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه، وحسنوا له محاربته، فمال إليهم. وبعث إلى عمه العادل وهو بالشرق، وإلى أخيه الظاهر بحلب، وإلى المنصور بحماة، وإلى الأمجد صاحب بعلبك وإلى المجاهد شيركوه صاحب حمص، يستنجدهم على أخيه العزيز. فوردت رسلهم في جمادى الآخرة، يعدون بالقدوم عليه. ثم إنه برز من دمشق، ونزل برأس الماء. فلما وصل العزيز إلى القصير من الغور ضاق الأفضل، ورجع من الفوار إلى رأس الماء، فأدركت مقدمة العزيز ساقته، وكادوا يكبسونه فانهزم إلى دمشق، ودخلها لخمس مضين منه. ونزل العزيز في غده على دمشق في قوة قوية، ونازل البلد. وكان الأفضل قد استعد لقتاله، فقدم العادل والظاهر والمنصور والمجاهد والأمجد إلى دمشق. وبعث العادل إلى ابن أخيه الملك العزيز يشفع في الأفضل، ويستأذنه في الاجتماع به، فأذن له. وخرج العادل فاجتمع بالعزيز " وكل منهما راكب " وتحدث معه في الصلح، وأن ينفس الخناق عن البلد، وكان قد اشتد الحصار، وقطعت الأنهار، ونهبت الثمار، والوقت زمن المشمش. فوافق العزيز عمه، وتأخر إلى داريا ونزل على العوج، وسير الأمير فخر الدين جهاركس الأستادار " وهو يومئذ أجل الصلاحية " إلى العادل، فقرر الصلح على شروط، وعاد إلى العزيز. فرحل ونزل مرج الصفر فحدث له مرض

شديد، وأرجف بموته، ثم أبل منه. وأمر بعمل نسخة اليمن، وهى جامعة لمقترحات جميع الملوك، وحسم مواد الخلاف، وأن الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه، والملك المجاهد شيركوه، يكونان مؤازرين للملك الأفضل وتابعين له، وأن الملك المنصور صاحب حماة يكون في حيز الملك الظاهر صاحب حلب ومؤزرا له. وبعث كل من الملوك أميرا من أمرائه ليحضر الحلف، فاجتمعوا يوم السبت ثاني عشر شهر رجب، وجرت أمور آلت إلى الحلف على دخن.

وتزوج العزيز بابنة عمه العادل، وقبل العقد عنه القاضي المرتضى محمد بن القاضي الجليس عبد العزيز السعدي. ووكل العادل القاضي محيي الدين محمد بن شرف الدين ابن عصرون في تزويج ابنته من ابن عمها الملك العزيز، وعقد بينهما قاضي القضاة محيي الدين. وكتب العماد الكاتب الكتاب في ثوب أطلس، وقرئ بين يدي الملك الظاهر، وعقد العقد عنده.

فلما كان يوم الجمعة أول شعبان: خرج الملك الظاهر غازي صاحب حلب لوداع أخيه، فركب العزيز إلى لقائه وأنزله معه، وأكلا ثم تفرقا، بعد ما أهدى كل منهما لأخيه هدية سنية. ثم خرج العادل لوداع العزيز في خواصه، ثم خرج الأفضل فودعه أيضا، وهو آخر من ودعه. ورحل العزيز من مرج الصفر في ثالث شعبان يريد مصر، فلما كان ثالث عشره عمل الأفضل دعوة عظيمة لعمه وبقية الملوك وودعهم، ثم رحلوا من الغد إلى بلادهم إلا العادل، فإنه أقام إلى تاسع شهر رمضان، ثم رحل إلى بلاده بالشرق.

وقدم العزيز إلى القاهرة في يوم وأما الأفضل فإنه هم بمكاتبة العزيز بما يؤكد أسباب الصلح، فأماله عن ذلك خواصه، وأغروه بأخيه، ورموا جماعة من أمرائه بأنهم يكاتبون العزيز، فاستوحش منهم، وفطنوا بذلك فتفرقوا عنه. وسار الأمير عز الدين أسامة صاحب كوكب وعجلون عن الأفضل، ولحق بالعزيز فأكرمه غاية الإكرام، وأخذ يحرضه على الفضل، ويحثه على المسير إلى دمشق وانتزاعها منه، ويقول له: إن الأفضل قد غلب على اختياره، وحكم عليه وزيره الضياء ابن الأثير الجزري، وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد، ويحمل أخاك على مقاطعتك، ويحسن له نقض اليمن، فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النية، ولم يوجد ذلك، فحنثهم في اليمين قد تحقق، وبرئت أنت من العهدة، فاقصد البلاد فإنها في يدك، قبل أن يحصل في الدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه "، وبينا هو في ذلك إذ فارق الأفضل الأمير شمس الدين أيدمر بن السلار، وصل إلى العزيز، فساعد الأمر أسامة على قصده، ثم

وصل أيضا إلى العزيز القاضي محيي الدين أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبي عصرون، فاحترمه وولاه قضاء الديار المصرية، وضم إليه نظر الأوقاف.

وأقبل الأفضل بدمشق على اللعب ليله ونهاره، وتظاهر بلذاته، وفوض الأمور إلى وزيره، ثم ترك اللعب من غير سبب، وتاب وأزال المنكرات وأراق الخمور، وأقبل على العبادة، ولبس الخشن من الثياب، وشرع في نسخ مصحف بخطه، واتخذ لنفسه مسجدا يخلو فيه بعبادة ربه، وواظب على الصيام، وجالس الفقراء، وبالغ في التقشف، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل.

وأما العزيز فإنه قطع خبز الفقيه الكمال الكردي من مصر، فأفسد جماعة على السلطان، وخرج إلى العرب فجمع ونهب الإسكندرية، فسار إليه العسكر فلم يظفروا به. وقطع العزيز أيضا خبز الجناح وعلكان ومجد الدين الفقيه وعز الدين صهر الفقيه، فساروا من القاهرة إلى دمشق، فأقطعهم الملك الأفضل الإقطاعات.

وفيها قدم رسول متملك القسطنطينية يطلب صليب الصلبوت، فأحضر من القدس، وكان مرصعا بالجوهر، وسلم إليه على أن يعاد ثغر جبيل من الفرنج. وتوجه الأمير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة بذلك.

* * *

تتمة سنة تسعين وخمسمائة

وفي تاسع ربيع الآخر: هدم المحتسب حوانيت وإصطبلا كان صدر الدين بن درباس أنشأها في زيادة الجامع الأزهر بجوار داره، ورفع صدر الدين نقض ذلك إلى داره.

وقوي عزم السلطان على السفر، وبعث بهرام يقترض له مالا من تجار الإسكندرية، وطلب من قاضي القضاة زين الدين أن يقرضه مال الأيتام، وكان يبلغ أربعة عشر ألف دينار، فحملت إلى الخزانة. وكتب السلطان خطه بذلك وأشهد عليه، وأحال به على بيت المال، وقرر استخراجه منه وأمر بحمله إلى القاضي. هذا وقد تأخر القرض الذي كان السلطان صلاح الدين أقرضه في نوبة عكا، وهو ثلاثون ألف دينار، فلم يوف منه إلا يسيرا.

وفي سادس عشره: توجه جعفر بن شمس الخلافة إلى الفرنج لإعادة جبيل.

وفي يوم الخميس تاسع عشره: خرج السلطان إلى مخيمه ببركة الجب، واستناب في غيبته بهاء الدين قراقوش، ومعه ثلاثة عشر أميرا، ونحو سبعمائة فارس. وتوجه مع السلطان سبعة وعشرون أميرا، في ألفي فارس وألف من الحلقة.

وفي ثالث جمادى الأولى: استقل السلطان بالمسير، ونزل على دمشق في تاسع جمادى الآخرة، ورحل عنها في ثامن عشريه بشفاعة عمه الملك العادل.

وفي تاسع رجب: دخل الأفضل دمشق، بعد أن تقرر الصلح بينه وبن أخيه الملك العزيز في سادسه. وفي رابع شعبان: دقت البشائر بالقاهرة، فرحا بالصلح بين الأولاد الناصرية، وزينت الأسواق. وفيه انحط السعر. وقدم السلطان الملك العزيز إلى القاهرة سلخ شعبان.

وفي سابع رمضان: وصل الملك المعظم توران شاه وإخوته وعيالهم من دمشق، والديوان في ضائقة شديدة، فعجزوا عن إقامة وظائفهم ومطابخهم وجراياتهم، فنزلوا في الدار العزيزية. ونزعت الأسعار في المأكولات كلها.

وفي تاسع عشره: وصل عز الدين أسامة مفارقا للأفضل.

* * *

سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

ودخلت سنة إحدى وتسعين، والعزيز على عزم المسير إلى الشام، فاستشار الأفضل أصحابه، فمنهم من أشار عليه بمكاتبة العزيز واسترضائه، وأشار الوزير ابن الأثير عليه بالاعتصار بعمه العادل، واستنجاده على العزيز، فأصغى إليه، وكثرت الإشاعة بقصد العزيز إقامة الخطبة في دمشق باسمه، وضرب السكة له. فانزعج الأفضل، وخرج من دمشق في رابع عشر جمادى الأولى، وسار في جريدة إلى عمه العادل، فلقيه بصفين، فلما نزلا ألحف الأفضل في المسألة له أن ينزل عنده بدمشق، ليجيره من أخيه العزيز، فأجابه وأنزله بقلعة جعبر، ثم سار معه إلى دمشق أول جمادى الآخرة، فوصل إليها في تاسعه، ودخل الأفضل إلى حلب على البرية، مستصرخا بأخيه الملك الظاهر، فتلقاه وحلف له على مساعدته، ثم رحل عنه إلى حماة، فتلقاه ابن عمه الملك المنصور محمد ابن المظفر، وحلف له، ثم سار عنه إلى دمشق، فدخلها في ثالث عشره وبها العادل، فأفضى إليه بأسراره. وعلم العادل

اختلال أحوال الأفضل، وسوء تدبيره وقبيح سيرته، فانحرف عنه ونهاه فلم ينته إلا أنه مبالغ في كرامة عمه، حتى أنه ترك له السنجق. وصار العادل يركب بالسنجق السلطاني في كل يوم، ويركب الأفضل في خدمته.

فما هو إلا أن استقر ذلك إذ حدث بين الظاهر صاحب حلب وبين أخيه الأفضل وعمه العادل وحشة، من أجل ميل الملك المنصور صاحب حماة إلى العادل. فسير الظاهر إلى أخيه العزيز يحرضه على قصد الشام، ووعده بالمساعدة له على الأفضل، فوافق ذلك غرضه، وخرج من القاهرة بعساكره.

فلما قارب العزيز دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سرا واستمالهم، وكان الأمراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسدية تنافس، لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية. فعملت حيل العادل حتى وقعت الوحشة بين الطائفتين، ونفرت الأسدية من الملك العزيز. وكاتب العادل العزيز سرا يخوفه من الأسدية، ويحثه على إبعادهم عنه، وكاتب الأسدية، يخوفهم من العزيز ويستميلهم إليه. فحاق ما مكره وتم له ما دبره، وعزموا على مفارقة العزيز، وحسنوا للأكراد والمهرانية موافقتهم، فانقادوا إليهم. وكان مقدم أمراء الأكراد الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين، فاجتمع بالأكراد مع الأسدية، واتفقوا بأجمعهم على مفارقة العزيز والانضمام إلى العادل والأفضل، ومضايقة العزيز وعقدوا النية على مكاتبة من بقي منهم بمصر، أن يستقبلوا العزيز ويحولوا بينه وبين القاهرة، فيصير بذلك بين الفريقين، ويؤخذ باليد.

فلما كان في عشية الرابع من شوال: رحل الأمير أبو الهيجاء بالأكراد والمهرانية والأسدية، وهم لابسون لأمة الحرب، ولحقوا بالعادل فسر بهم، لأنهم معظم الجيش. فلما أصبح نهار الخامس من شوال رحل العزيز يريد مصر، وهو متخوف من الأسدية المقيمين بالقاهرة. وكان نائبه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، فلم يتغير على العزيز، ووصل إلى القاهرة فاستقر بها. ثم إن العادل خرج بالأفضل من دمشق، ومعه العساكر يريد أخذ القاهرة، لما داخله من الطمع في العزيز، واتفق مع الأفضل على أن يكون للعادل ثلث البلاد المصرية، ويكون ثلثاها للأفضل. فأجابه إلى ذلك ورحلا من دمشق، وخرج معهم أيضا المنصور صاحب حماة، وعز الدين بن المقدم وسابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر واستخلف الأفضل بدمشق أخاه الملك الظافر خضر صاحب بصرى وانضم إليهم عز الدين جرديك النوري نائب القدس، فلما وصلوا تل العجول، أخلع الأفضل على جميع الأسدية،

وعلى الأكراد الأفضلية، وأعطاهم الكوسات. وسار الأفضل إلى القدس، وتسلمه من جرديك، وأعطاه بيسان وكوكب والجولان والمنيحة ثم سار العسكر حتى نزل على بلبيس، وبها، جموع الصلاحية والعزيزية، ومقدمهم فخر الدين جهاركس على الصلاحية، والأمير هكدري ابن يعلى الحميدي على طائفة الأكراد، فنازلهم العادل والأفضل.

وكانت أيام زيادة ماء النيل، والأسعار غالية والعلف متعذر، فبلغ العسكر الواصل الجهد، وندم أكابرهم على ما كان منهم، هذا والعزيز يمد أهل بلبيس بالمراكب المشحونة بالرجال والعدد، فبلغ ذلك الأسدية، فركبوا إلى المراكب، وأخذوا بعضها وغرقوا بعضها، وأسروا خلقا، وسلم ثمانية مراكب عادت إلى القاهرة، واشتد الحصارعلى بلبيس حتى كادت تؤخذ، وضاق العزيز بالقاهرة، وقلت الأموال عنده، وكان محببا إلى الرعية، لما فيه من حسن السيرة، وكثرة الكرم والرفق، فلما نازل العادل والأفضل بلبيس احتاج إلى استخدام الرجال، فلم يجد عنده مالا، فبذل له الأغنياء جملة أموال، فلم يقبلها، وكان القاضي قد تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها، واعتزل لما رأى من اختلال الأحوال، وكان عبد الكريم بن علي البيساني يتولى الحكم والإشراف في البحيرة مدة طويلة، فحصل من ذلك مالا جما. ثم حدثت بينه وبين أخيه القاضي الفاضل مشاجرة اقتضت اتضاع حاله عند الناس بعد احترامهم إياه، فصرف عن عمله. وكان متزوجا بامرأة موسرة من بني ميسر، فسكن بها في ثغر الإسكندرية، وأساء عشرتها، لسوء خلق كان فيه، فسار أبرها إلى الإسكندرية، وأثبت عند قاضيها ضرر ابنته، فمضى القاضي بنفسه إلى الدار، فلم يقدر على فتح الباب الذي من داخله المرأة، فأمر بنقب الدار، وأخرج المرأة وسلمها لأبيها وأعاد بناء النقب، فغضب عبد الكريم وسار إلى القاهرة، وبذل للأمير فخر الدين جهاركس خمسة آلاف دينار مصرية، ووعد خزانة الملك العزيز بأربعين ألف دينار على ولاية قضاء الإسكندرية، وحمل ذلك بأجمعه إلى فخر الدين جهاركس. فأحضره جهاركس إلى العزيز، وهو حينئذ في غاية الضرورة إلى المال، وقال: " هذه خزانة مال قد أتيتك بها من غير طلب ولا تعب "، وعرفه الخبر. فأطرق العزيز مليا، ثم رفع رأسه وقال: " أعد المال إلى صاحبه، وقل له إياك والعود إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلا، وعرفه أني إذا قبلت هذا منه أكون قد بعت به أهل الإسكندرية، وهذا لا أفعله أبدا ". فلما سمع هذا جهاركس وجم، وظهر في وجهه التغير. فقال له العزيز: " أراك واجما، أظنك أخذت على الوساطة شيئا ". قال: " نعم خمسة آلاف

دينار ". فأطرق العزيز، ثم قال: " أعطاك مالا تنتفع به، وأنا أعطيك في قبالته ما تنتفع به مرات عديدة "، ثم وقع له بخطه إطلاق جهة طنبدة، ومغلها في السنة سبعة آلاف دينار، فلامه أصحابه وألحوا عليه في الاقتراض من القاضي الفاضل، فاستدعاه إلى مجلسه، بمنظرة من دار الوزارة كانت تشرف على الطريق، فعندما عاين القاضي الفاضل استحيا منه، ومضى إلى دار الحرم، احتراما له من مخاطبته في القرض، فلم يزل الأمراء به حتى أخرجوه من عند الحرم. فلما اجتمع بالفاضل قال له، بعد أن أطنب في الثناء عليه: " قد علمت أن الأمور قد ضاقت علي، وقلت الأموال عندي، وليس لي إلا حسن نظرك، وإصلاح الأمر إما بمالك أو برأيك أو بنفسك ". فقال القاضي الفاضل: " جميع ما أنا فيه من نعمتكم، ونحن نقدم أولا الرأي والحيلة، ومتى احتيج إلى المال فهو في يديك".

واتفق أن العادل " لما اشتد على أصحابه الغلاء والضيق " استدعى القاضي الفاضل برسول قدم منه على العزيز، فسيره إليه. وقد قيل: إن العزيز لما جرى على المراكب التي جهزها إلى بلبيس ما جرى، خاف على الملك أن يخرج من يده، فسير إلى عمه في السر يعرفه أنه قد أخطأ، وأنه قد عزم على اللحاق ببلاد المغرب، ويسأله الاحتفاظ بحرمه وأولاده. فرق له العادل، واستدعى القاضي الفاضل، فلما قرب منه ركب إلى لقائه وأكرمه، وما زالا حتى تقرر الأمر على أن الأسدية والأكراد يرجعون إلى خدمة العزيز، من غير أن يؤاخذهم بشيء، ويرد عليهم إقطاعاتهم، ويحلف العزيز لهم ويحلفون له، وأن يكون العادل مقيما بمصر عند العزيز، ليقرر قواعد ملكه، وأن العزيز والأفضل يصطلحان، ويستقر كل منهما على ما بيده. فعاد القاضي الفاضل، وقد تقرر الأمر على ما ذكر، وحلف كل منهم لصاحبه على الوفاء.

وخرج العزيز من القاهرة إلى بلبيس، فالتقاه عمه العادل وأخوه الأفضل، ووقع الصلح التام في الظاهر. ورحل الأفضل يريد الشام، ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين، وصار الساحل جميعه مع الأفضل، وعاد العزيز إلى القاهرة، وصحبته عمه العادل، فأنزله في القصر من القاهرة. وأخذ العادل في إصلاح أمور مصر، والنظر في ضياعها ورباعها، وأظهر من محبة العزيز شيئا زائدا، وصار إليه الأمر والنهي والحكم والتصرف في سائر أمور الدولة، جليلها وحقيرها، وصرف القاضي محيي الدين محمد بن

أبي عصرون عن قضاء مصر، وولى زين الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي.

وفيها جدد العزيز الصلح بينه وبين الفرنج.

وفيها ورد كتاب ملك الروم، يتضمن أن كلمة الروم اجتمعت عليه، وأنه أحسن إلى المسلمين وأمرهم بإقامة الجامع، فأقيمت الصلاة فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة، وأنه عمر جانبا منه كان انهدم من ماله، فتمكن من في القسطنطينية من المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة بها. والتمس ملك الروم الوصية بالبطرك والنصارى، وأن يمكنوا من إخراج موتاهم بالشمع الموقد، وإظهار شعائرهم بكنائسهم، وأن يفرج عن أسارى الروم بمصر.

* * *

سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

وأهلت سنة اثنتين وتسعين: ففي أولها: وصل الملك الأفضل إلى دمشق، وتفرقت العساكر إلى بلادها، ولزم الأفضل الزهد، وأقبل على العبادة، وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير، فاختلت به الأحوال غاية الاختلال، وكثر شاكوه. وضبط العادل أمور مملكة مصر، وغير الإقطاعات، ووفر الارتفاعات وعمال الأعمال، وثمر الأموال، وقرب إلى العزيز الأمير عز الدين أسامة، فصار صاحب سره وحاجبه، والواسطة بينه وبين عمه. واختص الأمير صارم الدين قايماز النجمي بالعادل، وصار صفوته.

وفيه وصل العادل والعزيز إلى الداروم وأمر بإخراب حصنها، فقسم على الأمراء والجاندارية فشق على الناس تجريبه، لما كان به من الرفق للمسافرين، وانتهى الملكان إلى دمشق " وقد استعد الأفضل للحرب في أول شهر رجب " فحاصراها إلى أن ملكاها في العشرين منه، بعد عدة حروب، خان الأفضل فيها أمراءه، فلما أخذ المدينة نزل الأفضل من القلعة إليهما، فاستحيا العادل منه، لأنه هو الذي حمل العزيز على ذلك، ليوطيء لنفسه، كما يأتي. وأمره العادل أن يعود إلى القلعة، فلم يزل بها أربعة أيام، حتى بعث إليه العزيز أيبك فطيس أمير جاندار، وصارم الدين خطلج الأستادار، فأخرجاه عياله وعيال أبيه.

وأنزل الأفضل في مكان، وأوفي ما كان عليه من دين، وما للحواشي من الجوامك. فبلغ ذلك نيفا وعشرين ألف دينار، بيع فيها بركه وجماله وبغاله وكتبه ومماليكه وسائر ماله، فلم توف بما عليه، وقسا عليه أخوه وعمه لسوء حظه، ثم بعث إليه عمه العادل يأمره أن يسير إلى صرخد، فلم يجد عنده من يسير بأهله، حتى بعث إليه جمال الدين محاسن عشرة أوصلوه إلى صرخد. وأخذت من الملك الظافر مظفر الدين خضر بصرى وأعطيت للملك العادل، وأمر الظافر أن يسير إلى حلب، فلحق بأخيه الظاهر صاحبها. ويقال إن العادل كان قد قرر مع الملك العزيز " وهو بالقاهرة " أن الملك العزيز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها ويعود العادل إلى مصر نائبا عن العزيز فلما ملك العزيز دمشق، وأخرجه أخوه

الأفضل منها، انكشفت له مستورات مكائد عمه، فندم على ما قرره معه، وبعث إلى أخيه الأفضل سرا يعتذر إليه، ويقول له: لا تنزل عن ملك دمشق. فظن الأفضل هنا من أخيه خديعة، وأعلم عمه العادل به، فقامت قيامته، وعتب على العزيز وأنبه. فأنكر العزيز أن يكون صدر هذا منه، وحنق على أخيه الأفضل، وأخرجه إلى صرخد على قبح صورة. واختفى الوزير ضياء الدين ابن الأثير الجزري خوفا من القتل، ثم لحق بالموصل. واستقر الأمر بدمشق للعزيز في رابع عشر شعبان، فأظهر العدل، وأبطل عدة مكوس، ومنع من استخدام أهل الذمة في شيء من الخدم السلطانية، وألزموا لبس الغيار، ثم رحل عنها ليلة التاسع منه يريد القاهرة، واستخلف عمه العادل على دمشق، وسار إلى القدس، فملكها من أبي الهيجاء السمين وسلمها إلى الأمير شمس الدين سنقر الكبير، وسار أبو الهيجاء إلى بغداد. ووصل العزيز إلى القاهرة يوم الخميس رابع شهر رمضان، فصارت دمشق وأعمالها إقطاعا للملك العادل، وليس للعزيز بها سوى الخطبة والسكة فقط.

وفي ذي الحجة: عزم العزيز على نقض الأهرام، ونقل حجارتها إلى سور دمياط، فقيل له إن المؤنة تعظم في هدمها، والفائدة تقل من حجرها. فانتقل رأيه من الهرمين إلى الهرم الصغير " وهو مبني بالحجارة الصوان " فشرع في هدمه.

* * *

سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ودخلت سنة ثلاث وتسعين، وفيها أقيمت الخطبة للعزيز بحلب، وضربت السكة باسمه، بصلح وقع بين العزيز وبن أخيه الظاهر وقد تولاه القاضي بهاء الدين أبو المحاسن بن شداد، وغرس الدين قلج، قدما من حلب إلى العزيز بالقاهرة بهدايا، فانعقد الصلح بين الأخوين على ذلك.

وعادا إلى الظاهر، فخطب للعزيز في شهر ربيع الأول وضربت السكة باسمه.

وفيه تحرك الفرنج على بلاد الإسلام، فخرج العادل من دمشق، وسير جيشا إلى بيروت لهدم ربضها.

وفيها فتح الملك العادل صاحب دمشق يافا عنوة، وغنم وأسر كثيرا، يقال: إنهم سبعة آلاف نفس، ما بين ذكر وأنثى.

وفيها سار العادل من يافا إلى صيداء وبيروت فأخربهما، ونهبت بيروت، وفر من كان بها. وبعث العادل إلى الملك العزيز يستنجده، فسير إليه عسكرا خرج من القاهرة أول شوال، وسار إلى بلبيس. ثم بدا للعزيز أمر ففرق العسكر ولم يسر.

* * *

سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ودخلت سنة أربع وتسعين، فانتشر من وصل في البحر من الفرنج ببلاد الساحل، وملكوا قلعة بيروت، وقتلوا عدة من المسلمين في أطراف بلاد القدس، وأسروا وغنموا شيئا كثيرا، فبعث الملك العادل إلى القاهرة يطلب من العزيز نجدة، فسارت إليه العساكر من مصر، ومن القدس وغيرها. ثم خرج الملك العزيز بنفسه، ومعه سائر عساكر مصر لقتال الفرنج، فنزل على الرملة في سادس عشري صفر، وقدم الصلاحية والأسدية، وعليهم الأمير شمس الدين سنقر الدوادار، وسرا سنقر وعلاء الدين شقير، وعدة من الأكراد، فلحقوا العادل وهو على تبنين. وسار العزيز في أثرهم، فكانت بينهم وبين الفرنج وقائع شهيرة، آلت إلى رحيل الفرنج إلى صور، وركب العادل والعزيز أقفيتهم، فقتلوا منهم. وترك العزيز العساكر عند العادل، ورجع إلى القاهرة في ثامن جمادى الآخرة، قبل انفصال الحال مع الفرنج، من أجل أن ميمون القصري، وأسامة وسرا سنقر، والحجاف، وابن المشطوب، كانوا قد عزموا على قتله فلما بلغه ذلك رحل إلى القاهرة فخرج الناس إلى لقائه، وكان يوما مشهودا.

ووقعت الهدنة بين العادل وبين الفرنج سنة ثلاث، وعاد العادل إلى دمشق.

وفي هده السنة: توجه العادل من دمشق إلى مدينة ماردين، ونازلها وأخذ ربضها. وفيها خرج الملك الكامل محمد بن العادل من حران، وقاتل عسكر المواصلة.

وفيها أغار الفرنج، ونهبوا وأسروا خلقا، وانتهوا إلى عكا. فعاد العادل إلى دمشق في رمضان، ثم خرج بعد شهر إلى الشرق يريد ماردين.

وفيها ادعى معز الدين إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين ملك اليمن الإلهية نصف نهار، وكتب كتابا وأرخه من مقر الإلهية. ثم رجع عن ذلك، وادعى الخلافة،

وزعم أنه من بني أمية، ودعا لنفسه في سائر مملكته بالخلافة، وقطع الدعاء من الخطبة لبني العباس، ولبس ثيابا خضرا وعمائم خضرا مذهبة، وأكره من كان في مملكته من أهل الذمة على الإسلام، وخطب بنفسه، وعزم على قصد مكة، وجهز من بنى له بها دارا، فأسرهم الشريف أبو عزيز قتادة.

* * *

سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ودخلت سنة خمس وتسعن وخمسمائة والعادل مضايق مدينة ماردين، والمعز صاحب اليمن قد تجهز يريد مكة، والعزيز صاحب مصر قد سار إلى الإسكندرية، من آخر ذي الحجة. فتصيد العزيز إلى سابع المحرم، وركض خلف ذئب فسقط عن فرسه ثم ركب وقد حم، فدخل القاهرة يوم عاشوراء فلم يزل لما به حتى مات، منتصف ليلة السابع والعشرين منه، ودفن بجوار قبر الشافعي، رحمة الله عليه. وكان عمره سبعًا وعشرين سنة وأشهرًا، ومدة ملكه ست سنين تنقص شهرًا وستة أيام.

وكان ملكًا كريمًا، عادلاً رحيمًا، حسن الأخلاق شجاعًا، سريع الانقياد مفرط السخاء. سمع الحديث من السلفي، وابن عوف، وابن برى، وحدث. وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة، وكان يعطى العشرة آلاف دينار، ويعمل سماطًا عظيمًا يجمع الناس لأكله، فإذا جلسوا للأكل كره منهم أكله، ولا يطيب له ذلك، وهذا من غرائب الأخلاق.

* * *

السلطان الملك المنصور ناصر الدين

محمد ابن الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد بالقاهرة... جمادى الأولى، سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ومات أبوه وعمره تسع سنين وأشهر. وقد أوصى له أبوه بالملك من بعده، وأن يكون مدبر أمره الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي. فأجلس على سرير الملك في غد وفاة أبيه، يوم الاثنين حادي عشر المحرم، وجعل قراقوش أتابكًا. وحلف له الأمراء كلهم، ماخلا عماه الملك المؤيد نجم الدين مسعود والملك المعز، فإنهما أرادا أن تكون الأتابكية لهما، وجرت منهما منازعة، ثم حلفا. ووقع الخلاف بي أمراء الدولة، فطعن عدة منهم في قراقوش، بأنه مضطرب الرأي ضيق العطن، ولا يصلح لهذا الأمر، وتعصب جماعة معه، ورأوا أنه أطوع من غيره. وكثر النزاع في ذلك، وصاروا إلى القاضي الفاضل، ليأخذوا رأيه، فامتنع من المشورة عليهم، فزكوه.

وأقاموا ثلاثة أيام يمحصون الرأي، حتى استقر على مكاتبة الملك الأفضل، ليحضر أتابكًا عوض قراقوش، بشرط ألا يرفع فوق رأسه السنجق، ولا يذكر له اسم في خطبة ولا سكة، وأن يدبر أمر الملك المنصور مدة سبع سنين، فإذا تم هذا الأجل سلم إليه الأمر والتدبير، وسيروا إليه القصاد بذلك، وأقيم الملك الظافر مظفر الدين خضر ابن السلطان صلاح الدين مباشر نيابة السلطنة، حتى يقدم الأفضل. فخرج الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر، في تسعة عشرة نفسًا، متنكرًا، خوفًا من العادل.

وكان الأمير فخر الدين جهاركس - لما قرر أمراء مصر توليته أمر الأفضل، وكتبوا إليه بالحضور - كره ذلك، وكتب إلى الأمير فارس الدين ميمون القصرى صاحب نابلس، ينهاه عن الموافقة على إقامة الأفضل. فوقع الأفضل على القاصد، وأخذ منه الكتاب، وعلم ما فيه، وقال له: ارجع فقد قضيت الحاجة، وسار الأفضل، ومعه ذلك القاصد، حتى وصل بلبيس، وقد خرج الأمراء إلى لقائه، في خامس شهر ربيع الآخر. فنزل في خيمة أخيه الملك المؤيد مسعود. وكان فخر الدين جهاركس يؤمل أنه ينزل في خيمته، فشق ذلك عليه من فعل الأفضل، ولم يجد بدًا من المجىء إلى عنده، فأكرمه الأفضل. ثم لما فرغ الأفضل من طعام أخيه، صار إلى خيمة فخر الدين وأكل طعامه، فحانت من فخر الدين التفاتة، فرأى القاصد الذي بعثه إلى نابلس،

فدهش وخاف من الأفضل، وأخذ يستأذنه في التوجه إلى العرب المخالفين ليصلح أمرهم، فأذن له. وللحال قام فخر الدين واجتمع بزين الدين قراجا وأسد الدين سراسنقر، وسار بهما مجدًا إلى القدس، فإذا بشجاع الدين طغرل السلاح دار سائر إلى مصر، فألفتوه عن الأفضل، وساروا به إلى القدس، فاتفق معهم الأمر صارم الدين صالح نائب القدس، ووافقهم أيضًا الأمير عز الدين أسامة وميمون القصرى، وقدما إلى القدس، ومع ميمون سبعمائة فارس منتخبة، وكاتبوا الملك العادل، يستدعونه لأتابكية الملك المنصور.

وأما الأفضل فإنه سار من بلبيس إلى القاهرة، فخرج المنصور وتلقاه، في سابع ربيع الآخر وكانت مدته شهرين و... وتحكم الأفضل. ولما استقرا بالقاهرة كتب الأفضل إلى عمه الملك العادل، يخبره بوصوله إلى مصر، حفظًا لدولة ابن أخيه، وأنه لا يخرج عما يأمره به، فورد جوابه بأن العزيز إن كان مات عن وصية فلا يعدل عنها، وإن كان مات عن غير وصية، فيكتب الأعيان خطوطهم لك بذلك، حتى نرى الرأي. فاستولى الأفضل على أمر مصر كله ولم يبق للمنصور غير مجرد الاسم فقط. وعزم الأفضل على قبض من بقى من الأمراء الصلاحية. بمصر ففر منهم جماعة، ولحقوا بفخر الدين جهاركس بالقدس. وقبض الأفضل على جماعة: منهم الأمير علاء الدين شقير، والأمير عز الدين البكى الفارس، والأمير عز الدين أيبك فطيس، وخطلبا، ونهب أموالهم، ثم برز إلى بركة الجب، فأقام أربعة أشهر، وحلف بها الأمراء والأجناد، مبلغه عن أخيه الملك المؤيد مسعود أنه يريد الوثوب عليه، فقبضه وسجنه.

وبعث الملك الظاهر غازي صاحب حلب إلى أخيه الأفضل يحثه على سرعة القدوم من مصر إلى دمشق، واغتنام الفرصة في أمرها والملك العادل غائب عنها في حصار ماردين. فقبض الصلاحية بالشام على القاصد، وأهانوه ثم أطلقوه، فسار إلى الأفضل، وبلغه رسالة أخيه الظاهر. فرحل الأفضل من بركة الجب ثالث شهر رجب، ومعه الملك المنصور، فأقام بالعباسة خمسة أيام. واستخلف على القاهرة سيف الدين يازكج الأسدي ثم سار إلى دمشق، فنزل عليها في ثالث عشر شعبان، وقد بلغ العادل خروجه من مصر، وهو على حصار ماردين، فرتب ابنه الكامل محمدًا على حصارها، وسار في مائتي فارس إلى دمشق فقدمها في ثمانية أنفس، لكثرة ما أسرع في السير، قبل منازلة الأفضل لها بيومين وتلاحق به أصحابه وقدم الأفضل منزل الشرفين والميدان الأخضر، وهجم بعض أصحابه على البلد وأحرقوا، وصاحوا: يا

أفضل، يا منصور. فصاحت العامة معهم بذلك، لميلهم إلى الأفضل، فبرز إليهم العادل، وأخرجهم من البلد، وامتنع بها، ففر من أمراء الأفضل عدة، فتأخر حينئذ عن دمشق إلى نحو الكسوة. فدس العادل إلى جماعة ممن في صحبة الأفضل بكلام منه. إني أريد الرجوع إلى الشرق، وأترك الشام ومصر لأولاد أخي، ففندوا الأفضل عن الحرب. وبذل العادل لهم مالاً، فمشى ذلك من مكره عليهم، وخذلوا الأفضل، بأن أشاروا عليه بترك القتال حتى يقدم أخوه الظاهر من حلب. فأمسك الأفضل عن الحرب مدة، والعادل يكاتب الأمراء ويستميلهم شيئًا بعد شيء، وهم يأتونه فيبذل لهم المال، ويوسع عليهم، إلى أن قدم الظاهر من حلب في آخر شعبان، فقوى به الأفضل، ورحلا إلى مسجد القدم، وحاربا العادل وحاصراه، حتى غلت الأقوات بدمشق لشدة الحصار. فقدمت الصلاحية من القدس نصرة للعادل، فاشتد عضد العادل بقدومهم، وجهز إلى القدس من يمنع الميرة الواصلة من مصر إلى الأفضل، فوجدوا يازكج قد أخرج سبعمائة من عسكر مصر نجدة للأفضل، فقاتلوهم وكسروهم وغنموا ما معهم. وصارت أهل دمشق في جهد من الغلاء، واحتاج العادل إلى القرض، فأخذ مالاً من التجار. وقوي الزحف على البلد حتى أشرف على الأخذ، وهم العادل بالتسليم، فاتفق وقوع الخلف بين الظاهر وبن أخيه الأفضل.

* * *

سنة ست وتسعين وخمسمائة

وأهلت سنة ست وتسعين والأخوان على حصار عمهما العادل بدمشق، وقد خربت البساتين والدور، وقطعت الأنهار، وأحرقت الغلال، وقلت الأقوات. وعزم العادل على تسليم دمشق، لكثرة من فارقه وخرج عنه إلى الأفضل، فكتب إلى ابنه الكامل يستدعيه، وكتب إلى نائب قلعة جعبر أن يسلمه ما يستدعيه من المال، وكانت أموال العادل بها، فسار إليه الكامل في العسكر الذي معه، وأخذ من قلعة جعبر أربعمائة ألف دينار، وقدم على أبيه فقوي بقدومه قوة عظيمة، ووقع الوهن في عسكر الأفضل والظاهر لكثرة من خامر منهم، ودس العادل مكيدة بين الأخوين، وهي أن الظاهر كان له مملوك يقال له أيبك وقد شغفه حبًا، ففقده وظن أنه دخل دمشق فعلق، وبلغ ذلك العادل، فبعث إليه بكلام فيه: أن محمود بن الشكري أفسد مملوكك، وحمله إلى الفضل، فقبض الظاهر حينئذ على ابن الشكري، وظهر المملوك عنده، فما شك في صدق ما قاله عمه، ونفر من أخيه وامتنع من لقائه، وكان البرد قد اشتد، فرحلا

إلى الكسوة، وسار إلى مرج الصفر، ثم سارا إلى رأس الماء، فغلت الأسعار، وقوي البرد، فرحل الظاهر على القريتين، ورحل الأفضل بعساكره يريد مصر، وتركوا من أثقالهم ما عجزوا عن حمله فأحرقوه، وهلك لهم عدة مماليك ودواب، ودخل الأفضل إلى بلبيس في خامس عشرى شهر ربيع الأول، فأشير عليه بالإقامة بها.

وورد الخبر بأن العادل خرج من دمشق، ونزل تل العجول، وأنه كتب الإقامات للعربان، واستدعى الكنانية، فجمع الأفضل الأمراء، وركب ودار على سور بلبيس، وأمر قراقوش بحفظ قلعة الجبل، وأن يهتم بحفر ما بقي من سور مصر والقاهرة، وأنه يعمق الحفر حتى يصل إلى الصخر، ويجعل التراب داخل المدينة على حافة الحفر، ليكون مثل الباشورة، ويستعمل الأبقار فيه، ويعمل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقس، حتى لا يبقى إلى البلد طريق إلا من أبوابها.

وفي ثاني ربيع الآخر: نزل العادل قطية فهم الفضل بتحريق بلبيس، فنفرت القلوب منه، وقطع أرزاق المرتزقة من جانب السلطان، ومن الأحباس على مكة والمدينة والفقهاء وأرباب العمائم، ليغلق الذي للجند، فما سد المأخوذ، ولا انقطع الطلب من الأجناد، وثار الضجيج من المساكن. ووصل العادل فواقعه الأفضل، فانكسر منه وانهزم، فتبعهم العادل إلى بركة الجب، فخيم بها وأقام ثمانية أيام، ولحق الأفضل بالقاهرة، فدخلها يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر، وخامر جماعة عليه، وصاروا إلى العادل، وألجأت الضرورة الأفضل إلى مراسلة العادل، فطلب منه أن يعوضه عن ديار مصر بدمشق، فامتنع العادل، وقال: لا تحوجني أن أخرق ناموس القاهرة، وآخذها بالسيف، اذهب إلى صرخد، وأنت آمن على نفسك فلم يجد الأفضل بدًا من التسليم، لتخاذل أصحابه عنه. فتسلم العادل القاهرة، ودخلها يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر، وخرج منها الفضل منهزمًا في ذلك اليوم، وكان الوزير ضياء الدين ابن الأثير قد قدم إلى مصر، وتمكن من الأفضل فلما تسلم العادل القاهرة فر، ولحق بصرخد، وكانت مدة استيلاء الفضل على ديار مصر سنة واحدة وثمانية وثلاثين يومًا، وخرج إلى بلاد الشرق فأقام بدمياط، وكان مدة إقامته بالقاهرة لا يقدر أن يخلو بنفسه في ليل ولا نهار، وكان الأمراء قد حجروا عليه أن يخلو بأحد، وكانت الضرورة ملجئة إلى موافقتهم. وأقام العادل بالقاهرة على أتابكية الملك المنصور، وحلف له الأمراء على مساعدته، ليقوم بأتابكية المنصور إلى أن يتأهل للاستقلال بالقيام بأمور المملكة، فلم يستمر ذلك...، فانتقض الأمر في الحادي والعشرين من شوال، وذلك أن الملك العادل أحضر جماعة من الأمراء وقال لهم: إنه قبيح بي أن

أكون أتابك صبي، مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس هو بالارث، وإنما هو لمن غلب، وأنه كان يجب أن أكون بعد أخي الملك الناصر صلاح الدين، غير أني تركت ذلك إكرامًا لأخي، ورعاية لحقه، فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك عن يدي ويد أولاد أخي، فسست الأمر إلى آخره، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامي فيه، ونهوضي بأعبائه، فلما ملكت هذه البلاد، وطنت نفسي على أتابكية هذا الصبي، حتى يبلغ أشده، فرأيت العصبيات باقية، والفتن غير زائلة، فلم آمن أن يطرأ على ما طرأ على الملك الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة إنسان آخر، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك، والرأي أن يمضي هذا الصبي إلى الكتاب، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه، فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت في أمره، وقمت بمصالحه. هذا والأسدية كلهم مع العادل على هذا الرأي، فلم يجد من عداهم بدًا من موافقته، فحلفوا له، وخلعوا المنصور في يوم الخميس، وخطب للعادل من الغد يوم الجمعة حادي عشرى شوال، فكانت سلطنة المنصور سنة واحدة وثمانية أشهر وعشرين يومًا.

* * *

السلطان سيف الدين أبو بكر بن أيوب

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ولما حلف له الأمراء استولى على سلطنة مصر في حادي عشرى شوال، وخطب له بديار مصر وأرض الشام وحران والرها وميافارقن، واستحلف النلس بهذه البلاد، وضربت السكة باسمه واستدعى العادل ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمدًا، فحضر إلى القاهرة في يوم الخميس لثمان بقين من رمضان، ونصبه نائبًا عنه بديار مصر، وجعل الأعمال الشرقية إقطاعه كما كانت إقطاعًا للعادل في أيام السلطان صلاح الدين، وجعله ولي عهده، وحلف له الأمراء.

وفيها استناب العادل بدمشق ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى واستناب ببلاد الشرق ابنه الملك الفائز، وأقر بحلب ابن أخيه الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وبحماة الملك المنصور بن تقي الدين عمر.

وفيها أخرج الملك العادل ابن ابن أخيه الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر، ومعه إخوته وأخواته ووالدته فساروا إلى الشام، ثم سيرهم إلى الرها، فهربوا منها إلى حلب وبقي الملك المنصور. بمدينة الرها، حتى مات سنة عشرين وستمائة، وكان قد أصبح أميرًا عند الظاهر صاحب حلب.

* * *

سنة سبع وتسعين وخمسمائه

فيها قبض الملك العادل على أولاد أخيه صلاح الدين وهما الملك المؤيد مسعود والملك المعز إسحاق، وسجنهما فى دار بهاء الدين قراقوش بالقاهرة، وتسلم الأمير فخر الدين جهاركس بانياس من الأمير حسام الدين بشارة بعد حصار وقتال.

وفيها حدثت الوحشة بين الملك العادل وبين الصلاحية من أجل أنه خلع المنصور ابن العزيز، وكتب الأمر فارس الدين ميمون القصرى من نابلس إلى العادل بإنكار خلع المنصور، فأجابه العادل جوابًا خشنًا، وتكررت المكاتبة بينهما غير مرة، فكتب ميمون إلى الصلاحية يغريهم بالعادل، فلم يجد فيهم نهضة للقيام، وفي أثناء ذلك حدثت وحشة بين الظاهر صاحب حلب وبين عمه العادل، وسير إليه وزيره علم الدين قيصر ونظام الدين، فمنعهما العادل أن يعبرا إلى القاهر، وأمرهما أن يقيما ببلبيس، ويحملا قاضي بلبيس ما معهما من الرسالة، فعادا مغضبين، واجتمعا. بميمون القصرى فى نابلس، ومازالا به حتى مال إلى الفضل وإلى أخيه الظاهر، فلما وصلا إلى حلب شق على الظاهر ما كان من عمه، وكاتب الصلاحية ورغبهم، وكاتب ميمون القصرى، وشرع الأفضل أيضًا فى مكاتبتهم وهو بصرخد، وانضوى إلى الأفضل الأمير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب، وصلت له، فبلغ ذلك العادل فتيقظ لنفسه، وكتب إلى ابنه المعظم صاحب دمشق. بمحاصرة الأفضل فى صرخد، فجمع وخرج من دمشق، فاستخلف الأفضل على صرخد أخاه الملك الظافر خضر، وسار إلى أخيه الظاهر بحلب فى عاشر جمادى الأولى، فنزل المعظم على بصرى، وكاتب فخر الدين جهاركس وميمون القصرى، يأمرهما بالمسير إليه لحصار صرخد، فلم يجيبا، وجمعا من يوافقهما، وصارا إلى الظافر بصرخد. وكتبوا إلى الظاهر بحلب يحثونه على الحركة وأخذ دمشق، فوافته الكتب وعنده الأفضل، فجمع الناس وعزم على المسير، ثم سار الظاهر، فلم يوافقه المنصور صاحب حماة، فحاصره مدة، ثم رحل عنه بغير طائل، فنازل دمشق ومعه الأفضل، وأتته الصلاحية هناك، فخرج العادل من القاهرة بعساكره، واستخلف على القاهرة ابنه الملك الكامل محمدًا، وسار حتى نازل نابلس.

وقدم العادل طائفة من العسكر، فساروا إلى دمشق، واستولوا عليها قبل نزول الأفضل والظاهر عليها، فقدما بعد ذلك، وضايقا دمشق فى رابع عشر ذي القعدة،

واشتد القتال حتى كادا يأخذان البلد، فوقع بينهما الاختلاف. بمكيدة دبرها العادل، ففترت الهمة عن القتال، وذلك أن العادل كتب إلى كل من الأفضل وإلى الظاهر سرًا، بأن: أخاك لا يريد دمشق إلا لنفسه، وقد اتفق معه العسكر فى الباطن على ذلك فانفعلا لهذا الخبر، وطلب كل منها من الآخر أن تكون دمشق له فامتنع، فبعث العادل فى السر إلى الأفضل يعده بالبلاد التي عينت له بالشرق، وهى رأس عين والخابور وميافارقن، وغير ذلك، وبذل له مع ذلك مالاً من مصر فى كل سنة. بمبلغ خمسين ألف دينار، فانخدع الأفضل وقال للأمراء الصلاحية ومن قدم إليه من الأجناد: لا إن كنتم جئتم إذ فقد أذنت لكم فى العود إلى الملك العادل، وإن كنتم جئتم إلى أخي فأنتم به أخبر. وكانوا يحبون الفضل من أجل أنه لين العريكة، فقالوا كلهم: لا نريد سواك، والعادل أحب إلينا من أخيك. فأذن لهم في العود إلى العادل، فسار إليه الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير زين الدين قراجا، وعلاء الدين شقير، والحجاف، وسعد الدين بن علم الدين قيصر، فوقع الوهن والتقصير فى القتال بعدما كانوا قد أشفوا على أخذ دمشق وانقضت هذه السنة والأفضل والظاهر على منازلة دمشق.

* * *

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

في أول المحرم: رحل الأفضل والظاهر عن دمشق، فصار الظاهر إلى حلب ومعه جماعة من الأمراء الصلاحية، منهم فارس الدين ميمون القصرى، وسرا سنقر، والفارس البكى، فأقطعهم الإقطاعات وأكرمهم، وتوجه الأفضل إلى حمص، وبها أمه وأهله عند الملك المجاهد، وقدم العادل إلى دمشق، ونزل بالقلعة ثم سار منها إلى حماة، ونزل عليها بعساكره، فقام له الملك المنصور بجميع كلفه ونفقاته، وأظهر أنه يريد حلب، فخافه الظاهر واستعد للقائه، وراسل العادل وبعث إليه بهدايا جليلة ولاطفه، فانتظم الصلح بينهما على أن يكون للعادل مصر ودمشق والسواحل وبيت المقدس وجميع ما هو فى يده ويد أولاده من بلاد الشرق، وأن يكون للظاهر حلب وما معها، وللمنصور حماة وأعمالها، وللمجاهد حمص والرحبة وتسمر، وللأمجد بعلبك وأعمالها، وللأفضل سميساط وبلادها لا غير، وأن يكون الملك العادل سلطان البلاد جميعها، وحلفوا على ذلك. فخطب للعادل بحلب فى يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة، وأقطع الأفضل قلعة النجم مع سروج

وسميساط، وجهز العادل ابنه الأشرف مظفر الدين موسى إلى الجزيرة، ليتسلم حران والرها وما معهما، ويستقر بالجزيرة ويستقر الأوحد أيوب أخوه فى ميفارقين وترتب بقلعة جعبر ابنه الحافظ نور الدين أرسلان. وأقر العادل ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى بدمشق، وعاد العادل من حماة إلى دمشق، وقد اتفقت كلمة بنى أيوب.

وفيها قتل المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن نجم الدين أيوب، وذلك لما ملك اليمن - بعد أبيه - خرج عليه الشريف عبد الله الحسنى، ثم خرج عليه نحو ثمانمائة من مماليكه، وحاربوه وامتنعوا منه بصنعاء، فكسرهم وجلاهم عنها، فادعى الربوبية، وأمر أن يكتب عنه ويكاتب بذلك، وكتب صدرت هذه المكاتبة من مقر الالهية. ثم خاف المعز إسماعيل من الناس، فادعى الخلافة وانتسب إلى بنى أمية، وجعل شعاره الخضرة، ولبس ثياب الخلافة، وعمل طول كل كم خمسة وعشرين شبرًا في سعة ستة أشبار، وقطع من الخطبة الدعاء لبنى العباس، وخطب لنفسه على منابر اليمن، وخطب هو بنفسه يوم الجمعة، فلما بلغ ذلك عمه العادل سير بالإنكار عليه، فلم يلتفت إلى قوله، وأضاف إلى ذلك سوء السيرة وقبح العقيدة، فثار عليه مماليك أبيه لهوجه وسفكه الدماء وحاربوه وقتلوه، ونصبوا رأسه على رمح، وداروا به بلاد اليمن، ونهبوا زبيد تسعة أيام، وكان قتله في رابع عشر رجب، من سنة ثمان وتسعن، وقام من بعده أخوه الناصر أيوب - وقيل: محمد، وترتب سيف الدين سنقر أتابك العساكر، ثم استقل سنقر بالسلطة.

* * *

سنة تسع وتسعين وخمسمائة

فيها وصل الفرنج إلى عكا، وتحرك أهل صقلية لقصد ديار مصر، فقدم من حلب خمسمائة فارس ومائة راجل نجدة إلى العادل وهو بدمشق، فورد كتاب ناصر الدين منكورس بن خمارتكن، صاحب صهيون، يخبر بنزول صاحب الأرمن على جسر الحديد لحرب أنطاكية، وأن أكثر الفرنج عادوا من عكا إلى البحر، ولم يبق بها إلا من عجز عن السفر، وأن بها غلاءً عظيمًا.

وفيها قصد الفرنج من طرابلس، ومن حصن الأكراد وغيرها، مدينة حماة، فركب إليهم المنصور في ثالث رمضان، وقاتلهم فهزمهم، وأسر منهم وغنم، وعاد مظفرًا، فورد الخبر بوصول الفرنج إلى عكا من البحر فى نحو سبعين ألفًا، وأنهم يريدون الصلح مع الأرمن على حرب المسلمين، وخرج جمع من الاسبتار من حصن الأكراد والمرقب، في شهر رمضان أيضًا، وخرج إليهم المنصور، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر جماعة، وانهزم من بقي.

وفيها بلغ العادل أن الملك الأفضل على ابن أخيه كاتب الأمراء، فأمر ابنه الأشرف موسى أن ينتزع منه رأس عين وسروج، وكتب إلى الظاهر أن يأخذ منه قلعة نجم، ففعلا ذلك، ولم يبق معه سوى سميساط لا غير، فسير الأفضل أمه إلى العادل لتشفع فيه، فقدمت عليه إلى دمشق، فلم يقبل شفاعتها وأعادها خائبة، وكان هذا عبرة، فإن صلاح الدين لما نازل الموصل خرجت إليه الأتابكيات، ومنهن ابنة نور الدين محمود بن زنكى، يستغثن إليه فى أن يبقى الموصل على عز الدين مسعود، فلم يجبهن وردهن خائبات، فعوقب صلاح الدين فى ولده الأفضل على بمثل ذلك، وعادت أمه خائبة من عند العادل، ولما بلغ الأفضل امتناع عمه عن إجابة سؤال أمه تطع خطبته، ودعا للسلطان ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان السلجوقي، صاحب الروم.

* * *

سنة ستمائة

فيها تقرر الصلح بين العادل وبين الفرنج، وانعقدت الهدنة بينهما، وتفرقت العساكر.

وفيها نازل ابن لاون أنطاكية حتى هجم عليها، وحصر الإبرنس بقلعتها، فخرج الظاهر من حلب نجدة له، ففر ابن لاون.

وفيها أوقع الأشرف موسى بن العادل بعسكر الموصل، وهزمهم ونازلها وبها السلطان نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي أتابك بن آقسنقر، ونهب الأشرف البلاد نهبًا قبيحًا، وبعث إلى أبيه العادل بالبشارة، فاستعظم ذلك وما صدقه، وسر به سرورًا كثيرًا.

وفيها ملك الإفرنج مدينة القسطنينية من الروم.

وفيها تجمع الإفرنج بعكا من كل جهة يريدون أخذ بيت المقدس، فخرج العادل من دمشق، وكتب إلى سائر الممالك يطلب النجدات، فنزل قريبًا من جبل الطور على مسافة يسيرة من عكا، وعسكر الفرنج بمرج عكا، وأغاروا على كفر كنا وأسروا من كان هناك، وسبوا ونهبوا، وانقضت هذه السنة والأمر على ذلك.

وفيها خرج أسطول الفرنج إلى مصر، وعبر النيل من جهة رشيد، فوصل إلى فوة، وأقام خمسة أيام ينهب، والعسكر تجاهه ليس له إليه وصول لعدم وجود الأسطول العادلي.

وفيها أوقع الأمير شرف الدين قراقوس التقوى المظفري ببلاد المغرب، فقبض عليه وحمل إلى ابن عبد المؤمن.

* * *

سنة إحدى وستمائة

فيها تم الصلح بين الملك العادل وبن الفرنج، وتقررت الهدنة مدة، وشرطوا أن تكون يافا لهم، مع مناصفات لد والرملة، فأجابهم العادل إلى ذلك، وتفرقت العساكر، وسار العادل إلى القاهرة، فنزل بدار الوزارة، واستمر ابنه الكامل بقلعة الجبل، وشرع فى ترتيب أمور مصر.

وفيها مات الأمير عز الدين إبراهيم بن الجويني والي القاهرة، في سلخ جمادى الأولى.

وفيها ورد الخبر بأن الفرنج أخذوا القسطنطينية من الروم.

وفيها غارت الفرنج الاسبتارية على حماة فى جمع كبير؛ لأن هدنتهم انقضت، فقتلوا ونهبوا، ثم عادوا.

وفيها قدم الملك المنصور صاحب حماة على عمه الملك العادل بالقاهرة، فسر به وأكرمه، ثم رجع بعد أيام.

وفيها أغار الفرنج على حمص، وقتلوا وأسروا، فخرج العادل من القاهرة إلى بركة الجب، ثم عاد.

وفيها أغار فرنج طرابلس على جبلة واللاذقية، وقتلوا عدة من المسلمين، وغنموا وسبوا شيئًا كثيرًا.

* * *

سنة اثنتين وستمائة

فيها قبض على السعد أبي المكارم بن مهدي بن مماتى صاحب الديوان في جمادى الآخرة، وعلق برجليه.

* * *

سنة ثلاث وستمائة

فيها كثرت الغارات من الفرنج على البلاد، فخرج الملك العادل إلى العباسة، ثم أغذ السير إلى دمشق، ثم برز منها إلى حمص، فأتته العساكر من كل ناحية، فاجتمع عنده عشرات آلاف، وأشاع أنه يريد طرابلس، فلما انقضى شهر رمضان توجه الى ناحية حصن الأكراد فنازله، وأسر خمسمائة رجل وغنم، وافتتح قلعة أخرى. ثم نازل طرابلس، وعاثت العساكر فى قراها، ولم يزل على ذلك إلى أيام من ذي الحجة، ثم عاد إلى حمص - وقد ضجرت العساكر - فبعث صاحب طرابلس يلتمس الصلح، وسير مالاً وثلاثمائة أسير وعدة هدايا، فانعقد الصلح فى آخر ذي الحجة.

وفيها حدثت وحشة بين العادل وبن ابن أخيه الملك الظاهر، صاحب حلب، فازدادت بينهما الرسل حتى زالت، وحلف كل منهما لصاحبه.

وكثر فى هذه السنة تخريب العادل لقلاع الفرنج وحصونهم.

* * *

سنة أربع وستمائة

وفيها كمل الملك الكامل محمد بناء قلعة الجبل، وتحول إليها من دار الوزارة بالقاهرة، فكان أول من سكنها من ملوك مصر، ونقل إليها أولاد الخليفة العاضد الفاطمي وأقاربه فى بيت على صورة حبس، فأقاموا به إلى أن حولوا منه فى سنة إحدى وسبعن وستمائة.

وفيها توفى الأمير داود بن العاضد فى محبسه. وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضد عهد إليه، وأنه الإمام من بعده، فاستأذن أصحابه من الكامل أن ينوحوا عليه ويندبوه، فأذن لهم، فبرزت النساء حاسرات، والرجال فى ثياب الصوف والشعر، وأخذوا فى ندبه والنياحة عليه، واجتمع معهم من كان فى الاستتار من دعاتهم، فلما تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم طائفة من الأجناد نهبوا ما عليهم، وقبضوا على المعروفين منهم، فملأ بهم السجون، واستصفى أموال ذوى اليسار منهم، ففر من بقي، وزال من حينئذ أمر الإسماعيلية من ديار مصر، ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم.

* * *

سنة خمس وستمائة

فيها سار الكرج ونهبوا أعمال خلاط، وأسروا وغنموا فلم يجسر الأوحد أن يخرج إليهم من مدينة خلاط، فلما بلغ ذلك الملك العادل أخذ في التجهيز لحرب الكرج، وسار الأشرف من دمشق يريد بلاده بالشرق.

* * *

سنة ست وستمائة

فيها خرج العادل من دمشق يريد محاربة الكرج، ومعه الملوك من بني أيوب. وهم الملك المنصور صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك، وأرسل إليه الملك الظاهر غازي صاحب حلب جيشا، فنزل العادل حران، وأتته النجدات مع ولديه الملك الأوحد صاحب خلاط وميافارقين، والملك الأشرف موسى، وغيرهما، فاستولى على نصيبين، ونازل سنجار، وبها الملك قطب

الدين محمد بن زنكي، فكانت بينهما عدة وقائع، بعث في أثنائها صاحب سنجار إلى الخليفة الناصر لدين الله، وإلى الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب الروم، وغيرهم يستنجد بهم على العادل، فمال إليه عدة من الملوك عونا على العادل، ففارقه عدة ممن كان معه على حصار سنجار، ودسوا إلى جماعة من أصحابه الدسائس، ففسدت أحواله، وقدم عليه رسول الخليفة، وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك يأمره بالرحيل، فقال له عم الإمام الخليفة الناصر: " قال لك بحياتي ياخليلي ارحل ". فعاد العادل إلى حران، وتفرقت العساكر عنه.

* * *

سنة سبع وستمائة

فيها ظفر الملك الأوحد بن العادل بملك الكرج، ففدى نفسه منه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير من المسلمين، وأن يلتزم الصلح ثلاثين سنة، وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها، فأطلقه الأوحد، وردت على المسلمين عدة قلاع..

وفيها مات الأوحد، وملك خلاط بعده أخوه الأشرف.

وفيها تحرك الفرنج إلى الساحل، واجتمعوا في عكا، فخرج الملك العادل من دمشق، فوقع بينه وبينهم صلح، وأخذ العادل في عمارة قلعة الطور بالقرب من عكا، وسار إلى الكرك، فأقام بها أياما، ثم رحل إلى مصر، فدخل القاهرة، ونزل بدار الوزارة.

وفيها تحرك الفرنج ثانيا، فتجهز العادل للسفر إلى الشام.

* * *

سنة ثمان وستمائة

وفيها نقل أولاد العاضد الفاطمي وأقاربه إلى قلعة الجبل في يوم الخميس ثاني عشري رمضان، وتولى وضع القيود في أرجلهم الأمير فخر الدين ألطونبا أبو شعرة بن الدويك، والي القاهرة، وكانت عدتهم ثلاثة وستين نفسا.

وفيها اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف تاجر وملكان من الفرنج، فسار العادل وقبض على التجار، وأخذ أموالهم، وسجن الملكين.

* * *

سنة تسع وستمائة

وفيها فوض العادل تدبير مصر، والنظر في أموالها ومصالحها إلى ولده الملك الكامل، فرتب الكامل القاضي الأعز فخر الدين مقدام بن شكر ناظر الدولتين.

وفيها خرج العادل من الشام يريد خلاط، فسار إليها ودخلها، وفيها ابنه الأشرف، وقد استولى على ما بها من الأموال.

* * *

سنة عشر وستمائة

فيها تخوف الظاهر صاحب حلب من عمه العادل، وأخذ في الاستعداد، ثم تراسلا حتى سكن الحال.

* * *

تتمة سنة عشر وستمائة

فيها حفر خندق مدينة حلب، فوجد فيه بلاطة صوان عليها أحرف مكتوبة بالقلم السرياني، فترجموه بالعربية، فإذا هو: " لما كان العالم محدثا دل أن له محدثا، لا كهو "، وكتب تحت هذه الأحرف: " لخمسة آلاف من السنين خلون من الأسطوان الصغير ". فقلعت البلاطة، فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة وصورى على هيئة اللبن، فاعتبرت فكان الحاصل منها ذهبا ثلاثة وستين رطلا بالحلبي، وكان منها فضة أربعة وعشرين رطلا، وحلقة ذهب وزنها رطلان ونصف رطل، وصورى عشرة أرطال ونصف، فكان الجمع زنته قنطار واحد بالحلبي.

* * *

سنة إحدى عشر وستمائة

فيها فر الملك المنصور بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف من اعتقال عم أبيه الملك العادل، ولحق بالظاهر صاحب حلب، ولاذ به هو وإخوته، فأكرمهم الظاهر.

وفيها تجمع فرنج قبرص وعكا وطرابلس وأنطاكية، وانضم إليهم عسكر ابن ملك الأرمن، لقصد بلاد المسلمين، فخافهم المسلمون، وكان أول ما بدؤوا به بلاد الإسماعيلية، فنازلوا قلعة الخوابي، ثم ساروا عنها إلى أنطاكية.

وفيها خرج الملك العادل من الشام يريد مصر، فنزل في القاهرة بدار الوزارة، واستمر ابنه الكامل بقلعة الجبل، وأمر العادل أن يقيم معه كليام الفرنجي الجنوي بدار الوزارة.

وفيها ورد الخبر بموت سنقر أتابك اليمن، واستقر بعده الملك الناصر أيوب صاحب اليمن في ملكه، وقام بأتابكيته غازي.

وفيها شرع الملك العادل في تبليط جامع بني أمية بدمشق، وكانت أرضه حفرا وجورا، وتولى العمل الوزير صفي الدين بن شكر.

وفيها تعامل أهل دمشق وغيرها بالقراطيس السود العادلية، ثم بطلت بعد ذلك وفنيت.

* * *

سنة اثنتي عشرة وستمائة

وفيها سير الخليفة الناصر لدين الله كتابه الذي ألفه وسماه " روح العارفين " إلى الشام ومصر وغيرها ليسمع.

وفيها ملك الفرنج أنطاكية، وقتلوا من بها من المسلمين، وكانت بيد الملك غياث الدين كيخسرو منذ فتحها سنة اثنتين وستمائة إلى أن أجلاه الفرنج عنها سنة سبع وستمائة، ثم استردها منهم الملك الغالب عز الدين كيكاوس سنة ثلاث عشرة وستمائة، بعد أن بقيت بأيدي الفرنج تلك المدة.

وفيها سير الملك الكامل ابنه الملك المسعود صلاح الدين يوسف إلى اليمن، فخرج في جيش كثيف من مصر، وسار إلى بلاد اليمن، فاستولى على معاقلها، وظفر بصاحبها الملك سليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن نجم الدين أيوب فسيره تحت الحوطة إلى مصر، فأقام بالقاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستمائة، فخرج إلى المنصورة غازيا، فقتل شهيدا، ودانت بلاد اليمن للملك المسعود.

* * *

سنة ثلاث عشرة وستمائة

وفيها كان ابتداء خروج التتر من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم.

وفيها قدم الشريف قاسم من المدينة النبوية، فأغار على جدة، فخرج إليه الشريف قتادة أمير مكة، وكسره يوم عيد النحر.

* * *

سنة أربع عشرة وستمائة

فيها وصل الشيخ صدر الدين بن حمويه من بغداد، بجواب رسالة الملك العادل إلى، الخليفة الناصر لدين الله.

وفيها تتابعت أمداد الفرنج في البحر من روما وغيرها إلى عكا، وفيهم عدة من ملوكهم " وقد نقضوا الصلح، وعزموا على أخذ القدس وسائر بلاد الساحل وغيرها "

فعظم جمعهم، فخرج العادل من مصر بعساكره، وسار إلى لد، فبرز الفرنج من عكا في خلق عظيم، فرحل العادل على نابلس، ونزل في بيسان، فقال له ابنه المعظم لما رحل: " إلى أين يابه؟ ". فسبه العادل بالعجمية، وقال: " بمن أقاتل؟ أقطعت الشام مماليك، وتركت من ينفعني من أبناء الناس الذين يرجعون إلى الأصول " وذكر كلاما في هذا المعنى.

فقصده الفرنج، فلم يطق لقاءهم، لقلة من معه، فاندفع من بين أيديهم على عقبة فيق، وكتب بتحصين دمشق، ونقل الغلات من داريا إلى القلعة، وإرسال الماء على أراضي داريا وقصر حجاج والشاغور ففزع الناس وابتهلوا إلى الله، وكثر ضجيجهم بالجامع، فزحف الفرنج على بيسان " وقد اطمأن أهلها بنزول العادل عليهم " فانتهبوها وسائر أعمالها، وبذلوا في أهلها السيف، وأسروا وغنموا ما يجل وصفه، وانبثت سراياهم فيما هنالك حتى وصلت إلى نوى ونازلوا بانياس ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مرج عكا، وقد أنكوا في المسلمين أعظم نكاية، وامتلأت أيديهم بالأسر، والسبي والغنائم، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يتجاوز الوصف. فلم يمكثوا بالمرج سوى قليل، ثم أغاروا ثانيا، ونهبوا صيداء والشقيف ورجعوا، وذلك كله من نصف شهر رمضان إلى يوم عيد الفطر، ونزل العادل بمرج الصفر، ورأى في طريقه رجلا يحمل شيئا، وهو يمشي تارة ويقعد أخرى، فقال له: " يا شيخ!، لا تعجل، ارفق بنفسك ". فقال له: " يا سلطان المسلمين! أنت لا تعجل، أو أنا؟ إذا رأيناك قد سرت من بلادك، وتركتنا مع الأعداء، كيف لا نعجل؟ ". وعندما استقر بمرج الصفر، كتب إلى ملوك الشرق ليقدموا عليه: فأول من قدم عليه أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وهو ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، عم السلطان صلاح الدين يوسف، ثم إن العادل جهز ابنه المعظم عيسى صاحب دمشق، بطائفة من العسكر إلى نابلس، كي يمنع الفرنج من بيت المقدس، فنازل الفرنج قلعة الطور التي أنشأها العادل، وجدوا في قتال أهلها، حتى تمكنوا من سورها، وأشرفوا على أخذها. فقدر الله أن بعض ملوكهم قتل، فانصرفوا عنها إلى عكا بعدما أقاموا عليها سبعة عشر يوما، وانقضت السنة والحال على ذلك، من إقامة الفرنج بمرج عكا، والعادل بمرج الصفر.

* * *

سنة خمس عشرة وستمائة

فيها اجتمع رأي الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر، والاجتهاد في تملكها، فأقلعوا في البحر، وأرسوا على دمياط، في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول " الموافق لثامن حزيران " على بر جيزة دمياط، فصار النيل بينهم وبين البلد، وكان إذ ذاك على النيل برج منيع، في غاية القوة والامتناع، فيه سلاسل من حديد، عظام القدر والغلظ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر، وتمتد هذه السلاسل في برج آخر يقابله، وكانا مشحونين بالمقاتلة، ويعرف اليوم مكانهما في دمياط ببين البرجين. وصار الفرنج في غربي النيل، فأحاطوا على معسكرهم خندقا، وبنوا بدائره سورا. وأخذوا في محاربة أهل دمياط، وعملوا آلات ومرمات، وأبراجا متحركة يزحفون بها في المراكب إلى برج السلسة ليملكوه، حتى يتمكنوا من البلد، فخرج الكامل بمن بقي عنده من العسكر، في ثالث يوم من سقوط الطائر، لخمس خلون من ربيع الأول، وتقدم إلى والي الغربية بجمع سائر العربان، وسار في جمع كثير، وخرج الأسطول، فأقام تحت دمياط، ونزل السلطان الكامل بناحية العادلية، قريبا من دمياط، وسير البعوث ليمنع الفرنج من العبور، وصار يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية إلى دمياط، بتدبير الأمور وإعمال الحيلة في مكايدة الفرنج.

هذا والعادل بمرج الصفر، فبينا هو في الاهتمام بأمر الفرنج، إذ ورد عليه الخبر بأخذ الفرنج برج السلسلة بدمياط، فتأوه تأوها شديدا، ودق بيده على صدره أسفا وحزنا، ومرض من ساعته، فرحل من المرج إلى عالقين، وقد اشتد مرضه، فمات في سابع جمادى الآخرة يوم الخميس، فكتم أصحابه موته، وقالوا: " قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى، محمل في محفة، وعنده خادم، والطبيب راكب بجانب المحفة، والشربدار يصلح الأشربة، ويحملها إلى الخادم ليشربها السلطان، يوهم الناس بذلك أنه حي، إلى أن دخل قلعة دمشق، وصارت بها الخزائن والحرم وجميع البيوتات، فأعلم بموته، بعدما استولى ابنه الملك المعظم على جميع أمواله، التي كانت معه، وسائر رخته وثقله، ودفنه بالقلعة، فاختبط الناس حتى ركب المعظم، وسكن أمر الناس، ونادى في البلد: " ترحموا على السلطان الملك العادل، وادعوا لسلطانكم الملك المعظم " أبقاه الله فبكى الناس بكاء كثيرا، واشتد حزنهم لفقده.

وتولى الحكم السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، سادس ملوك مصر من الأيوبيين، استقل بمملكة مصر بعد موت أبيه، بعهده إليه في حياته، وكانت سلطنته بعد السابع من جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة عندما وصل إليه نعي أبيه، وهو بالمنزلة العادلية على محاربة الفرنج، وقد ملكوا البر الغربي، واستولوا على برج السلسلة، وقطعوا السلاسل المتصلة به، لتعبر مراكبهم في بحر النيل، ويتمكنوا من أرض مصر، فنصب الملك الكامل عوضا من السلاسل جسرا عظيما، يمنع الفرنج من عبور النيل، فقاتل الفرنج عليه قتالا كثيرا حتى قطعوه، وكان قد أنفق على هذا البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار، فأمر الكامل بتغريق عدة من المراكب في النيل، منعت الفرنج من سلوكه، فعدل الفرنج إلى خليج هناك يعرف بالأزرق، كان النيل يجرى فيه قديما، فحفروه حفرا عميقا، وأجروا فيه الماء إلى البحر الملح، فجرت سفنهم فيه إلى ناحية بورة على أرض جيزة دمياط، تجاه المنزلة التي فيها الكامل، ليقاتلوه من هناك، فلما استقروا في بورة حاذوه، وقاتلوه في الماء، وزحفوا إليه غير مرة، فلم ينالوا منه غرضا طائلا، ولم يضر أهل دمياط ذلك، لتواصل الأمداد والميرة إليهم، وكون النيل يحجز بينهم وبين الفرنج، بحيث كانت أبواب المدينة مفتحة، وليس عليها حصر ولا ضيق البتة.

هذا والعربان تخطف الفرنج في كل ليلة، بحيث منعهم ذلك من الرقاد، خوفا من غاراتهم، فتكالب العرب عليهم حتى صاروا يختطفونهم نهارا، ويأخذون الخيم بمن فيها، فأكمن لهم الفرنج عدة كمناء، وقتلوا منهم خلقا كثيرا، وأدرك الناس الشتاء، فهاج البحر على معسكر المسلمين، وأغرق الخيم، فعظم البلاء، واشتد الكرب، وألح الفرنج في القتال، ولم يبق إلا أن يملكوا البلاد، فأرسل الله سبحانه ريحا قطعت مراسي مرمة كانت للفرنج من عجائب الدنيا، فمرت تلك المرمة إلى البر الذي فيه المسلمون فملكوها، فإذا هي مصفحة بالحديد، لا تعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع، وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا، وبعث السلطان إلى الآفاق سبعين رسولا، يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم وإغاثتهم، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها، فسارت الرسل في شوال، فقدمت النجدات من حماة وحلب، إلا أنه لما قدم على المعسكر موت العادل وقع الطمع في الملك الكامل، وثار العرب بنواحي أرض مصر، وكثر خلافهم واشتد ضررهم،

واتفق مع ذلك قيام الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن أحمد الهكاري، والمعروف بابن المشطوب، وكان أجل الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية، ينقادون إليه ويطيعونه، مع أنه كان وافر الحرمة عند الملوك، معدودا بينهم كواحد منهم، معروفا بعلو الهمة وكثرة الجود، وسعة الكرم والشجاعة، تهابه الملوك، وله وقائع مشهورة في القيام عليهم، ولما مات أبوه، وكانت نابلس إقطاعا له، أرصد ثلثها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لمصالح القدس، وأقطع ابنه عماد الدين هذا بقيتها، فلم يزل قائم الجاه من الأيام الصلاحية، فاتفق عماد الدين مع جماعة من الأكراد والجند على خلع الملك الكامل، وتمليك أخيه الفائز إبراهيم، ليصير لهم التحكم في المملكة، ووافقه على ذلك الأمير عز الدين الحميدي، والأمير أسد الدين الهكاري، والأمير مجاهد الدين، وعدة من الأمراء، فلما بلغ الكامل ذلك دخل عليهم، فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف، وهم يحلفون لأخيه الفائز، فعندما رأوه تفرقوا، فخشي على نفسه منهم، وخرج، فاتفق قدوم الصاحب صفي الدين بن شكر من آمد، فإنه كان قد استدعاه الكامل بعد موت أبيه، فتلقاه الكامل وأكرمه، وأوقفه على ما فيه جماعة الأمراء، فشجعه وضمن له تحصيل المال وتدبير الأمور، فلما كان في الليل ركب الكامل من المنزلة العادلية، في الليل جريدة، وسار إلى أشموم طناح فنزل بها، وأصبح العسكر وقد فقدوا السلطان، فركب كل أحد هواه، ولم يعرج واحد منهم على آخر، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم، ولم يأخذ كل أحد إلا ما خف حمله، فبادر الفرنج عند ذلك، وعبروا بر دمياط وهم آمنون، من غير منازع ولا مدافع، وأخذوا كل ما كان في معسكر المسلمين، وكان شيئا لا يقدر قدره، وذلك لبضع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، فكان نزول الفرنج قبالة دمياط في يوم الثلاثاء ثاني شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة، ونزولهم في البر الشرقي " حيث مدينة دمياط " يوم الثلاثاء سادس ذي القعدة سنة ست عشرة، فتزلزل الملك الكامل، وهم بمفارقة أرض مصر، ثم تثبت، فتلاحق به العسكر، وبعد يومين وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق " وهو بأشموم " في ثامن عشر ذي القعدة، فقويت به شوكته، وأعلمه بما كان من أمر ابن المشطوب، فوعده بإزالته عنه. ثم ركب المعظم إلى خيمة ابن المشطوب، واستدعاه للركوب معه للمسايرة، فاستمهله حتى يلبس خفيه وثيابه، فلم يمهله وأعجله، فركب معه وهو آمن، وسايره حتى خرج به من المعسكر وبعد عنه، فالتفت إليه المعظم، وقال. " يا عماد الدين! هذه البلاد لك، أشتهي أن تهبها لنا ". وأعطاه نفقة، وأسلمه إلى جماعة من

أصحابه يثق بهم، كان قد أعدهم لهذا الأمر، وأمرهم أن يلازموه إلى أن يخرج من الرمل، ويحتفظوا به إلى أن يدخل إلى الشام، فما وجد ابن المشطوب سبيلا إلى الامتناع، ولا قدر على المدافعة، لأنه بمفرده بينهم، فساروا به على تلك الحالة إلى الشام، فنزل بحماة عند الملك المنصور، وسه أربعة من خدمه، ولما سار ابن المشطوب رجع المعظم إلى أخيه الكامل، وتقدم إلى أخيه الفائز بأن يمضي إلى الملوك الأيوبية بالشام والشرق رسولا عن الملك الكامل، بسبب إرسال عساكر الإسلام، لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج، وكتب الكامل إلى أخيه الأشرف موسى شاه أرمن، يستحثه على سرعة الحضور، وصدر المكاتبة بهذه الأبيات: لمعظم إلى أخيه الكامل، وتقدم إلى أخيه الفائز بأن يمضي إلى الملوك الأيوبية بالشام والشرق رسولا عن الملك الكامل، بسبب إرسال عساكر الإسلام، لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج، وكتب الكامل إلى أخيه الأشرف موسى شاه أرمن، يستحثه على سرعة الحضور، فسار الفائز " وكان الغرض إخراجه من أرض مصر " فمضى إلى دمشق، ورحل إلى حماة، ثم سار إلى الشرق، فانتظم أمر الكامل، وقوى ساعده، وترتبت قواعد ملكه، وسار عنه المعظم، هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البحر والبر، وأحدقوا بها وحصروها، وضيقوا على أهلها، ومنعوا الأقوات أن تصل إليهم، وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا، وبنوا عليه سورا، وأهل دمياط يقاتلونهم أشد قتال، وأنزل الله عليهم الصبر، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار، وأخذ الكامل في محاربة الفرنج، وهم قد حالوا بينه وبينها، ولم يصل إليها أحد من عنده سوى رجل من الجاندارية، وكان هذا الرجل قد قدم إلى القاهرة من بعض قرى حماة، ويسمى شمايل، فتوصل حتى صار يخدم في الركاب السلطاني جاندار، وكان يخاطر بنفسه، ويسبح في النيل " ومراكب الفرنج به محيطة، والنيل قد امتلأت به شواني الفرنج " فيدخل إلى مدينة دمياط، ويأتي السلطان بأخبار أهلها، فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها، ووعدهم بقرب وصول النجدات، فحظي بذلك عند الكامل، وتقدم تقدما كثيرا، وجعله أمير جانداره وسيف نقمته، وولاه القاهرة، وإليه تنسب خزانة شمايل.

* * *

سنة ست عشرة وستمائة

وفيها اشتد قتال الفرنج، وعظمت نكايتهم لأهل دمياط، وكان فيها نحو العشرين ألف مقاتل، فنهكتهم الأمراض، وغلت عندهم الأسعار، حتى بيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير، وامتلأت الطرقات من الأموات، وعدمت الأقوات، وصار السكر في عزة الياقوت، وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشجر فقط، فتسور الفرنج السور، وملكوا منه البلد يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان، فكانت مدة الحصار ستة عشر شهرًا واثنين وعشرين يومًا، وعندما أخذوا دمياط وضعوا السيف في الناس، فلم يعرف عدد من قتل لكثرتهم، ورحل السلطان بعد ذلك بيومين، ونزل قبالة طلخا، على رأس بحر أكوم ورأس بحر دمياط، وخيم بالمنزلة التي عرفت بالمنصورة وحصن الفرنج أسوارًا في مياط، وجعلوا جامعها كنيسة، وبثوا سراياهم في القرى يقتلون ويأسرون، فعظم الخطب واشتد البلاء، وندب السلطان الناس وفرقهم في الأرض، فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون الناس لاستنقاذ أرض مصر من أيدي الفرنج، وشرع السلطان في بناء الحور والفنادق والحمامات والأسواق بمنزلة المنصورة وجهز الفرنج من حصل في أيديهم من أسارى المسلمين في البحر إلى عكا وبرزوا من مدينة دمياط يريدون أخذ مصر والقاهرة، فنازلوا السلطان تجاه المنصورة، وصار بينهم وبين العسكر بحر أشموم وبحر دمياط، وكان الفرنج في مائتي ألف رجل وعشرة آلاف فارس، فقدم السلطان الشواني تجاه المنصورة، وهي مائة قطعة، واجتمع الناس من أهل مصر وسائر النواحي ما بين أسوان إلى القاهرة، ووصل الأمير حسام الدين يونس، والفقيه تقي الدين طاهر المحلي، فأخرجا الناس من القاهرة ومصر، ونودي بالنفير العام، وألا يبقى أحد وذكروا أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه.

وفيها خرجت كتب الخليفة الناصر لدين الله إلى سائر الممالك، بإنجاد الملك الكامل بدمياط.

* * *

سنة سبع عشرة وستمائة

أهلت وانقضت، والحرب قائمة بين المسلمين وبين الفرنج على دمياط، في منزلة المنصورة.

وفيها استولى التتر على سمرقند وهزموا السلطان علاء الدين، وملكوا الري وهمذان وقزوين، وحاربوا الكرج، وملكوا فرغانة والترمذ وخوارزم، وخراسان ومرو ونيسابور، وطوس وهراة وغزنة.

وفيها قوي طمع الفرنج في ملك ديار مصر، وعزموا على التقدم إلى المسلمين، ليدفعوهم عن منزلتهم، ويستولوا على البلاد، فانقضت السنة وهم تجاه المسلمين على رأس بحر أشموم ودمياط.

* * *

سنة ثمان عشرة وستمائة

فيها اشتدت قوة الفرنج، بكثرة من قدم إليهم في البحر، فتابع الملك الكامل الرسل في طلب النجدات، فقدمت عليه الملوك كما تقدم، واشتد القتال بين الفريقين برًا وبحرًا، وقد اجتمع من الفرنج والمسلمين ما لا يعلم عددهم إلا الله، وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر ما يكر عليهم العسكر، وتقدم جماعة من العسكر إلى خليج من النيل في البر الغربي، يعرف ببحر المحلة، وقاتلوا الفرنج منه، وتقدمت الشواني الإسلامية في بحر النيل، لتقاتل شواني الفرنج، فأخفوا منها ثلاث قطع برحالها وأسلحتها.

هذا والرسل تزداد من عند الفرنج في طلب الصلح بشروط: منها أخذ القدس وعسقلان وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل، فأجابهم الملوك إلى ذلك، ماخلا الكرك والشوبك، فأبى الفرنج، وقالوا: لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله فرضي الكامل، فامتنع الفرنج، وقالوا: لا بد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار، لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس، مع أخذ ما ذكر من البلاد، وأخذ الكرك والشوبك أيضًا، فاضطر المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم، وعبر جماعة من المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها معسكر الفرنج، وفتحوا مكانًا عظيمًا في النيل، وكان الوقت في قوة الزيادة، فإنه كان أول ليلة من توت، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر، ولا بأمر النيل، فلم يشعر الفرنج إلا

والماء قد أغرق أكثر الأرض التي هم عليها، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها، سوى جهة واحدة ضيقة، فأمر السلطان في الحال بنصب الجسور عند بحر أشموم طناح، فتهيأ للفراغ منها، وعبرت العساكر الإسلامية عليها، وملكت الطريق التي تسلكها الفرنج إلى دمياط، فانحصروا من سائر الجهات، وقدر الله سبحانه بوصول فرقة عظيمة في البحر للفرنج، وحولها عدة حراقات تحميها، وسائرها مشحونة بالميرة والسلاح، وسائر ما يحتاج إليه، فأوقع بها شواني الإسلام، وكانت بينهما حرب، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، فظفروا بها وبما معها من الحراقات، ففت ذلك في أعضاد الفرنج، وألقى في قلوبهم الرعب والذلة، بعدما كانوا في غاية الاستظهار والعنت على المسلمين، وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة، وعظمت نكاية المسلمين بهم، برميهم إياهم بالسهام، وحملهم على أطرافهم، فاجمعوا أمرهم على مناهضة المسلمين، ظنًا منهم أنهم يصلون إلى دمياط، فخربوا خيامهم ومجانيقهم، وعزموا على أن يحطموا حطمة واحدة. فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً؛ لكثرة الوحل والمياه التي قد ركبت الأرض من حولهم، فعجزوا عن الإقامة لقلة الأزواد عندهم، ولاذوا إلى طلب الصلح، وبعثوا يسألون الملك الكامل - وإخوته الأشرف والمعظم - الأمان لأنفسهم، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض، فاقتضى رأي الملك الكامل إجابتهم، واقتضى رأي غيره من إخوته مناهضتهم، واجتثاث أصلهم البتة، فخاف الملك الكامل إن فعل ذلك أن يمتنع من بقي منهم بدمياط أن يسلمها، ويحتاج الحال إلى منازلتها مدة، فإنها كانت ذات أسوار منيعة، وزاد الفرنج عندما استولوا عليها في تحصينها، ولا يؤمن في طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها، وطلبًا لثأر من قتل من أكابرهم، هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين، وملت من طول الحرب، فإنها مقيمة في محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهرًا، وما زال الكامل قائمًا في تأمين الفرنج إلى أن وافقه بقية الملوك على أن يبعث الفرنج برهائن من ملوكهم - لا من أمرائهم - إلى أن يسلموا دمياط فطلب الفرنج أن يكون ابن الملك الكامل عندهم رهينة، إلى أن تعود إليهم رهائنهم، فتقرر الأمر على ذلك، وحلف كل من ملوك المسلمين والفرنج، في سابع شهر رجب، وبعث الفرنج بعشرين ملكًا من ملوكهم رهنًا، منهم يوحنا صاحب عكا، ونائب البابا، وبعث الملك الكامل إليهم بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وله من العمر يومئذ خمس عشرة سنة، ومعه جماعة من خواصه، وعندما قدم ملوك الفرنج جلس لهم الملك الكامل مجلسًا عظيمًا، ووقف الملوك من إخوته وأهل بيته بين يديه بظاهر

البرمون، في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب، فهال الفرنج ما شاهدوا من تلك العظمة وبهاء ذلك الناموس، وقدمت قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط، ليسلموها إلى المسلمين، فتسلمها المسلمون في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب، فلما تسلمها المسلمون قدم في ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة، يقال أنها ألف مركب، فعد تأخرهم إلى ما بعد تسليمها من الفرنج صنعًا جميلاً من الله سبحانه، وشاهد المسلمون عندما تسلموا دمياط من تحصين الفرنج لها ما لا يمكن أخذها بقوة البتة، وبعث السلطان بمن كان عنده في الرهن من الفرنج، وقدم الملك الصالح ومن كان معه، وتقررت الهدنة بين الفرنج وبين المسلمين مدة ثماني سنين، على أن كلاً من الفريقين يطلق ما عنده من الأسرى، وحلف السلطان وإخوته، وحلف ملوك الفرنج، على ذلك، وتفرق من كان قد حضر للقتال فكانت مدة استيلاء الفرنج على دمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا، ثم دخل الملك الكامل إلى دمياط بعساكره وأهله، وكان لدخوله مسرة عظيمة وابتهاج زائد، ثم سار الفرنج إلى بلادهم وعاد السلطان إلى قلعة الجبل في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان، ودخل الوزير الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر في البحر، وأطلق من كان بمصر من الأسرى، وكان فيهم من أسر من الأيام الصلاحية، وأطلق الفرنج من كان في بلادهم من أسرى المسلمين، واتفق أنه لما رحل الفرنج اجتمع في ليلة عند الملك الكامل أخواه المعظم عيسى والأشرف موسى على حالة أنس، فأمر الأشرف جاريته ست الفخر فغنت على عودها.

ولما استقر الملك الكامل على تخت ملكه سارت الملوك إلى ممالكها، وعمت بشارة أخذ المسلمين دمياط آفاق الأرض، فإن التتار كانوا قد دمروا ممالك الشرق، وكادت مصر مع الشام يستأصل شأفة أهلها الفرنج، حتى من الله بجميل صنعه وخفي لطفه، ونصر عباده المؤمنين، وأيدهم بجنده، بعدما ابتلى المؤمنون، وزلزلوا زلزالاً شديدًا.

* * *

سنة تسع عشرة وستمائة

فيها قدم الأشرف موسى إلى مصر، فأقام بها عند أخيه السلطان الملك الكامل مدة، ثم عاد في رمضان. وفيها أوقع التتر بالكرج.

وفيها قدم المظفر موسى على أخيه الكامل بمصر.

* * *

سنة عشرين وستمائة

وفيها خرج الأشرف من مصر إلى بلاده، ومعه خلع الملك الكامل والتقليد بسلطة حلب للعزيز ناصر الدين محمد بن الظاهر غازي، فوصل إلى حلب في شوال، وتلقاه العزيز - وعمره عشر سنين - فأفاض عليه الخلع الكاملية، وحمل الغاشية بين يديه، وأقام عنده أيامًا، ثم سار إلى حران.

* * *

سنة إحدى وعشرين وستمائة

فيها ملك التتر قم وقاشان وهمذان.

وفيها اختلف الحال بين المظفر غازي، صاحب إربل وبين أخيه الأشرف، فخرج المعظم من دمشق يريد محاربة الأشرف، فبعث إليه الكامل يقول له: إن تحركت من بلدك سرت وأخذته منك. فخاف وعاد إلى دمشق.

* * *

سنة اثنتين وعشرين وستمائة

وفيها تخوف الكامل من أمرائه، لميلهم إلى أخيه الملك المعظم، فقبض على جماعة، وبعث إلى الطرقات من يحفظها، وبعث عدة رسل إلى الملوك الذين في خدمة أخيه الأشرف يأمرهم بالاتفاق وألا يخالفوه.

وفيها عاد السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاده، وقوي أمره على التتر، واستولى على عراق العجم، وسار إلى ماردين وأخذها، وسار إلى خوزستان، وشاقق جلال الدين الخليفة الناصر لدين الله، وسار حتى وصل بعقوبا، وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ، فاستعد الخليفة للحصار، ونهب جلال الدين البلاد، وأخذ منها ما لا يقع عليه حصر، وفعل أشنع ما يفعله التتر، فكاتبه الملك المعظم، وأتفق معه معاندة لأخيه الكامل، ولأخيه الملك الأشرف، صاحب البلاد الشرقية، فسير السلطان جلال الدين بن القاضي مجد الدين - قاضي الممالك - في الرسالة إلى الملك الأشرف، ثم إلى الملك المعظم، ثم إلى الملك الكامل، فظاهر بأنواع الفسوق، وسار جلال الدين إلى عراق العجم، فملك همذان وتيريز، وأوقع بالكرج.

وفيها مات الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف، في ثاني شوال، ومولده في العاشر من شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسائة، وله في الحلافة سبع وأربعون سنة، غير ستة وثلاثين يومًا.

* * *

سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها تأكدت الوحشة بين المعظم وبين أخويه الكامل والأشرف.

وفيها بعث الخليفة الظاهر بأمر الله التشاريف لملوك بني أيوب، على يد محيي الدين أبي المظفر بن الحافظ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي: فبما بالأشرف موسى صاحب البلاد الشرقية، وأفاض عليه الخلع الخليفتية، ثم بالعزيز غياث الدين محمد بن الظاهر صاحب حلب، فأفاض عليه فرجية واسعة الكم سوداء، وعمامة سوداء مذهبة، وثوبًا مطرزًا بالذهب أيضًا، ثم ألبس المعظم عيسى، صاحب دمشق، بدمشق. وسار إلى القاهرة بالتقليد والخلع للملك الكامل، ولأولاده الصالح نجم الدين

أيوب والملك المسعود، وللصاحب صفي الدين بن شكر، فبرز الملك الكامل إلى ظاهر القاهرة، ولبس الخلع الخليفتية هو وولداه. وكان الصاحب صفي الدين قد مات، فألبس الكامل الخلعة التي باسمه للقاضي فخر الدين سليمان بن محمود بن أبي غالب أبي الربيع الدمشقي، كاتب الإنشاء، وعبر الكامل من باب النصر، وشق القاهرة إلى أن صعد قلعة الجبل، فكان يومًا مشهودًا.

وفيها كثر وهم الملك الكامل من عسكره، فإن المعظم أرسل إليه في جملة كلام: وإن قصدتني لا آخذك إلا بعسكرك. فوقع في نفسه الخوف ممن معه، وهم آن يخرج من مصر، فلم يجسر، وخرج المعظم فنازل حمص، وخرب قراها ومزارعها، ولم ينل من قلعتها شيئًا، لامتناعها هي والمدينة عليه، فلما طال مقامه على حمص رحل عنها، لما أصاب عسكره ودوابه من الموت، وقدم عليه أخوه الأشرف جريدة، فسر به سرور عظيمًا وأكرمه زائدًا.

وفيها مات الخليفة الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر، في رابع عشر شهر رجب، فكانت خلافته تسعة أشهر وتسعة أيام، وكان حسن السيرة كثير المعروف، واستقر في الخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وعمره عشرون سنة.

* * *

سنة أربع وعشرين وستمائة

وفيها تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف، وخاف الكامل من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، فبعث الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه إلى ملك الفرنج، يريد منه أن يقدم إلى عكا، ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل، ليشغل سر أخيه المعظم، فتجهز الإمبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل، وبلغ ذلك المعظم، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل، ووعده أن يخطب له، ويضرب السكة باسمه، فسير إليه جلال الدين خلعة لبسها، وشق بها دمشق، وقطع الخطبة للملك الكامل، فبلغ ذلك الكامل، فخرج من القاهرة بعساكره، ونزل بلبيس في شهر رمضان فبعث إليه المعظم: إني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي، وكتبهم عندي، وأنا آخذك بعسكرك،

وكتب المعظم مكاتبة بهذا في السر، ومعها مكاتبة في الظاهر فيها: بأني مملوكك، وما خرجت عن محبتك وطاعتك، وحاشاك أن تخرج وتقابلني، وأنا أول من أنجدك وحضر إلى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق، فأظهر الكامل هذا بين الأمراء، ورجع من العباسة إلى قلعة الجبل، وقبض على عدة من الأمراء ومماليك أبيه، لمكاتبتهم المعظم: منهم فخر ألطبنا الحبيشي، وفخر الدين ألطن الفيومي - وكان أمير جانداره، وقبض أيضًا على عشرة أمراء من البحرية العادلية، واعتقلهم وأخذ سائر موجودهم، وأنفق في العسكر ليسير إلى دمشق.

وفيها وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة إلى الملك الكامل، وكان فيها عدة خيول، منها فرس الملك بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر، فتلقاه الكامل بالإقامات، من الإسكندرية إلى القاهرة، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه، وأكرمه إكرامًا زائدًا، وأنزله في دار الوزير صفي الدين بن شكر، واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية إلى ملك الفرنج فيها من تحف الهند واليمن، والعراق والشام، ومصر والعجم ما قيمته أضعاف ما سيره، وفيها سرج من ذهب، وفيها جوهر بعشرة آلف دينار مصرية، وعين الكامل للسير بهذه الهدية جمال الدين بن منقذ الشيزري.

وفيها مات الملك المعظم أبو الفتح عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، يوم الجمعة سلخ ذي القعدة بدمشق، ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى الصالحية، ومولده بدمشق، في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وكان قد خافه الملك الكامل، فسر بموته، وكان كريمًا شجاعًا، أديبًا لينًا، فقيها متغاليًا في التعصب لمنصب أبي حنيفة - رحمه الله -.

* * *

سنة خمس وعشرين وستمائة

فيها سير الملك الكامل شيخ الشيوخ ابن حمويه بالخلع إلى ابن أخيه الناصر داود ابن المعظم، بدمشق، فحمل الرسول الغاشية بين يديه، ثم حلها عماه: الملك العزيز عثمان صاحب بانياس والملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بصرى.

وعهد الكامل إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده بديار مصر، وأركبه بشعار السلطنة - وشق الصالح القاهرة، وحملت الغاشية بين يديه، تداول حملها الأمراء بالنوبة - وأنزله بدار الوزارة، وعمره يومئذ نحو اثنتين وعشرين سنة.

وفيها ظلم الناصر داود أهل دمشق، وأخذ أموالهم، واشتغل باللهو، وأعرض عن مصالح الدولة، فشق ذلك على الكامل، وجعله سببًا يؤاخذه به، وتجهز في شهر رجب للسير لمحاربته، واستناب على مصر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ليحصل الأموال ويدبر أمور المملكة، وخرج الكامل من القاهرة يوم الأحد تاسع عشر شعبان - في عساكره المتوافرة - ومعه المظفر تقي الدين محمود بن المنصور، وقد وعده أن يسلمه حماة، وكانت بيد أخيه قلج أرسلان، والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل، وكان قد رباه عمه الملك الكامل بعد موت أبيه، وأقطعه البحيرة من ديار مصر، فلما بلغ الناصر خروج عمه لم يمل إلى استعطافه، والتجأ إلى عمه الأشرف، فسار الكامل بالعسكر والعربان إلى تل العجول، وبعث منها إلى نابلس والقدس وأعمالها، وشر الكامل الأمير حسام الدين أبا علي بن محمد بن أبي علي الهذباني - أحد أصحاب المظفر تقي الدين محمود - إلى القاهرة، فاستخدمه الملك الصالح، وجعله أستاداره، فاستولت أصحاب الملك الكامل على نابلس والقدس، وبلغ ذلك الناصر، فحلف عسكره، واستعد للحرب، وقدم إليه عمه الصالح صاحب بصرى، والأمير عز الدين أيبك من صرخد، وأصله مملوك أبيه المعظم، فقويت بهما نفسه، وسير بالناصر يستدعي عمه الأشرف من لبلاد الشرقية، مع الأمير عماد الدين بن موسك، وفخر القضاة نصر الله بن بصاقة، وأردفهما بالأشرف ابن القاضي الفاضل، فأجاب الأشرف إلى معاونته، واستناب في بلاده الملك الحافظ بن العادل، وسار إلى دمشق، فتلقاه قلج أرسلان صاحب حماة من سليمة بأموال وخيول، وتلقاه أسد الدين شركوه، صاحب حمص، وأولاده، وقدم لأشرف إلى دمشق، فتلقاه الناصر في أخريات شهر

رمضان، وزين دمشق لقدومه، فدخل القلعة وعليه شاش علم كبير، وهو مشدود الوسط بمنديل، وقد سر الناصر به سرورًا كبيرًا، وحكمه في بلاده وأمواله، فأعجب الأشرف بدمشق، وعمل في الباطن على انتزاعها لنفسه من الناصر، ثم قدم إلى خدمة الأشرف بدمشق المجاهد أسد الدين شركوه بن محمد صاحب حمص، وسار العزيز بن العادل إلى خدمة الملك الكامل، وهو في الطريق، فسر بقدومه، وأعطاه شيئًا كثيرًا، وسير الأشرف إلى الكامل الأمير سيف الدين علي بن قلج، يشفع في الناصر، ويطلب منه إبقاء دمشق عليه، ويقول: إنا كلنا في طاعتك، ولم نخرج عن موافقتك، فأكرم الملك الكامل الرسول، ثم سار الأشرف - ومعه الناصر - من دمشق، يريدان ملاقاة الملك الكامل والترامي عليه، ليصلح الأشرف الأمر بينهما، فلما بلغ الكامل مسيرهما شق عليه، ورحل من نابلس يريد العود إلى القاهرة فنزل الأشرف والناصر بنابلس، فأقام بها الناصر، ومضى الأشرف والمجاهد إلى الكامل، فبلغه قدوم الأشرف وهو بتل العجول، فقام إلى لقائه، وقدم به إلى معسكره، ونزلا، فكان الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، وأن تكون للملك الأشرف وما معها إلى عقبة فيق، ويكون للكامل ما بين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون، وهو الفتح الصلاحي بأسره، ويكون للناصر عوضًا من دمشق - حران والرقة وسروج، رأس عين، وهي ما كان مع الأشرف، وأن تنزع بعلبك من الأمجد بهرام، وتعطى لأخيهما العزيز عثمان، وأن تنزع حماة من الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور، وتعطى للمظفر تقي الدين محمود بن المنصور، وأن تؤخذ من المظفر سليمة، وتضاف إلى المجاهد صاحب حمص.

وفيها مات طاغية المغل والتتر جنكزخان، بالقرب من صارو بالق، وحمل ميتًا إلى كرسي ملك الخطا. ورتب بعده ابنه الأصغر عوضه خانًا كبيرًا، على كرسي مملكة الخطا، وأخذ إخوته الثلاثة بقية الأقاليم.

وفيها خرج التتار إلى بلاد الإسلام، فكانت لهم عدة حروب مع السلطان جلال الدين خوارزم شاه، كسر فيها غير مرة، ثم ظفر أخيرًا بهم، وهزمهم، فلما خلا سره منهم سار إلى خلاط - من بلاد الأشرف - فنهب وسبى الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وخرب القرى، وفعل ما لا يفعله أهل الكفر، ثم عاد إلى بلاده، وقد زلزل بلاد حران والرها وما هنالك، ورحل أهل سروج إلى منبج، وكان قد عزم على قصد بلاد الشام، لكن صرفه الله عنها.

وفيها قم الإمبراطور ملك الفرنج إلى عكا، باستدعاء الملك الكامل له - كما تقدم

- ليشغل سر أخيه المعظم، فاتفق موت المعظم، ولما وصل ملك الفرنج إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل، وأمره أن يقول له: الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبلوا كل شيء، ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي - في زمن حصار دمياط - الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم. ومن نائبي إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له. فتحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله ولاطفه، وسفر بينهما الأمير فخر الدين بن الشيخ، وشرع الفرنج في عمارة صيداء - وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب - فعمروها وأزالوا من فيها من المسلمين، وخرجت السنة والكامل على تل العجول، وملك الفرنج بعكا، والرسل تتردد بينهما.

* * *

سنة ست وعشرين وستمائة

وفي أثناء ذلك كثر تردد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والشريف شمس الدين الأرموي قاضي العسكر، بين الإمبراطور فردريك ملك الفرنج، إلى أن وقع الاتفاق أن ملك الفرنج يأخذ القدس من المسلمين، ويبقيها على ما هي من الخراب، ولا يجدد سورها، وأن يكون سائر قوى القدس للمسلمين، لا حكم فيها للفرنج، وأن الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى - يكون بأيدي المسلمين، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام من المسلمين، ويقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصلاة، وأن تكون القرى التي فيما بين عكا وبين يافا، وبين القدس، بأيدي الفرنج، دون ما عداها من قرى القدس، وذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج، وخاف من غائلته، عجزا عن مقاومته، فأرضاه بذلك، وصار يقول: إنا لم بسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع. فلما اتفقا على ذلك عقدت الهدنة بينهما مدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يومًا، أولها ثامن عشري شهر ربيع الأول من هذه السنة، واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه، ما كلف السلطان شيئًا من ذلك، وأنه ما له غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج، وحلف الملك الكامل وملك الفرنج على ما تقرر، وبعث السلطان فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء وعظم

الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات، وزجرهم. وقيل لهم: امضوا إلى حيث شئتم، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار، وبعث الإمبراطور بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها، فسلمها الكامل له، فبعث يستأذن في دخول القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلبه، وسير القاضي شمس الدين قاضي نابلس في خدمته، فسار معه إلى المسجد بالقدس، وطاف معه ما فيه من المزارات، وأعجب الإمبراطوار بالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة، وصعد درج المنبر، فرأى قسيسًا بيده الإنجيل، وقد قصد دخول المسجد الأقصى، فزجره وأنكر مجيئه، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ليأخذن ما فيه عيناه، فإنما نحن مماليك هنا للسلطان الملك الكامل وعبيده، وقد نصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس، على سبيل الأنعام منه، فلا يتعدى أحد منكم طوره، فانصرف القس وهو يرعد خوفًا منه. ثم نزل الملك في دار، وأمر شمس الدين قاضي نابلس المؤذنين إلا يؤذنوا تلك الليلة، فلم يؤذنوا البتة، لما أصبح قال الملك للقاضي: لم لم يؤذن المؤذنون على المنابر؟ فقال له القاضي: منعهم المملوك إعظامًا لمملك واحترامًا له. فقال له الإمبراطور: أخطأت فيما فعلت، والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل.

وفيها اشتد تشنيع الملك الناصر داود بدمشق على عمه الملك الكامل تسليمه القدس للفرنج، فنفرت قلوب الرعية، وجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزي بجامع دمشق، وذكر فضائل بيت المقدس، وحزن الناس على استيلاء الفرنج عليه، وبشع القول في هذا الفعل، فاجتمع في ذلك المجلس ما لا يحصى عدده من الناس، وعلت أصواتهم بالصراخ، واشتد بكاؤهم، وأنشد الحافظ شمس الدين قصيدة، أبياتها ثلاثمائة بيت، منها:

على قبة المعراج والصخرة التي ::: تفاخر ما في الأرض من صخرات

مدارس آيات خلت من تلاوة ::: ومنزل وحي مقفر العرصات

فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم، وكان الأشرف على منازلة دمشق، فبعث إلى الكامل يستحثه، فرحل الكامل من تل العجول بعد طول مقامه بها، فتلقاه في قرية يينا أخوه العزيز عثمان، صاحب بانياس، بابنه الظاهر غازي، فوصل الكامل العزيز بخمسين ألف في ينار، وابنه غازي بعشرة آلاف دينار، وقماش وخلع سنية، وأمر

الكامل فضربت له خيمة عظيمة، وحولها بيوتات، وسائر ما يحتاج إليه من الآلات والخيام، برسم أصحابه ومماليكه، ثم وصل إليه أيضًا الأمير عز الدين أيدمر المعظمي، فدفع إليه الكامل عشرة آلاف دينار - وقيل عشرين ألف دينار - وكتب له على الأعمال القوصية بعشرين ألف أردب غلة، وأعطاه أملاك الصاحب صفي الدين بن شكر، ورباعه وحمامه، وسار الكامل إلى دمشق، فنزل على ظاهرها في جمادى الأولى، وجد هو والأشرف في حصارها، حتى اشتد عطش الناس في دمشق، لانقطاع الأنهار عنهم، ومع ذلك فالحرب بينهم قائمة في كل يوم إلى آخر رجب، فغلت الأسعار ونفدت أموال الناصر، وفارقه جماعة من أصحابه، وصاروا إلى الكامل والأشرف، وأخذ الناصر في ضرب أوانيه من النصب والفضة دنانير ودراهم، وفرقها حتى نفد أكثر ما كان عنده من الذخائر، وناصحته العامة مناصحة كبيرة، وأبلوا في عسكر الكامل والأشرف بلاء عظيمًا.

* * *

سنة سبع وعشرين وستمائة

وفيها قدم رسول السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي - صاحب الروم - على الملك الكامل، وأخبره بأنه جهز خمسة وعشرين ألفا إلى أرزنجان وعشرة آلاف إلى ملطية، وأنا حيث تأمر. فطاب قلب السلطان الكامل بذلك، وكان مهتمًا من أمر الخوارزمي.

وفيها ملك الخوارزمي مدينة خلاط بحد حصار طويل وقتال شديد في ثامن عشري جمادى الأولى فوضع السيف في الناس، وأسرف في القتل والنهب، فرحل الملك الكامل يريد مصر، لأمور منها أنه بلغه موت ولده الملك المسعود صاحب اليمن، فكتمه وكان قد ورد عليه أيضًا من أم ولده العادل كتاب تشكو فيه من ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأنه قد عزم على التوثب على الملك، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك، وأنه أخذ مالاً جزيلاً من التجار، وأتلف جملة من مال بيت المال، ومتى لم تتدارك البلاد وإلا غلب عليها، وأخرجني أنا وابنك الملك العادل منها، فانزعج الكامل لذلك، وغضب غضبًا شديدًا، ثم ورد عليه الخبر بأن ابنه الصالح اشترى ألف مملوك فعزم على الرحيل إلى مصر، فرتب الطواشي شمس الدين صواب العادلي نائبًا في أعمال المشرق، وأعطاه إقطاع أمير مائة

فارس، زيادة على ما بيده من الديار المصرية، وهي أعمال أخميم بكمالها، وقاي والقايات ودجوة بإمرة مائتين وخمسين فارسًا، فصار أمير ثلاثمائة وخمسين فارسًا، ورتب الملك الكامل كمال الدين ابن شيخ الشيوخ وزيرا، وتوجه الكامل إلى مصر، فدخلها في رجب، وتغير على ابنه الملك الصالح تغيرًا كثيرًا، وقبض على جماعة من أصحابه وسجنهم، وألزمهم إحضار الأموال التي فرط فيها الملك الصالح، وخلع الصالح من ولاية العهد.

* * *

سنة ثمان وعشرين وستمائة

وفيها سار الملك الكامل إلى الإسكندرية، وترك الأشرف بالقاهرة، واستصحب معه صاحب الجزيرة بعدما أنعم عليه إنعامًا موفورًا. وفيها تحرك التتر.

وفيها قدم الملك مجير الدين بن العادل إلى القاهرة، وكان مأسورًا عند الخوارزمي، فسر به الكامل، وأكرمه هو وأخوه تقي الدين عباس.

وفيها مات السلطان جلال الدين خوارزم شاه، بعدما هزمه التتر ببعض قرى ميافارقين قتله بعض الأكراد.

وفيها وصل التتر إلى إربل، وقتلوا من المسلمين ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم.

وفيها قدم رسول الخليفة المستنصر بالله بالخلع والتقليد للملك الكامل، وميز بزيادات كثيرة، لم تفعل في حق غيره، من السلجوقية وغيرهم، وورد خلع للملك الأشرف أيضًا. وفيها تسلطن عمر بن علي بن رسول باليمن، ونشر دعوته.

* * *

سنة تسع وعشرين وستمائة

فيهما تكمل استيلاء التتر على إقليم أرمينية وخلاط وسائر ما كان بيد الخوارزمي. فاهتم الخليفة المستنصر بالله غاية الاهتمام، وسير عدة رسل يستنجد الأشرف من مصر، ويستنجد العربان وغيرهم، وأخرج الخليفة الأموال، فوقع الاستخدام في جميع البلاد لحركة التتر.

* * *

سنة ثلاثين وستمائة

فيها أنعم الكامل على ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بحصن كيفا، وسيره إليها، وعاد هو إلى الديار المصرية، ومعه الملك المسعود، صاحب آمد، فلما وصل قلعة الجبل أفرج عنه، وأحسن إليه، وأعطاه إمرة بديار مصر.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان: سلطن الملك الكامل ولده الملك العادل سيف الدين أبا بكر، وأركبه بشعار السلطنة، وشق به القاهرة، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة، وكان الكامل يحبه، ويحب أمه حبا زائدًا.

* * *

سنة إحدى وثلاثين وستمائة

فيها قصد السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو السلجوقي، صاحب بلاد الروم، مدينة خلاط، فخرج الملك الكامل من القاهرة بعسكره، ليلة السبت خامس شعبان، واستناب ابنه الملك العادل، فوصل إلى دمشق، وكتب إلى ملوك بني أيوب يأمرهم بالتجهز، للمسير بعساكرهم إلى بلاد الروم، وخرج الكامل من دمشق، فنزل على سليمة في شهر رمضان، ورتب عساكره، وسار إلى منبج، فقدم عليه عسكر حلب، وغيره من العساكر، فسار وقد صار معه ستة عشر دهليزًا، لستة عشر ملكًا - وقيل بل كانوا ثمانية عشر ملكًا، فعرضهم الكامل على إلبيرة أطلابا بأسلحتهم، فلكثرة ما أعجب بنفسه قال: هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام.

وأمر بها فسارت شيئًا بعد شيء نحو الدربند، وقد جد السلطان علاء الدين في حفظ طرقاته بالمقاتله، ونزل الكامل على النهر الأزرق، وهو بأول بلد الروم، ونزل عساكر الروم فيما بينه وبين الدربند وأخفوا عليه رأس الدربند وبنوا سورًا يمنع العساكر من الطلوع، وقاتلوا من أعلاه، فقلت الأقوات عند عسكر الكامل، واتفق - مع قلة الأقوات وامتناع الدربند - نفور ملوك بني أيوب من الملك الكامل، بسبب أنه حفظ عنه أنه لما أعجبته كثرة عساكره بالبيرة، قال لخواصه: إن صار لنا ملك الروم فإنا نعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم، بدل ما بأيديهم، ونجعل الشام والشرق مضافًا

إلى ملك مصر. فحذر من ذلك المجاهد صاحب حمص، وأعلم به الأشرف موسى صاحب دمشق، فأوجس في نفسه خيفة موسى، وأحضر بني عمه وأقاربه من الملوك وأعلمهم ذلك، فاتفقوا على الملك الكامل، وكتبوا إلى السلطان علاء الدين بالميل معه وخذلان الكامل، وسيروا الكتب بذلك، فاتفق وقوعها في يد الملك الكامل، فكتمها ورحل راجعًا، فأخذ السلطان علاء الدين طيقباد - ملك الروم - قلعة خرتبرت وست قلاع أخر كانت مع الملوك الأرتقية، في ذي القعدة، فاشتد حنق الملك الكامل، لما حصل على أمرائه وعساكره من صاحب الروم في قلاع خرتبرت، ونسب ذلك إلى أهله من الملوك، فتنكر ما بينه وبينهم.

* * *

سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

فيها عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل من بلاد الشرق - في جمادى الأولى - وقد توحش ما بينه وبين أخيه الأشرف - صاحب دمشق - وغيره من الملوك.

فقبض الكامل على المسعود صاحب آمد واعتقله في برج هو وأهله، يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى، لممالأته لهم، فملك صاحب الروم وحران بالسيف، وعاد إلى بلاده، بعد ما استولى على ما كان بهما من الأموال، فلما بلغ الكامل ذلك أمر العساكر أن تتجهز للمسير إلى الشرق، وأقطع ابن الأمير صلاح الدين الإربلي صنافير بالقليوبية، وجعل أقارب والده ومماليكه معه، وعدتهم سبعة عشر رجلاً.

* * *

سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

وفيها سار التتر إلى جهة الموصل، فقتلوا ونهبوا وسبوا.

وفيها سار الناصر داود - صاحب الكرك - إلى الخليفة المستنصر بالله، خوفًا من عمه الملك الكامل، فإنه كان قد ألزمه حتى طلق ابنة الكامل، فخشي أن ينتزع منه الكرك فوصل إلى بغداد، فأكرمه الخليفة، ومنعه من الاجتماع به، رعاية للملك الكامل، ثم اجتمع به سرًا، وخلع عليه، وبعث معه رسولاً مشربشًا، من خواصه إلى الكامل، يشفع فيه، فلما وصل الرسول إلى الكامل تلقاه وقبل الشفاعة.

سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها سار الملك الكامل من دمشق يريد القاهرة، فوصل إليها، وصعد قلعة الجبل ثم خرج إلى دمياط، فقدم عليه محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولاً من الخليفة، وهو بها، وسافر محيي الدين إلى السلطان علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان - صاحب الروم - ومعه الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنفري، رسولاً من جهة الملك الكامل.

وفيها مات الملك العزيز غياث الدين محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب حلب - يوم الأربعاء رابع عشري شهر ربيع الأول، عن ثلاث وعشرين سنة وأشهر، وقام من بعده ابنه الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف، وعمره نحو السبع سنين، وقام بتدبير أمره الأميران لؤلؤ الأميني، وعز الدين عمر بن محلي، وبينهما وزير الدولة جمال الدين الأكرم، يراجع الستر الرفيع صفية خاتون ابنة الملك العادل، على لسان جمال الدولة إقبال، وحضر الأمير بدر الدين بدر بن أبي الهيجاء وزين الدين قاضي حلب، إلى الملك الكامل، بزردية العزيز وكزا غنده، وخوذته ومركوبه، فأظهر الكامل الألم لموته، وقصر في إكرامهما، وحلف للناصر، وشرط أشياء، وأعاد الرسولين، ثم أرسل خلعة للناصر بغير مركوب، ومعها عدة خلع للأمراء الحلبيين، وخلعة للصالح صلاح الدين أحمد بن الظاهر غازي، صاحب عينتاب، فاستوحشت أم الظاهر من أخيها الكامل، ولم توافق على لبس أحد من الأمراء الخلع، فلبس الناصر وحده خلعة الكامل، ورد الرسول الوارد إلى الصالح صلاح الدين بخلعته.

* * *

سنة خمس وثلاثين وستمائة

فيها مات الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب - صاحب دمشق بها - يوم الخميس رابع المحرم، وعمره نحو من ستين سنة، ومدة ملكه بدمشق ثماني سنين وأشهر، ولم يترك سوى ابنة، تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، فقام من بعده بدمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب بصرى، بعهد من أخيه له، فاستوفى الملك الصالح عماد الدين على دمشق وبعلبك، وبعث ابنه الملك المنصور محمودًا إلى الشرق، ليتسلم سنجار ونصيبين والخابور من نواب الشرق، وبعث إلى المجاهد صاحب حمص، والي المظفر صاحب حماة، وإلى الحلبيين أيضًا، ليحلفوا له ويتفقوا معه - على القاعدة التي تقررت بينهم وبين الأشرف - على مخالفة الكامل، فأجابوا إلا صاحب حماة، فإنه مال مع الكامل، وبعث إليه يعلمه بميله إليه، فسر الكامل بذلك، ثم إن الملك الصالح عماد الدين صادر جماعة من الدماشقة، الذين قيل عنهم إنهم مع الملك الكامل، منهم العلم تعاسيف، وأولاد مزهر، وحبسهم في بصرى، فتجهز الكامل، وخرج من قلعة الجبل بعساكره، بكرة يوم الخميس ثالث عشري صفر، واستناب على مصر ابنه الملك العادل، وأخذ معه الناصر داود، وهو لا يشك أن الملك الكامل يسلم إليه دمشق، لما كان قد تقرر بينهما. فكاتب الكامل نائب قلعة عجلون حتى سلمها، ونزل على دمشق بمسجد القدم، في ثالث عشري ربيع الأول، وقد تخصنت وأتتها النجدات، فحاصرها وقطع عنها المياه، وضايقها حتى غلت بها الأسعار، وأحرق العقيبة والطواحين، وألح على أهلها بالقتال، وكان الوقت شتاء فأذن الصالح إسماعيل، وسلم دمشق لأخيه الكامل، فعوضه عنها بعلبك والبقاع، وبصرى والسواد.

وكان السفير بينهما الصاحب محيي الدين أبو المظفر يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي - رسول الخليفة - الوارد ليوقع الصلح بين ملوك بني أيوب، فتسلم الكامل دمشق في عاشر جمادى الأولى، وسار الصالح إسماعيل إلى بعلبك، لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى، فنزل الملك الكامل بالقلعة، وأمر بنصب الدهليز بظاهر دمشق، وسير المظفر صاحب حماة إلى حمص، وأطلق الفلك المسيري من سجن قلعة دمشق - وكان قد سجنه الملك الأشرف - ونقل الأشرف إلى تربته، وأمر الكامل في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة ألا يصلي أحد من أئمة الجامع المغرب، سوى الإمام الكبير

فقط؛ لأنه كان يقع بصلاتهم تشويش كبير على المصلين، وورد الخبر باستيلاء الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل على سنجار ونصيبين والخابور، وقدم رسول الخليفة بمال إلى الملك الكامل، ليستخدم به عسكرًا للخليفة، فإنه بلغه توجه التتر إلى بغداد، فقام الملك الكامل لما سلم إليه كتاب الخليفة، ووضعه على رأسه، وكان جملة ما حضر من المال مائة ألف دينار مصرية، فأمر الملك الكامل أن يخرج من بيت المال مائتا ألف دينار، ليستخدم بها العساكر، وأن يجرد من عساكر مصر والشام عشرة آلاف، نجدة للخليفة، وأن يكون مقدم العساكر الناصر داود، وألا يصرف مما حضر من المال شيء، بل يعاد بكماله إلى خزانة الخليفة، فتولى استخدام الأجناد الأميران ركن الدين الهيجاوي، وعماد الدين بن موسك، وأن يكونا مع الناصر داود في خدمته، فاستخدم الناصر العسكر، وسار إلى بغداد، وهم نحو ثلاثة آلاف فارس، وشرع الكامل يتجهز لأخذ حلب، فخاف المجاهد صاحب حمص، وبعث ابنه المنصور إبراهيم فتقرر الأمر على أن يحمل المجاهد كل سنة للملك الكامل ألفي ألف درهم، فعفا عنه.

وكان منذ دخل الكامل إلى قلعة دمشق قد حدث له زكام، فدخل في ابتدائه إلى الحمام، وصب على رأسه الماء الحار، فاندفعت المراد إلى معدته، فتورم وعرضت له حمى، فنهاه الأطباء عن القيء، وحفروه منه، فاتفق أنه تقيا لوقته، في آخر نهار الأربعاء حادي عشري شهر رجب، بقاعة الفضة من قلعة دمشق، فحفن بها بكرة الغد وعمره نحو من ستين سنة، وذلك بعد موت أخيه الأشرف بنحو ستة أشهر، فكانت مدة ملكه دمشق هذه المرة أحدًا وسبعين يومًا، ومدة مملكته بمصر - بعد موت أبيه - عشرين سنة وثلاثة وأربعين يومًا -.

* * *

السلطان الملك العادل الثاني

سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. أمه السيدة السوداء، المعروفة ببنت الفقيه نصر، ومولده في سنة سبع عشرة وستمائة. استقر الأمر له بسلطنة مصر ودمشق في يوم الخميس ثاني عشري رجب، سنة خمس وثلاثين وستمائة، الموافق لسادس عشر برمهات. وخطب له بالقاهرة ومصر في رابع شعبان، وهو السلطان السابع من بني أيوب بديار مصر، فقدمت عليه القصاد من دمشق بوفاة أبيه واستقراره من بعده، فشرع الأمير سيف الدين قلج في تحليف الأمراء للملك العادل في داره، وحط الملك العادل المكوس، ووسع في العطاء وفي الرزق على كل أحد.

* * *

سنة ست وثلاثين وستمائة

وفيها استوحش الأمراء الأكابر من الملك العادل، لتقريبه الشباب والترابي، وإعطائهم الأموال والإقطاعات، والاقتداء بآرائهم، ولكثرة تحجبه، واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة. فطمع الناصر داود صاحب الكرك في ملك مصر، فسار إليها ومعه تقادم فاخرة: ما بين جواري جنكيات، وعوديات ورقاصات، وأواني للشرب بديعة، فخرج العادل إلى لقائه في ثامن شوال، وأكرمه، وقدم له الناصر ما انتخبه من الجواري والأواني وغيرها، فصادف منه الغرض، ووضه عنه بأمثاله. ولازم الناصر القيام بخدمه العادل والإقامة في بابه: فتارة يعمل حاجب الباب، وتارة أستادارًا، وتارة دوادارًا، ليدخل في كل وقت عليه، ويتوصل متى شاء إليه، وهو يظن أنه يستميل الأمراء عن العادل إلى جهته، فلما تمكن الناصر داود منه أوهمه من الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، بأنه قد اتفق مع الملك المعز مجير الدين يعقوب، وأمال إليه عدة من الأمراء وحسن له القبض عليه، فانخدع له الملك العادل، وقبض على فخر الدين واعتقله بقلعة الجبل، وأخرج عمه الملك المعز من أرض مصر، ومعه أخوه الأمجد تقي الدين عباس، فلما تم للناصر ما أراد خيل العادل من الملك الجواد نائبه على دمشق، بأن الأمراء قد مالت إليه، وقام بأمره الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ، فبلغ ذلك العماد، فخاف أن يتفق عليه ما اتفق على أخيه، واجتمع بالملك العادل، والتزم له بإحضار الملك الجواد إلى طاعته عصر، فسيره

العادل من القاهرة، ليحضر الملك الجواد من دمشق، فأكرمه الجواد، وأخذ العماد في التحدث معه في المسير إلى الملك العادل، فسوف به وماطله، حتى فطن العماد بامتناعه، فاحضر حينئذ الولاة والمشدين والنواب والدواوين بدمشق وأعمالها، وقال لهم: قد عزل السلطان الملك العادل الجواد عن نيابة دمشق، فلا تدفعوا إليه مالا، ولا تقبلوا له قولاً، فعز ذلك على الملك الجواد، ووكل بعماد الدين، وسجنه بقلعة دمشق، وتقرر الأمر بين الملك الجواد وبين المجاهد صاحب حمص، أن يكونا يدًا واحدة، ووافقهما الأمير عماد الدين بن قلج، نائب الملك الجواد بدمشق، فرأوا أن أمرهم لا يتم إلا قتل العماد بن شيخ الشيوخ فبعثوا إلى نواب الإسماعيلية في ذلك، ودفعوا إليهم مالاً وقربة، فسيروا فدائيين فقلاه على باب الجامع، في سادس عشري جمادى الأولى، وأشيع أنهما غلطا في قتله، وإنما كانا يريدان قتل الملك الجواد، فإنه كان كثير الشبه به فبلغ ذلك الملك العادل فشق عليه.

وفي العشرين من شوال: ورد الخبر بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب، صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر، إلى جينين فجمع الملك العادل والملك الناصر الأمراء وتحالفوا على قتال الصالح، وخرج الناصر داود من القاهرة، في تاسع ذي القعدة، لقتال الصالح، وجهز العادل جماعة من الأمراء، وعدة من العساكر بديار مصرة لتأخذ دمشق، وقدم الملك العادل إلى الملك الجواد رسولاً بكتاب فيه أنه يعطه قلعه الشوبك وبلادها، وثغر الإسكندرية، وأعمال البحيرة وقيلوب، وعشر قرى من بلاد الجيزة بديار مصر، لينزل عن نيابة السلطة بدمشق، ويحضر إلى قلعة الجبل، ليعمل برأيه في أمور الدولة، فلما ورفى ذلك أوهمه نائبه عماد الدين قلج من أنه متى دخل مصر، قبض عليه الملك العادل، وسلبه أولاد عماد الدين بن شيخ الشيوخ بدمه، فامتنع من تسليم دمشق، برز الملك العادل من القاهرة يريد دمشق، يوم الثلاثاء سلخ ذي الحجة، ونزل بلبيس، فخاف الجواد، وعلم عجزه عن مقاومة العادل، فبعث كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله المشهور بابن العديم العقيلي، وابن طلحة خطيب جامع دمشق إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب - صاحب حصن كيفا وديار بكر وغررها من بلاد الشرق - يطلب منه أن يتسلم دمشق، ويعرضه عنها سنجار والرقة وعانة، فوقع ذلك من الملك الصالح أحسن موقع، وأجابه إليه، وزاده الجديدة، وحلف له على الوفاء، ورتب الملك الصالح ابنه الملك المعظم توران شاه على بلاد الشرق، وألزمه بحصن كيفا، وأقام نوابًا بآمد وديار بكر، وسلم حران والرها وجميع البلاد للخوارزمية الذين في خدمته، وطلب

نجدة من الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكان قد صالحه - فبعث إليه بدر الدين نجدة، وسار الملك الصالح من الشرق يريد دمشق، فقطع الجواد اسم الملك العادل من الخطة، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وضرب السكة باسمه، ودخل الصالح إلى دمشق، في مستهل جمادى الأولى، ومعه الجواد بين يديه بالناشية، وقد ندم الجواد على ما كان منه، وأراد أن يستدرك الفائت فلم يقدر، وخرج من دمشق والناس تلعنه في وجهه، لسوء أثره فيهم، وبعث الصالح إليه برد أموال الناس إليهم، فأبي وسار.

وكان قد وصل مع الصالح أيضًا الملك المظفر صاحب حماة، وقد تلقاه الجواد، فكان دخوله يومًا مشهودًا، فاستقر في قلعة دمشق، وخرج الجواد إلى بلاده، فكانت مدة نيابته دمشق عشرة أشهر وستة عشر يومًا، صرف فيها الأموال التي كانت في خزائن الملك الكامل كلها، وكانت تزيد على ستمائة ألف دينار مصرية، سوى القماش وغيره، وسوى ما ظلم فيه الناس من التجار والكتاب، وسوى ما أخذه من صفي الدين ابن مرزوق لما صادره، وكان ينيف على خمسمائة ألف دينار، فلما استقر الملك الصالح بدمشق سار المظفر إلى حماة، وقدمت الخوارزمية، فنازلوا مدينة حمص - وهو معهم - مدة ثم فارقوها بغير طائل، وعادوا إلى بلادهم بالشرق.

فلما وردت الأخبار بحركة الملك الصالح إلى القاهرة، خرج من أمراء مصر سبعة عشر أميرًا - منهم الأمير نور الدين علي بن فخر الدين عثمان الإستادر، والأمير علاء الدين ابن شهاب أحمد، الأمير عز الدين أيبك الكربدي العادلي والأمير عز الدين بلبان والأمير حسام الدين لؤلؤ المسعودي، والأمير سيف الدين بشطر الخوارزمي، والأمير عز الدين قضيب البان العادل، والأمير شمس الدين سنقر الدنيسري - في عدة كبيرة من أتباعهم وأجنادهم، وخلق من مقدمي الحلقة والمماليك السلطانية، وساروا يريدون الملك الصالح بدمشق.

وذلك أن الملك العادل تقدم بتوجه العسكر إلى الساحل، وقدم عليه الركن الهيجاري وأنفق فيهم، فلما نزلوا بلبيس اختلفوا، وخامر جمعة من الأمراء على العادل، وعزموا على المسير إلى الملك الصالح، فبعث العادل إليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وبهاء الدين مليكيشو، ليطيب خواطرهم، فلم يجيبوا، وخرج من القاهرة عدة من الحلقة، ومعهم طائفة، ومنعوا من غلق باب النصر، وساروا طائفة بعد طائفة على حمية، فبطق العادل إلى من بقي معه من الأمراء الأكراد بمحاربة من خامر عليه ببلبيس، قبل قدوم هؤلاء عليهم، فاقتتل الأكراد مع الأتراك ببلبيس،

وانكسر الأتراك المخامرون وأخذ منهم أمير، وانهزم باقيهم وهم في طلبهم إلى ناحية سنيكسة. فلحق بهم من خرج من الحلقة ومضوا جميعًا إلى تل العجول، وعادت الخزانة التي كانت معهم سالمة إلى القاهرة، ثم بعثوا يطلبون من العادل العفو، فأمنهم وحلف لهم، فلم يرجعوا، وساروا إلى الملك الصالح، فلما بلغوا غزة أمر الملك الصالح أستاداره بالعود إلى خوبة اللصوص، وخرج هو ببقية عسكره من دمشق، لليلتين بقيتا من شهر رمضان، ونزل الملك الصالح الخربة، ووصل الأمير نور الدين بن فخر الدين بمن معه، فسر بهم سرورًا كثيرًا، وأخذوا في تقوية عزمه على قصد مصر، فرحل واستولى على نابلس والأغوار. وأعمال القدس والسواحل، وبعث ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر إلى دمشق، وأقطع من قدم عليه من أمراء مصر نابلس وأعمالها، ليتقووا بمغلها، فخرج الناصر داود من مصر، وصار إلى الكرك، فانزعج الملك العادل وأمه لقدوم الصالح انزعاجًا عظيمًا، وخافاه خوفًا كبيرًا، واضطربت مصر اضطرابًا زائدًا، وخرج فخر القضاة في الدين بن بصاقة في الرسالة إلى الملك الصالح من الكرك عن الناصر داود بأنه في نصرة الملك الصالح ومعاونته، ويسأله دمشق وجميع ما كان لأبيه، فلم تقع موافقة على ذلك فسار الناصر إلى الملك العادل، ونزل بدار الوزراة من القاهرة، ليعينه على محاربة أخيه الملك الصالح، فقدم في ذي الحجة الصاحب محيي الدين بن الجوزي برسالة الخليفة إلى الملك الصالح، لصالح أخاه الملك العادل فأجل الملك الصالح قدومه إجلالاً كثيرًا ومع ذلك فإن كتب الأمراء - وغيرهم - ترد في كل قليل على الملك الصالح من مصر، تعده بالقيام معه، وأن البلاد في يده، لاتفاق الكلمة على سلطنته.

* * *

سنة سبع وثلاثين وستمائة

أهلت والملك العادل على بلبيس بعساكره يريد الشام، لمحاربة أخيه الملك الصالح، فأقام على بلبيس، فقصد الأمراء القبض عليه، وعمل بعضهم دعوة، وحضر إليه العادل، ففطن بما هم عليه، فقام ودخل الخريشته لقضاء الحاجة، وخرج من ظهر الخريشته، وركب فرسًا وساق إلى القلعة فبعث إليه الأمراء يطلبونه، فأظهر أنه ما دخل القاهرة إلا لكسرة الخليج، وأنه سيعود إليهم ثم ألجاته الضرورة حتى خرج إلى العباسة في رابع عشري المحرم، وقبض على جماعة من الأمراء.

وفي نصف صفر: توجه الناصر داود من العباسة إلى الكرك، وصحبته الأمير سيف الدين علي بن قلج، وجماعة من أمراء مصر، فبلغ العادل عن فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أنه يكاتب الصالح، فقبض عليه واعتقله، هذا ومحيي الدين أبو المظفر يوسف بن الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي أخذ في الإصلاح بين الملوك على أن تكون دمشق للصالح نجم الدين أيوب، ومصر للعادل، وأن يرد إلى الناصر داود ما أخذ من بلاده، وكان محيي الدين بن الجوزي مقيمًا عند الصالح، وابنه شرف الدين يتردد من نابلس إلى مصر في السفارة، حتى تقارب الأمر. ثم قدم محيي الدين إلى مصر، ومعه جمال الدين يحيى بن مطروح، ناظر ديوان الجيوش للملك الصالح، فأديا الرسالة، وأقاما عند الملك العادل، وكان قد أخذ الصالح يكاتب عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل في الوصول إليه بنابلس، وبعث إليه الطبيب سعد الدين الدمشقي، ومعه حمام ليسرح إليه بالبطائق على جناحها ما يتجدد فاتفق أمر عجيب: وهو أنه لما وصل سعد الدين إلى قلعة بعلبك أنزل الصالح عماد الدين إسماعيل بدار، وبدل عرض الحمام الذي في قفص سعد الدين بحمام آخر، من حمام القلعة ببعلبك وأخذ الصالح عماد الدين في التدبير على أخذ دمشق، وانتزاعها من يد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأرسل جواسيسه سرًا إلى ابن أخيه الملك العادل، بما عزم عليه من أخذ دمشق، وأنه منتم إليه وفي طاعته، وإذا ملك دمشق خطب له على منابرها، وضرب السكة باسمه، وكتب الصالح عماد الدين إسماعيل أيضًا إلى المجاهد - صاحب حمص - في معاونته، وهو يواصل كتبه مع ذلك إلى الملك الصالح نجم الدين، يعده بالوصول إلى نصرته، وشرع الصالح عماد الدين في جمع الرحال، ففطن بذلك الطبيب سعد الدين، وكتب البطائق على أجنحة الحمام بهذا الأمر إلى الملك الصالح نجم الدين، فكان كلما سرح

سعد الدين منها طائرًا وقع في برجه بقلعة بعلبك فأتى به البراج إلى الملك الصالح عماد الدين، ثم إن الصالح عماد الدين زور بطاقة عن الطبيب سعد الدين، فيها إن المولى الملك الصالح عماد الدين في الاهتمام للمسير إلى المعسكر المنصور، وإنه باق على الطاعة وسرح هذه البطاقة المزورة على جناح طائرة من الطور التي وصلت مع الطبيب سعد الدين، فلما وقف عليها الملك الصالح نجم الدين، ظن أنها من عند رسوله، فطاب قلبه، ووالى الصالح عماد الدين إرسال البطائق المزورة، وكلما سرح الطيب طائرا ببطاقة وقع في قلعة بعلبك، فيصل إلى الصالح عماد الدين.

واتفق مع ذلك أمر آخر من عجيب ما يجري: وهو أن المظفر صاحب حماة كان منتميًا إلى الصالح نجم الدين، ومهتما بنصرته، ويخطب له في بلاده، وكان الحلبيون والمجاهد صاحب حمص معاندين له، ومساعدين عليه فعلم المظفر صاحب حماة ما عليه خاله الصالح عماد الدين - صاحب بعلبك - من قصد دمشق، وموافقة المجاهد صاحب حمص له، وكانت عساكر دمشق مع الصالح نجم الدين أيوب على نابلس، وهم خمسة آلاف، وليس بدمشق من يحفظها، فخاف الملك المظفر صاحب حماة على دمشق، وباطن الأمير سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني على أنه يظهر الحرد عليه وفارقه، ويوهم أكابر البلد بأن المظفر قد عزم على تسليم حماة إلى الفرنج، لما حصل عنده من الغبن من المجاورين له، وأخذ بلاده منه، وقصد المظفر بهذه الحيلة مكيدة صاحب حمص، وأن الأمير سيف الدين إذا ذهب بالعسكر وأكابر الرعية إلى دمشق أقاموا بها وحفظوها، حتى يتوجه الملك الصالح إلى مصر، أو يعود إلى دمشق، فأظهر سيف الدين الغضب على المظفر، وأخذ قطعة من العسكر، ومن أكابر حماة، وخرج فسار حتى نزل على حمص، عند بحيرة قدس فلم يخف على المجاهد صاحب حمص ما دبره المظفر من مكيدته، وخرج من حمص، وبعث إلى الأمير سيف الدين يريد الاجتماع به، فأتاه سيف الدين منفردًا، واعلمه بأنه كره مجاورة المظفر، لما هو عليه من الميل للفرنج، والعزم على تسليمهم حماة، فأظهر له الملك المجاهد البشر ولاطفه، واستدعاه إلى ضيافته بداخل حمص، فلما صار به إلى القلعة، استدعى أصحابه لينزلوا في البلد، فدخل بعضهم وامتنع بعضهم من الدخول إلى حمص، فلما تمكن المجاهد من الأمير سيف الدين قبض عليه، واعتقله هو ومن دخل من أصحابه، وفر الباقون، فعاقب المجاهد من صار في قبضته أشد العقوبة، واستصفى أموالهم، ومازال بسيف الدين حتى هلك فضعف المظفر لتلف رجال عسكره.

وسار الصالح عماد الدين - ومعه المجاهد - إلى دمشق في جمع كبير، وأخذاها وأظهرا طاعة الملك العادل صاحب مصر، وكان ذلك في سابع عشري صفر، ثم ملكا قلعه دمشق، واعتقلا المغيث بن الصالح نجم الدين، فبلغ ذلك الصالح وهو بنابلس، فكتم الخبر، وقدم الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذاباني أستاداره في جماعة، وسار بعده يريد دمشق، فلما وصل ابن أبي علي إلى الكسوة علم بأخذ دمشق من يدهم، فرجع إلى الصالح - وقد نزل بيسان - فاعلمه الخبر، وسار معه حتى وصل القصير اللعيني من النور فاشتهر عند العسكر أخذ دمشق، فورود مكاتبات الصالح عماد الدين إليهم، باستمالتهم إليه، ففسدت نياتهم، وطمعوا في الملك الصالح نجم الدين، لتلاشي أمره، وفارقوه، فبقي الصالح نجم الدين في دون المائة من أمرائه وأجناده، وتركه من كان معه من أهل بيته وأقاربه، وتركه أيضًا بدر الدين قاضي سنجار - وكان أخص أصحابه، وصاروا كلهم إلى دمشق، وقد أيسوا من أن يقوم بعدها للصالح نجم الدين قائمة، وثبت معه الأمير حسام الدين بن أبي علي أستادراه، وزين الدين أمير جانداره، وشهاب الدين بن سعد الدين كوجبا - وكان أبوه سعد الدين ابن عمة الملك الكامل - والأمير شهاب الدين البواشقي، ونحو الثمانين من مماليكه، وثبت معه أيضًا كاتبه بهاء الدين زهير، وهرب الطواشي شهاب الدين فاخر، وأخذ معه شيئًا كثيرًا من قماش الصالح، وعدة من مماليكه الصغار وغلمانه، وصار مع من لحق بدمشق، ففت في عضد الصالح مفارقة العسكر له، وأيقن بزوال أمره ورحل في الليل، فلقيه طائفة من العربان يريدون أخذه، فحاربهم بمن معه، حتى خلص منهم إلى نابلس، فنزل بظاهرها، ولما وصل العسكر المخامر على الصالح نجم الدين إلى دمشق، قبض الملك الصالح عماد الدين على أخويه الملك المعز مجير الدين يعقوب والملك الأمجد تقي الدين عباس، واعتقل الأمراء المصريين أيضًا: وهم عز الدين أيبك الكردي، وعز الدين قضيب البان، وسنقر الدينسري، وبلبان المجاهدي، وتوجه نور الدين بن عثمان إلى بغداد، واتفق تغير الملك العادل على الناصر داود، ففارقه من بلبيس - وصحبته الأمير سيف الدين علي بن قلج - وسار إلى الكرك، وكاتب الصالح نجم الدين ووعده النصرة، وكان ذلك خدعة منه ثم سار الناصر إلى نابلس بعساكره، وقبض على الملك الصالح نجم الدين، ويقال بل بعث إليه من أخذه بعد ما صار وحده، وأركبه على بلغة في إهانة، بغير مهماز ولا مقرعة، في ليلة السبت ثاني عشر ربيع الأول، وبعث الناصر به إلى الكرك ولم يزل معه غير مملوك واحد، يقال له ركن الدين بيبرس، وبعث معه جاريته شجر الدر أم

ولده خليل، وأنزله بالقلعة، وقام له بجميع ما يحتاج إليه بحيث لم يحتل من حاله سوى أنه فقد الملك فقط، وأقام بهاء الدين زهير عند الناصر داود هو وجماعة المماليك، بعد ما خيرهم فاختاروا الإقامة عنده وطلب الأمير حسام الدين بن أبي علي، وزين الدين أمير جاندار من الناصر المسير إلى دمشق فسيرهما، وعندما قدما دمشق اعتقلهما الصالح عماد الدين.

وفي سابع عشر ربيع الأول: عاد الملك العادل إلى القاهرة، بعد ما بعث الركن الهبجاوي على جماعة، لحفظ الساحل، فلما بلغ الملك العادل ما جرى على أخيه - من أخذه ذليلاً، ونهب أحر، وسجنه بالكرك - سره ذلك سرورًا كثيرًا، وظن أنه قد أمن، ونودي بزينة القاهرة ومصر فزينتا، وعمل سماطًا عظيمًا في الميدان الأسود تحت قلعة الجبل، وعمل قصورًا من حلوى، وأحواضًا من سكر وليمون، وألفًا وخمسمائة رأس شواء، ومثلها طعامًا، فكان ما عمل من السكر ألف وخمسمائة أبلوجة، ونادى الملك العادل في العامة بالحضور إلى السماط، فحضر الجليل والحقير، وبلغ ذلك الصالح نجم الدين، وهو معتقل بالكرك.

ولم يقنع الملك العادل بسجن أخيه، حتى أنه بعث الأمير علاء الدين بن النابلس إلى الناصر داود، يطلب منه أن يبعث إليه بأخيه الصالح في قفص حديد تحت الاحتفاظ، ويبذل له في مقابلة إرساله أربعمائة ألف دينار ودمشق، وحلف على ذلك أيمانًا عظيمة، فلما وصل الكاتب إلى الناصر أوقف عليه الملك الصالح، وأدخل إليه بالقاصد الذي أحضره، ثم كتب الناصر إلى الملك العادل: وصل كتاب السلطان، وهو يطلب أخاه إلى عنده في قفص حديد، وأنك تعطيني أربعمائة ألف دينار مصرية، وتأخذ دمشق ممن هي بيده، وتعطني إياها، فأما الذهب فهو عندك كثير، وأما دمشق فإذا أخذتها ممن هي معه، وسلمتها إلي، سلمت أخاك إليك، وهنا جوابي والسلام. فلما ورد هنا الجواب على الملك العادل أمر بتجهيز العساكر، ليخرج إلى الشام، وخرج محيي الدين بن الجرزي من القاهرة، ومعه جمال الدين بن مطروح رسول الصالح نجم الدين، وكان قد استجار به بعدما قبض على الصالح نجم الدين وسجن بالكرك.

وفي أثناء هذا الاختلاف بين الملوك عمر الفرنج في القدس قلعة، وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وكان قد ترك لما خرب الملك المعظم أسوار القدس، فلما بلغ الناصر داود عمارة هذه القلعة سار إلى القدس، ورمى عليها بالمجانيق حتى أخذها، بعد أحد وعشرين يومًا - في يوم تاسع جمادى الأولى - عنوة بمن معه من عسكر مصر، وتأخر أخذ برج داود إلى خامس عشرة فأخذ من الفرنج صلحًا على أنفسهم

دون أموالهم، وعمر الناصر برج داود واستولى على القدس، وأخرج منه الفرنج. فساروا إلى بلادهم،

وفي يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول: ومع بين الفرنج وبين العسكر المصري المقيم بالساحل حرب، انحسر فيها الفرنج، وأخذ من الفرنج ملوكهم وأكنادهم، وثمانون فارسًا، ومائتان وخمسون راجلا - وصلوا إلى القاهرة، وقتل منهم ألف وثمانمائة، ولم يقتل من المسلمين غير عشر، ثم سار ابن الجوزي إلى دمشق، وحاول إصلاح الحال بين الصالح عماد الدين وبين الناصر داود وبن الملك العادل، فلم يتأت له ذلك، فعاد إلى القاهرة في رمضان، وقد وصل الملك ابن سنقر بخلعة الملك العادل وابنه، وأمه وامرأته وكاتبه، ونزل ابن مطروح عند المظفر بحماة، فبعثه في الرسالة إلى الخوارزمية بالشرق، يستحثهم على القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين، واستصحب معه أيضًا رسالة الناصر داود، ومنه: إني لم أترك الملك المصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته، خوفًا عليه من أخيه الملك العادل، ومن عمه الملك الصالح عماد الدين، وسأخرجه وأملكه البلاد، فتحركوا على بلاد حلب، وبلاد حمص. فسار إليهم ابن مطروح وقضي الأمر معهم، وعاد إلى حماة، فاتفق موت الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه - صاحب حمص - يوم التاسع عشر من شهر رجب، فكانت مدة ملكه بحمص نحوا من ست وخمسين سنة، وقام من بعده ابنه الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم، واتفق مع الصالح عماد الدين على المعاضدة، فصار الناصر داود مواحشًا للملك العادل، بسبب أنه لم يوافقه على أخذ دمشق، والملك العادل مواحشه؛ لأنه لم يسلمه الملك الصالح نجم الدين، والناصر أيضًا مواحش للصالح عماد الدين، ويهدده بأنه يطلق الملك الصالح نجم الدين، ويقوم معه في أخذ البلاد والمظفر صاحب حماة لا يخطب للعادل من حين قطع الخطبة للصالح نجم الدين، لميله الملك الصالح نجم الدين.

فلما دخل شهر رمضان: سير المظفر القاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن أبي الدم - قاضي حماة - رسولاً إلى الملك العادل بمصر، وحمله في الباطن رسالة إلى الناصر داود بالكرك، أن يطلق الصالح نجم الدين، ويساعده على أخذ البلاد، فبلغ القاضي شهاب الدين الملك الناصر ذلك وتوجه إلى مصر، فأفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين، في سابع عشر من رمضان، واستدعاه إليه وهو بنابلس، فلما قدم عليه التقاه وأجله، وضرب له دهليز السلطة، واجتمع عليه مماليكه وأصحابه الذين عنوا عند الناصر: منهم الأمير شهاب الدين بن

كعب كوجبا، وشهاب الدين الغرس، وكاتبه بهاء الدين زهير، وتقدم الناصر للخطيب بنابلس في يوم عيد الفطر، فدعا الملك الصالح، وأشاع ذكره، وسار الناصر داود والصالح نجم الدين إلى القدس وتحالفا على أن تكون ديار مصر للملك الصالح، والشام والشرق للناصر، وأن يعطه مائتي ألف دينار، فكانت مدة اعتقال الملك الصالح سبعة أشهر وأيامًا، ثم سارا إلى غزة، فورد الخبر بذلك على الملك العادل بمصر، فانزعج وأمر بخروج الدهليز السلطاني والعساكر، وبرز إلى بلبيس في نصف ذي العقدة، وكتب إلى الصالح عماد الدين أن يخرج بعساكر دمشق، فخرج الصالح عماد الدين بعساكره إلى الغوار، فخاف الملك الصالح والملك الناصر من التقاء عساكر مصر والشام عليهما، ورجعا من غزة إلى نابلس، ليتحصنا بالكرك وكان الملك العادل قد شره في اللعب، وأكثر من تقديم الصبيان والمساخر وأهل اللهو، حتى حسبت نفقاته في هذا الوجه خاصة، فكانت ستة آلاف ألف وعشرين ألف ألف درهم، وأعطى العادل عبدًا أسود، عمله طشت داره، يعرف بابن كرسون منشورًا بخمسين فارسًا، فلما خرج به من باب القلة بقلعة الجبل وجده الأمير ركن الدين الهيجاري، أحد الأمراء الأكابر، فأراه المنشور، فحنق في وجهه، وأخذ منه المنشور، وصار بين الأمراء وبين الملك العادل وحشة شديدة، ونفرة عظيمة، واتفق ما تقدم ذكره إلى أن نزل العادل ببلبيس، فقام الأمير عز الدين أيبك الأسمر - مقدم الأشرفية - وباطن عدة من الأمراء والمماليك الأشرفية على خلع العادل والقبض عليه، ووافقهم على هذا جوهر التوبي وشمس الخواص - وهما من الخدام الكاملية، وجماعة أخر من الكاملية، وهم مسرور الكاملي، وكافور الفائزي، وركبوا ليلاً وأحاطوا بدهليز الملك العادل، ورموه وقبضوا عليه، ووكلوا به من يحفظه في خيمة، فلم يتحرك أحد لنصرته، إلا أن الأكراد هموا بالقيام له، فمال عليهم الأتراك والخدام ونهبوهم، فانهزم الأكراد إلى القاهرة، ويقال إنه بلغ أيبك الأسمر أن الملك العادل سكر مع شبابه وخواصه، وقال لهم: عن قليل تشربون من دم أيبك الأسمر وهؤلاء العبيد السوء فلان وفلان وسماهم فاجتمعوا على خلعه، لاسيما لما طلب ابن كرسون منه أن يسلمه الأمير شجعاع الدين بن بزغش - والي قوص - فأمكنه منه وعاقبه أشد عقوبة وتنوع في عذابه، ولم يقبل فيه شفاعة أحد من الأمراء، وكان الملك العادل قد قربه تقريبًا زائدًا، حتى كان يقضي عنده الحوائج الجليلة، فأنفت الأنفس من ذلك، وخلع العادل في يوم الجمعة تاسع شوال، فكانت مدة ملكه سنتين وشهرين وثمانية عشر يومًا، أولها يوم الخميس، وآخرها يوم الخميس تاسع شوال سنة سبع وثلاثين

وستمائة، أسرف فيها إسرافًا أفرط فيه، بحيث أن أباه الملك الكامل ترك ما ينيف على ستة آلاف ألف دينار مصرية، وعشرين ألف ألف درهم فرقها كلها، وكان العادل يحمل المال إلى الأمراء وغيرهم على أقفاص الحمالين، ولم يبق أحد في دولته إلا وشمله إنعامه، فكانت أيامه بمصر كلها أفراح ومسرات للذين جانبه، وكثرة إحسانه.

* * *

السلطان الملك الصالح

أبو الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، لما قبض على أخيه الملك العادل، كان الأمير عز الدين أيبك الأسمر يميل إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل - صاحب دمشق - وكانت الخدام والمماليك الكاملية تميل إلى الملك الصالح نجم الدين - وهم الأكثر - فلم يطق عز الدين مخالفتهم، فاتفقوا كلهم، وكتبوا إلى الملك الصالح نجم الدين يستدعونه فأتته كتبهم، وقد بلغ هو والناصر داود الغاية من الخوف وزلزلا زلزالاً شديدًا، لضعفهما عن مقاومة عساكر مصر والشام، فأتاهما من الفرج ما لم يسمع بمثله، وقاما لوقتهما، وسارا إلى مصر، فلما دخلا الرمل لم ينزلا منزلة إلا وقدم عليهما من أمراء مصر طائفة، حتى نزلا بلبيس، يوم الاثنين تاسع، بعدما خطب له بالقاهرة ومصر يوم الجمعة خامس عشره، ومنذ فارقا غزة تغير الناصر داود على الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتحدث في قتله، فلما نزلا بلبيس، سكر الملك الناصر، ومضى إلى العادل، وقال له: كيف رأيت ما أشرت به عليك، ولم تقبل مني؟ فقال له العادل: يا خوندا التوبة، فقال الناصر: طيب قلبك، الساعة أطلقك ثم جاء الناصر، ودخل على الملك الصالح، ووقف فقال له الصالح: بسم الله اجلس، قال: ما أجلس حتى تطلق العادل، فقال له: أعد، وهو يكرر الحديث، فما زال به حتى نام، فقام من فوره الملك الصالح، وسار في الليل ومعه العادل في محفة، ودخل به إلى القاهرة، واستولى على قلعة الجبل، يوم الجمعة ثالث عشري شوال، بغير تعب، وجلس الملك الصالح نجم الدين أيوب على سرير الملك، واعتقل العادل ببعض دوره، واستحلف الأمراء، وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعة الجبل زينة عظيمة، وسر الناس به سرورًا كثيرًا، لنجابته وشهامته، ونزل الناصر داود بدار الوزارة من القاهرة، ولم يركب الملك الصالح يوم عيد النحر، لما بلغه من خلف العسكر.

وفي ذي الحجة: أحضر الملك الصالح إليه الملك العادل، وسأله عن أشياء، ثم كشف بيت المال والخزانة السلطانية، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم. وقيل له عما أتلفه أخوه، فطلب القضاة والأمراء الذين قاموا في القبض على أخيه، وقال لهم: لأي شيء قبضتم على سلطانكم؟ فقالوا: لأنه كان سفيهًا فقال: يا قضاة السفيه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين، قالوا: لا قال: أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أرواحكم عوضه. فخرجوا وأحضروا إليه سبعمائة ألف وخمسة وثمانين

ألف دينار، وألفي ألف وثلاثمائة ألف درهم، ثم أمهلهم قليلاً، وقبض عليهم واحد بعد واحد، واستدعى الملك الصالح بالقاضي شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن علي بن محمد المعروف بابن أبي الدم - وكان بمصر منذ قام من عند المظفر صاحب حماة، وبعث به مكرمًا إلى حماة وخلع علي ابن الجوزي رسول الخليفة، وكتب معه إلى الديوان العزيز يشكو منه، وكانت الخلع الخليفتية قد وصلت إلى القاهرة، فلبسهما الملك الصالح، ونصب منبرًا صعد عليه ابن الجوزي، وقرأ تقليد الملك الصالح، والملك الصالح قائم بين يدي المنبر على قدميه، حتى فرغ من قراءته، وشيع الملك الصالح أيضًا الصاحب كمال الدين بن العديم رسول حلب، وتخوف السلطان من الناصر داود، لكثرة ما بلغه عنه من اجتماعه بالأمراء سرًا، ولأنه سأله أن يعطيه قلعة الشوبك، فامتنع السلطان من ذلك، واستوحش الناصر فطلب الإذن بالرحيل إلى الكرك، فخرج من القاهرة وهو متغيظ، وقد بلغه أن الصالح إسماعيل خرج من دمشق، ووافق الفرنج على أن يسلمهم الساحل، ووصل الفرنج إلى النابلس، وتأول السلطان أنه ما حلف للناصر بالقدس إلا مكرها، لأنه كان إذ ذاك تحت حكمه وفي طاعته، فلما وصل الناصر إلى الكرك طلب من السلطان ما التزم له به من المال، فحمله إليه، وماطله بتجريد العساكر معه لفتح دمشق، مستندًا لما تأوله، وفي أثناء ذلك تحدث الأشرفية بالوثوب على السلطان، فخافهم وامتنع من الركوب في الموكب مدة، واستوزر السلطان الصاحب معين الدين الحسن بن الشيخ، وسلم إليه أمور المملكة كلها، وهو ببركة الحاج، في يوم الخميس حادي عشر ذي القعدة قبل الظهر، فشرع الصاحب معين الدين في تدبير المملكة، والنظر في مصالح البلاد.

وولدت شجر الدر من الملك الصالح ولدًا سماه خليلاً، ولقبه بالملك المنصور، وعندما نزل الملك الصالح العباسة، في يوم الحج سابع عشر ذي القعدة، قبض على الركن الهيجاري العادلي في يوم الاثنين ثامن عشره، وبعثه إلى القاهرة.

* * *

سنة ثمان وثلاثين وستمائة

فيها شرع السلطان الملك الصالح أيوب في النظر في مصالح دولته، وتمهيد قواعد مملكته، ونظر في عمارة أرض مصر، وبعث زين الدين بن أبي زكري على عسكر إلى الصعيد، لقتال العرب، وتتبع من قام في قبض أخيه الملك العادل، فقبض عليهم، واستصفى أموالهم وقتل عدة منهم، وفر عدة من الأشرفية، وقبض على الأمير عز الدين أيبك الأسمر الأشرفي بالإسكندرية، ونودي بالقاهرة وظواهرها: من أخفى أحدًا من الأشرفية نهب ماله. وأغلقت أبواب القاهرة كلها ثلاثة أيام، ما خلا باب زويلة. حرصًا على أخذ الأشرفية، فأخذوا وأودعوا السجون، وقبض على جوهر النوبي، وشمس الحواص مسرور بدمياط - وكان من الخدام الكاملية، وممن أعلن على خلع العادل، وقبض على شبل الدولة كافور الفائزي بالشرقية، وسجن بقلعة الجبل، وقبض على جماعة من الأتراك ومن أجناد الحلقة، وعلى عدة من الأمراء الكاملية. وصار السلطان الملك الصالح أيوب كلما قبض على أمير أعطى خبره لمملوك من مماليكه وقدمه، فبقي معظم أمراء الدولة مماليكه، لثقته بهم، واعتماده عليهم، فتمكن أمره وقوي جأشه.

وفيها أيس الناصر داود من إعطاء الملك الصالح نجم الدين له دمشق، فانحرف عنه، ومال إلى الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص، واتفقوا جميعًا على الصالح نجم الدين.

وفيها وصل رسول التتار من ملكهم خاقان إلى الملك المظفر شهاب الدين غاري بن العادل، صاحب ميافارقين، ومعه كتاب إليه وإلى ملوك الإسلام، عنوانه: من نائب رب السماء، سامح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب، خاقان. فقال الرسول لشهاب الدين صاحب ميافارقين: قد جعلك خاقان سلاح داره، وأمرك أن تخرب أسوار بلدك فقال له شهاب الدين: أنا من جملة الملوك، وبلادي حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر، فتوجه إليهم، وما فعلوه فعلته.

وفي يوم الجمعة حادي عشر ذي القعدة: رسم الصالح إسماعيل أن يخطب على منبر دمشق للسلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد بن كيخسرو، ملك الروم، فخطب له، ونثر على ذلك الدنانير والدارهم، وكان يومًا مشهودًا، وحضر رسل الروم وأعيان الدولة، وخطب الملك في جوامع البلد، وأنعم على الرسول وخلع عليه.

سنة تسع وثلاثين وستمائة

وفيها قدم الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى مصر، وقد أخرجه الصالح إسماعيل من دمشق، فأكرمه الملك الصالح نجم الدين، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر، وقلده قضاء مصر والوجه القبلي يوم عرف عوضًا عن قاضي القضاة شرف الدين ابن عين الدولة، عندما كتب السلطان بخطه إلى ابن عين الدولة، في يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر ما نصه: إن القاهرة لما كانت دار المملكة، وأمراء الدولة وأجنادها مقيمون بها، وحاكمها مختص بحضور دار العدل، تقدمنا أن يتوفر القاضي على القاهرة وعملها لا غير. وفوض السلطان قضاء القضاة بمصر وعملها - وهو الوجه القبلي - لبدر الدين أبي المحاسن يوسف السنجاري: المعروف بقاضي سنجار. فلما مات ابن عين الدولة استقر البدر السنجاري في قضاء القاهرة، وفوض قضاء مصر والوجه القبلي لابن عبد السلام.

وفيها بلغ السلطان أن الناصر داود صاحب الكرك قد وافق الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وأهل حلب، على محاربته، فسير السلطان كمال الدين بن شيخ الشيوخ على عسكر إلى الشام، فخرج إليه الناصر وقاتله ببلاد القدس، وأسره في عدة من أصحابه، ثم أطلقهم، وعادوا إلى القاهرة. وكان من خبر ذلك أنه في يوم الأربعاء ثاني عشر صفر، وقع عسكر الناصر داود على الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد، وقد نزل على الغوار، فكسره وأخذ الأثقال، وكان معه الأمير شمس الدين شرف - المعروف بالسبع مجانين - وشمس الدين أبو العلاء الكرديان، وشرف الدين بن الصارم صاحب بنين، وكان مقدم عسكر الناصر سيف الدين بن قلج، وجماعة من الأيوبية من عسكر مصر.

* * *

سنة أربعين وستمائة

في ربيع الأول: أبطلت خطة ملك الروم من دمشق، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب.

وفي يوم الجمعة رابع جمادى الأولى: دخل الفرنج من عكا إلى نابلس، ونهبوا وقتلوا وأسروا، وأخذوا منبر الخطيب، وخرجوا يوم الأحد بعد ما أفسدوا أموالاً كثيرة.

وفي يوم السبت ثامن عشر المحرم: وصل إلى القاهرة الشريف علاء الدين عالم بن الأمير السيد علي.

وفيها وصل التتار إلى أرزن الروم، وأوقع الملك المظفر غازي، صاحب ميلادقين بالخوارزمية. وفيها ماتت ضيفة خاتون ابنة العادل أبي بكر بن أيوب، ليلة الجمعة لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى فاستبد ابن ابنها الناصر يوسف بن الظاهر غازي بمملكة حلب بعدها، وقام بتدبيره بعد جدله الأمير شمس الدين لؤلؤ الأتابك، والأمير جمال الدين العادل الأسود الحسن، الخاتون، والوزير الأكرم جمال الدين بن النفطي، وخرج إقبال من حلب بعسكر، وحارب الخوارزمية، ثم عاد.

وفيها مات الخليفة المستنصر بالله جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد ابن الناصر لدين الله أحمد العباس أمير المؤمنين بكرة يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة.

* * *

سنة إحدى وأربعين وستمائة

وفيها تكررت المراسلة بين الصالح نجم الدين أيوب، وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وبين المنصور صاحب حمص، على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل، ومصر للصالح أيوب، وكل من صاحب حمص وحماة وحلب على ما هو عليه، وأن تكون الخطة والسكة في جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب وأن يطلق الصالح إسماعيل الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الصالح نجم الدين من الاعتقال، وأن يخرج الأمير حسام الدين أبو علي بن محمد بن أبي علي باشاك الهذباني، المعروف بابن أبي علي من اعتقاله ببعلبك، وأن ينتزع

الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود، فلما تقرر هذا خرج من القاهرة الخطب أصيل الدين الإسعردي - إمام السلطان - في جماعة، وسار إلى دمشق، فخطب للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بجامع دمشق وبحمص، وأفرج عن المغيث ابن السلطان، وأركب ثم أعيد إلى القلعة، حتى يتم بينهما الحلف، وأفرج عن الأمير حسام الدين، وكان قد ضيق عليه وجعل في جب مظلم فلما وصل حسام الدين إلى دمشق خلع عليه الصالح إسماعيل، وسار إلى مصر، ومعه رسول الصالح إسماعيل، ورسول صاحب حمص - وهو القاضي عماد الدين بن القطب قاضي حماة - ورسول صاحب حلب، فقدموا على الملك الصالح نجم الدين، ولم يقع اتفاق، وعادت الفتنة بين الملوك، فاتفق الناصر داود صاحب الكرك، مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على محاربة الملك الصالح نجم الدين وعاد رسول حلب، وتأخر ابن القطب بالقاهرة، فبعث الناصر داود والصالح إسماعيل، ووافقا الفرنج على أنهم يكونون عونًا لهم على الملك الصالح نجم الدين، ووعداهم أن يسلما إليهم القدس وسلماهم طبرية وعسقلان أيضًا فعمر الفرنج قلعتيهما وحصونهما، وتمكن الفرنج من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها بالخمر، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى.

فبرز الملك الصالح نجم الدين أيوب من القاهرة، ونزل بركة الجب وأقام عليها، وكتب إلى الخوارزمية يستدعيهم إلى ديار مصرة لمحاربة أهل الشام، فخرجوا من بلاد الشرق.

وفي يوم عيد النحر: صرف الملك الصالح نجم الدين قاضي القضاة صدر الدين موهوب الجزري، وقلد الأفضل الخونجي قضاء مصر والوجه القبلي.

* * *

سنة اثنتين وأربعين وستمائة

وجهز الصالح إسماعيل عسكرًا من دمشق، عليه الملك المنصور صاحب حمص، فسار المنصور جريدة إلى عكا، وأخذ الفرنج ليحاربوا معه عساكر مصر، وساروا إلى نحو غزة، وأتتهم نجدة الناصر داود صاحب الكرك مع الظهير بن سنقر الحلبي والوزيري، فالتقى القوم مع الخوارزمية بظاهر غزة، وقد رفع الفرنج الصلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس المنصور صاحب حمص، والأقسة تصلب، وبأيديهم أواني الخمر تسقي

الفرسان وكان في الميمنة الفرنج، وفي الميسرة عسكر الكرك، وفي القلب المنصور صاحب حماة، فساق الخوارزمية وعساكر مصر، ودارت بين الفريقين حرب شديدة، فانكسر الملك المنصور، وفر الوزيري، وقبض على الظهير وجرح. وأحاط الخوارزمية بالفرنج، ووضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلاً وأسرًا، ولم يفلت منهم إلا من شرد، فكان عدة من أسر منهم ثمانمائة رجل، وقتل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفًا، وحاز الخوارزمية من الأموال ما يجل وصفه، ولحق المنصور بدمشق في نفر يسير.

وقدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين بذلك في خامس عشر جمادى الأولى، فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعتي الجبل والروضة، فبالغ الناس في الزينة، وضربت البشائر عدة أيام.

وقدمت أسرى الفرنج ورؤوس القتلى، ومعهم الظهير بن سنقر وعدة من الأمراء والأعيان، وقد أركب الفرنج الجمال، ومن معهم من المقدمين على الخيول، وشقوا القاهرة، فكان دخولهم يوما مشهودًا، وعلقت الرؤوس على أبواب القاهرة وملئت الحبوس بالأسرى، وسار الأمير بيبرس، والأمير ابن أبي علي بعساكرهما إلى عسقلان، ونازلاها فامتنعت عليهم لحصانتها فسار ابن أبي علي إلى نابلس، وأقام بيبرس على عسقلان، واستولت نواب الملك الصالح نجم الدين على غزة والسواحل، والقدس والخليل، وبيت جبريل والأغوار، ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والملقاء، والصلت وعجلون.

* * *

سنة ثالث وأربعين وستمائة

فيها كثرت محاربة ابن شيخ الشيوخ لأهل دمشق ومضايقته للبلد إلى أن أحرق قصر حجاج في ثاني محرم، ورمى بالمجانيق، وألح بالقتال.

فأحرق الصالح إسماعيل في ثالثه عدة مواضع، ونهبت أموال الناس، وجرت شدائد إلى أن أهل شهر ربيع الأول، ففيه خرج المنصور صاحب حمص من دمشق، وتحدث معه بركة خان مقدم الخوارزمية في الصفح، وعاد إلى دمشق فأرسل الوزير أمين الدولة كمال الدين أبو الحسن بن غزال المعروف بالسامري إلى الصاحب معين

الدين بن شيخ الشيوخ، يسأله الأمان ليجتمع به، فبعث إليه بقميص وفرجية وعمامة ومنديل، فلبس ذلك وخرج ليلاً، لأيام مضت من جمادى الأولى، فتحادثا ورجع إلى دمشق، ثم خرج في ليلة أخرى، وقرر أن الصالح إسماعيل يسلم دمشق، على أن يخرج منها هو والمنصور بأموالهم، ولا يعرض لأحد من أصحابهم ولا لشيء مما معهم، وأن يعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها، وجميع بلاد السواد، وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة، فأجاب أمين الدولة إلى ذلك، وحلف الصاحب معين الدين لهم، فخرج الصالح إسماعيل والمنصور من دمشق.

ودخل الصاحب معين الدين في يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى، ومنع الخوارزمية من دخول دمشق ودبر الأمير أحسن تدبير، وأقطع الخوارزمية الساحل بمناشير كتبها لهم، ونزل في البلد، وتسلم الطواشي شهاب الدين رشيد القلعة، وخطب بها وبجامع دمشق وعامة أعمالها للملك الصالح نجم الدين، وسلم أيضًا الأمير سيف الدين علي بن قلج قلعة عجلون لأصحاب الملك الصالح، وقدم إلى دمشق، فلما وردت الأخبار بذلك على السلطان أنكر على الطواشي شهاب الدين والأمراء كيف مكنوا الصالح إسماعيل من بعلبك، وقال: إن معين الدين حلف له، وأما أنتم فما خلفتم، وأمر الملك الصالح نجم الدين أن يسير ركن الهيجاوي، والوزير أمين الدولة السامري، تحت الحوطة إلى قلعة الروضة، فسيرا من دمشق إلى مصر، واعتقلا بقلعة الجبل فاتفق مرض الصاحب معين الدين ووفاته بدمشق، في ثاني عشري شهر رمضان، فكتب السلطان إلى الأمير حسام بن أبي علي الهذباني، وهو بنابلس، أن يسير إلى دمشق ويتسلمها، فسار إليها وصار نائبًا بدمشق، والطواشي رشيد بالقلعة، وأفرج السلطان عن الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ - وكان قد لزم بيته - وخلع عليه وأمره وقدمه، وبالغ في الإحسان إليه، وكان لم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره.

وأما الخوارزمية، فإنهم ظنوا أن السلطان إذا انتصر على عمه الملك الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد، فلما منعوا من دمشق، وصاروا في الساحل وغيره من برد الشام، تغيرت نياتهم، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان، وساروا إلى داريا وانتهبوها، وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس وهو على غزة بعسكر جيد من عساكر مصر، وحسنوا له أن يكون معهم يدًا واحدة ويزوجوه منهم، فمال إليهم، وكاتبوا الناصر داود صاحب الكرك، فوافقهم ونزل إليهم واجتمع بهم وتزوج منهم، وعاد إلى الكرك واستولى على ما كان بيد الأمير حسام الدين بن أبي علي، من نابلس والقدس

والخليل، وبيت جبريل والأغوار.

وخاف الصالح إسماعيل، فكاتب الخوارزمية وقدم إليهم، فحلفوا له على القيام بنصرته، ونزلوا دمشق، فقام الأمير حسام الدين بن أبي علي بحفظ البلد أحسن قيام، وألح الخوارزمية - ومعهم الصالح إسماعيل - في القتال ونهب الأعمال، وضايقوا دمشق، وقطعوا عنها الميرة، فاشتد الغلاء بها، وبلغت الغرارة القمح إلى ألف وثمانمائة درهم فضة، ومات كثير من الناس جوعًا، وباع شخص دارًا قيمتها عشرة آلاف درهم، بألف وخمسمائة درهم اشتري بها غرارة قمح، فقامت عليه في الحقيقة بعشرة آلاف درهم، وأبيع الخبز كل أوقية وربع بدرهم، واللحم كل رطل بسبعة دراهم، ثم عدمت الأقوات بالجملة، وأكل الناس القطط والكلاب والميتات، ومات شخص بالسجن، فأكله أهل السجن، وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر، وصار من يمر من الجبل يشتم ريح نتن الموتى، لعجز الناس عن مواراة موتاهم، ولم تنقطع مع هذا الخمور والفسوق من بين الناس.

وأخذ الملك الصالح نجم الدين مع ذلك في أعمال الحيل والتدبير، وما زال بالمنصور إبراهيم صاحب حمص حتى مال إليه، واتفق أيضًا مع الحلبيين على محاربة الخوارزمية، فخرج الملك الصالح نجم الدين من القاهرة بعساكر مصر، ونزل العباسة، فوافاه بها رسل الخليفة، وهما الملك محمد ابن وجه السبع، وجمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين أبي محمد يوسف بن الجوزي في آخر شوال، ومعهما التقليد والتشريف الأسود: وهو عمامة سوداء وجبة وطوق ذهب، وفرس بمركوب بحلية ذهب، فنصب المنبر، وصعد عليه جمال الدين عبد الرحمن محيي الدين بن الجوزي الرسول، وقرأ التقليد بالدهليز السلطاني، والسلطان قائم على قدميه، حتى فرغ من القراءة، ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفتي، فكان يومًا مشهودًا. وكان قد حضر أيضًا من عند الخليفة تشريف باسم الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، فوجد أنه قد مات، فأمر السلطان أن يفاض على أخيه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، فلبسه.

فلما بلغ الخوارزمية مسير السلطان من مصر، ومسير الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص بعساكر حلب، رحلوا عن دمشق يريدون لقاء المنصور. فوجد أهل دمشق برحيلهم فرجًا، ووصلت إليهم الميرة، وانحل السعر.

* * *

سنة أربع وأربعين وستمائة

فيها أرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب القاضي نجم الدين محمد بن سالم النابلسي، المعروف بابن قاضي نابلس - وكان متقدمًا عنده - إلى مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس، فما زال يخدعه ويمنيه، حتى فارق الخوارزمية، وقدم معه إلى ديار مصر، فاعتقل بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به.

وفيها عظمت مضرة الخوارزمية ببلاد الشام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء وانتهاكهم للحرمات، والتقوا مع الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وعساكر حلب، وقد انضم إليهم عرب كثير وتركمان، نصرة للملك الصالح نجم الدين، وذلك بظاهر حمص أول يوم من المحرم، وقيل ثانيه فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزمية هزيمة قبيحة، تبدد منها شملهم، ولم يقم لهم بعدها قائمة وقتل مقدمهم بركة خان وهو سكران، وأسر كثير منهم واتصل من فر منهم بالتتار، وفيهم من مضى إلى البلقاي وخدم الملك الناصر داود صاحب الكرك، فتزوج الناصر منهم، واختص بهم، وقويت شوكته وسار بعضهم إلى نابلس، فاستولوا عليها، ووصل بعض من كان معهم ممن انهزم إلى حران، ولحق أيبك المعظمي بقلعة صرخد وامتنع بها، وسار الصالح إسماعيل إلى حلب في عدة من الخوارزمية، فأنزله الملك الناصر صاحب حلب وأكرمه، وقبض على من قدم معه من الخوارزمية ووردت البشرى بهذه الهزيمة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في المحرم، فزينت القاهرة ومصر والقلعتان.

وسار الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني من دمشق، واستولى على بعلبك بغير حرب في رجب، وحمل منها الملك المنصور نور الدين محمود بن الملك الصالح إسماعيل، وأخذه الملك السعيد عبد الملك إلى الديار المصرية تحت الاحتياط، فاعتقلوا وزينت القاهرة لفتح بعلبك زينة عظيمة، هي ومصر، وكان أخذ بعلبك عند السلطان أحسن موقعًا من أخذه لدمشق، حنقا منه على عمه الصالح إسماعيل، وانصلحت الحال بين السلطان وبين المنصور صاحب حمص والناصر صاحب حلب، واتفقت الكلمة وبعث السلطان إلى حلب يطلب تسليم الصالح إسماعيل، فلم يجب إلى تسليمه وأخرج السلطان عسكرًا كبيرًا، قدم عليه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وسيره لمحاربة الكرك، فسار إلى غزة، وأوقع بالخوارزمية، ومعهم الناصر داود صاحب الكرك في ناحية الصلت، وكسرهم وبدد شمالهم، وفر الناصر

إلى الكرك في عدة.

وكانت الكسرة على الصلت في سابع عشري ربيع الآخر، وسار فخر الدين عنها بعد ما حرقها واحتاط على سائر بلاد الناصر، وولى عليها النواب ونازل فخر الدين الكرك، وخرب ما حولها، واستولى على البلقاء، وأضعف الناصر حتى سأله الأمان، فبعث فخر الدين يطلب منه من عنده من الخوارزمية، فسيرهم الناصر إليه، فسار عن الكرك وهم في خدمته ثم نازل فخر الدين بصرى، حتى أشرد على أخذها، فنزل به مرض أشفى منه على الموت وحمل في محفة إلى القاهرة، وبقي العسكر حتى استولوا عليها، وقدم المنصور إبراهيم صاحب حمص إلى دمشق منتميًا إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فنزل به مرض مات به في صفر، فخزن عليه السلطان حزنًا كثيرًا، لأنه كان يتوقع وصوله إليه فقام من بعده بحمص ابنه الأشرف مظفر الدين موسى.

وفيها تسلم الملك الصالح نجم الدين عجلون، بوصية صاحبها سيف الدين بن قلج عند موته. وفيها سير الصاحب جمال الدين أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح إلى دمشق وزيرًا وأميرًا، وأنعم عليه بسبعين فارسًا بدمشق، وصرف الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني عن نيابة دمشق، وولى مكانه الأمير مجاهد الدين إبراهيم، وأقر الطواشي شهاب الدين بالقلعة على حاله، فلما دخل ابن مطروح إلى دمشق خرج منها الأمير حسام الدين، وسار إلى القاهرة، فلما قدم على السلطان، وهو بقلعة الجبل، أقره في نيابة السلطنة بديار مصر، وأنزله بدار الوزارة من القاهرة.

وخرج السلطان بالعساكر في شوال يريد دمشق من قلعة الجبل، واستناب بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبي علي، فدخل إلى دمشق في سابع عشر ذي القعدة، وكان دخوله يومًا مشهودًا، فأحسن إلى الناس، وخلع على الأعيان، وتصدق على أهل المدارس والربط وأرباب البيوت بأربعين ألف درهم، وسار بعد خمسة عشر يومًا إلى بعلبك، فرتب أحوالها، وأعطى لأهل المدارس والربط وأرباب البيوت عشرين ألف درهم، وسار إلى بصرى، وقد تسلمها نواب السلطان من الأمير شهاب الدين غازي، نائب الملك الصالح إسماعيل، فتصدق على مدارس بصرى وربطها وأرباب البيوت بعشرين ألف درهم وجهز السلطان الأمير ناصر الدين القيمري، والصاحب الدين بن مطروح، إلى صلخد وبها الأمير عز الدين أيبك المعظمي، فمازالا به حتى سلم صلخد، وسار إلى مصر، وتصدق السلطان في القدس بألفي دينار مصرية، وأمر

بذرع سور القدس، فكاد ذراعه ستة آلاف ذراع بالهاشمي، فأمر بصرف مغل القدس في عمارته، وإن احتاج إلى زيادة حملت من مصر. وفيها سار الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بعسكر إلى طبرية، فنازلها حتى أخذها من يد الفرنج، وهدم الحصون.

وفيها مات الملك العادل أبو بكر بن الكامل محمد خنقا، بقلعة الجبل. وقيل كان خنقه قبل هذه السنة، وقيل بل كان في ستة خمس وأربعين، والقول الثاني أثبت. وسبب قتله أنه كان معتقلاً في برج العافية من قلعة الجبل، فلما عزم السلطان على المسير إلى الشام، بعث يأمره أن يتوجه إلى قلعة الشوبك ليعتقل بها، فامتنع من ذلك، فبعث السلطان إليه من خنقه، وأشاع أنه مات، ثم ظهر أمره وأخرج ابنه المغيث عمر إلى الشوبك، فاعتقل بها، ولما مات العادل دفن خارج باب النصر، ولم يجسر أحد أن يبكي عليه ولا يذكره، وترك العادل ولدًا يقال له: الملك المغيث عمر، أنزل إلى القاهرة عند عماته، ثم أخرج إلى الشوبك. وكان عمر العادل يوم مات نحو ثلاثين سنة، وأقام مسجونًا نحو ثماني سنين. وفيها وقع الاختلاف بين الفرنج.

* * *

سنة خمس وأربعين وستمائة

فيها عاد السلطان الملك الصالح من دمشق إلى ديار مصر، بعد ما أخذ عسقلان وخربها في جمادى الآخرة، وبعد أن تسلم أيضًا قلعة بارزين من عمل حماة، في رمضان، وفي عوده إلى مصر عرض له - وهو بالرمل - وجع في حلقه، أشفى منه على الموت، ثم عوفي ودخل إلى قلعته سالمًا، وزينت البلدان والقلعتان فرحًا به وكتب السلطان إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن يشر من بلاد الفرنج بالساحل إلى دمشق، فسار إليهما بمن معه من العسكر،، وأنعم على من بها من الأمراء وغيرهم، وخلع عليهم، وأخذت عسقلان، يوم الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة بعساكر السلطان.

* * *

سنة ستة وأربعين وستمائة

وبعث السلطان بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ومعه الأمراء والعساكر، وفيهم الأمير ابن أبي علي الهذباني، إلى حمص، فنازلها ورمى عليها بمنجنيق زنة حجره مائة وأربعون رطلاً، ومعه ثلاثة عشر منجنيقًا آخر، وسخر الناس في حمل هذه المجانيق من دمشق، حتى كان يحمل كل عود ثمنه نحو عشرين درهمًا بألف درهم، فإن الوقت كان شتاء صعبًا. وألح الأمير فخر الدين في الحصار إلى أن قدم من بغداد الشيخ نجم الدين البادرائي، رسولاً من الخليفة المستعصم بالله، بالصلح بين الحلبيين وبين السلطان، فتقرر الصلح، ورحل العساكر عن حمص، بعدما أشرف على أخذها.

* * *

سنة سبع وأربعين وستمائة

فيها قدم السلطان من دمشق، وهو مريض في محفة، لما بلغه من حركة الفرنج. فنزل بأشموم طناح في المحرم، وجمع في دمياط من الأقوات والأسلحة شيئًا كثيرًا، وبعث إلى الأمير حسام الدين بن أبي علي نائبه بالقاهرة، أن يجهز الشواني من صناعة مصر، فشرع في تجهيزها، وسيرها شيئًا بعد شيء. وأمر السلطان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن ينزل على جيزة دمياط بالعساكر ليصير في مقابلة الفرنج إذا قدموا فتحول الأمير فخر الدين بالعساكر، فنزل بالجيزة تجاه دمياط، وصار النيل بينه وبينها، ولم يقدر السلطان على الحركة لمرضه، ونودي في مصر: من كان له على السلطان أو عنده له شيء، فليحضر ليأخذ حقه، فطلع الناس وأخذوا ما كان لهم.

وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة لتسع بقين من صفر: وصلت مراكب الفرنج البحرية، وفيها جموعهم العظيمة صحبة ريدافرنس - ويقال له: الفرنسيس، واسمه لويس ابن لويس. وريدافرنس لقب بلغة الفرنج، معناه ملك أفرنس - وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله، فأرسوا في البحر بازاء المسلمين. وسير ملك الفرنج إلى السلطان كتابًا، نصه بعد كلمة كفرهم: أما بعد فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول أنك أمين الأمة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس

يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، ونجلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك وقتلك في أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لي، فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة علي، فيدك العليا ممتدة إلى. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا.

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرئ عليه، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع. فكتب الجواب بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد، كاتب الإنشاء، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين: أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك - أيها المغرور - حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وأخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزل بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك. فهنالك تسيء بك الظنون،{وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ } [الشعراء: ٢٢٧]. فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل:{أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ } [النحل: ١]، وكن على آخر سورة ص:{وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨} [ص: ٨٨] ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين:{كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩} [البقرة: ٢٤٩]، وإلى قول الحكماء: إن الباغي له مصرع وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك، والسلام.

وفي يوم السبت: نزل الفرنج في البر الذي عسكر المسلمين فيه، وضربت للملك ريدافرنس خيمة حمراء. فناوشهم المسلمون الحرب، واستشهد يومئذ الأمير نجم الدين ابن شيخ الإسلام وكان رجلاً صالحًا، ورتبه الملك داود مع الملك الصالح نجم الدين لما سجن بالكرك، لمؤانسته، وممن استشهد أيضًا الأمير صارم الدين أزبك الوزيري. فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معه من عساكر المسلمين، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقي، الذي فيه مدينة دمياط. وخلا البر الغربي للفرنج، وسار فخر الدين بالعسكر يريد أشموم طناح.

فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر، خرجوا كإنما يسحبون على وجوههم طول

الليل، ولم يبق بالمدينة أحد البتة، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة. وفروا إلى أكوم مع العسكر، وهم حفاة عراة جياع فقراء حيارى بمن معهم من الأطفال النساء وساروا إلى القاهرة، فنهبهم الناس في الطريق، ولم يبق لهم ما يعيشون به فعدت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به. وقد كانت دمياط في أيام لملك الكامل، لما نازلها الفرنج، أقل ذخائر وعددًا منها في هذه النوبة، ومع ذلك لم قدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، عندما فني أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضًا جماعة من شجعان بني كنانة، فلم يغن ذلك شيئًا.

وأصبح الفرنج يوم الأحد لسبع بقين من صفر، سائرين إلى مدينة دمياط. فعندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحد يحميها، خشوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا حتى ظهر أن ناسًا قد فروا وتركوها. فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية، والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة، والأقوات والأزواد والذخائر، والأموال والأمتعة وغير ذلك، صفوًا عفوًا.

وبلغ ذلك أهل القاهرة ومصر، فأنزعج الناس انزعاجًا عظيمًا، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر. لتملك الفرنج مدينة دمياط، وهزيمة العساكر، وقوة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة، والحصن الجليل الذي لا يقدر على أخذه بقوة، مع شدة مرض السلطان، وعدم حركته.

وعندما وصلت العساكر إلى أشموم طناح، ومعهم أهل دمياط، اشتد حنق السلطان على الكنانيين، وأمر بشنقهم، فقالوا: وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه هربوا، وأحرقوا الزردخاناه، فأي شيء لعمل نحن؟ فشنقوا لكونهم خرجوا من المدينة بغير إذن، حتى تسلمها الفرنج، فكانت عدة من شنق زيادة على خمسين أميرًا من الكنانيين. وكان فيهم أمير حشيم، وله ابن جميل الصورة. فقال أبوه: بالله اشنقوني قبل ابني. فقال السلطان: لا بل اشنقوه قبل أبيه. فشنق الابن، ثم شنق الأب من بعده، بعد أن استفتى السلطان الفقهاء فأفتوا بقتلهم.

وتغير السلطان على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وقال: أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج. هذا وما قتل منكم إلا هذا الضيف الشيخ نجم الدين. وكان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضي، وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين، فخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان، وهموا بقتله، فأشار عليهم فخر الدين بالصبر، حتى يتبين أمر السلطان: فإنه على خطة، وإن مات كانت الراحة منه، وإلا فهو بين أيديكم.

ولما وقع ما ذكر السلطان بالرحيل إلى المنصورة، وحمل في حراقة حتى أنزل بقصر المنصورة على بحر النيل في يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر، فشرع كل أحد من العسكر في تجديد الأبنية للسكنى بالمنصورة، ونصبت بالأسواق، وأبراج السور الذي على البحر وستر بالستائر. وقدمت الشواني المصرية بالعدد الكاملة والرجالة، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد، من كل النواحي، ووصلت عربان كثيرة جدًا، وأخذوا في الغارة على الفرنج ومناوشتهم. وحصن الفرنج أسوار دمياط، وشحنوها بالمقاتلة.

فلما كانت يوم الاثنين سلخ شهر ربيع الأول: وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العرب ستة وثلاثون أسيرًا، منهم فارسان، وفي خامس شهر ربيع الآخر وصل سبعة وثلاثون أسيرًا، وفي سابعه وصل اثنان وعشرون أسيرًا، وفي سادس عشره وصل خمسة وأربعون أسيرًا، منهم ثلاثة من الخيالة. ولما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها، وأخذوا صيداء من الفرنج، بعد حصار وقتال فورد الخبر بذلك لخمس بقين من شهر ربيع الآخر، فسر الناس بذلك.

فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان: مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة، وهو في مقابلة الفرنج، عن أربع وأربعين سنة، بعدما عهد لولده الملك المعظم تورانشاه، وحلف له فخر الدين بن الشيخ ومحسن الطواشي، ومن يثق به، وبعدما علم قبل موته عشرة آلاف علامة. يستعان بها في المكاتبات على كتمان موته، حتى يقدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا وكانت أم السلطان الملك الصالح أم ولد، اسمها ورد المنى. وكانت مدة ملكه بمصر عشر سنين إلا خمسين يومًا، فغسله أحد الحكماء الذين تولوا علاجه، لكي يخفى موته. وحمل في تابوت إلى قلعة الروضة، وأخفى موته، فلم يشتهر إلى ثاني عشري رمضان، ثم نقل بعد ذلك بمدة إلى تربته بجوار المدارس الصالحية بالقاهرة.

هذا وشجر الدر تدبر الأمور حتى لم يتغير شيء، وصار الدهليز السلطاني على حاله، والسماط في كل يوم يمد، والأمراء تحضر الخدمة، وهي تقول: السلطان مريض، ما يصل إليه أحد.

وأما الفرنج فما هم إلا أن فهموا أن السلطان قد مات حتى خرجوا من دمياط؛ فارسهم وراجلهم، ونزلوا على فارسكور، وشوانيهم في بحر النيل تحاذيهم، ورحلوا من فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان فورد في يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب، فيه حض الناس على الجهاد، أوله:{ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا

وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾} [التوبة: ٤١]، وكان كتابا بليغًا فيه مواعظ جمة، فقرئ على الناس فوق منبر جامع القاهرة وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف. وارتجت القاهرة ومصر، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير، فخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم، وقد اشتد كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوتهم وأخذهم البلاد، مع موت السلطان.

وما زال الأمر على ذلك إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة، دل بعض منافقي أهل الإسلام الفرنج على مخاض في بحر أشمون، فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم في المعسكر، وكان الأمير فخر الدين في الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العسكر، فخرج مدهوشًا وركب فرسه في غير اعتداد ولا تحفظ، وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده فلقيه طلب الفرنج الحاوية وحملوا عليه، ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه، فطعنه واحد برمح في جنبه، واعتورته السيوف من كل ناحية. فمات رحمه الله ونزل الفرنج على جديلة، وكانوا ألفًا وأربعمائة فارس ومقدمهم أخو الملك ريدافرنس.

وما هو إلا أن قتل الأمير فخر الدين، وإذا بالفرنج اقتحموا المنصورة فتفرق الناس وانهزموا يمينًا وشمالاً، وكادت الكسرة أن تكون، فإن الملك ريدافرنس وصل بنفسه إلى باب قصر السلطان إلا أن الله تدارك بلطفه، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية، التي تعرف بالبحرية والجمدارية، وفيهم ركن الدين بيبرس البندقداري الذي تسلطن بعد هذه الأيام فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها، وأزاحوهم عن باب القصر فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس، حتى قتل منهم في هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم. وكانت رجالة الفرنج قد أتوا الجسر ليعدوا منه، فلولا لطف الله لكان الأمر يتم لهم بتعديتهم الجسر. وكانت المعركة بين أزقة المنصورة، فانهزموا إلى جديلة منزلتهم، وقد حال بين الفريقين الليل، وأداروا عليهم سورًا وخندقوا خندقًا. وصارت منهم طائفة في البر الشرقي، ومعظمهم في الجزيرة المتصلة بدمياط فكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الفرنج.

وعندما هجم الفرنج على المعسكر سرح الطائر بذلك إلى القاهرة، فانزعج الناس انزعاجًا عظيمًا، وقدم المنهزمون من السوقة والعسكر، فلم تغلق أبواب القاهرة في ليلة الأربعاء لتوارد المنهزمين.

وفي صبيحة يوم الأربعاء: وقعت البطاقة تبشر بالنصرة على الفرنج، فزينت

القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبل، وكثر فرح الناس وسرورهم وبقي العسكر يدبر أمره شجر الدر، فكانت مدة تدبير الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، بعد موت الملك الصالح لمملكة مصر خمسة وسبعين يومًا، وفي يوم قتله نهب مماليكه وبعض الأمراء داره، وكسروا صناديقه وخزائنه، وأخذوا أمواله وخيوله وأحرقوا داره.

* * *

السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه

ابن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي بن مروان، سار من حصن كيفا إلى دمشق، لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، فنزل عانة في خمسين فارسًا من أصحابه، يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة سبع وأربعين، وخرج منها يوم الأحد يريد دمشق على طريق السماوة في البرية فنزل القصير في دهليز ضربه له الأمير جمال الدين موسى بن يغمور نائب دمشق يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر رمضان.

ودخل المعظم تورانشاه من الغد - وهو يوم السبت سلخه - إلى دمشق، ونزل بقلعتها، فكان يومًا مشهودًا وقام الأمير جمال الدين بخدمته، وحلف له الأمراء، وتسلطن في يومئذ. وخلع المعظم على الأمراء وأعطاهم أموالاً جزيلة، بحيث أنه أنفق ما كان في قلعة دمشق، وهو ثلاثمائة ألف دينار. واستدعى من الكرك مالاً آخر حتى أنفقه، وأفرج عمن كان بدمشق في حبس أبيه، وأتته الرسل من حماة وحلب تهنئه بالقدوم.

ولأربع مضين من شوال: سقطت البطائق إلى العسكر والقاهرة، بوصول الملك المعظم إلى دمشق وسلطته بها فضربت البشائر بالمعسكر وبالقاهرة.

فتسلم السلطان المعظم مملكة مصر، وخلع على الأمير حسام الدين بن أبي علي خلعة سنية، ومنطقة وسيفا فيهما ثلاثة آلاف دينار مصرية، وأنشده الشعراء عدة تهاني، وجرت بين يديه مباحثات ومناظرات في أنواع من العلوم وكان السلطان المعظم قد مهر في العلوم، وعرف الخلاف والفقه والأصول، وكان جده الملك الكامل يحبه لميله إلى العلم، ويلقي عليه من صغره المسائل المشكلة، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها في مجلسه. ولازم المعظم الاشتغال إلى أن برع، إلا أنه فيه هوج وخفة، مع غرامه بمجالسة أهل العلم من الفقهاء والشعراء.

ثم إنه رحل من الصالحية ونزل تلبانة، ثم نزل بعدها منزلة ثالثة، وسار منها إلى المنصورة. وقد تلقاه الأمراء المماليك، فنزل في قصر أبيه وجده يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة. فأول ما بدأ أن أخذ مماليك الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الصغار، وكثيرًا من مخلفه، بدون القيمة، ولم يعط ورثته شيئًا، وكان ذلك بنحو الخمسة عشرة ألف دينار. وأخذ يسب فخر الدين ويقول: أطلق السكر والكتان، وأنفق المال وأطلق المحابيس إيش ترك لي.

وكانت الميرة ترد إلى الفرنج في منزلتهم من دمياط في بحر النيل، فصنع المسلمون عدة مراكب، وحملوها وهي مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة، وكانت أيام زيادة النيل، فلما جاءت مراكب الفرنج لبحر المحلة، وهذه المراكب مكمنة فيه، خرجت عليها بغتة وقاتلتها وللحال قدم أسطول المسلمين من جهة المنصورة، فأخذت مراكب الفرنج أخذًا وبيلاً، وكانت اثنتين وخمسين مركبًا، وقتل منها وأسر نحو ألف إفرنجي، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات، وحملت الأسرى على الجمال إلى العسكر. فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا فيهم.

وفي أول ذي الحجة: أخذ الفرنج من المراكب التي في بحر المحلة سبع حراريق، ونجا من كان فيها من المسلمين. وفي ثاني ذي الحجة تقدم أمر السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبي علي بالسير إلى القاهرة، والإقامة بدار الوزارة على عادته في نيابة السلطة. وفيه وصل إلى السلطان جماعة من الفقهاء: منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وبهاء الدين بن الجميزي، الشريف عماد الدين، والقاضي عماد الدين القاسم ابن إبراهيم بن هبة الله بن إسماعيل بن نبهان بن محمد بن المقنشع الحموي - قاضي مصر، وكان قد ولي القضاء بعد موت الجمال يحيى، في جمادى الأولى -، وسراج الدين الأرموي فجلس السلطان المعظم معهم وناظرهم.

* * *

سنة ثمان وأربعين وستمائة

في ليلة الأربعاء ثالث المحرم: رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينة دمياط، وانحدرت مراكبهم في البحر قبالتهم. فركب المسلمون أقفيتهم، بعد أن عبروا برهم واتبعوهم. فطلع صباح نهار يوم الأربعاء وقد أحاط بهم المسلمون، وأبلوا فيهم سيوفهم، واستولوا عليهم قتلاً وأسرًا، وكان معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدة القتلى عشرة آلاف في قول المقل، وثلاثين ألفًا في قول المكثر. وأسر من خيالة الفرنج ورجالهم المقاتلة، وصناعهم وسوقتهم، ما يناهز مائة ألف إنسان، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة، واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل، وأبلت الطائفة البحرية - لاسيما بيبرس البندقداري - في هذه النوبة بلاء حسنًا، وبان لهم أثر جميل.

ورحل السلطان من المنصورة، ونزل بفارسكور وضرب بها الدهليز السلطاني، وعمل فيه برجًا من خشب، وأقام على لهوه. وكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتابًا بخطه نصه: من ولده تورانشاه الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، " وما النصر إلا من عند الله "، " ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله "، " وأما بنعمة ربك فحدث "، " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها "، نبشر المجلس السامي الجمالي، بل نبشر المسلمين كافة، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا لا تيأسوا من روح الله. ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة، تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقًا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين. وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل، فيوحل بهم الخزي والويل. فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفًا، غير من ألقى نفسه في اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته، وجلاله وعظمته، وذكر كلامًا طويلاً.

وكان السلطان المعظم قد وعد الفارس أقطاي لما أتاه في حصن كيفا بأن يؤمره، فلم يف له بذلك، فتنكر له أقطاي وكتم الشر، فحرك كتاب شجر الدر منه ساكنًا.

وانضاف إلى هذه الأمور، أن السلطان المعظم أعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته، واطرح الأمراء والأكابر أهل الحل والعقد، وأبعد غلمان أبيه، واختص بجماعته الذين قدموا معه، وولاهم الوظائف السلطانية. وقدم الأراذل: وجعل الطواشي مسرورًا - هو خادمه - أستادار السلطان، وأقام صبيحًا - وكان عبدًا حبشيًا فحلاً - أمير جاندار، وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة، وأمر أن يصاغ له عصا من ذهب. وأساء السلطان إلى المماليك وتوعدهم، وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع، وضرب رءوسها بالسيف حتى تتقطع، ويقول: هكذا أفعل بالبحرية،، ويسمى كل واحد منهم باسمه. واحتجب أكثر من أبيه، مع الانهماك على الفساد بمماليك أبيه، ولم يكونوا يألفون هذا الفعل من أبيه وكذلك فعل بحظايا أبيه.

وصار مع هذا جميع الحل والعقد، والأمر والنهي لأصحابه الذين قدموا معه، فنفرت قلوب البحرية منه، واتفقوا على قتله، وما هو إلا أن مد السماط بعد نزوله

بفارسكور، في يوم الاثنين سادس عشري المحرم، وجلس السلطان على عادته، تقدم إليه واحد من البحرية - وهو بيبرس البندقداري، الذي صار إليه ملك مصر - وضربه بالسيف: فتلقاه المعظم بيده فبانت أصابعه، والتجأ إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور وهو يصيح: من جرحني. قالوا: الحشاشة، فقال: لا والله إلا البحرية! والله لا أبقيت منهم بقية، واستدعى المزين ليداوي يده. فقال البحرية بعضهم لبعض: تمموه وإلا أبادكم، فدخلوا عليه بالسيوف. ففر المعظم إلى أعلى البرج وأغلق بابه، والدم يسيل من يده، فأضرموا النار في البرج، ورموه بالنشاب فألقى نفسه من البرج، وتعلق بأذيال الفارس أقطاي، واستجار به فلم يجره، وفر المعظم هاربًا إلى البحر، وهو يقول: ما أريد ملكًا، دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين ما فيكم من يصطعني ويجيرني، هذا وجميع العسكر واقفون، فلم يجبه أحد والنشاب يأخذه من كل ناحية. وسبحوا خلفه في الماء، وقطعوه بالسيوف قطعًا، حتى مات جريحًا حريقًا غريقًا، وفر أصحابه واختفوا.

وترك المعظم على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخًا، لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة، فحمل إلى ذلك الجانب ودفن، فكانت مدة ملكه أحدًا وسبعين يومًا.

* * *

الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر

كانت تركية الجنس، وقيل: بل أرمنية. اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحظت عنده بحيث كان لا يفارقها سفرًا ولا حضرًا. وولدت منه ابنا اسمه خليل، مات وهو صغير. وهذه المرأة شجر الدر، هي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك، وذلك أنه لما قتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كما تقدم ذكره، اجتمع الأمراء المماليك البحرية، وأعيان الدولة وأهل المشورة، بالدهليز السلطاني، واتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب في مملكة مصر، وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع تبرز من قبلها، وأن يكون مقدم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي أحد البحرية. وحلفوا على ذلك في عاشر صفر، وخرج عز الدين الرومي من المعسكر إلى قلعة الجبل، وأنهى إلى شجر الدر ما جرى من الاتفاق، فأعجبها، وصارت الأمور كلها معقودة بها، والتواقيع تبرز من قلعة الجبل، وعلامتها عليها والدة خليل. وخطب لها على منابر مصر والقاهرة، ونقش اسمها على السكة، ومثاله المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين، وكان الخطباء يقولون في الدعاء: اللهم أدم سلطان الستر الرفيع، والحجاب المنيع، ملكة المسلمين، والدة الملك الخليل، وبعضهم يقول، بعد الدعاء للخليفة: واحفظ اللهم الجبة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح.

ولما حلف الأمراء والأجناد واستقرت القاعدة، ندب الأمير حسام الدين - محمد بن أبي علي للكلام مع الملك ريدافرنس في تسليم في دمياط، فجرى بينه وبين الملك مفاوضات ومحاورات ومراجعات، آلت إلى أن وقع الاتفاق على تسليمها من الفرنج، وأن يخلى عنه ليذهب إلى بلاده، بعدما يؤدي نصف ما عليه من المال المقرر. فبعث الملك ريدافرنس إلى من بها من الفرنج يأمرهم بتسليمها، فأبوا وعاودهم مرارًا، إلى أن دخل العلم الإسلامي إليها، في يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر، ورفع على السور وأعلن بكلمة الإسلام وشهادة الحق. فكانت مدة استيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهرًا وتسعة أيام.

وأفرج عن الملك ريدافرنس، بعدما فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار، وأفرج عن أخيه وزوجته ومن بقي من أصحابه، وسائر الأسرى الذين بمصر والقاهرة، ممن أسر في هذه الواقعة، ومن أيام العادل والكامل والصالح وكانت عدتهم اثني عشر ألف أسير ومائة أسير وعشر أسارى، وساروا إلى البر الغربي، ثم ركبوا البحر في يوم السبت تاليه، وأقلعوا إلى جهة عكا.

* * *

الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي

كان تركي الأصل والجنس، فانتقل إلى ملك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعض أولاد التركماني، فعرف بين البحرية بأيبك التركماني، وترقي عنده في الخدم، حتى صار أحد الأمراء الصالحية، وعمله جاشنكيرا، إلى أن مات الملك الصالح، وقتل بعده ابنه الملك المعظم. فصار أيبك أتابك العساكر، مع شجر الدر، ووصل الخبر بذلك إلى بغداد، فبعث الخليفة المستعصم بالله من بغداد كتابًا إلى مصر، وهو ينكر على الأمراء ويقول لهم: إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً.

واتفق ورود الخبر باستيلاء الملك الناصر على دمشق، فاجتمع الأمراء والبحرية للمشور، واتفقوا على إقامة الأمير عز الدين أيبك مقدم العسكر في السلطنة، ولقوه بالملك المعزة وكان مشهورًا بينهم بدين وكرم وجودة رأي.

فأركبوه في يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر، وحمل الأمراء بين يديه الفاشية نوبًا واحدًا بعد آخر إلى قلعة الجبل، وجلسوا معه على السماط، ونودي بالزينة فزينت القاهرة ومصر.

فأقاموه سلطانًا في ثالث جمادى الأولى، وجلس على السماط وحصر الأمراء في خدمه يوم الخميس خامس جمادى الأولى. فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير ذلك، وجميع الأمور بيد المعز أيبك.

وكان بغزة جماعة من العسكر، عليهم الأمير ركن الدين خاص ترك فرجعوا إلى الصالحية واتفقوا مع عدة من الأمراء على إقامة الملك المغيث عمر بن العادل الصغير، صاحب الكرك وخطوا له بالصالحية، يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة.

فلما ورد الخبر بذلك نودي في القاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي، وأن الملك المعز عز الدين أيبك نائبه بها، وذلك في يوم الأحد سادسه.

وأخذ الملك الناصر صاحب الشام في الحركة لأخذ مصر، بتحريض الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني له على ذلك. وخرج الناصر من دمشق بعساكره، يوم الأحد النصف من شهر رمضان، ومعه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل أبي بكر بن أيوب والملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن شيركوه، والملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين الكبير وأخوه نصرة الدين الظاهر شادي

بن الناصر داود وأخوه الملك الأمجد حسن، والملك الأمجد تقي الدين عباس بن العادل، وعمه ملوك.

وفي يوم الثلاثاء أول ذي القعدة: نودي بالقاهرة أن الصلح انتظم بين الملك المعز والبحرية، وبين الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك ولم يكن لما نودي به حقيقة، وإنما قصد بذلك أن يقف الملك الناصر عن الحركة.

وفي يوم الخميس ثالثه: نزل الملك المعز من قلعة الجبل فيمن بقي عنده من العساكر، وسار إلى الصالحية وبها العساكر التي خرجت قبله، وترك بقلعة الجبل الملك الأشرف موسى فاستقرت عساكر مصر بالصالحية إلى يوم الاثنين سابعه، فوصل الملك الناصر بعساكره إلى كراع - وهي قريبة من العباسية، فتقارب ما بين العسكرين وكان في ظن كل أحد أن النصرة إنما تكون للملك الناصر على البحرية، لكثرة عساكره ولميل أكثر عسكر مصر إليه. فاتفق أنه كان مع الناصر جمع غير من ممالك أبيه الملك العزيز، وهم أتراك يميلون إلى البحرية لعلة الجنسية، ولكراهتهم في الأمير شمس الدين لؤلؤ مدير المملكة.

فعندما نزل الناصر بمنزلة الكراع، قريبًا من الخشبي بالرمل، رحل المعز أيبك بعساكر مصر من الصالحية، ونزل اتجاهه بسموط إلى يوم الخميس عاشره. فركب الملك الناصر في العساكر، ورتب ميمنة وميسرة وقلبًا، وركب المعز، ورتب أيضًا عساكره. وكانت الوقعة في الساعة الرابعة، فاتفق فيها أمر عجيب قل ما اتفق مثله، فإن الكرة كانت أولاً على عساكر مصر، ثم صارت على الشاميين: وذلك أن ميمنة عسكر الشام حملت هي والميسرة على من بإزائها حملة شديدة، فانكسرت ميسرة المصريين وولوا منهزمين، وزحف أبطال الشاميين وراءهم، وما لهم علم بما جرى خلفهم. وانكسرت ميمنة أهل الشام، وثبت كل من القلبين واقتتلوا. ومر المنهزمون من عسكر مصر إلى بلاد الصعيد، وقد نهبت أثقالهم. وعندما مروا على القاهرة خطب بها للملك الناصر، وخطب له بقلعة الجبل ومصر، وبات الأمير جمال الدين بن يغمور بالعباسية، وأحمي الحمام للملك الناصر وجهز له الإقامة. هذا والناصر على منزلة كراع ليس عنده خبر، وإنما هو واقف بسناجقه وخزائنه وأصحابه. وأما ميمنة أهل الشام فإنها لما كسرت قتل منهم عسكر مصر خلقًا كثيرًا في الرمل، وأسروا أكثر مما قتلوا.

وتعين الظفر للناصر وهو ثابت في القلب، واتجاهه المعز أيبك أيضًا في القلب فخاف أمراء الناصر منه أن يجنيهم إذا تم له الأمر، وخامروا عليه وفروا بأطلابهم إلى الملك المعز وهم، الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي، والأمير جمال الدين أقوش الحامي، والأمير بدر الدين بكتوت الظاهري، والأمير سليمان العزيزي، وجماعة غيرهم. فخارت قوى الناصر من ذهاب المذكورين إلى الملك المعز، فحمل المعز بمن معه على سناجق الناصر، ظنًا منه أن الناصر تحتها. وكان الناصر - لما فارقه الأمراء إلى عند المعز - قد خرج من تحت السناجق في شردمة قليلة، فخاب ما أمله المعز أيبك، وعاد إلى مركزه خائبًا وقد قوى الشاميون بذلك، وتبعوه يقتلون منه وينهبون.

وسر الأمراء القيمرية بذلك وقصدوا الحملة على المعز ليأخذوه، فوجدوا أصحابهم قد تفرقوا في طلب الكسب والنهب. فحمل المعز عليهم وثبتوا له، ثم انحاز إلى جانب يريد الفرار إلى جهة الشوبك. ووقف الناصر في جمع من العزيزية وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن، فخرج عليهم المعز - ومعه الفارس أقطاي - في ثلاثمائة من البحرية، وقرب منه فخامر عدة ممن كان مع الناصر عليه، ومالوا مع المعز والبحرية، فولى الناصر فارًا يريد الشام في خاصته وغلمانه. واستولى البحرية على سناجقه، وكسروا صناديقه ونهبوا أمواله.

وتمزق أهل الشام كل ممزق، ومشوا في الرمل أيامًا، وصار الملك الناصر ومعه نوفل الزبيدي وعلي السعدي إلى دمشق.

* * *

سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها استولى الأمير فارس الدين أقطاي على الساحل ونابلس إلى نهر الشريعة، وعاد إلى القاهرة. فسير الملك الناصر عسكرًا من دمشق إلى غزة ليكون بها، فأقاموا على تل العجول. فخرج المعز أيبك، ومعه الأشرف موسى والفارس أقطاي وسائر البحرية، ونزل بالصالحية. فأقام العسكر المصري بأرض السانح قريبًا من العباسة، والعسكر الشامي قريبًا من سنتين، وترددت بينهما الرسل. وأحدث الوزير الأسعد الفائزي ظلامات عديدة على الرعية.

* * *

سنة خمسين وستمائة

وفيها وردت الأخبار بأن منكوخان ملك التتر سير أخاه هولاكو لأخذ العراق فسار وأباد أهل بلاد الإسماعيلية قتلاً ونهبًا، وأسرًا وسبيًا، ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميافارقين، وجاءوا إلى رأس عين وسروج، وقتلوا ما ينيف على آلاف، وأسروا مثل ذلك، وصادفوا قافلة سارت من حران تريد بغداد، فأخذوا منها أموالاً عظيمة، من جملتها ستمائة حمل سكر من عمل مصر، وستمائة ألف دينار. وقتلوا الشيوخ والعجائز، وساقوا النساء والصبيان معهم فقطع أهل الشرق الفرات، وفروا خائفين.

* * *

سنة إحدى وخمسين وستمائة

فيها تقرر الصلح بين الملك المعز أيبك وبين الملك الناصر صاحب دمشق، بسفارة نجم الدين البادرائي. وقد قدم نجم الدين إلى القاهرة، وصحبته عز الدين أزدمر، وكاتب الإنشاء بحلب نظام الدين أبو عبد الله محمد بن المولى الحلبي، لتمهيد القواعد، فلم يبرحا إلى أن انفصلت القضية: على أن يكون للمصريين ما إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك، وأن يدخل فيها للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله، وأن المعز يطلق جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر. وحلف كل منهما على ذلك، وكتبت به العهود، وعاد الملك المعز وعسكره إلى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء سابع صفر، ونزل البادرائي بالقاهرة، وأطلق الملك المعز الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأخاه نصرة الدين، وسائر أولاد الملوك والأمراء، وأحضرهم دار الوزارة ليشهدوا حلفه للملك الناصر. ثم قدم الملك المعز أيبك للملك المعظم تقدمة سنية، وأعطى نظام الدين بن المولى، ورفيقه عز الدين أزدمر، عشره آلاف دينار.

* * *

سنة اثنتين وخمسين وستمائة

فيها استفحل أمر الفارس أقطاي الجمدار وانحازت إليه البحرية، بحيث كان أقطاي إذا ركب من داره إلى القلعة أشعل بين يديه جماعة بأمره، ولا ينكر هو ذلك منهم وكانت أصحابه تأخذ أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم، فلا يقدر أحد على منعهم، وكانوا يدخلون الحمامات ويأخذون النساء منها غصبًا، وكثر ضررهم.

هذا والمعز يحصل الأموال، وقد ثقل عليه أقطاي، فواعد طائفة من مماليكه على قتله: وبعث المعز إليه وقت القائلة من يوم الأربعاء ثالث شعبان، ليحضر إليه بقلعة الجبل في مشور يأخذ رأيه فيه. فركب أقطاي على غير أهبة ولا اكتراث فعندما دخل من باب القلعة، وصار في قاعة العواميد، أغلق باب القلعة، ومنع مماليكه من العبور معه. فخرج عليه جماعة بالدهليز قد أعدوا لقتله: وهم قطز وبهادر وسنجر الغنمي، فهبروه بالسيوف حتى مات. فوقع الصريخ في القلعة والقاهرة بقتله، فركب في الحال من أصحابه نحو السبعمائة فارس ووقفوا تحت القلعة، وفي ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه، وأنهم يأخذونه من المعز، وكان أعيانهم بيبرس البندقداري، وقلاوون والألفي، وسنقر الأشقر، وبيسرى، وسكز، وبرامق. فلم يشعروا إلا ورأس أقطاي قد رمى بها المعز إليهم، فسقط في أيديهم وتفرقوا بأجمعهم. وخرجوا في الليل من القاهرة وحرقوا باب القراطين فعرف بعد ذلك بالباب المحروق إلى اليوم فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك، ومنهم من سار إلى الملك الناصر بدمشق، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك والقدس، يقطع الطريق ويأكل بقائم سيفه.

فلما وصل البحرية إلى غزة، وفيهم ركن الدين بيبرس البندقداري، وسيف الدين بلبان الرشيدي وعز الدين إزدمر السيفي، وشمس الدين سنقر الأشقر، وسيف الدين سكز، وسيف الدين قلاوون، وبدر الدين بيبرس - كتبوا إلى الملك الناصر بأنهم قد وصلوا إلى خدمته، فأذن لهم وعروا على بلاد الفرنج بالساحل، فقتلوا ونهبوا حتى قاربوا دمشق. فخرج إلى لقائهم الملك الناصر، وخلع عليهم وأعطاهم. هذا وهم يحثونه على قصد مصر وهو يدافعهم.

فخاف المعز غائلتهم، وكتب إلى الناصر يوهمه منهم، ويخوفه عاقبة شرهم وطلب منه الناصر البلاد التي كان قد أخذها بالساحل لأجل البحرية، وأنها في إقطاعتهم. فأعادها المعز إلى الملك الناصر، فأقر كل إقطاع منها بيد من كان له، وكتب مناشرها عنه للبحرية.

وكتب الملك المعز إلى سلطان الروم بأن البحرية قوم مناحيس أطراف، لا يقفون عند الأيمان، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا. فتحرر منهم على نفسك، فإنهم غدارون مكارون خوانون، ولا أمن أن يمكروا عليك. فخاف سلطان الروم منهم، وكانوا مائة وثلاثين فارسًا، فاستدعاهم وقال: يا أمراء ما لكم ولأستاذكم، فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردي، وقال: يا مولانا من هو أستاذنا، قال: الملك المعز صاحب مصر، فقال الباشقردي: يحفظ الله مولانا السلطان إن كان الملك المعز قال في كتابه أنه أستاذنا فقد أخطأ، إنما هو خوشداشنا ونحن وليناه علينا، وكان فينا من هو أكبر منه سنًا وقدرًا وأفرس وأحق بالمملكة، فقتل بعضنا وحبس بعضنا وأغرق بعضنا، فهربنا منه وتشتتنا في البلاد، ونحن التجأنا إليك فأعجب سلطان الروم بهم، واستخدمهم عنده.

* * *

سنة ثالث وخمسين وستمائة

وفيها قتل الملك المعز الأمير علاء الدين أيدغدي العزيزي، بعدما قبض عليه، وكان قد قبض أيضًا على الفارس أقطاي العزيزي، والفارسي أقطاي الأتابك، وهرب منه أقش الركني، وأمر الملك المعز ألا تخرج امرأة من بيتها، ولا يمشي رجل بلا سروال.

* * *

سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها ورد الشيخ نجم الدين علم عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائي، من قبل الخليفة المستعصم بالله، ليجدد الصلح بين الأول وبين الملك الناصر والملك المعز، فبعث السلطان إلى القائد برهان الدين خضر السنجاري، فسار إلى قطبا، ومعه جماعة من أعيان الفقهاء، حتى قدم به. فقرر الصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب من الساحل ببلاد الشام، مع ملك مصر، وأن الملك الناصر لا يأوي عنده أحدًا من البحرية، فمضوا إلى المغيث بالكرك. وتولى الصلح قاضي القضاة بدر الدين السنجاري، فلما تم الصلح عاد البادرائي، ورحل الملك الناصر عن تل العجول إلى دمشق، وعاد المعز من العباسية - بعد إقامته عليها ثلاث سنين - إلى قلعة الجبل.

وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ببغداد، وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد مواعيد، والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك.

* * *

سنة خمس وخمسين وستمائة

فيها تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجر الدر، فعزم على قتلها. وكان له منجم قد أخبره أن سبب قتله امرأة، فكانت هي شجر الدر. وذلك أنه كان قد غير عليها، وبعث يخطب ابنة صاحب الموصل.

وأتفق أن المعز قبض على عدة من البحرية، وهو على أم البادر، وسيرهم ليعتقلوا بقلعة الجبل، وفيهم أيدكين الصالحي. فلما وصلوا تحت الشباك الذي تجلس فيه شجر الدر علم أيدكين أنها هناك، فخدم برأسه وقال التركي: المملوك أيدكين بشمقدار والله يا خوند ما علمنا ذنبًا يوجب مسكنا إلا أنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ما هان علينا لأجلك، فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين فأومأت شجر الدر إليه بمنديل، يعني: لقد سمعت كلامك، فلما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكين: إن كان حبسنا فقد قتلناه.

وكانت شجر الدر قد بعثت نصرًا العزيزي بهدية إلى الملك الناصر يوسف، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز، والتزوج به ومملكيه مصر. فخشي الملك الناصر يوسف أن يكون هذا خديعة، فلم يجبها بشيء.

وبعث بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر الملك المعز من شجر الدر وأنها باطنت الملك الناصر يوسف، فتباعد ما بينهما، وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة. وكانت شجر الدر قد استبدت بأمور المملكة ولا تطلعه عليها، وتمنعه من الاجتماع بأم ابنه وألزمته بطلاقها، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح.

فأقام الملك المعز بمناظر اللوق أيامًا، حتى بعثت شجر الدر من حلف عليه. فطلع القلعة وقد أعدت له شجر الدر خمسة ليقتلوه: منهم محسن الجوجري، وخادم يعرف بنصر العزيزي، ومملوك يسمى سنجر. فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشري شهر ربيع الأول، ركب الملك المعز من الميدان بأرض اللوق، وصعد إلى قلعة الجبل آخر النهار. ودخل إلى الحمام ليلاً، فأغلق عليه الباب محسن الجوجري، وغلام كان عنده شديد القوة ومعهما جماعة. وقتلوه بأن أخذه بعضهم بأنثييه وبخناقه، فاستغاث المعز بشجرة الدر

فقالت اتركوه، فأغلظ لها محسن الجوجري في القول، وقال لها: متى تركناه لا يبقي علينا ولا عليك، ثم قتلوه.

وبعثت شجر الدر في تلك الليلة إصبع المعز وخادمة إلى الأمير عز الدين أيبك الحلبي الكبير، وقالت له: قم بالأمر، فلم يجسر وأشيع أن المعز مات فجأة في الليل، وأقاموا الصائح في القلعة، فلم تصدق مماليكه بذلك: وقام الأمير لهم الدين سنجر الغتمي - وهو يومئذ شوكة البحرية وشديدهم -، وبادر هو والمماليك إلى الدور السلطانية، وقبضوا على الخدام والحريم وعاقبوهم، فأقروا بما جرى. وعند ذلك قبضوا على شجر الدر، ومحسن الجوجري، ناصر الدين حلاوة، وصدر الباز، وفر العزيزي إلى الشام.

فأراد مماليك المعز قتل شجر الدر، فحماها الصالحية، ونقلت إلى البرج الأحمر بالقلعة ثم لما أقيم ابن المعز في السلطنة، حملت شجر الدر إلى أمه في يوم الجمعة سابع عشريه فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت. وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سروال ولا قميص، فبيتت في الخندق أيامًا، وأخذ بعض أراذل العامة تكتة سراويلها. ثم دفنت بعد أيام - وقد نتنت، وحملت في قفة - بتربتها قريب الشهد النفيسي. وكانت من قوة نفسها، لما علمت أنها قد أحيط بها، أتلفت شيئًا كثيرًا من الجواهر واللآلئ، كسرته في الهاون. وصلب محسن الجوجري على باب القلعة، ووسط تحت القلعة أربعون طواشيًا وصلبوا من القلعة إلى باب زويلة. وقبض على الصاحب بهاء الدين بن حنا، لكونه وزير شجر الدر، وأخذ خطة بستين ألف دينار.

* * *

الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز أيبك

أقامه أمراء الدولة سلطانًا بقلعة الجبل، يوم الخميس سادس عشري شهر ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وستمائة، وعمره خمس عشرة سنة تقريبًا، وحلفوا له واستحلفوا العسكر، ماخلا الأمير عز الدين أيبك الحلبي المعروف بأبيك الكبير، فإنه توقف وأراد الأمر لنفسه، ثم وافق خوفًا على نفسه. فركب الأمير قطز - هو والأمراء - وقبض على الأمير سنجر الحلبي، يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر، واعتقله فركب الأمير أيبك الحلبي الكبير في الأمراء الصالحية فلم توفق، وتقنطر عن فرسه خارج باب زويلة، فأدخل إلى القاهرة ميتًا. وأقيم الأمير سيف الدين قطز نائب السلطة على عادته، وصار مدبر الدولة الملك المنصور علي.

* * *

سنة ست وخمسين وستمائة

وفيها ملك هولاكو بغداد، وقتل الخليفة المستعصم بالله عبد الله في سادس صفر، فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام. وانقرضت بمهلكه دولة بني العباس من بغداد، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة، فصح حديث حبيب بن أبي ثابت، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، أن رسول الله قام فقال: " يا معشر قريش، إن هذا الأمر لا يزال فيكم، وأنتم ولاته حتى تحدثوا أعمالاً تخرجكم منه. فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه، فالتحوكم كما يلتحي القضيب ".

وقتل الناس ببغداد وتمزقوا في الأقطار، وخرب التتر الجوامع والمساجد والمشاهد، وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات، واستمروا على ذلك أربعين يومًا. وأمر هولاكو بعد القتلى، فبلغت نحو الألفي ألف قتيل، وتلاشت الأحوال بها. وملك التتار أربل، ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في طاعتهم.

وفيها أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، ومعه تقادم وعدة من الأمراء فلما وصل الملك العزيز إلى هولاكو قدم إليه ما معه، وسأله على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك، فأمر هولاكو أن يتوجه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس. فطار هذا الخبر إلى دمشق، فرحل من كان بها من

المماليك البحرية، وصاروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرضوه على أخذ مصر، فجمع الملك المغيث وسار.

فتجهز الأمير قطز، وخرج من القلعة بالعساكر في..، فلما وصل الصالحية تسلل إلى الملك المغيث من كان كاتبه من الأمراء وصاروا إليه، فلقيهم قطز وقاتلهم. فانهزم الملك المغيث في شرذمة إلى الكرك، ومضى البحرية نحو الطور، واتفقوا مع الشهرزورية من الشرق. واستولى المصريون على من بقي من عساكر المغيث وأثقاله، وأسروا جماعة، وعادوا إلى قلعة الجبل. وقد تغير قطز على عدة من الأمراء، لميلهم إلى الملك المغيث: فقبض على الأمير عز الدين أيبك الرومي الصالحي، والأمير سيف الدين بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي، والأمير بدر الدين بكتوت الأشرفي، والأمير بدر الدين بلغان الأشرفي، وجماعة غيرهم، وضرب أعناقهم في سادس عشري ربيع الأول، وأخذ أموالهم كلها.

* * *

سنة سبع وخمسين وستمائة

فيها نازل التتار ماردين فلم ينالوا منها شيئًا، فرحلوا عنها إلى ميافارقين وحاصروا أهلها، حتى أكلوا من عدم الأقوات جلود النعال التي تلبس في الرجلين.

وسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري إلى الملك الناصر يلتمس منه الأمان، فحلف له وحضر ركن الدين بيبرس إليه على بركة زيزاء، ومعه بدر الدين بيسري، وإيتمش المسعودي، وطيبرس الوزيري، وبلباي الرومي الدوادار، وأقوش الرومي ولاجين الدرفيل الدوادار، وكشتغدي المشرف، وأيدغمش الشيخي، وأيبك الشيخي، وبلبان المهراني، وخاص ترك الكبير، وسنجر المسعودي، وأياز الناصري، وسنجر الهمامي، وأيبك العلائي، وطمان الشقيري، ولاجين الشقيري، وسلطان الإلدكزي، وبلبان الإقسيسي، وعز الدين بيبرس. فأكرمه الملك الناصر، وأقطعه نصف نابلس وجينين وأعمالها، بمائة وعشرين فارسًا. وبعث المغيث سائر البحرية إلى الملك الناصر، فرحل عن زيزاء إلى دمشق، وقبض على البحرية واعتقلهم.

وفيها قدم الملك العزيز بن الملك الناصر من عند هولاكو، وعلى يده كتابه

ونصه: الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)} [النمل: ٣٤]، واستحضرنا خليفها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم. وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة فجمع المال ولم يعبأ بالرجال. وكان قد نمى ذكره وعظم قدره، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال.

إذا تم أمر دنا نقصه ::: توق زوالا إذا قيل تم
إذا كنت في نعمة فارعها ::: فإن المعاصي تزيل النعم
وكم من فتى بات في نعمة ::: فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابي هذا، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روي زمين، تأمن شره وتنل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: " وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى "، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان سراي فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها.

أين النجاة ولا مناص لهارب ::: ولى البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت ::: في قبضتي الأمراء والوزراء

فانزعج الناصر وسير حريمه إلى الكرك وخاف الناس بدمشق خوفًا كثيرًا لعلمهم أن التتر قد قطعوا الفرات، وسار كثير منهم إلى جهة مصر، وكان الوقت شتاء فمات خلائق بالطريق، ونهب أكثرهم. وبعث الناصر، عندما بلغه توجه هولاكو نحو الشام بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر، يستنجد بعسكرها.

فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة، في يوم ٠٠٠، عقد مجلس بالقلعة عند الملك المنصور، وحضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام: وسئلا في أخذ أموال العامة ونفقتها في العساكر، فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء أو أنفقتم الحوائض الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم

وأنفسهم، وانفضوا. فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلاً إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصور وقال: لابد من سلطان ماهر قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبر المملكة. وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور علي بن المعز أيبك، واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير يوسف الدين قطز في أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلما خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير سيف الدين بهادر، وغيره من المعزية لرمي البندق - وكان يوم السبت رابع عشري ذي القعدة - قبض قطز على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم في برج بقلعة الجبل. فكانت مدة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام.

* * *

الملك المظفر سيف الدين قطز

جلس على سرير بقلعة الجبل يوم السبت، الرابع والعشرين من ذي القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة. وهو ثالث ملوك الترك بمصر.

وورد الخبر بقدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، فكتب إليه الملك المظفر قطز وقد خافه كتابًا يترقق فيه، ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه، وأنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي، وقال فيه أيضًا: وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره،. فلما قدم على الملك الناصر كتاب قطز اطمأن.

وبلغ الناصر أن هولاكو أخذ قلعة حران وسائر تلك النواحي، وأنه عزم على أخذ حلب، فاشتد جزعه وسير زوجته وولده وأمواله إلى مصر، وخرج معهم نساء الأمراء وجمهور الناس. فتفرقت العساكر، وبقي الناصر في طائفة من الأمراء. ونزل هولاكو على البيرة وأخذ قلعتها - وأخذ منها الملك السعيد بن العزيز عثمان بن العادل، وله بها تسع سنين في الاعتقال، وولاه الصبيبة وبانياس -، ونزل على حلب.

ففر أهل دمشق وغيرها، وباعوا أموالهم بأبخس ثمن وساروا وكان الوقت شتاء، فهلك منهم خلق كثير، وسير الملك المغيث من بقي عنده من البحرية مقيدين على الجمال، وهم نحو الخمسين: منهم الأمير سنقر الأشقر. وسار أربعة من البحرية إلى مصر. وهم قلاوون الألفي، وبكتاش الفخري أمير سلاح، وبكتاش النجمي، والحاج طيبرس الوزيري.

* * *

سنة ثمان وخمسين وستمائة

في المحرم: نزل هولاكو على مدينة حلب وراسل متوليها الملك المعظم تورانشاه بن الملك الناصر يوسف، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته، فلم يجبه إلى طلبه وأبى إلا محاربته. فحصرها التتار سبعة أيام وأخذوها بالسيف، وقتلوا خلقًا كثيرًا وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدة خمسة أيام، استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى. وصارت عساكر التتر تمشي على جيف من قتل، فيقال إنه أسر منها زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان. وامتنعت قلعة حلب، فنازلها هولاكو حتى أخذها في عاشر صفر، وخربها وخرب جميع أسوار البلد وجوامعها ومساجدها وبساتينها، حتى عادت موحشة. وخرج إليه الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب، فلم يعترضه بسوء لكبر سنه، فمات بعد أيام. ووجد هولاكو من البحرية تسعة أنفس في حبس الملك الناصر، فأطلقهم وأكرمهم. منهم سنقر الأشقر، وسيف الدين سكز، وسيف الدين يرامق، وبدر الدين بكمش المسعودي، ولاجين الجمدار الصالحي، وكندغدي الصغير.

فلما وصل الخبر إلى دمشق بأخذ قلعة حلب اضطربت بأهلها. وكان الملك الناصر قد صادر الناس، واستخدم لقتال التتر، فاجتمع معه ما يناهز مائة ألف ما بين عرب وعجم فتمزق حينئذ الناس، وزهدوا في أمتعتهم وباعوها بأبخس الأثمان، وخرجوا على وجوههم. ورحل الملك الناصر عن برزه، يوم الجمعة منتصف صفر، بمن بقي معه يريد غزة، وترك دمشق خالية، وبها عامتها قد أحاطت بالأسوار، وبلغت أجرة الجمل سبعمائة درهم فضة، وكان الوقت شتاء. فلم يثبت الناس عند خروج الناصر، ووقعت فيهم الجفلات حتى كأن القيامة قامت، وكانت مدة مملكة الناصر بحلب ودمشق ثلاثًا وعشرين سنة وسبعة أشهر، منها مدة تملكه لدمشق عشر سنين تنقص خمسين يومًا. ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو، وسار الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده، وجفل أهل حمص وحماة. وصار هولاكو إلى دمشق، بعد أخذ حلب بستة عشر يومًا، فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العقرباني المعروف بالزين الحافظي، وأغلق أبواب دمشق، وجمع من بقي بها وقرر معهم تسليم المدينة إلى هولاكو فتسلمها منه فخر الدين المردفائي وابن صاحب أرزن، والشريف علي، كان هؤلاء قد بعث بهم هولاكو إلى الملك الناصر وهو على برزة. فكتبوا بذلك إلى

هولاكو، فسير طائفة من التتر وأوصاهم بأهل دمشق، ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهمًا فما فوقه.

فلما كان ليلة الاثنين تاسع عشر صفر: وصل رسل هولاكو صحبة القاضي محيى الدين بن الزكي، وكان قد توجه من دمشق إلى هولاكو بحلب، فخلع عليه وولاه قضاء الشام، وسيره إلى دمشق ومعه الوالي. فسكن الناس، وجمعوا من الغد بالجامع، فلبس ابن الزكي خلعة هولاكو وجمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو. وقرئت فرمانات هولاكو بأمان أهل دمشق، فكثر اضطراب الناس واشتد خوفهم.

وفيها رحل هولاكو عن حلب يريد الرجوع إلى الشرق، وجعل كتبغا نوين نائبًا عنه بحلب، وبيدرا نائبًا بدمشق. وأخذ هولاكو معه من البحرية سبعة منهم: سنقر الأشقر، وسكز، وبرامق، وبكمش المسعودي.

وفيها وصلت رسل هولاكو إلى مصر بكتاب نصه: من ملك الملوك شرقًا وغربًا، الخاقان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم البلاد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب. فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم. فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، دعاؤكم علينا لا يسمع فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند الكلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان. فأبشروا بالمذلة والهوان، " فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون "، " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون "، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم. فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم. فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أنا نحن الكفرة، وقد

ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا. وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هلا وقد أتى ::: بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منا أذلة ::: ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر

فجمع قطز الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فقبض على الرسل واعتقلوا وشرع في تحليف من تخيره من الأمراء، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهة في لقاء التتر.

فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان: خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية.

وفيه أحضر قطز رسل التتر، وكانوا أربعة، فوسط واحدًا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية. وعلقت رءوسهم على باب زويلة، وهذه الرءوس أول رءوس علقت على باب زويلة من التتار. وأبقى الملك المظفر على صبي من الرسل، وجعله من جملة مماليكه.

ونودي في القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله .

فلما كان في الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال: أنا ألقى التتار بنفسي، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره. وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة.

فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بقطعة من العسكر، فسار حتى لقي طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في

مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو، لما بلغهما مسير العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتر في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشري شهر رمضان: التقى الجمعان، وفي قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس. وقد امتلأ الوادي وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء، فتحيز التتر إلى الجبل، فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته على رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: وا إسلاماه، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره وقتل كتبغا مقدم التتر، وقتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز وكان مع التتر. وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم للمسلمين يقتلون ويأسرون، وأبلى الأمير بيبرس أيضًا بلاء حسنًا بين يدي السلطان.

فورد الخبر بانهزام التتر إلى دمشق ليلة الأحد سابع عشريه، وحملت رأس كتبغا مقدم التتار إلى القاهرة، ففر الزين الحافظي ونواب التتار من دمشق، وتبعهم أصحابهم فامتدت أيدي أهل الضياع إليهم ونهبوهم، فكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام.

وفي يوم الأحد المذكور: نزل السلطان على طبرية، وكتب إلى دمشق يبشر الناس بفتح الله له وخذلانه التتر، وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق، فلما ورد الكتاب سر الناس به سرورًا كثيرًا، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها وأخربوا ما قدروا على تخريبه، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وأحرقوها حتى بقيتا كومًا، وقتلوا عدة من النصارى، واستتر باقوهم. وذلك أنهم في مدة استيلاء التتر هموا مرارا بالثورة على المسلمين، وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، وأعلنوا بضرب الناقوس وركبوا بالصليب، وشربوا الخمر في الطرقات ورشوه على المسلمين.

وفي يوم الأربعاء آخر شهر رمضان: وصل الملك المظفر إلى ظاهر دمشق، فخيم هناك وأقام إلى ثاني شوال، فدخل إلى دمشق ونزل بالقلعة وجرد الأمير ركن الدين بيبرس إلى حمص، فقتل من التتر وأسر كثيرًا، وعاد إلى دمشق.

وأما التتر فإنهم لما لحقهم الطلب إلى أرض حمص، ألقوا ما كان معهم من متاع

وغيره وأطلقوا الأسرى، وعرجوا نحو طريق الساحل. فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقًا كثيرًا، وأسروا أكثر. فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك، ورحل من يومه.

وكان هولاكو لما قدم عليه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب الشام أكرمه وأجرى له راتبًا، واختص به وأجلسه على كرسي قريبًا منه، وشرب معه، ثم كتب له فرمانًا وقلده مملكتي الشام ومصر، وأخلع عليه وأعطاه خيولاً كثيرة وأموالاً، وسيره إلى جهة الشام. فأمر هولاكو لما ورد عليه خبر الكسرة برده، فأحضر وقتل بجبال سلماس في ثامن عشر شوال، وقتل معه أخوه الملك الظاهر غازي، والملك الصالح ابن شركوه، وعدة من أولاد الملوك، وشفعت طقز خاتون زوجة هولاكو في الملك العزيز بن الناصر، فلم يسلم من القتل غيره، ورجع هولاكو إلى بلاده.

فلما رتب السلطان أحوال النواب والولاة والشادين ببلاد الشام، خرج من دمشق يوم الثلاثاء سادس عشري شوال يريد مصر بعدما كان قد عزم على المسير إلى حلب، فثناه عن ذلك ما بلغه من تنكر الأمير بيبرس وغيره عليه، فإنه قد عزم على القيام بمحاربته: وسبب ذلك أن الأمير بيبرس سأل السلطان أن يوليه نيابة حلب فلم يرض فتنكر عليه، ليقضي الله أمرًا كان مفعولا. فخافه السلطان وأضمر له السوء، وسار إلى جهة مصر. وبلغ بيبرس، فاحترس كل منهما من الآخر، وعمل في القبض عليه. وحدث بيبرس جماعة من الأمراء في قتل السلطان: منهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار المعزي، والأمير بيدغان الركني، والأمير بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني.

فلم يزل السلطان سائرًا إلى أن خرج من الغرابي وقارب الصالحية، وانحرف في مسيره عن الدرب للصيد ومعه الأمراء. فلما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطاني، طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبي التتر، فأنعم بها عليه. فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء: فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف وضرب به عانقه، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه، ورماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه، وذلك يوم السبت خامس عشر ذي القعدة، ودفن بالقصير فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرًا وسبعة عشر يومًا.

وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين قبل

أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريبًا من زاوية ابن عبود. ويقال إن اسمه محمود بن ممدود، وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبي عند غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة.

* * *

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداوي

كان بيبرس تركي الجنس، فاشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وترقى في خدمته واستفاد من أخلاقه. فلما مات الملك الصالح، قام بيبرس في خدمة ابنه الملك المعظم تورانشاه إلى أن قتل، فلم يزل يترقى إلى أن قتل الفارس أقطاي، فخرج من القاهرة وتنقل في بلاد الشام. ثم عاد إلى مصر، وخرج مع الملك المظفر قطز إلى قتال التتر. فلما قتل قطز، سار الأمراء الذين قتلوه إلى الدهليز السلطاني بالصالحية، واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس. فقام الأمير أقطاي المستعرب الأتابك - وكان بالدهليز - وقال للأمراء عند حضورهم: من قتله منكم. فقال الأمير بيبرس: أنا قتلته. فقال الأمير أقطاي: يا خوندا اجلس في مرتبة السلطنة مكانه. فجلس بيبرس، وبايعه أقطاي وحلف له، ثم تلاه الأمير بلبان الرشيدي، والأمير بدر الدين بيسري، والأمير سيف الدين قلاوون، والأمير بيليك الخازندار، ثم بقية الأمراء على طبقاتهم.

وتلقب بيبرس بالملك القاهر، وذلك في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة المذكور.

وكانت القاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز، والناس في فرح ومسرات بقتل التتر. فلما طلع النهار نادى المنادي في الناس: ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس. ثم في آخر النهار أمر بالدعاء للملك الظاهر. فغم الناس ذلك، وخافوا من عودة دولة المماليك البحرية، وسوء مملكتهم وجورهم.

* * *

سنة تسع وخمسين وستمائة

وفيها سار الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بالله العباسي - الذي يقال له: الزراتيقي لقب لقبه به العامة - مع جماعة من العرب بني مهتا، يريد دمشق. وكان قد فر من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله، ونزل عند عرب العراق في هذه المدة، ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بيبرس بمصر. فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيري نائب دمشق: بأنه ورد إلى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر، وهو عم

المستعصم وأخو المستنصر، ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب الخمسين فارسًا، وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادي عرف أمراء العرب المذكورين، وقال: بهؤلاء يحصل المقصود. فكتب السلطان إلى النواب بالقيام في خدمته وتعظيم حرمته، وأن يسير معه حجاب من دمشق فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر. فخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع شهر رجب إلى لقائه، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا، وقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، وسائر الأمراء وجميع العسكر، وجمهور أعيان القاهرة ومصر، ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين. وخرجت اليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل. فسار السلطان به إلى باب النصر، ودخل إلى القاهرة وقد لبس الشعار العباسي، وخرج الناس إلى رؤيته، وكان من أعظم أيام القاهرة. وشق القصبة إلى باب زويلة، وصعد قلعة الجبل وهو راكب، فأنزل في مكان جليل قد هيئ له بها، وبالغ السلطان في إكرامه وإقامة ناموسه.

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره: حضر قاضي القضاة ونواب الحكم، وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية، والأمراء ومقدموا العساكر، والتجار ووجوه الناس، وحضر أيضا الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد وجلس السلطان متأدبًا بغير كرسي ولا طراحة ولا مسند. وشهد العربان وخادم من البغاددي بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين بن الإمام الناصر أمير المؤمنين، وشهد بالاستفاضة القاضي جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن المعروف بالجمال يحيى نائب الحكم بمصر، والفقيه علم الدين محمد بن الحسين ابن عيسى بن عبد الله بن رشيق، والقاضي صدر الدين موهوب الجزري، ونجيب الدين الحراني، وسديد الدين عثمان بن عبد الكريم بن أحمد بن خليفة، وأبو عمرو بن أبي محمد الصنهاجي التزمنتي، أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر. فقبل قاضي القضاة تاج الدين شهادات القوم، وأسجل على نفسه بالثبوت، وهو قائم على قدميه في ذلك المحفل العظيم حتى ضم الإسجال والحكم.

وكان منصب الخلافة شاغرًا ثلاث سنين ونصف سنة، منذ قتل الخليفة المستعصم في صفر سنة ست وخمسين، فكان الخليفة المستنصر بالله هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس، وبينه وبين العباس أربعة وعشرون أبًا. وكان أسمر اللون وسيمًا، شديد القوى عالي الهمة، له شجاعة وإقدام. واتفق له ما لم يتفق لغيره، وهو أنه لقب بالمستنصر لقب أخيه باني المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يقع لغيره

أن الخليفة لقب بلقب أخيه سواه.

وكان السلطان قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد ويكون أولاد صاحب الموصل في خدمته. فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل: فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر. فرجع إليه الوسواس، ولم يبعث مع الخليفة سوي ثلاثمائة فارس. وجرد السلطان الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير شمس الدين سنقر الرومي إلى حلب، وأمرهما بالمسير إلى الفرات، وإذا ورد عليهما كتاب الخليفة بأن يسير أحدهما إليه سار.

وركب السلطان لوداع الخليفة، وسافر الخليفة في ثالث عشر ذي القعدة، ومعه أولاد صاحب الموصل الثلاثة ففارقوه في أثناء الطريق وتوجه كل منهم إلى مملكته فوصل الخليفة إلى الرحبة، وأتاه الأمير علي بن حذيفة من آل فضل بأربعمائة فارس من العرب، وانضاف إليه من مماليك المواصلة نحو الستين مملوكًا، ولحق به الأمير عز الدين بركة من حماة في ثلاثين فارسًا ورحل الخليفة من الرحبة إلى مشهد علي، فوجد رجلاً ادعى أنه من بني العباس قد اجتمع إليه سبعمائة فارس من التركمان، كان الأمير شمس الدين أقوش البرلي قد جهزهم من حلب. فبعث الخليفة إلى التركمان واستمالهم ففارقوه وأتوا الخليفة، فبعث إليه الخليفة يستدعيه وأمنه ورغبه في اجتماع الكلمة على إقامة الدولة العباسية، ولاطفه حتى أجاب وقدم إليه، فوفى له وأنزله معه. وسار الخليفة إلى عانة ثم إلى الحنيشة، وخرج يريد هيت، وكتب إلى الملك الظاهر بيبرس بذلك.

وقدمت الإقامات من الفرنج إلى السلطان، وسألوا الصلح فتوقف وطلب منهم أمورًا لم يجيبوا إليها، فأهانهم. وكان العسكر قد خرج للغارة على بلادهم من جهة بعلبك، فسألوا رجوعه. واتفق الغلاء ببلاد الشام، فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام الملك الناصر، وإطلاق الأسارى من حين انقضت الأيام الناصرية. فسارت رسل الفرنج لأخذ العهود وتقرير الهدنة لصاحب يافا ومتملك بيروت، فكاسر الفرنج في أمر الأسارى، فأمر السلطان بنقل أسرى الفرنج من نابلس إلى دمشق واستعملهم في العمائر. فتعلل الفرنج بالعوض عن زرعين، فأجيبوا: بأنكم أخذتم العوض عنها في الأيام الناصرية مرج عيون، وقايضتم صاحب تبنين والمقايضة في أيديكم. فكيف تطلبون العوض مرتين. فإن بقيتم على العهد وإلا فما لنا شغل

إلا الجهاد. وخرج الأمير جمال الدين المحمدي في عسكر، وأغار على بلاد الفرنج وعاد غانمًا سالمًا.

* * *

سنة ستين وستمائة

وفيه سار قرابغا مقدم التتار من بغداد - وكان قد استخلفه هولاكو عليها عند عوده إلى بلاد الشرق - يريد لقاء الخليفة المستنصر بالله ومحاربته، فنهب الأنبار وقتل جميع من فيها، وتلاحقت به بقية التتار من بغداد. ولقيهم الخليفة وقد رتب عسكره: فجعل التركمان والعرب جناحي العسكر، واختص جماعة جعلهم في القلب، وحمل بنفسه على التتار فكسر مقدمتهم، وخذله العرب والتركمان فلم يقاتلوا، وخرج كمين للتتار ففر العرب والتركمان، وأحاط التتار بمن بقي معه فلم يفلت منهم سوى الأمير أبي العباس أحمد الذي قدم إلى مصر وتلقب بالحاكم بالله، والأمير ناصر الدين بن مهنا، والأمير ناصر الدين بن صيرم، والأمير سابق الدين بوزبا الصيرفي، والأمير أسد الدين محمود، في نحو الخمسين من الأجناد. ولم يعرف للخليفة خبر: فيقال: قتل بالمعركة في ثالث المحرم، ويقال: بل نجا مجروحًا في طائفة من العرب فمات عندهم. وكانت هذه الواقعة في العشر الأول من المحرم، فكانت خلافته دون السنة، وبلغت نفقة الملك الظاهر على الخليفة والملوك المواصلة ألف ألف دينار وستين ألف دينار عينًا. وفيها سار صندغون مقدم التتار إلى الموصل، ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقًا، ولم يكن بها سلاح ولا قوت فاشتد الغلاء. وحاصرها صندغون حتى خرج إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكي، في يوم الجمعة النصف من شعبان، فقبض عليه وعلى من معه. ووقع التخريب في سور المدينة وقد اطمأن أهلها، ثم اقتحموها ووضعوا السيف في الناس تسعة أيام، ووسطوا علاء الدين ابن الملك الصالح، ونهبوا المدينة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والذرية، وهدموا المباني وتركوها بلاقع، ورحلوا بالملك الصالح إسماعيل، ثم قتلوه وهم في طريقهم إلى هولاكو. وفيها خرج الأمير شمس الدين أقوش البرلي من حلب نجدة للملك الصالح، فأدركه التتار بسنجار وواقعوه، فانهزم منهم إلى البيرة في رابع عشر جمادى الآخرة. ثم استأذن الأمير شمس الدين السلطان في العبور إلى مصر، فأذن له وسار إلى القاهرة فدخلها أول ذي القعدة، فأنعم عليه السلطان وأقطعه إمرة سبعين فارسًا. وولى السلطان بعده نيابة حلب الأمير عز الدين أيدمر الشهابي، فواقع أهل سيس وأخذ منهم جماعة، وبعثهم إلى مصر فوسطوا.

* * *

سنة إحدى وستين وستمائة

في الخميس ثامن المحرم: جلس الملك الظاهر مجلسًا عامًا جمع فيه الناس. وحضره التتار الذين وفدوا من العراق والرسل المتوجهون إلى الملك بركة. وجاء الأمير أبو العباس أحمد بن أبي بكر علي بن أبي بكر بن أحمد بن المسترشد بالله العباسي، وهو راكب إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل، وجلس إلى جانب السلطان، وقرئ نسبه على الناس بعدما ثبت على قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ولقب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وتولى قراءة نسبه القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر. فلما ثبت ذلك مد السلطان يده وبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها، والوفاء بالعهود وإقامة الحدود، وما يجب على الأمير فعله في أمور الدين وحراسة المسلمين. فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد، وجعل إليه تدبير الخلق، وإقامه قسيمه في القيام بالحق، وفوض إليه سائر الأمور، وعلق به صلاح الجمهور. ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعته، فلم يبق ملك ولا أمير ولا وزير ولا قاض ولا مشير ولا جندي ولا فقيه إلا وبايعه. فلما تمت البيعة تحدث السلطان معه في إنفاذ الرسل إلى الملك بركة، وانفض الناس.

فلما كان يوم الجمعة ثاني هذا اليوم: اجتمع الناس وحضر الرسل المذكورون، وبرز الخليفة الحاكم بأمر الله وعليه سواده، وصعد المنبر لخطة الجمعة فقال: الحمد لله الذي أقام لكل العباس ركنًا وظهيرًا، وجعل لهم من لديه سلطانًا ونصيرًا. أحمده على السراء والضراء، وأستنصره على دفع الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه وكاشف غمه أبي السادة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين، وعلى بقية الصحابة التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أيها الناس اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سببت الحرم إلا بإنتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم. فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأبطال والأطفال، وهتكوا حرم الخليفة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء

والعويل، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل. فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم طفل بكا فلم يرحم لبكائه. فشمروا عن ساق الاجتهاد في أحياء فرض الجهاد " واتقوا الله ما استطعتم وأسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرًا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون "، فلم تبق معذرة عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين.

وهذا السلطان الملك الظاهر، السيد الأجل العالم العادل المجاهد الرابط ركن الدنيا والدين، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار. فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود. فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، وأخلصوا نياتكم تنتصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ولا يروعنكم ما جرى، فالحرب سجال والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والأخرى للمؤمنين. جمع الله على التقوى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

وجلس الخليفة جلسة الاستراحة، ثم قام للخطة الثانية وقال: الحمد لله حمدًا يقوم بشكر نعمائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له عدة للقائه، وأشهد أن محمدًا سيد رسله وأنبيائه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلق في أرضه وسمائه. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الديان: " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلكم خير لكم وأحسن تأويلا "، نفعنا الله وإياكم بكتابه، وأجزل لنا ولكم من ثوابه، وغفر لي ولكم وللمسلمين أجمعين، والحمد لله رب العالمين. ثم نزل الخليفة. وصلى بالناس صلاة الجمعة، وانصرف.

وفي هذا اليوم خطب على منابر القاهرة ومصر بالدعاء للخليفة الحاكم بأمر الله، وكتب إلى الأعمال بذلك، فخطب له بدمشق في يوم الجمعة سادس عشره. وقد قيل في نسبه أنه أبو العباس أحمد بن الأمير محمد بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي القبي بن الحسن بن أمير المؤمنين الراشد بن المسترشد، وهو الخليفة التاسع والثلاثون من خلفاء بني العباس، وليس فيهم بعد السفاح والمنصور من ليس أبوه وجده خليفة غيره، وأما من ليس أبوه خليفة فكثير.

ورحل السلطان إلى مصر، ومعه أولاد الملك المغيث وحريمه، في يوم الأربعاء

تاسع عشريه. فدخل القاهرة في سابع عشر رجب وقد زينت أحسن زينة، فشق القصبة إلى قلعة الجبل على شقق الحرير الأطلس والعتابي، وخلع على الأمراء والمفاردة والمقدمين وجميع حاشيته وغلمانه ومباشريه، وأعطى العزيز بن الملك المغيث إمرة مائة فارس وخلع عليه وأعطاه طبلخاناه، وأطلق لأخويه وحرم أبيه سائر ما يحتاجون إليه هم وغلمانهم، وأنزلهم بدار القطبية بين القصرين من القاهرة.

وقدمت رسل الملك بركة تطلب النجدة على هولاكو - وهم الأمير جلال الدين ابن القاضي، والشيخ نور الدين علي، في عدة - ويخبرون بإسلامه وإسلام قومه، وعلى يدهم كتاب مؤرخ بأول رجب سنة إحدى وستين وستمائة. وقدم أيضًا رسول الأشكري، ورسول مقدم الجنوية، ورسول صاحب الروم السلاجقة، فأحسن السلطان إلى الرسل وعمل لهم دعوة بأراضي اللوق، وواصل الإنعام عليهم في يومي الثلاثاء والسبت عند اللعب في الميدان.

وفي الليلة الثانية: حضر رسل الملك بركة إلى قلعة الجبل، وألبسهم الخليفة بتفويض الوكالة للأتابك، وحمل إليهم من الملابس ما يليق بمثلهم. وجهز السلطان هدية جليلة للملك بركة، وكتب جواب كتابه في قطع النصف في سبعين ورقة بغداية بخط محيى الدين ابن عبد الظاهر، وهو الذي قرأه على السلطان بحضور الأمراء. وسلمت الهدية للأمير فارس الدين أقوش المسعودي، والشريف عماد الدين الهاشمي، فسارا في يده طريدة فيها عدة رماة وجرخية وزراقين، وأشحنت الأزودة لمدة سنة، وسارا سابع عشره. وخرجت النجابة إلى مكة والمدينة بأن يدعى للملك بركة ويعتمو عنه، وأمر الخطاء أن يدعوا له على المنابر بمكة والمدينة والقدس وبمصر والقاهرة، وبعد الدعاء للسلطان الملك الظاهر.

وفيها جمع الفرنسيس ملك الفرنج عساكره يريد أخذ دمياط، فأشار عليه أصحابه يقصد تونس أولاً، ليسهل أخذ دمياط بعدها. فسار إلى تونس ونازلها حتى أشرف على أخذها، فبعث الله في عسكره وباء هلك فيه هو وعدة من أكابر أصحابه، وعاد من بقي منهم.

* * *

سنة اثنتين وستين وستمائة

وورد الخبر أن هيتوم ملك الأرمن جمع وسار إلى هرقلة، ونزل على قلعة صرخد. فخرج البريد من قلعة الجبل إلى حماة وحمص بالمسير إلى حلب، فخرجوا وأغاروا على عسكر الأرمن، وقتلوا منهم وأسروا. فانهزم الأرمن واستنجدوا بالتتار، فقدم منهم من كان في بلاد الروم وهم سبعمائة فارس فلما وصلوا إلى حارم رجعوا من كثرة الثلج، وقد هلك منهم كثير.

وفي جمادى الآخرة: قبض على جاسوسين من التتار. وأنجز البرج الذي بناه السلطان في قارة، وشرع في بناء برج أكبر منه لحفظ الطرقات من عادية الفرنج. واهتم ملك الأرمن بالمسير إلى بلاد الشام، وأعد ألف قباء تتري وألف سراقوج، ألبسها الأرمن ليوهم إنهم نجدة من التتر ولما ورد الخبر بذلك خرج البريد إلى دمشق بخروج عسكرها إلى حمص، وخروج عسكر حماة، وألا يخرج عربان الشام في هذه السنة إلى البرية. فخرجت العساكر، ووالت الغارات من كل جهة، فانهزم الأرمن، ونزل العسكر على أنطاكية فقتل وأسر وغنم، وأغار العسكر أيضًا ببلاد الساحل على الفرنج حتى وصل إلى أبواب عكا.

وفي شهر رمضان: أنجزت كسوة قبر النبي ، وتعين سفرها مع الطواشي جمال الدين محسن الصالحي. ووقع الشروع في تجهيز الشمع والبخور والزيت والطيب. وورد كتاب الملك شارل أخي الفرنسيس ملك الفرنج، ومعه هدية وكتاب إستاداره: بأن مندوبه أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذا في بلاده، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه.

فلما كان يوم الخميس ثالث عشر شوال: أركب السلطان ابنه الملك السعيد بشعار السلطنة، وخرج بنفسه في ركابه وحمل الغاشية راجلا بين يديه، فأخذها منه الأمراء، ورجع إلى مقر ملكه ولم تزل الأمراء والعساكر في خدمته إلى باب النصر، ودخلوا به من القاهرة رجالة يحملون الغاشية، وقد زينت المدينة أحسن زينة، واهتم الأمراء بنصب القباب: فسار الملك السعيد، والأمير عز الدين أيدمر الحلي راكب إلى جانبه وقد تقرر أن يكون أتابكه، والنياب الأطلس والعتابي تفرش تحت فرسه، حتى عاد إلى قلعة الجبل ولم يبق أمير حتى فرش من جهته الثياب الحرير، فاجتمع من ذلك أحمال تفرقها المماليك السلطانية. وكتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر تقليد الملك السعيد، بتفويض عهد السلطنة له.

وفي يوم الاثنين سابع عشره: اجتمع الأمراء والقضاة والفقهاء، وقرئ التقليد المذكور، وشرع في ختان الملك السعيد، فأمر السلطان الناس بالتأهب للعرض عليه بالأسلحة وآلات الحرب.

* * *

سنة ثالث وستين وستمائة

وكتب السلطان إلى القاهرة باستدعاء مائتي ألف درهم ومائتي تشريف، وإلى دمشق بتجهيز مائة ألف درهم ومائة تشريف، وحمل جميع ذلك إلى البيرة. وكتب إلى الأمير إيغان بأن يحضر أهل قلعة البيرة ويخلع على سائر من فيها من أمير ومأمور وجندي وعامي، وينفق فيهم المال. حتى الحراس وأرباب الضوء، فاعتمد ذلك كله وكتب إلى الديار المصرية بتبطيل المزر، وأن تعفي أثاره وتخرب بيوته وتكسر مواعينه، وأن يسقط ارتفاعه من الديوان، ومن كان له على هذه الجهة شيء نعوضه من مال الله الحلال، فاعتمد ذلك، وعوض المقطعون بدل ما كان لهم على جهة المزر.

ثم ركب السلطان من العوجاء بعد ركوب الأطلاب للتصيد في غابة أرسوف، ورسم للأمراء من أراد منهم الصيد فليحضر، فإن الغابة كثيرة السباع وساق إلى أرسوف وقيسارية، فشاهدهما وعاد إلى الدهليز، فوجد أخشاب المنجنيقات قد أحضرت بصحبة زرد خاناه، فأمر بنصب عدة مجانيق وعملها. وجلس السلطان مع الصناع يستحثهم، فعمل في يوم واحد أربع منجنيقات كبار سوي الصغار. وكتب إلى القلاع بطلب المجانيق والصناع والحجارين، ورسم للعسكر بعمل سلالم. ورحل السلطان إلى قريب عيون الأساور من وادي عارة وعرعرة، فلما كان بعد عشاء الآخر أمر العسكر كله فلبسوا آلة الحرب، وركب آخر الليل وساق إلى قيسارية، فوافاها بكرة نهار الخميس تاسع جمادى الأولى على حين غفلة من أهلها، وضرب عليها بعساكره. وللوقت ألقي الناس أنفسهم في خندقها، وأخذوا السكك الحديد التي برسم الخيول مع المقاود والشبح، وتعلقوا فيها من كل جانب حتى صعدوا، وقد نصبت المجانيق ورمي بها. فحرقوا أبواب المدينة واقتحموها، ففر أهلها إلى قلعتها، وكانت من أحصن القلاع وأحسنها وتعرف بالخضراء وكان قد حمل عليها الفرنج العمد الصوان، وأتقنوها بتصليب العمد في بنيانها، حتى لا تعمل فيها النقوب ولا تقع إذا علقت، فاستمر الزحف والقتال عليها بالمجانيق والدبابات والزحافات ورمي

النشاب. وخرجت تجريدة من عسكر السلطان إلى بيسان مع الأمير شهاب الدين القيمري، فسير جماعة من التركمان والعربان إلى أبواب عكا، فاسروا جماعة من الفرنج. هذا والقتال ملح على قلعة قيسارية، والسلطان مقيم بأعلى كنسية تجاه القلعة ليمنع الفرنج من الصعود إلى علو القلعة، وتارة يركب في بعض الدبابات ذوات العجل التي تجري حتى يصل إلى السور ليري النقوب بنفسه. وأخذ السلطان في يده يوما من الأيام ترسا وقاتل، فلم يرجع إلا وفي ترسه عدة سهام.

فلما كان في ليلة الخميس النصف من جمادى الأولى: سلم الفرنج القلعة. بما فيها، فتسلق المسلمون من الأسوار، وحرقوا الأبواب ودخلوها من أعلاها وأسفلها، وأذن بالصبح عليها. وطلع السلطان ومعه الأمراء إليها، وقسم المدينة على الأمراء والمماليك والحلقة، وشرع في الهدم ونزل وأخذ بيده قطاعة وهدم بنفسه. فلما قارب الفراغ من هدم قيسارية بعث السلطان الأمير سنقر الرومي والأمير سيف الدين المستعرب في جماعة، فهدموا قلعة كانت للفرنج عند الملوحة قريب دمشق وكانت عاتية حتى دكوها دكا.

وفي سادس عشريه: سار السلطان جريدة إلى عثليث، وسير الأمير سنقرا السلاح دار، والأمير عز الدين الحموي، والأمير سنقرا الألفي إلى حيفا. فوصلوا إليها، ففر الفرنج إلى المراكب وتركوا قلعتها، فدخلها الأمراء بعد ما قتلوا عدة من الفرنج وبعد ما أسروا كثيرا، وخربوا المدينة والقلعة وأحرقوا أبوابها في يوم واحد، وعادوا بالأسرى والرؤوس والغنائم سالمين. ووصل السلطان إلى عثليث فأمر بتشعيثها وقطع أشجارها، فقطعت كلها وخربت أبنيتها في يوم واحد. وعاد إلى الدهليز بقيسارية، وكمل هدمها حتى لم يدع لها أثرا، وقدمت منجنيقات من الصبيبة وزرد خاناه من دمشق، وورد عدة من الفرنج للخدمة، فأكرمهم السلطان وأقطعهم الإقطاعات.

وفي تاسع عشريه: رحل السلطان من قيسارية، وسار من غير أن يعرف أحد قصده فنزل على أرسوف مستهل جمادى الآخرة، ونقل إليها من الأحطاب ما صارت حول المدينة كالجبال الشاهقة وعمل منها ستائر، وحفر سربين من خندق المدينة إلى خندق القلعة وسقفه بالأخشاب. وسلم أحدهما للأمير سنقر الرومي، والأمير بدر الدين بيسري، والأمير بدر الدين الخازندار، والأمير شمس الدين الذكر الكركي، وجماعة غيرهم. وسلم الآخر للأمير سيف الدين قلاوون، والأمير علم الدين الحلبي الكبير، والأمير سيف الدين كرمون، وجماعة غيرهم. وعمل السلطان طريقا من الخندقين

إلى القلعة، وردمت الأحطاب في الخندق، فتحيل الفرنج وأحرقوها كلها. فأمر السلطان بالحفر من باب السربين إلى البحر، وعمل سروبا تحت الأرض يكون حائط خندق العدو ساترا لها، وعمل في الحائط أبوابا يرمى التراب منها وينزل في السروب حتى تساوي أرضها أرض الخندق. وأحضر المهندسين حتى تقرر ذلك، وولي أمره للأمير عز الدين أيبك الفخري. فاستمر العمل، والسلطان بنفسه ملازم العمل بيده في الحفر وفي جر المنجنيقات ورمي التراب ونقل الأحجار، أسوة لغيره من الناس. وكان يمشي. بمفرده وفي يده ترس، تارة في السرب وتارة في الأبواب التي تفتح، وتارة على حافة البحر يرامي مراكب الفرنج. وكان يجر في المجانيق، ويطلع فوق الستائر يرمي من فوقها، ورمي في يوم واحد ثلاثمائة سهم بيده. وحضر في يوم إلى السرب وقد في رأسه خلف طاقة يرمي منها، فخرج الفرنج بالرماح وفيها خطاطيف ليجبذوه فقام وقاتلهم يدا بيد وكان معه الأمير سنقر الرومي، والأمير بيسري، والأمير بدر الدين الخازندار، فكان سنقر يناوله الحجارة حتى قتل فارسين من الفرنج، ورجعوا على أسوإ حال. وكان يطوف بين العساكر في الحصار بمفرده، ولا يجسر أحد ينظر إليه ولا يشر إليه بإصبعه. وحضر في هذه الغزاة جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء وأصناف الناس، ولم يعهد فيها حمر ولا شيء من الفواحش. بل كانت النساء الصالحات يسقين الماء في وسط القتال، ويعملن في جر المجانيق. وأطلق السلطان الرواتب من الأغنام وغيرها لجماعة من الصلحاء، وأعطي الشيخ على البكا جملة مال. ولا سمع عن أحد من خواص السلطان إنه اشتغل عن الجهاد في نوبته بشغل، ولا سير أمير غلمانه في نوبته واستراح. بل كان الناس فيها سواء في العمل، حتى أثرت المجانيق في هدم الأسوار، وفرغ من عمل الأسربة التي بجانبي الخندق، وفتحت فيها أبواب متسعة. فلما تهيأ ذلك وقع الزحف على أرسوف في يوم الخميس ثامن رجب، ففتحها الله في ذلك اليوم عندما وقعت الباشورة. فلم يشعر الفرنج إلا بالمسلمين قد تسلقوا وطلعوا القلعة، ورفعت الأعلام الإسلامية على الباشورة، وحفت بها المقاتلة وطرحت النيران في أبوابها.

هذا والفرنج تقاتل، فدفع السلطان سنجقه للأمير سنقر الرومي وأمره أن يؤمن الفرنج من القتل، فلما رآه الفرنج تركوا القتال. وسلم السنجق للأمير علم الدين سنجر المسروري المعروف بالخياط الحاجب، ودليت له الحبال من القلعة فربطها في وسطه والسنجق معه، ورفع إليها فدخلها وأخذ جميع سيوف الفرنج وربطهم بالحبال وساقهم إلى السلطان والأمراء صفوف وهم ألوف.

وأباح السلطان القلعة للناس، وكان بها من الغلال والذخائر والمال شيء كثير، وكان فيها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض السلطان لشيء منه، إلا ما اشتراه ممن أخذه بالمال ووجد فيها عدة من أسري المسلمين في القيود فأطلقوا، وقيد الفرنج بقيودهم، وعين السلطان جماعة مع الأسري من الفرنج ليسيروا بهم، وقسم أبراج أرسوف على الأمراء، وأمر أن يكون أسري الفرنج يتولون هدم السور، فهدمت بأيديهم.

وأمر السلطان بكشف بلاد قيسارية وعمل متحصلها، فعملت بذلك أوراق، وطلب قاضي دمشق وعدوله ووكيل بيت المال، وتقدم بأن يملك الأمراء المجاهدون من البلاد التي فتحها الله عليه ما يأتي ذكره.

وفي سابع شهر رمضان: قدمت العساكر من البيرة، مع الأمير جمال الدين المحمدي، والأمير عز الدين إيغان. وقدمت هدية ملك الكرج. وورد الخبر باستيلاء عز الدين الكندري نائب الرحبة على قرقيسياء، وقتلوا من كان فيها من التتر والكرج، وأسروا نيفا وثمانين رجلا في نصف شهر رمضان.

وفيها نزل السلطان من قلعة الجبل بالليل متنكرا، وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس، فرأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعراها سروالها بيده، ولم يجسر أحد ينكر عليه. فلما أصبح السلطان قطع أيدي جماعة من نواب الولاة والمقدمين، والخفراء وأصحاب الرباع بالقاهرة.

* * *

سنة أربع وستين وستمائة

وفيه وردت رسل الأنبرور، ورسل الفنش، ورسل ملوك الفرنج، ورسل ملك اليمن، ومعهم هدايا إلى صاحب قلاع الإسماعيلية. فأخذت منهم الحقوق الديوانية عن الهدية، إفسادا لنواميس الإسماعيلية، وتعجيزا لمن اكتفى شرهم بالهدية.

وفي ثامن صفر. كانت وقعة بين الأمير علم الدين سنجر الباشقردي نائب حمص، وبين البرنس بيمند بن بيمند ملك الفرنج بطرابلس، انهزم فيها الفرنج. وفيه كتب إلى دمشق بعمل مراكب، فعملت وحملت إلى البيرة. وفيه توجه السلطان إلى الإسكندرية، واهتم بحفر خليجها وباشر الحفر بنفسه، فعمل فيه الأمراء وسائر الناس، حتى زالت الرمال التي كانت على الساحل بين النقيدي وفم الخليج، ثم عدى السلطان إلى بر أبيار، وغرق هناك عدة مراكب، وألقى فوقها الحجارة، ثم عاد إلى قلعة الجبل، وحفر بحر مصر بنفسه وعسكره، ما بين الروضة والمنشاة بجوار جرف الروضة، وجهز المحمل وخلع على المتوجه به إلىالحجاز، وهو الأمير جمال الدين نائب دار العدل، وسير معه مبلغ عشره آلاف درهم لعمارة حرم رسول الله ، وسيرت الغلال لجرايات الصناع.

وخرج السلطان في مستهل شعبان، ورحل في ثالثه وسار إلى غزة. وقدم الأمير أيدغدي العزيزي، والأمير قلاوون، في عدة من العسكر إلى العوجاء. ومضى السلطان إلى الخليل ثم إلى القدس، ومنع أهل الذمة من دخول مقام الخليل، وكانوا قبل ذلك يدخلون ويؤخذ منهم مال على ذلك، فأبطله واستمر منعهم. وسار السلطان إلى عين جالوت ووصل العسكر إلى حمص، وأغاروا على الفرنج ونزلوا على حصن الأكراد، وأخذوا قلعة عرقة وحلباء والقليعات وهدموها، فلما ورد الخبر بذلك جرد السلطان الأمير علاء الدين البندقدار، والأمير عز الدين أوغان، في عدة من العسكر إلى صور فأغاروا على الفرنج، وغنموا وأسروا كثيرا. وتوجه الأمير إيتامش إلى صيداء، وصار السلطان إلى مدينة عكا، وبعث الأمير بدر الدين الأيدمري، والأمير بدر الدين بيسري إلى جهة القرن، وأرسل الأمير فخر الدين الحمصي إلى جبل عاملة. فأغارت العساكر على الفرنج من كل جهة، وكثرة المغانم بأيديهم حتى لم يوجد من يشتري البقر والجاموس وصارت الغارات من بلاد طرابلس إلى أرسوف. ونزل عسكر السلطان على صور، وأقام السلطان في جهة عكا، والأمر ناصر الدين القيمري في عثليث، فطلب أهل عكا من الأتابك التحدث في

الصلح. فاهتم السلطان بأمر صفد، وأحضر العساكر المجردة، ورحل الأمير بكتاش الفخري أمير سلاح بالدهليز السلطاني ونزل على صفد، وتبعه الأمير البندقدار والأمير عز الدين أوغان في جماعة، وحاصروها.

هذا والسلطان مقيم على عكا حتى وافته العساكر، وعمل عدة مجانيق. ثم رحل والعساكر لابسة، وساق إلى قرب باب عكا، ووقف على تل الفضول. ثم سار إلى عين جالوت، ونزل على صفد يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وحاصرها، فقدم عليه رسول متملك صور ورسل الفداوية، ورسول صاحب بيروت ورسول صاحب يافا، ورسل صاحب صهيون. وصار السلطان يباشر الحصار بنفسه، وقدمت المجانيق من دمشق إلى جسر يعقوب وهو منزلة من صفد وقد عجزت الجمال عن حملها، فسار إليها الرجال من الأجناد والأمراء، لحملها على الرقاب من جسر يعقوب، وسار السلطان بنفسه وخواصه، وجر الأخشاب مع البقر هو وخواصه، فكان غيره من الناس إذا تعب استراح ثم يعود إلى الجر، وهو لا يسأم من الجر ولا يبطله، إلى أن نصبت المجانيق رمي بها في سادس عشريه، وصار السلطان يلازم الوقوف عندها وهي ترمي.

وأتت العساكر من مصر والشام، فنزلوا على منازلهم إلى أن كانت ليلة عيد الفطر فخرج الأمير بدر الدين الأيدمري للتهنئة بالعيد، فوقع حجر على رأسه، فرسم السلطان بألا يجتمع أحد لسلام العيد، ولا يبرح أحد من مكانه خشية انتهاز العدو غرة العسكر ونودي يوم عيد الفطر في الناس. من شرب خمرا أو جلبها شنق.

وفي ثانيه: وقع الزحف على صفد، ودفع الزراقون النفط. ووعد السلطان الحجارين إنه من أخذ أول حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثاني والثالث إلى العشرة. وأمر حاشيته بألا يشتغلوا بخدمته. فكان بين الفريقين قتال عظيم استشهد فيه جماعة، وكان الواحد من المسلمين إذا قتل جره رفيقه ووقف موضعه، وتكاثرت النقوب ودخل النقابون إليها، ودخل السلطان معهم، وبذل السلطان في هذا اليوم من المال والخلع كثيرا، ونصب خيمة فيها حكماء وجرائحية وأشربة ومآكل، فصار من يجرح من العربان والفقهاء والفقراء وغيرهم يحضر إليها.

وفي ثامنه: كانت بين الفريقين أيضًا، مقاتل.

وفي ليلة رابع عشره: اشتد الزحف من الليل إلى وقت القائلة، فتفرق الناس من شدة التعب، فغضب السلطان من ذلك وأمر خواصه بالسوق إلى الصاواوين وإقامة الأمراء والأجداد بالدبابيس، وقال. المسلمون عل هذه الصورة، وأنتم تستريحون؟،

فأقيموا، وقبض السلطان على نيف وأربعين أميرا، وقيدهم وسجنهم بالزردخاناه، ثم شفع فيهم فأطلقهم وأمرهم بملازمة مواضعهم، وضربت الطبلخاناه واشتد الأمر إلى أن طلب الفرنج الأمان، فأمنهم السلطان على ألا يخرجوا بسلاح ولا لأمة حرب ولا شيء من الفضيات، ولا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم، وأن يفتشوا عند خروجهم، فإن وجد مع أحد منهم شيء من ذلك انتقض العهد.

ولم تزل الرسل تتردد بينهم إلى يوم الجمعة ثامن عشره، ثم طلعت السناجق الإسلامية، وكان لطلوعها ساعة مشهودة. هذا والسلطان راكب على باب صفد حتى نزل الفرنج كلهم، ووقفوا بين يديه فرسم بتفتيشهم، فوجد معهم ما يناقض الأمان من السلاح والفضيات، ووجد معهم عدة من أسري مسلمين أخرجوهم على إنهم نصارى. فأخذ ما وجد معهم وأنزلوا عن خيولهم، وجعلوا في خيمة ومعهم من يحفظهم. وتسلم المسلمون صفد، وولي السلطان قلعتها الأمير مجد الدين الطوري، وجعل الأمير عز الدين العلائي نائب صفد، فلما أصبح حضر إليه الناس، فشكر اجتهادهم واعتذر إليهم مما كان منه إلى بعضهم، وإنه ما قصد إلا حثهم على هذا الفتح العظيم، وقال: من هذا الوقت نتحالل، وأمرهم فركبوا. وأحضرت خيالة الفرنج وجميع من صفد، فضربت أعناقهم على تل قرب صفد حتى لم يبق منهم سوي نفرين. أحدهما الرسول، فإنه اختار أن يقيم عند السلطان ويسلم، فأسلم وأقطعه السلطان إقطاعا وقربه، والآخر ترك حتى يخبر الفرنج. مما شاهده. وصعد السلطان إلى قلعة صفد، وفرق على الأمراء العدد الفرنجية والجواري والمماليك، ونقل إليها زردخاناه من عنده، وحمل السلطان على كتفه من السلاح إلى داخل القلعة، فتشبه به الناس ونقلوا الزردخاناه في ساعة واحدة. واستدعى السلطان الرجال من دمشق للإقامة بصفد، وقرر نفقة رجال القلعة في الشهر مبلغ ثمانين ألف درهم نقره واستخدم على سائر بلاد صفد، وعمل بها جامعا في القلعة وجامعا بالربض ووقف على المجنون نصف وربع الحباب، وللربع الآخر على الشيخ إلياس، ووقف قرية منها على قبر خالد بن الوليد بحمص.

وفي سابع عشريه: رحل السلطان من صفد إلى دمشق، فنزل الجسورة وأمر ألا يدخل أحد من العسكر إلى دمشق، بل يبقى العسكر على حاله حتى يسير إلى سيس ودخل السلطان إلى دمشق جريدة، فبلغه أن جماعة من العسكر قد دخلوا إلى دمشق، فأخرجهم مكتفين بالحبال. وأقام الملك المنصور صاحب حماة مقدما على العساكر وسيرهم معه، وفيهم الأمير عز الدين أوغان، والأمير قلاوون، فسارو في خامس ذي

القعدة إلى سيس.

وفيه استولي السلطان على هونين وتبنين وعلى مدينة الرملة، فعمرها وصير لها عملا وولي فيها. وفيه أبطل السلطان ضمان الحشيشة الخبيثة، وأمر بتأديب من أكلها، وقدم رسول الاسبتار ملك الفرنج، يسأل استقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص وبلاد الدعوة، فقال السلطان: لا أجيب إلا بشرط إبطال ما لكم من القطائع على مملكة حماة وهي أربعة آلاف دينار، وما لكم من القطيعة على بلاد أبي قبيس وهي ثمانمائة دينار، وقطيعتكم على بلاد الدعوة وهي ألف ومائتا دينار ومائة مد حنطة وشعير نصفين. فأجابوا إلى إبطال ذلك، وكتبت الهدنة وشرط فيها الفسخ للسلطان متى أراد، ويعلمهم قبل بمدة. وورد الخبر بأن فرنج عكا وجدوا أربعة من المسلمين في طين شيحا فشنقوهم، فرسم السلطان بالإغارة على بلاد الفرنج، فقتلت العساكر منهم فوق المائتين، وساقوا جملة من الأبقار والجواميس وعادوا. وأما الملك المنصور ومن معه، فإنهم ساروا إلى حصن دير بساك ودخلوا الدربند، وقد بني التكفور هيتوم بن قسطنطين بن باساك ملك الأرمن على رءوس الجبال أبراجا وهو الذي تزهد فيما بعد، وترك الملك لولده ليفون فاستعد ووقف في عسكره، فعندما التقى الفريقان أسر ليفون ابن ملك سيس، وقتل أخوه وعمه، وانهزم عمه الآخر، وقتل ابنه الآخر، وتمزق الباقي من الملوك وكانوا اثني عضو ملكا وقتلت أبطالهم وجنودهم. وركب العسكر أقفيتهم وهو يقتل ويأسر ويحرق، وأخذ العسكر قلعة حصينة للديوية، فقتلت الرجال وسبيت النساء وفرقت على العسكر وحرقت القلعة بما فيها من الحواصل. ودخلوا سيس فأخرجوها وجعلوا عاليها سافلها، وأقاموا أياما يحرقون ويقتلون ويأسرون. وسار الأمير أوغان إلى جهة الروم، والأمير قلاوون إلى المصيصة وأذنة وأياس وطرسوس، فقتلوا وأسروا وهدموا عدة قلاع وحرقوا هذا وصاحب حماة مقيم بسيس، ثم عادوا إليه وقد اجتمع معهم من الغنائم ما لا يعد ولا يحصى، حتى أبيع رأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه.

فورد الخبر بذلك والسلطان في الصيد بجرود، فأعطى المبشر ألف دينار وأمره طبلخاناه. ودخل السلطان إلى دمشق، وتجهز وخرج للقاء العسكر في ثالث عشر ذي الحجة فشكي إليه وهو بقارا من أهلها وهم نصارى: إنهم يتعدون على أهل الضياع، ويبيعون من يقع إليهم إلى الفرنج بحصن عكا، فأمر العسكر بنهبهم فنهبوا، وقتل كبارهم وسبي النساء والأولاد، وقدم عليه العسكر المجهز إلى سيس، وقدموا له نصيبه من الغنائم ففرق الجميع على عساكره، وأحسن إلى متملك سيس ومن معه من

الأسري. وعاد السلطان إلى دمشق في رابع عشريه ومتملك سيس بين يديه وخلع على الأمراء والملوك والأجناد، فامتلأت بالمكاسب، وأبيع من الجواهر والحلي والدقيق والحرير ما لا يحصى كثرة، ولم يتعرض السلطان لشيء من ذلك، وعاد صاحب حماة إلى مملكته، بعد ما أنعم عليه السلطان بكثير من الخيول والأموال والخلع. وفيها قدمت رسل الملك أبغا بن هولاكو بهدايا وطلب الصلح وفيها أمر السلطان بجمع أصحاب العاهات، فجمعوا بخان السبيل ظاهر باب الفتوح من القاهرة، ونقلوا إلى مدينة الفيوم وأفردت لهم بلدة تغل عليهم ما يكفيهم، فلم يستقروا بها وتفرقوا ورجع كثير منهم إلى القاهرة وفيها اشتد إنكار السلطان للمنكر، وأراق الخمور وعفي آثار المنكرات، ومنع الحانات والخواطىء بجميع أقطار مملكته. بمصر والشام، فطهرت البقاع من ذلك.

* * *

سنة خمس وستين وستمائة

وصعد السلطان إلى القلعة، وقدم عليه رسول التكفور هيتوم صاحب سيس يشفع. في ولده للسلطان، ففك قيده في ثاني عشريه وكتب له موادعة على بلاده إلى سنة، وركب مع السلطان لرماية البندق في بركة الجب.

وفي يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر: أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة، وكانت قد بطلت منه منذ ولي قضاء مصر صدر الدين عبد الملك بن درباس، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد ظل كذلك إلى أن سكن الأمير عز الدين أيدمر الحلي بجواره، فانتزع كثيرا من أوقاف الجامع كانت مغصوبة بيد جماعة، وتبرع له بمال جزيل، واستطلق له من السلطان مالا، وعمر الواهي من أركانه وجدرانه وبيضه وبلطه ورم سقوفه، وفرشه واستجد به مقصورة وعمل فيه منبرا، فتنازع الناس فيه هل تصح إقامة الجمعة فيه أم لا، فأجار ذلك جماعة من الفقهاء، ومنع منه قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وغيره، فشكى الحلي ذلك إلى السلطان، فكلم فيه قاضي القضاة فصمم على المنع، فعمل الحلي بفتوى من أجاز ذلك وأقام فيه الجمعة. وسأل السلطان أن يحضر فامتنع من الحضور ما لم يحضر قاضي القضاة، فحضر الأتابك والصاحب بهاء الدين وعدة من الأمراء والفقهاء، ولم يحضر السلطان ولا قاضي القضاة تاج الدين. وعمل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار بالجامع مقصورة، ورتب فيها مدرسا وجماعة من الفقهاء على

مذهب الشافعي، ورتب محدثا يسمع بالحديث النبوي والرقائق، ورتب سبعة لقراءة القرآن العظيم، وعمل على ذلك أوقافا تكفيه.

ثم ركب السلطان في حادي عشري شعبان وساق من صفد إلى عكا، فلما علم به الفرنج حتى وقف على أبوابها، فقسم البنائين والحجارين والناس على البساتين والأبنية والآبار لهدمها، فاقتسموا ذلك وشرعوا في الهدم وقطع الأشجار. وعمل السلطان اليزك بنفسه على باب عكا، وصار واقفا على فرسه وبيده رمح مدة أربعة أيام، حتى تكامل الإحراق والهدم وقطع الأشجار. ثم رجع إلى صفد، فوردت رسل سيس ورسل بيروت فأجيبوا عن مقاصدهم.

وفي شهر رمضان: وردت رسل صور يطلبون استمرار الهدنة، فأجيبوا إلى الصلح، وكتبت هدنة لمدة عشر سنين لصور وبلادها وهي مائة قرية إلا قرية بعد ما أحضروا دية السابق شاهين الذي قتلوه لأولاده وهي خمسة عشر ألف دينار صورية، قاموا بنصفها وأمهلوا بالباقي وأحضروا أيضًا عدة أسري مغاربة. وقدمت رسل بيت الاسبتار من الفرنج يطلبون الصلح على حصن الأكراد والمرقب، فأجيبوا وتقررت الهدنة لعشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وعن حماة وشيزر وأفامية وعن أبي قبيس، وقد تقدم ذلك، وبطل أيضًا ما كان على عيناب، وهو خمسمائة دينار صورية وعن كل فدان مكوكان غلة وستة دراهم.

* * *

سنة ست وستين وستمائة

و ساق السلطان من العوجاء إلى يافا، وحاصرها حتى ملكها من يومه، وأخذ قلعتها وأخرج من كان فيها، وهدمها كلها وجمع أخشابها ورخامها وحمله في البحر إلى القاهرة، فعمل من الخشب مقصورة الجامع الظاهري بالحسينية، ومن الرخام بحرابه. وأمر السلطان ببناء الجوامع بتلك البلاد، وأزال منها ومن قرية المنكرات، ورتب الخفراء على السواحل وألزمهم بدركها. ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يخلط بغيره، وجعله لمأكله ومشربه. وأعطى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس منها قرية، وأعطي الأمير علم الدين سنجر الحموي قرية، وملكهما إياهما وأنزل التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها، وقرر عليهم خيلا وعدة، فتجدد له عسكر

بغير كلفة، وفيه رسم بتجديد عمارة الخليل عليه السلام، ورسم أن يكون عمل الخوان الذي يمد ناصية عن مسجد الخليل.

وجهز السلطان عسكرا إلى الشقيف، ثم سار إليها بنفسه فنزل عليها في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب، وقدم الفقهاء للجهاد، ونصب السلطان عليها ستة وعشرين منجنيقا، وألح عليها حتى أخذها يوم الأحد سلخ رجب، وأخرج منها نساء الفرنج وأولادهم إلى صور، وقيد الرجال كلهم وسلمهم للعساكر. وهدم السلطان قلعة استجدها الفرنج هناك، واستتاب على القلعة الأخرى الأمير صارم الدين قايماز الكافري، ورتب بها الأجناد والرجالة، وقرر فيها قاضيا وخطيبا، وولي أمر عمارتها الأمير سيف الدين بلبان الزيني. وفيه وردت كتب من الكرج.

وفي شعبان: وصل رسول صاحب بيروت بهدية وتجار كانوا قد أخذوهم في البحر من سنين، فما زال السلطان حتى خلصهم وخلص أموالهم.

ثم سار السلطان إلى طرابلس وخيم عليها في النصف منه، وناوش أهلها القتال وأخذ برجا كان هناك، وضرب أعناق من كان من الفرنج، وأغارت العساكر على من في تلك الجبال، وغنموا شيئا كثيرا وأخذوا عدة مغاير بالسيف، وأحضروا المغانم والأسري إلى السلطان فضرب أعناق الأسرى، وقطع الأشجار وهدم الكنائس، وقسم الغنائم في العسكر.

ودخل السلطان عن طرابلس في رابع عشريه، فتلقاه صاحب صافيتا وأنطرسوس بالخدمة، وأحضر ثلاثمائة أسير كانوا عنده، فشكره السلطان ولم يتعرض لبلاده، ونزل السلطان على حمص، وأمر بإبطال الخمر والمنكرات. ثم دخل إلى حماة ولا يعرف أحد أي جهة يقصد، فرتب العسكر ثلاث فرق: فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخازندار، وفرقة مع الأمير عز الدين إيغان، وفرقة مع السلطان، فتوجه الخازندار إلى السويدية، وتوجه إيغان إلى درب بساك، فقتلوا وأسروا، ونزل السلطان أفامية، ووافاه الجميع على أنطاكية.

وأصبح أول شهر رمضان: والسلطان مغير على أنطاكية، وأطاقت العساكر بها من كل جانب، فتكملوا بخيامهم في ثالثه. وبعث السلطان إلى الفرنج يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهم، وفاوضهم في ذلك مدة ثلاثة أيام وهم لا يجيبون، فزحف عليها وقاتل أهلها قتالا شديدا، وتسور المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة، ونزلوا المدينة ففر أهلها إلى القلعة، ووقع النهب والقتل والأسر في المدينة، فلم يرفع السيف عن أحد من الرجال وكان بها فوق المائة ألف، وأحاط الأمراء بأبواب المدينة

حتى لا يفر منها أحد، واجتمع بالقلعة من المقاتلة ثمانية آلاف سوى النساء والأولاد، فبعثوا يطلبون الأمان فأمنوا، وصعد السلطان إليهم ومعه الحبال، فكتفوا وفرقوا على الأمراء، والكتاب بين يدي السلطان ينزلون الأسماء.

وكانت أنطاكية للبرنس بيموند بن بيموند، وله معها طرابلس، وهو مقيم بطرابلس وكتبت البشائر بالفتح إلى الأقطار الشامية والمصرية والفرنجية، وفي الجملة كتاب إلى صاحب أنطاكية وهو يومئذ مقيم بطرابلس وهو من إنشاء ابن عبد الظاهر رحمه الله تعالي.

وسلم السلطان القلعة إلى الأمير بدر الدين بيليك الخازندار والأمير بدر الدين بيسري الشمسي، وأمر بإحضار المغانم لتقتسم، وركب وأبعد عن الخيام وحمل ما غنمه وما غنمته مماليكه وخواصه، وقال: والله ما خبأت شيئا مما حمل إلى ولا خليت مماليكي يخبئون شيئا، ولقد بلغني أن غلاما لأحد مماليكي خبأ شيئا لا قيمة له فأدبته الأدب البالغ، ويتبقى لكل أحد منكم أن يخلص ذمته، وأنا أحلف الأمراء والمقدمين، وهم يحلفون أجنادهم ومضافيهم. فأحضر الناس الأموال والمصاغ الذهب والفضة حتى صارت تلا بها، وقسمت في الناس، وطال الوزن فقسمت النقود بالطاسات، وقسمت الغلمان على الناس، فلم يبق غلام إلا وله غلام، وتقاسم النساء والبنات والأطفال، وأبيع الصغير باثني عشر درهما والجارية بخمسة دراهم، وأقام السلطان يومين وهو يباشر القسمة بنفسه، وقصر الناس في إحضار الغنائم فعاد السلطان مغضبا، فلم تزل الأمراء به يلتزمون بالاجتهاد والاحتراز ويعتذرون إليه، حتى وقف على فرسه وما ترك شيئا حتى قسمه.

ثم ركب السلطان إلى القلعة وأحرقها، وعم بالحريق أنطاكية، فأخذ الناس من حديد أبوابها ورصاص كنائسها ما لا يوصف كثرة، وأقيمت الأسواق خارج المدينة، فقدم التجار من كل جهة. وكان بالقرب من أنطاكية عدة حصون، فطلب أهلها الأمان، فتوجه إليهم الأمير بيليك الأشرفي وتسلمها في حادي عشره، وأسر من فيها من الرجال.

وكان التكفور هيتوم ملك سيس لم يزل يسأل في إطلاق ولده ليفون، ويعرض في فدائه الأموال والقلاع، وكان التتر قد أسروا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من حلب، لما ملكوها من الملك الناصر، فاقترح السلطان على سيس إحضار سنقر عوضًا عن ولده ورد القلاع التي أخذها من مملكة حلب، وهي بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشبح الحديد، فسأل هيتوم المهلة سنة إلى أن يبعث إلى الأرذو

فلما كان في هذه الأيام، بعث هيتوم إلى السلطان بأنه وجد سنقر، وأنه أجيب إلى إطلاقه، فكتب إليه بإحضاره. فأحضر هيتوم كتاب سنقر إلى السلطان بأماير، إلا إنه غير قوله في تسليم القلاع، فكتب إليه. إذا كنت تقسو على ولدك وولي عهدك، فأنا أقسو على صديق ما بيني وبينه نسب، ويكون الرجوع منك لا مني. ونحن خلف كتابنا، فمهما شئت افعل بسنقر الأشقر " فلما وصلت إليه الكتب من أنطاكية خاف، وتقرر الصلح على تسليم قلعة بهسنا ودر بساك وكل ما أخذه من بلاد الإسلام، وأن يرد الجميع بحواصلها كما تسلمها، ويطلق سنقر الأشقر، ويطلق السلطان ولده وابن أخيه وغلمانهما، وأنه يحضر رهينة حتى يتسلم السلطان القلاع، فكتبت الهدنة بأنطاكية، وتوجه الأمير بلبان الرومي للدوادار، والصدر فتح الدين بن القيسراني كاتب الدرج. لاستحلافه، وتوجه الأمير بدر الدين يحكا الرومي لإحضار الملك ليفون من مصر على البريد في ليلة الثالث عشر من رمضان، فوصل إلى القاهرة وخرج منها ثاني يوم دخوله بالملك ليفون، فوصل إلى دمشق ليلة الاثنين سادس عشريه، فكان بين خروجه من أنطاكية وعودته إلى دمشق ثلاثة عشر يوما، وحلف التكفور هيتوم صاحب سيس في سابع عشريه، فانتظم الصلح.

ورحل السلطان من أنطاكية إلى شيزر، وسار منها على البرية إلى حمص وهو يتصيد فدخل حماة في ثلاثة نفر: وهم الأمير بيسري، والأمير بدر الدين الخازندار، والأمير حسام الدين الدوادار، ونزل العسكر حماة. ثم سار السلطان من حمص إلى دمشق، فدخلها في سادس عشريه، والأسرى بين يديه وليفون ابن صاحب سيس في خدمته، فأحسن إليه، وحلف ليفون للسلطان في ثالث شوال على النسخة التي حلف عليها أبوه، وهو قائم مكشوف الرأس، وسار إلى بلاده في حادي عشره صحبة الأمير بجكا على البريد، حتى قرره في مملكته. ووصلت الرهائن فأحسن السلطان إليهم وأكرمهم، ومازالوا إلى أن تسلم نواب السلطان القلاع من أهل سيس، فأعيدت الرهائن إليهم بما أنعم عليهم، وعندما وصل ليفون إلى سيس أطلق سنقر الأشقر، وبعث به إلى السلطان فتلقاه السلطان وهو في الصيد من غير أن يعرف أحد بقدومه، وقدم به وهو مختف وأنزله عنده في الدهليز، وبات معه. فلما أصبح، واجتمع الناس في الخدمة، خرج السلطان ومعه سنقر الأشقر، فبهت الناس لرؤيته، وأخرج له السلطان المال والخلع والحوائص، والخيل والبغال والجمال والمماليك، وسائر ما يحتاج إليه، وحمل إليه الأمراء التقادم، وبالغ السلطان في الإحسان إليه، وبنى له دارا بقلعة الجبل ولما حضر سنقر إلى القاهرة أعطاه السلطان إمرة، وعمله من خواصه.

وفي ثالث عشره: تسلم الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني أستادار السلطان حصن بفراس من الفرنج الداويه وكانوا قد فروا عنها وتركوا الحصن خاليا حتى لم يبق بها سوى عجوز واحد، فوجدها الأمير شمس الدين عامرة بالحواصل والذخائر، وفيه وردت رسل صاحب عكا بهدية فحصل الاتفاق على أن تكون حيفا للفرنج ولها ثلاث ضياع، وأن تكون مدينة عكا وبقية بلادها مناصفة هي وبلاد الكرمل، وأن بلاد صيدا الوطاة للفرنج والجبليات للسلطان، وأن الهدنة لعشر سنين، وأن الرهائن تطلق وبعث السلطان لصاحب عكا هدية فيها عشرون نفسا من أسرى أنطاكية، وتوجه القاضي محيي الدين عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيت لاستحلافه، فدخلا عكا في عشري شوال، وقد وصاهما السلطان ألا يتواضعا له في جلوس ولا مخاطبة، فلما دخلا كان الملك على كرسي، فلم يجلسا حتى وضع لهما كرسيين جلسا عليهما قبالته، ومد الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم يرضيا حتى مد الملك يده وأخذه، ولم يوافق على أشياء فتركوه ولم يحلف.

* * *

سنة سبع وستين وستمائة

وفي ثاني عشر جمادى الآخرة. خرج السلطان، ومعه الأمير عز الدين الحلي وأكابر الأمراء في عدة من العسكر يريد بلاد الشام، وترك أكثر العسكر عند الملك السعيد، فلما وصل إلى غزة أنفق في العسكر، ونزل أرسوس لكثرة مراعيها، فقدم عليه كتاب متملك سيس بأن رسول أبغا بن هولاكو قدم ليحضر إلى السلطان، فبعث إليه الأمير ناصر الدين بن صيرم مشد حلب ليتسلمه من سيس، ويحترز عليه بحيث لا يمكنه أن يتحدث مع أحد فسار به إلى دمشق، ولم يحتفل به عند وصوله إلى دمشق، وأنزل في قلعتها، فورد الخبر بذلك، فركب السلطان من أرسوف وترك الأثقال بها، وأخذ معه الأمراء ودخل إلى دمشق، وأحضر الرسول إليه، فكان من جملة كتابه: إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد، ومن خالفه هلك وقتل. فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا.

وكان في المشافهة: أنت مملوك وأبعت في سيواس، فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض؟ فأجيب وأعيد الرسول.

وكتب السلطان بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطئ من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر فطهرت كلها من المنكر، ونهبت الحانات التي جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها، وسلبت جميع أحوال المفسدات وحبسن حتى يتزوجن، وفي كثير من المفسدين، وكتب السلطان إلى جميع البلاد بمثل ذلك، وحط المقرر على هذه الجهة من المال، وعوض المقطعين جهات حلالا.

وفي سادس عشريه. تسلم نواب السلطان بلاطنس من عز الدين عثمان صاحب صهيون، وهي حصن عظيم، وفيه سارت العساكر من البيرة إلى كركر فأحرقوا وغنموا، وأخذوا قلعة كانت بينها وبين كختا، وقتلوا رجالها وغنموا كثيرا، وأخرجوا منه الخمس للديوان.

وفيه قدم رسول الفرنج من بيروت بهدية وأساري مسلمين، فأطلقوا بباب الدهليز، وكتبت لهم هدنة.

* * *

سنة ثمان وستين وستمائة

وكان السلطان قد سير إلى عساكر عين جالوت وعساكر صفد بالإغارة في ثاني عشريه، فإذا خرج إليهم الفرنج انهزموا منهم، فاعتمدوا ذلك، ودخل السلطان الكمين، فعندما خرج جماعة من الفرنج لقتال عسكر صفد تقدم إليهم الأمير إيغان، ثم بعده الأمير جمال الدين الحاجبي، ومعهما أمراء الشام. ثم ساق الأمير أيتمش السعدي، والأمير كندغدي أمير مجلس، ومعهما مقدموا الحلقة، فقاتل الأمراء الشاميون أحسن قتال، وتبع السلطان مقدمي الحلقة، فما أدركهم إلا والعدو قد انكسر، وصارت الخيالة بخيلها مطرحة في المرج. وأسر السلطان كثيرا من أكابرهم، ولم يعدم من المسلمين سوى الأمير فخر الدين ألطونبا الفائزي، فسارت البشائر إلى البلاد.

وعاد السلطان إلى صفد والرؤوس بين يديه، وتوجه منها إلى دمشق فدخلها في سادس عشريه، والأسرى ورؤوس القتلى قدامه، وخلع على الأمراء، ثم سار إلى حماة وخرج منها إلى كفر طاب، ولم يعلم أحد قصده، وفرق العساكر وترك النقل، وأخذ خيار عسكره وساق إلى جهة المرقب فأصابته مشقة زائدة من كثرة الأمطار، فعاد إلى حماة وأقام بظاهرها تسعة عشر يوما، وتوجه على جهة المرقب، فانتهى إلى قريب بلاد الإسماعيلية، وعاقته الأمطار والثلوج فعاد.

ثم ركب السلطان في ثالث جمادى الآخرة. بمائتي فارس من غير سلاح، وأغار على حصن الأكراد وصعد الجبل الذي عليه حصن الأكراد ومعه قدر أربعين فارسا، فخرج عليه عدة من الفرنج ملبسين، فحمل عليهم وقتل منهم جماعة، وكسر باقيهم وتبعهم حتى وصل إلى خنادقهم، وقال يستخف بهم: خلوا الفرنج يخرجوا، فما نحن أكثر من أربعين فارسا بأتبية بيض، وعاد إلى مخيمه، ورعى الخيول مروجها وزروعها.

وفي أثناء ذلك حضر إلى خدمة السلطان كثير من أصحاب البلاد المجاورة، فلم يبق أحد إلا وقدم على السلطان مثل: صاحب حماة، وصاحب صهيون، إلا نجم الدين حسن بن الشعراني صاحب قلاع الإسماعيلية، فإنه لم يحضر بل بعث يطلب تنقيض القطعة التي حملوها لبيت المال، بدلا مما كانوا يحملونه إلى الفرنج. وكان صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقه قد تغير السلطان عليه من مدة، فدخل صاحب صهيون بينه وبين السلطان في الصلح، وأحضره إلى الخدمة، فقلده السلطان بلاد الدعوة استقلالا، وأعطاه طبلخاناه، وعزل نجم الدين حسن بن الشعراني وولده من نيابة الدعوة، وتوجه صارم الدين إلى مصياف كرسي بلاد الإسماعيلية في سابع عشرى جمادى الآخرة، وصحبته جماعة لتقرير أمره.

ثم رحل السلطان من حصن الأكراد إلى دمشق، فدخلها في ثامن عشريه وقدم الخبر بأن الفرنسيس وعدة من ملوك الفرنج قد ركبوا البحر ولا يعلم قصدهم، فاهتم السلطان بالثغور والشواني، وسار إلى مصر فدخلها في ثاني شوال. وفيه تمت عمارة الجامع الظاهري بالحسينية خارج القاهرة، فرتب السلطان أوقافه، وجعل خطيبه حنفي المذهب، ووقف عليه حكر ما بقي من الميدان. وفيه بعث السلطان عدة رسل بهدايا إلى بلاد الفرنج.

* * *

سنة تسع وستين وستمائة

في المحرم: ورد كتاب بيسو نوغاي قريب الملك بركة ملك التتار، وهو أكبر مقدمي جيوشه، يخبر فيه أنه دخل في دين الإسلام، فأجيب بالشكر والثناء عليه. وفيه ورد الخبر. بمسير الفرنسيس وملوك الفرنج إلى تونس ومحاربة أهلها، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه نجدة له على الفرنج، وكتب إلى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته، وأمرهم بحفر الآبار في الطرقات برسم العساكر، وشرع في تجريد العساكر، فورد الخبر. بموت الفرنسيس وابنه وجماعة من عسكره، ووصول نجدات العربان إلى تونس وحفر الآبار، وأن الفرنج رحلوا عن تونس في خامس صفر.

وفي سابعة: توجه السلطان إلى عسقلان، ليهدم ما بقي منها خوفا من مجيء الفرنج إليها، فنزل عليها وهدم بنفسه ما تأخر من قلعتها وأسوار المدينة حتى سوى بها الأرض وعاد إلى قلعة الجبل في ثامن ربيع الأول.

و أمر السلطان بإهراق الخمور، وأبطل ضمانها وكان في كل سنة ألف دينار، وكتب بذلك ترقيما قرئ على المنابر.

* * *

سنة سبعين وستمائة

أهلت والسلطان متشدد في إراقة الخمور وإزالة المنكرات، فكان لذلك يوما مشهودا.

وفي سادس عشريه: قدم شمس الدين بن نجم الدين صاحب الدعوة الإسماعيلية، فقبض عليه وعلى أصحابه وسيروا إلى مصر، واستمرت مضايقة حصونهم حتى تسلم نواب السلطان حصن الخواني وحصن العليقة.

وفي أول شهر ربيع الأول: ركب السلطان من ظاهر حماة بعد عشاء الآخرة، من غير أن يعلم أحد قصده، وسار على طريق حلب، ثم عرج من شيزر وأصبح على حمص، وتوجه إلى حصن الأكراد وحصن عكار وكشف أمورهما، وسار إلى دمشق، وكتب إلى مصر كتابا يقول فيه لأكابر الأمراء: ولدكم - ولبقيتهم أخوكم - ووالدكم يسلم عليكم ويتشوق إليكم، وإيثاره ألا يفارقكم. وإنما قدمنا راحتكم على

راحتنا. فطالما تعبوا واسترحنا ونعلمهم بالمتجددات ليكونوا لا كالمشاهدين وكمشاركينا في أكثر المجاهدين: فمنها حديث الإسماعيلية وحديث العربان، وقد ورد الخبر بحركة التتار، ولو عدنا لجفلت أهل البلاد. وأما الفرنج فعملوا سلالم من حديد، وعزموا على مهاجمة صفد ووردوا بيروت، فلما وصلنا البلاد انعكست آمالهم ومما يدل على التمكين تارة بالسيف وتارة بالسكين، أن صاحب مرقية الذي أخذنا بلاده توجه إلى التتار مستصرخا، وسيرنا وراءه فداوية، وقد وصل أحدهم وذكر إنهم قد قفزوا عليه وقتلوه، وبلغتنا حركة التتار وأنا والله لا أبيت إلا وخيلي مشدودة، وأنا لابس قماشي حتى المهماز ".

وورد الخبر بأن التتار أغاروا على عين تاب، وتوجهوا على العمق في نصف ربيع الأول، فكتب إلى مصر بتجريد الأمير بيسرى بثلاثة آلاف فارس. وخرج البريد من دمشق في الثالثة من يوم الأحد ثامن عشره، فدخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادي عشريه، فخرج بيسري والعسكر بكرة يوم الأربعاء المذكور. وقدم التتار إلى حارم وقتلوه جماعة، وتأخر العسكر الحلبي إلى حماة، ووصل آقسنقر بالعسكر من جينين، فجفل أهل دمشق، وبلغ ثمن الجمل ألف درهم، وأجرته إلى مصر مائتي درهم. ودخل الأمير بيسري بالعسكر المصري إلى دمشق في رابع ربيع الآخر، فخرج السلطان بالعساكر إلى حلب، وجرد الأمير آقسنقر ومعه عدة من العربان إلى مرعش، وجرد الحاج طيبرس الوزيري والأمير عيسي بن مهنا إلى حران والرها. فوصل العسكر إلى حران وقتل من فيها من التتار، وهزم باقيهم.

فورد الخبر بأن الفرنج قد أغاروا على قاقون. بمواعدة التتار، وقتل الأمير حسام الدين الأستادار، وجرح الأمير ركن الدين الجالق، ورحل يجكا العلائي والي قاقون، فخرج السلطان من حلب، ومنع أحدا أن يتقدم حتى لا يعلم الفرنج خبره، ودخل إلى دمشق وبين يديه عدة من التتار المأسورين من حران، وسار الأمير أقوش الشمسي بعسكر عين جالوت، فولى الفرنج منهزمين من قاقون، وتبعهم العسكر فاسترجعوا منهم عدة من التركمان، وقتلوا كثيرا حتى أنه عد ما تلف من خيل الفرنج وبغالهم فكان خمسمائة رأس.

ورحل السلطان إلى دمشق فدخلها ثاني شوال، وحضرت رسل التتار في طلب الصلح. فجهز السلطان إليهم الأمير مبارز الدين الطوري أمير طبر، والأمير فخر الدين القري الحاجب، ومعهما الرسل وهدية لأبغا بن هولاكو وغيره، فساروا في خامس عشره، فلما قدما على أبغا أكرمهما وأخلع عليهما وأعادهما.

سنة إحدى وسبعين وستمائة

في خامس المحرم: دخل السلطان إلى دمشق، وقد تواترت الأخبار بحركة التتار، فركب خيل البريد من دمشق في ليلة سادسه بعد عشاء الآخرة، ومعه الأمير بيسرى، والأمير أقوش الرومي، وجرمك السلاح دار، وجرمك الناصري، وسنقر الألفي السلاح دار، وعلم الدين شقير مقدم البريد. وساق فدخل قلعة الجبل في يوم السبت ثالث عشره على حين غفلة، ولم يشعر الناس إلا وقد دخل باب القلعة راكبا، ثم ركب إلى الميدان ولعب بالكرة، وأمر بتجهيز العساكر إلى الشام. وكتب السلطان إلى الأمراء المقيمين بدمشق، وذكر في الكتب أنه سطرها من البيرة بحكم أنه توجه لتدبير أمورها، وسير علائم بخطه ليكتب عليها من دمشق أجوبة البريد للأطراف، وكان الأمير سيف الدين الدوادار قد أقام بقلعة دمشق ليجهز الكتب والبريدية.

وفي يوم الاثنين خامس عشره: ركب السلطان إلى مصر، وركب في البحر ولعبت الشواني قدامه.

وفي خامس جمادى الأولى: ورد الخبر بنزول التتار على البيرة ونصبهم المجانيق عليها وإنهم قد حفظوا محاوض الفرات ونزلوا عليها، ليعوقوا من يصل إليهم. فجهز السلطان الأمير فخر الدين الحمصي بعدة من عسكر مصر والشام إلى جهة حارم، وجهز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الرزبري في جماعة، ورحل هو من ظاهر دمشق في ثامن عشر جمادى الأولى، ومعه مراكب مفصلة محمولة. وجد للسلطان في المسير حق وصل إلى الفرات، فوجد التتار على الشط، فألقى المراكب التي حملها معه في الفرات وأشحنها بالمقاتلة، فتراموهم والتتار. واقتحم الأمير قلاوون الألفي الصالحي الفرات، فخاض ومعه عدة وافرة، وصدم التتار صدمة فرقهم بها ومزقهم، فألقت الأطلاب أنفسها في الفرات، وساقوا فيها عوما الفارس إلى جانب الفارس، وهم متماسكون بالأعنة ومجاديفهم ورماحهم، وعليهم وعلى خيولهم الحديد، وازدحموا في الماء، فكان لقعقعة السلاح وأمواج الماء هول مفزع وطلع السلطان في أولهم، وصلى في منزلة العدو ركعتين شكرًا لله تعالى، وبث العساكر يمينًا وشمالا، فقتلوا وأسروا عددًا كثيرًا.

وبات العسكر ليلة الاثنين، فورد الخبر بهزيمة التتار من البيرة مع مقدمهم درباي، وتركهم الأثقال والأزواد، وأن أهل البيرة أخذوا ذلك فتقووا به وأقام السلطان ينتظر من يلاقيه من التتار فلم يأت أحد، فعدى بجميع عساكره في الفرات كما فعلوا

أول مرة ونزل بهم في ذلك ما لا يوصف من كثرة المشقة، وعظم الهول حتى طلعت العساكر إلى البر وسار السلطان إلى البيرة، وخلع على نائبها وأعطاه ألف دينار، وعم بالتشاريف والأنعام أهل البيرة، وفرق فيهم مائة ألف درهم فضة، وجرد هناك عدة من العسكر زيادة على من كان فيها، وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث جمادى الآخر والأسرى بين يديه. وخرج السلطان إلى مصر، فوصل قلعة الجبل في خامس عشريه، وأفرج عن الأمير عز الدين الدمياطي، وأنزله بدار الوزارة وأجرى عليه الرواتب، ثم استدعاه وشرب معه القمز، وقد حضر أكابر الأمراء لذلك، فلما ناوله السلطان الهناب بيده وهو مملوء قال عز الدين: يا خوند لقد شبنا وشاب نبيذنا.

وفي ثاني عشري ذي الحجة: استولى السلطان على بقية حصون الدعوة الإسماعيلية: وهي الدينقة والقدموس والكهف، وأقيمت هناك الجمعة وترضى عن الصحابة بها، وعفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره.

* * *

سنة اثنتين وسبعين وستمائة

وفيه وردت الأخبار بحركة الملك أبغا، فخرج السلطان من قلعة الجبل في ليلة سادس عشريه، ومعه الأمير سنقر الأشقر، والأمير بيسرى، والأمير أنامش السعدي. فلما وصل السلطان عسقلان كتب إلى القاهرة بخروج العساكر جميعها والعربان من ديار مصر، صحبه الأمير بيليك الخازندار، ورسم بأن كل من في سائر مملكته له فرس فإنه يخرج إلى الغزاة، وأن تخرج كل قرية من قرى الشام رجالة يركبون الخيل على قدر حالهم، ويقوم من بالقرية بكلفة من يتوجه، ودخل السلطان إلى دمشق في سابع عشر صفر.

فخرج من عساكر مصر في حادي عشره عدة أربعة آلاف فارس، صحبة مقدميهم: وهم الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري، وجمال الدين أقوش الرومي، وعلاء الدين قطليجا، وعلم الدين ططح. ثم خرج في ثامن عشره الأمير بيليك الخازندار بطائفة، فورد مرسوم السلطان على الأمير بيليك بالنزول قريبا من يافا، وعندما قارب عسكر مصر دمشق ركب السلطان من دمشق في نحو أربعين نفسا جرائد بغير ركيدار، وقد طلب العسكر وقارب المنزلة فاعترض السلطان العسكر، وكان قد تلثم هو وجماعته، فظنهم حجاب من بعض التركمان، فأمروهم بالترجل

فأبوا، وساق السلطان بمفرده، وجاء خلف سناجق وحسر لثامه عن وجهه، فعرفه السلاح دارية، ودخل السلطان وساق في ركبه، فنزل الناس وقبلوا الأرض، وسار حتى نزل ورتب العسكر. وأصبح السلطان فركب في موكبه، وقضى أشغال الناس إلى أن أمسى، ثم ركب بمن حضر معه إلى دمشق، وأصبح راكبا في موكبه. وفي مدة غيبته كان الأمير سيف الدين الدوادار يرتب الأمور بدمشق، ويكتب الأجوبة على علائم فوق أوراق بيض.

* * *

سنة ثالث وسبعين وستمائة

وفي ثامن صفر: توجه السلطان من قلعة الجبل، وسار إلى الكرك فأقام بها ثلاثة عشر يوما، وكشف أحوال الشوبك، وعاد إلى قلعة الجبل ثاني عشري ربيع الأول. ثم توجه إلى العباسية ومعه الملك السعيد، فصرع الملك أوزة خبية. وقيل له: لمن تدعي فقال: لمن أدعو بحياته، ومن أتقرب إلى الله بدعواته، الذي حسبي افتخارا أن أقول والدي، ومن يتمرن لصرع أعدائه ساعدي، فقبله السلطان ووهبه من كل شيء.

وفي ثالث شعبان: توجه السلطان من قلعة الجبل إلى الشام، فدخل دمشق في سلخه، وخرج منها في سابع رمضان فدخل حماة، ثم صار منها بالعساكر والعربان. وجرد السلطان عيسى بن مهنا، والأمير حسام الدين العنتابي، بعسكر إلى البيرة، وجهز الأمير قلاوون الألفي والأمير بيليك الخازندار، بعسكر إلى بلاد سيس، فساروا وهجموا النصيصة على الأرمن، وقتلوا من بها، وكانت المراكب قد حملت معهم على البغال وهي مفصلة، ليعدوا فيها من نهر جهان والنهر الأسود، فلم يحتج إليها.

* * *

سنة أربع وسبعين وستمائة

وفي صفر: هذا توجه السلطان أبو يوسف بن عبد الحق ملك المغرب لجهاد الفرنج، فقتل الطاغية في المعركة في نحو ستة آلاف، ولم يقتل من المسلمين إلا نحو ثلاثين رجلا وبلغت الغنائم من البقر مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا، وبلغ الأسرى سبعة آلاف أسير، وعجزت القدرة عن إحصاء الغنم، حتى بيعت الشاة بدرهم، وحمل الكراع على أربعة عشر ألف وستمائة جمل.

وفيها نبش عمال بني مرين قبور خلفاء الموحدين، وأخرجوا عبد المؤمن بن علي وابنه يعقوب المنصور من قبريهما، وقطعت رأسيهما، وضربت أعناق من كان بجبل تينتمل وصلبوا بمراكش وأخذت أموالهم. وفيها بنيت فاس الجديد وصارت دار ملك بني مرين.

* * *

سنة خمس وسبعين وستمائة

في المحرم: سار السلطان من الكرك، فدخل إلى دمشق في رابع عشره، وقدم عليه عدة من أمراء الروم مغاضبين للبرواناه، وهو معين الدين سليمان بن على بن محمد بن حسن، وكان منهم الأمير حسام الدين بينجار الرومي، وبهادر ولده، وأحمد بن بهادر، واثنا عشر من أمراء الروم بأولادهم ونسائهم، من جملتهم قرمشي وسكتاي ابنا قراجين ابن جيفان نوين، فأحسن السلطان إليهم، وبعث حريمهم إلى القاهرة، وأجرى عليهم الأرزاق، ثم وصل الأمير سيف الدين جندر بك صاحب الأبلستين، والأمير مبارز الدين سوار بن الجاشنكير، في كثير من أمراء الروم، فتلقاهم السلطان بنفسه وأكرمهم ثم كتب السلطان إلى الأمراء بمصر يستشيرهم في بعث عسكر إلى الروم، وأن يحضر الأمير بيسري والأمير أقش. مما يتفق الرأي عليه، فحضرا على البريد، ووصل أيضًا الأمير سنقر الأشقر، وتتابع وصول حريم أمراء الروم، فأكرمهم السلطان وجهزهم إلى القاهرة، وسار السلطان إلى حلب، وجرد منها الأمير سيف الدين بلبان الزيني الصالحي في عسكر، فوصلوا إلى عين تاب.

وأما السلطان فإنه نزل بعد هزيمة التتار في منزلتهم، وأحضر إليه من أسر من أمراء المغول، فعفا عنهم وأطلقهم. وقتل في المعركة الأمير ضياء الدين بن الخطير، والأمير سيف الدين قيران العلائي أحد مقدمي الحلقة، وسيف الدين قفجاف الجاشنكير، وعدة من العسكر، وجرح جماعة. وقتل قراوون مقدم التتار في المعركة، وأمر السلطان بقتل من أسر من التتار، وأبقى من أسر من أمراء الروم وأعيانهم معه، وفيهم أم البرواناه، وابنه مهذب الدين على وابن ابنته.

وجرد السلطان الأمير سنقر الأشقر في جماعة، لإدراك المنهزمين من التتر وللتوجه إلى قيسارية، وكتب معه كتابا إلى أهل قيسارية بالأمان وإخراج الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية، فمر الأمير سنقر بفرقة من التتار معهم البيوت، فأخذ منهم جانبا، وأدركه الليل فتفرق من بقي منهم.

وقدم الملك أبغا بن هولاكو بالتتار لمحاربة السلطان، فوافاه البرواناه في الطريق. وكان السلطان قد رحل فتبعه أبغا، وسار إلى الأبلستين حتى عاين القتلى بالمعركة وليس فيهم من الروم ولا من عساكر السلطان إلا القليل، مع كثرة رمم التتار التي هناك فشق عليه ذلك، وكان قد وشي إليه بالبرواناه إنه هو الذي كاتب الملك الظاهر حتى أقدمه إلى بلاد الروم، فخنق لقلة عدد قتلى الروم. وعاد أبغا إلى قيسارية، فنهبها وقتل من بلاد الروم من المسلمين، وأغار التتار مسيرة سبعة أيام، فيقال إنه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد على مائتي ألف نفس، ولم يقتل أحدا من النصارى. وكل القتل من أرزن الروم إلى قيسارية، فيقال إن عدة القتلى كانت خمسمائة ألف، ثم سار أبغا ومعه السلطان غياث الدين صاحب الروم، ووكل بالبرواناه من يحفظه. وسار السلطان بيبرس من حارم إلى أنطاكية، ونزل بمروجها.

* * *

سنة ست وسبعين وستمائة

في خامس المحرم: دخل السلطان من أنطاكية إلى دمشق بعساكره، ونزل بالقصر الأبلق، فكثرت الأخبار بقدوم أبغا إلى الأبلستين وأنه يريد بلاد الشام، فضرب الدهليز على القصر ليخرج السلطان إلى لقائه، فورد الخبر برجوع ألبغا إلى بلاده فرد الدهليز إلى دمشق.

ولما كان في يوم الخميس رابع عشره: جلس السلطان لشرب القمز، وقد عظم سروره وفرحه وتناهى سعده، فأكثر من الشرب، وانقضى المجلس فتوعك بدنه، وأصبح يشكو فتقيأ، وركب بعد الصلاة إلى الميدان، ثم عاد إلى القصر الأبلق آخر النهار وبات فيه، فلما أصبح وهو يشكو حرارة في باطنه، استعمل دواء لم يكن عن رأي طبيب، فلم ينجح وتزايد ألمه، فاستدعى الأطباء، فانكروا استعماله الدواء، واتفقوا على أخذ مسهل وسقوه فلم يفد، فحركوه بدواء آخر فأفرط به الإسهال، وتضاعفت الحمى ورمى دما يقال إنه كبده، فعولج بجواهر ومات.

ولما مات السلطان بيبرس كتم الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطة موته عن العساكر، وحمله في محفة من القصر الأبلق خارج دمشق إلى القلعة في الليل، وجعله في تابوت وعلقه في بيت، وأشاع إنه مريض ورتب الأطباء على العادة، ثم أخذ العساكر والخزائن، ومعه محفة محمولة وأوهم أن السلطان فيها مريض، وخرج من دمشق يريد مصر، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان. واستمر الحال على ذلك حتى وصلت العساكر إلى القاهرة، وصعدت الخزائن والمحفة إلى قلعة الجبل، فأشيع حينئذ موته. والجملة فلقد كان من خير ملوك الإسلام.

* * *

السلطان الملك السعيد ناصر الدين

محمد بركة قان بن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي. لما مات الملك الظاهر بدمشق، كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى الملك السعيد وهو بقلعة الجبل كتابا بموت أبيه، فأظهر الملك السعيد عند ورود الكتاب فرحا كبيرا، وأخلع على من أحضره، وأشاع أن الكتاب يتضمن البشارة بعود الملك الظاهر إلى ديار مصر، وأصبح فركب الأمراء على العادة تحت القلعة، من غير أن يظهر عليهم شيء من الحزن.

وتغير السلطان على الأمراء، وقبض في سابع عشره على الأمير جودي القيمري الكردي فنفرت منه قلوب الأمراء لا سيما الصالحية: مثل الأمير سيف الدين قلاوون، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير بدر الدين، بيسري، وأقرانهم فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم، ويرون أنهم أحق منه بالملك، فصار ابنه الملك السعيد يضع من أقدارهم، ويقدم عليهم مماليك الأصاغر، ويخلو بهم وكانوا صباح الوجوه، ويعطهم مع ذلك الأموال الكثيرة، ويسمع من رأيهم ويبعد الأمراء الكبار.

واستمر الحال على هذا إلى أن كان يوم الجمعة خامس عشريه، وفيه قبض السلطان على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسري، وسجنهما بالقلعة ثلاثة وعشرين يوما، فزادت الوحشة بينه وبين الأمراء، ودخل خاله الأمير بدر الدين محمد بركة خان إلى أخته أم السلطان، وقال لها: قد أساء ابنك التدبير بقبضه على مثل هؤلاء الأمراء الأكابر، والمصلحة أن ترديه إلى الصواب، لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه. فلما بلغ الملك السعيد ذلك قبض عليه. واعتقله، فلم تزل به أمه تعنفه وتتلطف به، حتى أطلقهم وخلع عليهم وأعادهم إلى ما كانوا عليه، وقد تمسكت عداوته من قلوبهم.

وتوهم منه بقية الأمراء، وخشوا أن يعاملهم كما عامل الأمير بيليك الخازندار، مع حفظة له الملك وتسليم الخزائن والعساكر إليه، فلم يكافئه إلا بأن قتله بالسم. فاجتمع الأمراء وهموا أن يخرجوا عنه إلى بلاد الشام، ثم اتفقوا وصعدوا إلى قلعة الجبل، ومعهم مماليكهم وألزامهم وأجنادهم وأتباعهم، ومن انضم إليهم من العساكر، فامتلأ منهم الإيوان ورحبة القصر، وبعثوا إلى الملك السعيد: بأنك قد أفسدت الخواطر، وتعرضت إلى أكابر الأمراء، فإما أن ترجع عما أنت عليه: وإلا كان لنا

ولك شان. فلاطفهم في الجواب، وتنصل مما كان منه، وبعث إليهم التشاريف فلم يلبسوها، وترددت الأجوبة بينهم وبينه إلى أن تقرر الصلح، وحلف لهم إنه لا يريد بهم سوءا، وتولى تحليفه الأمير بدر الدين الأيدمري وفرضوا وانصرفوا.

* * *

سنة سبع وسبعين وستمائة

وفي، شوال خرج الملك السعيد من قلعة الجبل يريد التفرج في دمشق، ومعه أخوه نجم الدين خضر، وأمه وأمراؤه وعساكره، فدخل إلى دمشق في خامس ذي الحجة.

* * *

سنة ثمان وسبعين وستمائة

في المحرم: قرر الخاصكية مع الملك السعيد القبض على الأمراء عند عودهم من سيس، وعينوا إقطاعتهم لأناس منهم، وكان الأمير كوندك النائب مطلع على ذلك. واستغرق السلطان في لذاته، وبسط يده بعطاء الأموال الكثيرة لخاصكيته، وخرج عن طريقة أبيه، وفي أثناء ذلك حدث بين الأمير كوندك النائب وبين الخاصكية منافرة، بسبب أن السلطان أطلق لبعض السكة ألف دينار فتوقف النائب في إطلاقها، فاجتمع الخاصكية عند النائب وقاضوه في أمر المبلغ، وأسمعوه ما يكره، وقاموا على حرد، وتكلموا مع السلطان في عزله عن النيابة، فامتنع، وأخذ الخاصكية في الإلحاح عليه بعزل كوندك، وعجز عن تلافي أمرهم معه.

وأما الأمراء فإنهم غزوا سيس وقتلوا وسبوا، وسار الأمير بيسري إلى قلعة الروم، وعاد هو والأمراء إلى دمشق ونزلوا بالمرج، فخرج الأمير كوندك إلى لقائهم على العادة، وأخبرهم. مما وقع من الخاصكية في حقهم وحقه، فحرك قوله ما عندهم من كوامن الغضب، وتحالفوا على الاتفاق والتعاون، وبعثوا من المرج إلى السلطان يعلمونه إنهم مقيمون بالمرج، وأن الأمير كوندك شكي إليهم من لاجين الزيني شكاوى كثيرة، ولا بد لنا من الكشف عنها، وسألوا السلطان أن يحضر إليهم حتى يسمعوا كلامه وكلام كوندك.

فلما بلغ بذلك السلطان ذلك لم يعبأ بقولهم، وكتب إلى من معهم من الأمراء الظاهرية يأمرهم. بمفارقة الصالحية ودخول دمشق. فوقع القاصد الذي معه الكتب في يد أصحاب كوندك، فأحضر إلى الأمراء ووقفوا على الكتب التي معه، فرحلوا من فورهم ونزلوا على الجورة من جهة داريا، وأظهروا الخلاف، ورموا الملك السعيد بأنه قد أسرف وأفرط في سوء الرأي وأفسد التدبير.

فخاف السلطان عند ذلك سوء العاقبة، وبعث إليهم الأمير سنقر الأشقر، والأمير سنقر التكريتي الإستادار، ليلطفا بهم ويعملا الحيلة في إحضارهم، فلم يوافقوا على ذلك. وعادا إلى السلطان فزاد قلقه، وترددت الرسل بينه وبين الأمراء، فاقترحوا عليه إبعاد الخاصكية، فلم يوافق، وبعث السلطان بوالدته مع الأمير سنقر الأشقر لتسترضيهم، فحدثتهم وخضعت لهم فما أفاد فيهم ذلك شيئا، وعادت بالخيبة.

فرحل الأمراء بمن معهم من العساكر إلى مصر وتبعهم الملك السعيد ليلحقهم ويتلافى أمرهم فلم يدركهم فقاد إلى دمشق وبات بها. وأصبح الملك السعيد فجهز أمه وخزائنه إلى الكرك وجمع من بقي من عساكر مصر والشام واستدعى العربان وأنفق فيهم. وسار من دمشق بالعساكر يريد مصر فنزل بلبيس في نصف ربيع الأول وكان قد سبقه الأمير قلاوون بمن معه إلى القاهرة ونزلوا تحت الجبل الأحمر.

فبلغ ذلك الأمراء الذين بقلعة الجبل وهم الأمير عز الدين أيبك أمير جاندار والأمير أفطوان الساقي والأمير بلبان الزربقي فامتنعوا بها وحصنوها وتقدموا إلى متولي القاهرة فسد أبوابها فراسلهم قلاوون والأمراء في فتح أبواب القاهرة ليدخل العسكر إلى بيوتهم ويبصروا أولادهم فإن عهدهم بعد بهم ونزل الأمير لاجين البركخاي وأيبك الأفرم وأقطون إلى الأمراء لمعرفة الخبر فقبضوا عليهم وبعثوا إلى القاهرة ففتحت أبوابها ودخل كل أحد إلى داره وسجن الثلاثة الأمراء في دار الأمير قلاوون بالقاهرة وزحفوا إلى القلعة وحاصروها وقد امتنع بها بلبان الزريقي.

وأما السلطان فإنه لما نزل بلبيس وبلغه خبر الأمراء خامر عليه من كان معه من عسكر الشام وتركوه في بلبيس وعادوا إلى دمشق وبها الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام فصاروا إليه ولم يبق مع السلطان إلا مماليكه ومنهم الأمير لاجين الزيني ومغلطاي الدمشقي ومغلطاي الجاكي وسنقر التكريتي وأيدغدي الحراني والبكي الساقي وبكتوت الحمصي وصلاح الدين يوسف بن بركة خان ومن يجري مجراهم ولم يبق معه من الأمراء الكبار إلا الأمير سنقر الأشقر فقط فسار السلطان من بلبيس ففارقه الأشقر من المطرية وأقام بموضعه.

وبلغ الأمراء أن السلطان جاء من خلف الجبل الأحمر فركبوا ليحولوا بينه وبين القلعة وكان الضباب كثيرا فنجا منهم واستتر عن رؤيتهم وطلع إلى المقدمة فلما انكشف الضباب بلغ الأمراء أن السلطان بالقلعة فعادوا إلى حصارها وعندما استقر السلطان بالقلعة تشاجر لاجين الزيني مع الزربقي فنزل الزربقي إلى الأمراء وصار معهم وتبعه المماليك شيئا بعد شيء. وصار السلطان يشرف من برج الرفرف المطل على الإسطبل ويصيح بهم: يا أمراء أرجع إلى رأيكم ولا أعمل إلا ما تقولونه فليجبه أحد منهم وأظهروا كتبا عنه يطلب فيها جماعة من الفداوية لقتلهم وأحاطوا بالقلعة وحصروه، وكان الأمير سنجر الحلبي معتقلا بالقلعة، فأخرجه السلطان وصار معه، فاستمر الحصار مدة أسبوع.

ولما طال الحصار بعث السلطان الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد، يقول: يا أمراء إيش غرضكم؟ فقالوا: يخلع الملك السعيد نفسه من الملك ونعطيه الكرك، فأذعن السعيد لذلك، وحلف له الأمراء، وحضر الخليفة والقضاة، الأعيان، وأنزل بالملك السعيد، وأشهد عليه أنه لا يصلح للملك.

وخلع السعيد نفسه، وحلف أنه لا يتطرق إلى غير الكرك، ولا يكاتب أحدا من النواب، ولا يستميل أحد من الجند، وسفر من وقته إلى الكرك مع الأمير بيدغان الركني، وذلك في سابع شهر ربيع الآخر، فكانت مدة ملكه من حين وفاة أبيه إلى يوم خلعه سنتين وشهرين وثمانية أيام، موصل إلى الكرك وسلمها في خامس عشري جمادى الآخرة، واحتوى على ما فيها من الأموال وكانت شيئا كثيرا.

* * *

السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش

وهو ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي. لما تم خلع الملك السعيد وسافر إلى الكرك، عرض الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون الألفي فامتنع وقال: أنا ما خلعت الملك السعيد طمعا في السلطنة، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر. فاستحسن ذلك منه، لأن الفتنة سكنت فإن الظاهريه كانوا معظم العسكر، وكانت القلاع بيد نواب الملك السعيد، وقصد قلاوون بهذا القول أن يتحكم حتى يغير النواب ويتمكن مما يريد، فمال الجميع إلى قوله وصوبوا رأيه، واستدعوا سلامش، واتفقوا أن يكون الأمير قلاوون أتابكه، وأن يكون إليه أمر العساكر وتدبير الممالك، فحضر سلامش وله من العمر سبع سنين وأشهر، وحلف العسكر جميعه على إقامته سلطانا، وإقامة الأمير قلاوون أتابك العساكر، ولقبوه الملك العادل بدر الدين، فاستقر الأمر على ذلك. وأقيم الأمير عز الدين أيبك الأفرم في نيابة السلطنة، واستقر قاضي القضاة برهان الدين خضر بن الحسن السنجاري في الوزارة.

وشرع الأمير قلاوون في القبض على الأمراء الظاهرية، فقبض على أعيانهم وبلغهم إلى الثغور فسحنوا بها، وأمسك أيضًا كثيرا من الظاهرية وملأ الحبوس بهم، وأعطى قلاوون ومنع وقطع، ووصل واستخدم وعزل، فكان صورة أتابك وتصرفه تصرف الملوك. واشتغل الأمير بيسري باللهو والشرب، فانفرد الأتابك قلاوون بالمملكة وأجد في تدير أحواله وفرق قلاوون على المماليك واستمالهم، وقرب الصالحية وأعطاهم الإقطاعات، وكبر منهم جماعة كانوا قد نسوا وأهملوا، وسير عدة منهم إلى البلاد الشامية واستنابهم في القلاع، وتتبع ذراريهم وأخذ كثيرا منهم كانوا قد تصنفوا بالصنائع والحرف، فرتب طائفة منهم في البحرية، وقرر لجماعة منهم جامكية، فعادت لهم السعادة، وقوي بهم جانبه وتمكنت أسبابه، ثم جمع قلاوون الأمراء في العشرين من رجب وتحدث معهم في صغر سن الملك العادل، وقال لهم: قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل، إلى أن اتفقوا على خلع سلامش فخلعوه، وبعثوا به إلى الكرك وكانت مدة ملكه مائة يوم، ولم يكن حظه من الملك سوى الاسم فقط، وجميع الأمور إلى الأتابك قلاوون.

* * *

السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون

الألفي الصالحي النجمي العلائي كان من جنس القبجاق، ومن قبيلة برج أغلي، فجلب إلى مصر وهو صغير، واشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر الساقي العادلي أحد مماليك الملك العادل أبي بكر بن أيوب بألف دينار، فعرف من أحل ذلك بالألفي.

فلما مات أستاذه الأمير علاء الدين صار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في عدة من المماليك، فعرفوا بالعلائية، وذلك في سنة سبع وأربعين وستمائة وجعل الملك الصالح قلاوون من جملة المماليك البحرية، ومازال حتى كانت وفاة الملك الصالح، ثم إقامة شجر الدر بعد الملك توران شاه بن الصالح. فلما قام المعز أيبك في سلطنة مصر، وقتل الفارس أقطاي، خرج قلاوون من مصر فيمن خرج من البحرية. وتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر بديار مصر في سلطنة الملك العادل سلامش بن الظاهر، في سابع شهر ربيع الآخر، وصار يذكر اسمه مع اسم العادل على المنابر وتصرف تصرف الملوك مدة ثلاثة أشهر، إلى أن وقع الاتفاق على خلع العادل وإقامة قلاوون.

وقدمت رسل الفونش بكتب للملك السعيد وهدية، فقبض على هديتهم وكتبهم، وأعيدوا في خامس عشر شوال.

وفي رابع عشريه: صرف النصارى من ديوان الجيوش، وأقيم بدلهم كتاب مسلمون، فاستقر أمين الدين شاهد صندوق النفقات في كتابة الجيش، عوضًا عن الأسعد إبراهيم النصراني.

وفيه هدم دير الخندق خرج باب الفتوح من القاهرة، واجتمع لهدمه عالم كثير، وكان يومًا مشهودًا.

وفي حادي عشره: مات الملك السعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس بالكرك، وكان قد ركب في الميدان فتقنطر عن فرسه وهو يلعب بالكرة، فصدع وحم أيامًا، ومات وعمره نيف وعشرون سنة، فاتهم أنه سم.

* * *

سنة تسع وسبعين وستمائة

في يوم الخميس أول المحرم: ركب الملك الكامل سنقر الأشقر بشعار السلطنة من قلعة دمشق إلى الميدان الأخضر، وبين يديه الأمراء مشاة بالخلع، ثم عاد.

وفي يوم الجمعة ثانيه: خطب له على منبر الجامع بدمشق، وكتب إلى الأمير عز الدين الأفرم وهو بالكرك يعتذر عن قيامه، وأتبع الكتاب بعسكر. فلما ورد كتابه جهزه الأفرم إلى السلطان بمصر، فكتب السلطان عند وروده إلى الأشقر يقبح فعله، وكتب أمراء مصر إليه بذلك، ويحثونه على الإذعان وترك الفتنة. وسار بالكتب بلبان الكريمي، فوصل دمشق في ثامنه، وخرج سنقر الأشقر إلى لقائه وأكرمه، ولم يرجع عما هو فيه.

ولما بلغ سنقر الأشقر كسرة عسكره، جمع وحشد وبعث إلى الأمراء بغزة يعدهم ويستميلهم، فقدم عليه شهاب الدين أحمد بن حجي أمير العربان بالبلاد القبلية، والأمير شرف الدين عيسى بن مهنا أمير العربان بالبلاد الشرقية والشمالية، وأتته النجدات من حلب وحماة ومن جبال بعلبك، واستخدم عدة كبيرة وبذل فيهم المال، وكثرت عنده بدمشق الأرجاف أن عسكر مصر قد سار إليه، فاشتد استعداده. وجرد السلطان من القاهرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، ومعه الأمير بدر الدين الأيدمري والأمير حسام الدين أيتمش بن أطلس خان في أربعة آلاف فارس. فسار إلى غزه، واجتمعوا مع الأمير عز الدين الأفرم والأمير بدر الدين الأيدمري، وساروا جميعا والمقدم عليهم علم الدين سنجر الحلبي، فرحل عسكر سنقر الأشقر من الرملة إلى دمشق. فخرج سنقر الأشقر في ثاني عشر صفر بعساكره وخيم بالجسورة خارج دمشق، ونزل عسكر مصر الكسوة والعقوة في يوم الاثنين سابع عشره بالجسورة. فوقعت الحرب في تاسع عشره، وثبت سنقر الأشقر وأبلى بلاء عظيما، ثم خامر من عسكره طائفة كبيرة إلى عسكر مصر، وانهزم كثير منهم، ورجع عسكر حلب وحماة عنه إلى بلادهم، وتخاذل عنه عسكر دمشق، وحمل عليه الأمير سنجر الحلبي فانهزم منه. وهرب سنقر الأشقر وتبعه من خواصه الأمير عز الدين أزدمر الحاج، والأمير علاء الدين السبكي، والأمير شمس الدين قراسنقر المعزي، والأمير سيف الدين بلبان الحبيشي، وساروا معه هم والأمير عيسى بن مهنا إلى برية الرحبة وأقاموا بها أياما، وتوجهوا إلى الرحبة، وكان سنقر قبل ذلك قد بعث حرمه وأمواله إلى صهيون. وأسر يومئذ أحد عشر أميرا: منهم بدر الدين سنجق البغدادي، وبدر

الدين بيليك الحلبي، وعلم الدين سنجر التكريتي، وبهاء الدين تملك الناصري، وباشقرد الناصري، ونوديه الناصري.

ولما انهزم سنقر الأشقر تفرق عسكره في سائر الجهات، وغلقت أبواب دمشق، وزحف عسكر مصر إليها وأحاطوا بها، ونزلوا في الخيام ولم يتعرضوا لشيء. وأقام الأمير سنجر الحلبي بالقصر الأبلق في الميدان الأخضر خارج دمشق، فلما أصبح أمر فنودي بالأمان. وكان بقلعة دمشق الأمير سيف الدين الجكندار، وهو متولها من جهة سنقر الأشقر، فأفرج عن الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق، والأمير حسام الدين لاجين المنصوري، والصاحب تقي الدين توبه، وحلفهم ألا يؤذوه إذا أطلقهم. ثم فتح باب القلعة، ونزل لاجين إلى باب الفرج فوقف عليه، ومنع العسكر من دخول المدينة.

وتوجه السلطان من مصر بالعساكر إلى البلاد الشامية يريد لقاء التتار، بعد ما أنفق في كل أمير ألف دينار، وفي كل جندي خمسمائة درهم، واستخلف على مصر بقلعة الجبل ابنه الملك الصالح عليا. فسار السلطان إلى غزة، وقدم عليه بغزة من كان في البلاد الشامية من عساكر مصر، وقدم عليه أيضًا طائفة من أمراء سنقر الأشقر فأكرمهم. ولم ينزل السلطان بغزة إلى عاشر شعبان، فرحل منها عائدًا إلى مصر، بعد أن بلغه رجوع التتر، وكانت غيبته خمسين يومًا. وولي الأمير بدر الدين درباس ولاية جينين ومرج بني عامر.

* * *

سنة ثمانين وستمائة

فيها سار السلطان قلاوون من ظاهر القاهرة، فأتته رسل الفرنج وهو بمنزلة الروحا في تقرير الهدنة، فتقررت بين مقدم بيت الإسبتار وسائر الإسبتارية بعكا، وبين السلطان وولده الملك الصالح لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم السبت ثاني عشري المحرم.

وتقررت الهدنة أيضًا مع متملك طرابلس الشام بيتند بن بيمند لمدة عشر سنين، أولها سابع عشري شهر ربيع الأول. وعادت الرسل، وتوجه الأمير فخر الدين أياز المقري الحاجب لتحليف الفرنج ومقدم الإسبتار على ذلك، فخلفهم.

وفيه ورد الخبر بدخول منكوتمر أخي ابغا بن هولاكو بن طلوي بن جنكزخان

إلى بلاد الروم بعساكر المغل، وأنه نزل بين قيسارية والأبلستين. فبعث السلطان الكشافة، فلقوا طائفة من التتر أسروا منهم شخصا وبعثوا به إلى السلطان، فقدم إلى دمشق في العشرين من جمادى الأولى، فآتاه السلطان ولم ينزل به حتى أعلمه أن التتر في نحو ثمانين ألفا، وإنهم يريدون بلاد الشام في أول رجب.

ووصل التتار إلى أطراف بلاد حلب، وقدم منكوتمر إلى عين تاب، ونازل الملك أبغا قلعة الرحبة في سادس عشرى جمادى الآخرة، ومعه نحو ثلاثة آلاف فارس. وتقدم منكوتمر قليلاً قليلا حتى وصل حماة، وأفسد نواحيها وخرب جواسق الملك المنصور صاحب حماة وبستانه فورد الخبر إلى السلطان بذلك وهو على حمص، وأن منكوتمر في خمسين ألفا من المغل وثلاثين ألفا من الكرج والروم والأرمن والفرنجة، وأنه قد قفز إليه مملوك الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجالق ودله على عورات المسلمين.

ثم ورد الخبر بأن منكوتمر قد عزم أن يرحل عن حماة، ويكون اللقاء في يوم الخميس رابع عشر رجب. واتفق عند رحيله أن يدخل رجل منهم إلى حماة وقال للنائب: اكتب الساعة إلى السلطان على جناح الطائر بأن القوم ثمانون ألف مقاتل، في القلب منهم أربعة وأربعون ألفا من المغل وهم طالبون القلب، وميمنتهم قوية جدا، فيقوي ميسرة المسلمين، ويحترز على السناجق. فسقط الطائر بذلك وعلم بمقتضاه، وبات المسلمون على ظهور خيولهم.

وعند إسفار الصباح من يوم الخميس رابع عشر شهر وجب: ركب السلطان ورتب العساكر: فجعل في الميمنة الملك المنصور صاحب حماة، والأمير بدر الدين بيسري، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيري، والأمير عز الدين أيبك الأفرم، والأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي، ومضافيهم، وجعل في رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا، وآل فضل وآل مرا وعربان الشام، ومن انضم إليهم، وجعل في الميسرة الأمير سنقر الأشقر ومن معه من الأمراء، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمري، والأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح، والأمير علم الدين سنجر الحلبي، والأمير بجكا العلائي، والأمير بدر الدين بكتوت العلائي، والأمير سيف الدين حيرك التتري، ومضافيهم، وجعل في رأس الميسرة التركمان بجموعهم، وعسكر حصن الأكراد، وجعل في الجاليش وهو مقدمة القلب الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بديار مصر، ومن معه من مضافيه والأمير ركن الدين أياجي الحاجب والأمير بدر الدين بكتاش بن كرمون، والمماليك السلطانية ووقف السلطان

تحت الصناجق، ومعه خاصته وألزامه وأرباب الوظائف، فكانت عمدة حلقته أربعة آلاف فارس وهي أقوى وأشد، وعدة مماليك السلطان ثمانمائة مملوك. وكان في العسكر حشو كثير من الأمراء الأكراد والتركمان سوى أمراء مصر والشام. ثم اختار السلطان من مماليكه مائتي فارس، وانفرد عن العصائب ووقف على تل، فكان إذا رأي طلبا قد اختل أردفه بثلاثمائة من مماليكه.

فأشرفت كراديس التتار وهم مثلا عساكر المسلمين، ولم يعتدوا منذ عشرين سنة مثل هذه العدة، ولا جمعوا مثل جمعهم هذا، فإن أبغا عرض من سيره صحبة أخيه منكوتمر فكانوا خمسة وعشرين ألف فارس منتخبة. فالتحم القتال بين الفريقين بوطاة حمص، قريبا من مشهد خالد بن الوليد، ويوم الخميس رابع عشر رجب، من ضحوة النهار إلى آخره، وقيل من الساعة الرابعة. فصدمت ميسرة التتار ميمنة المسلمين صدمة شديدة ثبتوا لها ثباتا عظيما، وحملوا على ميسرة التتار فانكسرت وانتهت إلى القلب وبه منكوتمر. وصدمت ميمنة التتر ميسرة المسلمين، فانكسرت الميسرة وانهزم من كان فيها، وانكسر جناح القلب الأيسر. وساق التتر خلف المسلمين حتى انتهو إلى تحت حمص وقد غلقت أبوابها، ووقعوا في السوقة والعامة والرجالة والمجاهدين والغلمان بظاهر حمص، فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأشرف الناس على التلاف.

ولم يعلم المسلمون من أهل الميسرة. بما جرى للمسلمين أهل الميمنة من النصر ولا علم التتار الذين ساقوا خلف المسلمون ما نزل. بميسرتهم من الكسرة، ووصل إلى بعض المنهزمين إلى صفد، وكثير منهم دخل دمشق، ومر بعضهم إلى غزة، فاضطرب الناس بهذه البلاد وانزعجوا انزعاجًا عظيما.

وأما التتر الذين ساقوا خلف المنهزمين من المسلمين أصحاب الميسرة، فإنهم نزلوا عن خيولهم وأيقنوا بالنصر، وأرسلوا خيولهم توعي في مرج حمص، وأكلوا ونهبوا الأثقال والوطاقات والخزانة وهم يحسبون أن أصحابهم ستدركهم، فلما أبطأوا عليهم بعثوا من يكشف الخبر، فعادت كشافتهم وأخبرتهم أن منكوتمر هرب، فركبوا وردوا راجعين. هذا ما كان من أمر ميمنة التتار وميسرة المسلمين.

وأما ميمنة المسلمين فإنها ثبتت وهزمت ميسرة التتار حتى انتهت إلى القلب، إلا الملك المنصور قلاوون فإنه ثبت تحت الصناجق، ولم يبق معه غير ثلاثمائة فارس، والكوسات تضرب. وتقدم سنقر الأشقر، وبيسري، وطيبرس الوزيري، وأمير سلاح، وأيتمش السعدي، ولاجين نائب دمشق، وطرنطاي نائب مصر، والدواداري، وأمثالهم

من أعيان الأمراء، إلى التتار، وأتاهم عيسى بن مهنا فيمن معه، فقتلوا من التتار مقتلة عظيمة.

وكان منكوتمر مقدم التتار قائمًا في جيشه، فلما أرداه الله من هزيمته نزل عن فرسه ونظر من تحت أرجل الخيل، فرأي الأثقال والدواب فاعتقد أنها عساكر، ولم يكن الأمر كذلك، بل كان السلطان قد تفرقت عنه عساكره ما بين منهزم ومن متقدم القتال، حتى بقي معه نحو الثلاثمائة فارس لا غير. فنهض منكوتمر من الأرض ليركب فتقنطر عن فرسه، فنزل التتر كلهم لأجله وأخذوه. فعندما رآهم المسلمون قد ترجلوا حملوا عليهم واحدة كان الله معهم فيها، فانتصروا على التتار.

وقيل: إن الأمير عز الدين أزدمر الحاج حمل في عسكر التتار وأظهر أنه من المنهزمين، فقدمهم وسال أن يوصل إلى منكوتمر، فلما قرب منه حمل عليه وألقاه عن فرسه إلى الأرض، فلما سقط نزل التتار إليه من أجل إنه وقع، فحمل المسلمون عليهم عند ذلك، فلم يثبت منكوتمر وانهزم وهو مجروح، فتبعه جيشه وقد افترقوا فرقتين: فرقة أخذت نحو سلمية والبرية، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات.

وأما ميمنة التتار التي كسرت ميسرة المسلمين، فإنها لما رجعت من تحت حمص كان السلطان قد أمر أن تلف الصناجق ويبطل ضرب الكوسات، فإنه لم يبق معه إلا نحو الألف، فمرت به التتار ولم تعرض له، فلما تقدموه قليلا ساق عليهم، فانهزموا هزيمة قبيحة لا يلوون على شيء. وكان ذلك تمام النصر، وهو عند غروب الشمس من يوم الخميس. ومر هؤلاء المنهزمون من التتار نحو الجبل يريدون منكوتمر، فكان ذلك من تمام نعمة الله على المسلمين، وإلا لو قدر الله أنهم رجعوا على المسلمين لما وجدوا فيهم قوة، ولكن الله نصر دينه، وهزم عدوه مع قوتهم وكثرتهم. وانجلت هذه الواقعة عن قتلى كثيرة من التتر لا يحصى عددهم.

وعاد السلطان في بقية يومه إلى منزلته بعد انقضاء الحرب، وكتب البطائق بالنصرة ولم يفقد كثير شيء من ماله، فإنه كان قد فرق ما في الخزائن على مماليكه أكياسا في كل كيس ألف دينار ليحملوه على أوساطهم فسلم له المال. وبات ليلة الجمعة إلى السحر في منزلته، فثار صياح لم يشك الناس في عود التتار، فبادر السلطان وركب وسائر العساكر، فإذا العسكر الذي تبع التتار وقت الهزيمة قد عاد.

وقتل من التتار في الهزيمة أكثر ممن قتل في المصاف، واختفى كثير منهم يجانب الفرات. فأمر السلطان أن تضرم النيران بالأزوار التي على الفرات، فاحترق منهم طائفة عظيمة، وهلك كثير منهم في الطريق التي سلكوها من سلمية.

سنة إحدى وثمانين وستمائة

وفيه وصلت رسل الملك أحمد أغا سلطان بن هولاكو، وهم الشيخ مطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي قاضي سيواس، والأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود صاحب الروم، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين بن التيتي، وزير ماردين. وكانوا عند قدومهم إلى البيرة قد سار إليهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي والأمير سيف الدين كبك الحاجبان، وقد أمرا أن يبالغا في الاحتراز على الرسل وإخفائهم عن كل أحد. واحترزا عليهم حتى لم يشاهدهم أحد، وسارا بهم في الليل حتى قدموا قلعة الجبل بكتاب الملك أحمد: وفيه أنه مسلم، وأنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف، وأمر بتجهيز الحجاج.

ومات منكوتمر بن طوغان بن باطو بن دوشي خان بن جنكزخان، ملك التتر ببلاد الشمال. وملك بعده أخوه تدان منكو، وجلس على كرسي الملك. بمدينة صراي.

* * *

سنة اثنين وثمانين وستمائة

وفي سادسه: توجه السلطان، إلى بر الجيزة، وسار إلى البحيرة لحفر الخليج المعروف بالطبرية، ومعه صاحب حماة.

وفي رابع عشره: وصلت رسل صاحب بلاد سيلان من أرض الهند واسمه أبو أنكيه بكتابه. وهو صحيفة ذهب عرض ثلاثة أصابع في طول نصف ذراع بداخلها شيء أخضر يشبه الخوص، مكتوب فيه بقلم لم يوجد في القاهرة من يحسن قراءته، فسئل الرسل عنه فقالوا " إنه يتضمن السلام والمحبة وإنه ترك صحبة صاحب اليمن وتعلق بمحبة السلطان، ويريد أن يتوجه إليه رسول، وذكر أن عنده أشياء عدها من الجواهر والفيلة والتحف ونحوها، وأنه عبأ تقدمة إلى أبواب السلطان، وأن في مملكة سيلان سبعا وعشرين قلعة، وبها معادن الجواهر والياقوت، وأن خزائنه ملآنة من الجواهر ".

وفي جمادى الأولى: خرج أرغون بن أبغا على عمه تكدار المسمى أحمد سلطان بخراسان، فسار إليه وقتله وهزمه ثم أسره، فقامت الخواتين مع أرغون، وسألن الملك تكدار أحمد في الإفراج عنه وتوليته خراسان، فلم يرض بذلك.

سنة ثلاث وثمانين وستمائة

وورد الخبر بقتل القان تكدار ويدعى أحمد أغا سلالان بن هولاكو، وتملك أرغون ابن أبغا بن هولاكو من بعده.

وفي أول ربيع الآخر: ورد الخبر بحركة الفرنج لأخذ الشام، فتجهز السلطان للسفر وركب بعساكره في يوم الأحد ثامن جمادى الأولى، وتوجه من قلعة الجبل إلى دمشق.

وفي يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة: دخل السلطان إلى دمشق، فقدم القصاد من بلاد التتار بقتل أحمد أغا وولاية أرغون.

* * *

سنة أربع وثمانين وستمائة

وقدم السلطان دمشق في ثاني عشريه، ثم سار منها ونازل حصن المرقب وهو حصن الإسبتار ثمانية وثلاثين يوما، حتى أخذه من الفرنج عنوة يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الأول، وأخرج من فيه إلى طرابلس.

* * *

سنة خمس وثمانين وستمائة

في ثاني المحرم: سار الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة بعسكر كثيف إلى الكرك، فتلقاه عسكر دمشق صحبة الأمير بدر الدين الصوابي، فتوجه معه إليها، وضايقها وقطع الميرة عنها حتى بعث الملك المسعود خضر ابن الظاهر بيبرس يطلب الأمان. فبعث إليه السلطان الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار من قلعة الجبل بالأمان فنزل الملك المسعود وأخوه بدر الدين سلامش إلى الأمير طرنطاي في خامس صفر. واستقر الأمير عز الدين أيبك الموصلي نائب الشوبك في نيابة الكرك.

ووردت البشارة بأخذ الكرك إلى قلعة الجبل في ثامنه. وقدم الأمير طرنطاي بأولاد الظاهر إلى القاهرة، فخرج السلطان إلى لقائه في ثاني عشر ربيع الأول.

* * *

سنة ست وثمانين وستمائة

وفي سادس ذي الحجة: توجه الأمير علم الدين سنجر المسروري المعروف بالخياط متولي القاهرة، والأمير عز الدين الكوراني، إلى غزو بلاد النوبة. وجرد السلطان معهما طائفة من أجناد الولايات بالوجه القبلي والقراغلامية، وكتب إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفي السلاح درا متولي قوص أن يسير معهما بعدته ومن عنده من المماليك السلطانية المركزين بالأعمال القوصية، وأجناد مركز قوص، وعربان الإقليم: وهم أولاد أبي بكر وأولاد عمر، وأولاد شيبان وأولاد الكنز وبني هلال، وغيرهم. فسار الخياط في البر الغربي بنصف العسكر، وسار أيدمر بالنصف الثاني من البر الشرقي، وهو الجانب الذي فيه مدينة دمقلة.

فلما وصل العسكر أطراف بلاد النوبة أخلى ملك النوبة سمامون البلاد، وكان صاحب مكر ودهاء وعنده بأس. وأرسل سمامون إلى نائبة بجوائز ميكائيل وعمل الدو واسمه جريس ويعرف صاحب هذه الولاية عند النوبة بصاحب الجبل يأمره بإخلاء البلاد التي تحت يده أمام الجيش الزاحف، فكانوا يرحلون والعسكر وراءهم منزلة بمنزلة حتى وصلوا إلى ملك النوبة بدمقلة، مخرج سمامون وقاتل الأمير عز الدين أيدمر قتالاً شديدًا، فانهزم ملك النوبة وقتل كثير ممن معه واستشهد عدة من المسلمين. فتبع العسكر ملك النوبة مسيرة خمسة عشر يوما من رواء دمقلة إلى أن أدركوا جريس وأسروه، وأسروا أيضًا ابن خالة الملك وكان من عظمائهم، فرتب الأمير عز الدين في مملكة النوبة ابن أخت الملك، وجعل جريس نائبا عنه، وجرد معهما عسكرًا، وقرر عليهما قطعة يحملانها في كل سنة، ورجع بغنائم كثيرة ما بين رقيق وخيول وجمال وأبقار وأكسية.

* * *

سنة سبع وثمانين وستمائة

وفيه كتب إلى الأكابر ببلاد السند والهند والصين واليمن صورة أمان لمن اختار الحضور إلى ديار مصر وبلاد الشام، من إنشاء فتح الدين بن عبد الظاهر، وسير مع التجار.

وأما النوبة فإنه عامون ملكها رجع بعد خروج العسكر إلى دمقلة، وحارب من بها وهزمهم، وفر منه الملك وجرتس والعسكر المجرد، وساروا إلى القاهرة، فغضب السلطان وأمر بتجهيز العسكر لغزو النوبة.

وفي حادي عشر شعبان: فوض السلطان ولاية العهد لابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، فركب بشعار السلطنة من قلعة الجبل إلى باب النصر، وعبر إلى القاهرة وخرج من باب زويلة، وصعد إلى القلعة وسائر الأمراء وغيرهم في خدمته، ودقت البشائر. وحلف القضاة له جميع العسكر، وخلع على سائر أهل الدولة، وخطب له بولاية العهد واستقر على قاعدة أخيه الصالح على، وكتب بذلك إلى سائر البلاد، وكتب له تقليد فتوقف السلطان من الكتابة عليه.

وفي ثاني شهر رمضان: استقر في حسبة دمشق شمس الدين محمد بن السلموس، عوضًا عن ابن السيرجي.

* * *

سنة ثمان ثمانين وستمائة

في يوم الخميس عاشر المحرم: خيم السلطان بظاهر القاهرة، ورحل في خامس عشرة. واستخلف ابنه الملك الأشرف خليلا بالقلعة، والأمير بيدرا نائبًا عنه ووزيرا، وكتب عند الرحيل إلى سائر ممالك الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس.

وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث عشر صفر، وخرج منها في العشرين منه إلى طرابلس فنازلها، وقد قدم لنجدة أهلها أربعة شوان من جهة متملك قبرص.

فوالى السلطان الرمي بالمجانيق عليها والزحف والنقوب في الأسوار، حتى افتتحها عنوة في السلعة السابعة من يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر، بعدما أقام عليها أربعة وثلاثين يوما، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا، وعمل فيها ألفًا وخمسمائة نفس من الحجارين والزرافين. وفر أهلها إلى جزيرة تجاه طرابلس فخاض الناس

فرسانًا ورجالاً وأسروهم وقتلوهم وغنموا ما معهم، وظفر الغلمان والأوشاقية بكثير منهم كانوا قد ركبوا البحر فألقاهم الريح بالساحل، وكثرت الأسرى حتى صار إلى زردخاناه السلطان ألف ومائتا أسير.

وأمر السلطان بمدينة طرابلس فهدمت، وكان عرض سورها يمر عليه ثلاثة فرسان بالخيل، ولأهلها سعادات جليلة منها أربعة آلاف نول قزازاة.

وأقر السلطان بلدة حبيل مع صاحبها على مال أخذه منه، وأخذ بيروت، وجبلة وما حولها من الحصون.

وعاد السلطان إلى دمشق في نصف جمادى الأولى، واستقر العسكر على عادته بحصن الأكراد مع نائبه الأمير سيف الدين بلبان الطباخي.

وفيه ثار أهل عكا بتجار المسلمين وقتلوهم، فغضب السلطان وكتب إلى البلاد الشامية بعمل مجانيق وتجهيز زردخاناة لحصار عكا. وذلك أن الظاهر بيبرس هادنهم، فحملوا إليه وإلى الملك المنصور هديتهم في كل سنة، ثم كثر طمعهم وفسادهم وقطعهم الطريق على التجار، فأخرج لهم السلطان الأمير شمس الدين سنقر المساح على عسكر، ونزلوا اللجون على العادة في كل سنة، فإذا بفرسان من الفرنج بعكا قد خرجت فحاربوهم، واستمرت الحرب بينهم وبين أهل عكا مدة أيام. وكتب إلى السلطان بذلك، فأخذ في الاستعداد لحربهم. فضرع الأمير شمس الدين سنقر الأعسر في عمل ذلك، وقرر على ضياع المرج وغوطة. دمشق مالاً على كل رجل ما بين ألفي درهم إلى خمسمائة درهم، وجبى أيضًا من ضياع بعلبك والبقاع. وسار إلى واد بين جبال عكا وبعلبك لقطع أخشاب المجانيق، فسقط عليه ثلج عظيم كاد أن يهلكه، فركب وساق وترك أثقاله وخيامه لينجو بنفسه، فطمها الثلج تحته إلى زمن الصيف، فتلف أكثرها.

وفي آخر شوال: برز السلطان بظاهر القاهرة، ونزل. بمخيمه بمسجد تبر، يريد فتح عكا. فأصابه وعك في أول ليلة وأقام يومين بغير ركوب، ثم اشتد مرضه وصار الأشرف ينزل إليه كل يوم من القلعة ويقيم عنده إلى بعد العصر ويعود. فكثرت القالة وانتشرت حتى ورد الخبر بحركة العرب ببلاد الصعيد، فأخرج النائب طرنطاي قراقوش الظاهري والأمير أبا شامة لتدارك ذلك. واشتد مرض السلطان إلى أن مات بمخيمه تجاه مسجد تبر خارج القاهرة في ليلة السبت سادس ذي القعدة، فحمل إلى القلعة ليلا، وعادت الأمراء إلى بيوتها. وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوما، وعمره نحو سبعين سنة. وترك ثلاثة أولاد ذكورا

أشهر وأيامًا: وهم الملك الأشرف خليل الذي ملك بعده، والملك الناصر محمد وملك أيضًا، والأمير أحمد وقد مات في سلطة أخيه الأشرف. وترك من البنات ابنتين: وهما ألتطمش وتعرف بدار مختار وأختها دار عنبر، وزوجة واحدة وهي أم الناصر محمد. وناب عنه بمصر الأمير عز الدين أيبك الأفرم ثم استعفي، فاستقر بعده حسام الدين طرنطاي حتى مات السلطان. وكان نائبة بدمشق بعد سنقر الأشقر الأمير حسام الدين لاجين السلاح دار المعروف بالصغير، ونوابه بحلب الأمير جمال الدين أقش الشمسي، فلما مات جمال الدين استقر الأمير علم الدين سنجر الباشقردي، وصرف بالأمير قراسنقر الجوكندار. وناب عنه بحصن الأكراد بلبان الطباخي، وبصفد علاء الدين الكبكي، وبالكرك أيبك الموصلي ثم بيبرس الدودار. ووزر له الصاحب برهان الدين خضر السنجاري مرتين، وفخر الدين إبراهيم بن لقمان، ونجم الدين حمزة الأصفوني، وقاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز، ثم الأمير علم الدين سنجر الشجاعي وكان يلي شد الدواوين. فإذا لم يكن في الدولة وزير تحدث في الوزارة، ثم استقل بالوزارة بعد الأصفواني، وكان جبارًا عسوفًا مهيبًا يجمع المال من غير وجهه، فكرهه كل أحد وتمنوا زوال دولة المنصور من أجله ثم الأمير بدر الدين بيدرا، ومات المنصور وبيدرا وزير. وبلغت عدة مماليكه اثنا عشر ألف مملوك، وقيل سبعة آلاف وهو الصحيح. تأمر منهم كثير، وتسلطنت جماعة. وكان قد أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة من الآص والجركس، وجعلهم في أبراج القلعة وسماهم البرجية. وكان جميل الصورة مهيبًا، عريض المنكبين قصير العنق، فصيحًا بلغة الترك والقبجاق، قليل المعرفة بالعربية.

* * *

السلطان صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور

السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي جلس على تخت الملك بقلعة الجبل يوم الأحد سابع ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة، وجدد العسكر له الحلف في يوم الاثنين ثامنه.

وطلب السلطان الملك الأشرف من القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده بولاية العهد، فأخرجه إليه مكتوبا بغير علامة الملك المنصور. وكان ابن عبد الظاهر قد قدمه إليه ليعلم عليه فلم يرض، وتكرر طلب الأشرف له، وابن عبد الظاهر يقدمه والمنصور يمتنع إلى أن قال له: يا فتح الدين أنا ما أولي خليلا على المسلمين فلما رأى الأشرف التقليد بغير علامة قال: يا فتح الدين إن السلطان امتنع أن يعطيني، وقد أعطاني الله، ورمي إليه التقليد، فما زال عند ابن عبد الظاهر.

ثم إن الأشرف خلع على سائر أرباب الدولة، وركب بشعار السلطنة في يوم الجمعة ثاني عشره بعد الصلاة، وسير إلى الميدان الأسود تحت القلعة بالقرب من سوق الخيل والأمراء والعساكر في خدمته. وعاد إلى القلعة قبل العصر مسرعا، فإنه بلغه أن الأمير حسام الدين طرنطاي يريد الفتك به إذا قرب من باب الإصطبل. فلما سير أربعة ميادين، وقد وقف طرنطاي ومن وافقه عند باب سارية، وحاذى السلطان باب الإسطبل، وفي الظن إنه يعطف إلى نحو باب سارية ليكمل التيسير على العادة، حرك فرسه يريد القلعة وعبر من باب الإسطبل، فساق طرنطاي بمن معه سوقا حثيثا ليدركه ففاته. وبادر الأشرف بطلب طرناي، فمنعه الأمير زين الدين كتبغا أن يدخل إليه وحذره منه، فقال: والله لو كنت نائما ما جسر خليل ينبهني، وغره إعجابه بنفسه وكثرة أيام سلامته، ودخل ومعه الأمير زين الدين كتبغا. فعندما وصل إلى حضرة الأشرف قبض عليه وعلى كتبغا وسجنا، وقتل طرنطاي في يوم الاثنين خامس عشره وقيل يوم الخميس ثامن عشره بعد عقوبة شديدة، وترك بعد قتله في مجلسه ثمانية أيام، ثم أخرج ليلة الجمعة سادس عشريه في حصير على جنوية إلى القرافة، فغسل بزاوية أبي السعود وكفنه شيخنا صدقة عنه، ودفنه بظاهر الزاوية ليلا. فلما تسلطن كتبغا نقله إلى مدرسته بالقاهرة ودفنه بها، وهو إلى اليوم هناك.

* * *

سنه تسعين وستمائة

وفي هذا الشهر: قدمت رسل عكا يسألون العفو، فلم يقبل منهم ما اعتذروا به، وقدم أمراء العربان من كل جهة: فقدم الأمير مهنا بن عيسى أمير آل فضل وسابق الدين عبية أمير بني عقبة، وقدما التقادم، فأنعم عليهم جميعًا: وأعيدوا، وقدم الملك المظفر صاحب حماة، فحمل إليه ما جرت به العادة، وكتب تقليده.

وفي هذا الشهر: شرع السلطان في الاهتمام بفتح عكا، وبعث الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار إلى الشام لتجهيز أعواد المجانيق، فقدم دمشق في سلخه وجهزت أعواد المجانيق من دمشق، وبرزت في أول ربيع الأول وتكاملت في ثاني عشره، وسار بها الأمير علم الدين سنجر الدواداري أحد أمراء الشام، ثم فرقت على الأمراء مقدمي الألوف، فتوجه كل أمير ومضافيه بما أمر بنقله منها، وتوجه الأمير حسام الدين لاجين نائب الشام بالجيش من دمشق في العشرين منه، وخرج من القاهرة الأمير سيف الدين طغريل الأيغاني إلى استنفار الناس من الحصون بممالك الشام: فوصل المظفر صاحب حماة إلى دمشق في ثالث عشريه، بعسكره وبمجانيق وزردخاناه، ووصل الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب الفتوحات بعساكر الحصون وطرابلس، وبالمجانيق والزردخاناه في رابع عشريه، وسار جميع النواب بالعساكر إلى عكا.

وفي يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول: توجه السلطان بالعساكر يريد أخذ عكا، وسير حريمه إلى دمشق فوصلوا إليها في سابع ربيع الآخر، وسار السلطان فنزل عكا في يوم الخميس ثالث ربيع الآخر، ووصلت المجانيق يوم ثاني وصوله وعدتها اثنان وتسعون منجنيقًا، فتكامل نصبها في أربعة أيام، وأقيمت الستائر ووقع الحصار، وقد أتت جمائع الفرنج إلى عكا أرسالاً من البحر، صار بها عالم كبير، فاستمر الحصار إلى سادس عشر جمادى الأولى، وكثرت النقوب بأسوار عكا، فلما كان يوم الجمعة سابع عشره عزم السلطان على الزحف، فرتب كوساته على ثلاثمائة جمل، وأمر أن تضرب كلها دفعة واحدة، وركب السلطان وضربت فهال ذلك أهل عكا، وزحف بعساكره ومن اجتمع معه قبل شروق الشمس، فلم ترتفع الشمس حتى علت الصناجق الإسلامية على أسوار عكا، وهرب الفرنج في البحر وهلك منهم خلق كثير في الازدحام، والمسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون فقتلوا ما لا يحصى عده كثرة، وأخذوا من النساء والصبيان ما يتجاوز الوصف، وكان عند فتحها أن أقبل من الفرنج

نحو عشرة آلاف في هيئة مستأمنين، ففرقهم السلطان على الأمراء فقتلوهم عن آخرهم.

وفي يوم السبت ثامن عشره: وقع الهدم في مدينة عكا، فهدمت الأسوار والكنائس وغيرها وحرقت، وحمل كثير من الأسرى بها إلى الحصون الإسلامية.

وفتحت صور وحيفا وعثليث وبعض صيدا بغير قتال، وفر أهلها خوفا على أنفسهم، فتسلمها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي في بقيه جمادى الأولى، فقدمت البشائر بتسليم مدينة صور في تاسع عشره، وبتسليم صيدا في العشرين منه، وأن طائفة من الفرنج عصوا في برج منها، فأمر السلطان بهدم صور وصيدا وعثليث وحيفا، فتوجه الأمير شمس الدين نبا الجمقدار ابن الجمقدار في حادي عشريه لهدم صور، واتفق أمر عجيب. وهو أن الفرنج لما قدموا إلى صور كان بها عز الدين نبا واليا عليها من قبل المصريين، فباع صور للفرنج بمال، وصار إلى دمشق، فقدر الله خرابها على يد الأمير شمس الدين نبا بن الجمقدار واتفق أيضًا أن الشيخ شرف الدين، البوصيري رأى في منامه قبل أن يخرج الأشرف إلى عكا قائلا ينشده:

قد أخذ المسلمون عكا ::: وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم ::: خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت ::: لا تركوا للفرنج ملكا

فأخبر بذلك جماعة، ثم سار الأشرف بعد ذلك وفتح عكا وخربها، لم يدع في بقية الساحل أحدًا من الفرنج، وقال محيي الدين بن عبد الظاهر في ذلك:

يا بني الأصفر قد حل بكم ::: نقمة الله التي لا تنفصل
قد نزل الأشرف في ساحلكم ::: فأبشروا منه بصفع متصل

وقد أكثر الشعراء في ذكر هذا الفتح، وقال الشهاب محمود الحلبي كاتب الإنشاء لما عاين في جوانب عكا، وقد تساقطت أركانها:

مررت بعكا بعد تخريب سورها ::: وزند أوار النار في وسطها واري
وعاينتها بعد التنصر قد غدت ::: مجوسية الأبراج تسجد للنار

وقال ابن ضامن الضبع بعكا:

أدمي الكنائس إن تكن عبثت بكـــم ::: شـــم الأنـــوف جحـــاجح أبطـــال

فلطالما ســجدت لكـــن فـــوارض ::: الليـــــالي أو تغــــير حـــــال

فعزاء عـــن هـــذا المصـــاب فإنـــه ::: يـــوم بيـــوم والحـــروب ســـجال

هـــذا بـــذاك ولا نعـــير دهرنـــا ::: ولكـــل دهـــر دولـــة ورجـــال

* * *

سنة إحدى وتسعين وستمائة

وفيه نودي بالنفير للجهاد، وخرج السلطان في الثامنة من يوم السبت ثامن ربيع الآخر بجميع عساكره فورد البريد بأن التتار أغاروا على الرحبة واستاقوا مواشي كثيرة، وخرجت إليهم تجريدة من دمشق.

وفي يوم السبت سادس جمادى الأولى: دخل السلطان إلى دمشق، وأنفق في العساكر يوم الاثنين ثامنه.

ثم خرج السلطان من دمشق في الخامسة من يوم الاثنين سادس عشره، فدخل حلب في ثامن عشريه، وخرج منها في رابع جمادى الآخرة يريد قلعة الروم فنزل عليها يوم الثلاثاء ثامنه، ونصب عشرين منجنيقا ورمى عليها، وعملت النقوب وعمل الأمير سنجر الشجاعي نائب دمشق سلسلة وشبكها في شراريف القلعة وأوثق طرفها بالأرض، فصعد الأجناد فيها وقاتلوا قتالاً شديدًا، ففتح الله القلعة يوم السبت حادي عشر رجب عنوة، وقتل من بها من المقاتلة، وسبي الحريم والصبيان، وأخذ بترك الأرمن وكان بها فأسر. وكانت مدة حصارها ثلاثة وثلاثين يوما، وقد سماها السلطان قلعة المسلمين فعرفت بذلك، وحمل إليها زردخاناه وألفا ومائتي أسير، واستشهد عليها الأمير شرف الدين بن الخطير. فلما وردت البشائر إلى دمشق بفتح قلعة الروم زينت البلد ودقت البشائر، ورتب السلطان الأمير سنجر الشجاعي نائب الشام لعمارة قلعة المسلمين، فعمر ما هدمته المجانيق والنقوب، وخرب ربضها.

* * *

سنة اثنين وتسعين وستمائة

وفيها قدم رسل كيختو ملك التتار بكتابه يتضمن إنه يريد الإقامة بحلب، فإنها مما فتحه أبوه هولاكو، وإن لم يسمح له بذلك أخذ بلاد الشام. فأجابه السلطان بأنه قد وافق القان ما كان فح نفسي، فإني كنت على عزم من أخذ بغداد، وقتل رجاله، فإني أرجو أن أردها دار إسلام كم كانت، وسينظر أينا يسبق إلى بلاد صاحبه وكتب إلى بلاد الشام بتجهيز الإقامات وعرض العساكر.

سنة ثلاث وتسعين وستمائة

في ثالث المحرم: عبر السلطان النيل إلى بر الجيزة يريد البحيرة للصيد، ومعه الأمير بيدرا والوزير ابن السلعوس. واستخلف بقلعة الجبل الأمير علي الدين سنجر الشجاعي، وقد اشتدت العداوة بين الأمير بيدرا وبين ابن السلعوس. فوصل السلطان إلى تروجة ونزل بها، وتوجه الوزير إلى الاسكندرية ليعبي القماش ويحصل الأموال، بعدما خلع السلطان عليه طرد وحش. فوجد الوزير أن نواب بيدرا قد استولوا على المتاجر والاستعمالات فكتب يعرف السلطان ذلك ويغريه ببيدرا، وأنه لم يجد بالثغر ما يكفي الإطلاقات على جاري العادة. فاشتد غضب السلطان، وطلب بيدرا وسبه بحضرة الأمراء، وتوعده بأنه لابد أن يمكن ابن السلعوس من ضربه بما لا يذكر. فتلطف بيدرا حتى خرج إلى مخيمه وقد اشتد خوفه، فجمع أعيان الأمراء من خشداشيته ومنهم الأمير لاجين والأمير قرا سنقر ومن يوافقه، وقرر معهم قتل السلطان، فإنه كان قد أذن للأمراء الأكابر أن يخرجوا إلى إقطاعاتهم فساروا إليها وبقي في خواصه إلى يوم تاسوعاء. فتوصل الأمير بيدرا إلى أن أشير على السلطان بتقدم العسكر إلى القاهرة، فبعث الأمير سيف الدين أبا بكر بن الجمقدار نائب أمير جاندار إلى بيدرا يأمره أن يسير تحت الصناجق بالأمراء والعسكر فلما بلغه نائب أمير جاندار الرسالة نفر فيه، ثم قال له السمع والطاعة وقد تبين الغضب في وجهه، فرجع ابن أمير جاندار وحمل الزردخاناه وسار، ورحل الدهليز والعسكر.

وأصبح السلطان يوم عاشوراء، فبلغه أن بتروجة طيرًا كثيرًا، فساق وضرب حلقة صيد، وعاد إلى مخيمه آخر النهار. ثم لما كان الحادي عشر توجه الناس إلى القاهرة، وحضر بيدرا ومن قرر معه قتل السلطان إلى الدهليز، فلم يخرج السلطان وأعطاهم دستورًا فتوجهوا إلى خيامهم.

وركب السلطان جريدة وليس معه سوى الأمير شهاب الدين أحمد بن الأشل أمير شكار، وأراد أن يسبق الخاصكية، فرأى طيرًا فصرع منه بالبندق شيئًا كثيرًا ثم التفت إلى أمير شكار وقال. أنا جيعان، فهل معك ما آكل؟ " فقال: والله ما معي غير رغيف واحد فرج في صولقي ادخرته لنفسي فقال: ناولنيه فناوله ذلك فأكله كله. ثم قال له: أمسك فرسي حتى أنزل أبول

وكان الأمير شهاب الدين ينبسط مع السلطان، فقال: ما فيها حيلة، السلطان ركب حصانا وأنا راكب حجر وما يتفقان. فقال له السلطان: انزل أنت واركب خلفي حتى أنزل أنا فنزل وناول السلطان عنان فرسه وركب خلفه، فنزل السلطان وقضى حاجته، ثم قام وركب حصانه، ومسك فرس أمير شكار حتى ركب، وأخذا يتحدثان.

فلما كان وقت العصر: بعث بيدرا من كشف له خبر السلطان، فقيل له: ليس معه أحد، كشف. بمن وافقه. فلم يشعر السلطان إلا بغبار عظيم قد ثار، فقال لأمير شكار: اكشف خبر هذا الغبار. فساق إليه فوجد الأمير بيدرا وجماعة من الأمراء، فسألهم فلم يجيبوه. ومروا في سوقهم حتى وصلوا إلى السلطان وهو وحده، فابتدرا بالسيف وضربه أبان على يده، ثم ضربه ثانيا هد كتفه. فتقدم الأمير لاجين إليه وقال له: يا بيدرا، من يريد ملك مصر والشام تكون هذه ضربته وضرب السلطان على كتفه حله، فسقط إلى الأرض، فجاءه بهادر رأس نوبة وأدخل السيف في دبره، واتكأ عليه إلى أن أخرجه من حلقه. وتناوب الأمراء ضربه بالسيوف: وهم قرا سنقر، وآقسنقر الحسامي، ونوغاي، ومحمد خواجا، وطرنطاي الساقي، وألطنبغا رأس نوبة، وذلك في يوم الاثنين ثاني عشر المحرم.

فبقي الملك الأشرف ملقى في المكان الذي قتل به يومين، ثم جاء الأمير عز الدين أيدمر العجمي وإلى تروجة، فوجده في موضعه عريانا بادي العورة، فحمله على جمل إلى دار الولاية، وغسله في الحمام وكفنه، وجعله في بيت المال بدار الولاية إلى أن قدم الأمير سعد الدين كوجبا الناصري من القاهرة، وحمله في تابوته الذي كان فيه إلى تربته بالقرب من المشهد النفيسي ظاهر مصر، ودفنه بها سحر يوم الجمعة ثاني عشري صفر.

وأما الأمراء، فإن الأمير زين الدين كتبغا المنصوري كان قد انفرد ومعه جماعة من الأمراء عن الملك الأشرف وساروا للصيد، وبقي في الدهليز السلطاني من الأمراء سيف الدين برغلي، وركن الدين بيبرس الجاشنكير، وحسام الدين لاحين الأستادار، وبدر الدين بكتوت العلائي، وجماعة من المماليك السلطانية. فلما قتل بيدرا السلطان عاد بمن معه من الأمراء، ونزل بالدهليز وجلس في دست السلطة، وقام الأمراء فقبلوا الأرض بين يديه وحلفوا له، وتلقب بالملك الأوحد وقيل المعظم، وقيل الملك القاهر. ثم قبض بيدرا على الأمير بيسري والأمير بكتمر السلاح دار أمير

جاندار، وقصد قتلهما ثم تركهما تحت الاحتياط لشفاعة الأمراء فيهما، وركب إلى الطرانة فبات بها.

وقد سار الأمراء والمماليك السلطانية ومعهم الأمير برغلي، وهم الذين كانوا بالدهليز والوطاق، وركبوا في آثار بيدرا ومن معه يريدون القبض عليه. فبلغ الأمير كتبغا ومن معه مقتل السلطان وسلطنة بيدرا، فلحق بمن معه الأمير برغلي ومن معه من الأمراء والمماليك، وجدوا بأجمعهم في طلب بيدرا ومن معه، وساقوا في تلك الليلة إلى الطرانة وقد لحق بيدرا بسيف الدين أبي بكر بن الجمقدار نائب أمير جاندار، والأمير صارم الدين الفخري، والأمير ركن الدين بيبرس أمير جاندار، ومعهم الزرد خاناه، عند المساء من يوم السبت الذي قتل فيه السلطان، فعندما أدركهم تقدم إليه بيبرس أمير جاندار وقال له: يا خوند هذا الذي فعلته كان. بمشورة الأمراء؟، فقال: نعم أنا قتلته. بمشورتهم وحضورهم، وها هم كلهم حاضرون. ثم شرع يعدد مساوئ الأشرف ومخازيه واستهتاره بالأمراء ومماليك أبيه، إهماله لأمور المسلمين، ووزارته ابن السلعوس، ونفور الأمراء منه لمسكه عز الدين الأفرم وقتل سنقر الأشقر وطقصوا وغيره، وتأميره مماليكه، وقلة دينه وشربه الخمر في شهر رمضان وفسقه بالمردان. ثم سأل بيدرا عن الأمير كتبغا فلم يره فقيل له: هل كان عند كتبغا من هذه القضية علم؟ قال: نعم هو أول من أشار بها.

فلما كان يوم الأحد ثاني يوم قتلة الأشرف: وافي الأمير كتبغا في طلب كبير من المماليك السلطانية عدته نحو الألفي فارس، وجماعة من الحلقة والعسكر ومعهم الأمير حسام الدين لاجين لأستادار الطرانة وبها بيدرا يريدون قتاله. وميز كتبغا أصحابه بعلائم حتى يعرفوا من جماعة بيدرا، وهم أنهم جعلوا مناديل من رقابهم إلى تحت آباطهم فأطلق بيدوا حينئذ الأميرين بيسري وبكتمر السلاح دار، ليكونا عونا له فكانا عونا عليه. ورتب كتبغا جماعة ترمي بالنشاب، وتقدم بمن معه وحملوا على بيدرا حملة منكرة، وقصد الأمير كتبغا بيدرا وقد فوق سهمه، وقال: يا بيدرا أين السلطان؟ ورماه بسهم وتبعه البقية بسهامهم، فولى بيدرا بمن معه وكتبغا في طلبه حتى أدركه. وقتل بيدرا بعدما قطعت يده ثم كتفه كما فعل بالأشرف، وحملت رأسه على رمح وبعث بها إلى قلعة الجبل فطيف بها القاهرة ومصر. ووجد في جيب بيدرا ورقة فيها: ما يقول السادة الفقهاء في رجل يشرب الخمر في شهر رمضان، ويفسق بالمرداد ولا يصلي فهل على قاتله ذنب أو لا؟

فكتب جوابها. يقتل ولا إثم على قاتله. وعندما انهزم بيدرا هرب لاجين وقرا سنقر، ودخلا القاهرة فاختفيا.

وكان الذي وصل إلى قلعة الجبل بخبر مقتل السلطان سيف الدين سنكو الدوادار. ولما بلغ الأمير علم الدين سنجر الشجاعي قتل السلطان ضم الحراريق والمعادي وسائر المراكب إلى بر مصر والقاهرة، وأمر ألا يعدي بأحد من الأمراء والمماليك إلا بإذنه، موصل الأمير زين الدين كتبغا ومن معه مت الأمراء والمماليك، بعد قتل بيدرا وهزيمة أصحابه، فلم يجدوا مركبًا يعدون به النيل. فأشار على من معه من الأمراء وهم حسام الدين لاجين الأستادار، وركن الدين بيبرس الجاشنكير، وسيف الدين برلغي وسيف الدين طغجي، وعز الدين طقطاي، وسيف الدين قطبة، وغيرهم أن ينزلوا في بر الجيزة بالخيام حتى يراسلوا الأمير سنجر الشجاعي، فوافقوه وضربوا الخيام وأقاموا بها، وبعثوا إلى الشجاعي فلم يمكنهم من التعدية. وما زالت الرسل بينهم وبينه حتى وقع الاتفاق على إقامة الملك الناصر محمد بن قلاوون، فبعث عند ذلك الحراريق والمراكب إليهم بالجيزة، وعدوا بأجمعهم وصاروا إلى قلعة الجبل في رابع عشر المحرم.

* * *

السلطان الناصر ناصر الدين

السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي أمه أشلون خاتون ابنة الأمير سكناي بن قراجين بن جنكاي نوين. ولد يوم السبت النصف من المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة بقلعة الجبل من مصر، فلما قتل أخوه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بالقرب من تروجة، وعدي الأمير زين الدين كتبغا والأمراء، اجتمع بهم الأمير علم الدين سنجر الشجاعي ومن كان بالقاهرة والقلعة من الأمراء الصالحية والمنصورية، وقرروا سلطنة الناصر محمد وأحضروه وعمره تسع سنين سوا في يوم السبت سادس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وأجلسوه على سرير السلطنة. ورتبوا الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة عوضًا عن بيدرا، والأمير علم الدين سنجر الشجاعي وزيرًا ومدبرًا عوضًا عن ابن السلعوس، والأمير حسام الدين لاجين الرومي الإستادار أطابك العساكر، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير إستادارا، والأمير ركن الدين بيبرس الدوادار دوادارًا، وأعطي إمرة مائة فارس وتقدمة ألف، وجعل إليه أمر ديوان الإنشاء في المكاتبات والأجوبة والبريد. وأنفق في العسكر وحلفوا فصار كتبغا هو القائم بجميع أمور الدولة، وليس للملك الناصر من السلطنة إلا اسم الملك من غير زيادة على ذلك، وسكن كتبغا بدار النيابة من القلعة، وجعل الخوان يمد بين يديه.

وركب الملك الناصر في أبهة الملك، وشق القاهرة من باب النصر حتى خرج من باب زويلة عائدا إلى القلعة، وكتبغا والأمراء يمشون في ركابه، فكان يومًا مشهودًا، ودقت البشائر بالقلعة.

وفيها قتل الملك كيختو بن أبغا بن هولاكو. وولى بعده بيدو بن طوغاي بن هولاكو.

ومات قبلاي خانة بن طلوي بن جنكزخان ملك الصين، وهو أكبر الخانات والحاكم على كرسي مملكة جنكزخان. وكانت مدته قد طالت، فقام في مملكة الصين بعده ابنه شبردون بن قبلاي.

* * *

سنة أربع وتسعين وستمائة

في المحرم: ورد الخبر بأن كيختو بن أبغا بن هولاكو، الذي تسلطن بعد أخيه أرغون في سنة تسعين، قتل في سنة ثلاث وتسعين. وملك بعده ابن عمه بيدو، وهو ابن طرغاي بن هولاكو، فخرج عليه غازان بن أرغون بن أبغا نائب خراسان، وكسره وأخذ الملك منه، ويقال: إنه أسلم على يد الشيخ صدر الدين ابن حمويه الجويني.

وفي يوم الأربعاء حادي عشره: خلع الملك الناصر بن قلاوون، وكانت أيامه سنة واحدة تنقص ثلاثة أيام، لم يكن له فيها أمر ولا نهي.

* * *

السلطان زين الدين كتبغا المنصوري

السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري كان في مدة سلطنة الملك الناصر هو القائم بجميع أمور الدولة، وليس للناصر معه تصرف البتة. ثم إنه أخذ في أسباب السلطة بعد قتل الشجاعي. ولما دخل المحرم انقطع في دار النيابة وأظهر أنه ضعيف البدن، وباطن أمره إنه يريد أن يقرر أموره في السلطنة فخرج إليه الناصر وعاده. فلما كانت فتنة المماليك جلس في صباح تلك الليلة بدار النيابة وجمع الأمراء وقال لهم: قد انخرق ناموس المملكة، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه. فاتفقوا على خلعه وإقامة كتبغا مكانه، وحلفوا له على ذلك، وقدم إليه فرس النوبة بالرقبة الملوكية، وركب من دار النيابة قبل أذان العصر من يوم أيامه سنة واحدة تنقض ثلاثة أيام الأربعاء حادي عشر المحرم، ودخل من باب القلة إلى الأدر السلطانية، والأمراء مشاة بين يديه حتى جلس على التخت بأهبة الملك، وتلقب بالملك العادل، فكانت أيامه شر أيام من الغلاء والوباء وكثرة الموتان.

ومات القان كيختو بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكزخان ملك التتار قتيلا، فكانت مدة ملكه نحو أربع سنين.

ومات القان بيدو بن طرغاي، بن هولاكو القائم بعد كيختو مقتولا، فكانت مدة ملكه نحو ثمانية أشهر، وقام بعده عازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو. ومات الملك المظفر محمد بن المنصور عمر بن علي بن رسول ملك اليمن بقلعة تعز وقد تجاوز ثمانين سنة، منها مدة ملكه نحو سبع وأربعين سنة.

* * *

سنة خمس وتسعين وستمائة

وفي ربيع الأول: قدم البريد بوصول طائفة الأويراتية من التتار ومقدمهم طرغاي زوج بنت هولاكو، وإنهم نحو الثمانية عشر ألف بيت، وقد فروا من غازان ملك التتار وعبروا الفرات يريدون الشام. فكتب إلى نائب الشام أن يبعث إليهم الأمير علم الدين سنجر الدواداري إلى الرحبة ليلقاهم، فخرج من دمشق، ثم توجه بعده الأمير سنقر الأعسر شاد الدواوين بدمشق، وخرج الأمير قراسنقر المنصوري من القاهرة أيضًا، فوصل دمشق في ثاني عشريه، ثم تبعه الأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي الحاجب، فأقام بدمشق حتى وصلت أعيان الأويراتية صحبة سنقر

الأعسر في ثالث عشريه. وكانت عدتهم مائة وثلاثة عشر رجلا، ومقدمهم طرغاي، ومن أكابرهم الوص وككباي، فتلقاهم النائب والأمراء واحتفل لقدومهم احتفالاً زائدًا.

ثم سار بهم الأمير قراسنقر إلى القاهرة يوم الاثنين سابع ربيع الآخر، فلما وصلوا بالغ السلطان في إكرامهم والإحسان إليهم، وأمر عدة منهم. وبقوا على كفرهم، ودخل شهر رمضان فلم يصم منهم أحد، وصاروا يأكلون الخيل من غير ذبحها، بل يربط الفرس ويضرب على وجهه حتى يموت فيؤكل. فأنف الأمراء من جلوسهم معهم بباب القلة في الخدمة، وعظم على الناس إكرامهم، وتزايد بعضهم في السلطان، وانطلقت الألسنة بذمه حتى أوجب ذلك خلع السلطان فيما بعد.

وأما بقية الأويراتية فإنه كتب إلى سنجر الدواداري أن ينزلهم ببلاد الساحل، فمر بهم على مرج دمشق، وأخرجت الأسواق إليهم فنصبت بالمرج وبمنزلة الصنمين وفي الكسوة، ولم يمكن أحد من الأويراتية أن يدخل مدينة دمشق. وأنزلوا من أراضي عثليث ممتدين في بلاد الساحل، وأقام الأمير سنجر عندهم إلى أن حضر السلطان إلى الشام.

وقد هلك منهم عالم كبير، وأخذ الأمراء أولادهم الشباب للخدمة، وكثرت الرغبة فيهم لجمالهم، وتزوج الناس ببناتهم، وتنافس الأمراء والأجناد وغيرهم في صبيانهم وبناتهم، ثم انغمس من بقي منهم في العساكر، فتفرقوا في الممالك، ودخلوا في الإسلام واختلطوا بأهل البلاد.

* * *

سنة ست وتسعين وستمائة

وفي بكرة يوم الثلاثاء ثاني عشريه: رحل السلطان من دمشق بعساكره يريد القاهرة، وقد توغرت صدور الأمراء وتواعدوا على الفتك به. فسار إلى أن نزل بالعوجاء قريبًا من الرملة، وحضر الأمراء عنده بالدهليز، فأمر بإحضار الأمير بيسري فطلب طلبا حثيثا، فلما حضر لم يقم له على عادته، وأغلظ له في الكلام ونسبه إلى أنه كاتب التتار، فكانت بينهما مفاوضة، ثم نهض السلطان، وانفض الأمراء وقد حرك منهم ما كان عندهم كامنًا.

فاجتمعوا عند الأمير حسام لاجين النائب وفيهم بيسري، وسألوه عما كان من السلطان في حق فقال: إن مماليك السلطان كتبوا عنك كتبًا إلى التتار، وأحضروها

إليه وقالوا: إنك كتبتها، ونيته القبض عليك إذا وصل إلى مصر، وأن يقبض عليَّ أيضًا وعلى أكابر الأمراء، ويقدم مماليكه. فأجمعوا عند ذلك على مبادرة السلطان، فركبوا يوم الثلاثاء سابع عشري المحرم وقت الظهر: وهم لاجين بيسري وقرا سنقر وقبجاق والحاج بهادر الحاجب في آخرين، واستصحبوا معهم حمل نقارات وساقوا ملبسين إلى باب الدهليز، وحركت النقارات حربيًا. فركب عدة من العادلية واقتتلوا، فتقدم تكلان العادلي فضربه الأمير لاجين في وجهه ضربة أخذت منه جانبًا كبيرًا، وجرح تكلان فرس لاجين وقتل الأمير بدر الدين بكتوت الأزرق العادلي في خيمته، وقتل الأمير سيف الدين بتخاص العادلي، وقد فر إلى الدهليز فأدركوه بباب الدهليز فقتلوه، وجرحوا عدة من المماليك العادلية. فلم يثبت العادل، وخرج من ظهر الدهليز، وركب فرس النوبة ببغلطاق صدر، وعبر على قنطرة العوجاء يريد دمشق من غير أن يفطن به أحد، ولم يدركه سوى خمسة من مماليكه. وهجم لاجين على الدهليز فلم يجد العادل وبلغه أنه فر، فساق خلفه فلم يدركه ورجع إلى الدهليز، فلما عاينه الأمراء ترجلوا له ومشوا في ركابه حتى نزل. فكانت مدة كتبغا، منذ جلس على التخت بقلعة الجبل في يوم الأربعاء حادي عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة، وإلى أن فارق الدهليز بمنزلة العوجاء في يوم الثلاثاء سابع عشري المحرم سنة ست وتسعين وستمائة، سنتين وسبعة عشر يوما.

* * *

السلطان حسام الدين لاجين

السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصووي المعروف بالصغير

كان أولا من جملة مماليك الملك المنصور علي بن الملك المعز أيبك، فلما خلع اشتراه الأمير سيف الدين قلاوون وهو أمير بسبعمائة وخمسين درهما، من غير مالك شرعي، فلما تبين له أنه من مماليك المنصور اشتراه مرة ثانية، بحكم بيع قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز له عن المنصور وهو غائب ببلاد الأشكري. وعرف حين بيعه بشقير، فربي عند قلاوون وقيل له: لاجين الصغير، وترقى في خدمته من الأوشاقية إلى السلاح دارية. ثم أمره قلاوون واستنابه بدمشق لما ملك، وهو لا يعرف إلا بلاجين الصغير، فشكرت سيرته في النيابة، وأحبته الرعية لعفته عما في أيديهم، فلما ملك الأشرف خليل بن قلاوون قبض عليه وعزله عن نيابة دمشق، ثم أفرج عنه وولاه إمرة السلاح دار كما كان قبل استنابته على دمشق. ثم بلغه أن الأشرف يريد القبض عليه ثانيًا، ففر من داره بدمشق، فقبض عليه وحمل إلى قلعة الجبل، وأمر بخنقه قدام السلطان. ثم نجا من القتل بشفاعة الأمير بدر الدين بيدرا، وأعيد إلى الخدمة على عادته، واشترك مع بيدرا في قتل الأشرف خليل، كما تقدم ذكره. ثم اختفى خبره مدة، وتنقل في المدن إلى أن تحدث الأمير زين الدين كتبغا في أمره، فعفى عنه وأعيد إلى إمرته كما كان. فلما صار زين الدين كتبغا سلطانا، استقر لاجين في نيابة السلطنة بديار مصر، إلى أن ركب على كتبغا وفر منه، فنزل بالدهليز من العوجاء وقيل من اللجون.

واجتمع الأمراء عنده، وهم بدر الدين بيسري الشمسي، وشمس الدين قراسنقر المنصوري، وسيف الدين قبجاق، وسيف الدين بهادر الحاج أمير حاجب، وسيف الدين كرد، وحسام الدين لاجين السلاح دار الرومي إستادار، وبدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، وعز الدين أيبك الخازندار، وجمال الدين أقوش الموصلي، ومبارز الدين أمير شكار، وسيف الدين بكتمر السلاح دار، وسيف الدين سلار، وسيف الدين طغي، وسيف الدين كرجي، وعز الدين طقطاي، وسيف الدين برلطاي في آخرين، حتى حملت الخزائن على البغال ورمي الدهليز. وساروا في خدمة لاجين إلى قريب المغرب، ونزلوا قريبًا من يازور وحضروا بأجمعهم بين يدي لاجين واتفقوا على سلطنته، وشرطوا عليه أن يكون معهم كأحدهم، ولا ينفرد برأي دونهم، ولا يبسط أيدي مماليك ولا يقدمهم، وحلفوه على ذلك. فلما حلف قال له الأمير قبجاق

المنصوري: نخشى أنك إذا جلست في منصب السلطنة تنسى هذا الذي تقرر بيننا وبينك، وتقدم مماليك وتخول مملوكك منكوتمر علينا، فيصيبنا منه ما أصابنا من مماليك كتبغا. وكان منكوتمر مملوك لاجين، وكان يوده ويؤثره، وله عنده مكانة متمكنة من قلبه. فحلف لاجين مرة ثانية أنه لا يفعل ذلك، ولا يخرج عما التزمه وشرطوه عليه، فحلف له الأمراء وأرباب الدولة. وتلقب بالملك المنصور، وركب بشعار السلطنة في يوم الثلاثاء سابع عشرى المحرم، وبات تلك الليلة ورحل إلى سكرير ومنها إلى غزة يريد الديار المصرية، فلما دخل غزة حمل الأمير بيسري الجتر على رأسه، فخطب له بغزة والقدس وصفد والكرك ونابلس، وضربت بها البشائر.

* * *

سنة سبع وتسعين في ستمائة

واتفق مجيء الخبر بالحلف بين المغل، وخروج التجريدة إلى سيس، فلما تفرق الأمراء ولم يبق من يخافه منكوتمر توجه إلى الأمير بيسري. واستمال إستاداره بهاء الدين أرسلان بن بيليك حتى صار من خواصه، ورتبه فيما يقوله. ثم حسن منكوتمر للسلطان أن ينتدب بيسري لكشف جسور الجيزة، فتقدم له بذلك مع أنها غض منه، إذ محله أجل من ذلك، فلم يأب وخرج إلى الجيزة بمماليكه وأتباعه، وصار يحضر الخدمة السلطانية بالقلعة في يومي الاثنين والخميس، ويجلس رأس الميمنة تحت الطواشي حسام الدين بلال المغيثي لأجل تقدمه، ويعود إلى الجيزة حتى أتقن عمل الجسور.

فلما تكامل إتقان الجسور استأذن بيسري السلطان في عمل ضيافة له، فإذن في ذلك، فاهتم لها اهتمامًا زائدًا ليحضر إليه السلطان بالجيزة. فأمكنت الفرصة منكوتمر ووجد سبيلا إلى بيسري، فخدع أرسلان استادار بيسري ورتبه في كلام يقوله السلطان، ووعده بإمرة طبلخاناه. فانخدع أرسلان ودخل مع منكوتمر إلى السلطان، وقال له بأن بيسري رتب أنه يقبض عليك إذا حضرت لضيافته فتخيل السلطان من قوله.

واتفق أن بيسري بعث إلى منكوتمر يطلب منه الدهليز السلطاني، لينصبه السلطان في مكان المهم، فبعثه إليه من غير أن يعلم السلطان. فلما مر الدهليز على

الجمال من تحت القلعة ليتوجهوا به إلى الجيزة رآه السلطان، فأنكر ذلك وبعث إلى منكوتمر يسأل منه.

فأنكر أن يكون له علم به، وقال: إنما بيسري استدعى به من مقدم الفراشين، وأخذه مماليكه من الفرش خاناه بغير إذن، وشرع يحتج لصدق ما قاله أرسلان بهذا. فرد السلطان الدهليز إلى الفرش خاناه، وغلب على ظنه صدق ما نقل له عن بيسري.

ولما وقع ذلك أطلع عليه بعض الأمراء الأكابر، فبعث أحدهم وهو الأمير سيف الدين طقجي الأشرفي يعلم بيسري بما جرى، ويعده بأنه معه هو جماعة من الأمراء، فلم يلتفت إلى قوله. فبعث أرغون أحد ممالك السلطان إلى بيسري بالخبر على جليته، وحذره من الحضور إلى خدمة السلطان، وأنه إن حضر أن يكون على استعداد. فلما أراده الله حضر بيسري يوم الاثنين المذكور إلى الخدمة على العادة، فقام له السلطان على عادته وأجلسه بجانبه. فلما قدم السماط لم يأكل بيسري واعتذر بأنه صائم، فأمر السلطان برفع مجمع من الطعام برسم فطوره فرفع له، وأخذ يحادثه حتى رفع السماط. وخرج الأمراء وقام الأمير بيسري معهم، فلما مشى عدة خطوات استدعاه السلطان إليه وحدثه طويلا، وكان الحجاب والنقباء يستحثون الأمراء على الخروج. ثم قام بيسري من عند السلطان ومشى خطوات، فاستدعاه السلطان ثانيا فعاد، وحدثه أيضًا حتى علم أن المجلس والدهاليز لم يبق بها أحد سوى مماليك السلطان فقط، فتركه. فقام بيسري ومشى، فاعترضه سيف الدين طقجي وعلاء الدين أيدغدي شقير، وعدلا به إلى جهة أخرى، وقبض أيدغدي شقير على سيفه وأخذه من وسطه، فنظر إليه طقجي وبكى، وجبذاه إلى القاعة الصالحية فاعتقل بها. فارتجت القلعة، وطار الخبر إلى القاهرة فأغلق باب زويلة وماج الناس، ثم فتح باب زويلة. ووقعت الحوطة على جميع موجوده، وقبض على جماعة من مماليكه ثم أفرج عنهم وأقام بيسري في القاعة مكرما، وحملت إليه امرأته وهي والدة أحمد بن السلطان الملك المنصور. فما زال معتقلا حتى مات. ومن العجب أن كلا من السلطان وبيسري أتى عليه في هذه من أخص أصحابه: فإن أرسلان ابن بدر الدين بيليك أمير مجلس، وكان بدر الدين هذا مملوكا للأمير بيسري، ورباه بيسري كالولد حتى كبر، وقدمه على أكابر مماليكه وعمله إستاداره، وبالغ في الإحسان إليه حتى أنه أعطاه في يوم واحد سبعين فرسا، وكان هو السبب في سلب نعمته كما ذكر. وأرغون كان أخص مماليك السلطان وأقربهم إليه، فأفشى سره إلى بيسري من حنقه لأن غيره من المماليك أخذ إمرة طبلخاناه وأعلى هو إمرة عشرة، فبقي في نفسه لذلك إحنة.

ولما قبض على بيسري والأمراء نفرت القلوب، وأكدت الوحشة موت عشرة أمراء في خمسة أيام، فاتهم السلطان بأنه سمهم.

وفيها قوي أمر منكوتمر، وتحكم تحكمة الملوك في جميع أمور المملكة، وقصد إخراج طغجي أيضًا من مصر، ففطن طغجي لذلك، فسأل الإذن في السفر إلى الحج فأذن له، وعمل أمير الركب.

* * *

سنة ثمان وتسعين وستمائة

في أول المحرم: قدم الخبر بأن التتر على عزم الحركة إلى الشام، فخرجت العساكر، ثم خرج الأمير أقش الأفرم. وتوجه حمدان بن صلغاي وعلاء الدين أيدغدي شقير على البريد لإخراج الأمير قبجق نائب الشام بالعسكر إلى حلب، فوصلا إلى دمشق في سابعه، فشرع قبجق في الاهتمام للسفر، وخرج بعسكرها وبالبحرية في يوم الأربعاء رابع عشره، وتأخر جاغان بدمشق. وعلم قبجق أن الأمر بخلاف ما أشيع من حركة التتار، وإنما القصد عمل مكيدة به وبغيره من الأمراء، فكان ذلك سببا لفراره إلى بلاد التتر.

وكان الذين اتفقوا على قتل السلطان من الأمراء سيف الدين كرجي، وسيف الدين نوغاي، وقرا طرنطاي، وحجك، وأرسلان، وأقوش، وبيليك الرسولي.

وكانت مدة سلطة لاجين منذ فارق الملك العادل كتبغا الدهليز بمنزلة العوجاء، وحلف الأمراء في يوم الاثنين ثامن عشري المحرم سنة ست وتسعين، وإلى أن قتل سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما، ومنذ خلع كتبغا نفسه بدمشق، واجتمعت الكلمة بمصر والشام على لاجين في يوم السبت رابع عشري صفر منها، وإلى أن قتل، سنتين وشهرين غير ثلاثة عشر يوما، وقتل السلطان لاجين وله من العمر نحو الخمسين سنة، وكان أشقر أزرق العين معرق الوجه، طوالا مهيبًا شجاعا مقداما، عاقلا متدينًا يحب العدل، ويميل إلى الخير ويحب أهله، جميل العشرة مع تقشف وقلة أذى. وأبطل عدة مكوس، وقال: إن عشت لا تركت مشمسا البتة. وكان يحب مجالسة الفقهاء والعامة ويأكل طعامهم، وكان أكولا. ولم يعب بشيء سوى انقياده إلى مملوكه ونائبه الأمير منكوتمر، ورجوعه إلى رأيه وموافقته له واتباعه لكل ما يهواه من شدة حبه له، حتى أدى ذلك إلى قتلهما، ثم إلى خراب البلاد بمجيء غازان، فإن قبجق

ومن معه من الأمراء حملهم بغضهم في منكوتمر وخوفهم منه على اللحاق بغازان وتحريضه على المسير إلى الشام، حتى كان منه ما يأتي ذكره إن شاء الله.

وكان لاجين منذ قتل الملك الأشرف يستشعر أنه لابد أن يقتل، حتى أنه في يوم الخميس الذي قتل في مسائه أحضر إليه بعد العصر بندب فارس ميداني من السلاح خاناه، فجعل يفتل فردة بعد فردة وهو يقول: من قتل قتل ويكرر هذا مرارًا، فكان الفأل موكلا بالمنطق، إذ قتل بعد أربع ساعات من كلامه.

ونظير هذا أن الملك الأشرف وقف في حلقة صيد، والنوبة يومئذ في حمل السلاح خلفه للاجين هذا فجاء لاجين إلى بدر الدين بكتوت العلائي وله أيضًا النوبة في حمل السلاح، وقد تقدم إلى مكانه من الحلقة وأعطاه سلاح السلطان، وأمره بالتوجه إلى السلطان فإنه أمر بذلك. فأخذ بكتوت السلاح وتوجه به إلى الخدمة، ووقف لاجين حيث كان بكتوت واقفا. فلما جاء بكتوت وجد الأشرف على فرسه، وقد جعل طرف عصاة مقرعته تحت جبهته، واتكأ برأسه عليها وهي ثابتة بحذاء سرجه، وكأنه في غيبة من شدة الفكر. ثم التفت الأشرف وقال: يا بكتوت والله لقد التفت فرأيت لاجين خلفي وهو يحمل السلاح والسيف في يده، فتخيلت أنه يضربني به، فنظرت إليه وقلت يا شقير أعط السلاح لبكتوت يحمله، وقف أنت مكانه. فقال بكتوت: أعيذ مولانا السلطان بالله أن يخطر هذا بباله، ولاجين أقل من هذا وأضعف نفسًا أن يقع هذا بباله، فضلا عن أن يقدم عليه. وهو مملوك السلطان، ومملوك مولانا السلطان الشهيد وتربية بيته الشريف. فقال الأشرف: والله ما عرفتك إلا ما خطر لي وتصورته. قال بكتوت: فخشيت على لاجين كون السلطان تخيل هذا فيه وأردت نصحه، فقلت له في تلك الليلة: بالله تجنب السلطان ولا تكثر حمل السلاح ولا تنفرد معه وأخبرته الخبر، فضحك ضحكا كثيرًا وتعجب. فقلت: والله هذا يبكي منه فقال: ما ضحكي إلا من إحساسه. والله لما نظر إلى وقال يا شقير، كنت على عزم من تجريد سيفه وقتله به. قال بكتوت: فعجب من ذلك غاية العجب ومن العجب أيضًا أن الضرب الذي كان في الملك الأشرف عند قتله وجد مثله سواء في لاجين لما قتل.

* * *

تدبير الأمراء بعد قتل الملك المنصور لاجين الأمر

ولما قتل الملك المنصور لاجين ونائبه الأمير منكوتمر اتفق من كان بالقلعة من الأمراء وهم عز الدين أيبك الخازندار المنصوري، وركن الدين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار الاستادار، وحسام الدين لاجين الرومي الاستادار الواصل من حلب، وجمال الدين أقوش الأفرم، وبدر الدين عبد الله السلاح دار، والأمير كرت الحاجب مع الأمير طغجى وكرجي على مكاتبة الملك الناصر محمد بن قلاوون وإحضاره من الكرك وإقامتة في السلطنة، وأن يكون طغجى نائب السلطنة، وألا يقع أمر من الأمور إلا بموافقة الأمراء عليه وتحالفوا على ذلك في ليلة الجمعة. فلما طلع النهار فتح باب القلعة، وركب الأمير جمال الدين أقوشق قتال السبع وبقية الأمراء إلى القلعة، وكتبوا إلى الأمير قبجق نائب الشام والأمير بلبان الطباخي نائب حلب. مما وقع، وطلبوا منهما القبض على أيدغدي شقير وجاغان وحمدان بن صلغاي والأمراء الحسامية. وسار البريد بذلك على يد الأمير بلغاق من أمراء دمشق، وكان قد حضر بكتاب الأمير قبجق في يوم السبت ثاني عشره بعد قتل لاحين، فأخذ طغجى منه الكتاب.

وجلس طغجى مكان النيابة وبقية الأمراء يمنة ويسرة، ومد السماط السلطاني على العادة. ودار الكلام في الإرسال إلى الملك الناصر، فقام كرجي وقال: يا أمراء، أنا الذي قتلت السلطان لاجين وأخذت ثأر أستاذي، والملك الناصر صغير ما يصلح، ولا يكون السلطان إلا هذا وأشار لطغجى وأنا أكون نائبه، ومن خالف فدونه فسكت الأمراء كلهم إلا كرت الحاجب فإنه قال: يا خوند الذي فعلته أنت قد علمه الأمراء، ومهما رسمت ما ثم من يخالف وانفضوا، وتأخر الإرسال إلى الملك الناصر.

فبعث طغجي إلى التاج عبد الرحمن الطويل مستوفي الدولة وسأله عن إقطاع النيابة فذكره له، فقال طغجي: هذا كثير، أنا لا أعطيه لنائب ورسم أن توفر منه جملة تستقر للخاص. فلما خرج التاج عبد الرحمن الطويل من عنده استدعاه كرجي وسأله عن إقطاع النيابة، فلما ذكره له استقله وقال: هذا ما يكفيني ولا أرضى به وعين بلادا يطلبها زيادة على إقطاع منكوتمر، فأخذ التاج يتعجب منهما في استعجالهما بذلك قبل انعقاد الأمر لهما.

وفي ليلة الأحد: وقع الطائر بنزول الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح بيلبيس بالعسكر المجرد إلى سيس فسر الأمراء بذلك، وكتبوا إليه وإلى من معه

بجميع ما وقع واتفاق طغجي وكرجي مفصلا. وصار أهل الدولة قسمين: الأمراء ورأيهم معدوق. مما يشير به الأمير بكتاش إذا حضر، وأما طغجي وكرجي وشاورشي والمماليك الأشرفية فإنهم يد واحدة على سلطنة طغجي ونيابة كرجي، وإنهم لا ينزلون إلى لقاء الأمير بكتاش، بل يقيمون مع طغجي بالقلعة حتى يحضر بكتاش. ممن معه وكان رأي الأمراء النزول إلى لقائهم.

فلما كان يوم الأحد ثالث عشره: نزل الأمير بكتاش بركة الحاج، وشرع الأمراء بالقلعة في التجهيز إلى لقائه. فامتنع كرجي من أن ينزل إليه أحد، بل أشار أن ينزل كل أحد إلى بيته، ويطلع الجميع من الغد القلعة، فيلبس طغجي خلعة السلطنة، وانفضوا على ذلك. فعلم الأمراء إنهم ما لم ينزلوا إلى لقاء الأمير بكتاش فاتهم ما دبروه، فلما اجتمعوا بعد العصر اخذوا مع طغجى وكرجي في تحسين النزول للقاء، فإن الأميربكتاش قديم هجرة وأتابك العساكر، وقد أثر في سبيل الله أثارًا جميلة وملك إحدى عشرة قلعة، وله غائب بالعسكر نحو سنة ونصف، فإن لم يتلقهم الأمراء صعب عليهم، ولو كان السلطان حيًا لخرج إلى لقائهم. هذا وطغجى وكرجي يقولان: لا نزول، وأما أنتم فانزلوا إن اخترتم فلما طال تحاورهم استحيا طغحى من الأمراء وقال لكرجي: الصواب فيما قاله الأمراء، والرأي أن أركب معهم ومعي مماليك السلطان ونلقي الأمير بكتاش، وتقيم أنت بالقلعة في طائفة من المماليك، فاتفقوا على ذلك. وعرض طغحى المماليك ومعه كرجي، وعينا أربعمائة تركيب مع طغجى، وأخرجت لهم الخيول من الإسطبل، وأن يقيم مع كرجي بقيتهم بالقلعة، وباتوا على ذلك.

وأما دمشق فإن بلغاق قدم إليها يوم السبت تاسع عشره، وقد بلغه تسحب الأمير قبجق. بمن معه إلى جهة الفرات فأخفي أمره وتوجه إلى حلب وأوقف الأمير بلبان الطاخبي على الخبر، فقبض الأمير بلبان من وقته على حمدان صلغاي وسجنه بالقلعة، وبعث البريد في طلب قبجق ومن معه، وكتب يعرفه بقتل لاجين ومنكوتمر. فصدف البريدي أيدغدي شقير وكجكن وبالوج في الطائفة الحسامية، وقد خرجوا في طلب قبجق ومن معه، فأنكروا أمره وفتشوه، فإذا في الكتب التي معه شرح ما وقع بمصر، فخاف أيدغدي شقير من نائب حلب لسوء ما عامله به، ودفع الكتب إلى البريدي وخلاه لسبيله، فمضى إلى قبجق، وتحير أيدغدي في أمره، ثم قوي عليه كجكن حتى سار به إلى حلب، فلم يتعرض إليه الأمير بلبان النائب بل عزاه وتوجع له.

وقام بدمشق الأمير بهاء الدين قرا أرسلان المنصوري، وقبض على الأمير سيف الدين جاغان الحسامي الشاد، وعلى الأمير حسام الدين لاجين الحسامي وإلى البر، وقدم الأمير كجكن من حلب فقبض عليه أيضًا، وسلمهم جميعًا لأرجواش نائب القلعة. وتحدث الأمير بهاء الدين قرا أرسلان المنصوري حديث نواب السلطة، وصار يركب بالعصائب والجاويش، ويجلس بدار السعادة وترفع له القصص على هيئة النواب، أوقع الحوطة على أبواب الأمراء المقتولين وحواصلهم، وحلف العسكر للملك الناصر. فلم تطل مدته، ومات في ثاني جمادى الأولى بقولنج وصارت دمشق بغير نائب ولا مشد ولا محتسب.

وكان خبر قيام قرا أرسلان قد ورد إلى الأمراء بمصر، فخرج البريد في سادس عشرى ربيع الآخر باستقرار سيف الدين قطوبك المنصوري في الشد عوضًا عن جاغان، فعاشر ذلك يوم الأحد خامس جمادى الأولى، عند قدوم البريد إلى دمشق.

وأما قبجق نائب دمشق، فإنه توجه ومعه الأمير بكتمر السلاح دار وفارس الدين ألبكي وسيف الدين عزاز وسيف الدين بزلار يريدون غازان، فمات بزلار قريبًا من سنجار. وتسامع بهم المغل، فركب جنكلي بن البابا أمير ديار بكر من قبل غازان وبالغ في إكرامهم، وتلقاهم صاحب ماردين وقام بأمرهم. فلحقه بريد نائب حلب بها، وأوقفه على الكتب المتضمنة لقتل لاجين ومنكوتمر، فبكى قبجق والأمراء نادمًا على سرعة مفارقتهم بلاد الشام، ولم يعجبهم العود، فكتبوا الجواب بالاعتذار.

وكان غازان فد بلغه مجيئهم إليه، فبعث أميرًا يتلقاهم، وسار بهم إلى الأردوا فركب غازان في موكبه وتلقاهم وأكرمهم، وضرب لهم الخركاوات وأمر لهم. مما يصلح لهم. ثم استدعاهم وباسطهم، فلما انصرفوا حمل إلى قبجق عشرة آلاف دينار ولبكتمر مثلها، ولعزاز والألبكي ستة آلاف دينار لكل منهما. وأنعم غازان عليهم وعلى من معهم بالخيول وغيرها، وتقدم إلى أمرائه بأن يعمل كل منهم لهم ضيافة، فأقامت الأفراح في الأردوا بسبب ضيافتهم عدة أيام، وصار قبجق في غاية المسمرة، فإنه أتاه طائفة من أهله وأقاربه، وأما بكتمر فإنه لم تطب نفسه بالإقامة.

ومن غريب الاتفاق أن السلطان الملك المنصور قلاوون جرى مرة عنده أمر تجريد عسكر إلى حلب، فذكر له قبجق هذا أن بجرد، فقال: أعوذ بالله أن أجرد قبجق إلى نحو الشام، فإنني ما أمنه أن يدخل البلاد، ويظهر لي من وجهه الميل إلى المغل. ثم التفت قلاوون إلى سنقر المساح، وقال: إن عشت يا أمير، وخرج قبجق إلى الشام، فستذكر قولي لك فكان كذلك.

ويقال: إنه كان مدة نيابته لدمشق يكاتب غازان، وعندما عزم على اللحاق به

استدعى منه طمغا البريد التي يركب بها الأمراء عندهم، فبعثها غازان إليه، وصارت عنده حتى ركب من ماردين فحملها إليه، وكان هو أكبر أسباب قدوم غازان إلى دمشق، كما يأتي ذكره إن شاء الله.

* * *

سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون ثانيًا

وكان من خبر ذلك أن الأمير سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار والأمير علم الدين سنجر الجاولي قدما إلى الكرك، فوجد الملك الناصر يتصيد بالغور، فوجها إليه. ودخل الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائب الكرك إلى أم السلطان ليبشرها، فخافت أن تكون مكيدة من لاجين، وتوقفت في المسير وابنها إلى مصر، فما زال بها حتى أجابت. ووصل الأميران إلى الملك الناصر فقبلا الأرض بين يديه وأعلماه الخبر، فأتي إلى المدينة وأخذ في تجهيز أحواله، والبريد يتواتر من مصر باستحثاثه على القدوم إليها، إلى أن هيا له نائب الكرك ما يليق به، وسار به إلى القاهرة فخرج الأمراء والعساكر إلى لقائه، وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بها أحد من الناس فرحا بقدومه، وخرجوا إليه عامة من يوم السبت رابع جمادى الأولى.

وجلس السلطان الملك الناصر على سرير الملك في يوم الاثنين سادسه، وجددت له البيعة، وكتب شرف الدين محمد بن فتح الدين القيسراني عهده عن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد.

وقدم البريد من دمشق بورود نحو ثلاثين بطسة في البحر إلى ساحل بيروت، في كل بطسة منها نحو سبعمائة، وقصدوا أن يطلعوا من مراكبهم إلى البر، وتحصل إغارتهم على الساحل. فاجتمع الناس لقتالهم، فبعث الله ريحًا كسرت المراكب وألقتها بالشاطئ، فأخذ أهل بيروت منها ما بقى من الغرق، وأسروا ثمانين إفرنجيًا، وذلك أخريات شعبان. وقويت شوكة البرجية بديار مصر، وصارت لهم الحمايات الكبيرة، وتردد الناس إليهم في الأشغال. وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمر منهم عدة، وصار في قبالته الأمير سيف الدين الدين سلار ومعه الصالحية والمنصورية، إلا أن البرجية أكثر وأقوى، وشرهوا جميعًا إلى أخذ الإقطاعات، ووقع الحسد بين الطائفتين، وصار بيبرس إذا أمر أحدًا من البرجية وقفت أصحاب سلار وطلبت منه أن يؤمر منهم واحدًا. وأخذ الأمير سيف الدين برلغي يشارك بيبرس وسلار في الأمر والنهي، وقويت شوكته والتف عليه المماليك الأشرفية.

وفي يوم الخميس ثاني عشر شعبان: وصل سلامش بن أفال نائب الروم إلى دمشق، مع الأمير عز الدين الزردكاش نائب بهسنا، في عشرين من أصحابه. فتلقاه عسكر دمشق وأهلها مع النائب وقد اهتم للقائه وبالغ في التجمل الزائد، فكان يوما بهجًا. وأنزله على الميدان وقام. مما يليق به، وأحضر في ليلة النصف ليرى الوقيد

بجامع بنى أمية.

وفي ليلة الاثنين سادس عشرة: أركبه البريد هو وأخوه قطقطوا، فقدما إلى قلعة الجبل ومعهما مخلص الدين الرومي فأكرمهم الأمراء وقاموا بواجبهم.

وكان من خبر سلامش أن غازان لما بعثه لأخذ بلاد الروم خرج عن طاعته، وحسن في رأيه الاستبداد. بملك الروم فاستخدم عشرة آلاف، وكاتب ابن فرمان أصر التركمان، وكتب إلى الملك المنصور لاجين سلطان مصر يطلب نجدة على قتال غازان على يد مخلص الدين الرومي. فأجيب في شهر رحب بالشكر والثناء، وكتب إلى دمشق بخروج العسكر لنصرته.

وكان غازان قد وصل إلى بغداد، فبلغه خروج سلامش عن طاعته، فأعرض عن المسير إلى الشام، وجهز العساكر إلى بلاد الروم، وأخرجهم أول جمادى الآخرة وعدتهم نحو الخمسة وثلاثين ألفًا وعليهم بولاي وعاد غازان إلى تبريز، ومعه الأمير قبجق وبكتمر السلاح دار والألبكي وبزلار، وسار بولاي إلى سنجار ونزل على رأس عين، ثم توجه إلى أمد.

وجمع سلامش نحو الستين ألفًا، وامتنع عليه أهل سيواس وهو يحاصرهم، فلما قرب منه بولاي بعساكر غازان فر عنه من كان معه من التتار إلى بولاي في أول ليلة من رجب، ثم التحق به أيضًا عسكر الروم، وفر التركمان إلى الجبال. ولم يبق مع سلامش إلا نحو الخمسمائة، فانهزم عن سيواس إلى جهة سيس، ووصل بهسنا آخر رجب. فورد خبره إلى دمشق في خامس شعبان والأمراء بها على عزم الخروج لنجدته، فتوقفت الحركة عن تسيير العساكر. فما كان بعض أيام إلا وسلامش قد وصل إلى دمشق، فخرج إليه عساكر دمشق والتقوه في موكب عظيم، ووصل صحبته من بهسنا الأمير بدر الدين الزردكاش نائب السلطنة بها.

ثم توجه سلامش وأخوه قطقطوا إلى الأبواب السلطانية، في يوم الأحد خامس عشر شعبان على خيل البريد، فلما قدم إلى قلعة الجبل أنعم على أخيه قطقطوا بإقطاع، ورتب لمخلص الدين الرومي جار، وخير سلامش بين المقام بالديار المصرية أو الشام أو أن يعود إلى بلاده، فسال أن يجرد معه جيش ليعود إلى بلاده ويحضر بعياله، ويرجع إلى خدمة السلطان. فوافقه السلطان على ذلك، فركب البريد إلى حلب، ورسم أن يخرج معه الأمير بكتمر الجلمي. فقدم سلامش دمشق في حادي عشر رمضان، وخرج من الغد ومعه الأمير بدر الدين الزردكاش، ولما وصل إلى حلب جرد معه الأمير بكتمر حسب المرسوم إلى جهة سيس، بعدما مر بحلب وخرج

منها بعسكر. ففطن به التتار فقاتلوه، فقتل الأمير بكتمر، وفر سلامش إلى بعض القلاع فقبض عليه وحمل إلى غازان فقتله.

وكان سلامش هذا من أكبر الأسباب في حركة غازان إلى بلاد الشام: وذلك إنه نهب بعسكر حلب ماردين في شهر رمضان حتى أخذ ما كان بجامعها، وفعل أفعالاً قبيحة، فحرك فعله ما عند غازان وجعله حجة لمسيره.

* * *

سنة تسع وتسعين وستمائة

أهلت والسلطان متوجه بعساكر مصر إلى الشام، والإرجاف يقوى بمسير غازان إلى الشام. فرحل السلطان بالعساكر من الريدانية أول يوم من المحرم، والأمراء قد كثر تحاسدهم وتنافسوا بكثرة سعادتهم، فلما وصلوا غزة أقبلوا على الصيد والاجتماع والنزه. فاشتد حنق الطائفة الأويراتية الذين قدموا في أيام العادل كتبغا، من أجل قتلى من قتل من أمرائهم في أيام المنصور لاجين، ومن خلع كتبغا وإخراجه إلى صرخد، ومن استبداد البرجية بالأمور. وعزموا على إثارة الفتنة، وصاروا إلى الأمير علاء الدين قطلو برس العادلي وأقاموه كبيرًا لهم، واتفقوا على أن برنطاي أحد المماليك السلطانية وألوص أحد كبراء الأويراتية يهجم كل منهما على الأميرين بيبرس وسلار ويقتله، ويعيدون دولة كتبغا.

فلما رحل السلطان بالعسكر من غزة ونزل تل العجول، ركب الأمراء للخدمة على العادة، وكان بيبرس يتأدب مع سلار ويركب بين يديه، فعندما ترجل الأمراء ولم يبق على فرسه سوى بيبرس وسلار، شهر برنطاى سيفه - وكان ماشيًا في ركاب بيبرس - وضربه، فوقعت الضربة على كفل الفرس فحلت ظهره، وضرب برنطاي ثانيًا، فوقعت الضربة على الكلفة فقطعتها وجرحت الوجه، فتبادرته السيوف حتى قتل.

ووقعت الصرخة في العسكر فركب الجميع، وقصد الأويراتية الدهليز السلطاني يريدون الهجمة على السلطان حتى صاروا في داخله، وقد ركب الأمراء في طلبهم، فركب الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار والمماليك السلطانية وفي ظنهم أن القصد قتل السلطان، ونشروا العصائب ووقفوا. وعاد بيبرس وسلار إلى مخيمهما، وأمرا الحجاب والنقباء بجمع العسكر إلى مخيم الأمير سلار النائب، فكان العسكر إذا أتوا

ورأوا سنجق السلطان وعصائبه منشورة مضوا إليه وتركوا سلار، فيردهم الحجاب فلا يلتفت منهم أحد، ولا يعود حتى يقف تحت السنجق السلطاني.

فبعث سلار إلى أمير جاندار يقول: ما هذه الفتنة التي تريدون إثارتها في هذا الوقت؟ ونحن على لقاء العدو وقد بلغنا أن الأويراتية قد وافقت المماليك السلطانية على قتلنا، وكان هذا برأيك ورأى السلطان، وقد دفع الله عنا. فإن كان الأمراء كذلك فنحن مماليك السلطان ومماليك أبيه الشهيد، ونحن نكون فداء المسلمين، وان لم يكن الأمر كذلك فابعثوا إلينا غرماءنا.

فلما سمع السلطان هذا بكى، وحلف إنه لم يكن عنده علم. مما ذكر، وحلف أمير جاندار أيضًا وقال: ولكن لما وقع ما وقع ظنوا إنهم يريدون قتل السلطان وإقامة غيره ثم قال أمير جاندار: إنما يريد الأمراء بهذا القول أن تقبض على مماليك السلطان طائفة بعد أخرى حتى تتمكن من مرادها، وان كان السلطان ومماليكه قد شوشوا على الأمراء فأنا آخذ السلطان ومماليكه وأسير إلى الكرك.

فلما بلغ الأمراء ذلك عزموا أن يركبوا على أمير جاندار، ثم توقفوا حتى بعثوا إلى الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح الأتابك. وكان على الجاليش وبينهما مرحلة، فلم يدخل في شيء من ذلك، وأوصى ألا يتعرض للسلطان بسوء. فرجع سلار إلى المداراة، وركب حتى أصلح بين أمير جندار والأمراء البرجية، وقبلوا جميعهم الأرض للسلطان وقبضوا على الأويراتية وعاقبوهم، فاقروا. مما عزموا عليه من قتل بيبرس وسلار وإعادة دولة العادل كتبغا، فزال ما كان في أنفس البرجية من موافقة السلطان وأمير جاندار للأويراتية.

وشنق من الغد نحو الخمسين من الأويراتية بثيابهم وكلفاتهم، ونودي عليهم: هذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك. وطلب الأمير قطلوبرس فلم يوجد، وكان قد فر إلى غزة واختفى بها، فنهبت أثقاله كلها، وأنزل بالمصلوبين في اليوم الرابع فأخذت البرجية تغرى ببيبرس، وتوحش بينه وبين سلار بأنه متفق عليه مع مماليك السلطان. فلما بلغ ذلك سلار تلطف مع بيبرس، واتفقا على إرسال طائفة من المماليك السلطانية إلى الكرك فلم يخالفهما السلطان، فأخذا منهم عدة ممن اتهماهم. بموافقة الأويراتية وحبساهم بالكرك.

فلما كان سحر يوم الأربعاء ثامن عشريه: ركب السلطان بالعساكر، وجد في السير إلى الرابعة من النهار، فظهرت طوالع التتر، فنودي عند ذلك في العساكر: أن ارموا الرماح واعتمدوا على ضرب السيف والدبوس، فألقوا رماحهم كلهم على

الأرض. ومشوا ساعة، ورتبوا العساكر بمجمع المروج - ويعرف اليوم بوادي الخزندار - وعدتهم بضعة وعشرون ألف فارس، والتتار في نحو مائة ألف. فوقف الأمير عيسى بن مهنا وسائر العربان رأس الميمنة، ويليهم الأمير بلبان الطباخي نائب حلب بعساكر حلب وحماة، ووقف في الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح والأمير أقش قتال السبع وعلم الدين سنجر وطغريل الإيغاني والحاج كرت نائب طرابلس، في عدة من الأمراء، وكان في القلب بيبرس وسلار وبرلغي وقطلوبك الحاجب وأيبك الخازندار، في عدة من الأمراء، وقد جعلوا جناحهم المماليك السلطانية، ووقف حسام الدين لاجين الأستادار مع السلطان على بعد من اللقاء حتى لا يعرف فيقصد، وقدموا خمسمائة مملوك من الزراقين في مقدمة العساكر.

وفي وقت الترتيب عرض للأمير بيبرس الجاشنكير حدة وإسهال مفرط لم يتمكن منه أن يثبت على الفرس، فركب المحفة واعتزل القتال، وأخذ الأمير سلار النائب معه الحجاب والأمراء والفقهاء، ودار على العساكر كلها والفقهاء تعظ الناس وتقوى عزائمهم على الثبات حتى كثر البكاء.

هذا وغازان ثابت لم يتحرك، وقد تقدم إلى أصحابه كلهم ألا يتحرك أحد منهم حتى يحمل هو بنفسه، فيتحركون عند ذلك يدًا واحدة، فبادر عساكر المسلمين للحركة، وأشعل الزراقون النفط، وحملوا على غازان فلم يتحرك، وكان في الظن أن غازان أيضًا يتحرك إلى لقائهم. فمرت خيول العساكر بقوة شوطها في العدو، ثم لما طال المدى قصرت في عدوها، وخمد نار النفط. فحمل عند ذلك غازان. بمن معه حملة واحدة حتى اختلط بالعساكر، بعدما قدم عشرة آلاف مشاة يرمون بالنشاب حتى أصابت سهامهم خيولاً كثيرة، وألقى الفرسان عنها. وكثرت نكاية العرب بالسهام، فولى العرب أولاً وتبعهم جيش حلب وحماة، فتمت هزيمة الميمنة من ميسرة غازان. وصدمت الميسرة ميمنة غازان صدمة فرقت جمعها وهزمتها عن آخرها، وقتلت منها نحو الخمسة آلاف، وكتب بذلك للسلطان - وهو معتزل في طائفة مع حسام الإستادار - فسر بذلك.

وكاد غازان أن يولي الإدبار، واستدعى قبجق نائب دمشق فشجعه قبجق وثبته حتى تلاحق به من انهزم وعاد له أمره، فحمل حملة واحدة على القلب فلم يثبت له، وولى سلار وبكتمر الجوكندار وبرلغي وسائر الأمراء البرجية، وركب غازان أقفيتهم حتى كانت سهامه تصيب خوذة الفارس فتقدح نارًا.

هذا والسلطان معتزل ومعه الحسام، وهو يبكي ويبتهل ويقول: يا رب لا تجعلني

كعبًا نحسًا على المسلمين، ويهم أن يفر مع القوم، فيمنعه الحسام ويقول: ما هي كسرة، لكن المسلمين قد تأخروا، ولم يبق معه من المماليك غير اثنى عشر مملوكًا.

وعادت الميسرة الإسلامية بعد كسرة ميمنة غازان إلى حمص بعد العصر ومعهم الغنائم، فإذا الأمراء البرجية أهل القلب قد انكسروا والمغل في أعقابهم فبهتوا. وخشى غازان من الكمناء فكف عن اتباع العساكر، وكان ذلك من لطف الله بهم، فلو قد مر في طلبهم لهلكوا من عند آخرهم.

ووصل المنهزمون إلى حمص وقت الغروب، وقد غنم التتر سائر ما كان معهم مما لا يدخل تحت الحصر، وألقوا عن أنفسهم السلاح طلبا للنجاة، فاشتد صراخ أهل حمص، وصاحوا بالعسكر: الله الله في المسلمين وقد كلت الخيول، فمروا إلى بعلبك ونزلوا عليها بكرة يوم الجمعة وقد غلقت أبوابها، فامتاروا منها ومروا في سيرهم إلى دمشق فدخلوها يوم السبت أول ربيع الآخر، وقد توجه أكثرهم على الساحل إلى مصر. فما هو إلا أن دخلوا دمشق حتى وقع الصارخ بمجيء غازان، فخرجوا بعد نحو ساعة من قدومهم وتركوا سائر ما لهم، وجعل أهل دمشق فتشتتوا في سائر الجهات، ومر بالعسكر من العشير والعربان أهوال، وأخذوا أكثر ما معهم نهبًا وسرقة.

وكان قد وصل إلى دمشق في يوم الخميس سادس الشهر أربعة من التتار من جهة غازان، ومعهم الشريف القمي، وكان قد توجه قبل توجه الجماعة هو وثلاثة من أهل دمشق إلى غازان، فعاد وبيده أمان لأهل دمشق. ثم قدم في يوم الجمعة سابعه بعد صلاة الجمعة الأمير إسماعيل التتري بجماعة من التتر، ودخل المدينة يوم السبت ليقرأ الفرمان بالجامع فاجتمع الناس، وقرأ بعض العجم الواصلين مع الأمير إسماعيل الفرمان بتأمين الكافة، وعاد إسماعيل إلى منزله بعدما صلى العصر.

وفي يوم الأحد: أخذ أهل دمشق في جمع الخيل والبغال والأموال، فنزل غازان على دمشق يوم الاثنين عاشره، وعاثت عساكره في الغوطة وظاهر المدينة تهب وتفسد، ونزل قبجق وبكتمر السلاح دار. بمن معهما في الميدان الأخضر، وامتدت التتر إلى القدس والكرك تنهب وتأسر.

وفي يوم الجمعة رابع عشره: خطب لغازان على منبر دمشق بألقابه، وهي: السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان، وصلى جماعة من المغل الجمعة. فلما انقضت الجمعة صعد الأمير قبجق والأمير إسماعيل سدة المؤذنين وقرئ على الناس تقليد قبجق بلاد الشام كلها وهى مدينة

دمشق وحلب وحماة وحمص وسائر الأعمال، وجعل إليه ولاية القضاة والخطباء وغيرهم. فنثرت على الناس الدنانير والدراهم، وفرحوا بذلك فرحا كثيرًا وجلس شيخ الشيوخ نظام الدين بالمدرسة العادية، وعتب الناس لعدم ترددهم إليه، ووعد بالدخول في صلح أمورهم مع غازان، وطلب الأموال وتعاظم إلى الغاية، واستخف بقبجق وقال: خمسمائة من قبجق ما يكونون في خاتمي. وصار نظام الدين يضع من قلعة دمشق ويستهين بها، ويقول: لو أردنا أخذها أخذناها من أول يوم، وكان لا يزال الدبوس على كتفه، ولم يكن فيه من أخلاق المشايخ ما يمدح به، بل أخذ نحو الثلاثين ألف دينار برطيلاً، حتى قال فيه علاء الدين بن مظفر ابن الكندي الوداعي:

شيخ غازان ما خلا ::: أحد من تجرده
وغدا الكل لابسي ::: خرقة الفقر من يده

وفي خامس عشره: بدأ التتر في نهب الصالحية، حتى أخذوا ما بالجامع والمدارس والتراب من البسط والقناديل، ونبشوا على الخبايا، فظهر لهم منها شيء كثير حتى كأنهم كانوا يعلمون أماكنها فمضى ابن تيمية في جمع كبير إلى شيخ الشيوخ وشكوا ذلك، فخرج معهم إلى حي الصالحية في ثامن عشره ليتبين حقيقة الأمر ففر التتر لما رأوه، والتجأ أهل الصالحية إلى دمشق في أسوأ حال.

وكان سبب نهب الصالحية أن متملك سيس بذل فيها مالاً عظيمًا، وكان قد " قصد خراب دمشق عوضًا عن بلاده، فتعصب الأمير قبجق ولم يمكنه من المدينة ورسم له بالصالحية، فتسلمها متملك سيس وأحرق المساجد والمدارس، وسبى وقتل وأخرب الصالحية، فبلغت عدة من قتل وأسر منها تسعة ألاف وتسعمائة نفس.

ولما فرغوا من الصالحية صار التتر إلى المزة وداريا، ونهبوهما وقتلوا جماعة من أهلهما فخرج ابن تيمية في يوم الخميس عشريه إلى غازان بتل راهط ليشكو له ما جرى من التتار بعد أمانه، فلم يمكنه الاجتماع به لشغله بالسكر، فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين، فقالا: لابد من المال، فانصرف. واشتد الطلب للمال على أهل دمشق، واستمر الحصار، وتعين نصب المنجنيق على القلعة بالجامع، وهيموا أخشابه ولم يبق إلا نصبه.

فبلغ ذلك أرجواش، فبعث طائفة هجمت على الجامع على حمية وأفسدت ما تهيأ فيه، فأقام التتر منجنيقًا آخر بالجامع واحترزوا عليه. واتخذوا الجامع حانة يزنون ويلوطون ويشربون الخمر فيه، ولم تقم به صلاة العشاء في بعض الليالي، ونهب التتر ما حول الجامع من السوق. فانتدب رجل من أهل القلعة لقتل المنجنيقي، ودخل

الجامع والمنجنيقي في ترتيب المنجنيق والمغل حوله، فهجم عليه وضربه بسكين فقتله. وكان معه جماعة تفرقوا في المغل يريدون قتلهم ففروا، وخلص الرجل بمن معه إلى القلعة سالمًا. وأخذ أرجواش في هدم ما حول القلعة من العمائر والبيوت، وصيروها دكا لئلا يستتر العدو في المنازلة بجدرانها، فأحرق ذلك كله وهدمه من باب النصر إلى باب الفرج، وشمل الحرق دار الحديث الأشرفية وعدة مدارس إلى العادلية، وأحرق أيضًا بظاهر البلد شيء كثير، وأحرق جامع التوبة بالعقيبة وعدة قصور وجواسق وبساتين.

فلما انتهت الجباية أقر غازان في نيابة دمشق الأمير قبجق، وفي نيابة حلب وحماة وحمص الأمير بكتمر السلاح دار، وفي نيابة صفد وطرابلس والساحل الأمير الألبكي. وجعل مع كل واحد عدة من المغل، وأقام مقدمًا عليهم لحماية الشام قطلوشاه، وجرد عشرين ألفًا من عسكره مع أربعة من المغل بالأغوار.

ورحل غازان في يوم الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى، وترك على دمشق نائبه قطلوشاه نازلاً بالقصر، وأخذ وزيره من أعيان دمشق بدر الدين محمد بن فضل الله، وعلاء الدين على بن شرف الدين محمد بن القلانسي، وشرف الدين محمد بن شمس الدين سعيد بن محمد سعيد بن الأثير.

ثم ترادفت العساكر إلى الديار المصرية شيئًا بعد شيء في أسوأِ حال، وكان ممن قدم معهم الملك العادل كتبغا، وصار يمشي في خدمة الأمير سلار نائب السلطة، ويجلس بين يديه ويرمل عليه إذا علم على المناشير وغيرها. واتفق مع ذلك إنه لما كان كتبغا سلطانًا نودي على جوسن للبيع، فبلغ ثمنه على بيبرس الجاشنكير أربعة آلاف درهم، ثم عرض على كتبغا وقيل له إنه على بيبرس بكذا، فقال: وهذا يصلح لذاك الخرياطي وأخذ الجوسن بثمنه. فلما زالت أيامه صار الجوسن لبيبرس بعد لاجين، فأراد نكاية كتبغا وأحضر الجوسن وكتبغا عنده، ولبسه وقال له: يا أمير إيش تقول؟ يصلح هذ لي؟ فلم يفطن كتبغا لما أراد، وقال له: والله يا أمير هذا كأنه فصل لك فنظر بيبرس إلى الأمراء يشير إليهم، فاشتد عجبهم من تغير الأحوال، فلم يشاهد أعجب من ذلك. وأقيم العزاء في الناس لمن فقد وكانوا خلقًا كثيرًا.

* * *

سنة سبعمائة

أهلت هذه السنة وقد ورد الخبر بحركة غازان إلى بلاد الشام، فوقع الاهتمام بالسفر.

وخرج السلطان من القلعة يوم السبت ثالث عشر صفر إلى الريدانية خارج القاهرة، وتلاحقت به الأمراء والعساكر، فسار إلى غزة وأقام بها يومين.

فورد الخبر بمسير غازان بعد عبوره من الفرات إلى نحو أنطاكية، وقد جفل الناس بين يديه. وخلت بلاد حلب وفر قرا سنقر نائبها إلى حماة، وبرز كتبغا نائب حماة ظاهرها في ثاني عشرى ربيع الأول، ووصل إليهم عساكر مصر والشام فأقاموا خارج حماة. وأمر السلطان الجيوش بالمسير من غزة، فوقع الرحيل إلى العوجاء. وأصاب العسكر فيها شدائد من الأمطار التي توالت أحدًا وأربعين يومًا حتى عدم فيها الواصل واشتد الغلاء. وأضعف البرد الدواب والغلمان، وبلغ الحمل التبن إلى أربعين درهما والعليقة الشعير ثلاثة دراهم، والخبز كل ثلاثة أرغفة بدرهم، واللحم كل رطل بثلاثة دراهم. وعقب المطر سيل عظيم أتلف معظم الأثقال، ومات جماعة من الغلمان وأربعة من الجند لشدة البرد. ثم وقع الرحيل في الأوحال العظيمة.

وفي جمادى الآخرة: كثر الإرجاف بعود التتر، وقد خلت البلاد الشامية من أهلها ونزحوا إلى مصر.

وفي رجب: كانت وقعة أهل الذمة: وهى أنهم كانوا قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر، وتفننوا في ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائعة بالحلي الفاخرة، ولبسوا الثياب السرية، وولوا الأعمال الجليلة. فاتفق قدوم وزير ملك المغرب يريد الحج، واجتمع بالسلطان والأمراء، وبينما هو تحت القلعة إذا برجل راكب فرسًا وحوله عدة من الناس مشاة في ركابه، يتضرعون له ويسألونه ويقبلون رجليه، وهو معرض عنهم لا يعبأ بهم بل ينهرهم ويصيح في غلمانه بطردهم. فقيل للمغربي أن هذا الراكب نصراني فشق عليه، واجتمع بالأميرين بيبرس وسلار وحدثهما بما رآه، وأنكر ذلك وبكى بكاء كثيرًا، وشنع في أمر النصارى وقال: كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيض، وتذل المسلمين وتشبههم في خدمتكم وأطال القول في الإنكار وما يلزم ولاة الأمور من إهانة أهل الذمة وتغيير

زيهم. فأثر كلامه في نفوس الأمراء، فرسم أن يعقد مجلس بحضور الحكام، واستدعيت القضاة والفقهاء، وطلب بطرك النصارى، وبرز مرسوم السلطان بحمل أهل الذمة على ما يقتضيه الشرع المحمدي. فاجتمع القضاة بالمدرسة الصالحية بين القصرين، وندب لذلك من بينهم قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي، وطلب بطرك النصارى، وجماعة من أساقفتهم وأكابر قسيسيهم وأعيان ملتهم، وديان اليهود وأكابر ملتهم، وسئلوا عما أقروا عليه في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من عقد الذمة، فلم يأتوا عن ذلك بجواب. وطال الكلام معهم إلى أن استقر الحال على أن النصارى تتميز بلباس العمائم الزرق، واليهود بلبس العمائم الصفر، ومنعوا من ركوب الخيل والبغال، ومن كل ما منعهم منه الشارع ، وألزموا بما شرطه عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه. فالتزموا ذلك وأشهد عليه البطرك أنه حرم على جميع النصرانية مخالفة ذلك والعدول عنه، وقال رئيس اليهود ودانهم: أوقعت الكلمة على سائر اليهود في مخالفة ذلك والخروج عنه وانفض المجلس، وطولع السلطان والأمراء. مما وقع، فكتب إلى أعمال مصر والشام به.

ولما كان يوم خميس العهد وهو العشرون من شهر رجب: جمع النصارى واليهود بالقاهرة ومصر وظواهرها، ورسم ألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان ولا بدواوين الأمراء، وألا يركبوا خيلاً وبغالاً، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم. ونودي بذلك في القاهرة ومصر، وهدد من خالفه بسفك دمه. فانحصر النصارى من دلك، وسعوا بالأموال في إبطال ما تقرر، فقام الأمير بيبرس الجاشنكير في إمضاء ما ذكر قيامًا محمودًا، وصمم تصميمًا زائدًا. فاضطر الحال بالنصارى إلى الإذعان، وأسلم أمين الملك عبد الله بن العنام مستوفي الصحبة وخلق كثير، حرصًا منهم على بقاء رياستهم، وأنفة من لبس العمائم الزرق وركوب الحمير. وخرج البريد بحمل النصارى اليهود فيما بين دمقلة من النوبة والفرات على ما تقدم ذكره.

وامتدت أيدي العامة إلى كنائس اليهود والنصارى، فهدموها بفتوى الشيخ الفقيه

نجم الدين أحمد بن محمد بن الرفعة. فطلب الأمراء القضاة والفقهاء للنظر في أمر الكنائس، فصرح ابن الرفعة بوجوب هدمها، وامتنع من ذلك قاضي القضاة تقي الدين محمد بن دقيق العيد، واحتج بأنه إذا قامت البينة بأنها أحدثت في الإسلام تهدم، وإلا فلا يتعرض لها، ووافقه البقية على هذا وانفضوا.

وكان أهل الإسكندرية لما ورد عليهم مرسوم السلطان في أمر الذمة ثاروا

بالنصارى وهدموا لهم كنيستين، وهدموا دور اليهود والنصارى التي تعلو على دور جيرانهم المسلمين، وحطوا مساطب حوانيتهم حتى صارت أسفل من حوانيت المسلمين. وهدم بالفيوم أيضًا كنيستان.

وقدم البريد في أمر الذمة إلى دمشق يوم الاثنين سابع شعبان، فاجتمع القضاة والأعيان عند الأمير أقش الأفرم وقرئ عليهم مرسوم السلطان بذلك، فنودي في خامس عشريه أن يلبس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر، وهددوا على المخالفة. فالتزم النصارى واليهود بسائر مملكة مصر والشام ما أمروا به، وصبغوا عمائمهم إلا أهل الكرك، فإن الأمير جمال الدين أقش الأفرم الأشرفي النائب بها رأى إبقاءهم على حالتهم، واعتذر بأن أكثر أهل الكرك نصارى، فلم يغير أهل الكرك والشوبك من النصارى العمائم البيض.

وبقيت الكنائس بأرض مصر مدة سنة مغلقة حتى قدمت رسل الأشكري ملك الفرنج تشفع في فتحها، ففتحت كنيسة المعلقة بمدينة مصر، وكنيسة ميكائيل الملكية ثم قدمت رسل ملوك آخر، ففتحت كنيسة حارة وزويلة، وكنيسة نقولا.

* * *

سنة إحدى في سبعمائة

في المحرم: عادت رسل غازان مع الرسل السلطان بجوابه.

وفيها مات الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد في ثامن عشر جمادى الأولى. بمناظر الكبش، فغسله الشيخ كريم الدين عبد الكريم الأبلي شيخ الشيوخ بخانقاه سعيد السعداء، وحضر الأمراء والناس جنازته، وصلى عليه بجامع ابن طولون، ودفن بجوار المشهد النفيسي. وكانت خلافته. بمصر أربعين سنة. وترك من الأولاد أبا الربيع سليمان ولي عهده، وإبراهيم بن أبي عبد الله محمد المستمسك بن الحاكم أحمد. فأقيم بعده أبو الربيع وعمره عشرون سنة، ولقب المستكفي بالله، وكتب تقليده وقرئ بحضرة السلطان في يوم الأحد عشرى جمادى الأولى، وكان يومًا مشهودًا. وخطب له على عادة أبيه، واستمر يركب مع السلطان في اللعب بالكرة ويخرج معه للصيد، وصارا كأخوين، وكان الحاكم قد عهد بالخلافة إلى ابنه الأمير أبي عبد الله محمد ولقبه المستمسك بالله، وجعل أبا الربيع من بعده. فمات المستمسك، واشتد حزن أبيه الحاكم عليه، فعهد لابنه إبراهيم بن محمد المستمسك من بعده. فلما

مات الحاكم لم يقدم بعده إلا أبا الربيع، وترك إبراهيم.

وفيها ورد البريد من حلب بأن تكفور متملك سيس منع الحمل وخرج عن الطاعة وانتمى لغازان، فرسم بخروج العسكر لمحاربته، وخرج الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح والأمير عز الدين أيبك الخازندار بمضافيهما من الأمراء والمفاردة في رمضان وساروا إلى حماة، فتوجه معهم العادل كتبغا في خامس عشرى شوال، وقدموا حلب في أول ذي القعدة ورحلوا منها في ثالثه، ودخلوا دربند بغراس في سابعه. وانتشروا في بلاد سيس، فحرقوا المزروع انتهبوا ما قدروا عليه، وحاصروا مدينة سيس وغنموا من سفح قلعتها شيئًا كثيرًا من جفال الأرمن، وعادوا من الدربند إلى مرج أنطاكية. فقدموا حلب في تاسع عشره، ونزلوا حماة في سابع عشريه، وقد ابتدأ بالعادل كتبغا مرض.

وفيها قدم البريد من طرابلس بأن الفرنج أنشأوا جزيرة تجاه طرابلس تعرف بجريرة أرواد، وعمروها بالعدد والآلات وكثر فيها جمعهم، وصاروا يركبون البحر ويأخذون المراكب، فرسم للوزير بعمارة أربعة شواني حربية، فشرع في ذلك.

* * *

سنة اثنتين وسبعمائة

وفي ثامنه: قدمت رسل غازان بكتابه، فأعيدوا بالجواب. وجهز الأمير حسام الدين ازدمر المجيري، شمس الدين محمد التيتي، وعماد الدين على بن عبد العزيز بن السكري، إلى غازان في عاشر ربيع الأول. فمضوا واجتمعوا به، فمنعهم من العود بسبب الوقعة الآتى ذكرها، ولازالوا مقيمين حتى هلك غازان، فعادوا في أيام خدا بندا.

وتواترت الأخبار بنزول غازان على الفرات، ووصل عسكره الرحبة وأراد منازلتها بنفسه. وكان النائب بها الأمير علم الدين سنجر الغتمي، فلاطفه وخرج إليه بالإقامات، وقال له: هذا المكان قريب المأخذ، والملك يقصد المدن الكبائر، فإذا ملكت البلاد التي هي أمامك فنحن لا نمتنع عليك، حتى كف عنه ورجع عابرًا الفرات، بعد أن أخذ ولده ومملوكه رهنًا على الوفاء. وبعث غازان قطلوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفًا، وكتب إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم نائب دمشق يرغبه في طاعته.

وأما العسكر السلطاني فقد دخل الأمير بيبرس الجاشنكير إلى دمشق بمن معه في نصف شعبان، وكتب يستحث السلطان على الخروج. وأقبل الناس من حلب وحماة إلى دمشق خائفين من التتر، فاستعد أهل دمشق للفرار ولم يبق إلا خروجهم، فنودي بها من خرج حل ماله ودمه. وخرج الأمير بهادرآص والأمير قطوبك المنصوري وأنص الجمدار على عسكر إلى حماة، ولحق بهم عسكر طرابلس وحمص، فاجتمعوا على حماة عند العادل كتبغا.

وبلغ التتر ذلك، فبعثوا طائفة كبيرة إلى القريتين فأوقعوا بالتركمان، فتوجه إليهم أسندمر كرجي نائب طرابلس بهادر آص وكجكن وغرلوا العادلي وتمر الساقي وأنص الجمدار ومحمد بن قرا سنقر، في ألف وخمسائة فارس. فطرقوهم بمنزلة عرض في حادي عشر شعبان على غفلة، وافترقوا عليهم أربع فرق، وقاتلوهم قتالاً شديدًا من نصف النهار إلى العصر حتى أفنوهم، وكانوا فيما يقال نحو أربعة آلاف. وأنقذوا التراكمين بحريمهم وأولادهم، وهم نحو ستة آلاف أسير، ولم يفقد من العسكر إلا الأمير أنص الجمدار المنصوري، ومحمد بن باشقرد الناصري، وستة وخمسين من الأجناد. وعاد من انهزم إلى قطلوشاه، وقد أسر العسكر مائة وثمانين من التتر. وكتب إلى السلطان بذلك، ودقت البشائر بدمشق، وكان قد خرج السلطان من قلعة الجبل ثالث شعبان، ومعه الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان في عسكر كثير، واستناب بديار مصر عز الدين أيبك البغدادي.

وكان التتر الذين عادوا منهزمين إلى قطلوشاه قد أخبروا أن السلطان لم يخرج من الديار المصرية، وأن ليس بالشام غير العسكر الشامي، فجد قطلوشاه في السير بجموع التتر حتى نزل على قرون حماة في ثالث عشريه، فاندفعت العساكر بين يديه إلى دمشق، وركب العادل كتبغا في محفة لضعفه، فاجتمع الكل بدمشق. واختلف رأيهم في الخروج إلى لقاء العدو أو انتظار قدوم السلطان، ثم خشوا من مفاجأة العدو، فنادوا بالرحيل وركبوا أول رمضان. فاضطربت دمشق بأهلها، وأخذوا في الرحيل منها على وجوههم، واشتروا الحمار بستمائة درهم والجمل بألف درهم، وترك كثير منهم حرمه وأولاده ونجا بنفسه إلى القلعة فلم يأت الليل إلا والنوادب في سائر نواحي المدينة. وسار العسكر مخفًا إلى لقاء العدو، وبات الناس بدمشق في الجامع يضجون بالدعاء إلى الله، فلما أصبحوا رحل التتر عن دمشق بعد أن نزلوا بالغوطة.

وبلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجهوا إليه من مرج راهط، فلقوه على عقبة

شجورا في يوم السبت ثاني رمضان، وقبلوا له الأرض. فورد عند لقائهم به الخبر بوصول التتر في خمسين ألفًا مع قطلوشاه نائب غازان. فلبس العسكر بأجمعه السلاح، واتفقوا على المحاربة بشقحب تحت جبل غباغب، وكان قطلوشاه قد وقف على أعلى النهر. فوقف في القلب السلطان وبجانبه الخليفة والأمير سلار النائب والأمير بيبرس الجاشنكير، وعز الدين أيبك الخازندار وسيف الدين بكتمر أمير جاندار وجمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام وبرلغي وايبك الحموي، وبكتمر البوبكري وقطلوبك ونوغاي السلاح دار وأغرلوا الزيني، وفي الميمنة الحسام لاجين أستادار ومبارز الدين سوار أمير شكار، ويعقوبا الشهرزوري ومبارز الدين أوليا بن قرمان، وفي الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماة والعربان، وفي الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير السلاح والأمير قرا سنقر بعساكر حلب والأمير بدخاص نائب صفد، وطغريل الإيغاني وبكتمر السلاح دار وبيبرس الدوادار، بمضافيهم.

ومشى السلطان والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن، ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار السلطان يقف، ويقول الخليفة: يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم ، والناس في بكاء شديد، ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض، وتواصى بيبرس وسلار على الثبات في الجهاد. وعاد السلطان إلى موقفه، ووقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفًا واحدًا، وقيل لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه، ولكم سلاحه وفرسه.

فلما تم الترتيب زحفت كراديس التتار كقطع الليل، بعد الظهر من يوم السبت المذكور، وأقبل قطلوشاه بمن معه من التوامين وحملوا على الميمنة وقاتلوها، فثبتت لهم وقاتلتهم قتالاً شديدًا، وقتل الحسام لاجين إستادار وأوليا بن قرمان وسنقر الكافري، وأيدمر الشمسي القشاش وأقوش الشمسي الحاجب والحسام على بن باخل، نحو الألف فارس. فأدركهم الأمراء من القلب ومن الميسرة، وصاح سلار: هلك والله أهل الإسلام، وصرخ في بيبرس والبرجية فأتوه وصدم بهم قطلوشاه، وأبلى ذلك اليوم هو وبيبرس بلاء عظيمًا، إلى أن كشفا التتار عن المسلمين.

وكان جوبان بن تداون وقرمجي بن الناق، وهما من توامين التتار، قد ساقا تقوية لبولاي وهو خلف المسلمين، فلما عاينا الكسرة على قطلوشاه أتياه ووقفا في وجه سلار وبيبرس. فخرج من أمراء السلطان أسندمر وقطلوبك وقبجق والمماليك السلطانية إعانة لبيبرس وسلار، فتمكنوا من العدو وهزموه، فمال التتر على برلغي

حتى مزقوه واستمرت الحرب بين سلار ومن معه وبين قطلوشاه، وكل منهما ثابت لقرنه.

وكانت الأمراء لما قتلت بالميمنة إنهزم من كان معهم، ومرت التتر خلفهم، فجفل الناس وظنوا إنها كسرة. وأقبل السواد الأعظم على الخزائن السلطانية فكسروها، ونهبوا ما بها من الأموال، وجفل النساء والأطفال، وكانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها وكشف النساء عن وجوههن وأسبلن الشعور، وضج ذاك الجمع العظيم بالدعاء، وقد كادت العقول أن تطيش وتذهب عند مشاهدة الهزيمة، فلم ير شيء أعظم منظرًا من ذلك الوقت إلى أن وقف كل من الطائفتين عن القتال.

ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصعد عليه وفي نفسه إنه انتصر، وأن بولاي في أثر المنهزمين يطلبهم. فلما صعد الجبل نظر السهل والوعر كله عساكر، والميسرة السلطانية ثابتة واعلامها تخفق، فبهت وتحير واستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه، وأتاه من كان خلف المنهزمين من الميمنة السلطانية، ومعهم عدة من المسلمين قد أسروهم، منهم الأمير عز الدين أيدمر نقيب المماليك السلطانية. فأحضره قطلوشاه وسأله: من أين أنت؟، فقال: من أمراء مصر، وأخبره بقدوم السلطان، ولم يعلم قطلوشاه بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا منه. فجمع قطلوشاه أصحابه وشاورهم فيما يفعل، وإذا بكوسات السلطان والأمراء والبوقات قد رجفت بحسها الأرض وأزعجت القلوب، فلم يثبت بولاي أحد مقدمي التتر، وخرج من تجاه قطلوشاه في نحو العشرين ألفًا، ونزل من الجبل بعد المغرب وفر هاربًا.

وبات السلطان وسائر العساكر على ظهور خيولها والطبول تضرب، وتلاحق به من انهزم شيئًا بعد شيء، وهم يقصدون ضرب الطبول السلطانية والكوسات الحربية. وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار، وصار بيبرس وسلار وقبجق والأمراء الأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يرصونهم ويرتبونهم، ويكثرون من التأكيد عليهم في التيقظ وأخذ الأهبة. فما طلع الفجر يوم الأحد إلا وقد اجتمع كل عساكر السلطان، ووقف كل أحد في مصافه مع أصحابه، والجفل والأثقال قد وقفوا على بعد، وكانت رؤيتهم تذهل، وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس.

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه، ونزلوا مشاة وفرسان وقاتلوا العساكر. فبرزت المماليك السلطانية بمقدميها إلى قطلوشاه وجوبان، وعملوا فيهم عملاً عظيمًا: تارة يرمونهم بالسهام، وتارة يهاجمونهم، واشتغل الأمراء بقتال من في جهتهم،

وصاروا يتناولون القتال أميرًا بعد أمير. وألحت المماليك السلطانية في القتال واستقتلوا، حتى أن فيهم من قتل تحته الثلاثة أروس من الخيل. ومازال الأمراء على ذلك حتى انتصف نهار يوم الأحد، وصعد قطلوشاه الجبل، وقد قتل منه نحو ثمانين رجلا، وجرح الكثير واشتد عطشهم.

واتفق أن بعض من أسروه نزل إلى السلطان وعرفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر ومصادمة الجيش، وأنهم في شدة من العطش. فاقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم، ثم يركب الجيش أقفيتهم.

فلما باتوا على ذلك وأصبح نهار يوم الاثنين، ركب التتار في الرابعة ونزلوا من الجبل، فلم يتعرض لهم أحد. وساروا إلى النهر فاقتحموه، وعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين، وأيدهم بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم، ومروا في أثرهم إلى وقت العصر وعادوا إلى السلطان. فسرحت الطيور بالنصر إلى غزة ومنع المنهزمون من التوجه إلى مصر، وتتبع من نهب الخزائن السلطانية والاحتفاظ به. وعين الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح للمسير بالبشارة إلى مصر، وسار من وقته، وكتب إلى دمشق وسائر القلاع بالبشارة.

ثم ركب السلطان في يوم الاثنين من مكان الواقعة، وبات ليلته بالكسوة، وأصبح يوم الثلاثاء خامس الشهر وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها - ومعه الخليفة - في عالم من الفرسان والعامة والأعيان والنساء والصبيان، لا يحصيهم إلا من خلقهم سبحانه، وهم يضجون بالدعاء والهناء. وتساقطت عبرات الناس، ودقت البشائر، وكان يوما لم يشاهد مثله، إلى أن نزل السلطان بالقصر الأبلق، ونزل الخليفة بالتربة الناصرية، وقد زينت المدينة.

واستمر الأمراء في أثر التتار إلى القريتين، وقد كلت خيول التتر وضعفت نفوسهم وألقوا أسلحتهم، واستسلموا للقتل والعساكر تقتلهم بغير مدافعة، حتى أن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقا كثيرًا، وغنموا عدة غنائم، وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتر فما فوقها. وأدركت عربان البلاد التتار وأخذوا في كيدهم: فيجيء منهم الاثنان والثلاثة إلى العدة الكثيرة من التتار كأنهم يسيرون بهم في البر من طريق قريبة إلى الليل، ثم يدعونهم وينصرفون، فتتحير التتر في البرية وتصبح فتموت عطشا. وفيهم من فر إلى غوطة دمشق، فتتبعتهم الناس وقتلوا منهم خلقا كثيرًا.

وخرج والى البر حتى جمع من استشهد من المسلمين، ودفنهم في موضع واحد

بغير غسل ولا كفن، وبنى عليهم قبة. وتتبع نائب غزة من انهزم من العسكر وأخذهم وفتشهم، فظفر منهم بجماعة معهم الأكياس المال بختمها. ووقف الأمير علم الدين سنجر الجاولي بطريق دمشق ومعه الخزان وشهود الخزانة، وأخذ الغلمان فظفر منهم بشيء كثير مما نهبوه، وعوقب جماعة بسبب ذلك. ومازال الأمر يشتد في الطلب، حتى تحصل أكثر ما نهب من الخزائن، ولم يفقد منه إلا القليل.

وأما التتار فإنه قتل أكثرهم، حتى لم يعبر قطلوشاه الفرات إلا في قليل من أصحابه.

وسار السلطان من دمشق في يوم الثلاثاء من شوال، ووصل إلى القاهرة ودخلها في ثالث والعشرين منه. وكان قدم بكتوت الفتاح إلى القاهرة يوم الاثنين ثامن شهر رمضان، فرسم بزينة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسة من القلعة، وكتب بإحصار سائر مغاني العرب من أعمال مصر كلها.

وفيها قام الأمير بيبرس الجاشنكير في إبطال عيد الشهيد بمصر: وذلك أن النصارى كان عندهم تابوت فيه إصبع يزعمون إنه أصبع بعض شهدائهم، وأن النيل لا يزيد ما لم يرم فيه التابوت، فتجتمع نصارى أرض مصر من سائر الجهات إلى ناحية شبرا، ويخرج أهل القاهرة ومصر، وتركب النصارى الخيول للعب، ويمتلئ البر بالخيم، والبحر بالمراكب المشحونة بالناس، ولا يبقى صاحب غناء ولا لهو حتى يحضر، وتتبرج زواني سائر البلاد. ويباع في ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم، حتى إنه في سنة باع رجل نصراني بمائتين وعشرين ألف درهم خمرًا، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من الخمر، وتثور في هذا اليوم الفتن ويقتل عدة قتلى، فأمر الأمير بيبرس بإبطال ذلك، وألا يرمى التابوت في النيل، وأخرج الحجاب والولي حتى منعوا الناس من الاجتماع، بعد أن كتب إلى جميع الولاة بالنداء إلا يخرج أحد إلى عمل عيد الشهيد. فشق ذلك على النصارى، واجتمعوا مع الأقباط الذين أظهروا الإسلام، وصاروا إلى التاج بن سعيد الدولة لتمكنه من الأمير بيبرس، فصار إليه وخيله من انكسار الخراج بإبطال العيد ومن عدم طلوع النيل، فلم يلتفت إليه وصمم على إبطاله، فبطل.

* * *

سنة ثلاث وسبعمائة

وفيها سارت العساكر من القاهرة للغارة على بلاد سيس، وعليهم الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح، ومعه الأمير علم الدين سنجر الصوابي والأمير شمس الدين سنقر شاه المنصوري ومضافيهم، وكتب إلى طرابلس وحماة وصفد وحلب بخروج العساكر إليها. فوصل الأمير بدر الدين بكتاش إلى دمشق في ثاني عشر رمضان، وخرج منها بعسكر دمشق، فسار إلى حلب وأتته عساكر البلاد، فمرض وأقام بحلب، وسار ابنه بالعساكر، وحرقوا مزارع سيس وخربوا الضياع وأسروا أهلها، ونازلوا تل حمدون وقد امتنع بقلعتها جماعة كثيرة من الأرمن، فقاتلوهم حتى فتحت بالأمان، وأخذوا منها ستة ملوك من ملوك الأرمن. فشق ذلك على تكفور ملك سيس، وقصد نكاية الملوك على تسليمهم قلعة تل حمدون بالأمان، وكتب إلى نائب حلب بأن ملوك القلاع هم الذين كانوا يمنعون من حمل الخراج، فلا تفرجوا عن أحد منهم، فليس عندي من يزن المال سواهم. فأمر النائب بقتلهم، فضربت رقاب الملوك الخمسة، وأسلم منهم صاحب قلعة نجيمة والتزم بأخذ سيس، فحمل إلى مصر وكتب صحبته بعود العساكر بالغنائم، فسر الأمراء والسلطان بذلك، وأكرم صاحب قلعة نجيمة، وكتب بعود العساكر.

وفيها قدم رسول ملك الفرنج الريدراكون البرشلوني بهدية جليلة القدر للسلطان وللأمراء، وسأل فتح كنائس النصارى فأجيب إلى ذلك، وفتحت كنيسة اليعاقبة بحارة زويلة وكنيسة الملكيين بالبندقانيين. وجهز جوابه مع فخر الدين عثمان إستادار الأمير عز الدين الأفرم، فاقترض نحو الستين ألف درهم، وبالغ في التجمل. فلما كان وقت السفر دفع الرسل ملطفًا من ملكهم إلى السلطان يسأل في فك رجل ممن أسر بجزيرة أرواد، فأفرج عنه وسار معهم إلى الإسكندرية، فبعث بعض الأسرى يعرف السلطان بأن: هذا الذي أفرج عنه ابن ملك كبير، ولو أردتم فيه مركبًا ملآن بالذهب لحمله إليكم في فكه، فكتب برده فعاد من الإسكندرية وقيد على ما كان. وركب الرسل البحر، حتى إذا أبعدوا عن الإسكندرية أنزلوا الأمير فخر الدين عثمان في قارب وأمروه بالعود، وأخذوا كل ما معه. فألقاه الريح على ساحل الإسكندرية، وحمل إلى مصر، فشكا إلى الأمراء أن الذي أخذ له دين عليه، فلم يلتفت أحد إليه، وكتب إلى الإسكندرية بإيقاع الحوطة على من يرد من فرنج برشلونة.

وفيها ورد الخبر بموت غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ملك المغل، في ثالث عشر شوال بنواحي الري، من مرض حاد، وكانت مدته ثمان سنين وعشرة أشهر. وقام بعده أخوه خدا بندا بن أرغون، وجلس على تخت الملك في ثالث عشرى ذي الحجة، وتلقب بغياث الدين محمد، وكتب إلى السلطان بجلوسه، وطلبه للصلح وإخماد الفتنة، وسير إليه رسله. وفيها توجه الوزير ناصر الدين محمد بن الشيخي إلى الإسكندرية، وألزم المباشرين بعمل الحساب. وكان متحصل الإسكندرية لا ينال ديوان السلطان منه إلا القليل، فإن الأمراء بيبرس وسلار وبرلغي والجوكندار ما منهم إلا من له بها نائب يتحدث في المتجر. فقام نائب الإسكندرية، ومنع الوزير من التحدث حتى يحضر الأمير سلار من الحجاز، فاتفق وصول مركب بمتجر للفرنج بلغ موجبه أربعين ألف د ينار.

ومات القان إبل خان معز الدين غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طولوي ابن جنكزخان، ببلاد قزوين في ثاني عشر شوال، وحمل إلى تربته خارج توريز. وكان جلوسه على تخت الملك في سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وأسلم في سنة أربع وتسعين وستمائة، ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس الناس، ففشا الإسلام بذلك في التتار، وأظهر غازان العدل، وتسمى بمحمود، وملك العراقين وخراسان وفارس والجزيرة والروم، وتسمى بالقان، وأفرد نفسه بالذكر في الخطبة، وضرب السكة باعه دون القان الأكبر، وطرد نائبه من بلاده، ولم يسبقه أحد من آبائه إلى هذا، فاقتدى به من جاء بعده، وكان أجل ملوك بيت هولاكو، إلا أنه كان يبخل بالنسبة إليهم.

* * *

سنة أربع وسبعمائة

وقدم البريد من حلب بحضور جماعة من المغل وافدين إلى بلاد الإسلام، نحو مائتي فارس بنسائهم وأولادهم، وفيهم عدة من أقارب غازان وبعض أولاد سنقر الأشقر، فكتب بإكرامهم، فقدموا إلى القاهرة في جمادى الأولى وقدم معهم أخوا سلار، وهما فخر الدين داود، وسيف الدين جبا، وقدمت أيضًا أم سلار. فرتبت لهم الرواتب، وأعطوا الإقطاعات، وفرق جماعة منهم على الأمراء. وأنشأ سلار لأمه دارًا بإسطبل الجوق الذي عمله العادل كتبغا ميدانًا، ثم عرف بحكر الخازن، ورقى أخويه وأعطاهم الإمريات وقدم الأمير حسام الدين أزدمر المجيري، وعماد الدين

على بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي بن معرف بن السكري، من بلاد الشرق إلى دمشق في رابع عشرى شعبان، ودخلا القاهرة أول رمضان، ومعهما كتاب خر بندا وهديته، فتضمن كتابه جلوسه على تخت الملك بعد أخيه محمود غازان، وخاطب السلطان بالأخوة، وسأل إخماد الفتن، وطلب الصلح، وقال في آخر كلامه: عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه. فأجيب وجهزت له الهدية، وأكرم رسوله، وسفر معه علاء الدين على ابن الأمير سيف الدين بلبان القلنجقي أحد مقدمي الحلقة، والصدر سليمان المالكي المرتقى أحد العدول، فتوجهوا في أول ذي القعدة، وعاد علاء الدين وسليمان المالكي في رمضان من سنة خمس وسبعمائة. وقدم بدر الدين محمد بن فضل الله بن مجلي من بلاد غازان إلى دمشق في ثالث عشرى جمادى الآخرة.

وقدم رسل الملك طقطاي صاحب سراي وبر القبجاق في أول ربيع الأول، وأنزلوا بمناظر الكبش، وأجريت لهم الرواتب. ثم حضروا بهديتهم وكتاب ملكهم، وهو يتضمن الركوب لحرب غازان ليكون في المساعدة عليه، فأجيب بأن الله قد كفاهم أمر غازان، وأن أخاه خربندا قد أذعن للصلح، وجهزت له هدية خرج بها مع الرسل الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي إلى الإسكندرية، وساروا في البحر.

وقدم أياي ملك دمقلة من بلاد النوبة بهدية ما بين جمال وأبقار ورقيق وشب وسنبادج، وطلب عسكرًا، فأنزل بدار الضيافة وعن معه الأمير سيف الدين طقصبا والي قوص وجماعة الوافدية، وعدة من أجناده الحلقة نحو ثلاثمائة فارس، ومن أجناد الولاة بالوجه القبلي ومن العربان جماعة كبيرة. فاجتمعوا من البر والبحر بقوص، وسار بهم طقصبا مع أياي ملك النوبة.

* * *

سنة خمس وسبعمائة

وفيها أخر متملك سيس الحمل الجاري به العادة، فبعث إليه نائب حلب استاداره قشتمر الشمسي أحد مقدمي حلب على عسكر نحو الألفين، وفيهم الأمير شمس الدين أقسنقر الفارسي والأمير فتح الدين صبرة المهمندار، والأمير قشتمر النجيبي، وقشتمر المظفري، في ذي الحجة من السنة الماضية. فشنوا الغارات على بلاد سيس، ونهبوا وحرقوا كثيرًا من الضياع، وسبوا النساء والأطفال في المحرم. وكان قد وصل إلى سيس طائفة من التتار في طلب المال، فركب التتار مع صاحب سيس، وملكوا رأس الدربند، فركب العسكر لقتالهم وقد انحصروا، فرمى التتار عليهم بالنشاب والأرمن بالحجارة، فقتل جماعة وأسر من الأمراء ابن صبرة، وقشتمر النجيبي، وقشتمر المظفري، في آخرين من أهل حلب، وخلص قشتمر مقدم العسكر، وآقسنقر الفارسي. وتوجه التتار بالأسرى إلى خربندا بالأردن، فرسم عليهم: وبلغ نائب حلب خبر الكسرة، فكتب بذلك إلى السلطان والأمراء، فرسم بخروج الأمير بكتاش أمير سلاح، وبيبرس الدوادار وأقوش الموصلي قتال السبع، والدكن السلاح دار، فساروا من القاهرة في نصف شعبان على أربعة آلاف فارس. فبعث متملك سيس الحمل، واعتذر بأن القتال لم يكن منه وإنما كان من التتر، ووعده بالتحيل في إحضار الأمراء المأسورين، فرجع الأمير بكتاش بمن معه من غزة.

وفيها قدم رسول ملك قسطنطينية، ومعه رسول الكرج، بهدايا وكتاب يتضمن الشفاعة في فتح الكنيسة المصلبة بالقدس لزيارة الكرج لها، وأن الكرج تكون في طاعة السلطان وعونًا له متى احتاج إليهم. فكتب بفتح الكنيسة ففتحت، وأعيد الرسول بالجواب.

* * *

سنة ست وسبعمائة

وفيها قدم الرسل الذين توجهوا إلى الملك طقطاي صاحب بلاد الشمال: وهم الأمير بلبان الصرخدي ورفقته، ومعهم نامون رسول طقطاي بهدية سنية، وكتاب يتضمن أن عسكر مصر تسر إلى بر الفرات ليسير معهم ويأخذ بلاد غازان، ويكون لكل منهما ما يصل إليه من البلاد. فأكرم الرسول وجهزت له الهدايا، وأجيب بأن الصلح قد وقع مع خربندا ولا يليق نقضه، فإن حدث غير ذلك عمل بمقتضاه وسير إليه الأمير بدر الدين بكمش الظاهري، وفخر الدين أياز الشمسي أمير أخور، وسنقر الأشقر، وأحد مقدمي الحلقة.

* * *

سنة سبع وسبعمائة

وفيها ضجر السلطان من تحكم الأميرين بيبرس وسلار عليه، ومنعه من التصرف، وضيق يده.، وشكا ذلك لخاصيته. واستدعى الأمير بكتمر الجوكندار أمير جاندار في خفية، وأعلمه. مما عزم عليه من القيام على الأميرين، فقرر الأمير أن القلعة إذا أغلقت في الليل، وحملت مفاتيحها إلى السلطان على العادة، ولبست مماليك السلطان السلاح، وركبت الخيول من الإسطبل، وسارت إلى إسطبلات الأمراء، ودقت كوسات السلطان بالقلعة دقًا حربيًا ليجتمع تحت القلعة من هو في طاعة السلطان، ويحبهم بكتمر الجوكندار في عدة على بيتي بيبرس وسلار بالقلعة، ويأخذونهما. وكان لكل من بيرس وسلار أعين عند السلطان، فبلغهما ذلك فاحترسا، وأمرا الأمير سيف الدين بلبان الدمشقي والي القلعة - وكان حريصًا بهما - أن يوهم أنه أغلق باب القلعة، ويطرف أقفالها، ويعبر بالمفاتيح على العادة، ففعل ذلك. وظن السلطان ومماليكه أنهم قد حصلوا على غرضهم، وانتظروا بكتمر الجوكندار أن يحضر إليهم فلم يحضر، وبعثوا إليه فإذا هو مع بيبرس وسلار، قد حلف لهما على القيام معهما. فلما طلع النهار ظن السلطان أن بكتمر قد غدر به، وترقب المكروه من الأمراء.

وأما بكتمر فإن بيبرس وسلار لما بلغهما الخبر خرجا إلى دار النيابة بالقلعة، وعزم بيبرس أن يهجم على بكتمر ويقتله، فمنعه سلار لما كان عنده من السبت

والتؤدة، وأشار بالإرسال إليه ليحضر حتى تبطل حركة السلطان. فلما أتاه الرسول تحير وقصد الامتناع، ولبس مماليكه السلاح، ثم منعهم وخرج، فعنفه سلار ولامه على ما قصد. فأنكر وحلف لهم على أنه معهم، وأقام إلى الصباح، ودخل مع الأمراء إلى الخدمة عند الأمير سلار. ووقف ألزام بيبرس وسلار على خيولهم بباب الإسطبل مترقبين خروج المماليك السلطانية، ولم يدخل أحد من الأمراء إلى خدمة السلطان، وتشاوروا. وقد أشيع في القاهرة أن الأمراء يريدون قتل السلطان، أو إخراجه إلى الكرك، فلم تفتح الأسواق، وخرج العامة والأجناد إلى تحت القلعة، وبقي الأمراء نهارهم مجتمعين، وبعثوا بالاحتراس على السلطان خوفًا من نزوله من باب السر. وألبسوا عدة مماليك، وأوقفوهم مع الأمير سيف الدين سمك أخي سلار على باب الإسطبل.

فلما كان نصف الليل وقع بداخل الإسطبل حس وحركة من قيام المماليك السلطانية ولبسهم السلاح، لينزلوا بالسلطان على حمية من الإسطبل، وتوقعوا الحرب، فمنعهم السلطان من ذلك، وأراد سمك إقامة الحرمة، فرمى بالنشاب وضرب الطبل، فوقع سهم بالرفرف السلطاني. واستمر الحال على ذلك إلى أذان العصر من الغد، فبعث السلطان إلى الأمراء يقول: ما سبب الركوب على باب إسطبلي؟ إن كان غرضكم في الملك فهل أنا متطلع إليه؟ فخذوه وابعثوني أي موضع أردتم. فردوا الجواب مع الأمير بيبرس الدوادار والأمير عز الدين أيبك الخازندار والأمير برلغي الأشرفي، بأن السبب هو من عند السلطان من المماليك الذين يحرضونه على الأمراء، فعتبهم على ما هو فيه، وأنكر أن يكون أحد من مماليكه ذكر له شيئًا عن الأمراء.

وفي عودهم من عند السلطان وقعت ضجة بالقلعة سببها أن العامة كان جمعهم قد كثر، فلما رأوا السلطان قد وقف بالرفرف، وحواشي بيبرس وسلار قد وقفوا على باب الإسطبل محاصرين، حنقوا من هذا وصرخوا، ثم حملوا يدًا واحدة على الأمراء بباب الإسطبل، وهم يقولون: " يا ناصر يا منصور. فأراد سمك قتالهم، فمنعه من معه من الأمراء. وبلغ ذلك بيبرس وسلار، فأرسل الأمير سيف الدين تخاص المنصوري في عدة مماليك إلى العامة فضربوهم بالدبابيس ليتفرقوا فاشتد صياحهم يا ناصر يا منصور، وتكاثر جمعهم ودعاؤهم للسلطان، وصاروا يقولون: الله يخون من يخون ابن قلاوون، وحملت طائفة منهم على بتخاص ورجمته طائفة أخرى، فجرد السيف ليضعه فيهم، ثم خشي العاقبة وأخذ يلاطفهم، وقال: طيبوا خواطركم، فإن

السلطان قد طاب خاطره على الأمراء، ومازال بهم حتى تفرقوا وعاد.

فبعث الأمراء ثانيًا إلى السلطان بأنهم مماليكه وفي طاعته، ولابد من إخراج الشباب الذين يرمون الفتن، فامتنع من ذلك واشتد، فمازال به بيبرس الدوادار وبرلغي حتى أخرج بهم إلى الأمراء، وهم بيلغا الترجماني وأيدمر المرتد وخاص ترك. فهددهم بيبرس وسلار ووبخاهم وقصدا تقييدهم، فلم توافق الأمراء على ذلك رعاية لخاطر السلطان، وأخرجوا إلى القدس من وقتهم على البريد. ودخل جميع الأمراء على السلطان وقبلوا الأرض، ثم قبلوا يده، فأفيضت عليهم الخلع، وعلى الأمير بيبرس وسلار في ثالثه.

ثم سأل الأمراء السلطان أن يركب في أمرائه إلى الجبل الأحمر: حتى تطمئن قلوب العامة ويعلموا أن الفتنة خمدت، فأجاب وخرجوا. وبات السلطان في قلق زائد وكرب عظيم لإخراج مماليكه، وركب من الغد بالأمراء إلى قبة النصر تحت الجبل الأحمر، وعاد بعدما قال بيبرس وسلار: إن سبب الفتنة إنما كان من بكتمر الجوكندار وذلك إنه رآه قد ركب بجانب الأمير بيبرس وحادثه، فتذكر غدره به، وشق عليه ذلك. فتلطفوا به في أمره فقال: والله ما بقيت لي عين تنظر إليه، ومتى أقام في مصر لا جلست على كرسي الملك أبدًا فأخرج من وقته إلى قلعة الصبيبة في خامس عشره، واستقر عوضه أمير جاندار بدر الدين بكتوت الفتاح، فلما مات سنقر شاه نائب صفد استقر عوضه بكتمر الجوكندار. وتوجه الأمير كراي المنصوري إلى بلدة أدفو بالصعيد، وهو حنق على الأمير بيبرس الجاشنكير.

* * *

سنة ثمان وسبعمائة

وفيها وصلت رسل سيس بالحمل على العادة، ومن جملته طشت ذهب مرصع بالجوهر.

وفيها عدى السلطان إلى نهر الجيزة، وأقام يتصدى نحو عشرين يومًا، وعاد وقد ضاق صدره واشتد حنقه، وصار في غاية الحصر من تحكم بيبرس وسلار عليه، وعدم تصرفه ومنعه من كل ما يريد حتى إنه ما يصل إلى ما يشتهي أكله لقلة المرتب، فلولا ما كان يتحصل له من أوقاف أبيه لما وجد سبيلاً إلى بلوغ بعض أغراضه. فأخذ في العمل لنفسه. وأظهر أنه يريد الحج بعياله، وحدث بيبرس وسلار في ذلك يوم النصف من رمضان، فوافقاه عليه. وأعجب البرجية سفره لينالوا أغراضهم، وشرعوا في تجهيزه، وكتبوا إلى دمشق والكرك وغيره برمي الإقامات، وألزم عرب الشرقية بحمل الشعير، فتهيأ ذلك. وأحضر الأمراء تقادمهم وتأنقوا فيها، فقلبها السلطان وشكرهم على ذلك؛ وركب في خامس عشرى رمضان يريد السفر، ونزل من القلعة ومعه الأمراء؛ وخرج العامة وتباكوا حوله، وتأسفوا على فراقه، ودعوا له إلى أن نزل بركة الحاج. وتعين للسفر معه من الأمراء عز الدين أيدمر الخطيري الإستادار عوضًا عن الجاولي، وسيف الدين آل ملك الجوكندار. وحسام الدين قرا لاجين أمير مجلس، وسيف الدين بلبان أمير جاندار، وعز الدين أيبك الرومي السلاح دار، وركن الدين بيبرس الأحمدي، وعلم الدين سنجر الجمقدار، وسيف الدين يقطاي الساقي، وشمس الدين سنقر السعدي النقيب، ومن المماليك خمسة وسبعون نفرًا. وودعه بيبرس وسلار فيمن معهم من الأمراء وهم على خيولهم من غير أن يترحلوا له، وعاد الأمراء. ورحل السلطان من ليلته، وعرج إلى جهة الصالحية وعيد بها، وسار إلى الكرك ومعه رحل الخاص مائة وخمسون فرسًا، فقدمها يوم الأحد عاشر شوال. فاحتفل الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي المعروف بنائب الكرك بقدومه، وقام بما يليق به، وزين القلعة والمدينة، وفتح باب السر ومد الجسر، وكان له مدة لم يمد، وقد سار خشبه، فلما عبرت الدواب عليه، وأتى السلطان في أخرهم انكسر الجسر تحت رجلي فرسه بعد ما تعدى يديه الجسر، فكاد يسقط إلى الخندق لولا أنهم جبدوا العنان حتى خرج من الجسر وهو سالم وسقط الأمير بلبان طرنا أمير جاندار، وجماعة لم يمت منهم سوى رجل واحد.

وعندما استقر السلطان بقلعة الكرك عرف الأمراء أنه قد انثنى عزمه عن الحج، واختار الإقامة بالكرك، وترك السلطنة ليستريح خاطره؛ فشق عليهم ذلك، وبكوا وقبلوا له الأرض يتضرعون إليه في ترك هذا الخاطر، وكشفوا رؤوسهم فلم يرجع إليهم، وقال السلطان للخطيري: قد أخذ بيبرس الجاشنكير السلطنة ولابد، ثم استدعى علاء الدين على بن أحمد بن سعيد بن الأثير، وكان قد توجه معه، وكتب إلى الأمراء بالسلام عليهم، وأنه رجع عن الحج وأقام بالكرك وترك السلطة، ويسًال الإنعام عليه بالكرك والشوبك، وأعطاه للأمراء وأمرهم بالعود، وأعطاهم الهجن - وعدتها خمسمائة هجين - والجمال والمال الذي قدمه له الأمراء، فساروا إلى القاهرة.

واستولى السلطان على ما كان في الكرك من المال، وهو ستمائة ألف درهم فضة وعشرون ألف دينار، وقيل: بل وجد سبعة وعشرين ألف دينار وسبعمائة ألف درهم. واستدعى أهل الكرك، فحلفهم له الأمير جمال الدين نائب الكرك، وأمرهم فحملوا له أحجارًا كثيرة إلى القلعة، فلم يبق أحد حتى حمل إليه الحجارة من الوادي. فلما حصل نائب الكرك والناس في الوادي لنقل الحجارة، بعث السلطان إلى النائب أن يتوجه إلى مصر وينقل ماله بالكرك وبين له أن أهل القلعة لا سبيل إلى مجاورتهم له بها ولا بإقامتهم بالمدينة، فإني أعلم كيف باعوا الملك السعيد بن الظاهر بالمال لطرنطاي، وقد مكنت حريمهم وأولادهم من النزول إليهم. فامتثل النائب الأمر وأخذ حريمه، وقدم للسلطان ما كان له من الغلال وهي شيء كثير فقبلها، وأخذ أهل القلعة حريمهم وتفرقوا في البلاد.

* * *

السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري

جلس على تخت الملك في يوم السبت ثالث عشرى شوال سنة ثمان وسبعمائة، وذلك أنه لما أصبح يوم السبت جلس الأمير سلار النائب بشباك دار النيابة، وحضر بيبرس الجاشنكير وسائر الأمراء واشتوروا فيمن يلي السلطنة. فقال الأمير أقوش قتال السبع والأمير بيبرس الدواداري والأمير أيبك الخازندار، وهم أكابر المنصورية: ينبغي استدعاء الخليفة والقضاة وإعلامهم. كلا وقع فخرج الطلب لهم وحضروا، فقرئ عليهم كتاب السلطان، وشهد عند قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي الأميران عز الدين الخطيري والحاج آل ملك، ومن كان معهم من الأمراء، بنزول الملك الناصر عن المملكة وترك سلطنة مصر والشام، فأثبت ذلك. وأعيد الكلام فيمن يصلح، فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سلار، فقال: نعم! على شرط أن كل ما أشير به لا تخالفوه وأحضر المصحف وحلفهم على موافقته، وألا يخالفوه في شيء. فقلق البرجية ولم تبق إلا إقامتهم الفتنة، فكفهم الله عن ذلك وانقضى الحلف. فقال سلار: والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك، ولا يصلح له إلا أخي هذا وأشار إلى بيبرس الجاشنكير، ونهض قائمًا إليه؛ فتسارع البرجية وقالوا بأجمعهم: صدق الأمير، وأخذوا بيد بيبرس وأقاموه كرهًا، وصاحوا بالجاوشية فصرخوا باسمه. وكان فرس النوبة عند الشباك. فألبسوه تشريف الخلافة: وهي فرجية أطلس أسود وطرحة، وتقلد بسيفين على العادة. ومشى سلار والناس بين يديه من دار النيابة بعد العصر حتى ركب، وعبر باب القلعة إلى الإيوان، وجلس على التخت، ولقب بالملك المظفر، وصار يبكي بحيث يراه الناس. ثم قام إلى القصر، وتفرق الناس بعدما ظنوا كل ظن من وقوع الحرب بين السلارية والبيبرسية. فكانت مدة سلطنة الملك الناصر هذه عشر سنين وخمسة أشهر وسبعة عشر يومًا.

وكتب للملك الناصر تقليد بنيابة الكرك ومنشور بإقطاع مائة فارس، وجهز إليه وقرن بهما كتاب الملك المظفر: بأني أجبت سؤالك فيما اخترته، وقد حكم الأمراء على فلم تمكن مخالفتهم، وأنا نائبك وخرج بها الأمير الحاج آل ملك فلما وصل إليه أظهر البشر، وأمر الحراس أن يصيحوا باسم الملك المظفر، وخطب له يوم الجمعة أيضًا على منبر الكرك، وأنعم على البريدي وأعاده؛ فسر المظفر بذلك.

وورد الخبر بَان متملك قبرس اتفق مع جماعة من ملوك الفرنج على عمارة ستين قطعة لغزو دمياط، فجمع السلطان الأمراء وشاورهم، فاتفقوا على عمل جسر

ماد من القاهرة إلى دمياط خوفًا من نزول الفرنج أيام النيل، وندب لفلك الأمير جمال الدين أقوش الرومي الحسامي، وأمر ألا يراعي أحدًا من الأمراء في تأخير رجال بلاده، ورسم للأمراء أن يخرج كل منهم الرجال والأبقار، وكتب إلى الولاة بالمساعدة والعمل، وأن يخرج كل وال برجاله. وكان أقوش مهابًا عبوسًا قليل الكلام، له حرمة في قلوب الناس؛ فلم يصل إلى فارس كور حتى وجد ولاة العمل قد نصبوا الخيم وأحضروا الرجال، فاستدعى المهندسين ورتب العمل. فاستقر الحال على ثلاثمائة جرافة بستمائة رأس بقر وثلاثين ألف رجل، وأحضر إليه نواب جميع الأمراء. فكان يركب دائمًا لتفقد العمل واستحثاث الرجال، بحيث إنه فقد بعض الأيام شاد الأمير بدر الدين الفتاح ورجاله، فلما أتاه بعد طلبه ضربه نحو الخمسمائة عصاة. فلم يغب عنه بعد ذلك أحد، ونكل بكثير من مشايخ العربان. وضربهم بالمقارع وخرم آنافهم وقطع آذانهم، ولم يكد يسلم منه أحد من أجناد الأمراء ومشدى البلاد، وما زال يجتهد في العمل حتى نجز في ٍاقل من شهر، وكان ابتداؤه من قلوب وأخره بدمياط، يسير عليه الراكب يومين، وعرضه من أعلاه أربع قصبات، ومن أسفله ست قصبات، يمشي ستة فرساي صفار واحدًا. وعم النفع به، فإن النيل كان في أيام الزيادة يعلو حتى تنقطع الطرقات ويمتنع الوصول إلى دمياط. وحضر بعد فراغه الأمير أقوش إلى القاهرة، وخلع عليه وشكرت همته.

* * *

سنة تسع وسبعمائة

وقدم الخبر بَان الملك الناصر كثير الركوب للصيد ببلاد الكرك في مماليكه، فتخيل الملك المظفر من ذلك وخشي عاقبته. واتفق أنه قدم الخبر أيضًا بحركة خربندا للسير إلى بلاد الشام، فكتب إلى الملك الناصر بحركة خربندا، وقد دعت الحاجة إلى المال فيرسل ما أخذه معه من مال مصر، وما استولى عليه من حاصل الكرك، ومن عنده من المماليك ولا يدع عنده منهم سوى عشرة برسم الخدمة، ويرسل الخيول التي قادها من مصر، ومتى لم يفعل خرجت إليه العساكر حتى تخرب الكرك عليه. ورأى الناصر أن المغالطة أولى، وكتب الجواب: المملوك محمد بن قلاوون يقبل الأرض، وينهي أنه ما قصد الإقامة إلا طلبًا للسلامة، وإن مولانا السلطان هو الذي رباني، وما أعرف لي والدًا غيره، وكل ما أنا فيه فمنه وعلى يديه، والقدر الذي أخذته من الكرك لأجل ما لا بد لي فيه من الكلف والنفقة. وقد امتثلت المرسوم الشريف وأرسلت

نصف المبلغ الذي تأخر عندي امتثالا لأمر مولانا السلطان، وأما الخيل فقد مات بعضها، ولم يبق إلا ما أكبه؛ والمماليك فلم أترك عندي إلا من اختار أن يقيم معي، ممن هو مقطوع العلائق من الأهل والولد، فكيف يحل لي أن أخرجهم. وما بقي إلا إحسان مولانا السلطان. وكتب الناصر بأعلى الكتاب: الملكي المظفري، وخلع على مغلطاي ودفع إليه الكتاب، وحمله معه مائتي ألف درهم، وأعاده وقد حمله مشافهة بمعنى جوابه، فقنع السلطان المظفر بيبرس بذلك.

وفيها ابتدأ اضطراب دولة السلطان الملك المظفر: وذلك أنه كثر توهمه من الملك الناصر، وخيله الأمراء وحذروا السلطان منه. وحسنوا له القبض عليه، فجبن بيبرس عن ذلك، ثم مازالوا به حتى بعث الأمير مغلطاي إلى الملك الناصر، ليأخذ منه الخيل والمماليك التي عنده. وتغلظ مغلطاي في القول، فغضب الملك الناصر من ذلك غضبًا شديدًا، وقال له: أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس، وما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندي أو مملوك لي، ويكرر الطلب؟ ارجع إليه، وقل له والله لئن لم يتركني وإلا دخلت بلاد التتر، وأعلمتهم أني قد تركت ملك أبي وأخي وملكي لمملوكي، وهو يتبعني ويطلب مني ما أخفته. فجافاه مغلطاي وخشن في القول، بحيث اشتد غضب الملك الناصر وصاح به: ويلك! وصلنا إلى هنا؟ وأمر أن يجر ويرمى من سور القلعة. فثار به المماليك يسبونه ويلعنونه، وأخرجوه إلى السور، فلم يزل الأمير أرغون الدوادار والأمير طغاي إلى أن عفا عنه الناصر وحبسه، ثم أخرجه ماشيًا إلى الغور، وامتعض مغلطاي عند ذلك مما حل به.

وكتب الناصر ملطفات إلى نواب الشام بحلب وحماة وطرابلس وصفد، وإلى أمراء مصر ممن يثق به، مما كان فيه من ضيق اليد وقلة الحرمة، وأنه لأجل هذا ترك ملك مصر، وقنع بالإقامة في الكرك، وأن السلطان الملك المظفر في كل قليل يرسل يطالبه بالمال ثم بالخيل ثم بالمماليك، وقال لهم: أنتم مماليك أبي وربيتموني. فإما أن تردوه عني وإلا أسير إلى بلاد التتار وتلطف في مخاطبتهم غاية التلطف، وسير إليهم العربان، بها فأوصلوها إلى أربابها. وكتب الأمير قبجق المنصوري نائب حماة الجواب: بَأني مع الأمير قرا سنقر نائب حلب وكتب الأمير قرا سنقر الجواب: بَأني مملوك السلطان في كل ما يرسم به وسأل أن يتوجه إليه أحد المماليك السلطانية، فبعث الناصر مملوكه أيتمش المحمدي، وكتب معه ملطفًا إلى الأمير سيف الدين قطلوبك المنصوري، والأمير بكتمر الحسامي الحاجب، بدمشق. وأما بكتمر الجوكندار نائب صفد فإنه طرد القاصد ولم يجتمع له.

وقدم أيتمش دمشق في خفية، ونزل عند بعض مماليك الأمير قطلوبك، ودفع إليه الملطف. فلما أوصله إلى قطلوبك أنكر عليه، وأمره بالاحتفاظ على أيتمش ليوصله إلى الأفرم نائب الشام، ويتقرب إليه بذلك. فترك أيتمش راحلته التي قدم عليها عندما بلغه ذلك، ومضى إلى دار الأمير سيف الدين بهادر آص في الليل واستأذن عليه فأذن له، فعرفه ما كان من الأمير قطلوبك، فطمن خاطره وأنزله عنده وقام بحقه، وأركبه من الغد معه إلى الموكب. وقد سبق قطلوبك وعرف النائب قدوم مملوك الملك الناصر إليه وهربه ليلاً، فقلق الأفرم من ذلك، وألزم والي المدينة بتحصيل المملوك، فقال بهادر آص: هذا المملوك عندي، وأشار إليه، فنزل عن الفرس وسلم على الأفرم وسار معه في الموكب إلى دار السعادة، وقال بحضرة الأمراء: السلطان الملك الناصر يسلم عليكم، ويقول ما منكم أحد إلا وأكل خبز الشهيد والده وخبزه، وما منكم إلا من إنعامه عليه. وأنتم تربية الشهيد والده، وأنه قاصد الدخول إلى دمشق والإقامة فيها. فإن كان فيكم من يقاتله ويمنعه العبور فعرفعوه. فلم يتم هذا القول حتى صاح عز الدين أيدمر الكوكندي الزراق أحد أمراء دمشق وابن أستاذاه!، وبكى. فغضب الأفرم نائب الشام عليه وأخرجه، ثم قال لأيتمش: قل له - يعني الملك الناصر - كيف تجيء إلى الشام، أو إلى غير الشام، كأن الشام ومصر الآن تحت حكمك؟ أنا لما أرسل إلينا السلطان الملك أن أحلف له ما حلفت حتى سيرت أقول له: كيف يكون ذلك وابن أستاذنا باق؟ فأرسل يقول: أنا ما تقدمت عليه حتى خلع ابن أستاذنا نفسه، وكتب خطه وأشهد عليه بنزول عن الملك، فعند ذلك حلفت له. ثم في هذا الوقت تقول من يردني عن الشام؟ وأمر به فسلم إلى استاداره الطنقش. فلما كان الليل استدعاه، ودفع إليه خمسين دينارًا وقال له: قل له لا يذكر الخروج من الكرك، وأنا أكتب إلى الملك المظفر وأرجعه عن طلب الخيل والمماليك، وخلى عنه ليعود إلى الكرك. فقدم أيتمش على الملك الناصر وحدثه بما جرى له فأعاده على البرية ومعه أر كتمر وعثمان الهجان، ليجتمع بقرا سنقر نائب حلب، ويواعده على المسير إلى دمشق. وسار الملك الناصر من الكرك إلى بركة زيزاء.

وأما الملك المظفر فإنه لما بلغه أن الملك الناصر حبس الأمير علاء الدين مغلطاي أيتعلى المقدم ذكره قلق، واستدعى الأمير سلار النائب، وعرفه ذلك. وكانت البرجية قد أغروا المظفر بسلار، واتهموه بأنه قد باطن الملك الناصر، وأشاروا عليه بقبضه وخوفوه منه. فبلغ ذلك سلار، فخاف من البرجية لكثرتهم وقوتهم، وأخذ في مداراتهم. وكان أشدهم عليه الأمير سيف الدين بيكور، فبعث إليه - وكان قد شكا له

من انكسار خراجه - ستة آلاف أردب غلة وألف دينار مصرية، فكف عنه، وهادى خواص السلطان، وأنعم عليهم إنعامات كثيرة طلبًا للسلامة منهم. ثم حضر سلار عند المظفر وتكلما فيما هم فيه، فاقتضى الرأي تجهيز قاصد للملك الناصر بتهديده ليفرج عن أيتغلي. وبينما هم في ذلك قدم البريد من عند نائب دمشق بَأن الملك الناصر سار من الكرك إلى البرج الأبيض، ولم يعرف مقصده، فكتب إليه بالكشف عن مقصده، وحفظ الطرقات عليه.

هذا وقد اشتهر بالقاهرة حركة الملك الناصر وخروجه من الكرك، فتحرك الأمير سيف الدين نوغاي القبجاقي - وكان شجاعًا مقدامًا حاد المزاج قوي النفس، ومن ألزام الأمير سلار النائب - وواعده جماعة من المماليك السلطانية أن يهجم بهم على السلطان الملك المظفر بيبرس إذا ركب ويقتله. فلما نزل إلى بركة الجب استجمع نوغاي بمن وافقه يريدون الفتك بالسلطان في عوده من البركة، وتقرب نوغاي من السلطان قليلاً قليلاً، وقد تغير وجهه وظهر فيه أمارات الشر، ففطن به خواص السلطان وتحلقوا حوله، فلم يجد نوغاي سبيلاً إلى ما عزم عليه.

وعاد السلطان إلى القلعة، فعرفه ألزامه ما فهموه عن نوغاي، وحسنوا له القبض عليه وتقريره على من معه. فاستدعى السلطان الأمير سلار وأعلمه الخبر - وكان قد باطن نوغاي أيضًا - فحذره من ذلك، وخوفه عاقبة الأخذ بالظن، وأن فيه فساد قلوب الجميع، وليس إلا الإغضاء فقط، وقام عنه، فأخذه البرجية في الإغراء بسلار، وأنه ولابد قد باطن نوغاي، ومتى لم يقبض عليه فسد الحال. فبلغ نوغاي ما هم فيه من الحديث في القبض عليه، فواعد أصحابه على اللحاق بالملك الناصر، وخرج هو والأمير علاء الدين مغلطاي القازاني، والأمير سيف الدين طقطاي الساقي، ونحو ستين مملوكًا، وقت المغرب عند باب القلعة من ليلة الخميس خامس عشرى جمادى الآخرة.

وعرف السلطان بذلك من الإسطبل، ففتح باب القلعة، وطلب الأمير سلار وشاوره، فأشار بتجهيز الأمراء في طلبهم، وعين أخاه علاء الدين سمك وقطز بن الفارقاني في عدة من حاشيته وخمسمائة مملوك، وساروا من وقتهم غير مجدين في طلبهم، وصار بين الفريقين مرحلة واحدة، إذا رحل هؤلاء نزل هؤلاء. فلما وصل نوغاي إلى قطيا وجد الحمل قد تجهز إلى القاهرة، وهو مبلغ عشرين ألف درهم، فأخذه وأخذ خيل الوالي وخيول العرب، وسار إلى غزة ومضى إلى الكرك، فنزل الأمراء بعده غزة، وعادوا إلى القاهرة. وقد اشتد خوف الملك المظفر وكثر خياله،

فقبض على جماعة تزيد عدتهم على ثلاثمائة مملوك، وأخرج أخبارهم وأخباز المتوجهين إلى الكرك لمماليكه.

وبلغ الملك الناصر قدوم نوغاي ومن معه وهو في الصيد، فأمر بإحضارهم فأتوه، وقبلوا له الأرض وهنؤوه بالعافية، فسر بهم. وساروا معه إلى زيزاء، ومضى إلى زرع يريد دمشق، ثم رجع إلى الكرك. فشق على الملك المظفر ذلك، ودار به البرجية وشوشوا فكره بكثرة إيهامهم وتخيلهم له بمخاطرة العسكر عليه، وما زالوا به حتى أخرج الأمير بينجار، والأمير صارم الدين الجرمكي، في عدة من الأمراء مجردين، وأخرج الأمير أقوش الرومي بجماعته إلى طريق السويس، ليمنع من عساه يتوجه من الأمراء والمماليك إلى الملك الناصر، وقبض على أحد عشر مملوكًا، وقصد أن يقبض على آخرين فاستوحش الأمير سيف الدين أيطرا وفر، فأدركه الأمير جركتمر بن بهادر رًاس نوبة، وأحضره فحبس، وعند إحضاره طلع الأمير سيف الدين الدكز السلاح دار بملطف من الملك الناصر استجلا به إليه، فكثر قلق الملك المظفر، وزاد توهمه ونفرت مع ذلك قلوب جماعة من الأمراء والمماليك، وخشوا على أنفسهم، واجتمع كثير من المنصورية والأشرفية والأويرانية، وتواعدوا على الحرب، وخرج منهم مائة وعشرون فارسًا بالسلاح، وساروا إلى الملك الناصر. فخرج إليهم الأمير بينجار والصارم الجرمكي، فقاتلهم المماليك، وجرح الجرمكي بسيف في فخذه سقط إلى الأرض، ومضى المماليك على حمية إلى الكرك. فعظم الخطب على السلطان، واجتمع إليه البرجية، وقالوا له: هذا الفساد كله من الأمير سلار، ومتى لم تقبض عليه خرج الأمر من يدك، فلم يوافق على ذلك، واتفق الرأي على تجريد العساكر.

وأما أيتمش المحمدي فإنه سار إلى حماة، واجتمع بالأمير قبجق نائبها، فأحال قبجق الأمر على الأمير قرا سنقر نائب حلب، وأنه معه حيث كان. فسار أيتمش إلى حلب، واجتمع بقرا سنقر، فأكرمه ووافق على قيام الملك الناصر، ودخل في طاعته، ووعده على السير إلى دمشق أول شعبان. وكتب قرا سنقر إلى الأفرم نائب يحثه دمشق على طاعة الملك الناصر ويرغبه، وأشار بمكاتبة الملك الناصر للأمير بكتمر الجوكندار نائب صفد، والأمير كراي المنصوري بالقدس، ونائب طرابلس، وأعاد أيتمش ومن معه إلى الملك الناصر، فسر بذلك. وكان نوغاي منذ قدم لا يبرح يحرضه على المسير إلى دمشق، فلما قدم عليه خبر قرا سنقر اشتد بأسه وقوي عزمه على الحركة، إلا أنه ثقل عليه أمر نوغاي من مخاشنته له في المخاطبة،

وجفاه القول بحيث إنه قال له: ليس لي بك حاجة ارجع إلى حيث شئت فترك نوغاي الخدمة وانقطع إلى أن قدم أيتمش من حلب، فدخل بينه وبين السلطان حتى أزال ما بينهما، وأسر له السلطان ذلك حتى قتله بعد عوده إلى الملك كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ثم إن الملك الناصر بعث أيتمش أيضًا إلى صفد، فتلطف حتى اجتمع بناصر الدين محمد بن بكتمر الجوكندار نائب صفد، وجمع بينه وبين أبيه ليلاً في مقابر صفد فعتبه أيتمش على ما كان من رده قاصد الملك الناصر، فاعتذر بالخوف من بيبرس وسلار، وأنه لولا ثقته به لما اجتمع به قط. فلما عرفه أيتمش طاعة الأمير قرا سنقر والأمير قبجق أجاب بالسمع والطاعة، وأنه على ميعاد النواب إلى المضي إلى الشام، فأعاد أيتمش جوابه على الملك الناصر فسر به.

وسار من القاهرة عشرة من الأمراء المقدمين في يوم السبت تاسع رجب منهم: الأمير سيف الدين برلغي الأشرفي. والأمير جمال الدين أقوش الأشرفي نائب الكرك، والأمير عز الدين أيبك البغدادي، والأمير سيف الدين طغريل الإيغاني، والأمير سيف الدين تناكر، ومعهم نحو ثلاثين أميرًا من الطبلخاناه، بعدما أنفق فيهم السلطان الملك المظفر، فأخذ برلغي عشرة آلاف دينار، وكل من المقدمين ألفي دينار، وكل من الطبلخاناه ألف دينار، وكل من مقدمي الحلقة ألف درهم، وكل من أجناد الكرك خمسمائة درهم، ونزلوا تجاه مسجد تبر خارج القاهرة، ثم عادوا بعد أربعة أيام إلى القاهرة، لورود الخبر بعود الملك الناصر إلى الكرك. ثم ورد الخبر ثانيًا بمسيره، فتجهز العسكر في أربعة آلاف فارس، وخرج برلغي ونائب الكرك ومن تقدم ذكره، وساروا في العشرين من شعبان إلى العباسة. فورد البريد من عند الأفرم نائب دمشق بقدوم أيتمش المحمدي عليه من قبل الملك الناصر، وبما شافهه به من الجواب، وأنه بعث الأمير علاء الدين أيدغدي الحسامي والأمير سيف الدين جوبان لكشف الأخبار، وأشار بتأخير العسكر، فكتب بإقامتهم على العباسة. فقدم أيدغدي شقير وجوبان على الملك الناصر، وعرفاه أنهما قدما لكشف حاله، وحلفا له على القيام بنصرته، ورجعا إلى دمشق، فعرفا الأفرم أن الناصر مقيم ليتصيد، فخاف أن يطرق دمشق بغتة، فجرد إليه ثمانية أمراء بمضافيهم: منهم الأمير سيف الدين قطلوبك المنصوري، والأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي الحاجب، والأمير سيف الدين جوبان، والأمير كجكن، والأمير علم الدين الجاولي، ليقيموا على الطرقات لحفظها على من يخرج إلى الملك الناصر. وكتب الأفرم إلى الملك المظفر يحثه على

إخراج العسكر المصري، ليجتمع مع عسكر دمشق على قتال الملك الناصر، وأنه قد جدد اليمين له، وحلف أمراء دمشق أنهم يخونون الملك المظفر ولا ينصرون الملك الناصر، وأن نائب حلب وغيره من النواب قد دخلوا في طاعة الملك الناصر. فلما قرأ الملك المظفر كتاب نائب الشام اضطرب وزاد قلقه.

فورد كتاب الأمير برلغي من العباسة بأن مماليك الأمير جمال الدين أقوش الرومي تجمعوا عليه وقتلوه، وساروا ومعهم خزائنه إلى الملك الناصر، وأنهم لحق بهم بعض أمراء الطبلخاناه في جماعة من مماليك الأمراء، وقد فسد الحال، والرأي أن يخرج السلطان بنفسه. فأخرج المظفر تجريدة أخرى فيها عدة من الأمراء، وهم بشاش وبكتوت الفتاح وكثير من البرجية، وبعث إلى برلغي ألفي دينار، ووعده بأنه عازم على التوجه إليه بنفسه. فلما ورد كتاب الملك المظفر بذلك، وبقدوم التجريدة إليه عزم على الرحيل من الغد إلى جهة الكرك. فلما كان الليل رحل كثير ممن معه يريدون الملك الناصر، فكتب إلى السلطان بأن نصف العسكر قد صار عليه، وحرضه على الخروج بنفسه. فلم يطلع الفجر إلا والأمير سيف الدين بهادر جكي قد وصل بكتاب الأمير برلغي على البريد إلى السلطان، فلما قضي صلاة الصبح تقدم إليه وأعلمه برحيل أكثر العسكر إلى الملك الناصر، وناوله الكتاب، فلما قرأه تبسم وقال: سلم على برلغي، وقل له لا تخش من شيء، فإن الخليفة أمير المؤمنين قد عقد لنا بيعة ثانية، وجدد لنا عهدًا، وقد قرئ على المنابر، وجددنا اليمين على الأمراء، وما بقي أحد يجسر أن يخالف ما كتب به أمير المؤمنين، فإنه قد أكد في كتابة العقد. ثم دفع المظفر إليه العهد الخليفتي، وقال: امض به إليه حتى يقرأه على الأمراء والجند، ثم يرسله لي، فإذا فرغ من قرائته يرحل بالعساكر إلى الشام، وجهز له أيضًا ألفي دينار أخرى، وكتب جوابه بنظير المشافهة. فعاد بهادر إلى برلغي، فلما قرئ عليه الكتاب وانتهى إلى قوله: وإن أمير المؤمنين ولاني تولية جديدة، وكتب لي عهدًا، وجدد لي بيعة ثانية، فتح برلغي العهد فإذا أوله: إنه من سليمان، فقال: ولسليمان الريح، ثم التفت إلى بهادر وقال له: قل له يا بادر الذقن! والله ما معي أحد يلتفت إلى الخليفة، ثم قام وهو مغضب.

وكان سبب تجديد العهد أن نائب دمشق لما ورد كتابه بأنه حلف أمراء الشام ثانيًا، وبعث صدر الدين محمد بن عمر بن مكي بن عبد الصمد الشهير بابن المرحل برسالة إلى السلطان، صار صدر الدين يجتمع عنده هو وابن عدلان، ويشغل السلطان وقته بهما. فأشارا عليه بتجديد البيعة، وكتابة عهد يقرأ على المنابر،

وتحليف الأمراء، فإن ذلك يثبت قواعد الملك، ففعل ذلك وحلف الأمراء بحضرة الخليفة، وكتب له عهد جديد عن الخليفة أبي الربيع، ونسخته: إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله وخليفة رسول الله على المسلمين أبي الربيع سليمان بن أحمد العباسي لأمراء المسلمين وجيوشها. " يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " وإني رضيت لكم بعبد ا لله تعالى الملك المظفر ركن الدين نائبًا عني لملك الديار المصرية والبلاد الشامية، وأقمته مقام نفسي لحينه وكفايته وأهليته، ورضيته للمؤمنين، وعزلت من كان قبله بعد علمي بنزوله عن الملك، ورأيت ذلك متعينًا علي، وحمت بذلك الحاكم الأربعة. واعلموا رحمكم الله أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالف عن سالف ولا كابر عن كابر. وقد استخرتُ الله تعالى؛ ووليت عليكم الملك المظفر، فمن أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصي أبا القاسم ابن عمي . وبلغني أن الملك الناصر بن الملك المنصور شق العصا على المسلمين، وفرق كلمتهم وشتت شملهم، وأطمع عدوهم فيهم، وعرض البلاد الشامية والمصرية إلى سبي الحريم والأولاد وسفك الدماء، وتلك دماء قد صانها الله من ذلك. وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمر على ذلك، وأدفع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم هذا الأمر العظيم، وأقاتله حتى يفيء إلى أمر الله تعالى. وقد أوجبت عليكم يا معاشر المسلمين كافة الخروج تحت لوائي - اللواء الشريف فقد اجتمعت الحكام على وجوب دفعة وقتاله إن استمر على ذلك، وأنا مستصحب معي لذلك السلطان الملك المظفر، فجهزوا أرواحكم والسلام. وقد قرئ على منابر الجوامع بالقاهرة في الجامع الأزهر وبجامع الحاكم، وقت الخطبة في يوم الجمعة، فلما بلغ القارئ إلى ذكر الملك الناصر صاحوا: لا! ما نريده!، ووقع في القاهرة ضجة وحركة بسبب ذلك.

وفيه قدم الأمير بهادر آص من دمشق على البريد يحث السلطان على الخروج بنفسه، فإن النواب قد مالوا كلهم مع الملك الناصر، فأجاب بأنه لا يخرج، واحتج بكراهيته للفتنة وسفك الدماء، وأن الخليفة قد كتب بولايته وعزل الملك الناصر، فإن قبلوا وإلا ترك الملك. ثم قدم الأمير بلاط بكتاب الأمير برلغي أن جميع من خرج من أمراء الطبلخاناه لحقوا بالملك الناصر، وتبعهم خلق كثر، ولم يتأخر غير برلغي وجمال الدين أقوش نائب الكرك وأيبك البغدادي وتناكر والفتاح لا غير، وذلك لأنهم خواص السلطان.

وأما الملك الناصر فإنه سار في أول شعبان بمن معه يريد دمشق، فدخل في

طاعته الأمير قطلوبك الحاج بهادر الحلبي وبكتمر الحاجب والجاولي، وكتبوا إليه بذلك، وأنه يتأنى في المسير إلى دمشق من غير سرعة حتى يتبين ما عند بقية أمراء دمشق. ثم كتبوا إلى الأفرم نائب دمشق بأنه لا سبيل إلى محاربة الملك الناصر، وأرادوا بذلك إما أن يخرج الأفرم إليهم فيقبضوه، أو يسير عن دمشق إلى جهة أخرى فتأتيهم بقية الجيش. وكان كذلك: فإنه لما قدم كتابهم عليه بدمشق شاع بين الناس سير الملك الناصر من الكرك، فثارت العوام وصاحوا: نصره الله. وركب الأجناد إلى النائب، فاستدعى من بقي من الأمراء والقضاة، ونادى: معاشر أهل الشام! ما لكم سلطان إلا الملك المظفر فصرخ الناس بأسرهم: لا! لا! ما لنا سلطان إلا الملك الناصر.

وتسلل العسكر من دمشق طائفة بعد طائفة إلى الملك الناصر، وانفرط الأمر من الأفرم. فاجتمع الأمير بيبرس العلائي والأمير بيبرس المجنون بمن معهما على الوثوب بالأفرم وقبضه، فلم يثبت عندما بلغه ذلك، واستدعى علاء الدين بن صبح وكان من خواصه، وتوجه ليلاً إلى جهة الشقيف. فركب الأمير قطلوبك والأمير الحاج بهادر عندما سمعا الخبر، وتوجها إلى الملك الناصر فسر بهما، وأنعم على كل منهما بعشرة آلاف درهم. ثم قدم إليه أيضًا الجاولي وجوبان، وسار بمن معه حتى نزل الكسوة، فخرج إليه بقية الأمراء والأبضاد، وقد عمل له سائر شعائر السلطنة من الصناجق الخليفتية والسلطانية والعصائب والجتر والغاشية. فحلف العساكر، وسار في يوم الثلاثاء ثاني عشر شعبان من الكسوة يريد المدينة، فدخلها بعدما زينت زينة عظيمة. وخرج جميع الناس إلى لقائه على اختلاف طبقاتهم حتى صغار المكاتب، فبلغ كراء البيت من البيوت التي من ميدان الحصا إلى القلعة للتفرج على السلطان من خمسمائة درهم إلى مائة درهم. وفرشت الأرض بشقاق الحرير الملونة، وحمل الأمير سيف الدين قطلوبك المنصوري الغاشية، وحمل الأمير الحاج بهادر الجتر. وترجل الأمراء والعساكر بأجمعهم، حتى إذا وصل باب القلعة خرج متولي القلعة وقبل الأرض، فتوجه السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق من الميدان. وكان عليه عند دخوله عباءة بيضاء فيها خطوط سود، تحتها فرو سنجاب.

وفي وقت نزوله قدم مملوك قرا سنقر من حلب لكشف الخبر، وذكر أن قرا سنقر خرج من حلب، وقبجق خرج من حماة؛ فخلع عليه، وكتب إليهما بسرعة القدوم. وكتب إلى الأفرام أمان، وتوجه به علم الدين الجاولي. فلم يثق بذلك، وطلب يمين السلطان له، فحلف السلطان وبعث إليه بنسخة الحلف صحبة الأمير الحاج

أرقطاي الجمدار، فما زال به حتى قدم معه هو وابن صبح، فركب السلطان إلى لقائه، حتى إذا قرب منه نزل كل منهما عن فرسه. فَاعظم الأفرم نزول السلطان له، وقبل الأرض، وكان قد لبس كاملية وشد وسطه وتوشح بنصفية، يعني أنه حضر بهيئة البطال من الإمرة، وكفنه تحت إبطه وعندما شاهده الناس على هذه الحالة صرخوا بصوت واحد: يا مولانا السلطان بتربة والدك الشهيد لا تؤذيه، ولا تغير عليه، فبكى سائر من حضر. وبالغ السلطان في إكرامه، وخلع عليه وأركبه، وأقره على نيابة دمشق، فكثر الدعاء له وسار الناصر إلى القصر. فلما كان الغد أحضر الأفرم خيلاً وجمالاً وثيابًا بمائتي ألف درهم، تقدمة للسلطان.

وفي يوم الجمعة ثاني عشرى: خطب بدمشق للملك الناصر، وصليت الجمعة بالميدان، فكان يومًا مشهودًا.

وقم الخير إلى القاهرة في خامس عشرى شعبان باستيلاء الملك الناصر على دمشق بغير قتال، فقلق الملك المظفر، واضطربت الدولة، وخرجت عساكر مصر شيئًا بعد شيء تريد اللحاق بالملك الناصر، حتى لم يتأخر عند الملك المظفر بديار مصر إلا خواصه وألزامه. ولم يتأخر عند الأمير برلغي من الأمراء والأجناد سوى خواص الملك المظفر، فتشاور مع جماعته، فاقتضى رأيه ورأى الأمير أقوش نائب الكرك اللحاق بالملك الناصر أيضًا، فلم يوافق على ذلك البرجية، وعاد الأمير أيبك البغدادي وبكتوت الفتاح وقجمار وبقية البرجية إلى القاهرة، وصاروا مع الملك المظفر. وسار برلغي ونائب الكرك إلى الملك الناصر فيمن بقي من الأمراء والعساكر، فاضطربت القاهرة.

أخرج المظفر أيضًا عدة من المماليك إلى بلاد الصعيد، وظن أن ينشئ له دولة. فلما بلغه مسير برلغي ونائب الكرك إلى الملك الناصر سقط في يده، وعلم زوال أمره، فإن برلغي كان زوج ابنته ومن خواصه، بحيث أنعم عليه في هذه الحركة بنيف وأربعين ألف دينار. وقيل سبعين ألف دينار. وظهر عليه اختلال الحال، وأخذ خواصه في تعنيفه على إبقاء سلار النائب، وأن جميع هذا الفساد منه. وكان كذلك: فإنه لما فاتته السلطنة، وقام فيها بيبرس، حسده ودبر عليه، وبيبرس في غفلة عنه، وكان سليم الباطن لا يظن أنه يخونه.

فلما كان من الغد يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان، استدعى الملك المظفر الأمراء كلهم، واستشارهم فيما يفعل. فأشار الأمير بيبرس الدودار والأمير بهادر آص بنزوله عن الملك، والإشهاد بذلك كما فعل الملك الناصر، وتسير إليه تستعطفه،

وتخرج إلى الإطفيحية ممن تثق به، وتقيم هناك حتى يرد جواب الملك الناصر. فأعجبه ذلك، وقام ليجهز أمره وبعث ركن الدين بيبرس الدوادري إلى الملك الناصر يسأله إحدى ثلاث: إما الكرك وأعمالها، أو حماة وبلادها، أو صهيون ومضافاتها.

ثم اضطرب المظفر آخر النهار، ودخل الخزائن، فأخذ من المال والخيل والهجن ما أحب، وخرج في يومه من باب الإسطبل في مماليكه وعدتهم سبعمائة فارس، ومعه الأمير عز الدين أيدمر الخطير الاستادار، والأمير بدر الدين بكتوت الفتاح. والأمير سيف الدين قجماس، والأمير سيف الدين تناكر، في بقية ألزامه من البرجية. وكأنما نودي في الناس بأنه قد خرج هاربًا، فاجتمع الناس وقد برز من باب الإسطبل، وصاحوا به وتبعوه وهم يصيحون عليه، وزادوا في الصياح حتى خرجوا عن الحد ورماه بعضهم بالحجارة. فشق ذلك على مماليكه، وهموا بالرجوع إليهم ووضع السيف فيهم، فمنعهم من ذلك، وأمرهم بنثر المال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنهم، فأخرج كل من المماليك حفنة مال ونثرها. فلم تلتفت العامة لذلك وتركوه، وأخذوا في العدو خلف العسكر، وهم يسبون ويصيحون، فشهر المماليك حينئذ سيوفهم، ورجعوا إلى العوام فانهزموا عنهم. وأصبح الحراس بقلعة الجبل يوم الأربعاء سابع عشره يصيحون باسم الملك الناصر. بإشارة الأمير سلار، فإنه أقام بالقلعة.

وفي يوم الجمعة تاسع عشره: خطب على منابر القاهرة ومصر باسم الملك الناصر، وأسقط اسم الملك المظفر، فكانت أيامه في السلطنة عشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا، فكان كما قيل:

أعجلتها النوى فما نلت منها ::: طائلاً غير نظرة من بعيد

* * *

عود السلطان ناصر الدين إلى الملك

عود السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبي المعالي محمد بن الملك المنصور قلاوون إلى الملك مرة ثالثة وذلك أنه لما عزم على المسير إلى ديار مصر، خرج من دمشق في الثانية من نهار يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان - وهي الساعة التي خلع فيها الملك المظفر بيبرس نفسه من الملك - وسار يريد مصر.

وعندما فر المظفر بيبرس جلس الأمير سلار في شباك النيابة، وجع من بقي من الأمراء، واهتم بحفظ القلعة، وأفرج عن المحابيس بها. وركب سلار ونادى في الناس: ادعوا لسلطانكم لملك الناصر، وكتب إلى الملك الناصر بنزول بيبرس عن السلطنة وفراره، وسير بنلك أصلم الدوادار وبهادر آص إلى الملك الناصر برسالة المظفر أنه قد نزل عن السلطنة، ويسأل إما الكرك أو حماة أو صهيون. فاتفق يوم وصولهما إلى غزة قدوم الملك الناصر أيضًا، وقدوم الأمير سيف الدين ساطي السلاح دار في طائفة من الأمراء، وقدوم العربان والتركمان. وقدم الأمير مهنا بجماعة من عرب آل فضل، فركب السلطان إلى لقائه، وقدم برلغي ونائب الكرك، فسر السلطان بذلك سرورًا كبيرًا. وكتب الناصر إلى المظفر أمانا مع بيبرس الدودار وبهادر آص، وقدما في حادي عشرى رمضان إلى الأمير سلار، فجهز الأمان إلى المظفر.

ولما تكاملت العساكر بغزة سار الناصر يريد مصر، فقدم أصلم مملوك سلار بالنمجاة، ووصل أرسلان الدوادار، فسر بذلك. ولم يزل الناصر سائرًا إلى أن نزل بركة الحاج، وقد جهز إليه الأمير سلار الطلب السلطاني والأمراء والعساكر سلخ رمضان، وخرج الأمير سلار إلى لقائه. وصلى السلطان صلاة العيد بالدهليز في يوم الأربعاء مستهل شوال، وأنشد الشعرا مدائحهم، فمن ذلك ما أنشده شمس الدين محمد بن علي ابن موسى الراعي أبياتًا منها:

الملك عاد إلى حماه كما بدا ::: ومحمد بالنصر سر محمدا
وإيابه كالسيف عاد لغمده ::: ومعاده كالورد عاوده الندى
الحق مرتجع إلى أربابه ::: من كف غاصبه وإن طال المدا

وعمل الأمير سلار سماطًا عظيمًا بلغت النفقة عليه اثني عشر ألف درهم، جلس عليه السلطان: فلما انقضى السماط عزم السلطان على المبيت والركوب بكرة يوم الخميس. فبلغه أن الأمير برلغي والأمير أقوش نائب الكرك قد اتفقا مع البرجية على

الهجوم عليه وقتله، فبعث إلى الأمراء يعلمهم. مما بلغه، ويأمرهم بالركوب فركبوا، وركب في مماليكه ودقت الكوسات. وسار الناصر وقت الظهر من يوم الأربعاء، وقد احتفت به مماليكه كي لا يصل إليه أحد من الأمراء، وسار إلى القلعة، وخرج الناس بأجمعهم لمشاهدته. فلما بلغ بين العروستين ترجل سلار وسائر الأمراء، ومشوا إلى باب السر من القلعة، وقد وقف جماعة من الأمراء بمماليكهم وعليهم السلاح حتى عبر السلطان من الباب إلى القلعة، وأمر الأمراء بالانصراف إلى منازلهم، وعين جماعة من الأمراء الذين يثق بهم أن يستمروا على ظهور خيولهم حول القلعة طول الليل، فباتوا على ذلك.

وأصبح الناصر من الغد يوم الخميس ثانيه جالسًا على تخت الملك وسرير السلطنة، وحضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للهناء، فقرأ محمد بن علي ابن موسى الراعي: قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزمن تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير "، ثم دعا. ولما تقدم الخليفة وسلم، نظر إليه السلطان وقال له: كيف تحضر تسلم على خارجي، هل كنت أنا خارجيًا وبيبرس كان من سلالة بني العباس؟، فتغير وجه الخليفة ولم ينطق. ثم التفت السلطان إلى القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر الموقع، وكان هو الذي كتب عهد المظفر عن الخليفة، وقال له: يا أسود الوجه، فقال ابن عبد الظاهر من غير توقف: يا خوند! أبلق خير من أسود؟، فقال السلطان: ويلك! حتى ألا تترك رنكه أيضًا، يعني أن ابن عبد الظاهر ممن ينتمي إلى الأمير سلار، وكان رنك سلار أبيض وأسود، ثم التفت السلطان إلى قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة، وقال: يا قاضي! كنت تفتي المسلمين بقتالي؟ فقال: معاذ الله! إنما تكون الفتوى على مقتضى كلام المستفتي. ثم حضر صدر الدين محمد بن عمر بن المرحل، وقبل يد السلطان فقال له كنت تقول ما للصبي وما للملك يكلفه؟. فحلف بالله ما قال هذا، وإنما الأعداء أرادوا إ تلافه فزادوا في قصيدته هذا البيت. والعفو من شيم الملوك، فعفا عنه؛ وكان ابن المرحل قد مدح المظفر بيبرس بقصيدة عرض فيها بالناصر، من جملتها:

ماللصبي وما للملك يكفله ::: شأن الصبي لغير الملك مألوف

* * *

سنة عشر وسبعمائة

أهل المحرم: فوردت رسل سيس بهدية، منها طشت ذهب وإبريق بلور مرصع بالجوهر، وكتاب يتضمن الهناء بالعود إلى الملك، فأجيب بالشكر.

وفي ربيع الأول قبض السلطان على إخوة سلار وحاشيته، فقبض علاء الدين سمك وجبا وداود وأمير علي وساطي. وقبض على الأمير طشتمر الجوكندار وكوري السلاح دار وسيف الدين الطشلاقي وقلغاي، وتتمة ستة عشر أميرًا. وكتب إلى نائب دمشق ونائب طرابلس بالقبض على الأمراء الذين أفرج عنهم عندما قدم السلطان من الكرك: وهم ألطنبغا وأشقتمر وعبد الله والأقوش المنصوري والشيخ علي التتري وبينجار التتري ومرسي وغازي وأخوا حمدان بن صلغاي وطرنطاي المحمدي وأقطوان الأشرفي، فقبض عليهم خوفًا من شرهم وإقامتهم الفتن. وكتب إلى نائب حلب بالقبض على فخر الدين أياز نائب قلعة الروم، فقبض عليه، وأخذ ماله فكان ألف ألف درهم، حملت إلى السلطان.

وفيها توحش خاطر الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطة بمصر من السلطان، وخاف منه، واتفق بكتمر مع الأمير بتخاص المنصوري على إقامة الأمير مظفر الدين موسى ابن الملك الصاع علي بن قلاوون في السلطنة، والاستعانة بالمظفرية، وبعثوا إليه بذلك فوافقهم. وشرع النائب في استمالة الأمراء، ومواعدة المماليك المظفرية الذين بخدمة الأمراء، على أن كل طائفة تقبض على الأمير التي هي بخدمته في يوم عينه لهم، ثم يسوق الجميع إلى قبة النصر خارج القاهرة، وقد نزل هناك الأمير موسى. فدبروا ذلك حتى انتظم الأمر، ولم يبق إلا وقوعه، فأراد بيبرس الجمدار أحد المظفرية الذين انتظموا في سلك هذا العقد أن يتخذ يدًا عند السلطان، وعرف خوشداشيته قياتمر الخاصكي بما وقع الاتفاق عليه، فبلغ الخبر إلى السلطان، وكان في الليل، فلم يتمهل السلطان، وطلب أمير موسى إلى عنده، وكان يسكن بالقاهرة، فلما نزل إليه الطلب هرب. واستدعى السلطان الأمير بكتمر النائب، وبعث أيضًا في طلب بتخاص، وكانوا إذ ذاك يسكنون بالقلعة، فلما دخل إليه بكتمر أكرمه وأجلسه وأخذ يحادثه حتى أتاه المماليك بالأمير بتخاص فسقط في يد بكتمر، وعلم بأنه قد هلك، فقيد بتخاص وسجن، وأقام السلطان في انتظار أمير موسى، فعاد إليه الجاولي ونائب الكرك وأخبراه بفراره، فاشتد غضبه عليهما. وما طلع النهار حتى أحضر السلطان الأمراء، وعرفهم ما كمان قد تقرر من إقامة أمير موسى وموافقة.

بتخاص له، ولم يذكر بكتمر النائب. وألزم السلطان الأمير كشتغدي البهادري والي القاهرة بالنداء عليه، ومن أحضره من الجند فله إمرته، وإن كان من العامة أخذ ألف دينار. فنزل كشتغدي ومعه الأمير فخر الدين أياز شاد الدواوين وأيدغدي شقير وسودي وعدة من المماليك، وألزم سائر الأمراء بالإقامة بالقاعة الأشرفية حتى يظهر أمير موسى، وقبض على حواشي موسى وجماعته وعاقب كثيرًا منهم. فلم يزل الأمر على ذلك من ليلة الأربعاء إلى يوم الجمعة، ثم قبض عليه من بيت استادار الفارقاني من حارة الوزيرية بالقاهرة، وحمل إلى القلعة فسجن بها. ونزل الأمراء إلى دورهم، وخلى عن الأمير بكتمر النائب أيضًا، ورسم بشمير استادار الفارقاني، ثم عفى عنه وسار إلى داره.

وتتبع السلطان المماليك المظفرية فقبض عليهم، وفيهم بيبرس الذي نم عليهم وعملوا في الحديد. وأنزلو ليسمروا تحت القلعة، وقد حضر نساؤهم وأولادهم، وجاء الناس من كل موضع، فكثر البكاء والصراخ عليهم رحمة لهم، والسلطان ينظر، فأخذته الرحمة وعفا عنهم، فتركوا ولم يقتل أحد منهم.

* * *

سنة إحدى عشر وسبعمائة

وقدم الخبر من سيس بأن فرنج جزيرة المصطكى أسروا رسل السلطان إلى الملك طقطاي، ومن معهم من رسل طقطاي وعدتهم ستون رجلاً، وأنه بعث في فدائهم ستين ألف دينار ليتخذ بذلك يدًا عند السلطان، فلم يمكنوه منهم. فكتب إلى الإسكندرية ودمياط بالحوطة على تجار الفرنج واعتقالهم كلهم، فأحيط بحواصلهم وحبسوا بأجمعهم. وحضر أحد تجار الجنوية فضمن إحضار الرسل وما معهم، فمكن من السفر.

وفيها قبض على الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بديار مصر، في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، وقبض معه على عدة أمراء، منهم صهره ألكنتمر الجمدار، وأيدغدي العثماني، ومنكوتمر الطباخي، وبحر الدين أيدمر الشمسي، وأيدمر الشيخي، وسجنوا إلا الطباخي، فإنه قتل في وقته. ثم استدعى السلطان الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري، وخلع عليه وولاه النيابة عوضًا عن بكتمر الجوكندار في يوم السبت ثامن عشره.

وفيها قدم البريد من حلب بأن خربندا ملك التتر قتل جماعة من خواصه، وقتل خواصه.

* * *

سنة اثنتي عشر وسبعمائة

وقدم البريد من حلب بعبور قرا سنقر ومن معه من الأمراء إلى بلاد التتر، وأنهم بعثوا بأولادهم وحريمهم إلى مصر. وكان من خبرهم أنهم لما وصلوا إلى الرحبة انقطع كثير ممن تبعهم من المماليك والتركمان، فبعث قرا سنقر ولده الأمير فرج، وبعث الأفرم ولده موسى مع بعض من يوثق به، وأمرا بتقبيل الأرض بين يدي السلطان، وأن يبلغاه أن الأمراء ما حملهم على دخول بلاد العدو إلا الخوف، وأن الأولاد والحريم وداعه، فليفعل السلطان معهم ما يليق به، فقدما إلى القاهرة، وبقيا في الخدمة. وسار الأمراء إلى ماردين، وكتبوا إلى خربندا بقدومهم، فبعث أكابر المغل إلى لقائهم، وتقدم إلى ولاة الأعمال بخدمتهم والقيام لهم. بما يليق بهم. فلما قاربوا الأرد وركب خربندا وتلقاهم، وترجل لهم لما ترجلوا له، وبالغ في إكرامهم وسار بهم إلى مخيمه، وأجلسهم معه على التخت، وضرب لكل منهم خركاه، ورتب لهم الرواتب السنية. ثم استدعاهم بعد يومين، واختلا بقرا سنقر، فحسن له عبور الشام، وضمن له تسليم البلاد بغير قتال، ثم خلا بالأفرم فحسن له أيضًا أخذ الشام، إلا أنه خيله من قوة السلطان وكثرة عساكره. فأقطع خربندا مراغة لقرا سنقر، وأقطع همذان للأفرم، واستمروا هكذا.

ومات الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الناصر صلاح الدين داود بن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، يوم الاثنين ثاني عشر رجب بالقاهرة، عن نيف وسبعين سنة، وقد حدث، وماتت امرأته ابنة عمه الملك المغيث بعده، فحرجت الجنازتان معًا، وكان قد حج، وقدم القاهرة من طريق القدس بعدما زاره، ومولده بالكرك في عاشر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وستمائة، وكان دينًا متواضعًا فاضلاً. ومات الأمير علم الدين سنجر الصالحي أمير آخور بدمشق، عن مال كبير جدًا، مات شرف الدين محمد بن موسى بن محمد بن خليل القدسي في خامس عشر شعبان بالقاهرة، وكان يباشر التوقيع في الإنشاء، ويكتب الخط المليح، ويقول الشعر، ويغلب عليه الهجاء، مع تفننه في علوم كثيرة.

سنة ثالث عشرة وسبعمائة

وفيها توجهت تجريدة إلى مكة صحبة الأمير سيف الدين طقصاي الناصري والي قوص، وسيف الدين بيدوا، وعلاء الدين أيدغدي الخوارزمي، وصاروجا الحسامي، وتوجه دمشق سيف الدين بلبان البدري مع الركب، وأضيف إليهم عدة من الأجناد، وذلك بسبب حميضة بن أبي نمي، فإنه كثر ظلمه.

وفيها غلقت كنائس اليهود والنصارى بأجمعها في مصر والقاهرة، في يوم السبت سابع عشرى شوال فلما كان يوم الثلاثاء العشرين من ذي الحجة فتحت الكنيسة المعلقة وخلع على بطرك النصارى.

* * *

سنة أربع عشر وسبعمائة

وفيها قدم الأمراء المجردون إلى الحجاز: وكان من خبرهم أنهم لما وصلوا صحبة الحاج من السنة الماضية فر الشريف حميضة نحو اليمن، وأقام بحلى بني يعقوب: فلما انقضى الموسم وخرج الحاج أقام الأمير طقصبا المغربي بالمعسكر حتى رتب الشريف أبا الغيث في إمارة مكة، ولم يزل مقيمًا معه مدة شهرين بعد انقضاء الحج. ولم تمطر تلك السنة بمكة، وقل الجلب، فكثرت كلف العسرك، واحتاج طقصبا إلى السفر. فأشهد عليه أبو الغيث أنه أذن له في السفر، وكتب بذلك إلى السلطان. فلم يكن بعد توجه العسكر من مكة غير قليل حتى جمع حميضة وقدم، ففر منه أبو الغيث إلى هذيل بوادي نخلة، وملك حميضة منه مكة، وبعث حميضة إلى السلطان القود اثنى عشر فرسًا وكتابًا، وهو يترفق ويبذل الطاعة ويعتذر؛ فلم يقبل منه العذر، وحبس رسوله.

* * *

سنة خمس عشرة وسبعمائة

في أول المحرم: سار العسكر من دمشق إلى حلب، وعليه الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام، وقد استصحب معه قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى وشرف الدين ابن فضل الله، وجماعة من الموقعين، وكان تنكز بزي الملوك من العصائب والكوسات، ولم تجر عادة نائب قبله بذلك، وتبعه عسكر صفد وحمص حماة وطرابلس. فلا مر الأمير تنكز إلى حلب فجرد منها الأمير قرطاي والأمير ملكتمر الجمدار إلى ملطية، وكان في الظن أن المسير إلى سيس.

وسبب غزو ملطية أن السلطان بعث فداوية من أهل مصياب لقتل قرا سنقر، فصار هناك رجل من الأكراد يقال له مندوه يدل على قصاد السلطان أخذ منهم جماعة، فشق ذلك على السلطان، وأخذ في العمل عليه. فبلغه أنه صار يجني خراج مطلية، وكان نائبها من جهة جوبان يقال له بدر الدين ميزامير بن نور الدين، فخاف من مندوه أن يأخذ منه نيابة ملطية، فما زال السلطان يتحيل حتى كاتبه ميزامير. وقرر معه أن يسلم البلد لعساكره. فجهز السلطان العساكر، وروى أنها تقصد سيس حتى نزلت بحلب، وسارت العساكر منها مع الأمير تنكز على عينتاب إلى أن وصل الدرنبد، فألبس الجميع السلاح وسلك الدرنبد إلى أن نزل على ملطية يوم الثلاثاء ثالث عشريه، وحاصرها ثلاثة أيام. فاتفق الأمير ميزامير مع أعيان ملطية على تسليمها، وخرج في عدة منم الأعيان إلى الأمير تنكز، فأمنهم وألبسهم التشاريف السلطانية المجهزة من القاهرة، وأعطى الأمير ميزامير سنجقا سلطانيا، ونودي في العسكر ألا يدخل أحد إلى المدينة. وسار الأمير ميزامير ومعه الأمير بيبرس الحاجب والأمير أركتمر حتى نزل بداره، وقبض على مندوه الكردي وسلم إلى الأمير قلى، وتكاثر العسكر ودخلوا إلى المدينة ونهبوها. وقتلوا عدة من أهلها. فشق ذلك على الأمير تنكز، وركب معه الأمراء، ووقف على الأبواب وأخذ النهوب من العسكر، ورحل من الغد وهو رابع عشري المحرم بالعسكر، وترك نائب حلب مقيمًا عليها لهدم أسوارها. ففر مندوه قبل الدخول إلى الدربند. وفات أمره. فلما قطعوا الدربند أحضرت الأموال التي نهبت والأسرى، فسلم من فيهم من المسلمين إلى أهله، وأفرد الأرمن.

فلما فتحت ملطية سار الأمير قجليس إلى مصر بالبشارة، فقدم يوم الخميس ثالث صفر، ودقت البشائر بذلك. وتبعه الأمير تنكز بالعساكر - ومعه الأمير ميزامير

وولده - حتى نزل عينتاب ثم دابق، فوجد بها تسعة عشر ألف نول تعمل الصوف، وتجلب كلها إلى حلب. ثم سار تنكز، فقدم دمشق في سادس عشر ربيع الأول، وسير ميزامير وابنه في ثلاثين رجلاً مع العسكر المصري إلى القاهرة فقدموا في خامس ربيع الآخر.

ومات الملك خربندا بن أبغا بن أرغون في سادس شوال، وتسمى بمحمد، وكان رافضيًا، قتل أهل السنة، وكان منهمكًا في شرب الخمر متشاغلاً باللهو، وقام بعده ابنه أبو سعيد بعهده إليه، وكان محولاً بإحدى عينيه، عادلاً في رعيته، ملك ثلاث عشرة سنة وأشهرًا.

* * *

سنة ست عشر وسبعمائة

في المحرم: قدم البريد من حلب بموت خربندا، وجلوس ولده أبي سعيد بعده.

وفيها أغار من الططر نحو ألف فارس على أطراف بلاد حلب، ونهبوا إلى قرب قلعة كمختا فقاتلهم التركمان وقتلوا كثيرا منهم، وأسروا ستة وخمسين من أعيانهم، وغنموا ما كان معهم، فقدمت الأسرى إلى القاهرة في صفر سنة سبع عشرة.

* * *

سنة سبع عشر وسبعمائة

وفي أواخر شعبان: عدى جماعة من الططر الفرات، وقدم دمشق في سادس رمضان منهم أمير كبير اسمه طاطاي في مائة فارس بنسائهم وأولادهم، ودخلوا القاهرة في شوال.

وفي رمضان: عادت الرسل من عند أزبك، وهم أيدغدي الخوارزمي ومن معه، وصحبته رسل إزبك.

* * *

سنة ثمان عشرة وسبعمائة

وفيه سأل النصارى في رم جدران كنيسة بربارة بحارة الروم، فأذن لهم السلطان في رمها. فاجتمع لعمارتها جماعة كثيرة من النصارى، وأحضر الأقباط لهم الآلات، وأقاموا على عملها عدة من المسلمين شادين ومستحثين، فجاءت كأحسن المباني. فشق ذلك على جيران الكنيسة من المسلمين، وشكوا أمرها إلى الأمير أرغون النائب والفخر ناظر الجيش، وأن ذلك وقع بجاه كريم الدين الكبير وكريم الدين الصغير، ورفعوا عدة قصص إلى السلطان بدار العدل. فساعد النائب والفخر عند قراءة القصص في الإنكار على بناء الكنيسة، إلى أن رسم لمتولي القاهرة على علم الدين سنجر الخازن بخراب ما جدد فيها من البناء، فنزل إليها علم الدين، واجتمع إليه من الناس عدد لا يحصيه إلا الله، وهدم ما جدد فيها، ومضى لسبيله. فقامت طائفة من المسلمين وبنوا الجانب الذي هدم محرابًا، وأذنوا فيه أوقات الصلوات، وصلوا وقرأوا هناك القرآن، ولزموا الإقامة فيه. فحنق النصارى من ذلك، وشكوا أمرهم إلى كريم الدين، فرفع كريم الدين ذلك للسلطان، وأغراه ممن فعل ذلك، وأنه يريد نهب النصارى وأخذ أموالهم، وشنع القول. فرسم السلطان للخازن بهدم المحراب وإعادة البناء، وقبض أهل حارة الروم وعملهم في الحديد، فلما توجه الخازن لذلك اجتمع الناس وصاحوا به، فساس الأمير وتركهم، وأهمل ذلك الموضع حتى صار كوم تراب.

* * *

سنة تسع عشرة وسبعمائة

وفي هذه السنة: حشد الفرنج، وأقبلوا يريدون استئصال المسلمين من الأندلس في عدد لا يحصى، فيه خمسة وعشرون ملكًا، فقلق المسلمون بغرناطة، واستنجدوا بالمريني ملك فاس فلم ينجدهم، فلجأوا إلى الله وحاربوهم وهم نحو ألف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف راجل، فقتلوا الفرنج بأجمعهم. وأقل ما قيل أنه قتل منهم خمسون ألفًا، وأكثر ما قيل ثمانون ألفًا، ولم يقتل من المسلمين سوى ثلاثة عشر فارسًا، وغنم المسلمون ما لا يدخل تحت حصر، وسلخ الملك دون بتروا وحشي قطنًا، وعلق على باب غرناطة، فطلب الفرنج الهدنة فعقدت، وبقي دون بتروا معلقًا عدة سنين.

سنة عشرين وسبعمائة

وفي يوم الاثنين ثاني ربيع الآخر: جلس السلطان للرسل، وحضر كبيرهم باينجار، وكان مقعدًا لا يقدر على القيام ولا المشي وإنما يحمل، ودخل معه إيتغلي وطقبغا، ومنغوش، وطرجي، وعثمان خجا، والشيخ برهان الدين إمام القان، ورسل الأشكري. فأجلس باينجار، وأخذ منه كتاب أزبك، فبلغ السلام وقال: أخوك أزبك، أنت سيرت طلبت من عظم القان بنتًا، فلما لم يسيرها لم يطب خاطرك، وقد سيرنا لك من بيت كبير، فإن أعجبتك خذها بحيث لا تخلي عندك أكبر منها، وإن لم تعجبك فاعمل بقول الله تعالى: " إن ا لله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ". فقال السلطان: " نحن ما نريد الحسن، وإنما نريد كبر البيت والقرب من أخي، ونكون نحن وإياه شيئًا واحدًا ". وبلغه أيضًا برهان الدين مشافهة من قبل أزبك. فتولى قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة العقد على ثلاثين ألف دينار، الحال منها عشرون ألفًا، والمؤجل عشرة ألاف، وقبله السلطان بنفسه. وكتب علاء الدين على بن الأثير كاتب السر العقد بخطه، وصورته بعد البسملة: " هذا ما أصدق مولانا السلطان الأجل الملك الناصر على الخاتون الجليلة بنت أخي السلطان أزبك خان طولو ابنة طغاي بن بكر بن دوشي خان بن جنكزخان ". وخلع السلطان يومئذ خمسمائة خلعة، وكان يومًا مشهودًا. وبنى عليها من ليلتها، فلم تلق بخاطره. وأصبح السلطان فتقدم إلى كريم الدين أكرم الصغير بالتوجه إلى الصعيد وتعبية الإقامات إلى قوص، وجهز الرسل بالهدايا والإنعامات وسفرهم، وركب للصيد.

وفيها بعث السلطان ثلاثين فداويا من أهل قلعة مصياب للفتك بالأمير قراسنقر، فعندما وصلوا إلى تبريز نم بعضهم لقراسنقر عليهم، فتتبعهم وقبض على جماعة منهم، وقتلهم. وانفرد به بعضهم وقد ركب من الأردو، فقفز عليه فلم يتمكن منه، وقتل.

واشتهر في الأردو خبر الفداوية، وأنهم حضروا لقتل السلطان أبي سعيد وجوبان والوزير على شاه وقراسنقر وأمراء المغل، فاحترسوا على أنفسهم، وقبضوا عدة فداوية.

فتحيل بعضهم وعمل حمالاً، وتبع قراسنقر ليقفز عليه فلم يلحقه، ووقع على كفل الفرس فقتل، فاحتجب أبو سعيد بالخركاه أحد عشر يومًا خوفًا على نفسه. وطلب المجد إسماعيل، وأنكر عليه جوبان وأخرق به، وقال له: " والك أنت كل قليل تحضر

إلينا هدية، وتريد منا أن نكون متفقين مع صاحب مصر، لتمكر بنا حتى تقتلنا الفداوية والإسماعيلية "، وهدده أنه يقتله شر قتلة، ورسم عليه، فقام معه الوزير على شاه حتى أفرج عنه.

ثم قدم الخبر من بغداد بأن بعض الإسماعيلية قفز على النائب بها ومعه سكين فلم يتمكن منه، ووقعت الضربة في أحد أمراء المغل، وأن الإسماعيلي فر، فلما أدركه الطلب قتل نفسه. فتنكر جوبان لذلك، وجهز المجد السلامي إلى مصر ليكشف الخبر، وبعثوا في أثره رسولاً بهدية.

وفيها عادت العساكر من غارة سيس إلى أبيات مهنا، وطردوه من مكانه، وفرقوا جمعه في نواحي العراق.

وفيها قدم الخبر بأن أبا سعيد أراق الخمور في سائر مملكته، وأبطل منها بيوت الفواحش، وأبعد أرباب الملاهي، وأغلق الحانات، وأبطل المكوس التي تجبى من التجارة الواردة إليهم من البلاد، وهدم كنائس بالقرب من توريز، ورفع شهادة الإسلام، ونشر العدل، وعمر المساجد والجوامع، وقتل من وجد عنده الخمر بعد إراقته، فكتب السلطان سائر نواب الشام بإبطال ضمان الخمارات وإراقة الخمور، وغلق الحانات واستتابة أهل الفواحش، فعمل ذلك في سائر مدن البلاد الشامية وضياعها وجبالها، واجتهد النواب في إزالة المناكير حتى طهر الله منها ومن أهلها البلاد.

* * *

سنة إحدى وعشرين وسبعمائة

وفي يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر: ثارت العامة يدًا واحدة، وهدموا كنيستين متقابلتين بالزهري، وكنيسة بستان السكري وتعرف بالكنيسة الحمراء، وبعض كنيستين بمصر وكان ذلك من غرائب الاتفاق ونوادر الحوادث: والخبر عنه أن السلطان لما عزم على إنشاء الزريبة بجوار جامع الطيبرسي على النيل احتاج إلى طين كثير، فنزل بنفسه وعين مكانًا من أرض بستان الزهري قريبًا من ميدان المهارة ليأخذ منه الطين، ولينشئ في هذا المكان بركة وعوض مستحقي وقفه بدله، وكتب أوراقًا بأسماء الأمراء، وأفزر لكل منهم قياسًا معلومًا، فتولى قياس ذلك عدة من المهندسين مع الأمير بيبرس الحاجب. وابتدأ الأمراء في الحفر يوم الثلاثاء تاسع

عشري ربيع الأول، ورفعوا الطين على بغالهم ودوابهم إلى شاطئ النيل حيث عمل الزريبة. فلم يزل الحفر مستمرًا إلى أن قرب من كنيسة الزهري، وأحاط بها الحفر من دايرها وصارت في الوسط، بحيث تمنع من اتساع البركة. فعرف الأمير أقسنقر شاد العمائر السلطان بذلك، فأمره أن يبالغ في الحفر حولها حتى تتعلق، وإذا دخل الليل فيدع الأمراء تهدمها، ويشيع أنها سقطت على غفلة منهم، فاعتمد الحفر فيما حولها، وكتم ما يريده، وصارت غلمان الأمراء تصرخ وتريد هد الكنيسة، وآقسنقر يمنعهم من ذلك.

فلما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر: بطل العمل وقت الصلاة لاشتغال الأمراء بالصلاة، فاجتمع من الغلمان والعامة طائفة كبيرة، وصرخوا صوتًا واحدًا ا لله أكبر، ووقعوا في أركان الكنيسة بالمساحي والفوس حتى صارت كومًا، ووقع من فيها من النصارى، وانتهب العامة ما كان بها. والتفتوا إلى كنيسة الحمراء المجاوره لها، وكانت من أعظم كنائس النصارى، وفيها مال كبير، وعدة من النصارى ما بين رجال ونساء مترهبات فصعدت العامة فوقها، وفتحوا أبوابها ونهبوا أموالها وخمورها. وانتقلوا إلى كنيسة بومنا بجوار السبع سقايات، وكانت معبدًا جليلاً من معابد النصارى، فكسروا بابها ونهبوا ما فيها، وقتلوا منها جماعة، وسبوا بنات كانوا بها تزيد عدتهن على ستين بكرًا فما انقضت الصلاة حتى ماجت الأرض، فلما خرج الناس من الجامع رأوا غبارًا ودخان الحريق قد ارتفع إلى السماء، وما في العامة إلا من بيده بنت قد سباها أو جرة خمر أو ثوب أو شيء من النهب، فدهشوا وظنوا أنها الساعة قد قامت.

وانتشر الخبر من السبع سقايات إلى تحت القلعة، فأنكر السلطان ارتفاع الأصوات بالضجيج، وأمر الأمير أيدغمش بكشف لخبر. فلما بلغه ما وقع انزعج لذلك انزعاجًا زائدًا، وتقدم إلى أيدغمش أمير أخور، فركب بالوشاقية ليقبض على العامة ويشهرهم. فما هو إلا أن ركب أيدغمش إذا بملوك الأمير علم الدين سنجر الخازن متولي القاهرة حضر وأخبر بأن العامة ثارت بالقاهرة، وأخربوا كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة، وأنه ركب خوفًا على القاهرة من النهب. وقدم مملوك والي مصر وأخبر بأن عامتها قد تجمعت لهدم كنيسة المعلقة حيث مسكن البترك وأموال النصارى، ويطلب نجدة. فلشدة ما نزل بالسلطان من الغضب هم أن يركب بنفسه، ثم أردف أيدغمش بأربعة أمراء ساروا إلى مصر، وبعث بيبرس الحاجب، وألماس الحاجب إلى موضع الحفر، وبعث طينال إلى القاهرة، ليضعوا السيف فيمن

وجدوه. فقامت القاهرة ومصر على ساق، وفرت النهابة، فلم تدرك الأمراء منهم إلا من غلب على نفسه بالسكر من الخمر. وأدرك الأمير أيدغمش والي مصر وقد هزمته العامة من زقاق المعلقة، وأنكوا مماليكه بالرمي عليهم، ولم يبق إلا أن يحرقوا أبواب الكنيسة، فجرد هو ومن معه السيوف ليفتك بهم، فرأى عالمًا عظيمًا لا يحصيهم إلا خالقهم، فكف عنهم خوف اتساع الخرق، ونادى من وقف فدمه حلال، فخافت العامة أيضًا وتفرقوا. ووقف أيدغمش يحرس المعلقة إلى أن أذن العصر، فصلى بجامع عمرو، وعين خمسين أوشاقيا للمبيت مع الوالي على باب الكنيسة، وعاد.

وكان كأنما نودي في إقليم مصر بهدم الكنائس، وأول ما وقع الصوت بجامع قلعة الجبل: وذلك أنه لما انقضت صلاة الجمعة صرخ رجل موله في وسط الجامع: " اهدموا الكنيسة التي في القلعة "، وخرج في صراخه عن الحد واضطرب. فتعجب السلطان والأمراء منه، وندب نقيب الجيش والحاجب لتفتيش سائر بيوت القلعة، فوجدوا كنيسة في خرائب التتر قد أخفيت، فهدموها. وما هو إلا أن فرغوا من هدمها والسلطان يتعجب إذ وقع الصراخ تحت القلعة، وبلغه هدم العامة للكنائس كما تقدم، وطلب الرجل الموله فلم يوجد.

وعندما خرج الناس من صلاة الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة رأوا العامة في هرج عظيم، ومعهم الأخشاب والصلبان والثياب وغيرها، وهم يقولون: " السلطان نادى بخراب الكنائس "، فظنوا الأمر كذلك. وكان قد خرب من كنائس القاهرة سوى كنيستي حارة الروم وحاره زويلة وكنيسة بالبندقانيين كنائس كثيرة، ثم تبين أن ذلك كان من العامة بغير أمر السلطان.

فلما كان يوم الأحد حادي عشره: سقط الطائر من الإسكندرية بأنه لما كان الناس في صلاة الجمعة تجمع العامة وصاحوا هدمت الكنائس، فركب الأمير بدر الدين المحسني متولي الثغر بعد الصلاة ليدرك الكنائس، فإذا بها قد صارت كومًا، وكانت عدتها أربع كنائس. ووقعت بطاقة من والي البحيرة بأن العامة هدمت كنيستين في مدينة دمنهور، والناس في صلاة الجمعة. ثم ورد مملوك والي قوص في يوم الجمعة سابع عشره، وأخبر بأنه لما كان يوم الجمعة هدم العامة ست كنائس بقوص في نحو نصف ساعة. وتواترت الأخبار من الوجه القبلي والوجه البحري بهدم الكنائس وقت صلاة الجمعة، فكثر التعجب من وقوع هذا الاتفاق في ساعة واحدة بسائر الأقاليم.

وصار السلطان يشتد غضبه من العامة، والأمراء تسكن غضبه وتقول. " يا

مولانا هذا إنما هو من فعل الله. وإلا فمن يقدر من الناس على هدم كنائس الإسكندرية ودمياط والقاهرة ومصر وبلاد الصعيد في ساعة واحدة "، وهو يشتد على العامة ويزيد البطش بهم، فهرب كثير منهم.

وكان الذي هدم في هذه الساعة من الكنائس ستين كنيسة: وهي كنيسة بقلعة الجبل، وكنيسة بأرض الزهري موضع البركة الناصرية، وكنيسة بالحمراء، وكنيسة بجوار السبع سقايات، وكنيسة أبي المنا بجوارها، وكنيسة الفهادين بحارة الحكر، وكنيسة بحارة الروم من القاهرة، وكنيسة البندقانيين منها، وكنيسة بحارة زويلة، وكنيسة بخزانة البنود، وكنيسة بالخندق خارج القاهرة، وأربع كنائس بالإسكندرية، وكنيستان بدمنهور الوحش، وأربع كنائس بالغربية، وثلاث كنائس بالشرقية، وست كنائس بالبهنساوية، وبسيوط ومنفلوط ومنية بن خصيب ثماني كنائس، وقوص وأسوان إحدى عشرة كنيسة، والإطفيحية كنيستان، وبمدينة مصر بخط المصاصة وسوق وردان وقصر الشمع ثماني كنائس، ومن الأديرة شيء كثير.

وكان عقيب هدم الكنائس وقوع الحريق بالقاهرة ومصر، فابتدأ يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى، وتواتر إلى سلخه. وكان من خبره أن الميدان الكبير المطل على النيل لما فرغ العمل فيه ركب السلطان إليه في يوم السبت المذكور، وكان أول لعبه فيه بالأكرة، فبلغه الخبر بعد عوده إلى القلعة بأن الحريق وقع في ربع من أوقاف المارستان المنصوري، بخط الشوايين من القاهرة. واشتد الأمر، والأمراء تطفئه إلى عصر يوم الأحد، فوقع الصوت قبل المغرب بالحريق في حارة الديلم بزقاق العريسة، قريب من دار كريم الدين الكبير. ودخل الليل واشتد هبوب الرياح، فسرت النار في عدة أماكن. وبعث كريم الدين بولده علم الدين عبد الله إلى السلطان يعرفه، فبعث عدة من الأمراء والمماليك لإطفائه خوفًا على الحواصل السلطانية ثم تفاقم الأمر، واحتاج أقسنقر شاد العمائر إلى جمع سائر السائقين والأمراء، ونزلت الحجاب وغيرهم، والنار تعظم طول نهار الأحد، وخرجت النساء مسبيات من دورهن. وباتوا على ذلك، وأصبحوا يوم الاثنين والنار تتلف ما تمر به، والهد واقع في الدور التي تجاور الحريق خشية من تعلق النار فيها وسريانها في جميع دور القاهرة.

فلما كانت ليلة الثلاثاء خرج أمر الحريق عن القدرة البشرية، وخرجت ريح عاصفة ألقت النخيل وغرقت المراكب، ونشرت النار، فما شك الناس في أن القيامة قد قامت. وعظم شرر النيران، وصارت تسقط في عدة مواضع بعيدة، فخرج الناس

وتعلقوا بالمأذن، واجتمعوا في الجوامع والزوايا، وضجوا بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وصعد السلطان إلى أعلى القصر، فهاله ما شاهد.

وأصبح الناس يوم الثلاثاء في أسوإِ حال، فنزل النائب بسائر الأمراء وجميع من في القلعة وجميع أهل القاهرة، ونقل الماء على جمال الأمراء، ولحقه الأمير بكتمر الساقي وأخرجت جمال القرى السلطانية، ومنعت أبواب القاهرة أن يخرج منها سقاء، ونقلت المياه من المدارس والحمامات والآبار. وجمعت سائر البنائين والنجارين، فهدت الدور من أسفلها والنار تحرق في سقوفها. وعمل الأمراء الألوف وعدتهم أربعة وعشرون أميرًا بأنفسهم في طفي الحريق، ومعهم سائر أمراء الطبلخاناه والعشراوات، وتناولوا الماء بالقرب من السقائين، بحيث صار من باب زويلة إلى حارة الروم بحرًا، وحضر كريم الدين أكرم الصغير. بمائتي رجل. فكان يومًا لم ير أشنع منه، بحيث لم يبق أحد إلا وهو في شغل. ورؤى سائر الأمراء وهي تأخذ القرب من مماليكها، وتطفئ النار بأنفسها، وتدوس الوحل بأخفافها. ووقف الأمير بكتمر الساقي والأمير أرغون النائب حتى نقلت الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين إلى بيت ولده علم الدين عبد الله بدرب الرصاصي، وهدم لأجل نقل الحواصل ستة عشر دارًا. وخمدت النار وعاد الأمراء.

* * *

سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة

وفيه قدم الملك المؤيد صاحب حماة، وسار مع السلطان إلى قوص.

وفيه نقل البوبكري إلى الإسكندرية عند سفر السلطان إلى بلاد الصعيد، فسجن بها.

وفيه ورد الخبر بخلع الملك المجاهد على صاحب اليمن، وإقامة الناصر جلال الدين.

* * *

سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة

وفي رابع عشره: قدمت رسل أبي سعيد لتحليف السلطان على الصلح، ومعهم هدية ما بين بخاتي وأكاديش وتحف، فقرئ كتابه بوقوع الصلح، ثم سفروا بهدية سنية بعدما عمرهم إحسان السلطان في ثاني عشريه.

وفيه قدم الحمل من عند متملك سيس صحبة رسوله، ومعه جواهر ثمينة، واعتذر الرسول عما كان من متملك سيس، واستأذن في عمارة أياس، على أن يحمل في كل سنة مائة ألف درهم، فأجيب إلى ذلك.

* * *

سنة أربع وعشرين وسبعمائة

وفي يوم السبت تاسع المحرم: وصل الأمير سيف الدين طشتمر حمص أخضر الساقي من الحجاز، وصحبته جماعة وكان قد سافر بعد الإفراج عنه، وأنعم عليه بألفي دينار وغلال كثيرة، وعمل له السلطان عند قدومه اثنتي عشرة بدلة وثلاثة حوائض وطرز زركش، وأنعم عليه بمال جزيل، وتتابع قدوم الحاج حتى قدم المحمل في خامس عشريه وفيه توجه الأمير أرغون النائب إلى منية بني خصيب، فشكا أهلها من مباشريهم، فلم يسمع لهم وأمر بضربهم، فرجموه بالحجارة وأنكوا في مماليكه وغلمانه. فركب عليهم أرغون ليفتك بهم، ففروا من عند الوطاق خارج البلد إلى داخل البلد، فأخذ مماليكه من عمائم الهاربين نيفًا على ثلاثمائة وستين عمامة زرقاء من عمائم النصارى، فلما استكثر ذلك قيل له إن بها كثيرًا من النصارى، ولهم خمس كنائس، فهدمها في ساعة واحدة، ورسم ألا يستخدم نصراني في ديوانه، وكان النصارى قد جددوا عمارة ما خرب من الكنائس بالصعيد، فهدمت أيضًا.

وفي يوم الجمعة: هبت ريح والناس في الصلاة، حتى ظن الناس أن الساعة قامت، واستمرت بقية النهار وطول الليل، فهدم بها دور كثيرة، وامتلأت الأرض بتراب أسود.

* * *

سنة خمس وعشرين وسبعمائة

وفيه اجتمع بمصر من رسل الملوك ما لم يجتمع مثلهم في الدولة التركية، وهم: رسل صاحب اليمن، ورسل صاحب إسطنبول، ورسل الأشكري، ورسل متملك سيس، ورسل أبي سعيد، ورسل ماردين، ورسل ابن قرمان، ورسل ملك النوبة، وكلهم يبذلون الطاعة. وسأل الملك المجاهد صاحب اليمن إنجاده بعسكر من مصر، وأكثر من ترغيب السلطان في المال الذي باليمن، وكان قدوم رسله في مستهل صفر. فرسم السلطان بتجهيز العسكر صحبة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، وهو مقدم العسكر. وكان معه من أمراء الطبلخاناه خمسة: وهم آقول الحاجب، وقجمار الجوكندار ويعرف باسم بشاس، وبلبان الصرخدي، وبكتمر العلائي أستادار، وألجاي

الساقي الناصري، ومن العشراوات عز الدين أيدمر الكوندكي، وشمس الدين إبراهيم بن التركماني، وأربعة من مقدمي الحلقة، عليها الأمير سيف الدين طينال الحاجب، ومعه خمسة أمراء طبلخاناه، وهم: الأمير ططر الناصري، وعلاء الدين بن طغريل الإيغاني، وجرباش أمير علم، وأيبك الكوندكي، وكوكاي طاز، ومن العشراوات أيضًا بلبان الدواداري، وطرنطاي الإسماعيلي والي باب القلة، وأربعة أخرون من مقدمي الحلقة، ومن المماليك السلطانية ثلاثمائة فارس، ومن أجناد الحلقة تتمة الألف فارس. وفرقت فيهم أوراق السفر يوم الاثنين خامسه. وكتب بحضور العربان من الشرقية والغربية لأجل الجمال.

وفيه خرج السلطان إلى سرياقوس، وقبض على الأمير بكتمر الحاجب وجماعة، في يوم الخميس ثاني ربيع الأول.

* * *

سنة ست وعشرين وسبعمائة

وفي يوم الاثنين سادس عشر المحرم: وردت رسل ملك الحبشة بكتابه يتضمن إعادة ما خرب من كنائس النصارى ومعاملتهم بالإكرام والاحترام، ويهدد بأنه يخرب ما عنده من مساجد المسلمين، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر، فسخر السلطان منه، ورد رسله.

وفي ثاني عشرى جمادى الأولى: خرجت تجريدة إلى برقة عليها من الأمراء أسندمر العمري وملكتمر الإبراهيمي وقطلوبغا الطويل، وجماعة من أجناد الأمراء. وسببها حضور فايد وسليمان أميري العربان ببرقة، وشكواهم من العرب أنهم منعوا أداء الزكاة عن الغنم.

* * *

سنة سبع وعشرين وسبعمائة

وفي يوم الأربعاء رابع رجب: قدمت رسل القان أبي سعيد، ومعهم محمد بيه بن جمق قريب السلطان وابن أخت طايربغا، بهدية سنية. فأنعم السلطان على محمد بيه بإمره طبلخاناه عوضًا عن أيبك البكتوتي أمير علم، بحكم انتقاله على إقطاع فيروز بصمد.

فلما كمان يوم السبت: ركب السلطان إلى الميدان ومعه الرسل، ثم أركبهم في ثالث عشره معه إلى القاهرة، ونزل إلى زيارة قبر والده الملك المنصور، ومد سماط عظيم بإيوان المدرسة المنصورية القبلي وحضر الفقهاء بالإيوان البحري. ثم ركب السلطان بهم مرة ثانية إلى الميدان، وأعادهم في سادس عشره بهدية جليلة.

وفي أول شعبان: قدمت رسل بابا الفرنج من مدينة رومة بهدية، وكتاب فيه الوصية بالنصارى وأنه مهما عمل مهم بمصر والشام عاملوا من عندهم من المسلمين بمثله، فأجيبوا وأعيدوا.

* * *

سنة ثمان وعشرين وسبعمائة

وفي سابع ربيع الأول. قدم دمرداش بن جوبان بن تلك بن تداون. وسبب ذلك أن القان أبا سعيد بن خربندا لما ملك أقبل على اللهو، فتحكم الأمير جوبان بن تلك على الأردو، وقام بأمر المملكة، واستناب ولده دمشق خواجا بالأردو، وبعث ابنه دمرداش إلى مملكة الروم. فانحصر أبو سعيد إلى أن تحرك بعض أولاد كبك بجهة خراسان، وخرج عن الطاعة، فسار جوبان لحربه في عسكر كبير، فما هو إلا أن بعد عن الأردو قليلاً حتى رجع العدو عن خراسان، وقصد جوبان العود.

وكان قد قبض بوسعيد على دمشق خواجا، وقتله بظاهر مدينة السلطانية، في شوال من السنة الماضية، وأتبع به إخوته ونهب أتباعهم، وسفك أكثر دمائهم، وكتب إلى من خرج من العسكر مع جوبان بما وقع، وأمرهم بقبضه، وكتب إلى دمرداش أن يحضر إلى الأردو، وعرفه شوقه إليه، ودس مع الرسول إليه عدة ملطفات إلى أمراء الروم بالقبض عليه أو قتله، وعرفهم ما وقع.

وكان دمرداش قد ملك بلاد الروم جميعها وجبال ابن قرمان، وأقام على كل

دربند جماعة تحفظه، فلا يمر أحد إلا ويعلم به خوفًا على نفسه من السلطان الملك الناصر أن يبعث إليه فداويا يقتله، بسبب ما حصل بينهما من المواحشة التي اقتضت انحصار السلطان منه، وأنه منع التجار وغيرهم من حمل المماليك إلى مصر، وإذا سمع بأحد من جهة صاحب مصر أخرق به. فشرع السلطان يخادعه على عادته، ويهاديه ويترضاه، وهو لا يلتفت إليه، فكتب إلى أبيه جوبان في أمره حتى بعث ينكر عليه، فأمسك عما كان فيه قليلاً، ولبس تشريف السلطان، وقبل هديته وبعث عوضها، وهو مع هذا شديد التحرز.

فلما قدمت رسل أبي سعيد بطلبه فتشهم الموكلون بالدربندات، فوجدوا الملطفات، فحملوهم وما معهم إلى دمرداش. فلما وقف دمرداش عليهما لم يزل يعاقب الرسل إلى أن اعترفوا بأن أبا سعيد قتل دمشق خواجا وإخواته ومن يلوذ بهم، ونهب أموالهم، وبعث بقتل جوبان. فقتل دمرداش الرسل، وبعث إلى الأمراء أصحاب الملطفات فقتلهم أيضًا، وكتب إلى السلطان الملك الناصر يرغب في طاعته، ويستأذنه في القدوم عليه بعساكر الروم، ليكون نائبًا عنه بها. فسر السلطان بذلك. وكان قد ورد على السلطان كتاب المجد السلامي من الشرق بقتل دمشق خواجا وإخوته، وكتاب أبي سعيد بقتل جوبان، وطلب ابنه دمرداش، وأنه ما عاق أبا سعيد عن الحركة إلا كثرة الثلج وقوة الشتاء.

فكتب السلطان الناصر جواب دمرداش يعده بمواعيد كثيرة، ويرغبه في الحضور. فتحير دمرداش بين أن يقيم فيأتيه أبو سعيد، أو يتوجه إلى مصر فلا يدري ما يتفق له. ثم قوي عنده المسير إلى مصر، وأعلم أمراءه أن عسكر مصر سار ليأخذ بلاد الروم، وأنه قد كتب إليه الملك الناصر يأمره أن يكون نائبه، فمشى عليهم ذلك وسرهم. وأخذ دمرداش يجهز أمره، وحصن أولاده وأهله في قلعة منيعة، وبعث معهم أمواله، ثم ركب بعساكره حتى قارب بهسنا، فجمع من معه وأعلمهم أنه يريد مصر، وخيرهم بين العود إلى بلادهم وبين المسير معه، فعادوا إلا من يختص به.

وسار دمرداش إلى بهسنا في نحو ثلاثمائة فارس، فتلقاه نائبها، ومازال حتى قدم دمشق يوم الأحد خامس عشرى صفر، فركب الأمير تنكز إلى لقائه، وأنزله بالميدان، وقام له بما يجب، وجهزه إلى مصر بعد ما قدم بين يديه البريد بخبره. فبعث إليه السلطان بالأمير سيف الدين طرغاي الجاشنكير، ومعه المهمندار بجميع الآلات الملوكية من الخيام والدهليز والبيوتات كلها إلى غزة، فلقوه بها وأقام فيها يومين وسافر إلى القاهرة، فركب الأمراء إلى لقائه، وخرج السلطان إلى بر الجيزة، ورسم

أن يعبر النيل إليه.

فلما قدم دمرداش إلى القاهرة في سابع ربيع الأول أتاه الأمير طايربغا وأحضره إلى السلطان بالجيزة، فقبل الأرض ثلاث مرات. فترحب السلطان به وأجلسه بالقرب منه، وباسطه وطيب خاطره، وسأله عن أحواله، وألبسه تشريفًا عظيمًا، وركب معه للصيد، وعدى به النيل إلى القلعة، وأسكنه بها في بيت الجاولي ورتب له جميع ما يحتاج إليه، ورسم للأمير طوغان أن يدخل صحبة طعامه بكرة وعشيا.

وفي عاشره: قدم دمرداش مائة إكديش وثمانين بختيا وخمسة مماليك وخمس بقج فيها الثياب الفاخرة، منها بقجة بها قباء أطلس مرصع بعدة جواهر ثمينة، فلم يقبل السلطان غير القباء وإكديشًا واحدًا وقطار بخات ورد البقيه إليه ليتقوى بها.

وتقدم السلطان إلى الوزير أن يرتب لدمرداش ما يليق به، وطلب إلى الحاجب أن يجلسه في الميمنة تحت الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار. فشق عليه ذلك، إلى أن بعث السلطان إليه الأمير بدر الدين جنكلي يعتذر إليه أنه ما جهل قدره، ولكن الشهيد والد السلطان له مماليك كبار قد ربوا السلطان، فهو يريد تعظيم قدرهم، " فلهذا أجلسك بجانبهم؟ فطاب خاطره.

واجتمع دمرداش بالسلطان وفاوضه في أمر بلاد الروم، وأن يجهز إليها عسكرًا. فأشار السلطان بالمهلة حتى يرد البريد بخبر أبيه جوبان مع أبي سعيد، وكتب إلى ابن قرمان أن ينزل على القلعة التي فيها أولاد دمرداش وحواصله ويرسلهم مكرمين إلى مصر. فاستأذن دمرداش في عود من قدم معه إلى بلادهم، فأذن له في ذلك، فسار كثير منهم.

وأنعم السلطان على دمرداش بأمرة سنجر الجمقدار، بحكم إخراجه إلى الشام.

وهي يوم الاثنين حادي عشره: ركب دمرداش بالقماش الإسلامي على هيئة الأمراء.

وفي تاسع عشره: قدم الأمير شاهنشاه ابن عم جوبان، فخلع عليه، وأنزل عند دمرداش.

وفي ثامن عشريه: وصل طلب دمرداش وثقله، فأنزلوا بدار الضيافة، وهم نحو ستمائة فارس.

وفي يوم الأحد أول ربيع الآخر: عرض السلطان أصحاب دمرداش، وفرق أكثرهم على الأمراء، واختار نحو التسعين منهم العود إلى بلادهم، فعادوا.

وفيه قدمت رسل أبي سعيد بكتابه، وفيه بعد السلام والاستيحاش وذكر الود إعلام السلطان بأمر جوبان وتحكمه وقلة امتثاله الأمر، وأنه قصد قتله والتحكم بمفرده، فلما تحقق ذلك لديه بعثه إلى خراسان، وسير بالقبض عليه، وهو يأخذ رأي السلطان في ذلك، وقد سير أبو سعيد مع رسله هدية فقبلت. وسألهم السلطان عن دمرداش، فذكروا أنهم لم يعرفوا خبره حتى قدموا دمشق، فبعثهم إليه فلم يعبأ بهم.

ومات في هذه السنة من الأعيان شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني بدمشق ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة، في سجنه بالقلعة. ومولده يوم الاثنين عاشر ربيع الأول، سنة احدى وستين وستمائة. ومات الأمير سيف الدين جوبان المنصور أحد أمراء دمشق الأكابر، بها في العشرين من صفر.

* * *

سنة تسع وعشرين وسبعمائة

وفي يوم الأحد: قدمت رسل أبي سعيد في طلب المصاهرة ومعهم اثنا عشر إكديشًا بجلال جوخ، واثنان عري.

* * *

سنة ثلاثين وسبعمائة

وفي خامس عشره: قدمت رسل ريدافرنس في طلب القدس وبلاد الساحل، وعدتهم مائة وعشرون رجلاً، فأنكر السلطان عليهم وعلى مرسلهم وأهانهم، ثم رسم بعودهم إلى بلادهم.

وفي العشرين من شهر رجب: قدمت رسل أبي سعيد بن خربند للهناء بعافية السلطان، فأكرموا وأعيدوا في سابع عشريه. وقدمت أيضًا رسل الشيخ حسن الجلايري نائب أبي سعيد بعد رحيل المذكورين، فأدوا رسالتهم وأعيدوا في آخره.

وفي هذا الشهر: أحرقت كنيسه الممكية بمصر، حتى صارت عمدها الرخام جيرًا، وكان بجانبها مسجد لم تصبه النار، فرسم للنصارى بإعادتها، فأعيدت.

* * *

سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة

وفيه قدمت رسل ملك الهند، وكان مجيؤهم من جهة بغداد، فأكرموا وخلع عليهم، وساروا في أخره.

وفيه أيضًا كان وفاء النيل وهو خامس عشرى مسري.

وفي يوم الاثنين خامس ذي الحجة: أسلم من الكتاب النصارى المهذب كاتب الأمير بكتمر الساقي والنشو مستوفي الدولة، والعلم بن فخر الدولة مستوفي الدولة أيضًا.

* * *

سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة

وتوجه مع السلطان إلى الحجاز الملك الأفضل صاحب حماة، وكان قد قدم يوم الأحد سادس عشرى شعبان ومن الأمراء جنكلي بن البابا، والحاج آل ملك وبيبرس الأحمد وبهادر المعزي وأيدغمش أمير أخور، وبكتمر الساقي وطقزدمر، وسنجر الجاولي وقوصون، وطايربغا، وطغاي تمر، وبشتاك، وأرنبغا، وطغجي وأحمد بن بكتمر الساقي وصوصون، وبهادر الناصر وجركتمر بن بهادر، وطيدمر الساقي وأقبغا آص الجاشنكير، وطقتمر الخازن، وطوغان الساقي وسوسن السلحدار، وبلك، وبيبغا الشمسي وبيغرا، وقماري وتمر الموسوي وأيدمر أمير جاندار وبيدمر البدري وطقبغا الناصري وأيتمش الساقي وأياز الساقي وألطقنش وأنس، وأيدمر ددقمان، وطبيغا المحمدي وجاريك، وقطز أمير آخور، وبنيدمر، وأيبك، وأيدمر العمري ويحيي ابن طايربغا، ومسعود الحاجب، ونوروز، وكجلي وبرلغي وبكجا ويوسف الدوادار، وقطلقتمر السلحدار، ونانق، وساطلمش وبغاتمر، ومحمد بن جنكل وعلي بن أيدغمش، وألجاي وأقسنقر الناصر وقرا، وعلاء الدين علي بن هلال الدولة، وتمربغا العقيلي وقماري الحسن وعلي بن أيدمر الخطيري وطقتمر اليوسفي وكل هؤلاء مقدمون وطبلخاناه، ومن أمراء العشرات علي بن السعيد وصاروجا النقيب، وآقسنقر الرومي وأياجي الساقي وسنقر الخازن، وأحمد بن كجكن، وأرغون العلائي وأرغون الإسماعيلي وبغا، ومحمد بن الخطير وأحمد بن أيدغمش، وطشبغا، وقليجي. وحج مع السلطان أيضًا قاضي القضاة جلال الدين محمد القزويني، وحج أيضًا عز الدين عبد العزيز بن جماعة، وموافق الدين الحنبلي وعز الدين بن الفرات الحنفي وفخر الدين النويري المالكي، وكانوا أربعتهم ينزلون في خيمة واحدة، فإذا تقدمت إليهم فتوي كتبوا عليها، وهذا من غريب الاتفاق. وقدم السلطان الأمير أيتمش إلى عقبة أيلة، ومعه مائة رجل من الحجارين حتى وسعها وأزال وعرها، ومن يومئذ سهل صعودها.

* * *

سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة

فلما قدم السلطان مكة أكثر بها من الإنعام على الأمراء، وأنفق في جميع من معه من الأجناد والمماليك ذهبًا كثيرًا وعم بصدقاته أهل الحرم. فلما قضى النسك عاد يريد مصر، فلما وصل إلى المدينة النبوية هبت بها في الليل ريح شديدة جدًا ألقت الخيم كلها، وتزايد اضطراب الناس، وفر منهم عدة من المماليك، واشتدت ظلمة الجو، فكان أمرًا مهولاً. فلما كان النهار سكن الريح، فظهر أمير المدينة بمن فر من المماليك، فخلع السلطان عليه، وأنعم عليه بجميع ما كان مع المماليك من مال وغيره. وبعث السلطان بالمماليك إلى الكرك، وكان أخر العهد بهم.

وقدم السلطان إلى القاهرة في يوم السبت ثامن عشر المحرم، بعدما ورد الخبر بموت بكتمر الساقي وولده وكثرت الإشاعات. وقد خرج معظم الناس في لقائه، بحيث غلقت أسواق القاهرة ومصر، وخرج شرف الدين النشو، فبسط الشقاق الحرير والزر بفت التي جباها من الأمراء المقيمين وأرباب الدولة من بين العروستين إلى باب الإصطبل. فلما توسط السلطان بين الجبلين صاحت العامة: هوإياه؟ ما هوإياه؟ بالله اكشف لثامك وأرنا وجهك. وكان السلطان قد تلثم، فحسر اللثام عن وجهه، فصاحوا بأجمعهم: " الحمد لله على السلامة "، وبالغوا في إظهار الفرج به والدعاء له، فسره ذلك منهم. وصعد السلطان القلعة، فدقت البشائر وعملت الأفراح ثلاثة أيام. وكانت حجة السلطان هذه يضرب بها الأمثال: أبيع بمكة فيها الأردب من الشعير من عشرة دراهم إلى عشرين درهمًا، وأبيع البقسمات بالعدل، فكان يقف كل رطل منه بفلس واحد، وأبيع السكر كل رطل بدرهمين، والعلبة الحلوى بثلاثة دراهم. وقدمت تنكز نائب الشام افي خليص، فعمت الناس وأنعم السلطان على جميع أهل مكة، وكان إنعامه على الشريف رميثة بخمسة ألاف دينار، وعلى زوجته بخمسمائة دينار، وذلك سوى ما أنعم به على البنات وغيرها. فقدم له رميثة مائة فرس، وألف رأس من الغنم، فرد الجميع وأخذ منها فرسين لا غير.

* * *

سنة أربع وثلاثين وسبعمائة

وفي ذي الحجة: ركب أيدكن والي القاهرة إلى النجيلة خارج القاهرة وهي يومئذ متنزه العامة، وبدايرها أخصاص للفرجة وكبسها وقت المغرب، فما قبض على أحد إلا وسلبة ثيابه وتركه عاريًا، فجمع من ذلك شيئًا كثيرًا وجمع الباعة من الغد بثمنه، فبلغ خمسة عشر ألف درهم.

وفيها ورد الخبر من بغداد بان صاحبها ألزم النصارى ببغداد أن يلبسوا العمائم الزرق، واليهود أن يلبسوا العمائم الصفر اقتداء بالسلطان الملك الناصر بهذه السنة الحسنة.

وفيها ولى تدريس الشافعي بالقرافة شمس الدين محمد بن القماح بعد وفاة المجد حرمي، واستقر عوضه في وكالة بيت المال النجم الأسعردي المحتسب، وفي تدريس المدرسة القطبية بهاء الدين بن عقيل.

* * *

سنة خمس وثلاثين وسبعمائة

وفيها كثر شغف السلطان بمملوكه ألطنبغا الماريديني شغفًا زائدًا وقاه، فأحب أن ينشئ له جامعًا تجاه ربع الأمير سيف الدين طغي خارج باب زويلة، واشترى عدة دور من ملاكها برضاهم. فانتدب السلطان لذلك النشو، فطلب أرباب الأملاك وقال لهم: " الأرض للسلطان ولكم قيمة البناء ومازال بهم حتى ابتاعها منهم بنصف ما في مكاتيبهم من الثمن، وكانوا قد أنفقوا في عمارتها بعد مشتراها جملة، فلم يعتد لهم منها بشيء. وقام الماريديني في عمارة الجامع حتى تم في أحسن هندام، فجاء مصرفه ثلاثمائة ألف درهم ونيف، سوى ما أنعم به عليه السلطان من الخشب والرخام وغيره. وخطب به الشيخ ركن الدين عمر بن إبراهيم الجعبري من غير أن يتناول له معلومًا. وفيها عمرت قلعة جعبر المعروفة قديمًا بدوسر وكانت قد تلاشت بعد أخذ المغل لها، فلما كملت رتب في نيابتها الأمير صارم الدين بكتوت السنجري نائب الرحبة وفيها وقعت قصة بدار العدل تتضمن الوقيعة في النشو، وتذكر ظلمه وتسلط أقاربه على الناس وكثرة أموالهم، وتعشق صهره ولي الدولة لشاب تركي. وكان قبل ذلك قد ذكر الأمير قوصون للسلطان أن عميرًا الذي شغف به الأمير ألماس قد ولع

به أقارب النشو، وأنفقوا عليه الأموال الكثيرة، فلم يقبل السلطان فيه قول قوصون أو غيره من الأمراء لمعرفته بكراهتهم له. فلما قرأت عليه القصة قال: " أنا أعرف من كتبها وأستدعي النشو ودفعها إليه، وأعاد له ما رماه به الأمير قوصون. فحلف النشو على براءة أقاربه من هذا الشاب، وإنما هذا ومثله مما ينقله حواشي الأمير قوصون إليه، ليبلغه قوصون إلى السلطان حتى يتغير خاطره، ويوقع به وبأقاربه، وبكى وانصرف. فطلب السلطان الأمير قوصون وأنكر عليه إصغاءه لما يقال في النشو، ونقله للسلطان حتى يتغير عليه مع منفعته به، وأخبره بحلف النشو. فحلف قوصون أن النشو يكذب في حلفه، ولئن قبض على هذا الشاب وعوقب ليصدقن السلطان في تعيينه من يعاشره من أقارب النشو.

فغضب السلطان، وطلب الأمير بدر الدين مسعود بن خطير الحاجب، وأمره بطلب الشاب وضربه بالمقارع حتى يعترف بجميع من يصحبه وكتابة أسمائهم، وألزمه ألا يكتم عنه شيئًا منهم، فطلبه ابن خطير وأحضر إليه المعاصير، فأملى عليه عدة كثيرة من الأعيان، منهم ولي الدولة، فخشي مسعود على الناس من الفضيحة، وقال للسلطان: " هذا الكذاب ما ترك أحد في المدينة حتى أعترف عليه، وإنني أعتقد أنه يكذب عليهم. وكان السلطان حشم النفس يكره الفحش فقال: " يا بدر الدين من ذكر من الدوارين؟ فقال: " والله يا خوند! ما خلى من خوفه أحدًا حتى ذكره. فرسم السلطان بإخراج عمير وأبيه إلى غزة وكتب إلى نائبهما أن يقطعهما خبزًا هناك.

* * *

سنة ست وثلاثين وسبعمائة

وفيها اشتدت وطأة النشو على الناس، وابتكر مظلمة لم يسبق إليها. وهي أنه ألزم الصاغة ودار أهل الضرب ألا يبتاع أحد منهم ذهبًا، بل يحمل الذهب جميعه إلى دار الضرب، ليصك بصكة السلطان ويضرب دنانير هرجة، ثم تصرف بالدراهم، فجمع من ذلك مالاً كبيرًا للديوان. ثم تتبع النشو الذهب المضروب في دار الضرب، فأخذ ما كان منه للتجار والعامه، وعوضهم عنه بضائع، وحمل ذلك كله للسلطان. وانحصر ذهب مصر بأجمعه في دار الضرب، فلم يجسر أحد على بيع شيء منه في الصاغة ولا غيرها. ثم إن السلطان استدعى منه بعشرة آلاف دينار، فاعتذر عنها فلم يقبل عذره ونهره، فنزل النشو وألزم أمين الحكم بكتابة ما تحت يده من مال الأيتام، وطلب منه عشرة آلاف دينار قرضًا في ذمته، فدله على مبلغ أربعمائة ألف درهم لأيتام الدواداري تحت ختم بهاء الدين شاهد الجمال، فأخذها منه وعوضه عنها بضائع. ثم بعث النشو إلى قاضي القضاة تقي الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى الإخنائي المالكي في تمكينه من مال أولاد الأمير أرغون النائب، وهو ستة آلاف دينار، وكانوا تحت حجره فامتنع وقال: " السلطان ما يحل له أخذ مال الأيتام فرد عليه: بأن السلطان إنما يطلب المال الذي سرقه أخوك من خزانة الخاص حيث كان ناظرها، فإن الحساب يشهد عليه بما سرقه من الخزانة،، وقام في فورة إلى السلطان، ومازال به حتى بعث إلى القاضي يلزمه يحمل المال الذي سرقه أخوه من الخزانة، ويقول له: أنت إيش كنت من مملوكي؟ فلم يجد قاضي القضاة بدًا من تمكين النشو من أخذ المال.

وفي يوم عيد النحر: أقيم على مملكة العراق محمد يلقطلو بن تيمور بن عنبرجي ابن منكوتمر بن هولاكو، وقام بأمره الشيخ حسن بك الكبير، فحاربه الملك موسى في رابع عشره، فانهزم موسى بعدما قتل بينهما خلائق، وقتل علي بادشاه مدبر دولة موسى وكانت هذه الوقعة قريبًا من توريز عند بلدة ناوشهر على جبل الأداغ.

* * *

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة

وفيها صادر النشو جماعة من أرباب الدواليب بالوجه القبلي وأخذ من محتسب البهنسا وأخيه مائتي ألف درهم وألف أردب غلة. فرافع ابن زعازع من أمراء الصعيد أولاد قمر الدولة عند النشو، فاقتضى رأيه فصادره ابن زعازع لكثرة ماله، وأوقع الحوطة على موجوده، وكتب إلى متولي البهنسا ليعاقبه أشد العقوبة. فلف والي البهنسا على أصابعه الخروق وغمسها في القطران، وأشعل فيها النار، ثم عراه ولوحه على النار، حتى أخذ منه ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، ووجد له أربعمائة مرجية بفرو، ومائة وعشرين جارية، وستين عبدًا، ثم كتب عليه حجة بعد ذلك بمبلغ مائة درهم، واحتج النشو لمصادرته بأنه وجد كنزًا.

* * *

سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة

وفي يوم الخميس ثالث عشريه: قدمت عساكر التجريدة من بلاد سيس. وكان من خبر ذلك أنهم لما ساروا من القاهرة في ثاني عشر شعبان، وقدموا دمشق تلقاهم الأمير تنكز، ولم يعبأ تنكز بالأمير أرقطاي مقدم العسكر لما في نفسه منه. ومضوا إلى حلب. فقدموها في رابع عشرى رمضان، وأقاموا بها يومين فقدم الأمير قطلوبغا الفخري بعساكر الشام، وقد وصل إلى جعبر ثم ساروا جميعًا يوم عيد الفطر، ومعهم الأمير علاء الدين ألطبغا نائب حلب، وهو مقدم على العسكر جميعًا، حتى نزلوا على الإسكندرونة أول بلاد سيس، وقد تقدمهم الأمير مغلطاي الغزي إليها بشهرين حتى جهز المجانيق والزحافات والجسور الحديد والمراكب وغير ذلك لعبور نهر جهان. فقدم عليهم البريد من دمشق بأن تكفرر وعد بتسليم القلاع للسلطان، فلترد المجانيق وجميع آلات الحصار إلى بغراس. وليقم العسكر على مدينة أياس حتى يرد مرسوم السلطان بما يعتمد في أمرهم وكانت التراكمين قد أغاروا على بلاد سيس، ومعهم عسكر ابن فرمان فتركوها أوحش من بطن حمار، فبعث تكفور رسله في البحر إلى دمياط، فلم يأذن السلطان لهم في القدوم عليه، من أجل أنهم لم يعلموا نائب الشام بحضورهم، فعادوا إلى تكفور. فبعث تكفور بهدية إلى تنكز نائب الشام، وسأله منع العسكر من بلاده، وأنه يسلم القلاع التي من وراء نهر جهان جميعًا للسلطان. فكاتب

تنكز السلطان بذلك، وبعث أوحد المهمندار إلى الأمير علاء الدين ألطبغا نائب حلب وهو المقدم على العسكر جميعًا بمنع الغارة ورد الآلات إلى بغراس، فردها ألطبغا وركب بالعسكر إلى آياس، فقدمها يوم الاثنين ثاني عشر شوال. وكانت آياس قد تحصنت، فبادر العسكر وزحف عليها بغير أمره فكان يومًا مهولاً، جرح فيه جماعة كثيرة. واستمر الحصار إلى يوم الخميس خامس عشره، وأحضر نائب حلب خمسن نجارًا وعمل زحافتين وستارتين ونادى في الناس بالركوب للزحف. فاشتد القتال حتى وصلت الزحافات والرجال إلى قريب السور، بعدما استشهد جماعة كثرة. فترجل الأمراء عن الخيول لأخذ السور، وإذا بأوحد المهمندار ورسل تكفور قد وافوا برسالة نائب الشام، فعادوا إلى مخيمهم فبلغهم أوحد المهنمدار أن يكفوا عن الغارة، فلم يوافقوه على ذلك، واستقر الحال على أن تسلموا أياس بعد ثمانية أيام.

فلما كان اليوم الثامن أرسل تكفور مفاتيح القلاع، على أن يرد ما سبي ونهب من بلاده، فنودي برد السب فأحضر كثير منه، وأخرب الجسر الذي نصب على نهر جهان. وتوجه الأمير مغلطاي الغزي فتسلم قلعة كوارة وكانت من أحصن قلاع الأرمن، ولها سور مساحته فدان وثلث وربع فدان، وارتفاعه اثنان وأربعون ذراعًا بالعمل، وأنفق تكفور على عمارته أربعمائة ألف وستين ألف دينار.

وتسلم العسكر آياس، وهدم البرج الأطلس في ثمانية أيام، بعدما عمل فيه أربعون حجارًا يومين وليلتين حتى خرج منه حجر واحد. ثم نقب البرج وعلق على الأخشاب، وأضرمت فيه النار، فسقط جميعه، وكان برجًا عظيمًا، بلغ ضمانه في كل شهر لتكفور مبلغ ثلاثين ألف دينار حسابًا عن كل يوم ألف دينار سوى خراج الأراضي. وكان ببلدة آياس أربعمائة خمارة وستمائة بغى وكان بها في ظاهرها ملاحة تضمن كل سنة بسبعمائة ألف درهم، ولها مائتي وستة عشر بستانًا تغرس فيها أنواع الفواكه، ودور سورها فدانان وثلثا فدان.

ثم رحل العسكر عن آياس بعدما، قاموا عليها اثنين وسبعين يومًا، فمر نائب حلب على قلعة نجيمة وقلعة سرفندكار وقد أخربهما مغلطاي الغزي حتى عبر بالعسكر إلى حلب في رابع عشرى ذي الحجة.

فعاد العسكر إلى مصر، وقد مرض كثير منهم، ومات جماعة. فأكرم السلطان الأمير أرقطاي وخلع عليه، وبعث تشريفًا إلى نائب حلب. وأقطع السلطان أراضي سيس لنائب حلب ونائب الشام وغيرهما من أمراء الشام، وأمر فيها جماعة من التركمان والأجناد، فاستعملوا الأرض في الفلاحة، وحطوا عنهم من الخراج، فعمرت

ضياعها. وضمت بعض عجائز الأرمن ألف درهم كل يوم، فلم يوافق السلطان على ذلك. وعمل في كل قلعة من قلاع الأرمن نائب، ورتب فيها عسكر. ثم قدمت رسل تكفور فخلع عليهم، وكتب بترك الخراج عنهم ثلاث سنين، ومهادنتهم عشر سنين.

* * *

سنة تسع وثلاثين وسبعمائة

وفيها قدم الخبر بأن القان الكبير عزم على المسير إلى العراقين، وقدم أمامه عسكرًا ليسير إذا أخذ العراق إلى الشام. فسار ثماني مراحل، وبعث الله على ذلك العسكر ريحًا سوداء، ثم صارت زرقاء تشتعل نارًا، فيسقط الفارس وفرسه ميتين عند هبوبها، وتمادى هبوبها يومين، وكانوا زيادة على مائة ألف فارس، فلم يرجع منهم إلى القان إلا نحو عشرة آلاف وهلك باقيهم. فسر السلطان بذلك.

* * *

سنة أربعين وسبعمائة

في يوم السبت مستهل المحرم: قدم رسول الأمير يوسف بن أتابك الكردي صاحب الجبال ووطاة نصيبين يخبر بكثرة جموعه من الأكراد وأنه رغب في الانتماء إلى السلطان وضرب السكة في بلاده باسمه، وطلب نجدته بعسكر يتسلم ما بيده من البلاد ليكون نائب السلطنة بها، وأن يشرف بصناجق سلطانية عليها اسم السلطان لتعينه في غاراته، فأجيب بالشكر، وجهزت له هدية وخيول وسلاح.

* * *

سنة إحدى وأربعين وسبعمائة

في يوم الثلاثاء سابع المحرم: وصل الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام وهو متضعف، صحبة الأمير بيبرس السلاح دار، وأنزل من القلعة بمكان ضيق حرج. وقصد السلطان ضربه بالمقارع فقام الأمير قوصون في الشفاعة له حتى أجيب إلى ذلك وبعث إليه السلطان يهدده حتى يعترف بما له من المال، ويذكر من كان موافقا على العصيان من الأمراء.

ثم حلف السلطان الأمراء والخاصكية، وأكد على ولده في الوصية بالأمراء، وأفرج عن الأمراء المسجونين بالشام، وهم طيبغا حاجي وألجيبغا العادلى وصاروجا، ثم قام الأمراء. فبات السلطان ليلة الثلاثاء، وأصبح وقد تخلت عنه قوته، وأخذ في النزع يوم الأربعاء، فاشتد عليه كرب الموت حتى مات أول ليلة الخميس حادى عشريه، وله من العمر سبع وخمسون سنة وأحد عشر شهرًا وخمسة أيام. وأمه أشلون بنت سكناي بن قراجين بن جيغان، وقدم سكناي هو وأخوه قرمشي بن قراجين في سنة خمس وسبعين وستمائة، صحبة سنجر الرومي في أيام الظاهر بيبرس، فتزوج الأمير قلاوون بابنة سكناي، في سنة ثمانين وستمائة بعد موت أبيها. زوجه إياها عمها قرمشى، فولدت الناصر محمدا على فراش الملك المنصور قلاوون في الساعة السابعة من يوم السبت سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة. وأقيم الناصر في السلطنة بعد أخيه الملك الأشرف خليل سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وعمره تسع سنين ثم خلع في سادس عشر المحرم سنة أربع وتسعين، وجرى له ما تقدم ذكره إلى أن حضر من الكرك، وأعيد إلى الملك ثانيا. فأقام في الملك إلى سنة ثمان وسبعمائة، وخرج يريد الحج، فتوجه إلى الكرك غيظًا من حجر سلار وبيبرس عليه. فقام بيبرس في السلطة ثم اضطربت أموره، وقدم الناصر من الشام إلى مصر، فملك مرة ثالثة في شوال سنة تسع وسبعمائة واستبد الناصر من حينئذ بالأمر من غير معارض مدة اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يومًا، كانت له فيها سير وأنباء كما تقدم. وكان الناصر أطول ملوك زمانه عمرًا وأعظمهم مهابة: فإنه أول ما بدأ به بعد قدومه من الكرك القبض على الأمراء البرجية وغيرهم في يوم واحد، وعدتهم زيادة على ثلاثين أميرًا.

وأوقع مهابته في القلوب بالقتل وأخذ الأموال، فمنهم من قتله جوعًا وعطشًا، ومنهم من أتلفه بالخنق، ومنهم من غرقه، ومنهم من نفاه، ومنهم من سجنه فأقام

مسجونًا العشرين سنة فما دونها. وأكثر الناصر من جلب المماليك والجواري، وطلب التجار إليه وبذل لهم المال، ووصف لهم حلي المماليك والجواري وسيرهم إلى بلاد أزبك وتوريز والروم وبغداد وغير ذلك من البلاد. فكان التاجر إذا أتاه بالجلبة من المماليك بذل له فيها أغلى القيم، وأنعم على تلك المماليك في يومهم بالملابس الفاخرة والحوائص الذهب والخيول والعطايا حتى يدهشهم. ولم تكن هذه عادة من تقدمة من الملوك، فإنهم كانوا إذا قدم لهم المملوك عرفوا جنسه، ثم أسلموه إلى الطواشي المقدم فيضيفه إلى جنسه من المماليك، ويرتبه عند الفقيه فيربيه بالآداب والحشمة والحرمة، ويمرنه في الرمي بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية، وتكون كسوته من الثياب القطن البعلبكي، ومن الثياب الكتان الخام المتوسط. ثم يدرج المملوك في الجامكية من ثلاثة دنانير إلى خمسة إلى سبعة إلى عشرة دنانير، فإذا التحق بالرحال أقيم ذلك الوقت في وظيفة من الوظائف اللائقة به، فيقوم بها على ما ينبغي من الأدب الذي تأدب به في صغره، ثم يترقى المملوك، فإذا وصل إلى منزلة كبيرة ورتبة عالية عرف مقدارها، وما كان فيه من الشقاء وما صار إليه من النعيم فأعرض الملك الناصر عن هذا وكان يسفه رأي الملوك فيه، ويقول إذا عرض له بشيء من ذلك وبقي يبلغ المملوك قصده من أستاذه أو أستاذه منه إذا فعل معه هذا، بل إذا رأى المملوك سعادة تملأ عينه وقلبه نسي بلاده، ورغب في أستاذه.

ومات السلطان الناصر وفي الجشارات ثلاثة آلاف فرس، يعرض في كل سنة عليه فيدفعها ويسلمها للركابين من العربان لرياضتها، ثم ينعم بأكثرها على الأمراء والخاصكية، ويفرح بذلك، ويقول: هذه فلانة بنت فلانة أو فلان ابن فلانة، عمرها كذا وشراء أمها كذا، وشراء أبيها كذا وكان يتقدم إلى الأمراء أن يضمروا الخيول، ويرتب على كل أمير من أمراء الألوف أربعة أرؤس في كل سنة يضمرها، ويسير للأمير أيدغمش أمير أخور أن يضمر خيلاً من غير أن يعلم الأمراء أنها للسلطان بل يشيع أنها له، ويرسلها للسباق مع خيل الأمراء في كل سنة.

وكان السلطان الناصر على غاية من الحشمة ورياسة النفس وسياسة الأمور، فلم يضبط عليه أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش في شدة غضبه ولا في انبساطه وكان يدعو الأمراء وأرباب الولايات وأصحاب الأشغال بأحسن أسمائهم وأجل ألقابهم، وإذا غضب على أحد لا يذكر له ذلك. وكان يقتصد في لباسه، فيلبس كثيرًا البعلبكي والنصافي المتوسط، ويعمل حياصته فضة نحو مائة درهم بغير ذهب ولا جوهر، ويركب بالسرج المسقط بالفضة التي زنتها دون المائة درهم، وعباءة فرسه إما

تدمري أو شامي ليس فيها حرير.

وكان مفرط الذكاء، يعرف جميع مماليك أبيه وأولادهم بأسمائهم، ويعرف بهم الأمراء، وكذلك مماليكه لا يغيب عنه اسم أحد منهم ولا شغله عنده ولا مبلغ جامكيته.

وكان يستبد بأمور مملكته، ويتفرد بالأحكام، حتى أنه أبطل نيابة السلطنة ليشتغل بأعباء الدولة وحده. وكان يكره أن يقتدي بمن تقدمه من الملوك، ولا يحتمل أن يذكر عنده ملك. وكان يكره شرب الخمر ويعاقب عليه، ويبعد من يشربه من الأمراء عنه.

* * *

السلطان أبو بكر بن الملك الناصر

السلطان الملك المنصور أبو بكر بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون جلس على تخت السلطنة بالإيوان من قلعة الجبل بعهد أبيه له صبيحة توفي والده، من يوم الخميس حادي عشرى ذي الحجة، سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. ولقبه الأمراء الأكابر بالملك المنصور، وجلسوا حوله، واتفقوا على إقامة الأمير سيف الدين طقزدمر الحموي - زوج أمه - نائب السلطة بديار مصر، وأن يكون الأمير قوصون مدبر الدولة ورأس المشورة، ويشاركه في الرأي الأمير بشتاك.

وفيه كتب إلى ولاة الأعمال برفع المظالم، وألا يرمي على بلاد الأجناد شعيرًا ولا تبنًا.

وفي يوم الخميس ثامن عاشريه: أنعم على عشرة بإمريات طبلخاناة.

* * *

سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة

وفيه عقد السلطان نكاحه على جاريتين من المولدات اللاتي في بيت السلطان، وكتب علاء الدين كاتب السر صداقهما، فخلع عليه وأنعم عليه بعشرة آلاف درهم. ورسم السلطان لجمال الكفاة ناظرات أن يجهزهما بمائة ألف دينار، وشرع في عمل المهم للعرس.

وفي يوم السبت تاسع عشره: ركب الأمير قوصون والأمراء على الملك المنصور أبي بكر، وخلعوه من الملك في يوم الأحد عشريه، وأخرج أبو بكر هو وإخوته إلى قوص صحبة الأمير بهادر بن جركتمر.

* * *

السلطان علاء الدين كجك

السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون أقيم سلطانًا في يوم الاثنين حادي عشرى صفر، سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، ولم يكمل له من العمر خمس سنين، وأمه أم ولد اسمها أردو، تترية الجنس. ولقب كجك بالملك الأشرف، وعرضت نيابة السلطنة على الأمير أيدغمش أمير أخور فامتنع وامتنع منها، فوقع الاتفاق على إقامة الأمير قوصون في النيابة، فأجاب وشرط على الأمراء أن يقيم على حاله بالأشرفية من القلعة، ولا يخرج منها إلى دار النيابة خارج باب القلعة. فأجابوه إلى ذلك، فاستقر من يومه نائب السلطان، وتصرف في أمور الدولة فقال في ذلك بعض الشعراء:

سلطاننا اليوم طفــل والأكــابر في ::: خلف وبينهم الشيطان قــد نزغــا

فكيف يطمع مــن مســته مظلمــة ::: ان تبلغ السؤل والســلطان مابلغــا

وفي يوم الخميس أول شعبان: خلع السلطان الملك الأشرف كجك من السلطة، وكانت مدته خمسة أشهر وعشرة أيام لم يكن له فيها أمر ولا نهي، وتدبير أمور الدولة كلها إلى قوصون. وكان إذا حضرت العلامة أعطى قلمًا في يده، وجاء فقيهه الذي يقرئ أولاد السلطان، فكيف العلامة والقلم في يد السلطان.

* * *

السلطان شهاب الدين أحمد

السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون الصالحي أمه اسمها بياض، كانت تجيد الغناء، وكانت من عتقاء الأمير بهادر آص رأس نوبة. وكانت شهرتها قوية، ولها بالناس اجتماعات في مجالس أنسهم. فلما بلغ السلطان الناصر محمد خبرها اختص بها، وحظت عنده، فولدت أحمد هذا على فراشه. ثم تزوجها الأمير ملكتمر السرجواني، وقد مضى من أخباره جملة. فلما استولى الأمير أيدغمش على الدولة بعد قوصون، وقرر مع الأمراء خلع الأشرف كجك في يوم الخميسي أول شعبان، بعث الأمير جنكلي بن البابا والأمير بيبرس الأحمدي والأمير قماري أمير شكار إلى السلطان أحمد بالكرك بكتب الأمراء يخبرونه بما وقع، ويستدعونه إلى تحت ملكه، وضربوا اسمه على أملاك قوصون جميعها، وأعلن بالدعاء له في خانكاه سعيد السعداء.

وفي يوم الجمعة ثانيه: دعي على منابر مصر والقاهرة للسلطان الملك الناصر أحمد.

وفي يوم الخميس سابعه: قدم أولاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من قوص، وعدتهم ستة. فركب الأمراء إلى لقائهم، وهرعت العامة إليهم. فساروا من الحراقة على القرافة حتى حاذوا تربة جركتمر، فصاحت العامة: " هذه تربة الذي قتل أستاذنا الملك المنصور، وهاجموها، وأخذوا ما فيها وخربوها حتى صارت كوم تراب. فلما وصل أولاد السلطان تحت القلعة أتاهم الأمير جمال الدين يوسف والي الجيزة الذي تولى القاهرة، وقتل ركبة رمضان ابن السلطان، فرفسه برجله وسبه، وقال: أتنسى ونحن في الحراقة عند توجهنا لقوص، وقد طلبنا مأكلاً من الجيزة، فقلت خذوهم وروحوا إلى لعنة الله، ما عندنا شيء؟ فصاحت به العامة: لله مكنا من نهبه، هذا قوصوني، فأشار بيده أن انهبوا بيته، فتسارعوا في الحال إلى بيته المجاور للجامع الظاهري من الحسينية، حتى صاروا منه إلى باب الفتوح. فقامت إخوته ومن يلوذ به في دفع العامة بالسلاح، وبعث الأمير أيدغمش أيضًا بجماعة ليردهم عن النهب، وخرج إليهم نجم الدين والي القاهرة، وكان أمرًا مهولاً قتل فيه من العامة عشرة رجال، وجرح خلق كثير، ولم ينتهب شيء.

وأما العسكر الشامي فإنه أقام بغزة، وقد جمع لهم نائبها آقسنقر الإقامات من بلاد الشوبك وغيرها، حتى صار عنده ثلاثة آلاف غرارة من الشعير وأربعة آلاف رأس

من الغنم، غير ذلك مما يحتاج عليه. وكتب الأمراء إلى السلطان بقدومهم صحبة مماليكهم مع الأمير قماري أمير شكار، فساروا إلى الكرك، وقد قدمها أيضًا الأمير يحيى بن طايربغا صهر السلطان برسالة الأمير أيدغمش يستحثه على المسير إلى مصر، فأقاموا جميعًا ثلاثة أيام لم يؤذن لهم في دخول المدينة. ثم أتاهم كاتب نصراني وبازدار يقال له: أبو بكر ويوسف بن البصال، وهؤلاء الثلاثة هم خاصة السلطان من أهل الكرك، فسلموا عليهم وطلبوا ما معهم من الكتب. فشق ذلك على الأمير قماري، وقال لهم: معنا مشافهات من الأمراء للسلطان، ولابد من الاجتماع به. فقالوا: لا يمكن الاجتماع به، وقد رسم إن كان معكم كتاب أو مشافهة أن تعلمونا بها. فلم يجدوا بدًا من دفع الكتب إليهم، وأقاموا إلى غد. فجاءتهم كتب مختومة، وقيل للأمير يحيى: اذهب إلى عند الأمراء بغزة، فساروا جميعًا عائدين إلى غزه، فإذا في الكتب الثناء على الأمراء، وأن يتوجهوا إلى مصر، فإن السلطان يقصد مصر بمفرده، ويسبقهم. فتغيرت خواطرهم، وقالوا وطالوا، وخرج قطلوبغا الفخري عن الحد وأفرط به الغضب، وعزم على الخلاف. فركب إليه الأمير طشتمر حمص أخضر نائب حلب والأمير جنكلي بن البابا والأمير بيبرس الأحمدي، ومازالوا به حتى كف عما عزم عليه، ووافق على المسير، وكتبو بما كان من ذلك إلى الأمير أيدغمش، وتوجهوا جميعًا من غزة يريدون مصر.

فلما كان يوم الاثنين عاشره: ألبس السلطان، وجلس على تخت الملك، وقد حضر الخليفة الحاكم بأمر الله وقضاة مصر الأربعة، وقضاة دمشق الأربعة، وجيع الأمراء والمقدمين. وعهد إليه الخليفة، وقبل الأمراء الأرض على العادة، ثم قام العالمان على قدميه، فتقدم الأمراء وباسوا يده واحدًا بعد واحد، على مراتبهم، وجاء الخليفة بعدهم، وقضاة القضاة ما عدا الحسام حسن بن محمد الغوري، فإنه لما طلع مع القضاة وجلسوا بجامع القلعة حتى يؤذن لهم على العادة، جمع عليه صبي من صبيان المطبخ السلطاني جمعًا كبيرًا من الأوباش، لحقد كان في نفسه عليه عندما تحاكم هو وزوجته عنده، فإنه أهانه، وضربه وهجم هذا الصبي على القضاة بأوباشه، ومد يده إلى الغوري من بينهم، فأقامه الأوباش وحرقوا عمامته، وقطعوا ثيابه، وهم يسحبونه ويصيحون عليه: يا قوصوني ثم ضربوه بالنعال ضربًا مؤلمًا، وقالوا له: يا كافر يا فاسق فارتجت القلعة، وأقبل علم دار حتى خلصه منهم، وهو يستغيث: يا مسلمين! كيف يجري هذا على قاض من قضاة المسلمين. فأخذ المماليك جماعة من تلك الأوباش، وجروهم إلى الأمير أيدغمش فضربهم، وبعث طائفة من الأوجاقية فساروا

بالغوري إلى منزله، ولم يحضر الموكب. فثارت العامة على بيته بالمدرسة الصالحية ونهبوه، وكان يومًا شنيعًا. وفي يوم الخميس ثالث عشره: خلع على جميع الأمراء الكبار والصغار ومقدمي الحلقة، وأنعم على الأمير طشتمر حمص أخضر بعشرة آلاف دينار، وعلى الأمير قطلوبغا الفخر بما حضر صحبته من الشام، وهو أربعة آلاف دينار ومائة ألف درهم فضة، ونزل في موكب عظيم. وكان قد قدم معه من أمراء الشام سنجر الجمقدار وتمر الساقي وطرنطاي البشمقدار وأقبغا عبد الواحد، وتمر الموساوي والجلالي وابن قراسنقر وأسنبغا ابن البو بكري، وبكتمر العلائي وأصلم نائب صفد.

* * *

سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة

أهلت والناس في أمر مريج لغيبة السلطان بالكرك، وعند الأمراء تشوش كبير، لما بلغهم من مصاب قطلوبغا الفخري. وصار الأمير أقسنقر نائب الغيبة في تخوف، فإنه بلغه أن جماعة من مماليك الأمراء الذين قبض عليهم قد باطنوا بعض الأمراء على الركوب عليه، فترك الركوب للموكب أيامًا حتى اجتمعوا عنده، وحلفوا له. ثم اتفق رأيهم على أن كتبوا للسلطان كتابًا في خامس المحرم، بأن الأمور ضائعة لغيبة السلطان، وقد نافق عربان الصعيد، وطمع الناس، وفسدت الأحوال كلها، وسألوه الحضور. وبعثوا به الأمير طقتمر الصلاحي، فعاد جوابه في حادي عشره: " بأنني قاعد في موضع أشتهي، وأي وقت أردت أحضر إليكم. وذكر طقتمر أن السلطان لم يمكنه من الاجتماع به، وأنه بعث من أخذ منه الكتاب، ثم أرسل إليه الجواب.

وفيه قدم الخبر بأن السلطان قتل الأمير طشتمر حمص أخضر والأمير قطلوبغا الفخري، وذلك أنه قصد أن يقتلهما بالجوع، فأقام يومين بلياليهما لا يطعمان طعامًا. فكسرا قيدهما، وقد ركب السلطان للصيد، وخلعا باب السجن ليلاً، وخرجا إلى الحارس وأخذ سيفه وهو نائم، فأحس بهما وقام يصيح حتى لحقه أصحابه، فأخذوهما. وبعثوا إلى السلطان بخبرهما، فقدم في زي العربان، ووقف على الخندق وبيده حربة، وأحضرهما وقد كثرت بهما الجراحات. فأمر السلطان يوسف بن البصارة ورفيقه بضرب أعناقهما، وأخذ يسبهما ويلعنهما، فردا عليه ردًا قبيحًا، وضرب رقابهما، فاشتد قلق الأمراء.

وفيه قدم كتاب السلطان إلى الأمراء يطيب خواطرهم، ويعرفهم أن مصر والشام والكرك له، وأنه حيث شاء أقام، ورسم أن تجهز له الأغنام من بلاد الصعيد، وأكد في ذلك، وأوصى آقسنقر بأن يكون متفقًا مع الأمراء على ما يكون من المصالح.

فتنكرت قلوب الأمراء ونفرت خواطرهم، واتفقوا على خلع السلطان وإقامة أخيه إسماعيل، في يوم الأربعاء حادي عشريه، فكانت مدة ولايته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يومًا، منها مدة إقامته بالكرك ومراسيمه نافذة بمصر أحد وخمسون، وإقامته بمصر مدة شهرين وأيام.

وكانت سيرته سيئة، نقم الأمراء عليه فيها أمورًا، منها أن رسله التي كانت ترد من قبله إلى الأمراء برسائله وأسراره أوباش أهل الكرك، فلما قدموا معه إلى مصر أكثروا من أخذ البراطيل وولاية المناصب غير أهلها، ومنها تحكمهم على الوزير وغيره، وحجبهم السلطان حتى عن الأمراء والمماليك وأرباب الدولة، فلا يمكن أحدًا من رؤيته سوى يومي الخميس والإثنين نحو ساعة. ومع ذلك فإنه جمع الأغنام التي كانت لأبيه، والأغنام التي كانت لقوصون، وعدتها أربعة آلاف رأس وأربعماية من البقر التي استحسنها أبوه. وأخذ الطيور التي كانت بالأحواش على اختلاف أنواعها، وحملها على رؤوس الحمالين إلى الكرك. وساق الأغنام والأبقار إليها، ومعهم عدة سقائين وسائر ما يحتاج إليه. وعرض الخيول والهجن، وأخذ ما اختاره منها، ومن البخاتي وحمر الوحش والزراف والسباع، وسيرها إلى الكرك. وفتح الذخيرة، وأخذ ما فيها من الذهب والفضة، وهو ستمائة ألف دينار وصندوق فيه الجواهر التي جمعها أبوه في مدة سلطنته. وتتبع جواري أبيه حتى عرف المتمولات منهن، فكان يبعث إلى الواحدة منهن يعرفها أنه يدخل عليها الليلة، فإذا تجملت بحليها وجواهرها أرسل من يحضرها إليه، فإذا خرجت من موضعها ندب من يأخذ جميع ما عندها، ثم يأخذ جميع ما عليها حتى سلب أكثرهن ما بأيديهن، وعرض الركاب خاناه، وأخذ جميع ما فيها من السروج واللجم والسلاسل الذهب والفضة، ونزع ما عليها من الذهب والفضة. وأخذ الطائر الذهب الذي على القبة، وأخذ الغاشيه الذهب وطلعات الصناجق، وما ترك بالقلعة مالاً حتى أخذه. وشنع في قتل أمراء أبيه، وأتلف موجودهم، وأحضر حريم طشتمر حمص أخضر من حلب وقد تجهزن للمسير، فأخذ سائر ما معهن، حتى لم يترك عليهن سوى قميص وسروال لكل واحدة. وأخذ أيضًا جميع ما مع حريم قطلوبغا الفخري، حتى لم تجد زوجته سرية تنكز ما تتقوت به، إلى أن بعث لهم جمال الكفاة شيئًا تجملوا به إلى القاهرة.

السلطان عماد الدين أبو إسماعيل

السلطان الملك الصالح عماد الدين أبو إسماعيل ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي.

جلس على تخت الملك يوم الخميس ثاني عشرى المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، بعد خلع أخيه باتفاق الأمراء على ذلك، لأنه بلغهم عنه أنه لما أخرجه الأمير قوصون فيمن أخرج إلى قوص أنه كان يصوم يومي الاثنين والخميس، ويشغل أوقاته بالصلاة وقراءة القرآن، مع العفة والصيانة عما يرمى به الشباب من اللهو واللعب. وحلف له الأمراء والعساكر، وحلف لهم السلطان ألا يؤذي أحدًا، ولا يقبض عليه بغير ذنب يجمع على صحته. ودقت البشائر، ولقب بالملك الصالح عماد الدين، ونودي بالزينة.

وفي يوم الأربعاء رابعه: كانت فتنة رمضان أخى السلطان، وذلك أنه كان قد أنعم عليه بتقدمة ألف، فلما خرج السلطان إلى سرحة سرياقوس تأخر عنه بالقلعة، وتحدث مع جماعة من المماليك في إقامته سلطانًا. فلما مرض السلطان بالاسترخاء قوي أمره، وأشاع ذلك، وراسل بكا الخضري ومن خرج معه من الأمراء، وواعد من وافقه على الركوب بقبة النصر. فبلغ ذلك السلطان ومدبر دولته الأمير أرغون العلائي، فلم يعبأ به إلى أن أهل رجب جهز الأمير رمضان خيله وهجنه بناحية بركة الحبش، وواعد أصحابه على يوم الأربعاء. فبلغ الأمير أقسنقر أمير أخور عند الغروب من ليلة الأربعاء ما هم فيه من الحركة، فركب بمن معه، وندب عدة من العربان ليأتوه بخبر القوم إذا ركبوا. فلما أتاه خبرهم ركب وسار إليهم، وأخذهم عن أخرهم من خلف القلعة ليلاً، وساقهم إلى الإصطبل. وعرف أقسنقر أمير أخور السلطان وأرغون العلائي من باب السر بما فعله إليهما، فصعد بما ظفر به من أسلحة القوم. واتفقوا على طلب إخوة السلطان إلى عنده، والاحتفاظ بهم. فلما طلع الفجر خرج أرغون العلائي من بين يدي السلطان، وطلب الإخوة، ووكل ببيت رمضان حتى طلعت الشمس وصعد الأمراء الأكابر باستدعاء، وأعلمو بما وقع، فطلبوا رمضان إليهم فامتنع من الحضور، وهم يلحون في طلبه إلى أن خرجت أمه وصاحت عليهم، فعادوا عنه إلى أرغون العلائي.

فبعث أرغون عدة من الخدام والمماليك لإحضاره. فخرج رمضان في عشرين مملوكًا إلى خارج باب القلة، وسأل عن النائب أقسنقر السلاري، فقيل له أنه عند

السلطان مع الأمراء، فمضى إلى باب القلعة، وسيوف أصحابه مصلتة، وركب من خيول الأمراء، ومر بمن معه إلى سوق الخيل تحت القلعة، فلم يجد أحدًا من الأمراء، فتوجه جهة قبة النصر. ثم وقف رمضان ومعه بكا الخضري، وقد اجتمع الناس عليه.

وبلغ السلطان والأمراء خبره، فأخرج بالسلطان محمولاً بين أربعة لما به من الاسترخاء، وركب النائب وآقسنقر أمير أخور وقماري أخو بكتمر. وأقام أكابر الأمراء عند السلطان، ووقفت أطلابهم تحت القلعة، وضربت الكوسات حربيا، ونزل النقباء في طلب الأجناد. فوقف النائب بمن معه تجاه رمضان وقد كثر جمعه من أجناد الحسينية ومن مماليك بكا ومن العامة، وبعث يخبر السلطان بذلك، فمن شدة انزعاجه نهضت قوته، وقام على قدميه يريد الركوب بنفسه، فقام الأمراء وهنؤوه بالعافية، وقبلوا له الأرض، وهونوا عليه أمر أخيه. فأقام السلطان إلى بعد الظهر، والنائب يراسل رمضان ويعده الجميل، ويخوفه العاقبة، وهو لا يلتفت إلى قوله. فعزم النائب على الحملة عليه بمن معه، وسار فلم يثبت العامه والمتجمعه من الأجناد مع رمضان، وانفلوا عنه، فانهزم رمضان هو وبكا الخضري في عدة من المماليك، وتوجهوا نحو البرية، والأمراء في طلبه، ثم عاد النائب إلى السلطان فلما كان بعد عشاء الآخرة من ليلة الخميس أحضر برمضان وبكا، وقد أدركوهما بعد المغرب عند البويب، ورموا بكا بالنشاب حتى ألقوه عن فرسه، وقد وقف فرس رمضان من شدة السوق، فوكل برمضان من يحفظه، وأذن للأمراء بنزولهم بيوتهم، فنزلوا وطلعوا بكرة يوم الخميس إلى الخدمة على العادة.

وجلس السلطان وطلب مماليك رمصان، فأحضروا. وأمر السلطان بحبسهم، وحبسوا أيامًا، ثم فرقوا على الأمراء.

* * *

سنة أربع وأربعين وسبعمائة

وفيه وصلت رسل متملك الهند بهدية فيها فصان ياقوت، ومعهم كتاب يتضمن السلام والمودة، وأنهم لم يكونوا يعرفون الإسلام حتى أتاهم رجل عرفهم ذلك، وذكر لهم أن ولاية الملك لابد أن تكون من الخليفة. وسأل متملك الهند أن يكتب له تقليدًا من جهة الخليفة بولاية مملكة الهند ليكون نائبًا عن السلطان بتلك البلاد، وأن يبعث السلطان إليهم رجلاً يعلمهم شرائع الإسلام من الصلاة والصيام ونحو ذلك. فأكرمت الرسل، وطلب من الخليفة أن يكتب تقليدًا لمرسلهم بسلطنة الهند، فكتب له تقليد جليل، ورسم بسفر ركن الدين الملطي شيخ الخانكاه الناصرية بسرياقوس مع الرسل. وفيه قدم البريد من حلب بطلب ناصر الدين محمد بن صغير الطبيب، ليعاج الأمير ألطنبغا المارداني، فأخرج على البريد، وقدم حلب يوم الثلاثاء سلخه، وقد احتضر الأمير ألطنبغا، فمات من الغد، فعاد ابن صغير بعد يومين من حلب.

وكانت هذه السنة من أنكد السنين وأشدها، لكثرة الفتن وسفك الدماء ببلاد الصعيد ونواحي الشرقية وبلاد عرب الشام وبلاد الروم والكرك، وغلاء الأسعار بالعراق وكثرة الموتى عندهم، وزيادة النيل التي فسد بها الأقصاب والزراعات الصيفية. فلما أدرك الشعير هاف من السموم، وهاف كثير من الفول أيضًا وبعض القمح، وتحسن السعر حتى بلغ الأردب درهمًا، بعد ما كان بعشرة دراهم.

* * *

سنة خمس وأربعين وسبعمائة

وفيه أقامت العساكر على محاصرة الكرك وقطع الميرة عنها، وكانت أموال الناصر أحمد قد نفذت من كثرة نفقاته، فوقع الطمع فيه. وأخذ بالغ - وهو أجل ثقاته من الكركيين - في العمل عليه، وكاتب الأمراء ووعدهم أنه يسلم إليهم الكرك، وسأل الأمان. فكتب إليه عن السلطان أمان، وقدم إلى القاهرة كما تقدم في السنة الخالية، ومعه مسعود وابن أبي الليث، وهؤلاء أعيان مشايخ الكرك، فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم، وكتب لهم مناشير بجميع ما طلبوه من الإقطاعات والأراضي، وكانت جملة ما طلبه بالغ بمفرده نحو أربعمائة وخمسين ألف درهم في السنة، وكذلك أصحابه، ثم أعيدوا بعد ما حلفوا، وقد بلغ الناصر أحمد خبرهم، فتحصن بالقلعة، ورفع جسرها،

وصاروا هم بالمدينة ومكاتباتهم ترد على العسكر. فلما ركب العسكر للحرب وخرج الكركيون، لم يكن غير ساعة حتى انهزموا منهم إلى داخل المدينة، فدخلها العسكر أفواجًا واستوطنوها، وجدوا في قتال أهل القلعة عدة أيام، والناس تنزل منها شيئًا بعد شيء، حتى لم يبق مع الناصر أحمد عشرة أنفس، فأقام يرمي بهم على العسكر. وكان الناصر أحمد قوي الرمي شجاعًا، إلى أن جرح في ثلاثة مواضع. وتمكنت النقابة من البرج، وعلقوه وأضرموا النار تحته حتى وقع. وكان الأمير سنجر الجاولي قد بالغ أشد مبالغة في الحصار، وبذل فيه مالاً كثيرًا، فلما هجم العسكر على الناصر أحمد، في يوم الاثنين ثاني عشرى صفر، وجدوه قد خرج من موضع وعليه زردية، وقد تنكب قوسه وشهر سيفه. فوقفوا وسلموا عليه، فرد عليهم السلام وهو متجهم، وفي وجهه جرح وكتفه يسيل دمًا. فتقدم إليه الأمير أرقطاي والأمير قماري في آخرين، فأخذوه ومضوا به إلى دهليز الموضع الذي كان به، وأجلسوه وطيبوا خاطره، وهو ساكت لا يجيبهم، فقيدوه ووكلوا بحفظه جماعة، ورتبوا له طعامًا، فأقام يومه وليلته، ومن باكر الغد تقدم إليه الطعام فلا يتناول منه شيئًا إلى أن سألوه في أن يأكل، فأبى أن يأكل حتى يأتوه بشاب كان يهواه يقال له: عثمان، فأتوه به فأكل عند ذلك.

وقدمت رسل البنادقة من الفرنج بهدية، وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم، وألا يؤخذ منهم إلا ما جرت به عادتهم، وأن يمكنوا من بيع بضائعهم على من يختارونه.

فرسم لناظر الخاص ألا يتعرض لبضائعهم ولا يأخذ منها شيئًا إلا بقيمته ولا يلزمهم بشراء ما لا يختارون شراءه وأن يأخذ منهم على كل مائة دينار ديناران وكانوا يؤدون عن المائة أربعة دنانير ونصف دينار ليكثر الفرنج من بلادهم جلب البضائع.

* * *

سنة ست وأربعين وسبعمائة

وتوفي السلطان في ليلة الخميس رابع ربيع الآخر، فكتم موته. وقام شعبان إلى أمه، ومنع من إشاعة موت أخيه، وخرج إلى أصحابه وقرر معهم أمره. فخرج طشتمر ورسلان بصل إلى منكلى بغا، ليسعوا عند الأمير أرقطاى والأمير أصلم.

وكان الأمير الحاج آل ملك النائب والأمراء قد علموا من بعد العصر أن السلطان في النزع، فاتفقوا على النزول من القلعة إلى بيوتهم بالمدينة. فدخل الجماعة على أرقطاى ليستميلوه لشعبان، فوعدهم بذلك، ثم دخلوا على أصلم أجابهم، وعادوا إلى شعبان وقد ظنوا أن أمرهم قد تم.

فلما أصبح يوم الخميس خرج الأمير أرغون العلائي، والأمير ملكتمر الحجازي، والأمير تمر الموساوي، والأمير طشتمر طلليه، والأمير منكلى بغا الفخري، والأمير أسندمر. وجلسوا بباب القلة، فأتاهم الأميران أرقطاى وأصلم، والوزير نجم الدين محمود، والأمير قمارى استادر؛ وطلبوا الأمير الحاج آل ملك النائب، فلم يحضر إليهم، فمضوا كلهم إلى عنده، واستدعوا الأمير جنكلى بن البابا، واشتوروا فيمن يولونه السلطة فأشار جنكلى بأن يرسل إلى المماليك السلطانية، ويسألهم من يختارونه، " فإن من اختاروه رضيناه " فعاد جوابهم مع الحاجب أنهم رضوا بشعبان سلطانا، فقاموا جميعًا ومعهم الأمير الحاج آل ملك النائب إلى داخل باب القلة.

وكان شعبان قد تخيل من في دخولهم عليه، وجمع المماليك، وقال: " من دخل قتلته بسيفي هذا، وأنا أجلس على الكرسي حتى أبصر من يقيمني عنه " فسير الأمير أرغون العلائي إليه، وبشره وطيب خاطره. ودخل الأمراء عليه، وسلطنوه انقضت أيام الصالح.

وكان السلطان الصالح في ابتداء دولته على دين وعفاف، إلا أنه كان في أيامه ما ذكر من قطع الأرزاق، وكثرة حركة عساكر مصر والشام في التجاريد. وشغف السلطان الصالح مع ذلك بالجواري السود، وأفرط في حب اتفاق، وأسرف في العطاء لها وقرب أرباب الملاهي، وأعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين. حتى أنه إذا ركب إلى سرحة سرياقوس أو سرحة الأهرام ركبت أمه في مائتي امرأة الأكاديش، بثياب

الأطلس الملون، وعلى رؤوسهن الطراطير الجلد البلغاري المرصع بالجواهر واللآلى، وبن أيديهن الخدام الطواشية، من القلعة إلى السرحة. ثم يركب حظاياه الخيول العربية، ويتسابقن؛ ويركبن تارة بالكامليات الحرير، ويلعبن بالكرة، وكانت لهن في المواسم والأعياد وأوقات النزه والفرح أعمال يمكن حكايتها، وأكثرن من النزول إلى بيوت الكتاب ونحوهم.

واستولى الخدام الطواشية في أيامه على أحوال الدولة، وعظم قدرهم بتحكم كبيرهم عنبر السحرتي اللالا في السلطان، وركبوا الخيول الرائعة، ولبسوا الثياب الفاخرة، وأخذوا من الأراضي عدة رزق. واقتنى السحرتي البزاة والسناقر ونحوها من الطيور والجوارح، وصار يركب إلى المطعم، ويتصيد بثياب الحرير المزركشة، واتخذ له كفًا مرصعًا بالجوهر، وعمل له خاصكية وخداما ومماليك تركب في خدمته، حتى ثقل أمره، فأنه أكثر من شراء الأملاك، والتجارة في البضائع، وأفرد له ميدانًا يلعب فيه بالكرة، وتصدى لقضاء الأشغال. فصارت الإقطاعات والرزق لا تقضى إلا بالخدام والنساء، ولا يزال الأمير الحاج آل ملك النائب يشنع بذلك، وإذا أتاه أحد يطلب منه خبزًا أو رزقة يقول له: " النائب ما له حكم، رح إلى باب الستارة، واسأل عن الطواشي فلان الدين والطواشي فلان الذين يقضون لك حاجتك ".

وكان متحصل الدولة مع هذا كله في أيام السلطان الصالح إسماعيل قليلا، ومصروف العمارة لا يزآل جملة مستكثرة في كل يوم فأنفق السلطان على الدهيشة بالقلعة خمسمائة ألف درهم، سوى ما حمل إليه من بلاد الشام وغيرها، ثم عمل فيها من أواني الذهب وألفضة ومن ألفرش ما يجل وصفه؛ ومنذ فرغت عمارتها لم ينتفع بها أحد، لشغفه بالغناء والجواري، سيما اتفاق. ولما ولدت منه اتفاق ولدا ذكرا عمل لها مهما تناهى فيه، حتى بلغ الغاية التي لا توصف عظمة.

وكانت حياته منغصة وعيشته نكدة، لم يتم سروره بالدهيشة سوى ساعة واحدة. ثم قدم عليه منجك برأس أخيه أحمد من الكرك بعد قتله بها، فلما قدم بين يديه ورآه بعد غسله، اهتز وتغير لونه وذعر، حتى أنه بات ليلته يراه في نومه، ويفرغ فزعًا شديدًا.

وتعلل السلطان الصالح إسماعيل من رؤية رأس أحمد، وما برح يعتريه الأرق ورؤية الأحلام المفزعة، وتمادى مرضه وكثر إرجافه، وكثرت أفزاعه حتى اعتراه القولنج، ومات كما تقدم ذكره يوم الخميس، ودفن عند أبيه وجده بالقبة المنصورية،

في ليلة الجمعة.

وكان السلطان الصالح إسماعيل رقيق القلب، زائد الرأفة والشفقة، كريمًا جوادًا، مائلاً إلى الخير. وبلغ من العمر نحو العشرين سنة، منها مدة سلطته ثلاث سنين وشهران وأحد عشر يومًا.

* * *

السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون الألفي الصالحي

لما اشتد مرض أخيه شقيقه السلطان الملك الصالح عماد الدين، ودخل، عليه الأمير أرغون العلائي في عدة من الأمراء، ليعهد بالسلطنة من بعده إلى أحد، كان الأمير أرغون العلائي غرضه في أن يعهد لشعبان، من أجل أن أمه كانت زوجته. فلم يحب الأمير آل ملك النائب وجماعة من الأمراء إلى الدخول على السلطان الصالح إسماعيل كراهة منهم في شعبان، لما كان قد اشتهر عنه من المظالم. فقال الصالح إسماعيل بعدما بكى وأبكى الأمراء: " سلموا على النائب والأمراء، وعرفوهم أني إن مت يولوا أخي شعبان " فلما مات الصالح، واقتضى رأى الأمراء أن يعرفوا رأى المماليك السلطانية، وكان جوابهم إقامة شعبان، حضر الأمراء إلى باب القلة، واستدعوا شعبان، وأركبوه بشعار السلطنة، ومشوا في ركابه، والجاويشية تصيح على العادة، حتى إذا قرب من الإيوأن لعب ألفرس تحته وجفل من تصايح الناس، فنزل عنه ومشى خطوات بسرعة إلى أن طلع الإيوأن، فتفاءل الناس عن فرسه أنه لا يقيم في السلطة الا يسيرا.

ولما طلع السلطان شعبان الإيوان والأمراء بين يديه، جلس على كرسى السلطنة وباس الأمراء له الأرض، وأحضروا المصحف ليحلفوا، فحلف لهم أولاً أنه لا يؤذيهم، ثم حلفوا بعده، وذلك في يوم الخميس رابع ربيع الآخر، سنة ست وأربعين وسبعمائة.

ولقب بالملك الكامل، ودقت البشائر، ونودى بسلطنته في القاهرة ومصر، وخطب له في الغد على منابر ديار مصر، وكتب بذلك إلى الأقطار مصرا وشاما.

وفي يوم الاثنين ثامنه: جلس السلطان شعبان بدار العدل من القلعة، وجدد له العهد من الخليفة، بحضرة القضاة والأمراء، وخلع على الخليفة والأمراء والقضاة.

وتوفي الملك الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون.

* * *

سنة سبع وأربعين وسبعمائة

وفيه اشتد فساد العربان بالصعيد والفيوم والإطفيحية، فأخرج الأمير غرلو إلى إطفيح فأمن غرلو شيخ العربان مغنى، وأخذ في التحيل على نمي حتى قبض عليه، وسلمه لمغنى، فعذبه عذابًا شديدًا. فثارت أصحابه، وكبسوا الحي وتلك النواحي، وكسروا عرب المغنى، قتلوا منهم ثلاثمائة رجل وستين امرأة، وذبحوا الأطفال، ونهبوا الأجران وهدموا البيوت، ولحقوا بعربان الصعيد والفيوم فكانت عدة من قتل منهم في هذه السنة نحو الألفي إنسان، لم يفكر أحد في أمرهم، ولا فيما أفسدوه.

وفيه مات ولد السلطان من ابنة الأمير تنكز، فولد له في يومه ولد ذكر من حظيته اتفاق سماه شاهنشاه، وسر به سرورًا زائدًا، وقصد أن يعمل له مهما وتدق البشائر فمنعه الأمير أرغون العلائي من ذلك، فعمل فرحا مدة سبعة أيام. وكان السلطان قد عمل لاتفاق على ولادتها بشخاناه وداير بيت، وغشاء مهد الولد وقماطه، عمل فيهم مبلغ ستة وثمانين ألف دينار. وحصل لآرباب الملهى أيام ألفرح من خلع الخوانين عليهم البغالطيق بداير زركش، وباولى وطرازات زركش وغير ذلك، ما يعظم قدره. ومع ذلك مات الولد يوم سابعه.

وفيه مات يوسف بن السلطان الناصر محمد، واتهم السلطان بقتله.

وطلب السلطان الأمير أرغون العلائي واستشاره، فأشار عليه بأن يركب بنفسه إليهم، فركب ومعه الأمير أرغون العلائي وقطلوبغا الكركي وتمر الموساوي، وعدة من المماليك. وأمر السلطان فدقت الكوسات حربيا، ودارت النقباء على أجناد الحلقه والمماليك ليركبوا، فركب بعضهم.

هذا وقد قدم آقسنقر إلى قبة النصر، وصار السلطان في جميع كبير من العامة، وهو يسألهم الدعاء، فنظروا إليه وأسمعوه ما لا يليق. وسار السلطان في ألف فارس حتى قابل الأمراء، فأنسل عنه أصحابه، وبقي في أربعمائة فارس. فبز له آقسنقر ووقف معه، وأشار عليه أن ينخلع من السلطنة، فاجابه إلى ذلك وبكى. فتركه آقسنقر وعاد إلى الأمراء، وعرفهم ذلك. فلم يرض أرغون شاه، وبدر ومعه قرابغا وصمغار وبزلار وغرلو في أصحابهم حتى وصلوا إلى السلطان، وسيروا إلى الأمير أرغون العلائي أن. يأتيهم، ليأخذوه إلى عند الأمراء. فلم يوافق الأمير أرغون العلائي على ذلك، فهجموا عليه، وفرقوا من معه، وضربوه بدبوس حتى سقط إلى الأرض؛

فضربه يلبغا أروس بسيف قطع خده، وأخذ أسيرًا، فسجن في خزانة شمايل وفر السلطان الكامل شعبان إلى القلعة، واختفى عند أمه زوجة الأمير أرغون العلائي.

وسار الأمراء إلى القلعة، وأخرجوا أمير حاجي وأمير حسين من سجنهما، وقبلوا يد أمير حاجي، وخاطبوه بالسلطة. وطلبوا الكامل شعبان وسجنوه، حيث كان أخويه مسجونين؛ ووكل به قرابغا القاسمي وصمغار.

ومن غرائب الاتفاق أنه كان قد عمل طعام لأمير حاجي وأمير حسين حتى كان غداءهما، وعمل سماط السلطان على العادة. فوقعت الضجة، وقد مد السماط فركب السلطان شعبان من غير أكل. فلما انهزم شعبان وقبض عليه، وأقيم أخوه أمير حاجي بدله، مد السماط بعينه له فأكل معه حاجي؛ وأدخل بطعامه وطعام أمير حسين إلى شعبان الكامل، فأكله في السجن ثم قتل شعبان في يوم الأربعاء ثالثه وقت الظهر، ودفن عند أخيه يوسف، ليلة الخميس فكانت مدته سنة وثمانية وخمسين يومًا، وكثر التظاهر فيها بالمنكرات، لشغفه باللهو، وعكوفه على معاقرة الخمر، وسماع الأغاني واللعب، وبيعه الإقطاعات والولايات حتى إن الإقطاع كان يخرج عن صاحبه وهو حي. بمال الآخر، فإذا وقف من أخرج إقطاعه قيل له: " نعوض عليك " وأخذ الأمراء على شعبان تمكينه الخدام والنساء من التصرف في المملكة، والتهتك في النزه والصيد، واللعب بالكرة بالهيئات الجميلة، وركوب الخيل المسومة، وعدم الاحتشام من فعل المنكرات، حتى أن حريمه إذا نزلن إلى نزهة تبلغ عندهن الجرة الخمر إلى ثلاثين درهمًا وشره حريم شعبان فيما في أيدي الناس من الدواليب والأحجار، والبساتين والدور، ونحوها. فأخذت أمه معصرة وزير بغداد، وأخذت اتفاق أربعة أحجار وأخدت أمه أيضًا من وزير بغداد منظرة على بركة الفيل.

وحدث في أيامه أخذ خراج الرزق، وزيادة القانون، ونقص الأجاير؛ وأعيد ضمان أرباب الملاعيب. ولم يوجد له من المال سوى مبلغ ثمانين ألف دينار، وخمسمائة ألف درهم. وكان مع ذلك مهابًا سيوسًا، متفقدًا لأحوال المملكة، لا يشغله لهوه عن الجلوس للخدمة؛ وكان حازمًا ذا رأي واحتياط ومحبة لجمع المال، وفيه قيل:

بيت قلاوون سعاداته ::: في عاجل كانت بلا آجل

حل على أملاكه للردى ::: دين قد استوفاه بالكامل

* * *

السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون الصالحي الألفي

سجنه أخوه شعبان الكامل كما تقدم، ومعه أخوه حسين. فلما انهزم شعبان من الأمراء مر وهو سائق في أربعة مماليك إلى باب السر، فوجده مغلقا والمماليك بأعلاه، فتلطف بهم حتى فتح له أحدهم، ودخل ليقتل أخويه، فلم يفتح الخدام له الباب، فمضى إلى أمه.

وصعد الأمراء إلى القلعة، وقد قبضوا على الأمير أرغون العلائي، وعلى الطواشي جوهر السحرتي اللالا، وأسندمر الكاملي، وقطلوبغا الكركي، وجماعة ودخل بزلار وصمغار راكبين إلى باب الستارة، وطلبا أمير حاجي، فادخلهما الخدام إلى الدهيشة حتى أخرجوه وأخاه من سجنهما. وبشرا حاجي بالظفر. ثم دخل الأمير أرغون شاه إلى حاجي، وقبل له الأرض، وقال له: " باسم الله، اخرج أنت سلطاننا "، وسار به وبحسين إلى الرحبة، وأجلسه على باب الستارة.

ثم طلب الأمير أرغون شاه شعبان الكامل حتى وحده قائما بين الأزيار، وقد اتسخت ثيابه؛ فأخرجه إلى الرحبة، وأدخله إلى الدهيشة حتى سجنه بها، حيث كان حاجي.

وطلب الأمير أرغون شاه الخليفة والقضاة، وأركب حاجي من باب الستارة إلى الإيوان وحمل المماليك أمير حسين على أكتافهم حتى جلس حاجي على سرير الملك، في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة. ولقب حاجي بالملك المظفر، له من العمر خمس عشرة سنة. وقبل الأمراء الأرض بين يديه، وحلف لهم أولا أنه لا يؤذي أحدًا منهم، ولا يخرب بيت أحد، وحلفوا له على طاعته. وركب الأمير بيغرا البريد ليبشر الأمير يلبغا اليحياوي نائب الشام، ويحلفه وأمراء الشام.

وفيه نودي في القاهرة ومصر برفع الظلامات، ومنع أرباب الملاعيب جميعهم.

وفي عاشره: وجد صندوق مفتاحه تحت يد الشيخ علي الدوادار، فيه براني فضة مختومة، وأحقاق فتحت بحضرة الأطباء، فإذا هي سموم قاتلة. فعرض العذاب على الشيخ علي حتى اعترف أن المزين المغربي الذي أقامه الكامل رئيس الجرائحية ركب ذلك. فاحترق بالنار قدام الايوان وكان هذا المغربى تعرف بأولاد السلطان وهم بقوص، وقدم معهم؛ فلما تسلطن شعبان الكامل تقرب إليه بعمل السموم وصناعة الكيمياء.

وأنهمك السلطان في اللهو، وشغف باتفاق حتى أشغلة عن غيرها، وملكت قلبه بفرط حبه لها. فشق ذلك على الأمراء والمماليك، وأكثروا من الكلام حتى بلغ السلطان، وعزم على مسك جماعة منهم، فمازال به الأمير أرقطاى النائب حتى رجع عن دلك ورسم السلطان في يوم الجمعة سادسه بعد الصلاة أن يخلع على قطليجا الحموي، واستقراره في نيابة حماة، عوضًا عن طيبغا المجدي، وخلع أيضًا على أيتمش عبد الغني، فاستقر في نيابة غزة؛ وخرجا من وقتها على البريد.

وخرجت هذه السنة وقد مر بالناس فيها شدائد من غلاء الأسعار لغلال مصر والشام ونفاق العربان، وتوقف النيل، واختلاف الدولة.

* * *

سنة ثمان وأربعين وسبعمائة

وتوجه الأمير أرغون شاه إلى حلب في يوم الخميس ثالث ربيع الأول، فقدم دمشق على البريد في سادس عشره، ونزل مصر معين الدين حتى قدم طلبه من صفد في أبهة زائدة، وخيوله بسروج ذهب مرصعة وكنابيش ذهب، وقلائد مرصعة.

وكان بيدمر قد رأى في منامه المرأة التي فعل بها ما فعل، وهي تقوله له: " اخرج عنا "، وكررت ذلك ثلاث مرات، وقالت له: " قد شكوتك إلى الله تعالى، فعزلك " فانتبه مرعوبًا، وبعث إليها لتحالله، وبذل لها مالا فلم تقبله، وامتنعت من محاللته. فقدم خبر عزله بعد ثلاثة أيام من رؤياه، وقدم إلى القاهرة صحبة طنيرق؛ وقد أوصل طنيرق الأمير أرغون شاه إلى حلب، وسر به أهل حلب سرورًا كبيرًا.

وفيه ارتفعت الأسعار بالشام، فبلغت الغرارة بدمشق مائتين وخمسين درهمًا؛ وذلك أن الجراد انتشر من بعلبك إلى البلقاء، ورعى الزروع.

وفيه كثر عبث العربان بأرض مصر، وكثر سفكهم للدماء، ونهب الغلال من الأجران، مع هيف الغلة.

وأخذ السلطان المظفر حاجي يستميل المماليك بتفرقة المال فيهم، وأمر جماعة وأنعم على غرلو بإقطاع أيتمش عبد الغني وتقدمته، وأصبح هو المشار إليه في الدولة، وعظمت نفسه إلى الغاية.

وكتب السلطان إلى أمراء دمشق ملطفات على أيدي النجابة بالتيقظ لحركات الأمير يلبغا اليحياوي، فأشار الأمير أرقطاى؛ النائب بطلب يلبغا ليكون بمصر، فإن

أجاب وإلا أعلم بأنه قد عزل من نيابة الشام بأرغون شاه نائب حلب. فكتب بطلبه على يد الأمير سيف الدين أراى أمير آخور؛ وعند سفر أراي قدمت كتب نائب حماة ونائب طرابلس ونائب صفد بأن يلبغا دعاهم للقيام معه على السلطان لقتله الأمراء، وبعثوا للسلطان بكتبه إليهم. فكتب السلطان لأرغون شاه نائب حلب أن يتقدم لعرب آل مهنا بمسك الطرقات على يلبغا، وأعلمه أنه ولاه نيابة الشام؛ فقام أرغون شاه في ذلك أتم قيام، وأظهر ليلبغا أنه معه.

وكان السلطان أيضًا يلعب مع العوام، ويلبس تبان جلد، ويتعرى من ثيابه كلها ثم يلعب معهم بالعصى، ويلعب بالرمح وبالكرة. فيظل نهاره مع الغلمان والعبيد الدهيشة، ويحضر في الليل على العواد، ويأخذ عنه الضرب بالعود، ويتجاهر بما لا يحمد.

وشغف السلطان بكيدا حتى كان لا يكاد يفارقها، واشترى لها أملاك النشو وأخيه رزق الله وصهره المخلص بخط الزربية، فاشتراها لها بمائة ألف درهم. وكانت هذه الزربية في غاية الحسن، قد أنفق عليها النشو أموالاً عظيمة، وصارت بعد النشو إلى إمرأة الأمير بكتمر الساقي، اشتراها لها الأمير بشتاك بنحو الألف درهم، إلى أن طلبتها كيدا فأرسل السلطان إليها يستوهبها منها، فتركتها له، فرسم لها بمائة ألف درهم، وكاتبها على الأملاك باسم كيدا فلم يهن بها، ووقعت نار في دار رزق الله جعلتها دكًا.

وفيه أخرج السلطان الأمير بيبغا روس للصيد بالعباسة، فإنه كان صديقًا لألجيبغا وتنمر السلطان على طنيرق واشتد عليه، وبالغ في تهديده. فبعث طنيرق وألجيبغا إلى طشتمر طلليه، وما زالا به حتى وافقهما. ودار طنيرق على الأمراء، وما منهم إلا من نفرت نفسه من السلطان، وتوقع منه أن يفتك به. وأغراهم طنيرق بالسلطان، فصاروا معه يدًا واحدة، وكلموا الأمير أرقطاى النائب في موافقتهم، وأعلموه أنه يريد القبض عليه، وأكثروا من تشجيعه إلى أن أجابهم وتواكدوا جميعًا في يوم الخميس تاسع رمضان على الركوب في يوم الأحد ثاني عشره.

فبعث السلطان في يوم السبت يطلب الأمير بيبغا روس من العباسة، وقرر مع الطواشي عنبر مقدم المماليك أن يعرف المماليك السلاح دارية أن يقفوا متأهبين، فإذا دخل بيبغا روس وقبل الأرض ضربوه بسيوفهم، وقطعوه قطعًا. فعلم بذلك ألجيبغا، فبعث إلى بيبغا يعلمه بما دبره السلطان من قتله، ويعرفه بما وقع من اتفاق الأمراء

عليه، بكرة يوم الأحد على قبة النصر. واستعدوا ليلتهم، ونزل ألجيبغا أولهم من القلعة وتلاه بقية الأمراء فكان آخرهم ركوبًا الأمير أرقطاى النائب. وتوافوا بأجمعهم عند مطعم الطير، وإذا بيبغا قد وصل إليهم، فأحضروا مماليكهم وأطلابهم، وبعثوا في طلب بقية الأمراء، فما ارتفع النهار حتى وقفوا بأجمعهم لابسين آلة الحرب، عند قبة النصر.

فأمر السلطان بدق الكوسات، وبعث الأوجاقية في طلب الأمراء، وجمع عليه طنيرق وشيخو وأرغون الكاملي وطاز، ونحوهم من الخاصكية فحضر إليه أجناد الحلقة ومقدموها، وعدة من الأمراء. وأرسل السلطان يعتب الأمير أرقطاي النائب على ركوبه، فرد جوابه بأن مملوكك الذي ربيته ركب عليك، وأعلمنا فساد نيتك، وقد قتلت مماليك أبيك، وأخذت أموالهم، وهتكت حريمهم بغير موجب، وعزمت على الفتك بمن بقي، وأنت أول من حلف ألا تخون الأمراء، ولا تخرب بيت أحد فرد السلطان الرسول إليه يستخبره عما يريدونه منه حتى يفعله لهم، فأعادوا جوابه أنهم لابد أن يسلطنوا غيره، فقال: ما أموت إلا على ظهر فرسي، فقبضوا على رسوله، وهموا بالزحف إليه، فمنعهم الأمير أرقطاي النائب.

فبادر السلطان بالركوب إليهم، وأقام أرغون الكاملي وشيخو في الميسرة، وأقام عدة أمراء في الميمنة، وسار بمماليكه حتى وصل إلى قريب قبة النصر. فكان أول من تركه الأمير أرغون الكاملي والأمير ملكتمر السعيدي، ثم الأمير شيخو. وأتوا الأمير أرقطاي النائب والأمراء، وتلاهم بقيتهم، حتى جاء الأمير طنيرق، والأمير لاجين أمير جاندار صهر السلطان آخرهم.

وبقي السلطان في نحو عشرين فارسًا، فبرز له الأمير بيبغا روس والأمير ألجيبغا، فولى فرسه وأنهزم عنهم، فأدركوه وأحاطوا به. فتقدم إليه بيبغا روس، فضربه السلطان بطير، فأخذ الضربة بترسه، وحمل عليه بالرمح. وتكاثروا عليه حتى قلعوه من سرجه فكان بيبغا روس هو الذي أرداه، وضربه طنيرق جرح وجهه وأصابعه. وساروا به على فرس إلى تربة آقسنقر الرومي تحت الجبل، وذبحوه من ساعته قبل العصر. ولما أنزلوه وأرادوا ذبحه توسل إلى الأمراء، وهو يقول: بالله لا تستعجلوا على قتلي، وخلوني ساعة، فقالوا: فكيف استعجلت على قتل الناس، لو صبرت عليهم صبرنا عليك.

وصعد الأمراء إلى القلعة في يومهم، ونادوا في القاهرة بالأمان

والاطمئنان، وباتوا بها ليلة الاثنين، وقد اتفقوا على مكاتبة الأمير أرغون شاه نائب الشام بما وقع، وأن يأخذوا رأيه فيمن يقيمونه سلطانًا. فأصبحوا وقد اجتمع المماليك على إقامة حسين بن الناصر محمد بن قلاوون في السلطة، ووقعت بينه وبينهم مراسلات. فقبض الأمراء على عدة من المماليك، ووكلوا الأمير طاز بباب حسين، حتى لا يجتمع به أحد، وغلقوا باب القلعة، وهم بآلة الحرب يومهم وليلة الثلاثاء. وقصد المماليك إقامة الفتنة فخاف الأمراء تأخير السلطة حتى يستشيروا نائب الشام أن يقع من المماليك ما لا يدرك فارطه، فوقع اتفاقهم عند ذلك على حسن بن الناصر محد بن قلاوون، فتم أمره.

فكانت مدة المظفر حاجي سنة وثلاثة أشهر واثني عشر يومًا، وعمره نحو عشرين سنة وكان شجاعًا جريئًا على الدنيا، منهمكًا في الفساد، كثير الإتلاف للمال.

* * *

السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن ابن محمد بن قلاوون الألفي

أمه تدعى كدا، ماتت وهو صغير، فربته خوند أردو، ودعوه قماري حتى كان من أمر أخيه حاجي ما كان. وطلب المماليك إقامة حسين في السلطة، وبات ليلة أكثرهم بالمدينة ليخرجوا إلى قبة النصر فقام الأمراء بسلطة حسن هذا وأركبوه بشعار السلطنة، في يوم الثلاثاء، رابع عشرى رمضان، سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وأجلسوه على تخت الملك بالإيوان، لقبوه بالملك الناصر سيف الدين قمارى.

فقال السلطان للأمير أرقطاى نائب السلطة: يا بة! ما اسمي قمارى، إنما اسمي حسن، فقال أرقطاى: يا خوند! والله إن هذا اسم حسن على خيرة الله فاستقرت سلطنته وحلف له الأمراء على العادة، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة.

وفيه أخذ الأمراء في تتبع طائفة الجراكسية من المماليك، وقد كان المظفر قربهم إليه بسفارة غرلو، فأنه كان جركسي الجنس. وجلبهم المظفر من كل مكان حتى عرفوا بين الأمراء، وقوى أمرهم، وصار منهم أمراء وأصحاب أخباز وتميزوا بكبر عمائمهم، وعملوا كلفتاه خارجة عن الحد. فطلبوا الجميع، وأخرجوهم منفيين خروجًا فاحشًا. وفي يوم الاثنين ثاني شوال: ركب الأمراء وأهل الدولة إلى الخدمة، وكتبت أوراق من ديوان الجيش بأسماء الذين اشتروا الإقطاعات في الحلقة من أرباب الصنائع، ورسم بقطع أخبازهم فشفع الأمراء في كثير منهم، ولم يقطع غير عشرين جنديًا.

وفيه قدم جواب الأمير أرغون شاه نائب الشام بموافقته، ورضاه بما وقع، وغض من فخر الدين أياس نائب حلب. وكان الأمير أرقطاى نائب السلطة قد أراد من الأمراء أن يعفوه من النيابة، ويولوه بلدًا من البلاد، فلم يوافقوا على ذلك. فلما ورد كتاب الأمير أرغون شاه نائب الشام يذكر فيه أن أياس يصغر عن نيابة حلب، فأنه لا يصلح لها إلا رجل شيخ كبير القدر له ذكر وشهرة، وطلب الأمير أرقطاى نيابة حلب فأجال الأمراء الرأي في ذلك إلى أن اتفقوا عليه. فلما كان يوم الخميس خامسه واجتمعوا لخدمة، خلع الأمير بيبغا روس القاسمي واستقر في نيابة السلطنة، عوضًا عن أرقطاي. وخلع على أمير أرقطاي، واستقر في نيابة حلب عوضًا عن فخر الدين أياس، وخرج بتشريفهما. فجلس بيبغا روس في دست النيابة، وبيبغا جالس

دونه.

وقتل السلطان المظفر حاجي في مدة أربعين يومًا أحدًا وثلاثين أميرًا، منهم أحد عشر أمراء ألوف.

وقتل متملك تونس أبو حفص عمر بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حقص، في جمادى الآخرة؛ فكانت مدته نحوًا من أحد عشر شهرًا. وكان قد بويع أخوه العباس أحمد، في تاسع رمضان سنة سبع وأربعين، ثم قتل بعد سبعة أيام.

ومات الشيخ حسن بن النوين أرتنا ملك الروم، في شوال.

* * *

سنة تسع وأربعين وسبعمائة

وفيه قدم خبر من طرابلس بأن قبرص وقع بها فناء عظيم، هلك فيه خلق كثير.

وفيه مات ثلاثة ملوك في شهر واحد، وأن جماعة منهم ركبوا البحر إلى بعض الجزائر، فهلكوا عن آخرهم.

ومع ذلك فكان فيها الوباء الذي لم يعهد في الإسلام مثله، فإنه ابتدأ بأرض مصر آخر أيام التخضير وذلك في فصل الخريف في أثناء سنة ثمان وأربعين. وما أهل محرم سنة تسع وأربعين حتى انتشر الوباء في الإقليم بأسره، واشتد بديار مصر في شعبان ورمضان وشوال، وارتفع في نصف ذي القعدة.

وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف نفس في كل يوم. وعملت الناس التوابيت والدكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجره، وحمل أكثر الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب، وحفرت الحفائر وألقوا فيها. وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون، وأكثر. وكان الموت بالطاعون يبصق الإنسان دمًا، ثم يصيح ويموت؛ وعم مع ذلك الغلاء الدنيا جميعها.

ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا جميع أجناس بني أدم، وغيرهم حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر.

وأول ابتدائه من بلاد القان الكبير حيث الإقليم الأول، وبعدها من توريز إلى أخرها ستة أشهر، وهى بلاد الخطا والمغل، وأهلها يعبدون النار والشمس والقمر، وتزيد عدتهم على ثلاثمائة جنس. فهلكوا بأجمعهم من غير علة، في مشاتيهم ومصايفهم، وفي مراعيهم، وعلى ظهور خيولهم، وماتت خيولهم، وصاروا كلهم جيفًا مرمية فوق الأرض، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، على ما وصلت به الأخبار من بلاد أزبك ثم حملت الريح نتنتهم إلى البلاد، فما مرت على بلد ولا خركاه ولا أرض، إلا وساعة يشمها إنسان أو حيوان مات لوقته وساعته. فهلك من زوق القان الكبير خلائق لا يحصى عددها إلا الله، ومات القان وأولاده الستة، ولم يبق بذاك الإقليم من يحكمه.

* * *

سنة خمسين وسبعمائة

أهل شهر الله المحرم: وقد تناقص الوباء.

وفيه اشتدت الفتنة أيضًا في بلاد الكرك بين بني نمير وبني ربيعة، فإن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان لما أعياه أمرهم وتحصنهم بجبالهم المنيعة أخذ في الحيلة عليهم، وتقدم إلى شطي أمير بني عقبة، وإلى نائب الشام ونائب غزة ونائب الكرك، بأن يدخلوا إلى البرية كأنهم يصطادون ويوقعون بهم؛ فقبضوا على كثير منهم، وقتلوا في جبالهم خلقا كثيرًا منهم، وحبسوا باقيهم حتى ماتوا. فسكن الشر بتلك الجهات إلى أن كانت فتنة الناصر أحمد بالكرك، عاد بنو نمير وبنو ربيعة إلى ما كانوا عليه من الفساد، وقوي أمرهم. فركب إليهم الأمير جركتمر نائب الكرك، وطلع إليهم فقاتلوه، وقتلوا من أصحابه عشرة، وكسروه أقبح كسرة؛ فكتب لنائب الشام الأمير أرغون شاه بتجهيز عسكر لقتالهم.

* * *

سنة إحدى وخمسين وسبعمائة

وفيه قدم كتاب الملك الأشرف دمرداش بن جوبان صاحب توريز، يتضمن السلام والتودد. فأكرم رسوله، وأعيد بالجواب، وأرسل السلطان بعده إليه والي الشيخ حسن صاحب بغداد رسولين.

وفيه قدم الخبر بأن الأمير أرغون الكاملي نائب حلب ركب إلى التركمان، وقد كثر فسادهم، فقبض على كثير منهم، وأتلفهم، وأوقع بالعرب حتى عظمت مهابته ثم بعث موسى الحاجب على ألفي فارس في طلب نجمة أمير الأكراد، فلما قرب منه بعث صاحب ماردين يشير بعود العسكر، خوفًا من كسر حرمة السلطة. فعاد موسى الحاجب بهم إلى حلب، من غير لقاء. فتنكر الأمير أرغون على موسى الحاجب، وكتب يشكو منه وفيه قدم الخبر بأن الهذباني الكاشف واقع عرب عرك وبني هلال، فهزموه أقبح هزيمة، وجرحوا فرسه، وقتلوا عدة من أصحابه، وأخذوا الطلب. بما فيه من خيل وغيرها، وأنه نزل بسيوط، وطلب تجريد العسكر إليه؛ فاقتضى الرأي تأخير التجريدة حتى يفرغ تأخير الأراضي بالزرع.

* * *

سنة اثنتين في خمسين وسبعمائة

وفيه قدم الخبر بلين الأمير أيتمش المصري نائب الشام، وضياع أحوال الشام، وكثرة قطع الطرقات، وأن أهل الشام سموه " ايش كنت أنا "، وأن أحوال شمس الدين موسى بن التاج إسحاق الناظر توقفت. ووقع جراد مضر بالزرع، أفسد أكثرها، وأن الغرارة القمح ارتفعت من ثمانين إلى مائة وعشرين درهمًا.

وفيه توعك السلطان ولزم الفراش أياما، فبلغ طاز ومغلطاى ومنكلى بغا أنه أراد بإظهار توعكه القبض عليهم إذا دخلوا إليه، وأنه قد اتفق مع قشتمر وألطنبغا الزامر وملكتمر الماردينى وتنكز بغا على ذلك، وأن ينعم عليهم بإقطاعاتهم وإمراتهم. فواعدوا أصحابهم، واتفقوا مع الأمير بيبغا ططر حارس الطير النائب، والأمير طيبغا المجدي والأمير رسلان بصل، وركبوا يوم الأحد سابع عشري جمادى الآخرة بأطلابهم، ووقفوا عند قبة النصر.

فخرج السلطان إلى القصر الأبلق، وبعث يسألهم عن سبب ركوبهم، فقالوا: " أنت اتفقت مع مماليكك على مسكنا، ولابد من إرسالهم إلينا. فبعث السلطان إليهم تنكز بغا وقشتمر وألطنبغا الزامر وملكتمر، فعندما وصلوا إليهم قيدوهم، وبعثوهم إلى خزانة كايل، فسجنوا بها. فشق ذلك على السلطان، وبكى، وقال: " قد نزلت عن السلطنة "، وسير إليهم النجاة، فسلموها للأمير طيبغا المجدي. وقام السلطان إلى حريمه، فبعث الأمراء الأمير صرغتش، ومعه الأمير قطلوبغا الذهبي وجماعة؛ ليأخذه ويحبسه. فطلعوا إلى القلعة راكبين إلى باب القصر الأبلق، ودخلوا إلى الناصر حسن وأخذوه من بين حرمه، فصرخ النساء صراخًا عظيما، وصاحت ست حدق على صرغتمش صياحًا منكرًا، وسبته، وقالت: " هذا جزاؤه منك ". فأخرجه صرغتمش وقد غطى وجهه إلى الرحبة، فلما رأه الخدام والمماليك تباكوا عليه بكاءًا كثيرًا. وطلع صرغتمش به إلى رواق فوق الإيوان، ووكل به من يحفظه، وعاد إلى الأمراء. وكانت مدته ثلاث سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يومًا، منها مدة الحجر عليه ثلاث سنين، ومدة استبداده تسعة أشهر، وكان القائم بدولته الأمير شيخو رأس نوبة، وإليه أمر خزانة الخاص - ومرجع ذلك إلى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص - والأمير بيبغاروس نائب السلطة، وإليه حكم العسكر وتدبره والحكم بين الناس، والأمير منجك الوزير الأستادار مقدم المماليك، وإليه التصرف في أموال الدولة، والمتولي لتربيته خوند طغاي أم آنوك، وفي خدمته ست حدق. ورتب له في كل يوم مائة درهم تصرف لخدامه من خزانة الخاص، فكان كذلك في طوع الأمراء، يصرفونه على حسب اختيارهم، إلى أن نفرت نفوس الأمراء الخاصكية من الوزير منجك، وحسدوه على ما هو فيه، وكان أشدهم عليه حقدا الأمير مغلطاي والأمير طاز. وكان الأمير شيخو يفهم عنه إلى أن خرج الأمير بيبغا روس إلى الحج، وخرج الأمير شيخو إلى السرحة بالعباسة، وقع الاتفاق على ترشيد السلطان، ومسك منجك كما تقدم. فاستبد السلطان بالتصرف، وأخذ أموال الأمراء المقبوض عليهم، وفرقها في خواصه. ثم اختص بطاز، وبالغ في الإنعام عليه، واستخص قشتمر وألطنبغا وملكتمر وتنكز بغا، وجعلهم ندماءه في الليل ومشيريه في النهار، فلم يكن يفارقهم أبدًا ليلا ولا نهارًا، وسوغهم من الأملاك، وأنعم عليهم من الجواهر والأموال بشيء جليل إلى الغاية، وأعرض عن الأمراء، فلم يلتفت إليهم حتى كان ما كان من خلعه.

وكانت أيامه شديدة، كثرت فيها المغارم بالنواحي، وخربت عدة أملاك على النيل، واحترقت مواضع كثيرة بالقاهرة ومصر، وخرجت عربان العايد وثعلبة

وعشير الشام وعرب الصعيد عن الطاعة، واشتد فسادهم وكثر قطعهم الطرقات. وكان الفناء العظيم الذي لم يعهد مثله، وتوالى شراقي الأراضي، وتلاف الجسور، وقيام ابن واصل الأحدب ببلاد الصعيد والعجز عنه، وقتل عرب الصعيد طغية الكاشف، وهزيمتهم الهذباني وأخذ ثقله. فاختلت أرض مصر وبلاد الشام بسبب ذلك خللاً فاحشًا، إلا أن الناصر حسن كان في نفسه مفرط الذكاء، ضابطًا لما يدخل إليه ويصرفه كل يوم، عارفًا متدينًا شهمًا، لو وجد ناصرًا ومعينًا لكان أجل الملوك.

* * *

السلطان الملك الصالح

صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاون أمه بنت الأمير تنكز نائب الشام، أقيم سلطانا بعد خلع أخيه الناصر حسن، في يوم الاثنين ثامن عشرى جمادى الآخرة، سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة. وذلك أن الأمراء لما حملت إليهم النمجاة، باتوا ليلة الاثنين بإصطبلاتهم، وبكروا يوم الاثنين إلى القلعة، واجتمعوا بالرحبة داخل باب النحاس، وطلبوا الخليفة والقضاة وسائر أهل الدولة، واستدعوا به. فلما خرج إليهم ألبسوه شعار السلطنة، وأركبوه فرس النوبة من داخل باب الستارة، ورفعت الغاشية بين يديه. وكان الأمير طاز والأمير منكلى بغا الفخري آخذين بشكيمة الفرس حتى جلس على التخت. وحلفوا له، وحلفوه على العادة، ولقبوه بالملك الصالح، ونودي بسلطنته في القاهرة ومصر.

وفيه قدم الخبر بخروج عيسى بن حسن الهجان عن الطاعة، وامتنع بجماعته في الوادي.

وفي شوال: قدم كتاب الأمير أرغون الكاملي نائب الشام بالحط على قاضي القضاة تقي الدين السبكي وأنه حكم بنزع وقف من أصحابه وأعاده ملكا، وطلب الأمير أرغون الكاملي أن يعقد لذلك مجلس فيه قضاة مصر وعلماؤها بين يدي السلطان.

وكان من خبر ذلك أن أرغون لما ولى نيابة الشام خرج علاء الدين الفرع إلى لقائه قريب حلب، وأغراه بالسبكي، وقدح فيه وفى ولده بقوادح حتى غير خاطره. فلما لقيه السبكي لم يجد منه إقبالا، وبقي على ذلك إلى أن وقف جماعة بدار العدل يشكون من السبكي أن لهم وقفا من عهد أجدادهم، وأقطع للأجناد ثم استرجعوه منهم، وثبت وقفه على قاضي القضاة المالكي بدمشق، فانتزعه السبكي منهم، وسلمه لمن كان قديمًا في يده بالملكية، وسألوا عقد مجلس. فلما اجتمع القضاة والفقهاء لذلك، قام الفرع وجماعة في العصبية على السبكي، وشنعوا عليه. فأجاب السبكي بأنه " ثبت عندى أن يكون في يد مالكه، وقد حكم بذلك. وهأنا، ومن ينازعني فيما حكمت؟ "، فلم ينازعه أحد. فطلب الأمير أرغون الكاملي قضاة القضاة، فحضروا إلا عز الدين بن جماعة، فإنه تعذر حضوره. وقرئ عليهم كتاب النائب بحضرة الشيخ بهاء الدين أحمد إبن السبكي، فأظهر كتاب أبيه بصورة الواقعة، وهى أن أجداد الشكاة ادعوا الوقفية في ضيعة كذا، فوقفها أبناؤهم من بعدهم، ثم أقطعت بعد وفاتهم لجماعة من

الجند فادعى الشيخ تقي الدين البوسي لما قدم من بعلبك أنها ملكه وبيده، وأنه ابتاعها من أهلها قبل وفاتهم، وأثبت كتاب مشتراه وتسلمها، وأن الشراء كان سنة اثنتين وثمانين وستمائة، وبقي إلى سنة أربع وتسعين. فأظهر قوم كتاب وقفها وأثبتوه وتسلموها، فسمي البوسي في سنة أربع وسبعمائه واستعاد الضيعة منهم، بعد منازعا عقد فيها عدة مجالس. فأخذها تنكز منهم، ثم استردها البوسى، فلم يزل إلى هذا الوقت وقف أهل الوقف، وأثبتوه على قاضي المالكية جمال الدين المسلاتى. فأثبت الآخرون أن المسلاتي كانت بينه وبين البوسي عداوة لا يجوز معها أن يحكم كل وأخذوا الضيعة. فتحاكم الفريقان إلى السبكي، فحكم باستقرار يد الملاك، وأبقى كل ذي حجة على حجته. فتنازع ابن السبكي والتاج المناوي طويلاً وانقضوا، وأخذ السبكي خطوط جماعة من المفتين بصحة حكم أبيه. ثم اجتمعوا ثانيًا، وحضر قاضي القضاة عز الدين بن جماعة، وانتدب للنظر في ذلك بمفرده. فادعى قوام الدين أمير كاتب الحنفي فساد حكم السبكي، وتعصب عليه تعصبا زائدًا. وذلك أنه لما قدم قوام الدين دمشق، وبها يلبغا اليحياوي نائبا اختص به، وأخذ ينهاه عن رفع يديه في الركوع، وأن هذا لا يجوز، وصلاته التي صلاها كذلك باطلة يجب عليه إعادتها فسأل يلبغا ابن السبكي عن ذلك، فأنكر مقالة القوام.

واشتهر بين الأمراء والأجناد مقالة القوام، وكثرت القالة فيها. فطلب السبكي القوام ومنعه من الإفتاء، واقتضى رأي ابن جماعة النظر في من شهد بالعداوة، وفيمن، شهد بالوقفية، فكتب بذلك لنائب الشام.

* * *

سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة

وفيه تزايد تسلط الأمير صرغتمش رأس نوبة، وكثر ترفعه. فتنكر له الأمراء، وكثرت الأراجيف بوقوع الفتنة بينهم، وإعادة الناصر حسن، ومسك شيخو وطاز، وانفرد صرغتمش بالكلمة فقلق طاز - وكان حاد الخلق - وهم بالركوب، فمنعه شيخو، فاحترز طاز وشيخو. وأخذ صرغتمش في التبرؤ مما رمى به، وحلف للأمير شيخو والأمير طاز، فلم يصدقه طاز وهم به. فقام شيخو قيامًا كبيرًا حتى أصلح بينهما، وأشار على طاز بالركوب إلى عمارة صرغتمش، فركب إليه وتصافيا.

وفي يوم الأربعاء رابع عشريه: قدم البريد من دمشق بعصيان الأمير بيبغا روس

نائب حلب، واتفاقه مع الأمير أحمد الساقى نائب حماة، والأمير بكلمش نائب طرابلس فجرد في يوم السبت سابع عشريه جماعة من الأمراء وأجناد الحلقة إلى الصعيد، منهم عمر شاه الحاجب، وقماري الحاجب، ومحمد بن بكتمر الحاجب، وشعبان قريب يلبغا. وكتب لبيبغا روس نائب حلب بالحضور إلى مصر، على يد سنقر وطيدمر من مماليك الحاج أرقطاي وكتب معهما ملطفات لأمراء حلب تتضمن أنه إن امتنع عن الحضور فهو معزول، ورسم لهما أن يعلما بيبغا بذلك أيضا مشافهة بحضرة الأمراء فقدم البريد من دمشق. بموافقة ابن دلغادر لبيبغا روس، وأنه تسلطن بحلب، وتلقب بالملك العادل، وأظهر أنه يريد مصر لأخذ غرمائه، وهم طاز وشيخو وصرغتمش وبزلار وأرغون الكاملي نائب الشام. فرسم للنائب بيبغا ططر حارس الطير بعرض مقدمي الحلقة، وتعيين مضافيهم من عبرة أربعمائة دينار الإقطاع فما فوقها؛ ليسافروا. فقدم البريد بأن قراجا بن دلغادر قدم حلب في جمع كبير من التركمان، فركب بيبغا روس وقد واعد نائب حماة ونائب طرابلس على مسيرة أول شعبان، وأنهم تلقوه بعساكرهم على الدستن.

وفي يوم الاثنين سابعه: ركب السلطان إلى الريدانية، وجعل الأمير قبلاي نائب الغيبة ورتب أمير علي المارديني في القلعة، ومعه الأمير كشلي السلاح دار؛ ليقيما داخل القلعة، ويكون على باب القلعة الأمير أرنال والأمير قطلوبغا الذهبي، ورتب الأمير مجد الدين موسى الهذباني مع والي القاهرة لحفظها. واستقل السلطان بالمسير من الريدانية يوم الثلاثاء ثامن شعبان بعد الظهر، فقدم البريد بأن الأمير طقطاي الدوادار خرج من دمشق يريد مصر، وأن الأمير أرغون الكاملي نائب الشام لما بلغه خروج بيبغا روس من حلب في ثالث عشر رجب، ومعه قراجا بن دلغادر وجبار بن مهنا، وقد نزل بكلمش نائب طرابلس وأمير أحمد نائب حماه على الرستن في انتظاره، عزم أرغون كذلك على لقائه. فبلغه مخامرة أكابر أمراء دمشق عليه، فاحترس على نفسه، وصار يجلس بالميدان وهو لابس آلة الحرب. ثم اقتضى رأي أمير مسعود بن خطير أن النائب لا يلقى القوم، وأنه ينادى بالعرض للنفقة في منزلة الكسوة، ويركب اليها، فإذا خرج العسكر إليه. بمنزلة الكسوة منعهم من عبور دمشق، وسار بهم إلى الرملة في انتظار قدوم السلطان. ففعل أرغون ذلك، وأنه مقيم على الرملة بعسكر دمشق، فإن ألطنبغا برناق نائب صفد سار إلى بيبغا روس في طاعته، وأن بيبغاروس وصل إلى حماه، واجتمع مع نائبها أحمد، وبكلمش نائب طرابلس، وسار بهم إلى حمص، فلقيه مملوك أرقطاى بكتاب السلطان ليحضر، فقبض عليهما

وقيدهما، وسار يريد دمشق، فبلغه مسير السلطان بعساكره، واشتهر ذلك في عسكره، وأنه قد عزل من نيابة حلب، فانحلت عزائم كثير ممن معه، وأخذ في الاحتفاظ بهم والتحرر منهم، إلى أن قدم دمشق يوم الخميس خامس رجب، فإذا أبواب المدينة مغلقة والقلعة محصنة. فبعث بيبغا روس إلى الأمير أياجي نائب القلعة يأمره بالإفراج عن الأمير وقردم، وأن يفتح أبواب المدينة.

ففتح أياجي أبواب دمشق، ولم يفرج عن قردم. فركب أمير أحمد نائب حماة وبكلمش نائب طرابلس من الغد، ليعبرا على الضياع، فوافى نجاب بخبر مسك منجك، ومسير السلطان من خارج القاهرة. وعاد أحمد وبكلمش في يوم الاثنين رابع عشره، وقد نزل الأمير طاز بمن معه المزيرب فارتج عسكر بيبغا روس، وتواعد فراجا بن دلغادر وجبار ابن مهنا على الرحيل، فما غربت الشمس يومئذ إلا وقد خرجا بأثقالهما وأصحابهما، وسارا فركب بيبغا روس في أثرها، فلم يدركهما، وعاد بكرة يوم الثلاثاء فلم يستقر قراره حتى دقت البشائر بالقلعة، وأعلن أهلها بأن الأمير طاز والأمير أرغون نائب الشام وافيا، وأن الأمير شيخو والسلطان ساقه. فبهت بيبغاروس، وتفخد عنه من معه، وركب عائدًا إلى حلب في تاسع عشر شعبان فكانت إقامته أربعة وعشرين يومًا، أثر أصحابه فيها بدمشق وأعمالها آثارًا قبيحة، من النهب والسبي والحريق والغارات على الضياع من حلب إلى دمشق، كما فعل المغول أصحاب غازان. فبعث السلطان الأمير أسندمر العلائي والي القاهرة ليبشر بذك، فقدم إلى القاهرة يوم الجمعة خامس عشريه. فدقت البشائر وطبلخاناه الأمراء، وزينت القاهرة سبعة أيام. وجبى من الأمراء والدواوين والولاة ومقدمي الحلقة الذين لم يسافروا ثمن الشقق الحرير التى تفرش إذا قدم السلطان، وكان قدم إليه من صفد الأمير أيتمش الناصري، فكان يرجعه عن كثير من ذلك وأما السلطان فإنه التقى مع الأمير أرغون الكاملي نائب الشام على بدعرش من عمل غزة، وقد تأخر معه الأمير طاز. بمن معه. فدخل السلطان بهم إلى غزة؛ وخلع على نائب الشام، وأنعم عليه بأربعمائة ألف درهم، وأنعم على أمير مسعود بألف دينار، وأنعم على كل من أمراء الألوف بدمشق بألفي دينار، وعلى كل من أمراء الطبلخاناه بعشرة آلاف درهم، وعلى كل من أمراء العشرات بخمسة آلاف درهم، فكانت جملة ما أنفق فيهم ستمائة ألف درهم.

وتقدم الأمير شيخو والأمير طاز والأمير أرغون الكاملي نائب الشام. بمن معهم إلى دمشق، وتأخر الأمير صرغتمش صحبة السلطان ليدبر العسكر. وتبعهم

السلطان، فكان دخوله دمشق في يوم الخميس مستهل رمضان، وقد خرج الناس إلى لقائه، وزينت المدينة زينة حفلة، فكان يومًا مشهودًا. ونزل السلطان بالقلعة، ثم ركب منها في غده يوم الجمعة ثانيه إلى الجامع الأموي في موكب جليل، حتى صلى به الجمعة. وكان الأمراء قد مضوا في طلب بيبغا روس، فقدم خبرهم في يوم الاثنين خامسه بنزول الأمير شيخو والأمير طاز على حمص، وأنه قد بلغهم مسك بيبغا روس وأمير أحمد نائب حماه وجماعة. فدقت البشائر بالقلعة، ثم تبين كذب هذا الخبر وفي يوم الأربعاء سابعه: رسم بعود أجناد الحلقة ومقدميها وأطلاب الأمراء إلى القاهرة، فخرجوا فيه من دمشق أرسالا. وكانت جماعة من العسكر قد تخلفوا بغزة، فقدموا القاهرة في رابعه، وقدم الأجناد وأطلاب الأمراء إلى القاهرة في خامس عشريه وأما بيبغا روس فإنه قدم حلب في تاسع عشري شعبان، وقد حفرت خنادق تجاه أبوابها، وغلقت الأبواب وامتنعت القلعة، ورمته رجالها بالمنجنيق والحجارة، وتبعهم من فوق الأسوار من الرجال بالرمي عليه. وصاحوا عليه فبات. بمن معه، وركب من الغد يوم الخميس أول شهر رمضان للزحف على المدينة، وإذا بصياح عظيم، والبشائر تدق في القلعة، والرجال يصيحون: " يا منافقين! العسكر وصل ". فالتفت بيبغا روس بمن معه، فإذا البيارق والصناجق نحو جبل جوشن فانهزموا بأجمعهم نحو البر. ولم يكن ما رأوه على حبل جوشن عسكر السلطان، ولكنه جماعة من جند حلب وطرابلس وحماة كانوا مختفين من عسكر بيبغا روس عند خروجه من دمشق، فساروا في أعقابه رجاء أن يدركهم عسكر السلطان. فلما حضر بيبغا روس إلى حلب أجمعوا على كبسه، وراسلوا أهل جبل بانقوسا بموافاتهم، وجمعوا عليهم كثيرًا من العربان. وركبوا أول الليل، وترتبوا بأعلا جبل حوشن، ونشروا الصناجق. فعندما أشرقت الشمس ساروا، وهم يصرخون صوتًا واحدًا، فلم يثبت بيبغا روس ولا أصحابه، وولوا ظنًا منهم أنه عسكر السلطان. فإذا أهل بانقوسا قد أمسكوا عليهم طرق المضيق، وأدركهم العسكر، فتبددوا وتمزقوا، وقد انعقد عليهم الغبار حتى لم يكن أحد ينظر رفيقه. فأخذهم العرب وأهل حلب قبضًا باليد، ونهبوا الخزائن والأثقال، وسلبوهم ما عليهم من آلة الحرب.

ونجا بيبغا روس بنفسه، وامتلأت الأيدي بنهب ما كان معه، وهو شيء يجل عن الوصف؛ لكثرته وعظم قدره. وتتبع أهل حلب أمراءه ومماليكه، وأخرجوهم من عدة مواضع، فظفروا بكثير منهم، فيهم أخوه الأمير فاضل، والأمير ألطنبغا العلائي مشد الشرابخاناه، وألطنبغا برناق نائب صفد، وملكتمر السعيدي وشادي أخو أمير أحمد

نائب حماة، وطيبغا حلاوة الأوجاقي، وابن أيدغدي الزراق أحد أمراء حلب، ومهدي شاد الدواوين بحلب، وأسنباى قريب بن دلغادر، وبهادر الجاموس، وقلج أرسلان استادار بيبغا روس، ومائة من مماليك الأمراء؛ فقيد الجميع وسجنوا. وتوجه مع بيبغا روس أمير أحمد نائب حماة، وبكلمش نائب طرابلس، وطشتمر القاسمي نائب الرحبة، وآقبغا البالسي، وصصمق، وطيدمر، وجماعة تبلغ عدتهم نحو مائة وستة عشر فدخل الأمراء حلب، وبعثوا بالمماليك إلى دمشق، وتركوا الأمراء المقيدين بسجن القلعة. وركب الحسام العلائي إلى طرابلس، فأوقع الحوطة على موجود نائبها، بكلمش؛ وتم إيقاع الحوطة بحماة على موجود أمير أحمد.

وكتب الأمراء إلى قراجا بن دلغادر بالعفو عنه، والقبض على بيبغا روس ومن معه، وكان بيبغا روس قد قدم عليه، فركب وتلقاه، وقام له. بما يليق به. فلما وقف قراجا بن دلغادر على كتب الأمراء أجاب بأنه ينتظر في القبض عليه مرسوم السلطان به، وإرسال الأمان لبيبغا روس، وأنه مستمر على إمرته، فلما جهز له ذلك امتنع من تسليمه. فطلب رمضان من أمراء التركمان، وخلع عليه بإمرة قراجا بن دلغادر وإقطاعه. وعاد الأمراء من حلب، واستقر بها الأمير أرغون الكاملي نائبًا، عوضًا عن بيبغا روس وقدموا دمشق ومعهم الأمراء المسجونون، يوم الجمعة سلخ رمضان، وركبوا مع السلطان لصلاة العيد، والأمير مسعود بن خطير حامل الجتر على السلطان حتى عبر الميدان فصلى بهم تاج الدين محمد بن إسحاق المناوي قاضي العسكر صلاة العيد، وخطب ومد السماط بالميدان، فكان يومًا مذكورًا.

وفي يوم الاثنين ثالثه: جلس السلطان بطارمة قلعة دمشق، ووقف الأمير شيخو وطاز وسائر الأمراء بسوق الخيل تحت القلعة. وأخرج الأمراء المسجونين في الحديد، ونودي عليهم: " هذا جزاء من يخامر على السلطان، ويخون الإسلام " ووسطوهم واحدًا بعد واحد، وهم ألطنبغا برناق، وطيبغا حلاوة، ومهدي شاد الدواوين بحلب، وأسنبغا التركماني، وألطنبغا الثلاثي شاد الشرابخاناه، وشادي أخو أمير أحمد نائب حماه، وأعيد ملكتمر السيدي إلى السجن وفيه قبض على ملك آص شاد الدواوين بدمشق، وساطلش الجلالي، ومصطفى، والحسام مملوك أرغون شاه، وأمير علي بن طرنطاي البشمقدار، وابن جودى، وقردم أمير آخور، وأخرجوا إلى الإسكندرية، ومعهم ملكتمر السعيدي، ونفي مقبل نقيب الجيش إلى طرابلس وفيه خلع على الأمير أيتمش الناصري، واستقر في نيابة طرابلس، عوضًا عن بكلمش. وأنعم على أمير مسعود بن خطير بإقطاع قردم، وأنعم على كل من ولديه بإمرة طبلخاناه

واستقر الأمير طنيرق في نيابة حماة، عوضًا عن أمير أحمد الساقى. واستقر شهاب الدين أحمد بن صبح في نيابة صفد، ورسم بإقامة الأمير طيبغا المجدي بدمشق، على إمرة.

وتوجه الأمير يلبك والأمير نوروز إلى مصر.

وفي يوم الجمعة سابعه: صلى السلطان الجمعة، وخرج من دمشق يريد مصر. فكانت إقامته بها سبعة وثلاثين يومًا.

* * *

سنة أربع وخمسين وسبعمائة

وفيه قدم الخبر بوصول الأمير بيبغا روس إلى حلب وقتله، فكتب إلى الأمير أرغون الكاملي نائب حلب بالشكر والثناء، وعمل وحمل اليه تشريف، وأمر أن يعمل الحيلة في إحضار قراجا بن دلغادر، وجهز إليه تشريف برسمه، وتقليد تقدمة التركمان فاستدعاه الأمير أرغون الكاملي نائب حلب ليلبس التشريف السلطاني، ويقرأ عليه التقليد بحضرة أمراء حلب، فاعتذر عن حضوره.

فلما قدم كتاب الأمير أرغون الكاملي نائب حلب بذلك، كتب له بالركوب اليه ومحاربته، فاعتذر بأنه قد حلف له قبل ذلك بأنه إن سير إليه بيبغا روس لا يحاربه. فشق ذلك على الأمراء، وكتبوا إليه بالإنكار عليه، وجهز له الأمير عز الدين طقطاي الدوادار، ومعه الكتب إلى نواب الشام بنجدة الأمير أرغون الكامل نائب حلب على قتال ابن دلغادر، فسار طقطاي في يوم الاثنين مستهل شهر ربيع الآخر.

وفي هذا الشهر: أعلن بعض النصارى الواردين من الطور بالقدح في الملة الإسلامية، فأحضر إلى القاضي تاج الدين المناوي، وسأله المناوي عن سبب قدومه، فقال: " جئت أعرفكم أنكم لستم على شيء، ولا دين الا دين النصرانية، وما قلت هذا إلا لكي أموت شهيدًا " فضربه المناوي بالمقارع ضربًا مبرحًا مدة أسبوع، وهو يقول: " عجل على القتل حتى ألحق بالشهداء "، فيقول له: " ما أعجل عليك غير العقوبة ثم ضربت عنقه، وأحرقت جثته.

* * *

سنة خمس وخمسين وسبعمائة

وفي ثامن عشريه: قدم الأمير شيخو، ممن معه من بلاد الصعيد وكان من خبره أن العربان بالوجه القبلى خرجوا عن الطاعة، وسفك بعضهم دماء بعض، وقطعوا الطرقات، وأخذوا أموال الناس، وكسروا مغل الأمراء والأجناد. وقتلوا الكاشف طغاى، وكسروا مجد الدين موسى الهذبانى، وأخذوا خامه وقماشه، وقتلوا بعض أجناده. وقام في البهنساوية ابن سودى، وحشد على بنى عمه، وقتل منهم نحو الالفي رجل، وأغار على البلاد، وأكثر من القتل والنهب. ونافق أيضًا ميسرة بالأطفيحية، واقتتل مع ابن مغنى قتالاً كبيرًا فاستمر هذا البلاء بالصعيد سنة كاملة، هلك فيها من العربان خلائق كثيرة، فمازال السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يسوس الأمر حتى سكنت تلك الفتن، وتتبع أهل الفساد، وحرث ديارهم بالأبقار، وأفناهم بالقتل. ثم ثاروا بعد ذلك، وركبوا على بيبغا الشمسى الكاشف، وحاربوه، وتجمعوا على الفساد، ثم تبع ذلك قيام الأحدب، واسمه محمد بن واصل، ولم يكن أحدب ولكن أقفص، فشهر لذلك بالأحدب، وقام الأحدب هذا في عرب عرك بناحية، وقاتل بنى هلال. فلما تغافل أهل الدولة بعد موت السلطان الناصر محمد بن قلاوون عن أهل النواحي، قلت مهابة الكشاف والولاة عندهم، فخرجوا عن الحد، وقطعوا الطرقات برًا وبحرًا حتى تعذر سلوكها. ومالوا على المعاصر والسواقي، فنهبوا حواصلها من القنود والسكر والأعسال، وذبحوا الأبقار.

وادعى الأحدب السلطنة، وجلس في جتر أخذه من قماش الهذبانى، وجعل خلفه المسند، وأجلس العرب حوله، ومد السماط بين يديه، فنفذ أمره في الفلاحين. وصار الجندي إذا انكسر له خراج قصده، وساله في خلاصه من فلاحه، فيكتب له ورقة لفلاحه وأهل بلده، فيصل بها إلى حقه، ويرسل مع مماليك الكاشف والوالي بالسلام عليه، ويأمره أن يقول: إن كانت لك حاجة قضيتها لك. وحدثته نفسه بتملك الصعيد، وقويت نفسه بتأخر ولاة الأمور عنه، وأقام له حاجبًا وكاتبًا.

فلما عظم أمره عقد الأمراء المشور بين يدي السلطان الملك الصالح، في مستهل شوال سنة أربع وخمسين وسبعمائة، في أمر عرب الصعيد. وقرروا تجريد العسكر لهم، صحبة الأمير سيف الدين شيخو العمرى رأس نوبة، ومعه اثنى عشر مقدمًا. بمضافيهم من أمراء الطبلخاناه والعشرات، وهم أسندمر العمرى وطشتمر القاسمي، وقطلوبغا الطرخانى، وأرلان، وبزلار أمير سلاح، وكلتاى أخو طاز، واصر على بن

أرغون النائب، وتنكز بغا، وجركتمر، ويلجك قريب قوصون، وقطلوبغا الذهبى، وأن يتوجه كلتاى وابن أرغون النائب نحو الشرق بالإطفيحية، ويتوجه يلجك إلى الفيوم، وبزلار وأرلان نحو الواح، ويتوجه الأمير شيخو ببقية الأمراء إلى جهة قوص، ويتأخر في صحبة السلطان عند سفره الأمير طاز، والأمير صرغتمش، والأمير قجا أمير شكار. فيتوجه السلطان نحو البهنسا كأنه يتصيد، وأن يكون السفر في ذي القعدة، فيتوجه الأمراء أولاً، ثم يركب السلطان بعدهم.

فطار الخبر إلى عامة بلاد الوجه القبلي، فأخذ العربان حذرهم، فمنهم من عزم على الدخول بأهله إلى بلاد النوبة، ومنهم من اختفى في موضع أعده ليأمن فيه على نفسه ومنهم من عزم على الحج وقدم إلى مصر، ففطن بهم أعداؤهم، ودلوا عليهم الأمراء. فقبض على جماعة ممن قدم مصر نحو العشرة، وأخذ ما معهم. ثم ركب الأمير شيخو إلى بركة الحاج في عدة وافرة، وأحاط بالركب، وتتبع الخيام وغيرها بعد ما حذر من أخفي العرب، فقبض على جماعة منهم، وقتل من عرف منهم بفساد، وأطلق من شكر حاله.

فحشد الأحدب بن واصل شيخ عرك جموعه، وصمم على لقاء الأمراء، وحلف أصحابه على ذلك. وقد اجتمع معه عرب منفلوط، وعرب المراغة وبني كلب وجهينة وعرك، حتى تجاوزت فرسانه عشرة آلاف فارس تحمل السلاح، سوى الرجالة المعدة، فإنها لا تعد ولا تحصى لكثرتها. وجمع الأحدب مواشي أصحابه كلهم وأموالهم وغلالهم وحريمهم وأولادهم، وأقام ينتظر قدوم العسكر.

فقدم الأمير شيخو بمن معه حتى نزل سيوط، ومعه الولاة والكشاف، فتلقها أهلها وعرفوه أمور العرب، وما هم عليه من العزم على اللقاء والمحاربة، وكثرة جمعهم. فاستراح الأمير شيخو، وقدمت عليه عرب الطاعة، وهولوا عليه بكثرة جمع المارقين حتى داخله الوهم، وبعث يستدعي بالعسكر من القاهرة. فعرض الأمير سيف الدين قبلاى نائب السلطنة مقدمي الحلقة ومضافيهم، وعين منهم تسعين مقدمًا، وأضاف إلى كل مقدم جماعة. وعرضت أوراق بأسمائهم على السلطان والأمراء، فاختاروا منهم خمسة وعشرين مقدمًا، مع كل مقدم من مضافيه عشرون جنديًا، فتكون عدتهم خمسمائة فارس؛ ورسم بتجهيزهم. وأعيد جواب الأمير شيخو بذلك، فرد جوابه بأن في حضور نجدة من القاهرة ما يوجب طمع العربان في العسكر، وظنهم أن ذلك من عجزهم عن اللقاء، وأشار بإبطال تجريد النجدة، فبطلت.

ثم رحل الأمير شيخو عن سيوط، وبعث الأمير مجد الدين الهذباني ليؤمن بني

هلال أعداء عرك، ويحضرهم ليقاتلوا عرك أعداءهم. فانخدعوا بذلك، وفرحوا به، وركبوا بأسلحتهم، وقدموا في أربعمائة فارس، فما هو الا أن وصلوا إلى الأمير شيخو فأمر بأسلحتهم وخيولهم فأخذت بأسرها، ووضع فيهم السيف، فأفناهم جميعًا. وركب الأمير شيخو من فوره، وصعد عقبة أدفو في يوم وليلة، فلما نزل إلى الوطاة قدم عليه نجاب من أمراء أسوان بأن العرب قد نزلوا في برية بوادي الغزلان، فألبس العسكر آلة الحرب.

وقدم الأمير سودون أحد أمرأء الطبلخاناه في مائة من مماليك الأمراء طليعة، وساروا. فلما كان قبيل العصر التقت الطليعة بفئة من طلائع العرب، فبعث سودون يخبر الأمير شيخو بذلك، وقاتلهم فانهزموا، ثم عادوا للحرب مرارًا حتى كلت خيول الترك، ولم يبق الا أن تأخذهم العرب. فأدركهم الأمير شيخو، وقد ساق لما أتاه الخبر سوقًا عظيمًا ممن معه، وامتلأ الجو من غبارهم. وهبت ريح، فحملت الغبار والقته في وجوه العرب حتى صار أحدهم لا يرى رفيقه، مع رؤيتهم بريق الأسنة ولمعان السيوف. فخارت قواهم، وانهزموا بأجمعهم، بعد ما استعدوا للقاء استعدادًا محكمًا. فقدموا الرجالة بالدرق أمام الفرسان، لتلقى عنهم السهام، وقامت الفرسان من ورائهم بأسلحتها، وأوقفوا حريمهم من ورائهم. وصار الرجل منهم يصدم ابنه وأخاه وهو لا يلوى على شيء. فركب الترك أقفيتهم، ومن وقت الغروب عند الهزيمة، يقتلون ويأسرون حتى أعتم الليل، وباتوا متحارسين، فلم يعد أحد من العرب إليهم. وعند ارتفاع النهار جرد الأمير شيخو طائفة في طلبهم، فأحاطوا بمال كثير ما بين مواشي وقماش، وحلى ونقود، وعروض وأقوات، وأزواد وروايا ماء. وسبوا حريمهم وأولادهم، فاسترقوا كثيرًا منهم، وصار إلى الأجناد والغلمان منهم شيء كبير، باعوا منه عددًا كثيرًا بالقاهرة، بعد عودهم.

وهلك من العرب خلائق بالعطش، ما بين فرسان ورجالة وجدهم المجردون في طلبهم، فسلبوهم. وصعد كثير منهم إلى الجبال، واختفوا في المغائر، فقتل العسكر وأسر، وسبا عددًا كثيرًا، وارتقوا إلى الجبال في طلبهم، وأضرمرا النيران في أبواب المغائر فمات بها خلق كثير من الدخان. وخرج اليهم جماعة، فكان فيهم من يلقى نفسه من أعلى الجبل ولا يسلم نفسه، ويرى الهلاك أسهل من أخذ العدو له. فهلك في الجبال أمم كثيرة وقتل منهم بالسيف ما لا يحصى كثرة، حتى عملت عدة حفائر وملئت من رممهم، وبنى فوقها مصاطب ضربت الأمراء رنوكها عليها، وأنتنت البرية من جيف القتلى ورمم الخيل.

فكانت هذه الواقعة من أعظم حوادث الصعيد، وأشنع محنها، ولذلك سقتها في هذا الموضع كما هي، وإن كان قد تقدم في السنة الحالية طرف منها، لأن حكايتها متوالية أبين لها، وأكثر فائدة لمن وقف عليها.

وكان الأحدب قد نجا بنفسه، فلم يقدر عليه، ومن حينئذ أمنت الطرقات برًا وبحرًا، فلم يسمع بقاطع طريق بعدها. ووقع الموت فيمن تأخر في السجون من العربان، فكاد يموت منهم في اليوم من عشرين إلى ثلاثين، حتى فنوا الا قليلاً.

وفي هذه السنة: كانت واقعة النصارى، وذلك أنهم كانوا قد تعاظموا، وتباهوا بالملابس الفاخرة، ومن الفرجيات المصقولة والبقيار الذي يبلغ ثمنه ثلاثمائة درهم، والفرط التي تلفها عبيدهم على رؤوسهم. بمبلغ ثمانين درهمًا الفوطة. وركبوا الحمير الفره ذات الأثمان الكثيرة، ومن ورائهم عبيدهم على الأكاديش. وبنوا الأملاك الجليلة في مصر والقاهرة ومتنزهاتها، واقتنوا الجواري الجميلة من الأتراك والمولدات، واستولوا على دواوين السلطان والأمراء، وزادوا في الحمق والرقاعة، وتعدوا طورهم في الترفع والتعاظم. وأكثروا من أذي المسلمين وإهانتهم، إلى أن مر بعضهم يومًا على الجامع الأزهر بالقاهرة، وهو راكب بخف ومهماز وبقيار طرح سكندرى على رأسه، وبين يديه طرادون يبعدون الناس عنه، وخلفه عدة عبيد على أكاديش، وهو في تعاظم كبير. فوثب به طائفة من المسلمين، وأنزلوه عن فرسه، وهموا بقتله، فخلصه الناس من أيديهم.

وتحركت الناس في أمر النصارى وماجوا، وانتدب عدة من أهل الخير لذلك، وصاروا إلى الأمير طاز الشريف أبى العباس الصفراوي، وبلغوه ما عليه النصارى مما يوجبه نقض عهدهم، وانتدبوه لنصرة الإسلام والمسلمين. فانتفض الأمير طاز لذلك، وحدث الاصرين شيخو وصرغتمش وبقية الأمراء في ذلك بين يدي السلطان، فوافقوه جميعًا، وكان لهم يومئذ بالإسلام وأهله عناية. ورتبوا قصة على لسان المسلمين، قرئت بدار العدل على السلطان بحضرة الأمراء والقضاة وعامة أهل الدولة. فرسم بعقد مجلس للنظر في هذا الأمر، ليحمل النصارى واليهود على العهد الذي تقرر في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وطلب بطرك النصارى ورئيس اليهود، وحضرت قضاة القضاة وعلماء الشريعة، وأمراء الدولة، وجيء بالبطرك والرئيس، فوقفا على أرجلهما وقرأ العلائى على ابن فضل الله كاتب السر نسخة العهد الذي بيننا وبين أهل الذمة، بعد ما الزموا بإحضاره، وهو الا يحدثوا في البلاد الإسلامية وأعمالها ديرًا ولا كنيسة ولا صومعة، ولا يجددوا منها ما

خرب، ولا يمنعوا من كنائسهم التي عاهدوا عليها أن ينزل بها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونه. ولا يكتموا غشًا للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يمنعوهم من الإسلام إن أرادوا، وإن أسلم أحدهم لا يردوه. ولا يتشبهوا بشيء من ملابس المسلمين ويلبس النصراني منهم العمامة الزرقاء عشر أذرع فما دونها، واليهودي العمامة الصفراء كذلك، ويمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمين. ولا يتسموا بأسماء المسلمين، ولا يكتنوا بكناهم، ولا يتلقبوا بالقابهم، ولا يركبوا على سرج، ولا يتقلدوا سيفًا، ولا يركبوا الخيل والبغال، ويركبون الحمير عرضًا بالكف من غير تزيين ولا قيمة عظيمة لها. ولا ينقشوا خواتمهم بالعربية، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم، والمرأة من النصارى تلبس الإزار المصبوغ أزرق، والمرأة من اليهود تلبس الإزار المصبوغ بالأصفر. ولا يدخل أحد منهم الحمام الا بعلامة مميزة عن المسلم في عنقه، من نحاس أو حديد أو رصاص أو غير ذلك، ولا يستخدموا مسلمًا في أعمالهم. وتلبس المرأة السائرة خفين أحدهما أسود والآخر أبيض، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يرفعوا بناء قبورهم، ولا يعلوا على المسلمين على المسلمين في بناء، ولا يضربوا بالناقوس الا ضربًا خفيفًا، ولا يرفعوا أصواتهم في كنائسهم. ولا يشتروا من الرقيق مسلمًا ولا مسلمة، ولا ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا يمشوا وسط الطريق توسعة للمسلمين، ولا يفتنوا مسلمًا عن دينه، ولا يدلوا على عورات المسلمين. ومن زنى بمسلمة قتل، ومن خالف ذلك فقد حل منه ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

وكل من مات من اليهود والنصارى والسامرة، ذكرًا كان أو أنثى، يحتاط عليه ديوان المواريث الحشرية، بالديار المصرية وأعمالها وسائر الممالك الإسلامية، إلى أن يثبت ورثته ما يستحقونه بمقتضى الشرع الشريف. فإذا استحق يعطونه. بمقتضاه، وتحمل البقية لبيت مال المسلمين، ومن مات منهم ولا وارث له يحمل موجوده لبيت المال. ويجرى على موتاهم الحوطة من ديوان المواريث ووكلاء بيت المال مجرى من يموت من المسلمين، إلى أن تبين مواريثهم.

وكان هذا العهد قد كتب في رجب سنة سبعمائة في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون، فلما انتهى العلائى على بن فضل الله كاتب السر من قراءته تقلد بطرك النصارى وديان اليهود حكم ذلك، والتزما بما فيه، وأجابا بالسمع والطاعة.

ثم جال الحديث في أمر اليهود والنصارى وإعادة وقائعهم الماضية، وأنهم بعد التزامهم أحكام العهد يعودون إلى ما نهوا عنه. فاستقر الحال على أنهم يمنعون من

الخدم في جميع الأعمال، ولا يستخدم نصراني ولا يهودي في ديوان السلطان، ولا في شيء من دواوين الأمراء، ولو تلفظ بالإسلام، على أن أحدًا منهم لا يكره على الإسلام، فإن أسلم برضاه، لا يدخل منزله، ولا يجتمع بأهله، الا إن اتبعوه في الإسلام، ويلزم أحدهم إذا أسلم. بملازمة المساجد والجوامع. وأن تكون عمامة النصراني واليهودي عشر أذرع، ويلزموا بزيادة صبغها، والا يستخدموا مسلمًا، وأن يركبوا الحمير بالآكل، وإذا مروا بجماعة من المسلمين نزلوا عن دوابهم، وأن يكون قيمة حمار أحدهم أقل من مائة درهم، وأن يلجأوا إلى أضيق الطرق، ولا يكرموا في مجلس، وأن تلبس نساؤهم ثيابًا مغيرة الزي إذا مررن في الطرقات، حتى أخفافهن تكون في لونين، ولا يدخلن حمامات المسلمين مع المسلمات. وكتب بذلك كله مراسيم سلطانية سار بها البريد إلى البلاد الإسلامية، فكان تاريخها ثاني عشري جمادى الآخرة، وقرىء منها مرسوم. بمجلس السلطان في يوم الخميس خامس عشريه. وركب من الغد يوم الجمعة سادس عشريه الأمير سيف الدين قشتمر الحاجب، ومعه الشريف شهاب الدين المنشيء بالمراسيم السلطانية إلى البلاد الإسلامية.

وقرئ مرسوم بجامع عمرو من مدينة مصر، وآخر بجامع الأزهر من القاهرة، فكان يومًا عظيمًا هاجت فيه حفاظ المسلمين، وتحركت سواكنهم، لما في صدورهم من الحنق على النصارى، ونهضوا من ذلك المجلس بعد صلاة الجمعة، وثاروا باليهود والنصارى، وأمسكوهم من الطرقات، وتتبعوهم في المواضع وتناولوهم بالضرب، ومزقوا ما عليهم من الثياب، وأكرهوهم على الإسلام، فيضطرهم كثرة الضرب والإهانة إلى التلفظ بالشهادتين خوف الهلاك. فإنهم زادوا في الأمر حتى أضرموا النيران، وحملوا اليهود والنصارى، والقوهم فيها. فاختفوا في بيوتهم، حتى لم يوجد منهم أحد في طريق ولا ممر، وشربوا مياه الآبار لامتناع السقائين من حمل الماء من النيل اليهم.

فلما شنع الأمر نودي في القاهرة ومصر الا يعارض أحد من النصارى أو اليهود، فلم يرجعوا عنهم. وحل بهم من ذلك بلاء شديد، كان أعظمه نكاية لهم أنهم منعوا من الخدم بعد إسلامهم، فإنهم كانوا فيما مضى من وقائعهم إذا منعوا من ذلك كادوا المسلمين لإظهار الإسلام، ثم بالغوا في إيصال الأذي لهم بكل طريق، بحيث لم يبق مانع يمنعهم لأنه صار الواحد منهم فيما يظهر مسلمًا ويده مبسوطة في الأعمال، وأمره نافذ، وقوله ممتثل. فبطل ما كانوا يعملون، وتعطلوا عن الخدم في الديوان، وامتنع اليهود والنصارى من تعاطى صناعة الطب. وبدل الأقباط جهدهم في إبطال

ذلك، فلم يجابوا اليه.

ثم لم يكف الناس من النصارى ما مر بهم حتى تسلطوا على كنائسهم ومساكنهم الجليلة التي رفعوها على أبنية المسلمين، فهدموها. فازداد النصارى واليهود خوفًا على خوفهم، وبالغوا في الاختفاء، حتى لم يظهر منهم أحد في سوق ولا في غير. ثم وقعت قصص على لسان المسلمين بدار العدل تتضمن أن النصارى استجدوا في كنائسهم عمال، ووسعوا بناءها، وتجمع من الناس عدد لا ينحصر، واستغاثوا بالسلطان في نصرة الإسلام، وذلك في يوم الاثنين رابع عشر رجب. فرسم لهم أن يهدموا الكنائس المستجدة، فنزلوا يدًا واحدة وهم يضجون. وركب الأمير علاء الدين على بن الكوراني والى القاهرة ليكشف عن صحة ما ذكروه، فلم يتمهلوا بل هجموا على كنيسة بجوار قناطر السباع، وكنيسة للأسرى في طريق مصر، ونهبوهما وأخذوا ما فيهما من الأخشاب والرخام وغير ذلك، ووقع النهب في دير بناحية بولاق التكرور. وهجموا على كنائس مصر والقاهرة، وأخربوا كنيسة بحارة الفهادين من الجوانية بالقاهرة. وتجمعوا لتخريب كنيسة بالبندقانيين من القاهرة، فركب والي القاهرة، فركب والي القاهرة ومازال حتى ردهم عنها، وتمادى هذا الحال حتى عجزت الحكام عن كفهم.

فلما كان في أخريات رجب بلغ الأمير صرغتمش أن بناحية شبرا الخيام كنيسة فيها إصبع الشهيد التي ترمى كل سنة في النيل، فتحدث مع السلطان فيه. فرسم بركوب الحاجب والوالي إلى هذه الكنيسة وهدمها، فهدمت ونهبت حواصلها، وأخذ الصندوق الذي فيه أصبع الشهيد، وأحضر إلى السلطان وهو بالميدان الكبير قد أقام به كما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى. فأضرمت النار، وأحرق الصندوق. بما فيه، ثم ذرى رماده في البحر.

وكان يوم رمى هذا الأصبع في النيل من الأيام المشهودة، فإن النصارى كانوا يجتمعون من جميع الوجه البحري ومن القاهرة ومصر في ناحية شبرا، وتركب الناس المراكب في النيل، وتنصب الخيم التي يتجاوز عددها الحد في البر، وتنصب الأسواق العظيمة، ويباع من الخمر ما يودون به ما عليهم من الخراج، فيكون من المواسم القبيحة. وكان المظفر بيبرس قد أبطله كما ذكره، فأكذب الله النصارى في قولهم أن النيل لا يزيد ما لم يرم فيه أصبع الشهيد، وزاد تلك السنة حتى بلغ إلى أصبع من ثمانية عشر ذراعًا. ثم سعت الأقباط حتى أعيد رميه في الأيام الناصرية، كما تقدم، فأراح الله منه بإحراقه. وأخذ عباد الصليب في الإرجاف بأن النيل لا يزيد

في هذه السنة، فاظهر الله تعالى قدرته، وبين للناس كذبهم، بأن زاد النيل زيادة لم يعهد مثلها كما سيأتي ذكره.

وكثرت الأخبار من الوجه القبلي والوجه البحري بدخول النصارى في الإسلام، ومواظبتهم المساجد، وحفظهم للقرآن، حتى أن منهم من ثبتت عدالته وجلس مع الشهود. فإنه لم يبق في جميع أعمال مصر كلها قبليها وبحريها كنيسة حتى هدمت، وبنى مواضع كثير منها مساجد. فلما عظم البلاء على النصارى، وقلت أرزاقهم، رأوا أن يدخلوا في الإسلام. ففشا الإسلام في عامة نصارى أرض مصر، حتى أنه أسلم من مدينة قليوب خاصة في يوم واحد أربعمائة وخمسون نفرًا، وممن أسلم في هذه الحادثة الشمس القسى، والخيصم. وحمل كثير من الناس فعلهم هذا على أنه من جملة مكرهم، لكثرة ما شنع العامة في أمرهم، فكانت هذه الواقعة أيضًا من حوادث مصر العظيمة.

ومن حينئذ اختلطت الأنساب بأرض مصر، فنكح هؤلاء الذين أظهروا الإسلام بالأرياف المسلمات، واستولدوهن، ثم قدم أولادهم إلى القاهرة، وصار منهم قضاة وشهود وعلماء، ومن عرف سيرتهم في أنفسهم، وفيما ولوه من أمور المسلمين، تفطن لما لا يمكن التصريح به.

فلما كان في شهر رمضان خرج السلطان إلى ناحية سرياقوس على العادة، ومعه والدته وحريمه، وجميع الأمراء وغيرهم من أهل الدولة، وتأخر الأمير شيخو بإصطبله لوعك به. فكثر لهو السلطان ولعبه، وشغفه بالأمير جنتمر حتى أفرط، وجمع عليه الأمير قجا أمير شكار وأخوته.

ومال السلطان إلى جهة الأمير طاز وأعرض عن الأمير شيخو والأمير صرغتمش. وصار يركب النيل في الليل، ويستدعى أرباب الصنائع، من الطباخين والخراطين والقزازين، ونصب له نول قزازة، وعمل هذه الأعمال بيده، فكان إذا رأى صناعة من الصناعات عملها في أيسر زمن بيده. وعمل لخوند قطلوبك أمه مهما طبخ فيه الطعام بيده، وعمل لها جميع ما يعمل في الموكب السلطاني، ورتب لها الخدام والجواري، ما بين حمدارية وسقاة، ومنهم من حمل الغاشية والقبة والطريق وأركبها في الحوش بزي الملك وهيئة السلطنة. وخلع وأنفق، ووهب شيئًا كثيرًا من المال. ثم شد في وسطه فوطة، ووقف فطبخ الطعام في هذا المهم بنفسه، ومد السماط بين يديها بنفسه، فكان مهما يخرج عن الحد في كثرة المصروف، فأنكر ذلك الأمير شيخو، وكتم ما في نفسه. فلما عاد السلطان في آخر الشهر من سرياقوس

إلى القلعة، وقد بلغ شيخو أن السلطان قد اتفق مع إخوة طاز على أن يقبض عليه وعلى صرغتمش يوم العيد. وكان طاز قد توجه إلى البحيرة في هذه الأيام، بعد ما قرر مع السلطان ما ذكر، فركب السلطان في يوم الأحد أول شوال لصلاة العيد في الإصطبل على العادة، وقرر مع كلتاي وجنتمر واصر عمر ما يفعلونه، وأمر بمائة فرس فشدت وأوقفت، فلم يحضر شيخو صلاة العيد، وكان قد بلغه جميع ما تقرر، فباتوا ليلة الاثنين على حذر، وأصبحوا وقد اجتمع مع الأمير شيخو من الأمراء صرغمتش وطقطاى ومن يلوذ بهم، وركبوا إلى تحت الطبلخاناه، ورسموا للاصر علمًا بضرب الكوسات، فضربت حربيًا. فركب جميع العسكر تحت القلعة بالسلاح وصعد الأمير تنكربغا والأمير أسنبغا المحمودي إلى القلعة، وقبضا على السلطان وسجناه مقيدًا، فزال ملكه في أقل من ساعة وصعد الأمير شيخو ومن معه من الأمراء إلى القلعة، وأقامت أطلابهم على حالها تحت القلعة. وقبض الأمير شيخو على إخوة الأمير طاز، واستشار فيمن يقيمه للسسلطة، وصرح هو ومن معه بخلع الملك الصالح صالح، فكانت مدة سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، فسبحان من لا يزول ملكه.

السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الالفي ولما قبض على الملك الصالح وخلع اقتضى رأى الأمير شيخو - وسائر الأمراء - إعادة السلطان حسن، لما كان يبلغهم عنه من ملازمته في مدة حبسه للصلوات الخمس والإقبال على الاشتغال بالعلم حتى إنه كتب بخطه كتاب دلائل النبوة للبيهقي.

فاستدعوا الخليفة وقضاة القضاة، وأحضروا السلطان من محبسه، وأركبوه بشعار المملكة، ومشى الأمراء كلهم، وسائر أرباب الدولة في ركابه، حتى جلس على تخت الملك، وبايعه الخليفة، فقبلوا له الأرض على العادة، وذلك في يوم الاثنين ثاني شهر شوال. وبات الأمراء في الأشرفية من القلعة. وأرسل الأمير صرغتمش، والأمير تقطاى الدوادار، إلى الأمير طاز ليخبراه. مما وقع، فصارا اليه، ولقياه بالطرانة، وقد رجع. وبلغه الخبر، فعرفاه ما كان في غيبته، وأقبلا معه إلى حيث أرادا تعدية النيل، فأرسل الله ريحًا عاصفًا منعت المعادى من المسير. فأقاموا على الشط - والريح قوية - إلى بعد العصر، ثم عدوا إلى مدينة مصر.

ونزل الأمير طاز بالمدرسة المعزية ليفطر، فإنه كان صائمًا. وبلغ إخوته ومن يلوذ به مجيئه، فأخذوا في تدبير أمورهم، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا، لاحتراز الأمير شيخو منهم، والتوكيل بهم. الا أن الأمير كلتا ركب في عدة من مماليكه - ومماليك

أخيه الأمير طاز - يريد ملتقاه، فأنكر شيخو ذلك.

واتفق أن مماليكه ظفروا بمملوكين من أصحاب كلتا لابسين، وأحضروهما إلى شيخو. فركب الأمير بلجك في عدة من مماليكه، والتقاه بعد العصر عند باب اصطبل طاز، فلم يطق محاربته. لكثرة جمعه، فرجع، فرموه بالنشاب وساروا إلى لقاء طاز. وبعث الأمير شيخو. بمماليك كل من الاصرين صرغتمش وتقطاى ليلتقوهما، فجدوا في المسير حتى لقوهما عند الرصد بعد المغرب، وهما مع الأمير طاز. فما هو الا أن أتت أطلاب الاصرين، رفس كل منهما فرسه، ودكس من جانب طاز، وصار في طلبه بين مماليكه، فإنهما كانا لما رأيا مماليك كلتا قد أقبلوا إلى لقاء طاز وهم ملبسين، خافا على أنفسهما. وفي الحال وقعت الضجة ولم يبق الا وقوع الحرب. فتفرقت مماليك طاز عنه لقلة عددهم، فإن الأطلاب صارت تتلاحق من قبل الأمير شيخو شيئًا بعد شيء، فطلب طاز أيضًا نجاة نفسه وولى بفرسه، فلم يعرف أين يذهب. وأقبلت الأمراء إلى الأمير شيخو، فأركب الأمير قطلوبغا الطرخانى في جماعة من الأمراء لحراسة الطرقات، فتفرقوا في عدة جهات، وبات بقية الأمراء في الأشرفية من القلعة، ووقفت عدة وافرة تحت القلعة.

وبات السلطات والأمير شيخو على باب الإصطبل، فكانوا طول ليلتهم في أمر مريج وظلوا يوم الخميس وليلة الجمعة كذلك. ففي أثناء ليلة الجمعة حضر الأمير تقطاى الدوادار - وصحبته الأمير طاز - إلى عند الأمير شيخو. وكان طاز قد التجأ إلى بيت تقطاى، فإن أخت طاز كانت تحته، فقام اليه الأمير شيخو وعانقه، وبكى بكاء كثيرًا، وتعاتبا، وأقام عنده ليلته تلك. وركب به يوم الجمعة إلى القلعة، فأقبل عليه السلطان، وطيب خاطره، ورسم له بنيابة حلب، عوضًا عن الأمير أرغون الكاملى. فلبس طاز التشريف في يوم السبت سابعه، وسار من يومه ومعه الأمير شيخو وصرغتمش، وجميع الأمراء لوداعه، فسال أن تكون إخوته صحبته، فأجيب إلى ذلك، وأخرجوا اليه، بحيث لم يتأخر عنه أحد من حاشيته، وعاد الأمراء، ومضى لمحل نيابته. وسجن الملك الصالح صالح حيث كان أخوه الملك الناصر حسن مسجونًا.

ومن غريب ما وقع - مما فيه أعظم معتبر - أنه عمل الطعام للسلطان الملك الصالح ليمد بين يديه على العادة، وعمل الطعام للناصر حسن ليأكله في محبسه، فاتفق خلع الصالح في أق من ساعة وسجنه، وولاية أخيه حسن السلطنة عوضه، فمد السماط بالطعام الذي عمل ليأكله الصالح، فأكله حسن في دست مملكته، وأدخل الطعام - الذي عمل لحسن ليأكله في محبسه - على الصالح، فأكله في السجن الذي كان أخوه حسن فيه. فسبحان محيل الأحوال، لا اله الا هو.

* * *

سنة ست وخمسين وسبعمائة

وقدم الخبر بهجوم الفرنج على طرابلس الغرب، وأخذها، وقتل عامة أهلها. فلما بلغ ذلك أبو عنان فارس بن أبى الحسن علي بن يعقوب - متملك فاس - اشتراها من الفرنج. بمال كبير وعمرها.

* * *

سنة سبع وخمسين وسبعمائة

فيها ولى أويس بن الشيخ حسن بن أقبغا بن أيلك السطان بغداد بعد موت أبيه.

وهجم على طرابلس الشام الفرنج في عدة شوانى، وأفسدوا ثم عادوا.

واستولى الفرنج على صيدا، وقتلوا وأسروا، وقتل منهم أيضًا جماعة وعادوا.

* * *

سنة ثمان وخسمين وسبعمائة

وفي شعبان: قدم رسل السلطان جانبك بن أزبك، فركب العسكر من الأمراء والمماليك والمقدمين وأجناد الحلقة إلى لقائهم بالزي الفاخر. وتمثلوا بين يدي السلطان، وقدموا معهم من الهدية، وهي عدة مماليك، وفرو سمور، وطيور جوارح. فكتب جوابهم وأعيدوا.

ولما مات شيخو قبض السلطان على الأمير خليل بن قوصون، وغيره من أتباع شيخو، فيهم الأمير قجا السلاح دار أمير شكار، والأمير تقطاى الدوادار، والأمير قطلوبغا الذهبي، وأرغون الطرخاني، فنفي بعضهم إلى الشام، وسجن بعضهم بالإسكندرية، وانفرد الأمير صرغتمش بتدبير الدولة.

* * *

سنة تسع وخمسين وسبعمائة

وفي يوم سار البريد بالقبض على الأمير طاز نائب حلب، فبلغ الخبر طاز، فسار من حلب في أصحابه كأنه يريد الحرب. وأخذ السلطان في تجهيز العساكر لقتاله، فلما قارب دمشق، أرسل إلى الأمير على النائب بأنه مملوك السلطان وفي طاعته، وما قصدت إلا أن يصل أهلي إلى دمشق في سلامة من نهب العربان والتراكمين. وسلم نفسه، فقبض نائب الشام على حاشيته وجهز سيوفهم إلى السلطان على العادة، وحمل طاز مقيدًا إلى الكرك فبطلت تجريدة العساكر، ورسم بنقل طاز إلى الإسكندرية. وكتب باستقرار الأمير منجك في نيابة حلب، عوضًا عن طاز.

* * *

سنة ستين وسبعمائة

في الأربعاء ثالث المحرم: قدم أمير على إلى دمشق وقد أعيد إلى نيابتها، وعزل الأمير مَنجَك عنها، وطلب إلى مصر، ففر من غزة ولم يُقف على خبره، فعوقب بسببه عدة من الناس.

واستقر الأمير سيف الدين بكتمر المؤمني في نيابة حلب، ثم صرف عنها، واستقر عوضه الأمير سيف الدين بيدمر الخوارزمي.

وصرف أمير على عن نيابة الشام، واستقر عوضه الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر الزيني. وانتهت زيادة ماء النيل إلى أربع أصابع من عشرين ذراعًا، وثبت إلى أول شهر هاتور، فخرج الناس ودعوا حتى هبط، فكثرت الأمراض ببلاد الصعيد.

وفي شهر رجب: سارت الحجاج الرجبية من القاهرة، وسافر فيهم قاضي القضاة عز الدين بن جماعة، وقاضي القضاة موفق الدين الحنبلي، وقطب الدين الهرماس. وكان الشريف عجلان قد قدم من مكة، فعزله السلطان عن إمارتها وولى عوضه الشريفان محمد بن عُطفة وسند بن رُمَيثة، وقواهما بالأمير جرَكتمُر الحاجب والأمير قطلوبغا المنصوري، وناصر الدين أحمد بن أصلم، ليقيموا بمكة، حتى يأتيهم البدل من مصر.

* * *

سنة إحدى وستين وسبعمائة

وفيه سار الأمير بيدمر نائب حلب بالعساكر إلى بلاد سيس، ففتح أذنة وطرسوس والمصيصة وعدة قلاع، وأقام بأذنة وطرسوس نائبين بعسكر معهما، وعاد بالغنائم إلى حلب، فنقل في شهر ربيع الأول إلى نيابة دمشق عوضًا عن أسندمر الزيني.

واستقر الأمير شهاب الدين أحمد بن القشتمري في نيابة حلب.

وكان النيل في هذه السنة مما يتعجب منه، فإن القاع جاء نحو اثنتي عشرة ذراعًا. وكان الوفاء يوم الخميس، وهو سادس مسرى، فكسر سد الخليج من الغد يوم الجمعة، ونودي عليه تسعة أصابع من عشرين ذراعًا. ثم بطل النداء عليه فبلغ نحو أربعة وعشرين ذراعًا، وخربت عدة مساكن، واستمر ثابتًا إلى خامس بابة، فخرج الناس من الغد، ودعوا الله، فهبط من يومه أربعة أصابع.

وسارت الحجاج الرجبية على العادة. وتوجه الأمير قُنْدش بدلاً من الأمير جركتمر. ورسم بتوجه جركتمر إلى الشام بعد الحج، وقد قطع خبزه. وكان الشريف ثقبة فيما مضى مقيمًا بجدة، فلما خرج جركتمر من مكة بعد قضاء الحج، هجم ثقبة عليها، وأخذ خيول قُندسُ ومن معه، وحصرهم في المسجد، فأغلقوا عليهم أبوابه، وقاتلوا من أعلاه بالنشاب، فقتل الشريف مغامس، وانهزم قُندسُ بأصحابه، فقتل منهم وأسر جماعة، نودي عليهم. بمكة للبيع، فبيعوا بأبخس الأثمان. وأخذ قندس، فعذب عذابًا أشفى منه على الموت. ثم نودي عليه، وأبيع بدرهمين، فشفع إليه تقي الدين محمد بن أحمد ابن قاسم الحرازي قاضي مكة، حتى أخرج من مكة ومعه جميع الأتراك. وقد اقترض ما يبلغه إلى ينبع. وفر أيضًا الشريف محمد بن عُطيفة إلى ينبع، والتجأ الشريف سند بن رميثة إلى الشريف ثقبة وصار من جملته. فلما قدم الحاج من المدينة النبوية إلى ينبع، وجدوا بها الأمير قُنْدُس ومن بقي من المجردين ومحمد بن عُطَيْفَة، فساروا مع الحاج إلى القاهرة.

* * *

سنة اثنتين وستين وسبعمائة

أهلت والأمراض بالباردة فاشية في الناس، وقد ساءت أحوالهم لطول مدة أمراضهم. وفيها قدم الأمير بيدمر نائب الشام، ومعه الأمير جركتمر المارديني المجرد بالحجاز، وقد قبض عليه وعلى الأمير قطلوبغا المنصوري، وقدم الأمير منجك، وتمثل بين يدي السلطان.

وفي يوم السبت سادس ربيع الآخر: سقطت إحدى منارتي مدرسة السلطان حسن، فهلك تحتها نحو ثلاثمائة من الأطفال الأيتام الذين كانوا بمكتب السبيل، وغير الأيتام، فتشاءم الناس بذلك، وتطيروا به لزوال السلطان، فكان كذلك، وزال ملكه في ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى وذلك أنه بلغه وهو بمنزله بكوم برا أن الأمير يلبغا الخاصكي يريد قتله، وأنه لا يدخل إلى الخدمة إلا وهو لابس آلة الحرب من تحت ثيابه فاستدعى به، وهو مع حريمه في خلوة، وأمر فنزعت عنه ثيابه كلها، ثم كتفت يداه، فشفعت فيه إحدى حظايا السلطان، حتى خلى عنه وخلع عليه، واعتذر إليه بأنه بلغه عنه أنه لا يدخل إلا بالسلاح مخفي في ثيابه. فخرج إلى مخيمه وقد اشتد حنقه، فلم يمض سوى ثلاثة أيام وبلغ السلطان أن يلبغا قد خامر وأظهر العصيان، وألبس مماليكه آلة الحرب، فبادر للركوب في طائفة من مماليكه ليكبسه على بغتة، ويأخذه من مخيمه، فسبق ذلك إلى يلبغا من الطواشي بشير الجمدار، وقيل بل من الحظة التي شفعت فيه. فركب بمماليكه من فوره بالسلاح، يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى بعد العصر، ولقى السلطان وهو سائر إليه، وتوافقا حتى غربت الشمس، فحمل يلبغا. بمن معه يريد السلطان فانهزم من غير قتال، ومعه الأمير عز الدين أيدمر الدوادار، فتفرقت مماليكه في كل جهة، وتمادى السلطان في هزيمته إلى شاطئ النيل، وركب هو وأيدمر فقط في بعض المراكب، وترك ركوب الحراقة السلطانية، وصعد قلعة الجبل، وألبس من بها من المماليك، فلم يجد في الإصطبل خيولاً لهم، فإنها كانت مرتبطة على البرسيم لتربع على العادة، فاضطرب ونزل من القلعة ومعه أَيْدَمُر وقد تنكرا ليسيرا إلى الشام فعرفهما بعض المماليك، فأنكر حالهما، وأخذهما ومضى بهما إلى بيت الأمير شرف الدين موسى بن المازْكَشي، فأواهما.

هذا، وقد مضى يلبغا وقت هزيمة السلطان في إثره فلم يظفر به، فركب الحراقة ومنع أن يعدى مركب بأحد من المماليك السلطانية إلى بر مصر، وعدى بَأصحابه في الليل إلى البر، فلقيه الأمير ناصر الدين محمد بن المحسني والأمير قشتمر

المنصوري في عدة وافرة، فحاربهما وهزمهما، وتقدم فهزم طائفة بعد طائفة. ثم وجد الأمير أسنبغا ابن البوبكري في عدة وافرة فقاتله قريبًا من قنطرة قديدار، قتالاً كبيرًا، جرح فيه أسنبغا وانهزم من كان معه. ومضى يلبغا حتى وقف تحت القلعة، فبلغه نزول السلطان وأَيْدَمُر منكسرين. وبينما هو مفكر فيما يفعله، إذ أتاه قاصد ابن الأزْكَشي وأخبره بأن السلطان وأيْدَمر عنده، فسار بعسكره إلى بيت ابن الأزْكَشي بالحسينية، وأحاط به، وأخذ السلطان والأمير أيْدَمُر ومضى بهما إلى داره، قرب جبل الكبش فحبسهما بها، ووكل بهما من يثق به. ثم عاد إلى القلعة وقد امتنع بها طائفة من مماليك السلطان، ورموه بالنشاب، فأعلمهم بأنه قد قبض على السلطان وسجنه في داره، فانحلت عزائمهم، وفتحوا باب القلعة، فصعد يلبغا ومن معه إليها وملكها وأقام في السلطنة محمد بن المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون. ولم يوقف للسلطان حسن على خبر، فقيل إنه عاقبه عقوبة شديدة حتى مات ودفنه في مصبطة كان يركب عليها من داره بالكبش. وقيل دفنه بكيمان مضر وأخفي قبره، فكان عمره دون الثلاثين سنة، منها مدة سلطنته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام. وترك عشرة أولاد ذكور، وهم أحمد وقاسم وعلي وإسكندر وشعبان وإسماعيل ويحيى وموسى ويوسف ومحمد، وست بنات. وكان من خيار ملوك الأتراك. أخبرني ثقتان من الناس أنهما سمعاه يحلف بالأيمان الحرجة، أنه ما شرب خمرًا ولا لاط منذ كان، إلا أنه شغف بنسائه وجواريه شغفًا زائدًا، واشتهر في أمرهن، وأفرط في الإقبال عليهن، مع القيام بتدبير ملكه. وعزم على قطع دابر الأقباط والأتراك المماليك، فولى عدة وظائف كانت بيد الأقباط لجماعة من الفقهاء، منها وظيفة نظر الجيش ونظر بيت المال. وجعل عشرة من أولاد الناس أمراء ألوف، وهم ولداه أحمد وقاسم وأسنبغا بن البوبكري، وعمر بن أرغون النائب، ومحمد بن طرغاي ومحمد ابن بهادر آص، ومحمد بن المحسني، وموسى بن أرقطاي، وأحمد بن آل ملك، وموسى ابن الأزكشي. وأنعم على عدة منهم بإمريات طبلخاناه وعشرات. وولى ابن القَشْتَمُري نيابة حلب، وابن صُبْح نيابة صفد. وقد وافق أباه في عدة أمور في اللقب الخاص بالملوك، فكلاهما لقب بالملك الناصر. وفي أنه خلع ثم أعيد كل منهما إلى السلطنة بعد الخلع، كان ذلك في ثاني شوال. وما منهما إلا من وزر له مُتعمم وصاحب سيف. وأقام مدة بغير وزير ولا نائب، وبنى المدرسة التي لم يبن في ممالك الإسلام بيت لله مثلها في العظم والجلالة والضخامة.

* * *

السلطان صلاح الدين محمد

السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون أقامه الأمير يلبغا في السلطنة. وذلك أنه لما قبض على السلطان حسن، وصعد إلى القلعة ومعه الأمير طيبغا الطويل أمير سلاح، والأمير مَلَكتمُر المارديني رأس نوبة الجمدارية، والأمير أشَقتمر أمير مجلس، في بقية الأمراء اشتوروا فيمن يقام في السلطة، فذكر بعضهم الأمير حسين بن محمد ابن قلاوون، وهو آخر من بقى من أولاد الملك الناصر محمد لصلبه، فلم يرضوه خشية من أن يستبد بالأمير دونهم ثم لا يبقى منهم أحدًا. وذكر الأمير أحمد بن السلطان حسن فرأوا أن تقديمه - وقد عُمل بأبيه ما عُمل - سوء تدبير فإن الحال يلجئه لأن يأخذ بثأر أبيه، فأعرضوا عنه.

ووقع الطارق على محمد بن المظفر حاجى، فاستدعى الخليفة وقضاة القضاة، وأحضر ابن المظفر وعمره نحو أربع عشرة سنة، ففوض الخليفة إليه أمور الرعية، وركب والكافة بين يديه من باب الدار إلى الإيوان، حتى جلس على تخت الملك، وحلف له الأمراء على العادة، وهو لابس الثوب الخليفتي، وذلك في يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى، ولقب بالملك المنصور صلاح الدين. وهو أول من تسلطن من أولاد أولاد الملك الناصر محمد، فقام الأمير يلبغا بتدبير الدولة، ولم يبق للمنصور سوى الاسم. واستقر الأمير طيبغا الطويل على عادته أمير سلاح، والأمير قطلُوبغا الأحمدي رأس نوبة كبير، والأمير مَلَكتمُر المارديني رأس نوبة الجمدارية، والأمير أشَقتمُر أمير مجلس، والأمير أرغون الأشعردي دوادارا، والأمير ألجاى اليوسفي حاجب الحجاب، والأمير قشتمر المنصوري نائب السلطنة.

ودقت البشائر، ونودي بالقاهرة ومصر بسلطنة الملك المنصور، وكتب إلى الأعمال بذلك، فسارت البريدية.

فركب السلطان بعساكره صبح يوم الاثنين تاسع عشرين شهر رمضان، ودخل إلى دمشق وقبض على الأمير بيدمر والأمير منجك والأمير أسَندَمُر، وقيدوا، فأنكر ذلك جمال الدين يوسف بن محمد المرداوي الحنبلي قاضي دمشق، وصار إلى الأمير يَلبُغا، وقال له: لم يقع الصلح على هذا فاعتذر بأنه ما قصد إلا إقامة حرمة السلطان، ووعد بالإفراج عنهم. فلما انصرف بعث بهم إلى الإسكندرية، فسجنوا بها. وصعد السلطان إلى قلعة دمشق، وسكنها.

واستبد الأمير يَلْبُغا بتدبير الأمور في الشام، على عادته في مصر. واستقر الأمير علاء الدين أمير على نائب الشام عوضًا عن الأمير بَيْدَمُر، واستقر الأمير قطْلُوبُغا الأحمدي رأس نوبة في نيابة حلب عوضًا عن الأمير أحمد بن القشتمري.

* * *

سنة ثلاث وستين وسبعمائة

وفيها استدعى أبو عبد الله محمد بن الخليفة المعتضد بالله أبي بكر، في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى، إلى قلعة الجبل، وجلس مع السلطان بالقصر، وقد حضر الأمراء فأقيم في الخلافة بعد وفاة أبيه، ولقب بالمتوكل على الله، وخلع عليه، وفوض له نظر المشهد النفيسي. ليستعين بما يحمل إليه من النذور على حاله، وركب إلى منزله، فهنأه الناس بالخلافة.

وفيها اشتد البرد ببلاد الشام، وجمدت المياه حتى ماء الفرات، ومر المسافرون عليه بأثقالهم، فرأوا منه منظرًا عجيبًا. وهذا الأمر لم يعهد في هذه الأعصار مثله.

ومات في هذه السنة الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح، واسمه أبو بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ابن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن أبي علي بن الحسن بن الخليفة الراشد بن المسترشد، في يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى ومدة خلافته عشرة أعوام. وحج سنة أربع وخمسين وسنة ستين. وكان يلثغ في حرف الكاف، وعهد إلى ابنه محمد قبل وفاته بقليل.

وتوفي السلطان أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان ابن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني صاحب فاس من بلاد المغرب. وكان من خبره أن أباه السلطان - أبا الحسن - أقامه أميرًا، فقدم هو وأخوه إلى غرناطة من الأندلس في العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين، فأقاما بها إلى أن مات أبو عنان في سنة تسع وخمسين، وأقيم بعده ابنه السعيد في الملك، فخرج أبو سالم من غرناطة ليلا، ولحق بأشبيلية وبها سلطان قشتالة فطرح نفسه عليه، فوعده ولم يف له، فاجتمع الناس على منصور بن سليمان ابن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، ونازل البلد الجديد، فخرج أبو سالم من إشبيلية بغير طائل، ومضى إلى

الإفرنس فانضم إليه طائفة وأخذ مدينة أصيلا وطنجة، فتلاحقت به جيوش منصور بن سليمان، وقد اختل أمره ففر. فسار أبو سالم بمن معه ودخل دار الإمارة، يوم الخميس النصف من شعبان، سنة تسع وخمسين، فلم يختلف عليه أحد إلى أن كانت هذه السنة ثار عليه ثقته ودعا إلى أخيه تاشفين. ففر الناس عنه، وخرج ليلاً فأخذ وذبح، فاضطربت الأمور من بعده. وكان وسيمًا بديئًا كثير الحياء مؤثرًا للجميل، له معرفة بالحساب والنجوم، ومحبة في الراحة.

* * *

سنة أربع وستين وسبعمائة

وقدم الخبر بوقوع الوباء بدمشق وغزة وحلب، وعامة بلاد الشام، فهلك فيه خلائق كثيرة جدًا وفي يوم الاثنين رابع عشر شعبان: اقتضى رأى الأمير يَلبغَا خلع السلطان فوافقه الأمراء على ذلك، فخلعوه من الغد لاختلال عقله، وسجنوه ببعض الدور السلطانية من القلعة، فكانت مدة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام، لم يكن له سوى الاسم فقط

* * *

السلطان زين الدين أبو المعالي

السلطان الملك الأشرف زين الدين أبو المعالي شعبان بن الأمجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ولي السلطنة وعمره عشر سنين، ولم يل أحد من بني قلاوون وَابوه لم يل السلطنة سواه. وكان من خبره أن الأمير يلبغا جمع الأمراء بقلعة الجبل كما تقدم، حتى اتفقوا على خلع السلطان المنصور. ثم بكروا في يوم الثلاثاء النصف من شعبان إلى القلعة وأحضروا الخليفة أبا عبد الله محمد المتوكل على الله وقضاة القضاة الأربع، وأعلموهم باختلال عقل المنصور وعدم أهليته للقيام بأمور المملكة، وأن الاتفاق وقع على خلعه فخلعوه، وأحضروا شعبان بن حسين وأفاضوا عليه خلعة السلطنة، ولقبوه بالملك الأشرف زين الدين أبي المعالي، وأركبوه بشعار السلطة، حتى جلس على تخت الملك وحلفوا له، وقبلوا الأرض على العادة. وكتب إلى الأعمال بذلك فسارت البرد في أقطار المملكة، وخلع على أرباب الوظائف.

وفي يوم الخميس ثالث عشرين رمضان: عزل قاضي القضاة موفق الدين الحنبلي نفسه من القضاء من أجل أن الأمير يَلبغَا استدعاه، فوافاه القاصد وهو نايم، فلم يتمهل عليه حتى ينتبه، بل أمر به فأيقظ وقد انزعج، فغضب لذلك، وعزل نفسه، وأبى أن يجيب القاصد أو يجتمع به، فشق ذلك على الأمير يَلبغَا. ومازال يرسل إليه ويترضاه حتى رضي. ثم استدعى في يوم الاثنين سابع عشرينه إلى مجلس السلطان، وخلع عليه وأعيد إلى وظيفة القضاء على عادته. واستقر الأمير مَنْكَلى بُغَا الشمسي في نيابة الشام، عوضًا عن الأمير قَشْتَمُر. واستقر الأمير أَشَقتمر المارديني في نيابة حلب، عوضًا عن الأمير سيف الدولة قطلوبغا الأحمدي بعد موته.

* * *

سنة خمس وستين وسبعمائة

وكثر الجراد بالشام حتى شنع، وأتلف الزروع، فغلت الأسعار حتى بلغت الغرارة القمح بدمشق مائة وثمانين درهمًا، ثم انحطت إلى مائة وعشرة دراهم، وفشت الطواعين والأمراض الحادة في الناس بدمشق. وفتح الأمير منكلى بغا الشمسي نائب الشام باب كيسان من مدينة دمشق بعد ما أقام مغلوقا زيادة على مائتي عام، منذ أيام الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وعقد عليه قبوا كبيرًا، ونصب له جسرًا يمر الناس عليه، وأنشأ هناك جامعًا.

وفيها برز مرسوم السلطان. بمنع الوكلاء الذين. بمجالس القضاة. بمصر والشام لكثرة خداعهم ومكرهم وتحذلقهم فى تنوع الشرور.

ومات فى شهاب الدين أحمد بن الجمال محمد بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد ابن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن أبى جرادة العقيلى الحلبى، المعروف بابن العديم الحنفى، نائب شيزر، عن بضع وستين سنة.

* * *

سنة ست وستين وسبعمائة

وفيها لخمس وعشرين من ذي القعدة قدم البريد من ناحية المشرق إلى دمشق بقماقم فيها ماء من عين هناك، من خاصيته أن يتبعه طير يسمى السمرمر، في قدر الزرزور ولونه، وفيه ريش أصفر، يأكل الجراد. فعلق بطارمة القلعة، وبمأذنة العروس وقبة النصر من الجامع الأموي، وكان الجراد قد كثر بأعمال دمشق، وأضر بمزارعها، فبعث الأمير منكلى بغا الشمسي نائب الشام لإحضار هذا الماء. فلما جيء به وعلق كثر السمرمر بدمشق، وأفنى ما كان الجراد هناك، حتى لم يبق منه شيئًا وأقامت قماقم الماء معلقة بتلك الأماكن إلى أن جف ما فيها، والطير موجود.

* * *

سنة سبع وستين وسبعمائة

وفيه سرح السلطان على العادة إلى سرياقوس. وتوجه الأمير يلبغا الأتابك إلى بر الصيد بالعباسة فورد البر في يوم السبت رابع عشرينه. بمنازلة الفرنج الإسكندرية، وأنهم قدموا يوم الأربعاء حادي عشرينه. فسرح الطائر بذلك إلى الأمير يلبغا، فتوهم أن تكون هذه مكيدة يكاد بها، فبادر ودخل إلى داره خارج القاهرة، وتبعه السلطان، فصعد القلعة في يوم الأحد خامس عشرينه. فلما تحقق الأمير يلبغا الخبر، عدى النيل من ساعته إلى البر الغربي، وتلاحق به أصحابه، ونودي بالقاهرة: من تأخر من الأجناد غدًا حل دمه وماله فخرج الناس أفواجًا، وسار السلطان بعساكره إلى الطرانة، وقدم عسكرًا عليه الأمير قطلوبغا المنصوري والأمير كوكنداي، والأمير خليل بن قوصون ليدركوا أهل الثغر فقدر الله تعالى في ذلك أن أهل الثغر كان قد بلغهم منذ أشهر إهتمام الفرنج بغزوهم، فكتب بذلك الأمير صلاح الدين خليل بن عرام - متوفي الثغر - إلى السلطان والأمير يلبغا، فلم يكن من الدولة اهتمام بأمرهم. فلما توجه ابن عرام إلى الحج، واستناب عنه في الثغر الأمير جنغرا - أحد أمراء العشرات - وجاء أوان قدوم مراكب البنادقة من الفرنج لاح للناظور عدة قلاع في البحر. ثم قدم في عسكره يوم الأربعاء حادي عشرينه إلى الميناء، ثمانية أغربة، وتلاها من الأغربة والقراقر ما بلغت عدتها ما بين سبعين إلى ثمانين قطعة. فأغلق المسلمون أبواب المدينة، وركبوا الأسوار بآلة الحرب، وخرجت طائفة إلى ظاهر البلد، وباتوا يتحارسون. وخرجوا بكرة يوم الخميس يريدون لقاء العدو، فلم يتحرك الفرنج لهم طول يومهم، وليلة الجمعة. فقدم بكرة يوم الجمعة طوايف من عربان البحيرة وغيرهم، ومضوا جهة المنار، وقد نزل من الفرنج جماعة في الليل بخيولهم، وكمنوا في الترب التي بظاهر المدينة. فلما تكاثر جمع المسلمين من العربان، وأهل الثغر، عند المنار، برز لهم غراب إلى بحر السلسلة، حتى قارب السور، فقاتله المسلمون قتالاً شديدًا، قتل فيه عدة من الفرنج، واستشهد جماعة من المسلمين. وخرج إليهم أهل المدينة وصاروا فرقتين، فرقة مضت مع العربان، نحو المنار، وفرقة وقفت تقاتل الفرنج بالغراب. وخرجت الباعة والصبيان وصاروا في لهو، وليس لهم اكتراث بالعدو. فضرب الفرنج عند ذلك نفيرهم. فخرج الكمين وحملوا على المسلمين حملة منكرة. ورمى الفرنج من المراكب بالسهام، فانهزم المسلمون، وركب الفرنج أقفيتهم بالسيف. ونزل بقيتهم إلى البر فملكوه، بغير مانع

وقدموا مراكبهم إلى الأسوار، فاستشهد خلق كثير من المسلمين، وهلك منهم في الازدحام عند عبور باب المدينة جماعة، وخلت الأسوار من الحماة، فنصب الفرنج سلالم ووضعوا السور، وأخذوا نحو الصناعة، فحرقوا ما بها، وألقوا النار فيها، ومضوا إلى باب السدرة، وعلقوا الصليب عليه، فانحشر الناس إلى باب رشيد، وأحرقوه، ومروا منه على وجوهم، وتركوا المدينة مفتوحة بما فيها للفرنج، وأخذ الأمير جنغرا ما كان في بيت المال، وقاد معه خمسين تاجرًا من تجار الفرنج كانوا مسجونين عنده، ومضى هو وعامة الناس، إلى جهة دمنهور، فدخل وقت الضحى من يوم الجمعة، ملك قبرص - واسمه ربير بطرس بن ريوك - وشق المدينة وهو راكب، فاستلم الفرنج الناس بالسيف، ونهبوا ما وجدوه من صامت وناطق، وأسروا وسبوا خلائق كثيرة، وأحرقوا عدة أماكن، وهلك في الزحام، بباب رشيد، ما لا يقع عليه حصر، فأعلن الفرنج بدينهم، وانضم إليهم من كان بالثغر من النصارى، ودلوهم على دور الأغنياء، فأخذوا ما فيها، واستمروا كذلك، يقتلون، ويأسرون، ويسبون، وينهبون، ويحرقون، من ضحوة نهار الجمعة إلى بكر نهار الأحد، فرفعوا السيف، وخرجوا بالأسرى والغنائم إلى مراكبهم، وأقاموا بها إلى يوم الخميس ثامن عشرينه، ثم أقلعوا، ومعهم خمسة آلاف أسير، فكانت إقامتهم ثمانية أيام. وكانوا عدة طوائف، فكان فيهم من البنادقة أربعة وعشرون غرابًا، ومن الجنوية غرابين، ومن أهل رودس عشرة أغربة، والفرنسيس في خمسة أغربة، وبقية الأغربة من أهل قبرص. وكان مسيرهم، عند قدوم الأمير يلبغا بمن، معه، فلما قدم عليه الأمير قطلوبغا المنصوري، لم يجد معه سوى عشرين فارسًا، وعليه، إقامة مائة فارس، فغضب عليه، ووجد الأمر قد فات، فكتب بذلك إلى السلطان، فعاد إلى القلعة، وبعث بابن عرام، نائب الإسكندرية على عادته، بأمر الأمير يلبغا. بموارة من استشهد من المسلمين، ورم ما احترق، وغضب على جنغرا وهدده، وعاد فأخذ في التأهب لغزو الفرنج. وتتبعت النصارى، فقبض على جميع من بديار مصر، وبلاد الشام وغيرهما من الفرنج، وأحضر البطريق والنصارى، وألزموا بحمل أموالهم، لفكاك أسرى المسلمين من أيدي الفرنج، وكتب بذلك إلى البلاد الشامية، وتتبعت ديارات النصارى، التي بأعمال مصر كلها، وألزم سكانها بإظهار أموالهم وأوانيهم، وعوقبوا على ذلك. فكانت هذه الواقعة، من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالهم، وزالت نعمهم. وكأن الناس في القاهرة، منذ أعوام كثيرة، تجرى على ألسنتهم جميعًا: في يوم الجمعة تؤخذ الإسكندرية، فكان كذلك.

ومر بمن خرج من الإسكندرية في وقت الهزيمة، من العربان بلاء لا يوصف.

وقدم الخبر بكثرة فساد أولاد الكنز، وطائفة العكارمة بأسوان، وسواكن وأنهم منعوا التجار، وغيرهم من السفر، لقطعهم الطريق، وأخذهم أموال الناس. وأن أولاد الكنز قد غلبوا على ثغر أسوان، وصحرا عيذاب وبرية الواحات الداخلة.

وصاهروا ملوك النوبة، وأمراء العكارمة، واشتدت شوكتهم. ثم قدم ركن الدين كرنبس من أمراء النوبة، والحاج ياقوت ترجمان النوبة، وأرغون مملوك فارس الدين، برسالة متملك دمقلة، بأن ابن أخته خرج عن طاعته، واستنجد ببني جعد من العرب، وقصدوا دمقلة فاقتتلا قتالاً كثيرًا، قتل فيه الملك وانهزم أصحابه. ثم أقاموا عوضه في المملكة أخاه، وامتنعوا بقلعة الدو فيما بين دمقلة وأسوان. فأخذ ابن أخت المقتول دمقلة، وجلس على سرير المملكة، وعمل وليمة، جمع فيها أمراء بني جعد وكبارهم، وقد أعد لهم جماعة من ثقاته، ليفتكوا بهم، وأمر فأخليت الدور التي حوال دار مضيفهم، وملأها حطبًا. فلما أكلوا وشربوا، خرجت جماعة بأسلحتهم، وقاموا، على باب الدار، وأضرم آخرون النار في الحطب، فلما اشتعلت، بادر العربان بالخروج من الدار، فأوقع القوم بهم، وقتلوا منهم تسعة عشر أمير في عدة من أكابرهم. ثم ركب إلى عسكرهم، فقتل منهم مقتلة كبيرة، وانهزم باقوهم، فأخذ جميع ما كان معهم واستخرج ذخائر دمقلة وأموالها، وأخلاها من أهلها. ومضى إلى قلعة الدو، وسألا أن ينجدهما السلطان، على العرب، حتى يستردوا ملكهما، والتزم بحمل مال في كل سنة إلى مصر. فرسم بسفر الأمير أقتمر عبد الغني، حاجب الحجاب، ومعه، الأمير ألجاي أحد أمراء الألوف وعشرة أمراء عشرات، وثمانية أمراء طبلخاناه منهم أمير خليل بن قوصون، وأسندمر حرفوش الحاجب، ومنكوتمر الجاشنكير، ودقماق بن طغنجى، ويَكتمر شاد القصر، وأمير موسى بن قرمان، وأمير محمد بن سرطقطاى، في عدة من المماليك السلطانية، وأخذوا في تجهيزهم من سادس عشر شهر ربيع الأول. وساروا في رابع عشرينه، وهم نحو الثلاثة آلاف فارس، فأقاموا بمدينة قوص ستة أيام، واستدعوا أمراء أولاد الكنز من ثغر أسوان ورغبوهم في الطاعة، وخوفوهم عاقبة المعصية، وأمنوهم. ثم ساروا من قوص، فأتتهم أمراء الكنوز طائعين عند عقبة أدفو، فخلع عليهم الأمير أقتمر عبد الغني وبالغ في إكرامهم. ومضى بهم أسوان، فخيم بظاهره من البر الغربي، أربعة عشر يومًا، نقل ما كان مع العسكر في المراكب من الأسلحة وغيرها على البر، حتى قطعت الجنادل إلى قرية بلاق فأكمل نقل الأسلحة، والغلال، وغير ذلك، وطلعت المراكب

من الجنادل، وأصلح ما فسد منها في طلوعها من الجنادل، وصارت من وراء الجنادل، وشحنت بالأسلحة والغلال، وبقية الأزواد، والأمتعة، ومرت في النيل. وسارت العساكر، تريد النوبة، على محازاتها في البر، يومًا واحدًا، وإذا برسل متملك النوبة قد لاقتهم، وأخبروهم بأن العرب قد نازلوا الملك، وحصروه بقلعة الدوه فبادر الأمير أقتمر عبد الغني لانتقاء العسكر، وسار في طائفة منهم جريدة، وترك البقية مع الأثقال. وجد في سيره، حتى نزل بقلعة أبريم، وبات بها ليلته، وقد اجتمع بملك النوبة، وعرب العكارمة، وبقية أولاد الكنز، ووافاه بقية العسكر. فدبر مع ملك النوبة على أولاد الكنز، وأمراء العكارمة، وأمسكهم جميعًا. وركب متملك النوبة في الحال، ومعه طائفة من المماليك. ومضى في البر الشرقي إلى جزيرة ميكائيل، حيث إقامة العكارمة. وسار الأمير خليل بن قوصون في الجانب الغربي، ومعه طائفة، فأحاطوا جميعًا بجزيرة ميكائيل عند طلوع الشمس، وأسروا من بها من العكارمة، وقتلوا منهم عدة بالنشاب والنفط. وفر جماعة نجا بعضهم، وتعلق بالجبال وغرق أكثرهم. وساق بن قوصون النساء والأولاد، والأسرى والغنائم، إلى عند الأمير أقتمر، ففرق عدة من السبي في الأمراء، وأطلق عدة، وعين طائفة للسلطان. ووقع الاتفاق على أن يكون كرسي ملك النوبة بقلعة الدو، لخراب دمقلة، كما مر ذكره، ولأنه يخاف من عرب بني جعد أيضًا إن نزل الملك بدنقلة أن يأخذوه فكتب الأمير أقتمر عبد الغني محضرًا برضاء ملك النوبة بإقامته بقلعة الدو، واستغنائه عن النجدة، وأنه أذن للعسكر في العود إلى مصر. ثم ألبسه التشريف السلطاني، وأجلسه على سرير الملك بقلعة الدو، وأقام ابن أخته بقلعة أبريم. فلما تم ذلك جهز ملك النوبة هدية للسلطان، وهدية للأمير يَلْبُغا الأتابك، ما بين خيل، وهجن، ورقيق، وتحف. وعاد العسكر ومعهم أمراء الكنز، وأمراء العكارمة في الحديد. فأقاموا بأسوان سبعة أيام، ونودى فيها بالأمان والإنصاف من أولاد الكنز. فرفعت عليهم عدة مرافعات، فقبض على عدة من عبيدهم

ووسطوا. ورحل العسكر من أسوان، ومروا إلى القاهرة، فقدموا في ثاني شهر رجب، ومعهم الأسرى، فعرضوا على السلطان، وقيدوا إلى السجن، وخلع على الأمير عبد الغني، وقبلت الهدية. ا. ورحل العسكر من أسوان، ومروا إلى القاهرة، فقدموا في ثاني شهر رجب، ومعهم الأسرى، فعرضوا على السلطان، وقيدوا إلى السجن، وخلع على الأمير عبد الغني، وقبلت الهدية.

وفيها حدثت وحشة بين السلطان أويس متملك بغداد وتوريز، وبين نائبه ببغداد، خواجا مرجان، فعصى عليه مرجان، وخطب ببغداد للسلطان الملك الأشرف. وبعث

رسله بذلك، فقدموا في أوائل جمادى الأولى، ومعهم كتابه بأنه قد خلع أويس، وأقام الخطبة، وضرب السكة باسم السلطان الأشرف، وأخذ له البيعة على الناس ببغداد، وعزم على محاربة أويس وأنه نائب السلطان ببغداد، إن نصره الله عليه، وإن تكن الأخرى قدم إلى أبواب السلطان. فأكرمت رسله، وجهز له تشريف جليل وأعلام خليفتية وأعلام سلطانية، وكتب له تقليد بنيابة بغداد، وجهز أيضًا عدة خلع لأمرائه وأكابر دولته، وخلع على رسله، وأعيد.

* * *

سنة ثمان وستين وسبعمائة

في يوم الخميس ثالث المحرم: قدمت رسل الملك الأفضل عباس بن المجاهد صاحب اليمن بهدية سنية على العادة، وهم وزيره شرف الدين حسين بن علي الفارقي، وأمير أخوره ناصر الدين. فوقفوا بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم ثم أنزلوا في الميدان الكبير على شاطئ النيل، وقدموا هدية مرسلهم في يوم السبت خامسه. وفيها فرس ليس له، ذكر ولا أنثيين وإنما يبول من ثقب، فقبلت.

فلما كان يوم الأحد سابع شوال: بلغ الأمير أسندَمُر أن جماعة من الأمراء قد اتفقوا على الفتك به وبالأجلاب، وهم أعضاده وبهم يصول. فخرج ليلاً من داره إلى دار الأمير قجماس الطازي، وبذل له مالاً كبيرًا حتى استماله إليه. ثم فارقه، وفي ظنه أنه قد صار معه، ولم يكن كذلك. وعاد إلى منزله بالكبش واستدعى خواصه من اليلبغاوية، وقرر معهم أنه إذا ركب للحرب يقتل كل واحد منهم أميرًا، أو يقبض عليه، وبذل لهم مالاً كبيرًا حتى وافقوه، وما هو إلا أن خرج أسنَدمر من عند قجماس ليدبر ما قد ذكر مع الأجلاب. ركب قجماس إلى جماعة من الأمراء، وقرر معهم القبض على أسنَدمُر، فركبوا معه للحرب، ووقفوا تحت القلعة، فنزل السلطان في الحال إلى الإصطبل، ودقت الكوسات حربيًا.

وأما أسندمر فإنه بات هذه الليلة في إصطبله، حتى طلعت الشمس، ركب من الكبش بمن معه من اليلبغاوية وغيرهم، ومضى نحو القرافة، ومر من وراء القلعة، حتى وافاهم من تحت دار الضيافة، ووقف تحت الطلبخاناه فالتقى مع الأمراء، واقتتلوا فهزمهم بمن كان قد دبر معهم من اليلبغاوية في الليل قبض الأمراء أو قتلهم. وثبت الأمير ألجَاي اليوسفي والأمير أرغون ططر، وقاتلا أسندمر إلى قبيل الظهر،

فلما لم يجد معينًا ولا ناصرًا انكسرا إلى قبة النصر، وانفض الجمع بعد ما قتل الأمير ضروط الحاجب، وجرح الأمير قجماس والأمير أقبغا الجلب، وكثير من الأجناد والعامة، فقبض الأمير أَسَندَمر على الأمير قجماس، والأمير أقبغا الجلب والأمير أقطاي، والأمير قُطْلُوبغا جركس، وهؤلاء أمراء ألوف. وقبض من أمراء الطلبخاناه على قرابغا شاد الأحواش، واختفى كثير من الأمراء. ومرت مماليك أَسَندَمُر وطائفة من الأجلاب في خلق كثير من العامة، فنهبوا بيوت الأمراء، فكانت هذه الواقعة من أشنع حوادث مصر وأعظمها فسادًا.

* * *

سنة تسع وستين وسبعمائة

وفي أول صفر: ورد الخبر بوصول الفرنج إلى طرابلس، في ماية وثلاثين مركبًا، ما بين شيني وقرقورة وغراب وطريدة، وشختور، عليها متملك قبرص، ومتملك رودس، والاسبتار، وكان النائب غائبًا، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديدًا، حتى اقتحم العدو المدينة، ونهبوا من أسواقها، فتحامل المسلمون عليهم واشتدوا في قتالهم، حتى أخرجوهم بعد ما قتلوا منهم نحو الألف، واستشهد من المسلمين نحو الأربعين رجلاً. فركبوا سفنهم وانقلبوا خايبين، فمروا بمدينة إياس في ماية قطعة، فسار إليهم الأمير منكلى بغا نايب حلب، وقد فر أهل إياس منها، فدخلها الفرنج. فلما قدم نايب حلب جلوا عنها.

وفي يوم الجمعة سادسه: ركب المماليك الأجلاب اليلبغاوية لمحاربة الأمير أسنْدَمُر الناصري الأتابك، وطلبوه في أن يسلمهم بيرم وأزدمر أبو دقن، وجَرَكتمُر أمير مجلس في عدة أخرى. فلم يجد بدًا من أن يبعث إلى الأمراء، فلما أتوه قبض على الأمير جَرَكتمُر والأمير أزْدَمُر أبو دقن أمير سلاح، وإلأمير بيرم العزى الدوادار، والأمير يلبغا القوصوني أمير آخور، والأمير كَبَك الصرغتمُشي الجوكندار، وحملهم مقيدين إلى الإسكندرية. فلم يقنعهم ذلك، وباتوا بسلاحهم، وغدوا يوم السبت على حربهم، وطلبوا منه خليل بن قوصون، فسلمه إليهم، فافتدى نفسه منه بمائة ألف درهم، عجل منها ربعها، ورسموا عليه لقوم بباقيها، وأهانه إهانة بالغة، ونزعوا السلاح، وفي باطنهم غل كثير، ثم تجمع أكابرهم في ليلة الأحد واتفقوا على قتل الأمير أسنْدَمُر، وقتل السلطان، وإقامة سلطان غيره، وتحالفوا على ذلك، وركبوا من ليلتهم وقصدوا القلعة، فأمر السلطان بالكوسات، فدقت ليجتمع الأمراء والعسكر،

وأحضر الأمير خليل بن قوصون، وأركب معه المماليك السلطانية، وهم نحو المائتين، والأجلاب نحو الألف وخمسمائة، ونودي في القاهرة بركوب أجناد الحلقة، وحضور العامة لقتال الأجلاب. وكانت النفوس قد مقتتهم لقبح سيرتهم، وكثرة شرهم، وزيادة تعديهم.

فبادروا إلى تحت القلعة زمرًا زمرًا، وركب الأمير أسنبغا بن البوبكري، والأمير قشتَمر المنصوري وغيره، فتناولت العامة الأجلاب بالرجم من كل جهة، وتقدم إليهم المماليك السلطانية والأمراء والأجناد وقاتلوهم، فكسروهم. فمضوا في كسرتهم إلى الأمير أسَندَمر. بمنزله من الكبش، ومازالوا به حتى ركب معهم في موكب عظيم، ومر على القرافة، حتى أتى من وراء القلعة، كما فعل فيما تقدم، فلم تثبت له المماليك السلطانية، وانهزمت عند رؤيته، فثبتت العامة وحدها لقتاله، وتقدموا إليه ورموه بالحجارة رميًا متتابعًا، وهو ومن معه يرموهم بالنشاب، فكان بين الفريقين قتال شديد شنيع، قتل فيه جماعة منهما، وطالت المعركة بينهما، فعادت المماليك السلطانية والأمراء، وحملوا هم والعامة على أسندمر والأجلاب، حملة منكرة، فلم يثبت لهم، وولى الأدبار بمن معه، وامتنع بإصطبله من الكبش وفت الظهر، فقبض من أصحابه على الأمير قرمش الصرغتمشي والأمير أقبغا آص الشيخوني، والأمير أرسلان خجا، وسجنوا بخزانة شمايل من القاهرة.

وركب الوالي عن أمر السلطان، ونادى بالقاهرة ومصر وظواهرهما، من قدر على حد من الأجلاب فله سلبه، ويعطى كذا من المال إذا أحضره، فتتبعت العامة عند ذلك الأجلاب في الأزقة والحارات، وأخذوا منهم جماعة، وركب الأمير خليل بن قوصون إلى الأمير أسنَدمر، فأخذه من داره وطلع به إلى القلعة ليقيد ويسجن، فشفع فيه جماعة من الأمراء، وقرروا عليه مالاً لينفق في مماليك السلطان، فقبل السلطان شفاعتهم، وخلع عليه، وأقره على حاله، فنزل إلى داره في ليلة الاثنين، ومعه الأمير خليل بن قوصون مرسمًا عليه، حتى يحضر من الغد بالمال. فخدع أسندمر بن قوصون ووعده بأن يقيمه في السلطة، فإنه ابن بنت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فانخدع ابن قوصون ومال إليه وتحالفا على ذلك. فبعث أسندَمُر فجمع إليه الأجلاب، وبذل فيهم المال، ووعدهم ومناهم، فما طلع نهار يوم الاثنين حتى وكب أسندَمر وابن قوصون في جمع كبير، ووقفا تحت القلعة، فعادت الحرب وركب الأمراء والأجناد، وخرج عامة الناس، فكان الأمراء إذا رأوا ابن قوصون بجانب أسندمر انضموا إليه، ظنًا منهم أنه سلطاني. فأمر السلطان فدُقت الكوسات، ونزل إلى

الإصطبل بآلة الحرب، فاجتمع إليه الأمراء والمماليك السلطانية والعامة، وبعث إلى أسندَمُر وابن قوصون ليحضرا إليه، فامتنعا، وصرحا بأنهما يريدان نزع السلطان من الملك وإقامة غيره في السلطة لتخمد الفتنة. فلما عاد جوابهما إلى السلطان، بعث ثانيًا يخوفهما عاقبة الغدر، فأظهرا أنهما أجابا، وهمّا بالحضور، ثم سَلا سيفيهما، ومرا ليفتكا بالسلطان، وقد ركب ووقف تحت الإصطبل، فتبعهما من معهما من الأجلاب، وهم شاهرون السلاح، ليفعلا فعلهما. فبادر السلطان بالنداء في العامة هؤلاء مخامرون فارجموهم. فصاحت العامة بأجمعهما مخامرين ورجموهم بالحجارة، ورمتهم المماليك السلطانية بالنشاب، فلم يكن غير ساعة حتى انكسر أسندمُر وابن قوصون، وقتل عدة من الأجلاب، فأخذتهم العامة في هزيمتهم، وأتوا بهم إلى السلطان أرسالاً وقد نزعوا ثيابهم وكشفوا رؤوسهم، ونالوا منهم ما شفي صدورهم. ثم قبضوا على خليل ابن قوصون من ناحية المطرية، وأتوا به. ثم أخذوا أسندمر من نحو وادي السدرة تجاه قبة النصر. وقبض على الأمير ألطبغا اليلبغاوي، والأمير سلطان شاه بن قرا، وهما من أمراء الألوف. وقبض على أحد عشر أمير سوى هؤلاء من اليلبغاوية، وقيدوا، ومضى بهم الأمير مَلَكتمُر، والأمير ألطنبغا العلاي، والأمير درت بغا البالسي إلى الإسكندرية ومات في هذا اليوم الأمير قنق أحد الألوف.

ونودي في آخر النهار بالأمان، فلا ينهب أحد شيئًا، فقد ظفر السلطان بغرمائه، فزينوا القاهرة ومصر، فزينتا أحسن زينة، وفرح الناس بزوال دولة الأجلاب.

وفي ليلة الخميس تاسع عشره: أغرق السلطان في النيل جماعة من المماليك اليلبغاوية الذين اتفقوا على قتله، وأمر بتقوية زينة القاهرة ومصر، فبالغ الناس في تحسينهما.

وفي بكرة يوم الخميس: هذا سمر من الأجلاب اليلبغاويةماية من أعيانهم، ووسطهم، وأغرق جماعة منهم، ونفي باقيهم إلى الشام وإلى أسوان، فكان ممن نفي من اليلبغاوية برقوق وبركة، وألطنبغا الجوباني، وجركس الخليلي وأقبغا المارديني. تسلمهم الشريف بكتمر والي القاهرة، وأوقفهم في داره وقد جعلت أيديهم في الخشب، وحضر غداؤه فلم يطعمهم شيئًا. ورسم عليهم من توجه بهم إلى قطيا، فتسلمهم والي قطيا وبعث بهم إلى غزة، فأرسلهم نائبها إلى الكرك، فسجنوا بجب مظلم في قلعتها عدة سنين. ثم أفرج عنهم ومضوا إلى دمشق، فخدموا عند الأمير مَنْجَك نائب الشام حتى استدعى السلطان بالمماليك اليلبغاوية ليستخدمهم بديوان ولديه، فحضر برقوق

وبركة وغيرهما إلى القاهرة، وخدم برقوق فيمن خدم عند ولدي السلطان حتى قتل السلطان بعد عوده من عقبة أيلة وقام الأمير أَيْنبَك بأمر الدولة، فصار برقوق من جملة أمراء الطبلخاناه، ومنها ملك الإصطبل، وأقام به حتى تسلطن. كما سيأتي ذلك كله في أوقاته مبسطًا إن شاء الله تعالى.

* * *

سنة سبعين وسبعمائة

وولد للسلطان ولد سماه أحمد، فدقت البشائر ثلاثة أيام.

وفي يومه: ولى الأمير قَشْتَمُر المنصوري نيابة حلب عوضًا، عن أسنبغا بن البوبكرى. وقدم رسول متملك القسطنطينية، وصحبته بطريق الملكانية.

وفي يوم الجمعة ثالث عشرينه: تجمعت الغوغاء من زعر العامة بأراضي اللوق خارج القاهرة للشلاق، فقتل بينهم واحد منهم، فركب والي القاهرة الشريف بَكتمُر، وأركب معه الأمير علاى الدين على بن كَلَفت الحاجب، والأمير أقبغا اليوسفي الحاجب، وقصد المشالقين، ففروا منهم، وبقى من هناك من النظارة، فضرب عدة منهم بالمقارع. فتعصبت العامة، ووقفوا تحت القلعة في يوم الثلاثاء، وأصبحوا يوم الأربعاء ثامن عشرينه كذلك، وهم يستغيثون ويضجون بالشكوى من الوالي، فأجيبوا بأن السلطان يعزل عنكم هذا الوالي فأبوا إلا أن يسلمه إليهم هو والحاجبين. وكان الوالي قد ركب على عادته بكرة النهار يريد القلعة، فرجمته العامة حتى كاد يهلك فالتجأ منهم بالإصطبل، وظل نهاره فيه، والعامة وقوف تحت القلعة إلى قريب العصر، وكلما أمروا بأن يمضوا أبوا ولجوا، فركب إليهم الوالي في جمع موفور من مماليك الأمير بَكتمُر المومني، أمير آخور، ومن الأوجاقية، فثارت العامة ورجمتهم رجمًا متداركًا حتى كسروهم كسرة قبيحة، فركبت المماليك السلطانية، والأوجاقية وحملوا على العامة، وقتلوا منهم جماعة، وقبضوا على خلائق منهم، وركب الأمير ألجاي اليوسفي، وقسم الخطط والحارات على الأمراء والمماليك، وأمرهم بوضع السيف في الناس، فجرت خطوب شنيعة، قتل فيها خلائق ذهبت دماؤهم هدرًا، وأودعت السجون منهم طوائف، وامتدت أيدي الأجناد إلى العامة، حتى أنه كان الجندي يدخل إلى حانوت البياع من المتعيشين ويذبحه ويمضي. وحكى بعضهم أنه قتل بيده في هذه الواقعة من العامة سبعة عشر رجلاً.

وكانت ليلة الخميس تاسع عشرينه: من ليالي السوء، وأصبح الناس وقد بلغ السلطان الخبر، فشق عليه وأنكره، وقال للأمير بكتمر المومني عجلت بالأضحية على الناس وتوعده، فرجف فؤاده ونحب قلبه، وقام فلم يزل صاحب فراش حتى مات، وأمر السلطان بالإفراج عن المسجونين، ونودي بالأمان، وفتح الأسواق، ففتحت، وقد كان الناس قد أصبحوا على تخوف شديد لما مر بهم في الليل.

* * *

سنة إحدى وسبعين وسبعمائة

في أول المحرم: ورد قاصد الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير طاز، ومعه أربعة وعشرون من الفرنج، أسرهم من ناحية الطينة، وكان مجردًا بها.

وفي يوم الاثنين ثامن عشرينه: رسم بتسمير نصراني، اتهم أنه سحر خوند ابنة الأمير طاز وزوجة السلطان، فماتت بسحره، فسمر ووسط وأحرق بالنار.

وفيها ولد للسلطان ولد ذكر سماه رمضان، وزينت القاهرة لولادته، ودقت البشاير، وذلك في شهر رمضان.

* * *

سنة اثنتن وسبعين وسبعمائة

وفي أول صفر: قدمت رسل الفرنج لطلب الصلح، فحلفوا على ألا يغدروا ولا يحزنوا، وخلع عليهم، وسافروا ومعهم من يحلف ملكهم، وأخذت منهم رهائن بالقلعة.

وفيه بعث الفرنج من بقي من أسرى المسلمين ببلادهم، وتم الصلح، وفتحت كنيسة القمامة بالقدس.

وفي ثالث عشرين شهر رجب: سار ركب الحجاج الرحبية إلى مكة.

* * *

سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة

وفي يوم الخميس رابع عشر شهر رجب: دار محمل الحاج على العادة في كل سنة، فاستدعى صدر الدين محمد بن جمال الدين عبد الله بن علاء الدين علي التركماني قاضي العسكر، وخلع عليه، واستقر قاضي القضاة الحنفية، عوضًا عن السراج عمر الهندي. ونزل والمحمل والقضاة وغيرهم وقوف بالرميلة تحت القلعة، كما هي العادة، فوقف معهم ثم مضى في موكب المحمل حتى انقضى دورانه، فكان يومًا مشهودًا.

وفي هذا الشهر: ألزم الأشراف بأن يتميزوا بعلامة خضراء في عمائم الرجال وأزر النساء، فعملوا ذلك واستمر، وقال في ذلك الأديب شمس الدين محمد بن أحمد بن جابر الأندلسي:

جعلوا لأبناء الرسول علامة ::: إن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة في كريم وجوههم ::: يغني الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الأديب المنشئ زين الدين طاهر بن حبيب الحلبي:

ألا قل لمن يبغي ظهور سيادة ::: تملكها الزهر الكرام بنو الزهرا

لئن نصبوا للفخر أعلام خضرة ::: فكم رفعوا للمجد ألوية حمرا

* * *

سنة أربع وسبعين وسبعمائة

وفيها فشت الطواعين ببلاد الشام مدة ستة أشهر.

وفي الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة: ركب السلطان من قلعة الجبل إلى رباط الآثار النبوية، خارج مدينة مصر للزيارة، ثم توجه لعيادة أمه بالروضة، فأقام عندها على شاطئ النيل حتى عاد إلى القلعة في يوم الخميس ثامن عشره.

* * *

سنة خمس وسبعين وسبعمائة

في أول المحرم: خلع على الأمير علاء الدين علي بن كَلَفت، واستقر حاجبًا.

وكانت عادة الأمير ألجاي أنه يسكن الغور من القلعة، ويدخل إلى الأشرفية في كل يوم اثنين ويوم الخميس، وإليه أمور الدولة كلها، فلما ماتت زوجته خوند بركة أم السلطان انحطت منزلته، وتنكر ما بينه وبين السلطان، بسبب تركتها، وبلغه عن السلطان ما يكره، فامتنع في ليلة الثلاثاء سادسه من الطلوع للمبيت بالقلعة على عادته، واعتذر للسلطان عن ذلك، وأخذ في الاستعداد للحرب، وفرق السلاح في مماليكه، فألبس السلطان أيضًا مماليكه، وأمر بدق الكوسات حربيًا، فدقت بعد العشاء من ليلة الأربعاء فركب الأمراء بالسلاح إلى القلعة، وباتوا مع السلطان على حذر، حتى طلع نهار يوم الأربعاء، برز الأمير ألجاي من إصطبله في جمع موفور من مماليكه وأتباعه، شاكين في السلاح، حتى وقفوا تحت القلعة، وبعث ليمنع الأمراء أن يخرجوا من بيوتهم، فنزلت إليه المماليك السلطانية من باب السلسلة، وقد لقيتهم أطلاب الأمراء، واقتتلوا مع ألجاي قتالاً شديدًا، كانت فيه إحدى عشرة وقعة، قتل فيها من الفريقين، وجرح كثير منهم، فانهزم ألجاي يريد جهة الصليبة، فلقيه طلب الأمير طَشْتَمُر الدوادار، ومال معه عدة أطلاب على ألجاي، فمر على وجهه نحو باب القرافة، والطلب في أثره، حتى أتى بركة الحبش، ومر على الجبل المقطم، حتى خرج من جانب الجبل الأحمر خارج القاهرة، ونزل قريبًا من قبة النصر، وقد ضرب له مخيماه، واجتمع عليه عدة من أصحابه، وبات ليلة الخميس، فبعث السلطان يرغبه في الطاعة، فذكر أنه مملوك السلطان، ولم يخرج عن طاعته، وإنما يريد بعض الأمراء الخاصكية، أن يسلمهم إليه أو يبرزوا لمحاربته، فمن انتصر كان هو المشار إليه، وإلا فإنه لا يموت إلا على ظهر فرسه، فبعث إليه ثانيًا، يخوفه عاقبة البغي، ويعرض عليه أن يتخير من البلاد الشامية ما شاء، فلم يوافق، وترددت الرسل بينهما مرارًا، وبعث إليه بتشريف نيابة حماة، فقال: لا أتوجه لذلك إلا ومعي جميع مماليكي، وقماشي، وكل ما أملكه. فلم يرض السلطان بذلك، واستدعى بالأمير عز الدين أَيْنَبَك - وكان في جملة ألجاي - فأتاه طايعًا، والتزم أن يستميل من مع ألجاي من اليلبغاوية، وهم مائة مملوك، فوعده السلطان بإمرة طبلخاناه، وانصرف إلى تربة أستاذه الأمير يلبغا واختفى بها بقية نهاره، فلما أقبل الليل، بعث غلامه إلى اليلبغاوية، فما زال بهم حتى أتوه زمرًا زمرًا إلى التربة، فصعد بهم جميعًا إلى السلطان، فرتبهم

في خدمة ولده أمير علي، وتبعهم أكثر من كان مع ألجاي من الأمراء والمماليك، بحيث لم يطلع الفجر إلا ومعه دون الخمسمائة فارس. فتوج إلى قتاله الأمير أرغون شاه، في عدة وافرة، وخلائق من العامة. ومضى أيضًا الأمير منكلى بغا البلدي من طريق أخرى في جمع موفور وكثير من العامة. وسار الأمير ناصر الدين محمد بن شرف الدين، ومعه طائفة من المقاتلة، وطوائف من أهل الحسينية، وغيرهم من طريق ثالثة، فعندما رأى ألجاى أوائل القوم، تأخر عن موضعه قليلاً قليلاً، حتى صار الأمير أرغون في مكانه من قبة النصر، وانضم إليه الأمراء، ومن معهم، وبعث طائفة منهم فلقيت ألجاي وقاتلته، فانكسر منهم، وأخذ في الفرار، فركب القوم قفاه، وقد تأخر عنه من بقي معه، حتى وصل إلى الخرقانية من القليوبية في ثلاثة فرسان، وابن شرف الدين في طلبه، فوقف على شاطئ النيل ظاهر قليوب، واقتحمه بفرسه فغرقا في النيل، واستدعى ابن شرف الدين بالغطاسين فأخرجوه ووضعوه على بر ناحية شبرا، وحملوه في تابوت إلى القاهرة، في بكرة يوم الجمعة يوم تاسوعاء، فدفن بمدرسته من سويقة العزى قريبًا من القلعة، وكان الأمير أرغون قد عاد لما انهزم ألجاي وغرق، وعرف السلطان، فصعد إلى القلعة، وبقيت العساكر واقفة تحت القلعة يوم الخميس.

وقبض السلطان على الأمير طقتمر الحسني، والأمير صراي العلاى، وسلطان شاه بن قرا الحاجب، ونفاهم. وقبض على الأمير علاء الدين علي بن كلفت، وألزمه بحمل مال، وقبض على الأمير بيبغا القوصوني، والأمير خليل بن أقماري، ثم أفرج عنهما بشفاعة الأمير طشتمر الدوادار.

وفيه نودي من وجد مملوكًا من الألجيهية، وأحضره فله خلعة، وحذر من أخفاهم، فظهر السلطان منهم بعدة.

فلما دفن ألجاي، نزع الأمراء سلاحهم، وهنأوا السلطان بسلامته، وظفره بعدوه، ونودي بالأمان، وكتب إلى الأقطار بخير هذه الواقعة.

وفيه خرج على البريد الأمير بوري الأحمدي الخازن دار، لإحضار الأمير أيدمر الدوادار.

وفي يوم السبت عاشره: خلع على الأمير يعقوب شاه، واستقر نائب طرابلس، عوضًا عن الأمير أيدمر.

* * *

سنة ست وسبعين وسبعمائة

في أول المحرم: اتفق أمر غريب، قد وقع مثله فيما تقدم، وهو أن الأمير شرف الدين عيسى بن باب جك - والي الأشمونين - كان له ابنة، فلما أن تم لها من العمر خمس عشرة سنة، استد فرجها، وتدلى لها ذكر وأنثيان، واحتلمت كما يحتلم الرجال، واشتهر ذلك بالحسينية - حيث سكنه - وبالقاهرة، حتى بلغ منجك، فاستدعى بها، ووقف على حقيقة خبرها، فأمر بنزع ثياب النسوان عنها، وألبسها ثياب الرجال من الأجناد، وسماها محمدًا، وجعله من جملة مشاة خدمته، وأنعم عليه بإقطاع، فشاهده كل أحد.

وفي نصف جمادى الآخر: هذا ابتدأ الوباء في الناس في القاهرة ومصر، وكثر موت الفقراء والمساكين بالجوع، فكنت أسمع الفقير يصرخ بأعلى صوته: لله، لبابة قدر شحمة أذني، أشمها وخذوها فلا يزال كذلك حتى يموت هذا، وقد توقفت أحوال الناس من قلة المكاسب، لشدة الغلاء، وعدم وجود ما يقتات به، وشح الأغنياء وقلت رحمتهم، ومع ذلك فلم يزداد أجر العمال من البناة والفعلة والحمالين ونحوهم من أرباب الصنايع شيئًا، بل استقر على ما كانت عليه قبل الغلاء، فمن كان يكتسب في اليوم درهمًا يقوم بحاله ويفضل له منه شيء، صار الدرهم لا يجدي شيئًا، فمات ومات أمثاله من الأجراء والعمال والصناع والفلاحين والسؤال من الفقراء.

فلما فني معظم الفقراء، وخلت دور كثيرة خارج القاهرة ومصر لموت أهلها، فشت الأمراض من أخريات شهر رمضان في الأغنياء، ووقع الموت فيهم، فازداد سعر الأدوية، وبلغ الفروج خمسة وأربعين درهمًا، ثم فقدت الفراريج حتى خرج البريد في الأعمال بطلبها للسلطان، وبلغت الحبة الواحدة من السفرجل خمسين درهمًا، والحبة من الرمان الحامض عشرة دراهم، والرمانة الواحدة من الحلو بستة عشر درهمًا، والبطيخة الواحدة من البطيخ الصيفي تسعين درهمًا، وكل رطل منه بثلاثة دراهم، واشتد الأمر في شوال إلى الغاية.

* * *

سنة سبع وسبعين وسبعمائة

في ثالث المحرم: خلع على نجم الدين بن الشهيد موقع الدَست، واستقر كاتب السر بسيس.

وفي يوم الأحد تاسعه: ختن السلطان ولديه أمير علي وأمير حاجي، وعملت الأفراح مدة سبعة أيام ليلاً ونهارًا.

وقدمت رسل صاحب إصطنبول بهدية فيها صهرج محمل بحركات هندسية، فإذا مضت ساعة من الليل والنهار خرجت تماثيل بنى آدم، وضربت بصنوج في أيديها، وأنواع من آلات الملاهي معها، وإذا مضت درجة سقطت بندقة.

* * *

سنة ثمان وسبعين وسبعمائة

وفي مستهل شهر جمادى الأولى: رسم بإبطال ضمان المغاني، والأفراح بجميع أعمال مصر من أسوان إلى العريش، وكان قد أعاده وزراء السوء لكثرة ما يتحصل منه، فإن العرس ما كان يتهيأ حتى يغرم أهله للضامنة خمسمائة درهم فما فوقها، بحسب حال أهل العرس، ولا تقدر امرأة وإن جلت تنتقش إلا بإطلاق من الضامنة، ولا يضرب بدف في عرس أو ختان أو نحو ذلك إلا بإطلاق، وعلى كل إطلاق فريضة مال مقررة في الديوان، وكان على كل مغنية قطيعة تحملها إلى الضامنة، فإن باتت في غير بيتها قامت. بمال للضامنة، وتدور في كل ليلة على بيوت المغاني جماعة من جهة الضامنة لمعرفة من باتت منهن خارج بيتها، وكان على البغايا ضرائب مقررة؛ وأما في بلاد الصعيد والوجه البحري فإنه يفرد حارات للمغاني والبغايا تقوم كل واحدة منهن. بمال مقرر، فيكون هناك من التجاهر بالزنى وشرب الخمر ما يشنع ذكره، حتى لو مر غريب بتلك المواضع من غير أن يقصد الزنا لألزم بأن يأتي بغيا من تلك البغايا، ويكره على ذلك، أو يفتدى. بمال يدفعه إليها، حتى تقوم به مما عليها من الضريبة.

وأبطل السلطان أيضًا ما أعاده الوزراء من ضمان القراريط بأعمال مصر كلها، فكأن كل أحد من الناس - ولو جل - لا يقدر أن يشترى دارا حتى يؤخذ منه عن كل ألف درهم من ثمنها عشرين درهما، فماذا أدى ما عليه من ذلك طبع له على رق

طبع أحمر شبه دائرة، وعلم حولها مباشر هذا الديوان علاماتهم، فيشهد بعد ذلك العدول في هذا الرق بقضية التتابع، ومتى لم يكن هذا في الرق لا يقدر العدول، وإن جلوا عن كتابة المبايعة، خوفا من أن ينكل النكال بهم العظيم.

وفي هذا الشهر: كان تحويل مغل سنة سبع وتسعين لديوان السنين. وفيه كان الوفاء في خامس عشر مسرى، وبلغت زيادة النيل ثمانية أصابع من عشرين ذراعا، وثبت حتى خيف فوات الزرع، ثم هبط. وعزم الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص على إعادة ضمان المغاني، فغضب من ذلك قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة، وامتنع من الحكم، وحضور دار العدل، فاستدعاه السلطان وسأله عن امتناعه من الحكم، فقال: " بلغني أن ضمان المغاني أعيد وهذا يوجب الفسق ". فحلف له السلطان أنه ما أمر بإعادته، ولاعنده منه علم، وبعث إلى ابن آقبغا آص يعلمه بذلك، فاعتذر بعذر غير طائل، فرسم بإبطاله، وكتب بذلك تواقيع قرئت على الناس وسيرت إلى النواحي، فبطل ذلك ولم يعد، ولله الحمد، وتنكر السلطان على ابن آقبغا آص، وكان ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وفيه خرج البريد بطلب الأمير آقتمر عبد الغنى نايب صفد، فلما قدم أنعم عليه بتقدمة ألف، وأنعم على الأمير حاجي بن الأمير أيدغمش بإمرة بحلب، وأخرج إليها.

وفي أول جمادى الآخرة: خلع على الأمير ملكتمر من بركة، واستقر في نيابة الكرك، عوضا عن تمرباي الدمرداشي، ونقل تمرباي إلى نيابة صفد، عوضا عن آقتمر عبد الغنى، فدخل صفد في يوم الاثنين خامسه.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره: قبض على الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص الاستادار، وأحيط بموجوده. بمصر والشام، وأمر بنفيه وولده إلى طرسوس، فلم يزل الأمراء بالسلطان حتى رسم أن يستقر بالقدس بطالا فسار إليها من يومه، ولحق به ابنه من الغد، هذا مع شدة تمكنه من السلطان، وكثرة اختصاصه به، حتى أنه كان يقول ولده في الملأ إذا دعاه " سيدي محمد ". وفيه خلع على الوزير المالكي، بعدما أحضر، وأعيد إلى الوزارة مرة ثالثة، وقبض على ناظر الدولة أمين الدين أمين، وعوق بقاعة الصاحب من القلعة أياما، ثم أفرج عنه.

وفي يوم الاثنين رابع عشره: خلع على الشيخ ضياء الدين عبيد الله القرمي، واستقر في مشيخة المدرسة الأشرفية، ولقب بشيخ الشيوخ، وأبطل هذا اللقب من متولي مشيخة خانكاة سرياقوس، فسكنها، ودرس بها قبل أن تكمل عمارتها. وفيه أمر بسد باب القلعة مما يلي القرافة، فسد، وأوصى السلطان مماليك ولديه بهما، وبحفظ

القلعة، وعهد إليهم أنه إن أصابه الموت فولده أمير علي هو السلطان من بعده. وركب من قلعة الجبل وسار إلى سرياقوس، فبات بقصوره منها ليلة الثلاثاء، ونزل إلى بركة الحجاج، فأقام بها إلى يوم الثلاثاء ثاني عشرينه، ورحل منها بكرة النهار ومعه من أمراء الألوف أرغون شاه الأشرفي، وبهادر الجمالي أمير آخور، وصرغتمش الأشرفي، وبيبغا السابقي، وصراي تمر المحمدي، وطشتمر لعلاي الدوادار، ومبارك الطازي، وقطلو آقتمر العلاي الطويل، وبشتاك عبد الكريم الأشرفي، ومن أمراء الطبلخاناة جمال الدين عبد الله بن بكتمر الحاجب، وأيدمر الخطاي، وبوري الأحمدي، وبلوط الصرغتمشي، وأروس المحمودي، ويلبغا المحمدي، ويلبغا الناصري، وأرغون العزى الأفرم، وطغاي تمر الأشرفي، ويلبغا المنجكي، وكزل الأرغوني، وقطلوبغا الشعباني، وأمير حاج بن كغلطاي، وعلى بن الأمير منجك ومحمد بن الأمير تنكز بغا، وتمر باي الحسنى، وأسندمر العثماني، وقرابغا الإحمدي، وإينال اليوسفي، وأحمد ابن الأمير يلبغا الخاصكي، وموسى بن دندار بن قرمان، ويدي بن قرطقا بن سيسون، وبكتمر العلمي، ومغلطاي البدري، ومن أمراء العشرات سنقر الجمالي، وأحمد بن محمد بن لاجين، وأقبغابوز الشيخوني، وأسنبغا التلكي، ومحمد بن بكتمر الشمسي، ومحمد بن قطلوبغا المحمدي، وجوبان الطيدمري، وألطنبغا عبد الملك، وقطلوبغا البزلاري، وطوغان العمري، وتلكتمر العيسوي، ومحمد بن سنقر المحمدي، وخضر بن عمر بن أحمد ابن الأمير بكتمر الساقي، ومنجك الأشرفي، ومعه قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة الشافعي، وقاضي القضاة جلال الدين جار الله الحنفي، وقاضي القضاة بدر الدين عبد الوهاب الأخناي المالكي، وسراج الدين عمر البلقيني قاضي العسكر، وتوجه أيضًا الخليفة المتوكل على الله، وكاتب السر بدر الدين محمد بن فضل الله، وناظر الجيش تقي الدين عبد الرحمن، وتأخر قاضي القضاة ناصر الدين نصر الله الحنبلي بالقاهرة. فلم يزل السلطان سائرا. بمن معه حتى نزل من عقبة أيلة، وأناخ على البحر في يوم الثلاثاء تاسع عشرينه، ونزل بقية الحاج من الغد يوم الأربعاء آخره.

فلما كان يوم السبت ثالث ذي القعدة: انتدب لإثارة الفتنة بالقاهرة أينبك البدري، وأسندمر الصرغتمشي، وقرطاي، وطشتمر اللفاف، ومشوا حين تأخر بالقلعة من المماليك السلطانية، وفي مماليك الأسياد ولدى السلطان، وفي مماليك الأمراء المسافرين صحبة السلطان، وفي جماعة من المماليك البطالة وواعدوهم جميعا على القيام معهم، ووعدوهم بأن ينفقوا فيهم خمسمائة دينار، عنها عشرة آلاف درهم، لكل

واحد منهم، فمالوا إليهم وتحالفوا جميعا على الاتفاق، وركبوا بآلة الحرب. ونزل المماليك السلطانية الذين بالطباق من قلعة الجبل، وصعد الذين كانوا أسفل القلعة إليها، وصار الجميع بباب الستارة، وفي داخله الطواشي سابق الدين مثقال زمام الدور، والأمير جلبان لالا الأسياد، والأمير أقبغا جركس اللالا، فأغلقوا باب الستارة، وأخذ القوم يطرقون عليهم الباب، ويطلبون أمير علي ابن السلطان، ويقولون: " قد مات السلطان ونحن نريد نسلطن ابنه أمير علي ". فقيل لهم: " من كبيركم حتى نسلم إليه ابن السلطان "، فتآمروا فيما بينهم ساعة وجمعهم يكثر، ثم كسروا شباك الزمام المطل على تلك الجهة وصعدوا منه فنهبوا ما في بيت الزمام، ونزلوا إلى رحبة باب الستارة وقبضوا على الطواشي مثقال الزمام، وعلى الأمير حلبان، ودخلوا من باب الستارة بأجعهم، وأخرجوا أمير علي، وأجلسوه بباب الستارة، وأحضروا الأمير أيدمر الشمسي، وألزموه بتقبيل الأرض، فقبلها، وأركبوا أمير علي إلى الإيوان المعروف بدار العدل، وأجلسوه على تخت الملك، ولقبوه بالملك العادل.

فتأخر ناظر الخاص شمس الدين أبو الفرج المقسي في داره عن الطلوع إلى القلعة، خوفا من المماليك، فإن رءوس النوب وأكابر المماليك طلبوا منه أن يصرف لهم ولبقية المماليك رواتبهم من الدراهم واللحم ونحو ذلك، فماطلهم بالصرف وهم يلحون في الطلب، فنهرهم، وقال: " ما لكم عندي شيء حتى يجيء أستاذكم خذوا منه ". وطلع ناظر الدولة أمين الدين أمين، ومعه مقدم الدولة الحاج سيف، وبقية مباشري الدولة، فقبض المماليك عليهم ظنا منهم أنه المقسى، وأغلقوا باب القلعة، ووكلوا بناظر الدولة ومن معه عدة من المماليك، ثم نزلوا من القلعة ووقفوا على خيولهم تحتها، وبعثوا طائفة منهم لإحضار المقسي، فلم يظفروا به، فاستدعوا الأمير آقتمر عبد الغنى والأمير أيدمر الشمسي، والأمير علم دار، وبقية الأمراء، فأتوهم تحت القلعة، وأبوا من طلوعها، فأنزل المماليك أمير علي من القلعة إلى الإصطبل، وطلعوا بالأمراء إليه، فقبلوا له الأرض، وحلفوا على العادة، إلا الأمير طشتمر الصالحي، والأمير بلاط الكبير السيفي، والأمير خطط رأس نوبة، فإنهم لم يوافقوا المماليك على ما فعلوه، فقبضوا عليهم وطلبوا الأمير سيف الدين ألطنبغا أبو قورة، أمير سلاح - وكان قد تأخر عن السفر لمرض به - والأمير طاز، فاعتذرا عن الحضور بالضعف، وأرسلا مماليكهما، وكان قبل ذلك قد بلغ كل من الأمير سودن أمير آخور وأمير علي بن قشتمر الحاجب، وأبو بكر بن طاز وأيدمر الشمسي، وأقتمر عبد الغني، وعلمدار وطشتمر الصالحي، وبقية الأمراء، أن مماليك السلطان

ومماليك الأسياد يريدون إثارة الفتنة والركوب للحرب، فتغافلوا عنهم خوفا على أنفسهم، فلما وقع ما وقع وأتاهم الأمراء، ورسموا عليهم، وأخذوا منهم مماليكهم، وصار دبير القوم أينبك ويشاركه الأمير طشتمر اللفاف، وأسندمر الصرغتمشى، وقرطاي، فأمروا أن ينادى في الناس بالأمان، فنودي في القاهرة ومصر بين يدي وإلى القاهرة " الأمان والإطمئنان، افتحو دكاكينكم وبيعوا واشتروا، وترحموا على الملك الأشرف، والدعاء لولده الملك العادل علي، ونائبه الأمير آقتمر الحنبلي "، فكثرت القالة بين الناس، واستمرت الكوسات تدق بالقلعة حربيا، وطبلخاناة الأمراء أيضًا تدق، والقوم وقوف تحت القلعة طول اليوم السبت، وليلة الأحد، وأمير علي بالإصطبل. فلما أصبح نهار الأحد رابعه، غيروا لقب أمير علي وجعلوه الملك المنصور، وأخذوا خطوط جميع العلماء والأمراء أنهم رضوا به سلطانا، ونادوا بالقاهرة وأعمالهما ثانيا بالأمان والإطمئنان والدعاء للملك المنصور، وخرج البريد لإحضار الأمير آقتمر الحنبلي من بلاد الصعيد، وتقسموا الأمريات، فأخذ طشتمر اللفاف تقدمة أرغون شاه رأس نوبة، وأخذ قرطاي تقدمة صرغتمش، وأخذ أينبك تقدمة يبيغا السابقي، وأخذ أسندمر الصرغتمشى تقدمة، وأخذ بلاط الصغير تقدمة، حتى عموا من أرادوا منهم بالأمريات. واستقر الأمير شهاب الدين قرطاي أتابك العساكر، ونصبوا لهم خليفة من بنى عم الخليفة المتوكل، وأقاموا عز الدين حمزة بن علاء الدين على بن محيى الدين يحيى بن فضل الله في وظيفة كتابة السر، حتى يحضر أخوه بدر الدين، وأحضروا ناظر الخاص شمس الدين المقسي حتى فتح لهم خزانة الخاص من القلعة، وأخرج منها تشاريف الأمراء، وخلعهم، وفرقها فيهم، ورتب أحوال المملكة ومد السماط على العادة، وأعطى الرواتب، هذا وهم بالسلاح على الخيول تحت القلعة يترقبون ما يرد من الأخبار فإنهم كانوا قد وعدوا أصحابهم على أن يثيروا الفتنة مع السلطان أيضًا. فاتفق أن السلطان لما أصبح في يوم الأربعاء. بمنزلة العقبة تجمع المماليك وطلبوا عليق دوابهم، فوعدهم السلطان بصرفه في منزلة الأزلم، فسألوه أن ينفق فيهم مالا لينفقوه في غلمانهم، فقال: " ما عندي إلا البشماط والشعير "، فرادوه مرارا حتى نهرهم وتوعدهم، فمضوا إلى الأمير الكبير أرغون شاه رأس نوبة وشكوا ما لقيهم من السلطان، فوعدهم أن يتحدث لهم مع السلطان فانصرفوا من عنده إلى الأمير طشتمر الدوادار، وتنمروا عليه، وقالوا له " إن لم ينفق فينا قتلناه ". فقام إلى السلطان وسأله في النفقة على المماليك، فامتنع، فمازال يرادده حتى غضب منه وسبه، وقال له " تحكم علي في مصر وهنا أيضًا "،

وهدده، فقام وقد أحدق المماليك بخامه ينتظرونه، فأخبرهم. بما كان، وأكثرهم حينئذ شباب ومماليك يلبغا، فهاجت حفائظهم، وتحركت أحقادهم، وتواعدوا على قتل السلطان وخاصكيته، ولبسوا السلاح، وأتوا إلى الأمير طشتمر وتوعدوه بالقتل إن لم يوافقهم، فألبس مماليكه السلاح، وركب معهم هو والأمير مبارك الطازي، والأمير صراي تمر المحمدي، والأمير قطلو آقتمر الطويل العلاي، وقصدوا السلطان، وكان في خامة يتحدث مع خاصكيته، وإذا بضجة، فبعث من يكشف له الخبر، فقيل قد ركب المماليك، فأمر من عنده بلبس السلاح، فما تم كلامه حتى هجموا على الخام، وقطعوا الأطناب، فأمر بالشموع فأطفئت، وخرج السلطان. بمن معه هاربا، وهم الأمير أرغون شاه، والأمير صرغتمش، والأمير بيبغا السابقي، والأمير بشتاك الخاصكي، والأمير أرغون العزي، والأمير يلبغا الناصري، والأمير ألطنبغا فرفور، والأمير طشبغا رأس نوبة، وذلك في ليلة الخميس، وقد أعد الأمير قازان أمير آخور للسلطان ما يركبه هو ومن معه من مراكب الخاص، فركبوا وطلبوا جهة القاهرة، وليس مع كل واحد منهم سوى مملوك واحد، حتى قطعوا العقبة، فإذا. بمقدم الهجانة محمد بن عيسى ومعه نحو اثني عشر هجينا، فنزل السلطان عن فرسه، وركب منها وأركب من معه بقيتها، وساروا حتى أتوا قبة النصر خارج القاهرة، في يوم الأحد ثاني يوم قيام المماليك بالقلعة، فسمعوا دق الكوسات حربيا، فرابهم ذلك، وبعثوا لكشف الخبر، وتوجه السلطان ومعه الأمير يلبغا الناصري نحو الجبل، ودخل بقية الآمراء قبة النصر، وناموا، فبينما المماليك راكبين تحت القلعة، إذ قبض بعد الظهر على رحل متنكر اسمه قازان ممن قدم مع السلطان، فأتى به إلى أكابرهم فعرفهم خبر وقعة العقبة، ودلهم على موضع السلطان، فتوجه الأمير أسندمر الصرغتمشى، وطولوا الصرغتمشى في جماعة إلى قبة النصر، فذبحوا الأمير أرغون شاه، والأمير صرغتمش، والأمير بيبغا السابقى، والأمير بشتاك، والأمير أرغون العزى الأفرم، وأتوا برؤوسهم إلى تحت القلعة وهم يقولون " صلوا على محمد "، ثم دفعوا الرؤوس إلى أهلها، فذهبوا إلى جثث الأمراء الخمسة وواروها معها. وقد اضطرب الناس بالقاهرة، وأغلقوا ما فتح من الحوانيت، وكثر تخلقهم للحديث في أمر السلطان والقائمين بالدولة، ونودي بالقاهرة ومصر على السلطان، وتوعد من أخفاه، فاضطرب الناس، وباتوا ليلة الاثنين على تخوف وقلق شديد، فلما طلع نهار الاثنين، قبض على محمد بن عيسى، وسئل عن السلطان، فذكر أن آخر علمه به أنه فارق الأمراء، ومضى هو ويلبغا الناصرى. وأما السلطان فإنه لما أخذ نحو

الجبل ومعه الناصري قعد لحاجة، وإذا بالخيل قد أتت إلى قبة النصر في طلبه، فاختفى هو والناصرى حتى جنهما الليل، فخرج به الناصري، وسار إلى بيت أستاداره، فآواهما وحدثهما بقيام المماليك، وما كان منهم وذبح الأمراء، فاشتد خوف السلطان، وخرج من ليلته. بمفرده من بيت أستادار الناصري، وقصد بيت آمنة امرأة المشتولى بحارة المحمودية من القاهرة، وبات عندها بقية ليلة الاثنين، وأصبح كذلك إلى أخر النهار، فمضت امرأة وأعلمت القائمين بالدولة بمكانه، فركب الأمير قرطاى في عدة وافرة، وأتوا بيت أمنة، وقبضوا عليها وأرهبوها، فأشارت إلى بادهنج البيت، فوجدوا السلطان قد لبس ثياب النساء، واختفى فيه، فأخذوه وألبسوه سلاحا، وستروا وجهه، وخرجوا به من باب سعادة أحد أبواب القاهرة، حتى صعدوا به قلعة الجبل، فتسلمه الأمير أينبك، وعاقبه حتى دلهم على ذخائره، وجمعوا بينه وبين ناظر الخاص شمس الدين المقسى، حتى تحاققا على الذخائر وأعادوه إلى داره، ثم استدعوا بالقاضي صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوى - أحد خلفاء الحكم - في يوم الثلاثاء سادسه، وأرادوه أن يثبت وصية الملك الأشرف، فقال: " لابد من إثبات وفاته "، فدخل إليه مملوك منهم اسمه جركس السيفي - من مماليك ألجاى اليوسفي - وخنقه، ثم أدخلوا إليه جماعة حتى عاينوه ميتا، وعادوا إلى القاضى فشهدوا عنده. بموته، وأنه أوصى الأمير عز الدين أينبك، ثم أنعم على جركس هذا بإمرة عشرة، واستقر شاد العماير، جزاء له. بما فعله من خنق السلطان، ثم أخذت جثة الأشرف، ووضعت في قفة وخيط عليها بلاس شعر أسود، وألقيت في بئر آخر نهار الثلاثاء المذكور، فلما مضت له أيام، ظهر نتنه، فأخرجه جيران تلك البئر، فعرفوه ودفنوه بالكيمان التي بجانب مشهد السيدة نفيسة، فأتى بعض خدام السلطان ليلا، وأخرجه من قبره وحمله إلى تربة أمه خوند بركة من التبانة، وغسله وكفنه وصلى عليه، ودفنه بالقبة التي بها. ومولده في سنة أربع وخمسين، ومدة سلطنته أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوما، وعمره أربع وعشرون سنة، وكان لينا يحب أهل الخير، ويقف عند ما يحسن له من فعل الخير، إلا أنه كان يحب جمع المال وتفرقته، جدد في أيام دولته الأقبية الحرير بالطرز الزركش في كل سنة على الأمراء، مع ركوبهم الخيل وقت لبس الأقبية المذكورة بالسروج الذهب، والكنابيش الزركشى، فكان يعم بذلك أمراء الألوف والطبلخاناة والعشرات والمماليك الخاصكية، على قدر رتبهم، ولم يتقدمه ملك لفعل ذلك، وكانت أيامه في هدوء وسكون، وأبطل مسكين شنيعين كان يتحصل منهما مال عظيم، فبطلا من بعده، ولم يكن فيه أذى ولا تجبر، بل يرفع يديه

ويسأل الله تعالى أن يخرب ديار من يريد بالناس سوءا، بالجملة فكان إلى التشبه بالنساء أميل منه إلى التشبه بالرجال، وترك من الأولاد سبعة ذكور، أمير علي، وأمير حاجي، وكلاهما تسلطن، وقاسما، ومحمدا، وإسماعيل، وأبا بكر، وأحمد، وسبع بنات. وند بركة من التبانة، وغسله وكفنه وصلى عليه، ودفنه بالقبة التي بها. ومولده في سنة أربع وخمسين، ومدة سلطنته أربع عشرة سنة وشهران وخمسة عشر يوما، وعمره أربع وعشرون سنة، وكان لينا يحب أهل الخير، ويقف عند ما يحسن له من فعل الخير، إلا أنه كان يحب جمع المال وتفرقته، جدد في أيام دولته الأقبية الحرير بالطرز الزركش في كل سنة على الأمراء، مع ركوبهم الخيل وقت لبس الأقبية المذكورة بالسروج الذهب، والكنابيش الزركشى، فكان يعم بذلك أمراء الألوف والطبلخاناة والعشرات والمماليك الخاصكية، على قدر رتبهم، ولم يتقدمه ملك لفعل ذلك، وكانت أيامه في هدوء وسكون، وأبطل مسكين شنيعين كان يتحصل منهما مال عظيم، فبطلا من بعده، ولم يكن فيه أذى ولا تجبر، بل يرفع يديه ويسأل الله تعالى أن يخرب ديار من يريد بالناس سوءا، بالجملة فكان إلى التشبه بالنساء أميل منه إلى التشبه بالرجال، وترك من الأولاد سبعة ذكور، أمير علي، وأمير حاجى، وكلاهما تسلطن، وقاسما، ومحمدا، وإسماعيل، وأبا بكر، وأحمد، وسبع بنات.

* * *

السلطان الملك المنصور علي

السلطان الملك المنصور علي بن السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون الصالحى الألفي.

أقيم في السلطنة - كما تقدم - يوم السبت، ثالث ذي القعدة، وأبوه حي، فلما قتل أبوه - كما مر ذكره - في ليلة الثلاثاء، قدم في يوم الأربعاء سابعه الأمير آقتمر الحنبلي من بلاد الصعيد. بمن كان معه، فتلقاه الأمراء، وأجلوا قدره، وقالوا له: " أنت نائب السلطان، والمتحدث عنه، وكلنا من تحت أمرك "، فوافقهم، ووقف بطلبه مع أطلابهم تحت القلعة. وأما الذين بالعقبة، فإن السلطان لما انهزم قام الأمير طشتمر الدوادار بالأمر، وعزم على العود بالناس جميعهم إلى القاهرة، وإبطال الحج، فثارت العامة ورجمته، ووقع النهب في السوق، فمضى قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة، ومعه قاضى القضاة جلال الدين جار الله الحنفي من العقبة إلى جهة القدس، وتوجه معهما طائفة كبيرة من الحجاج. ووضع الأمير بهادر - أمير أخور - بعض الزاد والعلف بخان العقبة، وانتهبت المماليك من الأثقال ما قدرت عليه، ورحل الأمراء والمماليك ومعهم المحمل، ومن بقى من الحجاج عائدين إلى القاهرة، ورموا من الزاد والشعير وأنواع المأكل ومن الأثقال ما لا يقدر قدره، فلما وصلوا إلى المنزلة المعروفة بأبار العلاى، أعيد المحمل مع الأمير بهادرإلى مكة، وسار معه قليل من الناس، ومضى الأمراء نحو القاهرة، ولا علم لهم بالسلطان، حتى نزلوا نخل، فبلغهم أن عدة من الناس مرت بهم، بعضهم على رواحل وبعضهم على خيل، تريد ناحية القاهرة، فعلموا أنه السلطان، فخاف المماليك عاقبة أمرهم، وأن يتفق لهم ما اتفق على الأجلاب بعد واقعة الأمير أسندمر، فمالوا على خزائن السلطان المحمولة في الطلب ونهبوها، وتقاسموا ما بقى فيها، وتوجه عدة منهم إلى جهة الشام، وبقيت طائفة صحبة الأمير طشتمر الدوادار، ومعه الخليفة، وكاتب السر، وناظر الجيش، وقاضى القضاة بدر الدين الإخناى، والحريم السلطانى، وعدة كبيرة من الحجاج، وقد أرادوا الخليفة أن يقوم بالأمر من غير سلطان، ويستبد بالمملكة، ويكونوا عونا له على من خالفه، فلم يوافقهم على ذلك، وهم يلحون في سؤاله، حتى نزلوا عجرود بلغهم ما وقع من قيام المماليك، وسلطة أمير على ابن السلطان، وظفرهم بالأمراء والسلطان، وقتلهم، فساروا وقد أمنوا من السلطان، وكانوا على تخوف شديد منه أن يظفر بهم ويقتلهم، حتى نزلوا بركة الحجاج، بعث الأمراء

القائمون بالدولة طائفة من المماليك الأجلاب؛ لحرب الأمير طشتمر، وعليهم الأمير أحمد بن همز، فلقيهم الأمير قطلوا آقتمر العلاى الطويل - وكان طليعة الأمير طشتمر - فكسرهم، وركب أقفيتهم إلى قرب قلعة الجبل، فتكاثروا عليه وأمسكوه، وذلك يوم الثلاثاء سادسه، فبعث الأمير طشتمر بالأمير قطلوبغا الشعبانى في تقرير أمره، فلما كان الغد يوم الأربعاء سابعه، ركبت عدة من الأجلاب لمحاربة طشتمر، وافترقوا فرقتين، ومضوا، فمالت فرقة على الخزائن والأثقال، فنهبوا ما هناك، وامتدت أيديهم إلى حريم السلطان، وإلى الحجاج، فتجاوزوا الحد في النهب، وفعلوا ما لا يفعل مثله في أهل الإسلام، فكان شيئا قبيحا إلى الغاية، ذهب فيه من الأموال ما لا يحصيه إلا الله، وكانت هذه السفرة سببا لزوال سعادة الدولة، وذهاب دولة آل قلاوون إلى أخر الدهر. وأما الفرقة الأخرى فإنها قاتلت الأمير طشتمر ومن معه قتالا عظيما، فكسرهم، ومروا في الهزيمة - وهو في طلبهم - إلى تحت القلعة، فوصل عصر يوم الخميس ثامنه، فاجتمع القوم على قتاله من نصف وقت العصر، حتى غابت الشمس، فانكسر منهم ومضى نحو كيمان مصر في نفر يسير، فأدركه بعض الأمراء ممن يثق به، ومازال به حتى قرر معه أن يستقر في نيابة الشام، وحلف له القائمون بالدولة، فاطمأن لذلك، ونزل بداره، فقبضوا عليه وحبسوه بقلعة الجبل، وقبضوا على الأمير سراى تمر، وبعثوه إلى الشام، وقبضوا على الأمير بلوط الصرغتمشى أمير مشوى، وعلى جماعة كبيرة، وباتوا آمنين، وقد نزعوا السلاح عنهم.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره: قرئ بالإيوان تقليد السلطان، وعلم عليه الخليفة، وشهد عليه فيه القضاة على العادة. ثم خلع على الخليفة وأنعم عليه بألف دينار رسم المبايعة، وخلع على القضاة وأرباب المناصب، واستدعى الوزير تاج الدين النشو الملكي، وخلع عليه، واستقر في الوزارة، وخلع على الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن الرويهب، واستقر في نظر الدولة، عوضا عن أمين الدين أمين، وخلع على الأمير طيدمر البالسي، واستقر حاجب الحجاب عوضا عن أنتمر عبد الغنى، وخلع على الأمير علي ابن قشتمر واستقر حاجبا ثانيا، عوضا عن الأمير علم دار. وفيه طلب المماليك من الأمراء. وعدوهم به من النفقة فيهم، وهي مبلغ خمسمائة دينار لكل واحد، فرسموا لهم. بمائة دينار لكل مملوك، فأبوا وتجمعوا في يوم الثلاثاء ثالث عشره، وقبضوا على الأمير طشتمر اللفاف، وهموا بضرب عنقه، فقام الأمير قرطاي، وضمن لهم أن ينفق فيهم ما عدوا به، وما زال يتلطف بهم حتى أطلقوا

اللفاف، وأخذ الأمراء في الإهتمام بنفقة المماليك، وطلبوا أمين الحكم، وأرادوا منه أن يقرضهم من مال الأيتام مائتي ألف دينار ذهبا، وإلا نهبوا المودع، وكان فيه حينئذ أموال عظيمة جدا، ورسموا جماعة حتى أخذوا ما شاؤوا، فذهبت على الأيتام إلى اليوم، وقبضوا على شمس الدين المقسي ناظر الخاص، وعلى سعد الدين نصر الله ابن البقرى، وتاج الدين موسى بن كاتب السعدي، وولده سعد الدين.

* * *

سنة تسع وسبعين وسبعمائة

أهلت والأمراض في الناس فاشية، فتزايد الوباء في هذا الشهر، ومات جماعة من الناس بالطاعون.

ووصل أولاد قلاوون من الكرك وهم الملك المنصور محمد بن حاجي ابن محمد بن قلاوون، وأولاد الناصر حسن وهم أحمد وقاسم وعلي واسكندر وموسى وإسماعيل ويوسف ويحيى وشعبان ومحمد، وأولاد حسن بن محمد بن قلاوون، وهم أنوك وأحمد وإبراهيم وجان بك ومحمد بن الصالح صالح بن محمد بن قلاوون وقاسم بن أمير علي ابن يوسف، فأدخلوا بحريمهم وأولادهم إلى قلعة الجبل ليلا، وأنزلوا بدورهم منها.

وكانت الفتن التي تقدم ذكرها، وثورات المماليك، وتغير دولهم، إنما هي توطئة لبرقوق، وتمهيد له حتى ملك البلاد، وقام بدولة الجراكسة، كما ستراه إن شاء الله تعالى، فإنه من يومه هذا استقر قراره بالإصطبل ورسخت قدمه في الدولة، وثبت أوتاده بها، وما زالت الأقدار تساعده، والأيام تساعده، حتى استبد بالمملكة، وانفرد بتدبير السلطة، وصعد من الإصطبل، فسكن القصر حتى نقل منه إلى القبر عزيزا منيعا، عالي القدر رفيعا، فسبحان من يدبر الأمر كله، لا إله إلا هو.

* * *

سنة ثمانين وسبعمائة

وفيها أشيع أن المماليك الألجائية، وهم نحو ثمانمائة مملوك، اتفقوا مع جماعة على إثارة الفتنة، فقبض على عدة من الأمراء ومماليك السلطان، ورسم للجميع بالقبض على من في خدمتهم من مماليك ألجاي اليوسفي، فقبضوهم وبالغوا في إهانتهم، بأن وضعت الزناجير في أعناقهم، وعملت يدي كل اثنين منهم في خشبة، وسجنوا بخزانة شمايل - سجن أهل الجرائم - فلم يعهد قبل ذلك أن الترك رجال الدولة أهينوا هذه الإهانة، ثم أشيع أن جماعة من مماليك الأمراء عزموا على الفتك بأستاذيهم، فقبض على كثير منهم.

وفيه ورد البريد من طرابلس بقدوم الفرنج إليها في عشرة مراكب، ونزولهم إلى البر، فحاربهم الأمير يلبغا الناصري نائب طرابلس، وقتل منهم عدة، وفي باقيهم إلى مراكبهم وساروا.

وفي يوم الأربعاء ثامنه: كانت واقعة كنيسة ناحية بو النمرس من الجيزة وذلك أن رجلاً من فقراء الزيلع بات بناحية بو النمرس، فسمع لنواقيس كنيستها صوتا عاليا، وقيل له إنهم يضربون بنواقيسهم عند خطبة الإمام للجمعة، بحيث لا تكاد تسمع خطبة الخطيب، فوقف للسلطان الملك الأشرف شعبان، فلم ينل غرضا، فتوجه إلى الحجاز وعاد بعد مدة طويلة، وبيده أوراق تتضمن أنه تشفع برسول الله وهو نائم عند قبره المقدس في هدم كنيسة أبو النمرس، ووقف بها إلى الأمير الكبير برقوق الأتابك، فرسم للمحتسب جمال الدين محمود العجمي أن يتوجه إلى الكنيسة المذكورة، وينظر في أمرها، فسار إليها وكشف عن أمرها، فبلغه من أهل الناحية ما اقتضى عنده غلقها، فأغلقها، وعاد إلى الأمير الكبير وعرفه ما قيل عن نصارى الكنيسة، فطلب متى بطريق النصارى اليعاقبة وأهانه، فسعى النصارى في فتح الكنيسة، وبذلوا مالاً كبيرًا، فعرف المحتسب الأمير الكبير بذلك، فرسم بهدمها بتحسين المحتسب له ذلك، فسار إليها وهدمها، وعملها مسجدًا.

وفي سادس عشره: استدعى الأمير الكبير برقوق القضاة وشيوخ العلم، وتحدث معهم في حل الأراضي الأوقاف على الجوامع والمساجد والمدارس والخوانك والزوايا والربط وعلى أولاد الملوك والأمراء وغيرهم وعلى الرزق الأحباسية، وكيف يجوز بيع أراضي مصر والشام الخراجية على بيت المال، وأحضرت أوراق. بما أوقف من بلاد مصر والشام، وبما تملك منها - ومبلغها في كل سنة مال كبير جدًا

- فلما قرئت على من قد حضر من الأمراء وأهل العلم، قال الأمير برقوق: " هذا هو الذي أضعف جيش المسلمين ". فقال قاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء: " هما جيشان جيش الليل، وجيش النهار "، فأخذ الشيخ أكمل الدين في الكلام مع الأميرين بركة وبرقوق في ذلك باللغة التركية، حتى غضبا منه، فقال بعضهم لشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني " لم لا تتكلم؟ " فقال: " ما استفتاني أحد حتى أفتيه ". فأشار له الأمير برقوق أن يتكلم، فطال كلامه على عادته، وملخصه " أن أوقاف الجوامع والمساجد والمدارس والخوانك، التي هي على علماء الشريعة وفقهاء الإسلام، وعلى المؤذنين وأئمة الصلوات ونحو ذلك، لا يحل لأحد أن يتعرض بحلها بوجه من الوجوه، فإن للمسلمين حق لم يدفع إليهم، وإلا فانصبوا لنا ديوانا نحاسبه على حقنا، حتى يظهر لكم أن ما نستحقه أكثر مما هو موقوف علينا، وأما ما وقف على عويشة وفطيمة، واشترى من بيت المال بحيلة أن يؤخذ المال صورة ثم يعاد، فإنه يحتاج إلى أن ينظر في ذلك، فإن كان قد أخذ بطريق شرعي، فلا سبيل إلى نقضه، وإن كان غير ذلك نقض ". فقال ابن أبي البقاء: " يا أمراء، أنتم أصحاب الشوكة، والأمر لكم ". فقال له البلقيني " اسكت ما أنت وهذا ". فسأل الأمير بركة والأمير برقوق بن أبي البقاء " من أين يشتري السلطان هذا ؟ " فقال: " الأرض كلها للسلطان ". فقال له البدر محمد بن البلقيني - قاضي العسكر: " كيف تقول هذا من أين للسلطان ذلك وإنما هو كآحاد الناس؟ ". فقال البلقيني: " يا أمراء، أنتم تأمرون القضاة، فإن لم يفعلوا ما ترسموا به عزلتموهم، كما جرى لشرف الدين بن منصور مع الملك الأشرف، لما لم يفعل له ما أراد عزله، ثم انفضوا وأخرجوا عدة أوقاف وأقطعوها إقطاعات.

* * *

سنة إحدى وثمانين وسبعمائة

وفي هذه الأيام كثر تخوف العامة من أن يركب عليهم الأمير بركة، ويبذل فيهم السيف ويقتلهم، وأغلقوا حوانيت معايشهم من أول الليل، ثم أمر والي القاهرة بقبض الزعر والعبيد، فتطلبهم بعدة مواضع، فازداد خوف العامة، حتى نودي على لسان الأمير الكبير برقوق بالأمان، وأن " من سخركم يا عوام اقبضوا عليه، واحضروا به إلى الأمير الكبير " فاطمأنوا، وكان برقوق دائما يقصد التحبب إلى العامة، ويذب عنهم، حتى أحبوه وتعصبوا له.

وفي شهر رجب: اتفقت حادثة مستغربة، وهي أن بعض من يتكسب بتحمل الشهادة بجلوسه في حوانيت الشهود من رحبة باب العيد بالقاهرة، يعرف بالشهاب أحمد ابن الفيشي، من الحنفية دخل إلى منزله بالقرب من الجامع الأزهر، فسمع صوتا من جدار بيته يقول له: " اتق الله، وعاشر زوجتك بالمعروف " فظن أن هذا من الجان، فإنه لم ير شيئًا، وحدث أصحابه بذلك فصاروا معه إلى بيته، فسمعوا الكلام من الجدار، فسألوا عما بدا لهم، فأجابهم المتكلم من غير أن يروا شيئًا، فغلب على ظنهم أن هذا من الجان، وأشاعوه في الناس، فارتجت القاهرة ومصر، وأقبل الناس من كل جهة إلى بيت ابن الفيشي لسماع كلام الحائط، وصاروا يحادثون الحائط بزعمهم ويحادثهم، فكثر بين الناس قولهم: " يا سلام سلم الحائط بيتكلم "، وكاد الناس أن يفتتنوا بهذا، وجلبوا إلى ذلك الجدار من الطب شيئًا كثيرًا، وحضرت العذراء من خدرها إليه. فركب محتسب القاهرة جمال الدين محمود العجمي إلى بيت ابن الفيشي هذا، ليختبر ما يقال، ووكل بابن الفيشي أحد أعوانه، فإذا بالبيت مرتفع، وتحته إصطبل فيه بعض الأجناد، فوكل به أيضًا، وطلع إلى عند الحائط، وحدثه فحادثه، فأمر بهدم الحائط، فقال له: " اخرب فإنه ما ينزل على شيء، ولا أبالي لا فلما هدم الحائط لم ير شيئا، فعاد إلى بيته وقد كثر تعجبه، وازدادت فتنة الناس بالحائط وأخذ المحتسب مع أصحابه في ذكر ذلك فبعث من يكشف له الخبر: هل انقطع الكلام بعد تخريب الحائط أو لا فوجده قاصده يتكلم كما كان قبل خرابه، فتحير من ذلك، وكان هذا المحتسب شهما جريئًا، قد مارس الأمور وحلب الدهر أشطره، ولاحظته مع ذلك السعود، فلا يتحرك حركة إلا حمد عليها، ولا باشر جهة وقف إلا عمر خرابه، وأنفق على مستحقيه معاليمهم بعد تأخر صرفها لهم. وإذا باشر حسبة القاهرة رخت الأسعار، فإذا عزل ارتفعت، فتقف العامة وتطلب عوده لسعادة جده،

ويمن إقباله. ومع ذلك فكان كما قيل " نفس عصام سودت عصاما " فلما عاد قاصده إليه أخبره بأن الكلام مستمر، قام من فوره ومعه عدة من أصحابه، حتى جلسوا عند الجدار، وأخذوا في قراءة شيء من القرآن، ثم طلب صاحب البيت، وقال له: " قل لهذا المتكلم: القاضي جمال الدين يسلم عليك ". فقال: " يا سيدي الشيخ القاضي يسلم عليك ". فقال الجدار: " وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ". فقال المحتسب: " قل له إلى متى هذا الفساد ". فأجابه: " إلى أن يريد الله تعالى فقال لصاحب البيت: " قل له: هذا الذي تفعله فتنة للناس، وهذا ما هو جيد ".

فأجابه: " ما بقي بعد هذا كلام "، وسكت وهم يقولون له " يا سيدي الشيخ فلم يكلمهم بعدها.

وكان في صوته غلظ يوهم أنه ليس بكلام إنس، فلما أيس من مكالمته قام عنه وقد اشتدت فتنة الناس بالحائط، حتى كادوا يتخذوه معبودا لهم، وغلوا فيه كعادتهم، وزعموا له ما شاءوا من ترهاتهم، وكان ذلك يوم الاثنين ثاني عشره. ثم ذلك عاد إلى الحديث مع الناس، فنزل إليه عدة من الأمراء والأعيان، وحملوا إليه المأكل، وغيرها إلى يوم الاثنين ثالث شعبان، والمحتسب يدبر في كشف هذه الحيلة.

ودس إلى الفيشي من استدرجه حتى اعترف بأنها حيلة، فركب المحتسب في يومه، ومعه جماعة، إلى بيت الفيشي، وقبض عليه وعلى امرأته وعلى فقير عندهم للناس فيه اعتقاد، يعرف بالركن عمر، وعاد بهم إلى داره، وما زال والمرأة إلى أن أعلمته أنها هي التي كانت تتكلم، وسبب ذلك أن ابن الفيشي زوجها كان يسيء عشرتها، فاحتالت عليه بهذه الحيلة، توهمه بأن الجان توصيه بها، فتمت حيلتها عليه وانفعل لها، فأعلمته. بما كان منها، فرأى أن تستمر على ذلك لينالا به جاها ومالا، فوافقته على ذلك حتى كان ما كان.

فركب وأعلم الأمير الكبير بقول المرأة وأخذها وزوجها والشيخ عمر معه، فضرب الأمير الكبير الرجلين بالمقارع، وضرب المرأة بالعصى نحوا من ستمائة ضربة، وأمر بهم فسمروا ثلاثتهم على جمال، وشهروا بالقاهرة ومصر في يوم الاثنين هذا، فكان يوما شنيعا عظم فيه بكاء الناس على المرأة، فإنها أركبت على الجمل، ومدت يداها، وسمرتا في الخشب، وهي بإزارها ونقابها، ولم يعهد قط امرأة سمرت.

واتفق نزول المحسب بخلعة خلعت عليه، فكثر دعاء العامة امتعاضا عليها - أي على المرأة.

وكان قبل ذلك قد طلع ابن الفيشي هذا إلى الأمير الكبير وعلى رأسه طيلسان وصوف، وقدم له شيئا من كعك، قال له: " الشيخ محمد شيخ الحائط أرسل لك هذا "، وأخذ بيده يد الأمير وقبض عليها وهزها وقال له: " اتق الله وأعدل في الرعية ".

فانفعل بكلامه، ومشى ذلك عليه، ثم طلع إليه بعده الشيخ عمر الركن، وكان مشهورا، قد انقطع بسطح جامع عمرو بن العاص من مصرا نحو من ثلاثين سنة، والناس تتردد إليه ما بين أمير ورئيس وغير ذلك، ويلتمسون بركة دعائه، إلى أن اشتهر كلام الحائط فأتى إلى ابن الفيشي ولزمه، وجمع عليه الناس، فلما رآه الأمير الكبير أكرمه، وأخذ هو في خزعبلاته، وانصرف، فلما طلع بهما إليه المحتسب اشتد غضبه عليهما، لما تبين له من محرفتهما، وانكشفا عن حيلة شنيعة أوقع بهما ما أوقع.

ومما اتفق في هذه الحادثة أن امرأة ابن الفيشي هذه رأت في منامها قبل هذه الحادثة بأيام أنها تخطب على منبر، فعبره لها بعض من عاصرناه من حذاق المعبرين بأنه يحصل لها شهرة قبيحة، فإن المرأة ليس من شأنها ركوب المنابر، وتعاطي الخطب، فكان كذلك، وركبت الجمل يوما كاملا، وهي مسمرة كأنها تعظ الناس بلسان حالها، نعوذ بالله من سوء القضاء.

وفي سادس عشرينه: استقر الأمير كرجي في ولاية الشرقية، عوضا عن علي القرمي، وأخرج من السجن حتى خلع عليه. بمال التزم به.

وفيه قدم أيضا بعض رهبان النصارى وقدح في الإسلام، وأصر على قبيحه، فضربت عنقه، وكان هناك ثلاث نسوة، فرفعن أصواتهن بلقلقة ألسنتهن، كما تفعل النساء عند فرحهن، واستبشارا بقتل الراهب، وأظهرن شغفا به، وهياما لما جرى له، وصنعن كصنيعه، من القدح في الإسلام، وأردن تطهيرهن بالسيف أيضا. ثم ضربت رقبة رفيق الراهب في يوم الجمعة ثاني عشرينه تحت شباك الصالحية، وضربت رقاب النسوة الثلاث من الغد، يوم السبت ثالث عشرينه تحت القلعة بيد الأمير سودن الشيخوني الحاجب، وأحرقت جثثهن بحكم أنهن ارتددن عن الإسلام، وأظهرن أنهن فعلن هذا لعشقهن في الراهب المذكور. وكان يعرف بأبي نفيفة. ولم نسمع في أخبار العشاق خبرًا أغرب من هذا، ثم جاء بعد ذلك رجل من الأجناد على فرس، وقال للقاضي: " طهرني بالسيف، فإني مرتد عن الإسلام فضرب وسجن.

* * *

سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة

وفي ليلة الجمعة تاسع عشرة: لبس الأمير بركة السلاح، هو ومماليكه، ولبس الأمراء أيضا، وباتوا في إصطبلاتهم على احتراز، فلما أصبح نهار يوم الجمعة، طلب الأمير الكبير برقوق القضاة ومشايخ العلم، وندبهم للدخول بينه وبين الأمير بركة في الصلح، مكيدة منه ودهاء، فما زالوا يترددون بينهما عدة مرار، حتى وقع الصلح على دخن وحلف كل منهم لصاحبه، ونزعوا عنهم السلاح، فبعث الأمير برقوق بالأمير أيْتَمِش إلى الأمير بركة، فنزل إليه وفي عنقه منديل، ليفعل ما يريد من قتل أو حبس أو غير ذلك، وخضع له خضوعا زائدا، فلم يجد بركة بدا من الإغضاء عنه وقبول معذرته، وخلع عليه، وأعاده إلى الأمير برقوق، والقلوب ممتلئة حنقا، ونودي في القاهرة بالأمان، وفتح الأسواق، فسكن انزعاج الناس.

وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه: خلع على قضاة القضاة الثلاث: برهان الدين إبراهيم ابن جماعة الشافعي، وجلال الدين جار الله الحنفي، وناصر الدين نصر الله الحنبلي وخلع على الشيخ أكمل الدين محمد الحنفي شيخ الشيخونية لكونهم سعوا في الصلح بين الأميرين والتزم الأمير بركة بأنه لا يتحدث في شيء من أمور الدولة. وأن يستقر الأمير الكبير برقوق متحدثا في جميع الأمور بمفرده، وانفضوا من الخدمة السلطانية بالقصر على هذا، فشق على علم الدين سليمان البساطي المالكي حرمانه من لبس الخلعة، وكثرت الإشاعة بعزله، وكانت شائعة، فوعد بمال على استقراره، حتى استقر، وخلع عليه في يوم الخميس ثالث ربيع الأول.

وفيه أنعم على الأمير بُزْلار الناصري بإمرة طبلخاناه، وعلى الأمير محمد بن قرطاي الكركي بإمرة عشرة.

وفي يوم السبت خامسه: ولد للأمير الكبير برقوق ولد ذكر من جاريته أردو، فسماه، محمدا، وأخذ في عمل مهم عظيم لولادته. هذا، وهو والأمير بركة كل منهما يدبر في العمل على الآخر. وسبب ذلك أنه لما كانت فتنة الأمير إينال مع الأمير برقوقّ وقبض عليه، عتبه على ما كان منه، فاعتذر بأن الأمير أيتمش اتفق معه، هو وعدة من الأمراء، على ذلك، فجمع بينه وبين أيتمش لثقة الأمير برقوق به، فظهر أن الاتفاق إنما كان بينهما على أن يأخذا الأمير بركة وحواشيه، فبلغ ذلك بركة فأسرها في نفسه، وأراد غير مرة القبض على أيتمش، وبرقوق يدافعه عنه، فتوحش مابينهما إلى الغاية، إلى أن عزم أيتمش على القيام بالحرب، ففطن به بركة واستعد له، فكاده

برقوق. بما كان من خبر الصلح الذي تقدم ذكره، هذا مع ما كان بين الأميرين بركة وبرقوق من التحاسد الذي لابد منه غالبا بين الشريكين، فإنهما قاما بتدبير أمور الدولة. ومن طبع كل أحد من الملوك الإنفراد بالمجد ومحبة الاستئثار بالملك.

فلما كان يوم الاثنين سابعه: ركب الأميران بركة وبرقوق في عامة الأمراء، وسيرا إلى جهة قبة النصر خارج القاهرة، وعاد كل منهما إلى منزله، فمد الأمير برقوق سماط المهم لولادة ولده محمد، وطلع إليه الأمير صراي الطويل الرجبي - من إخوة بركة - وأسر إليه فيما قيل بأن " الأمير بركة قد اتفق مع جماعته على اغتيالك في وقت صلاة الجمعة " ثم طلع الأمير أيتمش وغيره من الأمراء لحضور السماط وتأخر الأمير بركة عن الحضور، وبعث من إخوته الأمير قرادمرداش الأحمدي، أمير مجلس، والأمير طبج المحمدي، والأمير أقتمر الدوادار، فهنوا الأمير الكبير بتجدد ولده محمد. وجلسوا على

السماط وأكلوا حاجتهم منه. فلما انقضى السماط، أشار الأمير برقوق إلى الأمير جركس الخليلي، والأمير يونس النوروزي دواداره، فقبضا على صراي الطويل وقرادمرداش وطبج وأقتمُر العثماني الدوادار، وألبس مماليكه في الحال آلة الحرب، وبادر بإرسال الأمير بزلار الناصري إلى مدرسة السلطان الملك الناصر حسن في عدة معه، فملكها وصعد إلى منارتها، ورمى بالنشاب على الأمير بركة، فإنهما يشرفان على بيته. وقد بلغه القبض على إخوته، فلبس وألبس مماليكه حربيا. وفي الحال نادى الأمير برقوق في العامة " عليكم ببيت بركة فانهبوه ". فجاء منهم خلق كالجراد المنتشر إلى بيت بركة من جهة بابه الذي بالرميلة تجاه باب السلسلة، وقد أغلق، فأضرموا فيه النار حتى احترق، وهجموا عليه، فلم يثبت لهم والرمي عليه من أعلى مأذنتي مدرسة حسن، وخرج. بمن معه من باب سرداره، ومر إلى باب زويلة، فدخله، وشق. بمن معه القاهرة إلى باب الفتوح في عسكر عظيم، وأخذ والي القاهرة حتى فتحه له، وقد أغلق وخرج منه إلى قبة النصر، وكانت بينه وبين أصحاب برقوق وقعة انتصف كل طائفة من الأخرى. وبعث الأمير برقوق إلى الأمير حسام الدين حسين بن الكوراني فأحضره إليه، وولاه ولاية القاهرة، عوضا عن بهاء الدين باد، لمخامرته مع الأمير بركة. فنزل إلى القاهرة وأغلق أبوابها على العادة في أيام الفتنة، ومنع المماليك من دخولها.

فلما كان الغد يوم الثلاثاء ثامنه: أصبح بيت بركة خرابا يبابا قد نهبت العامة أخشابه ورخامه، وهدمت عدة مواضع منه، ولم تدع فيه إلا الجدر القائمة، ولا يجد

به مالاً، ولا حريما، فإنه كان قد استعد للحرب، ووزع حريمه وأمواله في عدة أماكن. وفيه نادى الأمير برقوق في العامة " من قبض على مملوك من مماليك بركة كان له ماله ولنا روحه ". وركب الأمير آلان الشعباني، والأمير أيتمش البجاسي، والأمير قُرُط التركماني من جهة الأمير الكبير برقوق، لقتال الأمير بركة فركب إليهم الأمير يلبغا الناصري - من أصحاب بركة - وقاتلهم وكسرهم كسرة قبيحة، قتل فيها جماعة، فباتوا متحارسين، وصار العسكر فريقين، فرقة جراكسة - وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق - وفرقة ترك - وهم أصحاب الأمير بركة - فلما أصبح نهار يوم الأربعاء تاسعه، أنزل الأمير برقوق بالسلطان إلى عنده بالحراقة من الإصطبل، ودقت الكوسات حربيًا بالطبلخاناه من القلعة، فطلع مماليك السلطان إليه، وأمر بباب القلعة من جهة باب القرافة، فسد بالحجارة، ونودي في الأجناد البطالة وأجناد الحلقة بطلوعهم إلى السلطان، فطلع جماعة كبيرة، فرقت فيهم أسلحة، أُخذت في الليل من سوق السلاح بالقاهرة، وركزت كل طائفة منهم على تربة من الترب - فيما بين القلعة وقبة النصر - ليرموا من أعلاها أصحاب بركة عند محاربتهم بالسهام، وبالغ حسين بن الكوراني في حفظ القاهرة، وأخذ الطرقات على من يتوجه إلى بركة بشيء من الأقوات والعلوفات. وقبض على جمال الدين محمود المحتسب، وسجن بالإصطبل من أجل أنه نقل عنه أنه بعث إلى الأمير بركة بمأكل من خبز ولحم وغيره. وتوجه الأمير سودون الشيخوني في الحاجب إلى بركة بتشريف نيابة الشام، فأخرق به وأعاده أقبح عود، ثم ركب وقت القايلة، وكان الوقت صيفا، ومعه الأمير يلبغا الناصري من طريقين، وهجما على حين غفلة إلى تحت الطبلخاناه، يريدان الهجوم على القلعة، فتناولت العامة الحجارة يرجمونهم بها، ورماهم مع ذلك من بأعلى القلعة بالنشاب، وثبت لهم الأمير آلان في نحو مائة فارس، فكانت وقعة عظيمة جدا، أبلى فيها أحمد بن هُمُز التركماني ومماليك بركة - وعدتهم ستمائة فارس - بلاءً عظيما، كسروا فيه أصحاب برقوق عشرين كسرة، يمر في كل وقعة منها ما يتعجب منه، فلما كثرت عليهم حجارة العامة ونشاب من بالقلعة، تقنطر بركة عن فرسه، فأركبه أصحابه، وعادوا به إلى مخيمهم بقبة النصر مكسورا، وقد اقتحم أيتمش على يلبغا الناصري بطبر وضربه حتى كاد يأتي على نفسه، وأخذ جاليشه وطبلخاناته. وجرح كثير منهم، وفر منهم الأمير مبارك شاه المارديني إلى الأمير برقوق في طائفة، فلما دخل الليل تفرق عن بركة أكثر من معه، وأشرفت خيول من بقي على الهلاك، من كثرة جراحاتها، أمرهم أن يطلبوا النجاة لأنفسهم، ومضى ومعه

الأمير أقبغا صيوان استاداره بعد نصف الليل من قبة النصر إلى جامع المَقس خارج باب القنطرة من القاهرة، فاختفيا به، فدل عليهما بعض من هناك، فبعث الأمير الكبير بيونس النوروزى دواداره إليهما، فأخذهما، وأتى بهما إليه في يوم الخميس عاشره، فسجنه نهاره عنده، وحمله في ليلة الجمعة مقيدا إلى الإسكندرية، فسجن بها، وبعث معه بقرا دمرداش، وبأقتمر العثماني، واستمر باب القلعة في يوم الجمعة حادي عشره مغلقا، ولم تصل الجمعة يومئذ يجامع القلعة.

وفي يوم الثلاثاء ثامنة: قدم البريد بوصول آنص - والد الأمير الكبير برقوق - صحبة الخواجا عثمان بن مسافر، فركب الأمير الكبير إلى لقائه وخرج معه عامة العسكر من الأمراء والأجناد، وجميع أرباب الدولة من القضاة والوزراء والأعيان، فلقي أباه بمنزلة العكرشا، وعاد به، وقد قدم معه الكمال المعري قاضي حلب، وولي الدين عبد الله بن أبي البقاء قاضي دمشق. فنزل بالمخيم من سرياقوس وقد أعد له. وهيأت المطابخ. فمد سماط عظيم إلى الغاية، أجلس الأمير الكبير أباه في صدره، وأجلس بجانبه الأمير عز الدين أيدَمُر الشمسي. وجلس الأمير الكبير تحت الأمير أيدَمُر، وجلس بجانب ولد الأمير الكبير من الجهة الأخرى الأمير سيف الدين أقتمُر عبد الغني، فأكلوا وأكل عامة من حضر حتى اكتفوا، ثم رفع فتناهبه الغلمان وسغيرهم، حتى عم ذلك الجمع مع كثرته. وركبوا جميعًا وقت الظهر. وعبروا إلى القاهرة، وقد خلع على الخواجا عثمان، وصعدوا به إلى الإصطبل فكان يومًا مشهودًا، بالغ العامة في إشعال الشموع والقناديل. ثم طلع الخواجا عثمان بآنص، فاشراه السلطان منه وأعتقه، وخلع عليه. وأنعم على آنص بتقدمة ألف فلم يبق أحد من الأمراء حتى قدم له التقادم الجليلة على قدر همته وبذل الأمير الكبير برقوق للخواجا عثمان مالا كثيرًا، وأنعم عليه بإنعامات سنية، من أجل أنه جلب أباه من بلاد الجركس. وفيه أبطل الأمير الكبير برقوق ضمان المغاني بمدينة حماة، وبمدينة الكرك وبمديته الشوبك، وبناحية منية ابن خصيب من أراضي مصر وبناحية زفتا منها، وأبطل ضمان الملح. بمدينة عين تاب وضمان الدقيق من البيرة - معاملة حلب - وضمان قمح المؤونة بدمياط وفارس كور من أردبين إلى ما دون ذلك. وأبطل المقرر على أهل البرلس، وشورى، وبلطيم، وهو شبه الجالية ومبلغه ستون ألف درهم في السنة. وأبطل مكس مدينة إعزاز بأجمعه، وعمر جسر الأردن الذي يعرف بالشريعة. فيما بين بيسان ودمشق، فجاء طوله مائة وعشرون ذراعا.

* * *

سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة

في يوم الأحد ثالث المحرم: قبض على طائفة من عرب البحيرة، نحو ثلاثة وعشرين رجلا عند الأهرام، قد فروا يريدون النجاة، فوسطوا، وأخذت مواشيهم.

وفيه ابتدأ الوباء بالطاعون في الناس بالقاهرة ومصر، وتزايد حتى بلغ عدة من يموت في اليوم ثلاثمائة ميت.

ثم إن القبرسي لما قصد غزو الإسكندرية استنجد. بملوك النصارى بإشارة الباب لهم في ذلك والباب هو بتفخيم الباء الأولى، وهو الذي تنقاد النصارى به، ويزعمرن أنه من ذرية الحواريين، وعنده الصليب الأكبر، الذي إذا أبرزه للغزو لم يبق ملك مَن ملوك النصارى إلا أتى بجيشه نحوه. فإذا خرج الباب بصليبه ذلك ارتجت له بلاد النصرانية، فيظفر بتلك الجيوش القوية على مملكة من خالفه من ملوك الرومانية. فلما أعانت ملوك النصارى صاحب قبرس بالمال والرجال والغربان، بإشارة الباب لهم في ذلك فعمرت المراكب له على ما قيل برودس، لأنها دار صناعة الفرنج، فكانت عمارتها على ما قيل في أربع سنين، وذلك في مدة طوافه على الملوك. فلما رجع إلى قبرس، وجدهم تهيؤوا له فجمع ما جاء به على ما عمر له، وتوجه إلى الإسكندرية. وكانت الأخبار تأتي إلى الإسكندرية، بأن العمارة عند القبرسي، فاهتم نائب السلطان بها - وهو الأمير زين الدين خالد. - فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر، وصار يجتهد في العمارة، ويرسل يطلب من الأمير يلبغا الخاسكي - مقدم الجيوش المنصورة الإعانة على عمارة السور، ويعلمه بخبر عمارة القبرسي للمراكب الحربية، فيقول: " إن القبرسي أقل وأذل من أن يأتي إلى الأسكندرية ". وما علم يلبغا أن شرارة أحرقت الجلمود، وبعوضة أهلكت النمرود، ودلمة قتلت فيلا، وبرغوثا أشهر ملكا جليلا.

* * *

ذكر كيفية ظفر القبرسي بالاسكندرية

بما جمعه من أجناس نصارى الرومانية، وغير ذلك من الواردات المستطردات. وذلك:

أن نائب السلطان بثغر الإسكندرية - وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام - كان غائبا عن الثغر المذكور بالحجاز الشريف، بسبب الحج. وكان نائبا عنه فيه بإشارة الأمير الأتابكي الخاسكي أمير يسمى جنغرا. فلما دخل جنغر المذكور الإسكندرية رأى طوائفها المتطوعة الحارسة لمينتها تبحر عليه بالجزيرة بقسيهم الجرخ الموترة وأعلامهم الحرير المنشورة، مع ما بأيديهم من المزاريق والرمح والدرق والصفاح، والزرد النضيد، ومصفحات الحديد، والنفط الطيار الصاعد منه لهب النار، وهم بملبوسهم المختلف الألوان كالزهر في البستان. فلما عاينهم جنغر بكى وقال: " هؤلاء أهل الجنة لرباطهم وجهادهم في سبيل الله، قد طاب والله العيش بقوة هذا الجيش، لو أتى الإسكندرية جميع نصارى الرومانية، ما قدروا على هذا الجيش الثقيل على الإسكندرية، بل يكسرون النصارى، ويصيرونهم قتلى وأسارى.

فأقام جنغر بالإسكندرية من شوال سنة ست وستين وسبعمائة إلى المحرم، ينظر إلى تلك الطوائف التي لكل طائفة منها ليلة في الأسبوع، تبيت تحرس بساحل، الميناء، وربما بات ليال في الغرفة التي على باب مسجد تربة طغية، ويقدم قدامه فانوسين أكرتين مقابل باب المسجد المذكور. وتأتي طائفة الزراقين يطلقون النفط وهو ينظر من طيقان الغرفة المذكورة إلى الشرار الطيار واللوالب التي تدور بألوان النار، من الخضرة والصفرة، والبياض والحمرة، فيتحصل بذلك الانشراح، من العشي إلى الصباح، ويبتهج أيضًا بنظره إلى كثرة الخلائق المنتشرة على الساحل من الرماة والعوام، وقد نصب لهم سوق فيه من أصناف المأكول، يشترون ويأكلون، ومن ماء الروايا والقرب التي تحمل من البلد إليهم، يشربون. فإذا أصبحوا انتظمت الطائفة التي باتت تحرس، ودخل البلد في همة وجلد وكثرة ومدد، فتجتمع لدخولهم الرجال والنسوان، ينظرون لأقوام كزهر بستان، من حسن الملابس وبياض تلك الأطالس، فتزغرت لهم النسوان إعلانا عند مشاهدتهن لهم عيانا، والأبواق حينئذ تصرخ والكوسات تدق، والمزامر تزمر، والأعلام منشورة، والمباخر بالطيب معمورة، ودخانها يفوح، فتنبسط لتلك الروائح الأرجة كل روح، والناس في شرح وسرور لرؤية ذلك الجيش المخبور، المهتز له الشوارع والدور. فبينما هم كذلك على عادتهم

مستمرين، وفي ثغرهم مطمئنين، لا تروعهم الأعداء، ولا رأوا مكروها أبدا، إذا دهمهم صاحب قبرس اللعين في جنده الضالين، وشتت شملهم أجميعن، فروا منه في البلدان، ودخل البلد باطمئنان، وذلك في يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم، سنة سبع وستين وسبعمائة، والنيل منتشر على البلاد قصد الملعون بإتيانه لتتعوق النجدة من مصر لبعد الطريق من الجبل، فنال الخبيث قصده في ذلك اليوم، والذي بعده، وتحصن قبل إتيان النجدة. بمراكبه، وفرح بسلامة نفسه ومكاسبه فلو كان بها أمراء مجردة ما نال الخبيث منها ثمن زردة لكن كان ذلك في. الكتاب مسطورا، وكان أمر الله قدرا مقدورا.

عود إلى ذكر كيفية إتيان القبرسي إلى الإسكندرية وظفره بها وذلك أنه لما كان في يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة، ظهر في البحر مراكب مشرقة ومغربة، زعم أهل الإسكندرية أنهم تجار البنادقة، ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم على جاري عادتهم في كل سنة. وكانت تجار المسلمين جلبوا لهم من اليمن أصناف البهار، يبيعونها عليهم، ويتّعوضون عنها من متاجرهم.

فلما لم يدخلوا لميناء بات الناس في خوف شديد بسببهم. فلما أصبح يوم الخميس أقبلته المراكب الكثيرة طالبة ساحل الجزيرة، منشورة قلاعها كالقصور البيض. فصار الناس في الطويل العريض من كثرة لهجهم، وحر وهجهم. وتلك المراكب مقلعة آتية قد ملأت البحر من كل ناحية، فلم تزل تشق البحر كالزلزلة، إلى أن حطت قلاعها ببحر السلسلة، وذلك من جهة الباب الأخضر المسدود بعد الوقعة بالجير والحجر، ثم فتح بعد ذلك وركبت علمِه أبوابه الأول والثاني والثالث المتجددة، وذلك في يوم الوقعة سنة سبع وستين وسبعمائة، في ولاية الأمير سيف الدين الأكز بالإسكندرية، وسيأتي ذكر ولايته بها وما فعل فيها إن شاء الله تعالى.

نعود، ولما أرست المراكب الحربية ببحر السلسلة مبرزة عن الساحل اعتد أهل الإسكندرية للقتال والحرب والنزال، فتعمرت القلاع التي من جهة البحر والجزيرة، بالرماة الكثيرة وانتشر الناس على السور، وصار برماة الجرخ معمور، فخرج من مراكب الفرنج قارب يجس الميناء بقميرة، فرمى المسلمون عليه بالسهام، فولى هاربا حتى لصق بالمراكب. فلما كان بعد الغروب، أوقدت الفوانيس على السور، فضاء السور بالنور، وبات المسلمون متأهبين بالسور، محدقين والعدو خانس لم يتحرك من الموضع الذي أرسى به. وصارت تلك المراكب منضمة بعضها إلى بعض، كالطوقَ الصغير في البحر الكبير، فاستهون المسلون أمره وقالوا: " ما يقدر هذا على هذه

المدينة المسورة الحصينة. والقلاع المشيدة المتينة ". فلما كان بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة، انتشر على الساحل بالجزيرة خلق من المسلمين كثيرة، منهم من معه سيفه وترسه، ومنهم من معه نبله وقوسه، ومنهم من معه رمحه وخنجره، ومنهم من ليس عليه سوى ثوبه الذي يستره، وبعضهم قد لبس الزرد المنضد، وبعضهم من هو عاري مجرد. وكانت الباعة خرجوا من البلد بطباليهم وقدورهم ودستوتهم ملآنة بالطعام، يبيعونه على من بالجزيرة من الخاص والعام، وذلك من ليلة الخميس ليكسبوا معايشهم، وهم معلنون بلعن كل راهب وقسيس، وذلك من غير خوف من المراكب التي رؤيت يوم الأربعاء في البحر. ثم إنهم ما فزعوا من الإفرنج باجتماع أفروطتهم يوم الخميس، بل صاروا يلعنون القبرسي كلعنهم لإبليس لأنهم فيما تقدم لهم من بيعهم على الطوائف المتقدم ذكرهم. فكان أحدهم يغضب إذا أنقص له المشترى حبة أو حبتين، ويفرح إذا غلب المشتري بحبة واحدة، فيصير البائع كما قال الشاعر:

لاتغضب السوقي ::: فبالحبة ترضيه
وأخذ الفلس من يده ::: كأخذ الفرس من فيه

فصاروا يشترون من الباعة، ويأكلون كما كانوا في خروجهم مع الطوائف، يعهدون وليس كل منهم مفكر في أسطول الإفرنج، ولا منه خائف. وصارت الحرافيش والعوام يشتمون القبرسي بالصريح، ويسبونه بكل لفظ قبيح، والقبرسي يسمعهم من مراكبه، وهو ساكن، وكل من معه لم ينطق بكلمة، بل كل منهم صامت فقيل: إن القبرسي رمى من أعلى الجزيرة في الليل جواسيسه في زي لباس المسلمين، مستعربين كالشياطين، فاحتاطوا بالمسلمين متجسسين، فرأوهم من لباس الحرب عارين، فاشتروا كما قيل من المأكول، وأتوا به لصاحب قبرس بالأسطول، وقالوا: له ليس بالجزيرة أحد من الشجعان وليس بها إلا من هو من لباس الحرب عريان، يأكلون ويشربون، وبعضهم يحفر في الرمل حفائر وبها ينامون فلما كان قبل الشمس من يوم الجمعة. أقبلت العربان من كل ناحية ومكان، قد تخللوا بالكسيان. وكانت النسوان ينظرن إلى مراكب الفرنج من رؤوس الكيمان التي هي داخل السور، المشرفة على القبور النسوان لتلك العربان. وقلن قد أتت الشجعان، يقتلون عباد الصلبان، فصاروا يتطاردون على خيولهم تحت الكيمان، وقد أرخوا لها الأعنة، عند سماعهم، وتلك العربان كالمطر من كثرتهم، خارجين من الباب الأخضر. فصاروا في الجزيرة كالجراد المنتشر، وكل من سرابيل الحرب منتشر، ليس مع كل واحد

منهم غير سيفه، الأجرب ورمحه، قاصدا إما لقتله أو لجرحه، فقال أحد المغاربة وغيره للأمير جنغرا: " هذا عدو ثقيل، وقد خرج الناس من الثغر عرايا للبلايا، والمصلحة دخولهم المدينة يتحصنون بأسوارها الحصينة. ويقاتلون من خلف الأسوار. ليظن العدو أن خلفها كل رجل كالأسد المغوار، يذيقونه برميهم عليه الشدة. إلى أن تصل من مصر النجحة "، فقال ممن له رباط بالجزيرة: قد انصرف على بنائه ألوف كثيرة، بنيت بين مقابر الأموات لمبيت طوائف القاعات: " ما نترك هؤلاء الفرنج الذي كل منهم رجس مقامر، تطرق بأرجلها ترب المقابر ". قالوا ذلك خوفا على ربطهم تخربها الفرنج إذا نزلوا الجزيرة بجموعهم الكثيرة. فقال عبد الله التاجر لجنغر: " دخول المسلمين البلد أصلح لهم " فقالت " أرباب الربط: " أنتم مغاربة أخربتم بلدكم طرابلس بأخذ الفرنج وتريدون أن تخربوا ربط المسلمين بدخول المسلمين البلد كذلك ولا كرامة، بل نمنعهم النزول من المركب، نذيقهم بالسهام العذاب والرعب.

ثم لما كان بعد وقعة القبرسي بسنتين، رسم السلطان الملك الأشرف شعبان بهدم ماتجده في الجزيرة من الربط والقصور، احترازا من العدو أن ينزلها، فيجد مأوى يأويه، ويجد ما، يشرب من صهاريجها المملوءة. بماء الأمطار، فهدمت تلك الربط والقصور. ولو كان تركوا للقبرسي الجزيرة وتحصنوا بالسور وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور، لكان المسلمون بتحصينهم بالثغر سلموا من القتل والنهب والأسر، وما كان عليهم من إخراب الفرنج للربط المبينة، لسلامة الإسكندرية، من أذى الملة النصرانية، فالذين خافوا على ربطهم تخربت، ودورهم التي داخل البلد نهبت، وذلك بالرأي الغير صائب، حتى حلت بهم المصائب، لكن القضاء إذا نزل لا يرد، وإذا أراد الله بحكم نفذ قال بعضهم:

قضاء المهيمن لا يدفع ::: إذا حل من ذا له يمنع.

و قال الآخر:

وإذا أراد الله إنفاذ القضا ::: لم يكن فيه لمخلوق مفر

نعود إلى ركوب أمير جنغر لكلام أصحاب الربط، وتركه لما قاله له عبد الله التاجر المغربي، فكان جواب جنغر لعبد الله التاجر المذكور: " لست أترك أحدا من الفرنج يصل إلى الساحل، ولو قطعت مني الأوداج ونفذت المقاتل "، وإذا أراد الله أن يلطف بعبده ألهمه حسن التدبير، وإذا خذله شتت رأيه. ثم إن الفرنج صاروا بمراكبهم ينظرون أحوال الناس، فلم يروا إلا من هو عار من اللباس، فطمعوا فيهم،

وزحفوا بغراب التقدمة إليهم، فنزلت إليه طائفة من المغاربة خائفين في الماء، ناوشوا من فيه القتال والحرب، و. النزال، وأمسكوا الغراب بأيديهم وطلبوا من الزراقين النار ليحرقوه، فلم يأت أحد بشرارة، وذلك لقلة همتهم وتهاونهم وغفلتهم، فاستعجلوهم بالنار، فرموا. بمدفع فيه نار كنار الحلفاء، فوقع في الماء فانطفأ. ثم إن المغاربة وأصحاب الغراب ضربوا بعضهم بعضا بالسيوف إلى أن قتلت المغاربة في تلك المحاربة، فحينئذ دخل الغراب الساحل، وتبعه آخر كان يرمي بالسهام. فلما دخلا البر تتابعت الغربان داخلي من أماكن متفرقة، فنزلت الفرنج سريعا من مراكبها بخيلها ورجالها، وقت ضحى نهار يوم الجمعة إلى البر، فرمت الخيالة المسلمون يقدمهم أصحاب الدرق والسيوف، مشاة على الأقدام. فلما رأت الباعة الطعام، الذين كان كل واحد منهم يخاف على الحبة والحبتين، ترك ماعونه وهرب، حافيا بغير نعلين، فمنهم من نجا من الكفرة، ومنهم من صارت هامته على الأرض مكركرة. وكانت الفرنج مسربلة بالزرد النضيد، متجلية بصفائح الحديد، على رؤوسهم الخوذ اللامعة وبأيديهم السيوف القاطعة، قد تنكبوا القسي المولودة، ورفعوا أعلام الصلبان المنشورة. وصاروا يرمون على المسلمين، فارتشقت سهامهم في أهل الإيمان، وفي خيول العربان، فهاجت بهم تلك الخيول في كل جهة ومكان، فانهزموا إلى ناحية السور. فصار جيش المسلمين بهزيمة العربان مكسور، ولا عادوا قابلو الفرنج الكلاب، بل دخلوا البلد عابرين من الأبواب. وكانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم، والمسلمون كاللحم على وضم، فكيف يقاتل اللحم الحديد وكيف يبرز العاري لمن كسى الزرد النضيد، فانهزمت المسلمون وولت، ومن الكفار فرت، فقال الشاعر في ذلك:

قد ولت المسلمون لما ::: باللبس وافاهم جنود

وكيف لا يهربون منهم ::: والناس لحم وهم حديد

ثم إن أهل الإسكندرية لما رأو ما لم يعهدوه أبدا، ولا شاهدوه على طول المدى، رجفت منهم القلوب، وصار كل واحد من عقله مسلوب، ولما رأو من الرؤوس الطائرة، والخيول الغائرة، فتزاحموا في الأبواب، بعضهم على بعض، فصاروا موتى بالطول والعرض، وثبت بعض الناس، وقاتل وهو مجتهد، حتى قتل من الفرنج ما تيسر له قبل أن يستشهد. قيل: إن محمد الشريف الجزار هجم على الفرنج بساطور المجزرة، جعل عظام جماعة منهم مكسرة، وهو يقول: " الله أكبر قتل من كفر " إلى أن تكاثرت عليه منهم جماعة كثيرة، فاستشهد - رحمه الله - بالجزيرة وروى بعض

فقهاء المكاتب يعرف بالفقيه محمد بن الطفال - وهو قاصد الفرنج بسيفه فقيل له: " تموت يا فقيه محمدا ! "، فقال: " إذًا أسعد وأصير مجاورا للنبي محمد، وأي موتة أحسن من الجهاد في سبيل الله لأصير إلى الجنة "، وهجم فيهم فصار يضربهم ويضربونه إلى أن رزق الشهادة، وختم له بالسعادة.

نعود إلى ذكر من قاتل بالجزيرة من المسلمين للفرنج الكافرين. وذلك أن جماعة من رماة قاعة القرافة المتطوعة. لما حوصروا في الرباط الذي عمره لهم الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بالجزيرة بسبب مبيتهم فيه وصلواتهم، وذكرهم ليلة خروج طائفتهم، ترابط به وكان بناؤه قبل الوقعة ما يزيد على سنة، قيل: إنه انصرف على عمارته ثمانمائة دينار فلما تكاثرت الفرنج حول الرباط، صارت رماة المسلمين في أعلاء يرمون على الفرنج بسهامهم، فقتلوا من الفرنج جماعة. فلما نفدت سهامهم عمدوا إلى شرفات الرباط صاروا يهدمونها، ويرمون الفرنج بأحجارها إلى أن نفذت حجارة الشراريف منهم. فانقطع رميهم فكسرت الفرنج شبابيك الرباط المذكور، وصعدوا إليهم فلما صارت الفرانج معهم صاحوا بأجعهم " يا محمد " وصمتوا، فلم يسمع لهم بعد ذلك صوت. أخبر عنهم بذلك عبد الله بن الفقيه أبو بكر قيم مسجد القشيري، كان مختفيا بصهريج المذكور فذبحتهم الفرنج عن آخرهم بخناجرهم، فصارت أدميتهم تجري من ميازيب الرباط المذكور، كجري الأمطار حين أبانها فيها.

وقيل: كان عدد المذبوحين فوق السطح الرباط من المسلمين زيادة على الثلاثين، فطوبى لهم إذ رزقوا الشهادة، وختم لهم بالسعادة. فلما رجع من خرج من الإسكندرية فارا من الفرنج من أبواب البر - كما سيأتي ذكر صفة فرارهم - وعاينوا القتلى المطروحين بالأرض داخل البلد وخارجه بالجزيرة. وقصدوا رباط ابن سلام المذكرر، فرأوا تحت الميازيب دماء كثرة جامدة، فصعدوا إلى سطحه فوجدوا الرماة ذبحوا. وبالجنة قد فرحوا وربحوا فحفروا لهم خارج الربط قبرا متسعا ودفنوهم فيه، رحمة الله عليهم. فكانوا كما قال الله تعالى في أمثالهم:{وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ} [آل عمران: ١٩٥] قال المؤلف - غفر الله له ولوالديه وللمسلمين أجعين: حدثني الشيخ الصاع أحمد بن النشاء - شيخ رماة قاعة القرافة بالإسكندرية - قال: حدثني محمد الخياط بعد قدومه من مدينة قبرص مع من حضروا من أساري الإسكندرية الراجعين إليها منها. قال: " كنت مع رماة المسلمين على سطح رباط ابن سلام. حين

صعدت الفرنج إلينا، فصاروا يذبحون الرماة، وأنا أضطرب من الخوف، فتركوني حيا لصغر سني وأما حسين البياع فإنهم لما قصدوا ذبحه. ضحك لهم فضحكت الفرنج بضحكه: وقالوا: " اتركوه، لأنه ضحك موضع الخوف، فأسرنا نحن الاثنين، فحزن حسين بعد ذلك وبكى ".

ولما رأى الشيخ محمد بن سلام ما فعل برباطه من بابه وشبابيكه النحاس وكسر قناديله. وحرق سقف إيوانه، وقتل رماة المسلمين به بكى وتألم على ما رأى وشاهد. فسد حينئذ شبابيكه وبابه بالحجارة. ثم أنه عمره ثانيا سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، فصار كما كان أولا، لكنه أقنى سقف إيوانه بالحجارة لا بالخشب، حتى لا يصير للنار فيه عمل، إن حدث أمر...

نعود إلى ذكر خبر الإسكندرية: وذلك أن الأمير جنغرا المتقدم ذكره، لما رأى الناس فروا من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله بلذع سهام الفرنج، والتذع هو أيضًا بها، وسال دمه من نصلها. ندم على مخالفته لقول القائل: " أدخل الناس ليتحصنوا بأسوارها الحصينة يقاتلوا الفرنج الكفار بسهامهم من كوى الأسوار. إلى أن تأتي النجدة في أقرب مدة، ليزول بحضروها عن المسلمين الشدة ". فتيقن حينئذ أن عدم خروجهم من الأبواب كان عين الصواب، وأن الذي أشار بعدم دخولهم البلد كان فيه أليم العذاب، وصار كل منهم بالفرار مركون ببلد البسلقون وبلد الكريان، وغيرهما من البلاد الدانية والبعاد.

ثم إن جنغرا قصد ناحية المطرق المحاذي لدار السلطان، غربي الإسكندرية من ظاهر سورها، خائضا بفرسه في الماء، ومن معه من المسلمين فدخل الإسكندرية من باب الخوخة. فأتى بيت المال، أخذ ما كان فيه من ذهب وفضة، وأخرجها من باب البر، وأمر بتجار الفرنج وقناصلهم - وكانوا نحو خمسين بالإسكندرية مقيمين - أخرجهم من باب البر، ووجههم إلى ناحية دمنهور، بعد أن امتنعوا من الخروج مع الجبلية المرسمين عليهم. فعند ذلك ضرب أحد الجبلية عنق إفرنجي منهم بسيفه، فحين رأوا ذلك، خافوا أن تضرب أعناقهم، فأذعنوا بالخروج سرحة، فخرجت الجبلية بهم مسلسلين إلى جهة دمنهور. وكان خروجهم بهم حين انضمام العدو إلى القرب من السور فرمتهم المسلمون من أعلى السور بالسهام، فلم يقدروا على الوصول إليه. ثم إن الفرنج عمدوا إلى بتية خشب ماؤها حريقا، وقصدوا بها حرق باب البحر، بكركرتها بأسنة الرماح، فتتابعت عليهم السهام من أعلى السور فقتل من الفرنج جماعة، فحاروا في أمرهم ماذا يفعلون، فتركوا البتية تتقد بنارها، بعيدا من

الباب، ورجعوا إلى ناحية الميناء الشرقية، ونظروا فلم يجدوا على السور من تلك الجهة أحدا. ولا ثم خندق يمنع من الصعود إلى السور، فدرجوا إلى جهة باب الديوان أحرقوه، ودخلوا مع ما نصبوا هناك من السلالم الخشب المفصلة، صعدوا عليها السور فلما رآهم المسلمون الذين على السور من البعد قد صعدوه وبينهم وبين الفرنج قلعة عالية غير نافذة إليهم، شردوا طالبين النجاة منهم لكثرتهم، ولتحققهم بأن الفرنج ملكت البلد، فقتل من المسلمين من أدركته الفرنج، وسلم منهم من خرج من أبواب البر، فلو كان السور الذي يلي البحر معمرًا بالرجال من جهة الديوان والصناعة سلمت منهم الإسكندرية، وإنما قال شمس الدين بن غراب كاتب الديوان، وشمس الدين بن أبي عذيبة الناظر " أغلقوا باب الديوان الذي يلي البلد لئلا تنقل التجار بضائعها منه إلى البلد فتضيع الحقوق التي عليها ". فقفل الباب فلذلك امتنعت الرماة من تلك الجهة من السور، فبذلك رأى العدو جهة خالية ودخل البلد منها. وقيل إن ابن غراب المذكور كان متعاملا مع صاحب قبرس عليها، وأن صاحب قبرس أتاها قبل الوقعة في زي تاجر أواه ابن غراب المذكور مدة، فصار القبرسي يتمشى بالبلد في جملة الفرنج التي بها تجارا وهو يكيفها وينظر أحوال الناس. فلما علم ذلك بعد الوقعة وسط الأمير صلاح الدين بن عرام بعد قدومه من الحجاز شمس الدين بن غراب، وعلقه قطعتين على باب رشيد. فلو فتح باب الديوان الذي على البلد قاتلت المسلمون الفرنج من أعلى سوره، ووجدوا ما يقوتهم بالأكل من نقل الشام. وكانت أصحاب البضائع تحرسها، ويطعمون منها المجاهدين. فلما لم يكن للأمير جنغرا رأى صائب، وقفل ابن غراب والناظر لباب الديوان، أخذت الفرنج البلد منه، ونفذت المقادير، من كل كبير من أهل الثغر وصغير، فمنهم من قتل، ومنهم من أسر، ومنهم من سلم، ومنهم من كسر، ومنهم من هرب بعد أن ألقى سلاحه واضطرب، ومنهم من ترك وطنه وتغرب، ومنهم من ازدحم في الأبواب ومات، ومنهم من افتقر وبلى بالشتات، فما أسرع ما أخذ الثغر، وما أعجل ما انكوت قلوب أهله بالجمر، ظفرت به الفرنج في اليوم الذي نزلوا فيه من مراكبهم إلى البر، ولا أمسك بالحصار يومين بل أخذ من المسلمين في ساعتين وقيل إن الحصار للمدن والحصون تمسك السنة والسنتين.

فلما دخل الإسكندرية الأمير الأتابكي يلبغا الخاسكي، بعد الوقعة، قيل له ذلك فقال: " إذا كان النخال حفظ جهته فكيف لو كان دقيقًا أو سويقًا. كان يحمي البلد ولم يدخل إليه من الإفرنج أحد، " وكان فرار أهل الإسكندرية من الفرنج من باب السدرة وباب الزهري وباب رشيد بعد زحام شديد، فمنهم من أدركته الفرنج بباب السدرة

فقتلته، ومنهم من أسرته، ومنهم من نزل من السور في الحبال والعمائم، فعطب العاطب وسلم السالم، وصعدت الفرنج على أعلى باب السدرة. نصبت عليه الصلبان، وصار كل واحد من المسلمين برؤيته للفرنج كالهائم الولهان.

وكان خروج أهل الإسكندرية من الأبواب من أعجب العجاب، وذلك لازدحامهم. وهلاك بعضهم من قوة الزحمة. وفي ذلك الوقت نزعت من قلوبهم الرحمة، فخرج من الأبواب ألوف مؤلفة، بتوحيد الله معترفة، فامتلأت منهم الغيطان والبلدان، ونهب بعضهم العربان، وغلا السعر بينهم ما جلبته الباعة إليهم من البلدان، فباعوا الغالي بالرخيص، وصار كل منهم على تحصيل القوت حريص، ولا أمكنهم ترك القوت لزيادة الغلاء ولا رجعوا إلى قول الشاعر في بيته السائر بين الملأ وهو:

وإذا غـــلا شــــيء علــــى تركتـــــه ::: فيكون أرخص ما يكـــون إذا غـــلا

ثم إنه لما حصل الغلاء بين أهل الإسكندرية، الذين فروا من الملة النصرانية، ومنهم من باع ما عليه من فوطة وفاضل قميص، ومنهم من باع ما يتدفأ به من جبة وفرو مصيص، وذلك لخروجهم من بلدهم سرعة، وليسع مع بعضهم درهم ولا قطعة، بل تركوا ديارهم مغلقة الأبواب، كسرتها ورتعت فيها الإفرنج الكلاب، فنهبتها من الحوانيت والفنادق. وحملت ما فيها على الجمال والبغال والحمير والأيانق، ثم قتلوا من اختفي عند مصادفتها له من كبير وصغير، وعرقبوا المواشي، فمنهم هالك وكسير. ثم إنهم أحرقوا القياسر والخانات، وأفسدوا النسوان والبنات، وكسر كل علج مارد قناديل الجوامع والمساجد، وعلقوا على السور أعلام الصلبان، وأسروا الرجال والنساء والولدن، وقتلوا كل شيخ عاجز. حتى المجانين والبلهاء والعجائز وضاع للناس في خروجهم من أبواب المدينة ما استخفوا حمله من ذهب ومصاغ للزينة وذلك من قوة الزحمة وطلب النجاة بقوة يتمه فمن الناس من خرج. بمن كان معه، ومنهم من ضاع ما معه في تلك الزحمة المفظعة ومنهم من ضاع ماله الذي خرج به بين الأبواب، وصار من ضياعه في حسرة واكتئاب، قيل: إن بعض تجار الأعاجم خرج من باب رشيد ومعه جراب فيه ستة آلاف دينار، فمن قوة الزحمة في الباب سقط من بين يديه، بعد أن كان قابضا عليه، فما قدر على الانحناء يأخذه من الأرض من قوة ازدحام الناس بعضهم لبعض، بل رفعه من كان خلفه، فخرج صحيح البدن من الباب، مجروح القلب من ضياع الجراب، فتفتت أكباده، وعدم نومه ورقاده وصار إلى الجنون انقياده، وزال عنه عقله ورشاده، وصار يستغيث فلا يغاث، ونحل جسمه حتى صارت عظامه كالرفات، ثم حصل له بذلك الضرر والبؤس، لما أحاطت

به العكوس والنحوس، فصارت الأحباب تلومه على ضيعة الجراب، فأنشد من لوعة الاكتئاب:

إذا كنت ألقى البؤس عنــد أحــبتي ::: ترى عند أعــدائي يكــون دوائــي

ثم إن الفرنج فعلوا بالإسكندرية ما تقدم ذكره من نهب بعد كسر وقتل وإحراق، من عصر يوم الجمعة إلى أخر يوم السبت ثانيه. وكان مما أحرقوه حوانيت الحرف بكمالها، وسوق القشاشين بالمعاريج، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأعاجم من خارجها من الجهة الشرقية، وحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه، وفندق الطبيبة مع فندق الجوكندار، وفندق الدماميني الذي يسوق الجوار، ووكالة الكنان المقابلة لجامع الجيوشي بالقرب من العطارين مع سوق الخشابين. وأحرقوا أيضًا درابزي مدرسة ابن حباشة مع سقف الإيوان، وعبثوا بكل ناحية ومكان، وأحرقوا باب مدرسة الفخر القريبة من باب رشيد، وعبث بإحراق بعض حوانيت المحجة كل علج مريد. ذكر لي شيخ يسكن بالحجة قال: " كنت مختفيا بأعلى داري في مكان أنظر من كوة صغيرة، فرأيت الفرنج يأتون إلى الحانوت المغلق الباب، فيمد أحدهم على بابه خطة سوداء، ويخط من فوقها خطة حمراء، ويلقم الخط النار فيلتهب الباب بسرعة " قيل إن الفرنج يستصحبون معهم حلق الحراقات المغموسة بالزيت والقطران والزفت والنفط، فيضع أحدهم الحلقة الواحدة في نصل السهم الموضوع على متن قوس الركاب، ويلقم الحلقة النار، ويفك الوتر من الحوزة، فيخرج السهم صاعدًا إلى السقف يوكز فيه، فليتهب الخشب بسرعة، فينزل إلى الأرض يحرق كل ما في البيت، مما ليس تحملهم به حاجة. يفعلون ذلك نكاية للمسلمين. لعنة الله على الفرنج أجمعين.

نعود إلى ذكر ما فعلته الفرنج بالإسكندرية: ثم إن الملاعين أحرقوا فندق الكيتلانيين، وفندق الجنويين، وفندق الموزة، وفندق الموسليين، فصارت النار تعمل في البندق والبضائع التي لم تجد لها محملا معهم، لإشحان مراكبهم مما أخذوه من أموال الإسكندرية ثم كسرت الفرنج أيضًا حوانيت الشماعين والبياعين، بعد نهب قياسر البزازين، وكسروا ما فيها من الأوعية والأواني والأحقاف والبراني، فصارت ملقاة مطروحة في الطرقات، قد سال ما فيها من زيت وعسل وسمن وغير ذلك، وكسروا أيضًا حوانيت الصاغة، وأخذوا ما فيها من مال ومصاغ، كما أخذوا من حوانيت الصرف ما كان بها من دنانير ودراهم، ونهبوا أقمشة التجار المصريين والشاميين المخزونة المبيعة للسفر بها لمصر والشام ونهبوا أيضًا الحديد الذي قدمت

به تجار الأعاجم وغيرهم إلى الإسكندرية، وكانت عدة قناطير، ونهبوا من الدور الأموال والأقمشة والمصاغ والفرش والبسط والنحاس وغيره وأخذوا معهم باب المنار الذي كان عمره الأمير صلاح الدين عرام قبل الوقعة، على الأساس الذي كان أسسه الملك المنصور قلاوون وبطل عمارته، فعمل ابن عرام عليه حصنا دائرًا، ثم أخذت الفرنج أيضًا شبابيك قبة طغية انتي بالجزيرة وأحرقوا سقف الربط التي بها، وهي التي خاف عليها أصحابها من الإفرنج قبل نزول الفرنج من مراكبهم، وكسروا قناديلها وقناديل المزارات، وأفسدوا قصور الجزيرة وتربها، وكسروا أعمدة قبة منبر مصلى العيد، وعمودي ضريح قبة تربة الأمير طغية، والأمير بلاط، واللذين فيهما تاريخ وفاتهما. وكانا مموهين بالذهب واللازورد، وقلعوا حلقتي باب المدرسة الخلاصية التي عمرها نور الدين بن خلاص، وكانا من النحاس المخرم فعمل لباب المذكورة غيرهما بعد أشهر من حين الوقعة، وأخذوا منها كرسي الربعة وبيتها، وكانا من النحاس الأندلسي المخرم، المنزل فيهما اليقات الفضة بدائرها، لم ير منها حسن صنعة وتدقيق وتخريم وتركوا أجزاء الربعة المذكورة الثلاثين جزءا مطروحة بالمدرسة المذكورة، لا يأخذوا جزءًا واحدا، وصعدوا صومعة المدرسة النابلسية، فوجدوا فيها جمال الدين ابن بانيها مختفيا منهم بها، وكان شيخًا كبيرًا، ضعيف البنية، فألقوه على رأسه من أعلاها إلى الأرض، فاندقت عنقه. فمات شهيدًا رحمه الله. وقتلوا من وجدوه بالجوامع والمشاهد وأقاموا بالإسكندرية العرابد فقتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والحانات، وكانت الفرنج تخرج بالنهب من الإسكندرية إلى مراكبهم على الإبل والخيل والبغال والحمير، فما فرغوا من النهب. وقضوا إربهم من البلد، طعنوها بالرماح وعرقبوها بالصفاح، فصارت مطروحة بالجزيرة والبلد لم يعلم لها عدد، فهلكت وجافت، فأحرقها المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها.

ثم إن الفرنج تحصنوا. بمراكبهم بعد وقرها وإشحانها. بما نهبوه، وكانت تزيد على سبعين مركبا، وتركوا بالساحل فضلات البهار التي لم يجدوا لها محملا، فرجع إلى أربابه، من وجد علامة عليه أخذه، ثم إن مراكب الفرنج ثقلت. بما فيها، فصاروا يلقون ما فيها في البحر - على ما قيل - لتخف من كثرة الوسق وكان الغواصون يرفعون النحاس وغيره بناحية أبو قير، ولولا لطف الله تعالى بعباده بحرقهم باب رشيد وباب الزيادي كانت الفرنج ملكت البلد وحصل التعب في خلاصه، كما حصل في طرابلس الغرب ومدينة أنطاكية ببر التركية، وسيأتي فيما يرد من هذا الكتاب ذكر ظفر الفرنج بهما إن شاء الله تعالى. ولطف الله تعالى بعباده المسلمين في عدم

معرفة الفرنج لقصر السلاح، الذي بالموضع المعروف بالإسكندرية بالزريبة، لو فهموه أحرقوا جميع ما فيه من السلاح المدخر من عهد الملوك السالفة. رحمة ا للّه عليهم، فلقد وضعوا فيه من الأسلحة الكثيرة ما ليس لعددها حصر، ذكر أبو العباس أحمد شيخ رماة قاعة القرافة المرصدة لسلاح الجهاد المتطوع به: بها ستون ألف سهم من بعض السهام التي في أحد بيوت قاعة من قاعاته، قيل: إن فيه عدة قاعات في كل قاعة عدة بيوت، في كل بيت آلاف مؤلفة من السهام، إلى غيرها من السيوف والرماح والمزاريق والأتراس والخوذ والقنابر والزرد والزرديات والأطواف والقرقلات، والسواعد والركب والساقات والأقدام الحديد والقسي الملولبة والجرخ والركاب والأعلام ما لا ينحصر بالأقلام. ثم فيه أيضًا من حجارة العلاج والمدافع والنفط وحيل الحروب ومكايدها كثيرًا، فلو علمت به الفرنج أحرقته سريعا، فحصل اللطف الكبير من اللطيف الخبير لعدم معرفتهم إياه، بعد أن أتوا إلى بابه ظنوا أنه أحد أبواب المدينة، خافوا من كسر بابه ليكون ورائه كمين يطبق عليهم. قال المؤلف - غفر اللّه له ولوالديه وللمسلمين أجمعين - حدثني الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن يوسف حارس القصر المذكور - ويعرف بابن قراج - قال: " كنت فيه بمفردي لما دخلت الفرنج الإسكندرية، فأغلقت بابه، وقرأت حزب سيدي الشيخ الصالح أبي الحسن الشاذلي، وإذا بالفرنج أتوا إلى الزريبة، فيهم خيالة ومشاة، وكنت صعدت أعلى القصر، فعدت أنظر إليهم من شقوق في حائط، فطلع بعضهم على زلاقة بابه، وصاروا يتشاورون في أمره، وكنت أعددت لنفسي مكانًا أختفي فيه إن دخلوه، ولكن خفت بأن يحرقوه فأهلك بالنار، فوقفوا ساعة وتركوه ومضوا، فرأى أحدهم صبيا بالزريبة يعدو سريعا حين معاينته لهم، فعدى الإفرنجي، فلما أحس به الصبي ووقف باهتا من الخوف، فضربه الإفرنجي، فالتقى الصبي الضربة بيده اليسرى. فطارت يده إلى الأرض، ثم ضربه ضربة أخرى على عاتقه، فوقع على شقه الأيمن مستقبل القبلة، ومضى وتركه. فصار الصبي ينمق الذباب بيده اليمنى عن وجهه وجراحه وهو راقد، وما أمكنني النزول إليه من القصر، خوفًا من رجوع الفرنج إلى الزريبة فصار الصبي مطروحا بالأرض إلى أن مات شهيدًا، رحمه الله ". انتهى.

نعود إلى ذكر ما أحرقته الفرنج أيضًا بالإسكندرية: وذلك أنهم أحرقوا أبواب البحر الأولى والثاني، وأبواب الباب الأخضر الثلاثة، وباب الخوخة، والمجانيق التي كانت بالصناعتين الشرقية والغربية، وكان أهل الإسكندرية وقت هزيمتهم خرقوا أغربة كانت بالصناعة الشرقية لئلا تأخذها الفرنج، فلما رأتها الفرنج محروقة

أحرقتها بالنـار، ثم أحرقت الفرنج أيضًا دار الطراز والديوان، بعد أن أخفوا ما فـي دار الطـراز من الاستعمالات الرفيعة الأثمان وأحرقوا أيضًا قلعة ضرغام والمكان المعروف بالمكدس، وكان برسم الاستعمالات أيضًا. وكانت مدة إقامة الفرنج من حين أتوا إلى الإسكندرية وظفروا بها إلى آخر من سافر منهم ثمانية أيام، وذلك أنهم أتوها يوم الخميس حادي عشرين المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة، وسافر آخرهم يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر المذكور، وكان سبب إقامتهم تلك الأيام لينظروا من البحر من يأتي من البحيرة من مصر. فلما عاينوا وهم بمراكبهم العساكر أقبلت كالجراد المنتشر، يقدمها الأمير الأتابكي يلبغا الخاسكي، سافروا.

* * *

السلطان صلاح زين الدين أبو الجود

حاجي بن الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون الألفي.

أقيم في السلطنة ثاني يوم مات أخوه المنصور وقد اجتمع الأمير الكبير برقوق والأمراء بالقلعة في يوم الاثنين رابع عشرينه، واستدعوا الخليفة وقضاة القضاة إلى باب الستارة، وأحضر إليهم أولاد الملك الأشرف شعبان، وهم إسماعيل وأبو بكر وحاجي، فوقع الاختيار على حاجي - فإنه أكبرهم - فحلفوا له، وبايعه الخليفة. ثم أركب من باب الستارة بشعار السلطنة، والأمراء في ركابه مشاه، حتى صعد الإيوان فأجلس على تخت الملك، ولقب بالملك الصالح، ومد السماط بين يديه، ثم عبروا به إلى القصر، فأجلس به، وخلع على الخليفة، ونودي في القاهرة ومصر بالدعاء للسلطان الملك الصالح.

* * *

سنه أربع وثمانين وسبعمائة

وفيه رسم الأمير الكبير بإطلاق من في سجني الديلم والرحبة من المديونين، فأفرج عنهم جميعهم، وأغلق باب السجنين، ومنع القضاة من سجن أحد على دين، لما بالناس من الغلاء ووقوف الحال، فاشتدت وطأة الحجاب على الناس بالضرب على الديون، وترسيم نقبائهم على من في ذمته دين. وقدمت رسل ألفنس - متملك أشبيلية - بسبب الإفراج عن تكفور حاكم سيس، فأجيبوا إلى ذلك.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره: جمع الأمير الكبير برقوق الأمراء والقضاة ومشايخ العلم، وأهل الدولة، والخليفة، إلى عنده بالحراقة من الإططبل، وعرفهم أن الأمور مضطربة لصغر سن السلطان، وقلة حرمته، وأن الوقت محتاج إلى ملك عاقل يستبد بأحوال الدولة، ويقوم بأمور الناس، وينهض بأعباء الحروب والتدبير ونحو ذلك. فاتفقوا جميعهم معه على خلع الملك الصالح حاجي، وبعثوا في الحال بالأمير قُطلوبُغا الكوكاي - أمير سلاح - والأمير ألطُنبُغُا المعلم - رأس نوبة - فقبضا على الملك الصالح من القصر، وأدخلاه إلى دور الحرم، وأخذا منه نمجاة الملك، وعادا بها، فانقضت دولة الأتراك من مصر، وزالت دولة بني قلاون، وصح ما أنذر به أرباب الحدثان، فقد قيل:

تمت ولايتهم بالحاء لا أحد ::: من البنين يداني الملك في الزمن

وكذا كان، فإن آخر أولاد الناصر محمد بن قلاوون السلطان حسن بن محمد وآخر من ولي من أولاد الأولاد حاجي، وعلى رأسه زالت دولتهم، وبه ختمت ملوكهم، فسبحان محيل الأحوال، لا إله إلا هو.

* * *

السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق
ابن آنص الجركسي العثماني اليلبغاوي القائم بدولة الجراكسة

أخذ من بلاد الجركس، فأبيع ببلاد الفرم، ثم جلبه الخواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى مصر، فاشتراه الأمير يلبُغا العُمَري الخاصكي وأعتقه، وجعله من جملة مماليكه الأجلاب، وكان اسمه ألطنبغا فسماه الأمير يلبغا - برقوق - لنتوء في عينه، ومولده في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة - تخمينا - فإنه ذكر في سنة ثمان وتسعين أن سنه سبع وخمسون سنة. فلما قتل الأمير يلبغا - وكانت واقعة الأجلاب - أخرج برقوق فيمن أخرج منهم، وسجن بالكرك مدة، ثم أفرج عنه وصار إلى دمشق، فخدم عند نائبها الأمير مَنجكَ حتى طلب الملك الأشرف شعبان اليلبغاوية، قدم مع من قدم منهم، وصار في خدمة الأسياد، من جملة مماليكهم، إلى أن ثاروا بعد سفر الأشرف إلى الحجاز، كان ممن ثار معهم، وانتقل من الجندية إلى إمرة طبلخاناه، ثم إلى إمرة مائة، وملك الإصطبل، وعمل أمير آخور، ثم أميرًا كبيرًا. ومازال يدبر الأمور، والأقدار تساعده، حتى ذهب من يعانده، وتثبت دولته، ووافقه الجميع، على أن يكون سلطان البلاد..

* * *

سنة خمس وثمانين وسبعمائة

وفي يوم الخميس ثاني صفر: قدمت رسل السلطان أحمد بن أويس - متملك بغداد - بهدية فيها فهد وصقر وأربع بقج قماش، وتضمن كتابه أنه ملك بغداد بعد أخيه.

وفي سابع عشرة: أفرج عن الأمير قرط.

وفي أول شهر ربيع الأول: قدم الخبر بأن طائفة من الفرنج شحنوا مراكبهم، وساروا من مدينة الإسكندرية هاربين، فتبعهم المسلمون من الغد، وقاتلوهم، فقتل عدة من المسلمين، وعاد من بقي بغير طائل، فقبض الأمير بلوط النائب على من تأخر بالثغر من الفرنج، وأخذ أموالهم، فتنكر السلطان على النائب، وكتب بقدومه.

* * *

سنة ست وثمانين وسبعمائة

وفي يوم الجمعة رابع عشرة: كان عقد السلطان على فاطمة ابنة الأمير مَنجك اليوسفي وقبل النكاح كاتب السر أوحد الدين عبد الواحد، وخلع عليه وعلى ناظر الخاص، وقضاة القضاة الأربع، وموقعي الحكم وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرة: نزل السلطان إلى عيادة الأمير الطنبغا الجوباني أمير مجلس وقد مرض وفيه طلع الأمير بيدمُر نائب الشام بتقدمة جليلة، تشتمل على عشرين مملوكًا منتخبة، وثلاثة وثلاثين حمالا عليها أنواع الثياب من الحرير والصوف والفرو بأنواعه، وثلاثة عشر كلبًا سلوقيا، وثمانية عشر فرسا عليها جلال الحرير، وخمسين فحلا، واثنين وثلاثين حجرة ومائة أكديش لتتمة مائتي فرس، وثماني قطر هجن بقماش ذهب، وخمسة وعشرين قنطارا من الهُجن بُعبي، وبكيران ساذجة، وأربعة قطر جمال بخاتي، لكل جمل منها سنمان وثمانين جملا عرايا. وباسم ولد السلطان سيدي محمد عشرين فرسا وخمس عشرة حمَّالا ثيابا وغيرها.

وفي آخره ركب الأمير سودن بن النائب، ومعه قضاة القضاة إلى الكنيسة المعلقة بقصر الشمع من مدينة مصر الفسطاط، وكشفها، وهدم ما استجده النصارى بها من البناء.

وفي يوم السبت تاسع رجب: - ورابع أيام النسيء - ركب السلطان إلى الميدان للعب بالكرة مع الأمراء على العادة في كل سنة.

وفيه قدم عليه رسل التركمان، فعفا عنهم. وكان من خبرهم أن الأمير يلبغا الناصري نائب حلب بلغه أن التركمان الأجقية والبوزقية استولوا على مدينة مرعش واقتلعوها، وكسروا تركمان الطاعة المقيمين بها. فركب في أوائل ربيع الآخر بفرقة من العسكر، ونزل مرعش، وقتل عدة من المذكورين، وجرح كثيرا، وهزم باقيهم إلى الجبال، فأخذ أموالهم، وحرق بيوتهم، وأقام. بمرعش أيامًا، فأتاه الخبر بأن خليل ابن دلغادر - عدو الدولة - اتفق مع القاضي إبراهيم حاكم سيواس وأرزنجان ومع التتار، وسار بهم أطراف بلاد درندة دوركي، فنهبوا وعاثوا، فركب من مرعش، وسار إلى أبلستين، وبعث كشافته في طلب القوم، فإذا بهم قد تفرقوا، فأقام عليها أياما - على نهر جاهان - ثم رحل يريد ابن دلغادر. وقد بلغه نزوله بالقرب من سيواس، فبلغه ذلك، ففر، وعاد الناصري. ثم سار إلى رأس العين من عمل ماردين، ثم عاد إلى حران في طلب التركمان، فأقام عليها أياما ثم عاد.

سنة سبع وثمانين وسبعمائة

وفي حادي عشرينه: قدمت الشواني إلى شاطئ النيل ببولاق - خارج القاهرة - بالأسرى والغنيمة، فعرضت الأسرى من الغد على السلطان.

وقدم الخبر بأن أولاد الكنز هجموا على ثغر أسوان، وقتلوا معظم أهله، ونهبوا الناس، وأن الوالي فر منهم. فخلع على حسين بن قرط بن عمر التركماني، واستقر في ولاية أسوان. ورُسم أن يتوجه معه الكاشف وابن مازن. وخلع على مُقبل مملوك الأزقي، واستقر في ولاية أشموم الرمان، بعد موت بيليك. وفيه قدم الأمير يلبغا الناصري إلى بلبيس، فقيد وحمل إلى الإسكندرية فسجن بها.

وفيه قدم رسل متملك مدينة اصطنبول بهديته وكتابه، يتضمن. أن تمكن تجارهم من القدوم إلى بلاد مصر والشام، وأن يقام لهم قنصل بثغر الإسكندرية أسوة بغيرهم من طوائف الفرنج، فأجيب إلى ذلك.

وفي هذا الشهر: قدمت رسل تيمورلنك - القائم ببلاد الشرق - بكتابه فأعيدوا بجوابه. وفيه استقر محب الدين أبو المعالي محمد بن الكمال محمد بن محمد بن الشحنة في قضاء الحنفية بحلب، بعد وفاة جمال الدين إبراهيم بن محمد بن العديم. واستقر جمال الدين عبد الله النحريري في قضاء المالكية بحلب بعد وفاة زين الدين عبد الرحمن بن رشد. واستقر شهاب الدين أحمد بن محمد بن موسى بن فياض بن عبد العزيز المقدسي الصالحي في قضاء الحنابلة بحلب، عوضا عن عمه شهاب الدين أحمد ابن موسى بن فياض. واستقر شهاب الدين أحمد بن السلاوي في قضاء الشافعية بطرابلس، عوضًا عن ابن وهيبة. واستقر شهاب الدين أحمد بن عبد الله النحريري في قضاء المالكية بطرابلس عوضا عن ناصر الدين محمد بن سرى الدين إسماعيل بن محمد بن هانئ الأندلسي.

* * *

سنة ثمان وثمانين وسبعمائة

وقدم الخبر ماردين باستيلاء تيمورلنك على مدينة تبريز، وقتل أهلها وتخريبها.

وفي ليلة السبت تاسع عشرينه: دخل إلى القاهرة نحو ستين رجلا، يقال: أنهم تدلوا من السور ونهبوا سوق الجمالين بالقرب من جامع الحاكم، وقتلوا نفرين. فركب الأمير حسام الدين حسين بن الكوراني - والي القاهرة - وقبض على ثلاثة منهم في بعض الضواحي ومعهم بعض ما نهبوه، فعاقبهم حتى دلوه على بقيتهم.

وفي أول جماى الآخرة: قدم البريد من حلب. بمسير عساكر الشام لمحاربة التركمان، وكانت بينهم وقعة عظيمة، قتل فيها سبعة عشر أميرًا، منهم سودن العلاي نائب حماة. وقتل من الأجناد خلق كثير، وانكسر بقية العسكر.

وفي سلخه: قدمت رسل أحمد بن أويس - متملك بغداد - بكتابه، يتضمن أن تيمورلنك نزل قرا باغ، ليشتي بها ثم يعود، وحذر منه.

* * *

سنة تسع وثمانين وسبعمائة

في يوم السبت سابع عشر صفر: قدم الأمير ألطُنْبغا الجوباني من الكرك باستدعاء، فبالغ السلطان في إكرامه، وألبسه لنيابة دمشق تشريفا سنيا، في تاسع عشره، عوضا عن أَشَقتمُر الماردينى.

وورد البريد بنزول الفرنج على طرابلس، فحاربهم المسلمون، وغنموا منهم ثلاثة مراكب، وقتلوا جماعة كثيرة.

* * *

سنة تسعين وسبعمائة

في المحرم: قدم قاصد من الأمير منطاش،، يخبر أنه باق على الطاعة، فقدم البريد من حلب أنه خارج عن الطاعة، وقصد بهذا المدافعة عنه، حتى يدخل فصل الربيع، وتذوب الثلوج. فسير السلطان الأمير سيف الدين تُلكتمُر الدوادار بعشرة آلاف دينار للأمراء المجردين، تقوية لهم وتوسعة عليهم، وليعرف حقيقة أمر منطاش

وقدم الأمير جُمُق بن الأتابك أيْتمش من حلب، وقد قلد الناصري النيابة بها.

وقدم الخبر برحيل تمرلنك عن توريز إلى سمرقند وأن الأسعار ارتفعت بسائر بلاد الشام، وأبيعت الغرارة القمح في بلد الرملة بثلاثمائة درهم فضة، فنقل الناس الغلال من ديار مصر إليها.

وفيه قدمت رسل الأمير قرا محمد التركماني بكتابه، يخبر أنه أخذ مدينة تبريز، وضرب بها السكة باسم السلطان، ودعا له على منابرها، وسير دنانير ودراهم ضربت بالسكة السلطانية. وسأل أن يكون بها نائبا عن السلطة، فأجيب بالشكر والثناء. واستقر جمق السيفي في ولاية الفيوم وكشفها، عوضا عن أمير حاج بن أيدَمُر. وقدم الأمير شيخ الصفوي من طرابلس.

وفي ثاني عشرينه: استقر شمس الدين محمد بن عيسى أمير عرب العائد في كشف الشرقية وولايتها، عوضا عن قُطْلُوبُغا التركماني.

* * *

سنة إحدى وتسعين وسبعمائة

وفي ثامنه: قدمت رسل ابن قرَمان بهدية، فقبلها السلطان، وخلع عليهم.

وفي تاسع عشره: قدمت رسل فرنج جنوة بالخواجا علي وأقارب السلطان ومعه هدية ملكهم، فقبلت، وخلع عليهم.

وفي ثالث عشرينه: قدم البريد من سيس بأن خليل بن دلغادر، ونائب سيس، جمعا تركمان الطاعة وحاربوا سولى بن دلغادر ومنطاش، وقتلوا كثيرا من أصحابهما، وهزماهما، وغنما ما معهما من الأموال والحريم.

وفي عاشره: بعث السلطان هدية الأمير يلبغا الناصري، فيها عدة خيول بقماش ذهب وقباء واستدعاه ليحضر. فلما قدم ذلك عليه خشي أن يفعل به كما فعل بالأمير ألطنبغا الجوباني، فكتب يعتذر عن الحضور بحركةَ التركمان ومنطاش، والخوف على حلب منهم، فلم يقبل السلطان عذره، وكثر تخيله منه. وبعث الأمير تلكتمر المحمدي الدوادار إلى حلب، وعلى يده مثالين ليلبغا الناصري وسودُن المظفري أن يصطلحا بحضرة الأمراء والقضاة. وسير معه خلعتين يلبسانهما بعد صلحهما. وحمله في الباطن عدة ملطفات إلى سودن المظفري، وغيره من الأمراء، بقبض الناصري وقتله إن امتنع من الصلح. وكان مملوك الناصري قد تأخر عن السفر ليفرق كتبًا من أستاذه على الأمراء، يدعوهم إلى موافقته على الثورة بالسلطان. وأخر السلطان جواب الناصري الوارد على يده ليسبقه تلكتمر إلى حلب، فبلغ المملوك ما على يد تلكتمر من الملطفات، وأخذ الجواب، وسار على البريد وجد في السوق حتى دخل حلب قبل تلكتمر. وعرف الناصري الحال كله، ويقال إن تلكتمر كان بينه وبين الشيخ حسن - رأس نوبة الناصري - مصاهرة، فلما قرب من حلب بعث يخبره. بما أتى فيه، فتنبه الناصري لما أخبره الشيخ حسن برسالة تلكتمر، واحترز لنفسه. وخرج حتى لقي تلكتمر على العادة، وأخذ منه المثال، وحضر به إلى دار السعادة، وقد اجتمع الأمراء والقضاة وغيرهم لسماع المثال السلطاني. وتأخر سودُن المظفري عن الحضور والرسل تستدعيه، حتى حضر وهو لابس آلة الحرب من تحت ثيابه. فعندما دخل الدهليز جس قازان البرقشي - أمير آخور الناصري - كتفه، فوجد السلاح وقال: " يا أمير، الذي يريد الصلح يدخل لابس آلة الحرب. " فسبه المظفري، فسل قازان عليه السيف وضربه، وأخذته السيوف من الدين رتبهم الناصري من مماليكه حتى برد، فجرد مماليكه أيضًا سيوفهم، وقاتلوا مماليك الناصري، فقتل بينهم أربعة.

وثارت الفتنة، فقبض الناصري على حاجب الحجاب وأولاد المهمندار، وعدة ممن يخافهم، وركب إلى القلعة وتسلمها. واستدعى التركمان والعربان، وقدم عليه الأمير منطاش معاونا له، وداخلاً في طاعته. وبعث تلكتمر إلى السلطان، فقدم في خامس عشره وأعلم السلطان بخروج الناصري عن الطاعة، واجتمع الناس معه، وكتب السلطان في سابع عشره إلى الأمير سيف الدين أينال اليوسفي أتابك دمشق بنيابة حلب، وجهز إليه التشريف والتقليد. وطلب السلطان في ثامن عشره القضاة والأعيان وأهل الدولة من الأمراء وغيرهم، وحدثهم بعصيان الناصري واستشارهم في أمره، فوقع الاتفاق على إرسال عسكر لقتاله، فحلف الأمراء كلهم، ثم خرج السلطان إلى القصر الأول، وحلف أكابر المماليك على الطاعة.

وفي تاسع عشره: ضربت خيمة كبيرة بالميدان تحت القلعة، وضرب بجانبها عدة صواوين برسم الأمراء، ونزل السلطان إلى الخيمة، وحلف الأمراء وسائر المماليك. ثم مد لهم سماطًا جليلا، فأكلوا وانفضوا.

وفي رابع عشرينه: قدم البريد من دمشق بأن قرا بغا فرج الله، وبزلار العمري، ودمرداش اليوسفي، وكمشبغا الخاصكي الأشرف، وأقبغا حنجق، اتجمع معهم عدة كبيرة من المماليك المنفيين، وقبضوا على الأمير سيف الدين أسندمر نائب طرابلس، وقتلوا من الأمراء صلاح الدين خليل بن سنجر وابنه وقبضوا على جماعة، ودخلوا في طاعة الناصري.

وفي خامسه: قدم قاصد خليل بن دلغادر بكتاه، يخبر أن سُنْقر - نائب سيس - توجه إلى الناصري ودخل في طاعته، فلما عاد قبض عليه، وبعث سيفه، فخلع على قاصده. وفيه أنفق في المماليك نفقة ثانية، فالأولى لكل واحد من الخمسمائة مملوك ألف درهم فضة، والثانية أيضًا ألف درهم، سوى الخيل والجمال والسلاح، فإنه فرق في أرباب الجوامك لكل واحد جملان، ولكل اثنين من أرباب الأخباز ورتب لهم اللحم والجرايات والعليق، فرتب لكل من رؤوس النوب في اليوم ست عشرة عليقة، ولكل من أكابر المماليك في اليوم عشر علائق، ولكل من أرباب الجوامك خمس علائق. ورسم لكل مملوك في دمشق. بمبلغ خمسمائة درهم.

وفي رابع عشره: استدعى السلطان شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني إلى مسجد رُديني داخل القلعة، واستدعى الخليفة المتوكل على الله فقام إليه وتلقاه، وأخذ في ملاطفته والاعتذار إليه، وتحالفا. ومضى الخليفة إلى موضعه، فبعث إليه السلطان عشرة آلاف درهم، وعدة بقج، فيها صوف وثياب سكندرية، وفرو، لتتمة القيمة عن

الجميع ألف دينار. فبعث الخليفة بجزء وافر من ذلك إلى شيخ الإسلام، وإلى والي القلعة.

وتواترت الأخبار بدخول سائر أمراء الشام والمماليك اليلبغاوية والأشرفية، وسولى أمير التركمان، ونعير أمير العربان، في طاعة الناصري على محاربة السلطان. وأنه أقام سناجق خليفتيه، وأخذ جميع القلاع، خلا دمشق وبعلبك والكرك، فكثر الاضطراب بالقاهرة وقلعة الجبل. وخرج الأمراء والمماليك في يوم السبت رابع عشره إلى الريدانية خارج القاهرة بتجمل عظيم واحتفال زائده، فإن الدولة كانت لم تطرق والبلد لم يتغير حاله، والناس في عافية بلا محنة.

وفي عشرينه: قدم رسول قرا محمد التركماني، ورسول الملك الظاهر صاحب ماردين، بقدومهما إلى الخابور، ويستأذنان في محاربة الناصري، فأجيبا بالثناء والشكر، وأنهما ادخرا لأهم من هذا. ودخل العسكر المصري إلى دمشق يوم الاثنين سابع ربيع الآخر، فتلقاه الأمير حسام الدين طُرُنطاَي النائب، واتفقوا على إرسال طائفة من أعيان الفقهاء إلى الناصري ليدخلوا بينه وبين السلطان في الصلح، فساروا في ثاني عشره بكتب الأمراء وهو فيما بين قارا والنبك فلما وصل الجماعة إليه تلقاهم ووعدهم بالجميل وأنزلهم في مكان، ووكل بهم من يحفظهم. وقد سار من حلب. بمن معه يريد دمشق. وقد أقبل المماليك السلطانية على الفساد بدمشق، واشتغلوا باللهو حتى نزل عليهم الناصري، في يوم السبت تاسع عشره، خان لاجين - خارج دمشق - فخرج في يوم الأحد ويوم الاثنين حادي عشرينه عساكر مصر ودمشق إلى برزة والتقوا بالناصري علي خان لاجين وقاتلوه قتالا شديدًا، انكسر فيه مرتين من المماليك السلطانية. فعندما تنازلوا في المرة الثانية أقلب الأمير أحمد بن يلبغا رمحه، وصاح " فرج الله "، ولحق بعسكر الناصري، ومعه مماليكه، وتبعه الأمير أيدكار والأمير فارس الصرْغَتْمُشى والأمير شاهين أمير آخور، بمن معهم، وقاتلوا المماليك ومن بقي من أمراء مصر ودمشق، معاونة للناصري، فثبتوا لهم ساعة، ثم انهزموا. فهجم مملوك من عسكر الناصري يقال له: يلبغا الزيني الأعور، وضرب الأمير جركس الخليلي فقتله، وأخذ سلبه، وترك رمته بالعراء عارية مدة، إلى أن كفنته امرأة ودفنته. ومدت التراكمين أيديهم ينهبون من انهزم، ويأسرون من ظفروا به. ولحق الأمير أيتَمش بدمشق، وتحصن بقلعتها. وتمزق سائر العسكر، ودخل الناصري دمشق في يومه بعساكره وجموعه، ونزل بالقصر من الميدان، وتسلم القلعة بغير قتال. وأوقع الحوطة على سائر ما للعسكر.

وقيد أيْتَمش وطُرُنَطاي نائب دمشق، وسجنهما بالقلعة. وتتبع بقية الأمراء والمماليك، فقبض من يومه على الأمير بَكلمش العلاي في عدة من المماليك، واعتقلهم. ومدت الأجناد والتركمان أيديهم إلى النهب، وتبعهم أوغاد الناس، فما عفوا ولا كفوا، وتمادوا على هذا عدة أيام.

وفي أثناء ذلك كثرت الشناعة في القاهرة بوصول الناصري ومنطاش، فتزاحم الناس في شراء الخبز، وغلقت الأسواق، ولبس جميع الأمراء آلة الحرب، وركبوا إلى القلعة، ووقفوا بالرميلة، وحمل إلى الأمير أقبغا الماردانى جملة مال من السلطان، ليفرق ذلك في الزعر وحملة السلاح من العامة؛ تقوية لهم ليقاتلوا مع العسكر، فاشتد خوف الناس من النهاية وصارت لهم اجتماعات وعصبيات. وافترقوا عدة أحزاب لكل حزب كبير وصاروا يخرجون إلى ظاهر القاهرة ويقتتلون بالحديد والمقاليع، ومن انفردوا من الناس أخذوا ثيابه، فتعطلت الأسواق وشغل كل أحد. مما يترقبه من الخوف والنهب. واستعد الكافة للحصار، وأكثروا من شراء البقسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك، ونقل من ذلك ومن الأغنام إلى القلعة شيء كثير جدًا. وفي ليلة الأربعاء حضر بهادر والى العرب، وأخبر نزول الناصري إلى الصالحية، ومن معه من العساكر في جهد. وقد وقف لهم في الرمل عدة خيول، وَانه لما وجد الصالحية خالية من العسكر، سر بذلك وسجد لله شكرًا، فإنه كان بحال لو تلقاه عسكر لما وجد فيمن معه منعة يلقى بها، وأن عرب العايد تلقاه بهم الأمير شمس الدين محمد بن عيسى وخدموا على العادة، وأحضروا الشعير وغيره من الإقامات. فرسم للأمير قرا دمرداش أن يتوجه لكشف الأخبار من جهة بركة الحبش؛ خشية أن يأتي أحد من قبل أطفيح، فسار لذلك. ورتب السلطان عسكره نوبتين، نوبة للحفظ بالنهار ونوبة للحفظ بالليل، وسير عدة من الأمراء إلى جهة مرج الزيات طليعة تكشف الخبر.

وقدم الخبر بنزول طليعة الناصري بلبيس، ومقدمها الطواشي ثقطاي الطَشْتَمُري. وفي يوم الجمعة ثانيه نزلت عساكر الناصري البير البيضاء، فتسلل إليه العسكر أولاً بأول. فكان أول من يخرج إليه من القاهرة الأمير جبرائيل الخوارزمي، ومحمد بن بَيْدَمُر نائب الشام، والأمير بجمان المحمدي نائب الإسكندرية، وغريب الخاصكي، وأحمد بن أرغون الأحمدي اللالا.

فنصبت الصناجق السلطانية على برج القلعة، ودقت الكوسات الحربية، فاجتمع الأمراء والمماليك السلطانية والأجناد. وركب السلطان والخليفة المتوكل على الله من

القلعة بعد العصر، ووقفا خلف دار الضيافة، وجميع من بقي من العسكر لابسون السلاح. واجتمع حوله من العامة ما لا يقع عليه حصر، ثم سار إلى الإسطبل، وجلس فيه. وصعد الخليفة إلى منزله بالقلعة وقد نزلت الذلة بالدولة، وظهر من جزع السلطان وبكائه ما أبكى الناس شفقة له ورحمة. فلما غربت الشمس صعد إلى القلعة.

وفي يوم السبت ثالثه: نزل الأمير يلبغا الناصري بركة الجب ظاهر القاهرة، ومعه من الأمراء الأمير سيف الدين تمُربغا الأفضلي المدعو منطاش، والأمير سيف الدين بزلار، والأمير سيف الدين كُمُشبغا، والأمير أحمد بن يلبغا الخاصكي، والأمير مأمور، والأمير أيدكار، في آخرين وتقدمت الطلائع إلى مرج الزيات والي مسجد تبر، فغلقت أبواب القاهرة كلها، إلا باب زويلة، وغلقت جميع الدروب والخوخ، وسد باب القرافة، وماج الناس، وانتشر الزعر وأهل الفساد في أقطار المدينة، وأفسدوا.

ونزل السلطان والخليفة من القلعة إلى تحت دار الضيافة، فقدم من الإسكندرية رماة قسى الرجل بالقسى محملة على الجمال، وهم نحو الثلاثمائة رام. ففرق فيهم مائة درهم لكل واحد، ورتبهم في عدة أماكن. ونودي في القاهرة ومصر بإبطال جميع المكوس وفرقت دراهم على العامة. وخرج كثير من العامة إلى بركة الجب، حتى شاهدوا عسكر الناصري وحدثوهم. مما فعله السلطان من تحصين القلعة وغيرها.

وقدم الخبر بَان طليعة الناصري وصلت إلى الخراب طرف الحسينية فلقيهم كشافة السلطان وكسروهم، فسار الأمراء إلى قبة النصر، ونزل السلطان في بعض الزوايا عند دار الضيافة إلى أخر النهار، ثم عاد إلى الإسطبل وعاد إليه الأمراء والمماليك، والكوسات تدق، وهم جميعًا على أهبة اللقاء، ومدافع النفوط لا تفتر، والرميلة قد امتلأت بالذعر والعامة ومماليك الأمراء، فلم يزالوا على ذلك حتى أصبحوا يوم الأحد، فإذا بالأمير علاء الدين أقبغا المارداني - حاجب الحاجب - والأمير جُمق بن الأمير أيتَمُش، والأمير صار الدين إبراهيم بن الأمير طشتمر الدوادار، قد فروا في الليل، ومعهم خمسمائة من مماليك السلطان، ومماليك الأمراء، ولحقوا بالناصري.

وفي يوم الأحد رابعه: فر الأمير قرْقُمَاش الطشتَمُري الدوادار، والأمير ترا دمرداش الأحمدي، والأمير سودن باق، صاروا في جملة الناصري، في عدة وافرة، بحيث لم يتأخر مع السلطان إلا طائفة من خاصكيته، من الأمراء، وابن عمه الأمير قَجْماس، وسودن الشيخوني نائب السلطنة، وسودن الطُرُنطاي، وتَمُربغا المنجكي،

وسيدي أبو بكر بن سُنْقر، وبيبرس التمان تَمُري، وشَنْكل المقدم، وشَيْخ الصفوي.

وفيه أغلق باب زويلة وجميع الدروب والخوخ، وتعطلت الأسواق، وغصت القاهرة بالزعر، واشتد فسادهم، وتلاشت الدولة، واضمحل أمرها. وخاف والي القاهرة على نفسه، فقام من خلف باب زويلة، وسار بمن معه إلى منزله واختفى. وبقي الناس فوضى، فطمع المسجونون بخزانة شمايل، وكسروا قيودهم، وأتلفوا باب الخزانة، وخلصوا على حمية جملة واحدة، فتشبه بهم أهل سجن الديلم والرحبة، وخرجوا أيضًا. واشتد الأمر حتى داخل الخوف كل أحد من الناس على نفسه وماله وأهله، وأمر السلطان من عنده من المماليك، فوقفوا تحت الطبلخاناه، ومنعوا العوام من التوجه إلى يلبغا الناصري؛ لما بلغه من فعلهم بالأمس، فرجمهم العامة بالحجارة، فرماهم المماليك بالنشاب، وقتلوا منهم عدة تزيد على العشرة.

وأقبلت طليعة الناصري، فقاتلهم قجماس ابن عم السلطان، وكثر الرمي عليهم من فوق القلعة بالسهام والنفط والحجارة في المقاليع، وهم يوالون الكر والفر، وأمر السلطان في إدبار، وأصحابه تتفرق عنه شيئًا بعد شيء، وتصير إلى الناصري. وكان السلطان قد فرق في كل من الأمراء الكبار عشرة آلاف دينار، وفي كل من الطبلخاناه خمسة آلاف دينار، وفي كل من العشراوات ألف دينار، وأعطى الأمير قرا دمرداش في ليلة واحدة ثلاثين ألف دينار، وحلفهم ألا يغدروا به، فما أغنى عنه ذلك شيئًا، وفروا عنه، وصاروا مع عدوه عليه، ولم يتأخر عنده إلا من لا غنى فيه. وتكاثر الزعر يريدون نهب القاهرة لكثرة ما كان فيها من حواصل الأمراء، فقاتلهم أهل الحارات والدروب، ومنعوهم، فكان يومًا في غاية الشناعة. فلما كان أخر النهار أراد السلطان أن يسلم نفسه، فمنعه من بقي عنده، وهم قجماس ابن عمه، وسودن النائب، وسودن الطرنطاي، ومحمود الإستادار، وبعض المماليك، وقالوا: " نحن نقاتل بين يديك حتى نموت ". فلم يثق بذلك منهم، لكنه شكرهم على قولهم.

وقدم بعد العصر من عسكر الناصري الطواشي طُقطاي الطَشْتُمري، والأمير بزلار العمري، والأمير ألطنبغا الأشرفي، في نحو الألف وخمسمائة فارس، يريدون القلعة، فبرز إليهم الأمير بُطا الخاصكي، والأمير شكربيه في عشرين فارسًا، فكسروهم إلى قبة النصر. فلم يغتر السلطان بذلك وعلم أن أمره قد زال، فدبر لنفسه، وبعث الأمير المعروف بسيدي أبو بكر بن سُنقر الحاجب، والأمير بَيْدَمُر المجدي - شاد القصر - بالمنجاة إلى الناصري، ليأخذ له منه الأمان، فساروا في خفية، واجتمعا بالناصري خلوة، فأمنه على نفسه، وأمره بالاختفاء حتى يدبر له أمرًا، فإن الفتنة الآن

قائمة، والكلمة غير متفقة، فعادا إليه بذلك. فلما صلى العشاء الآخرة قام الخليفة إلى منزله بالقلعة، وبقى في قليل من أصحابه، فأذن لسودن النائب في التوجه إلى منزله، والنظر لنفسه، وفرق البقية، فمضى كل أحد لسبيله. واستقر حتى نزل من الإسطبل، فلم يعرف له خبر، وانفض ذلك الجمع من الأسوار وسكن دق الكوسات، ورمى مدافع النفط. ووقع النهب في حواصل الإسطبل، فَاخذوا منه نحو الألفي أردب من الشعير، ومائتي ألف درهم من الفلوس الجدد، وسائر ما كان فيه. ونهبوا أيضًا ما كان فيه.

ونهبوا أيضًا ما كان بالميدان من الغنم الضأن، وعدتها نحو الألفي رأس. ونبت طباق المماليك بالقلعة، واشتد بأس الزعر، وتخطفوا من مر بهم من المماليك والأجناد، وأخذوا ما عليه وأحاط أصحاب الناصري بالقلعة، وأعلموا الناصري بفرار السلطان، فثبت مكانه.

وزالت دولة الملك الظاهر كأن لم تكن، فكانت مدة تحكمه منذ قبض على الأمير طَشْتَمُر الدوادار في تاسع ذي الحجة سنة تسع وسبعين وسبعمائة، إلى أن جلس على تخت الملك وتلقب بالملك الظاهر في تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام.

ويقال له في هذه المدة الأمير الكبير أتابك العساكر. ومن حين تسلطن إلى أن اختفى ست سنين، وثمانية أشهر، وسبعة عشر يومًا فيكون مدة حكمه أميرًا وسلطانًا إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يومًا. وترك ملك مصر وله نحو الألفي مملوك اشتراهم، سوى المستخدمين. وكانت له في مدته هذه آثار فاضلة، منها: إبطاله ما كان يؤخذ من أهل البرلس، وشورى، وبلطيم من أعم المصر شبه الجالية في كل سنة، وهو مبلغ ستين ألف درهم فضة، وما كان يؤخذ على القمح بثغر دمياط من المكس، وما كان يؤخذ من معمل الفراريج بالنحريرية وأعمال الغربية بديار مصر، وما كان يؤخذ على الملح من المكس بعين تاب، وما كان يؤخذ على الدقيق بالبيرة من المكس، وما كان يؤخذ في طرابلس عند قدوم النائب إليها من قضاة البر وولاة الأعمال، عن كل واحد مبلغ خمسمائة درهم، في ثمن بغلة، ويقال لذلك " مقرر النائب "، وما كان يحمل في كل سنة من الخيل والجمال والبقر والغنم من أهل الشرقية بديار مصر إلى من يسرح إلى العباسة؛ وما كان يؤخذ من مكس الدريس والحلفاء خارج باب النصر من القاهرة، وضمان المغاني بالكرك والشوبك من البلقاء ومنية بني خصيب، وزفتي بديار مصر. وأبطل رمي الأبقار عند فراغ عمل الجسور

على أهل النواحي. وأنشأ من العمائر المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة. ولم يعمر داخل القاهرة مثلها، ولا بأرض مصر والشام نظيرها، بعد مدرسة السلطان حسن، ولا أكثر معلومًا منها، بعد خانكاة شيخو. وله أيضًا السبيل من الصهريج بقلعة الجبل من أحسن المباني، والسبيل تجاه الإيوان بالقلعة، والطاحون بالقلعة أيضًا، وجسر الشريعة على نهر الأردن، وطوله مائة وعشرون ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا. وجدد خزائن السلاح بالإسكندرية، وسور دمنهور بالبحيرة. وعمر الجبال الشرقية بالفيوم، وزريبة البرزخ بدمياط، وقناة بالقدس. وبنى بحيرة برأس وادي بني سالم، قريبًا من المدينة النبوية.

وكان حازمًا، مهابًا، محبًا لأهل الخير والعلم، إذا أتاه أحد منهم قام إليه، ولم يعرف قبله أحد من ملوك الترك يقوم لفقيه، وقل ما كان يمكن قام إليه، وقل ما كان يمكن أحد من تقبيل يديه، إلا أنه كان محبًا لجمع المال. وحدث في أيامه تجاهر الناس بالبراطيل، فلا يكاد أن يلي أحد وظيفة ولا عملاً إلا بمال، فترقى للأعمال الجليلة والرتب السنية الأراذل، وفسد بذلك كثير من الأحوال. وكان مولعًا بتقديم الأسافل، وحط ذوي البيوتات، وغيَّر ما كان للناس من الترتيب، وعادى أكابر التركمان والعربان ببلاد الشام ومصر والحجاز.

* * *

السلطان الملك الصالح المنصور حاجي

ابن الملك الأشرف بن حسين بن محمد بن قلاون ولما اختفى الملك الظاهر برقوق في الليل، سار الأمير منطاش بكرة يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة إلى باب القلعة، فنزل إليه الخليفة، وسار معه إلى الأمير يلبغا الناصري بقية النصر خارج القاهرة، وقد انضمت أوغاد العامة وزعرانها إلى التركمان من أصحاب الناصري، وتفرقوا على بيوت الأمراء وحواصلهم، فانتهبوا ما وجدوا، وشعثوا الدور، وأخذوا أبوابها وكثيرًا من أخشابها، وتطرقوا إلى منازل الناس خارج القاهرة، فانتهبوا كثيرًا منها.

وقدم ناصر الدين محمد بن الحسام إستادار أرغون هزكه والي البهنسا، كان من قبل الناصري على أنه والي القاهرة، فوجد باب النصر مغلوقا، فدخل بفرسه راكبًا من الجامع الحاكمي إلى القاهرة، وفتح بابي النصر والفتوح.

واقتحم كثير من عسكر الناصري المدينة، وعاثوا فيها، ومعهم من الزعر وأراذل العامة عالم عظيم، وحاصروا الدروب والحارات والأزقة ليدخلوا إليها وينهبوها، فمنعهم الناس وقاتلوهم جهدهم، فغلب الزعر وأشباههم على حواصل الأمير محمود الأستادار، بالقرب من الجامع الأزهر، وأخذوا منه شيئًا كثيرًا، وغلبوا على عدة حوانيت للتجار بشارع القاهرة، ونهبوها، فقاتلهم الناس، وقتلوا منهم أربعة. فمر بالناس من الأهوال ما لا يوصف. وبلغ الخبر الناصري، فندب سيدي أبو بكر أمير حاجب وتنكز بغا رأس نوبة إلى حفظ القاهرة، فدخلا، ونودي بالأمان، وأن من ينهب شيئًا، فلا يلومن إلا نفسه، ونزل تنكز بغا عند الجملون وسط شارع القاهرة، ونزل سيدي أبو بكر عند باب زويلة، فسكن الحال. وعندما أقبل الخليفة إلى وطاق الناصري، قام إليه، وتلقاه، وأجلسه بجانبه، وحضر قضاة القضاة والأعيان للهناء. وأمر الخليفة فصار إلى خيمة، وأخرج القضاة إلى خيمة أخرى.

واجتمع عند الناصري من معه من الأمراء لتدبير أمرهم، وإقامة أحد في السلطنة، فأشار بعضهم بسلطنة الناصري، فامتنع من ذلك، وانفضوا بغير طائل، فتقدم الناصري بكتابة مرسوم عن الخليفة، وعن الأمير الكبير يلبغا الناصري، بالإفراج عن الأمراء المعتقلين بالإسكندرية، وهم ألطنبغا الجوباني، وقردم الحسني، وألطنبغا المعلم، وإحضارهم إلى قلعة الجبل وسار البريد بذلك، وأمر بالرحيل من قبة النصر، وركب في عالم كبير من العساكر القادمين معه، وعدتهم فيما يقال نحو

الستين ألفًا، وأن عليق جماله في كل ليلة ألف وثلاثمائة أردب. وسار إلى القلعة، فنزل بالإصطبل السلطاني ونزل الخليفة بمنزله من القلعة، ونزلت الأمراء في منازل أمراء الظاهر برقوق، ففي الحال حضر إلى الناصري الوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن الغنام وموفق الدين أبو الفرج ناظر الخاص، وجمال الدين محمود ناظر الجيش، وفخر الدين عبد الرحمن بن مكانس ناظر الدولة، والأمير ناصر الدين محمد ابن الحسام شاد الدواوين، وبدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر، وسائر أرباب الوظائف وقاموا بخدمته، فتقدم إلى ابن الحسام بتحصيل الأغنام لمطابخ الأمراء. وإذا بالناس تصرخ تحت القلعة، وتشكوا من كثرة نهب التراكمين والزعر، فأمر الناصري الأمير منكلي الحاجب، وسيدي أبو بكر حاجب الحاجب، وأقبغا المارداني، وبلوط، فنزلوا إلى القاهرة ونودي بأن من نهب من الترك والتركمان والعامة فاقتلوه. ووقف ابن الحسام متولي القاهرة عند باب زويلة لمنع من يدخل إلى القاهرة، وقبض على ثلاثة من التركمان، وسجنوا بخزانة شمايل، فخف الأمر. ونزل أيضًا طائفة من الأمراء لحراسة القاهرة وظاهرها. ورسم للأمير تنكز بغا رأس نوبة بتحصيل مماليك الظاهر برقوق، فأخذ في تتبعهم.

وأصبح الناس يوم الثلاثاء في هرج ومرج وقالات كثيرة في الظاهر برقوق. واستدعى الناصري الأمراء وشاورهم فيمن ينصب في السلطنة، حتى استقر الرأي على إقامة الملك الصالح حاجي بن الأشرف، فإنه خلعه برقوق بغير موجب، فصعدوا من الإصطبل إلى الحوش بالقلعة واستدعوه، وأركبوه بشعار السلطنة من الحوش إلى الإيوان، وأجلسوه على تخت الملك به، ولقبوه بالملك المنصور، وقلده الخليفة أمور الناس على العادة، وقبل الأمراء الأرض بين يديه. ودقت البشاير، وقام إلى القصر وسائر أرباب الدولة بين يديه. ونودي في الحال بالقاهرة بالأمان والدعاء للملك المنصور، والأمير الكبير يلبغا الناصري، وتهديد من نهب، فاطمأن الناس.

ورتب الناصري عند الملك المنصور بالقصر من الأمراء علاء الدين ألطنبغا الأشرفي، وأرسلان اللفاف، وقراكسك، وأردبغا العثماني.

ورسم بمنع الأتراك والتركمان من دخول القاهرة. ونزل سيدي أبو بكر بن سنقر الجمالي، وتنكز بغا رأس نوبة، ونودي بين أيديهما بتهديد من نهب شيئًا، وأقام تنكز بغا عند الجملون وسط القاهرة، وأبو بكر بن سنقر عند باب زويلة، وأخرجا من كان في القاهرة من المماليك والتركمان.

وفيه نودي بالقاهرة ومصر وظواهرهما من أحضر السلطان برقوق وكان عاميًا خلع عليه، وأعطى ألف دينار، وإن كان جنديًا أعطي إمرة عشرة، وإ ن كان أمير عشرة أعطي طبلخاناة، وإن كان أمير طبلخاناة، أعطي إمرة مائة، ومن أخفاه بعد النداء شنق، وحل ماله للسلطان، فكثر كلام العامة في ذلك.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره: غُمز على الملك الظاهر برقوق. وذلك أنه لما نزل من الإصطبل في الليل مختفيًا مضى إلى بيت أبى يزيد - أحد أمراء العشراوات - واختفى بداره، فلم يعرف خبره، والطلب له يشتد، وهجم على عدة بيوت بسببه، فلم يوجد. ونكر النداء عليه، فخاف أن يؤخذ باليد، فلا يُبقي عليه، فأعلم الأمير ألطبغا الجوباني بمكانه، فصار إليه، وقيل إنه نزل من الإسطبل ومعه أبو يزيد لا غير، فتبعه نعمان مهتار الطشت خاناه إلى الرميلة، فرده. ومضى هو وأبو يزيد إلى أن أخلى له مكانًا اختفى فيه. وأخذ الناصري يتتبع أثره حتى سأل المهتار نعمان عنه، فأخبره أنه نزل ومعه أبو يزيد، وإنه لما تبعه رده، فأمر حينئذٍ حسين بن الكوراني بإحضار أبي يزيد، فشدد في طلبه، وهجم بيوتًا كثيرة، فلم يقف له على خبر، فقبض جماعة ممن يعرفه وقررهم، فلم يجد عندهم علمًا به. وما زال يفحص حتى دله بعضهم على مملوك أبي يزيد، فقبض على امرأة المملوك وعاقبها، فدلته على أبي يزيد، وعلى الملك الظاهر، وأنهما في بيت رجل خياط بجوار بيت أبي يزيد، فمضى إلى البيت، وبعث إلى الناصري يعلمه، فأرسل إليه الأمراء. وقيل إنه لما نزل من الإسطبل كان نحو نصف ليلة الاثنين، فسار إلى النيل وعدى إلى الجيزة، ونزل عند الأهرام، وأقام ثلاثة أيام ثم عاد إلى بيت أبي يزيد، فأقام عنده إلى يوم الثلاثاء ثالث عشره، حضر مملوك أبي يزيد إلى الناصري، وأعلمه بأن الظاهر في داره أستاذه، فأحضر أبا يزيد وسأله، فاعترف أنه عنده، فأخذه الأمير ألطنبغا الجوباني، وسار به إلى حيث الظاهر، فأوقف الجوباني من معه، وصعد إليه وحده. فلما رآه الظاهر قام له، وهّم أن يقبل يده، فاستعاذ بالله من ذلك. وقال: " يا خوند أنت أستاذنا، ونحن مماليكك ". ثم ألبسه عمامة وطيلسة، ونزل به وأركبه وشق به الصليبية نهارًا، حتى مر في الرميلة، إلى أن صعد به إلى الناصري في الاصطبل، فحبس بقاعة الفضة من القلعة. وألزم أبو زيد بإحضار ما للظاهر عنده، فأحضر كيسًا فيه ألف دينار، فأنعم به عليه، وخلع عليه، وخلى عنه. ورتب لخدمة الظاهر مملوكان وغلامه المهتار نعمان، وقيد بقيد ثقيل.

وفيه أشيع أن منطاش تنكر مع الأمير الكبير، وتأخر عن الخدمة، وأظهر أنه متضعف؛ ففطن الأمير الكبير بأنه يريد عمل مكيدة، ولم ينزل لعيادته.

وبعث إليه الأمير ألطنبغا الجوباني في يوم الاثنين سادس عشره، فدخل عليه وقضى حق العيادة، وهمَّ بالقيام، فقبض عليه، وعلى عشرة من مماليكه، وضرب قرقماس دواداره، فمات من ذلك بعد أيام. وركب منطاش حال مسكه الجوباني في أصحابه إلى باب السلسلة، وأخذ جميع الخيول التي كانت واقفة هناك. وأراد اقتحام الباب ليأخذ الناصري على غفلة، فلم يتمكن من ذلك، وأغلق الباب. ورمى عليه مماليك الناصري من أعلى السور، فعاد ومعه الخيول إلى داره وهى قريب من الرميلة، بجوار مدرسة السلطان حسن، ونهب بيت الأمير أقبغا الجوهري، وأخذ خيله وقماشه، وأصعد إلى مدرسة السلطان حسن الأمير تنكزبغا رأس نوبة، والأمير أزْدَمُر الجوكاني دوادار الظاهر برقوق في عدة مماليك، وحمل إليها النشاب والحجارة، فرموا على من في الرميلة من أصحاب الناصري من أعلى المأذنتين وجوانب القبة.

وألبس الناصري مماليكه السلاح، وتلاحقت المماليك الأشرفية والظاهرية بمنطاش، وصار في فارس، بعد ما كانت عدة من معه أولاً نحو السبعين فارسًا. وأتاه من العامة عالم كبير، فترامى الفريقان واقتتلا.

ونزل الأمير حسام الدين حسين بن الكوراني والي القاهرة، والأمير مأمور الحاجب، من عند الأمير الكبير. ونودي في الناس بنهب مماليك منطاش والقبض على من قدروا عليه، وإحضاره إلى الأمير الكبير، فخرج عليهما طائفة من المنطاشية، وضربوهما وهزموا من معهما، فعادوا إلى الناصري. ولحق الوالي بالقاهرة، وأغلق أبوابها. واشتدت الحرب، وتقرب منطاش من العامة ولاطفهم، وأعطاهم، فتعصبوا له، وتزاحموا على التقاط النشاب الذى يرمي به أصحاب الناصري على منطاش، وأتوه به، وبالغوا في المخاطرةَ معه، حتى كان الواحد بعد الواحد منهم يثب في الهواء، ويختطف السهم وهو مار، ويأتي به منطاش.

ولا يزالون في نقل الحجارة إلى مأذن مدرسة حسن. وأقبل الليل وهم على ذلك، فبات منطاش ليلة الثلاثاء على باب مدرسة حسن، والرمي لا يتوقف، وأتاه طوائف من الظاهرية حتى أصبح يوم الثلاثاء، وقد زادت أصحابه على الأف فارس، فأتاه مماليك الأمراء وغيرهم شيئًا بعد شيء، حتى خشن جانبه، واشتد بأسه. فبعث الناصري بالأمير بجمان والأمير قرابُغا الأبو بكري في طائفة كبيرة، ومعهم المعلم

أحمد بن الطولوني، وكثير من الحجارين، لينقبوا بيت منطاش من ظهره حتى ينحصر. فبعث إليهم عدة من جماعته قاتلوهم، وأخذوا بجمان والأمير قرابغا وهزموا من معهما، فرتب الناصري عدة رماة على الطبلخاناة، وعلى مدرسة الأشرف، فرموا على منطاش بالمدافع والنشاب، فقتل عدة من العوام، وجرح كثير، ونزل الأمير أحمد بن يلبغا والأمير جمق بن أيمش في جمع كبير، وطردوا العامة، وقتلوا منهم وجرحوا عددًا كبيرًا، فحملت العامة في فرسان منطاش عليهم حملة واحدة، وهزموهم أقبح هزيمة.

واستمر ذلك بينهما حتى انقضى النهار، وأقبل إلى منطاش الأمير أقبغا الماردانى بطلبه، وصار من جماعته، فتسلل الأمراء عند ذلك واحدًا واحدًا بعد ذلك، وأتوه. وكل من يأتيه من الأمراء يوكل به من يحفظه، ويبعث به في داره، ويأخذ مماليكه، يقاتل بهم. فلما رأى حسين الكوراني جانب الناصري قد انهضم، خاف واختفى، فطلب منطاش ناصر الدين محمد بن ليلى نائب حسين بن الكوراني، وولاه ولاية القاهرة، وألزمه بتحصيل النشاب. ونزل إلى القاهرة وحمل إليه كثيرًا من النشاب. ونادى في القاهرة بالأمان والبيع والشراء وإبطال المكوس والدعاء للأمير منطاش بالنصر، فبعث الناصري الخليفة المتوكل إلى منطاش، فحدثه في الصلح وإخماد الفتنة، فقال: " أنا في طاعة السلطان، وموافقة الأمراء. لكن الناصري غريمي، فإنه حلف لي وأنا بسيواس، وحلف لي بحلب وبدمشق، أننا نكون شيئًا واحدًا، وأن السلطان يتحكم كيف يشاء. فمنع السلطان من التصرف واستبد هو بالأمر، وأخرج بزلار إلى الشام، وبعثني إلى قتال الفلاحين، ولم يعطني شيئًا من المال، سوى مائة ألف درهم. وأخذ لنفسه أحسن الإقطاعات، وأعطاني أضعفها، تعمل في السنة ستمائة ألف درهم. ووالله ما أنا براجع عنه حتى أقتله أو يقتلني، أو يقيم سلطانًا يستبد بالأمور ".

فقام الخليفة وأعاد الجواب على الناصري، فركب. بمن معه ونزل في جمع كبير لقتال منطاش، فبرز إليه وقاتله وكسره، فقوى. وأتاه من الأمراء عبد الرحيم بن منكلي بغا، وصلاح الدين محمد بن تنكز ومعه خمسة أحمال نشابًا، وثمانون حمالاً عليها المآكل، وعشرون ألف درهم، فنزل الأمير قرا دمرداش وأحمد بن يلبغا، وألطنبغا المعلم، ومأمور، في جمع موفور لقتال منطاش، فقاتلهم، واشتد الرمي عليهم من أعلى مدرسة حسن، فرجعوا خائبين. وأتاه العوام بنشاب كثير مما التقطوا من الرميلة، فترقق لهم، وقال أنا واحد منهم ونحو ذلك، وهم يبذلون نفوسهم في خدمته.

هذا والرمي شديد من القلعة على مدرسة حسن، ومنها على القلعة. وظفر منطاش بحاصل لجركس الخليلي، وبحاصل لِبَكلمش، فأخذ منهما نشابًا كثيرًا، تقوى به.

ونزل إليه الأمير مأمور، وكشلي، وجُمُق بن أيتمش في عدة كبيرة، فبرز إليهم العامة، وأكثروا من رميهم بالحجارة حتى كسروهم مرتين، إلا أن الرمي من القلعة اشتد على من بأعلى المدرسة، وأصاب حجر من حجارة المدافع القبة، خرقها، وقتل مملوكًا من المنطاشية، فبعث منطاش من أحضر إليه ناصر الدين محمد بن الطرابلسي، وكان أستاذًا في الرمي بمدافع النفط. فلما جاءه جرده من ثيابه ليوسطه من أجل تأخره عنه، فاعتذر إليه، ومضى في طائفة من الفرسان، وأحضر الآلات، وصعد أعلى مدرسة حسن، ورمى على الإسطبل حيث سكن الناصري، حتى أحرق جانبًا من الخيمة، وفرق ذلك الجمع، وفر السلطان والناصري إلى موضع امتنعا فيه.

ولم يمض النهار حتى بلغت فرسان منطاش نحو الألفين، وبات الفريقان لا يبطلان الرمي، حتى أصبحا في يوم الأربعاء وقد جاء كثير من مماليك الأمراء إلى منطاش، وأتاه الأمير تَمُرباي الحسني حاجب الحجاب، والأمير قُرْدِمُ الحسني في جماعة من الأمراء، وصاروا في جملته. وانتدب لقتاله الأمير قرا دمرداش وأحمد بن يلبغا فهزمهما مرارًا عديدة. وفي كل ساعة يتسلل طائفة من أصحاب الناصري إلى منطاش، وتعبث العامة بالأتراك، وصاروا من وجدوه منهم قالوا " ناصرى أو منطاشى؟ " فإن قال " منطاش، تركوه وأتوه به إلى منطاش، وإن قال " ناصري " أنزلوه عن فرسه وأخذوا ما عليه وسجنوه حتى يأتوا به إلى منطاش. وتكاثروا على بيت الأمير أيدكار حتى أخذوا أيدكار وساقوه إلى منطاش، فأكرمه وأتاه الأمير ألطبغا المعلم أيضًا، فعين لهما جهة يقفا بها ويقاتلا هناك. وبعث إليه الأمير قرا دمرداش يستأذنه في الحضور إليه طائعًا فلم يأذن له وأتاه الأمير بَلوط الصرغتمشي بعدما حاربه عدة مرار، وحضر أيضًا جمق بن أيتمش طائعًا فاعتذر فقبل عذره. فلما أذن العصر اختل أمر الناصري وصار في عدد قليل، فلم يثبت وفر هو وقرا دمرداش، وأقبغا الجوهري، وابن يلبغا، وألابغا الدوادار، وكشلي، في نفر من المماليك، بعد ما أغلق باب الإسطبل. وصعد إلى القلعة وخرج من باب القرافة، فبعث أهل القلعة إلى منطاش بذلك، فسار بمن معه وصعد إلى الإسطبل، ووقع النهب فيه، فأخذ منه من الخيل والقماش والمال شيء كبير جدًا. وتفرق الزعر والعامة إلى دور المنهزمين يريدون نهبها، فأخذوا ما قدروا عليه، ومنعهم الناس من عدة مواضع.

وبات منطاش بالإصطبل. وأصبح يوم الخميس تاسع عشره، فصعد القلعة إلى السلطان، وأعلمه أنه في طاعته، وممتثل سائر ما يرسم به، وتقدم إلى رؤوس النوب بجمع المماليك وإنزالهم في الطاق على العادة. ونزل إلى الإسطبل، فأحضر إليه بالأمير أحمد بن يلبغا، والأمير مأمور، فحبسهما بقاعة الفضة. وأخرج الأمير بجمان المحمدي إلى الإسكندرية، فسجن بها. وكتب بإحضار الأمير سردن الفخري النائب. واستدعى الوزير الصاحب كريم الدين بن الغنام، وبقية المباشرين، وأرباب الدولة، فأتوه. وقبض على كريم الدين بن مكانس، فوكل به من يحفظه، وقبض على الأمير يَلْبُغا الناصري من ناحية سرياقوس، فسجن بقاعة الفضة من القلعة.

وفيه أنفق الأمير منطاش على من قاتل معه، فأعطى مائة منهم ألف دينار لكل واحد، وأعطى جماعة عشرة آلاف لكل منهم، ودونهم لكل واحد خمسة آلاف درهم، ودونهم طائفة لكل منهم ألف درهم، وطائفة لكل واحد خمسمائة درهم، وطائفة لكل منهم مائتي درهم.

وفي تاسع عشرينه: خلع على زين الدين نصر الله بن مكانس، واستمر على نظر الإسطبل. بمال يحمله.

وفي يوم الثلاثاء ثاني شهر رمضان: استدعى منطاش المماليك الظاهرية وأغلق عليهم باب السلسلة، وقبض على نحو مائتي منهم. وبعث بالأمير جلبان الحاجب، والأمير بلاط الحاجب، فقبضا على كثير من الظاهرية.

وأخذ منطاش خيولهم، وقيدوا الجميع، وسجنوا في البرج بالقلعة ونودي " من أحضر مملوكًا من مماليك برقوق فله كذا "، وهدد من أخفي أحدًا منهم، وتتبعت أسبابهم وأتباعهم وألزموا بهم. وقبض أيضًا على الأمير أقبغا المارداني، وقيد بعد ما خلع عليه بولاية الوجه القبلي، عوضًا عن مبارك شاه، ثم عصر حتى يقر على المماليك الظاهرية.

وكان من خبر الظاهر أن منطاش لما تحكم بمصر بعث شخصًا يعرف بالشهاب البريدي إلى الكرك، ومعه كُتب إلى الأمير حسام الدين حسن الكجكني بقتل الظاهر. وكان هذا الشاب من أهل الكرك، وتزوج بابنة عماد الدين أحمد بن عيسى المقيري قاضي الكرك، ثم شجر بينهما، فما زال به حتى طلقها، وزوجها بغيره. وكانت جميلة، فشق عليه فراقها، وخرج من الكرك. وضرب الدهر ضرباته، فكان من قيام منطاش ما قد ذكرنا، فاتصل به، ووعده بأنه يقتل له الملك الظاهر برقوق. فكتب معه إلى الأمير حسن الكجكني بمعاونته على قتل الظاهر، وأن ينزله بالقلعة، فمضى على

البريد ونزل بالمقير، بلد القاضي عماد الدين. ولم يكتم ما في نفسه من الحقد، وقال: " والله لأخربن دياره، وأزيد في احكار أملاكه، وأملاك أقاربه بالمقير، فأوحش قلوب الناس منه. وقام في الليل يريد دخول مدينة الكرك، وبعث إلى النائب من يصيح به من تحت السور، فمنعه من ذلك وأحس بالشر. فلما أصبح، أحضره إلى دار السعادة، وقرأ كتاب السلطان، وكتاب الأمير منطاش بأمور أخر. فلما انفض الناس أخرج إليه الكتاب بقتل الظاهر، فقام من فوره ودخل على الملك الظاهر بعد أن أنزل الشهاب في مكان بالقلعة - اختاره قريبًا من الموضع الذي فيه الظاهر - وأوقفه على الكتاب، فكاد أن يهلك من الجزع، فحلف عند ذلك بكل يمين أنه لا يسلمه أو يموت. وما زال به حتى سكن روعه.

هذا، وقد اشتهر في المدينة مجيء الشهاب، وكثر الكلام فيه، وثقل على الناس، وخافوا شره. وأخذ يلج في العجلة بقتل الظاهر، والنائب يدافعه إلى أن قال له: " هذا ما أفعله بوجه حتى أكتب إلى مصر بما أعرفه ".

وبعث البريد بأنه لا يدخل في هذا الأمر، ولكن يحضر إليه من يتسلمه منه، ويفعل فيه ما يرسم له به.

وكان في خدمة الظاهر غلام من أهل الكرك يقال له عبد الرحمن، فنزل إلى جماعة من أوغاد المدينة، وأعلمهم أن الشهاب حضر لقتل الملك الظاهر، فأنفقوا من ذلك، وقاموا إلى القلعة، وهجموا على الشهاب وقتلوه، وجروه برجله إلى باب القاعة التي فيها الظاهر، فلم يشعر - والنائب عنده، وقد ابتدأوا في الإفطار ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان - إلا وجماعة قد اقتحموا عليه، وهم يدعون له بالنصر، وأخذوه بيده حتى أخرجوه، وقالوا: " دس بقدمك على رأس عدوك ". وأروه الشهاب مقتولاً، ونزلوا به إلى المدينة، فدهش النائب ولم يجد بدًا من القيام في خدمته، وتجهيزه. وتسامع به أهل البلاد، فأتوه من كل ناحية.

وفي ثاني عشرينه: استقر محمد بن أسندمر العلاي في نيابة الإسكندرية، عوضًا عن أمير حاج بن مُغْلطاي، واستقر ابن مُغلطاوي أحد الأمراء المقدمين بالقاهرة.

وفيه استقر تاج الدين بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدميري في قضاء القضاة المالكية بالقاهرة ومصر، بعد وفاة جمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن خير الإسكندراني.

وفيه بلغت زيادة ماء النيل إلى ثمانية أصابع من عشرين ذراعًا، وهو يوم عيد الصليب.

وكان علاء الدين على - أخو القاضى - مباشر الإنشاء بالكرك، فكتب للظاهر في مدة خروجه وخدمه. فلما رأى ما نزل بالظاهر، عندما بلغه اتفاق أهل المدينة في بيت أخيه على قبض الظاهر، حدثه وقوّى جأشه، وسار به، حتى وصل باب المدينة، فإذا به مغلق، وأخوه ناصر الدين قائم عنده، فما زال به حتى فتح الباب وخرج بالظاهر من المدينة، والتحق ببقية أصحابه من المماليك الذين وصلوا إليه، والعربان التى اجتمعت عليه، وأخلاط أهل مدينة الكرك. فأقام بالثنية خارج الكرك يومين، ورحل في ثامن عشرين شوال، وسار بهم يريد دمشق - وبها الأمير جَنتمُر أخو طاز، متولي نيابتها - وقد وصل إليه الأمير ألطُنْبغا الحلبي الدوادار من مصر نائبًا على حلب بحكم عصيان كمشبغا الحموي. فاستعدا لقتال الظاهر، وتوجه إليهما الأمير حسام الدين حسين بن باكيش - نائب غزة - بعساكرها وعشيرها.

وأقبل الظاهر. ممن معه، فخرجوا إليه وقاتلوه بشقحب - قريبا من دمشق - قتالاً شديدًا، كسروه فيه غير مرة، وهو يعود إليهم ويقاتلهم، إلى أن كسرهم، وانهزموا منه إلى دمشق. وقتل منهم ما ينيف على الألف، فيهم خمسة عشر أميرًا، وقتل من أصحابه نحو الستين، ومن أمرائه سبعة. وركب ًاقفية المنهزمين، فامتنع جَنتمُر بالقلعة، وتوجه بالقلعة، وتوجه من أمراء دمشق ستة وثلاثون أميرًا، ومعهم نحو الثلاثمائة وخمسين فارسًا، قد أثخنوا بالجراحات. وأخذوا نائب صفد، وقصدوا ديار مصر. فلم يمض غير يوم واحد حتى وصل ابن باكيش بجمائعه، فقاتله الظاهر وهزمه، وأخذ جميع ما كان معه، فقوي به قوة كبيرة. وأتاه عدة من مماليكه، ومن أمراء الشام، فصار في عسكر كبير، وأقبل إليه الأمير جبرائيل حاجب الحجاب بدمشق، وأمير علي بن أسندمر الزيني، وجَقمَق، ومقبل الرومي، طائعين له، فصاروا في جملته.

ونزل السلطان بوقوق على قبة يلبغا ظاهر دمشق، وقد امتنع أهلها بها، وبالغوا في تحصينها، فحصرها، وأحرق القبيبات، وخربها، وأهلك في الحريق خلقًا كثيرًا، وجد أهل المدينة في قتاله، وأفحشوا في سبه، وهو لا يفتر عن قتالهم، فأمده الأمير كمشبغا من حلب بثمانين فارسًا من المماليك الظاهرية، فأخرج إليهم الأمير جَنتمُر خمسمائة فارس من دمشق، ليحولوا بينهم وبين الظاهر، فقاتلوهم، فكسرهم الظاهرية، واستولوا على جميع ما معهم.

وأتوا إلى الظاهر، فأقبل الأمير نعير بعربانه، يريد محاربته، فحاربه وكسره فانهزم عنه، وتقوى. مما صار إليه في هذه الوقائع. وصار له برك ويرق، بعدما كان بهيئة رثة، لا يكنه من المطر إلا خيمة صغيرة، ومماليكه في أخصاص كل منهم هو الذى يتولى خدمة فرسه بنفسه.

واستمر الظاهر برقوق على حصار دمشق وقتال أهلها، فورد الخبر بذلك إلى منطاش في خامس عشر ذى القعدة، فتقدم في سابع عشره إلى الصاحب موفق الدين أبي الفرج بتجهيز الملك المنصور للسفر، فلم يجد في الخزائن ما يجهزه به، واعتذر بأن المال انتهب وتفرق في هذه الوقائع، فقبل ذلك، واستدعى القضاة، وسأل قاضي القضاة صدر الدين محمد المناوي أن يقرضه مال الأيتام، فامتنع من ذلك ووعظه، فلم تنجح فيه المواعظ، وختم في يومه على موادع الأيتام، وكانت إذ ذاك عامرة بالأموال. ورسم لحاجب الحجاب وناصر الدين بن قُرطاى - نقيب الجيش - بتفرقة النقباء على أجناد الحلقة، وحثهم على التجهيز للسفر بعد العرض.

وفي تاسع عشره: قدم البريد بكسرة ابن باكيش وأخذ الملك الظاهر جميع ما كان معه، فاشتد اضطراب الناس، وكثر الإرجاف، ووقع الاجتهاد في الحركة للسفر، وأزعج أجناد الحلقة. واستدعى الأمير منطاش الخليفة المتوكل على الله، وقضاة القضاة، وشيخ الإسلام، وأعيان أهل العلم، فرتبوا صورة فتيا في أمر الملك الظاهر، وانفضوا من غير شيء.

وفيه قدم البريد بواقعة صفد، وكَان من خبرها أن مملوكًا من المماليك الظاهرية - يعرف بيلبغا السالمي - أسلمه الملك الظاهر للطواشي بهادر الشهابي مقدم المماليك، فرتبه خازنداره. واستمر على ذلك إلى أن نفي المقدم كما تقدم ذكره، فخدم يلبغا الطواشي، صواب السعدي شنكل المقدم، وصار دواداره الصغير. فلما قبض الناصري على شنكل، خدم يلبغا عند الأمير قطلوبك النظامي صفد دوادارًا، وسار معه إلى صفد، فتحبب إلى الناس بالإحسان إليهم وملاطفتهم، إلى أن قدم إلى صفد خبر مسير الملك الظاهر من الكرك إلى دمشق. وجع النظامي العسكر ليصير إلى نائب دمشق. وقام يلبغا في طائفة من المماليك الذين استمالهم، وأفرج عن الأمير أينال اليوسفي، الأمير قجماس ابن عم الظاهر، ونحو المائتين من المماليك الظاهرية من سجن صفد. ونادى بشعار الملك الظاهر يريد القبض على النظامي. فلم يثبت وفر من صفد في مملوكين، فاستولى يلبغا. ممن معه على مدينة صفد وقلعتها، وصار الأمير أينال قائمًا بأمر صفد، ووقف يلبغا في خدمته، وقد تقووا بثقل النظامي وبركة.

فلما ورد هذا الخبر، عظم اضطراب الأمير منطاش، وزاد قلقه، وكثرت قالة الناس، وتوالت الأخبار ذلك.

وفي حادي عشرينه: استقر الشريف بَكتمُر في ولاية البحرة ونقل تمراز العلاي إلى كشف الوجه البحري، ورسم لهما بجمع عرب البحيرة لقتال الظاهر.

وفيه قدم الخبر بوصول نائب صفد ونائب حماة، وحمد بن بيدمر أتابك دمشق، في تتمة خمسة وثلاثين أميرًا، وجمع كثير من المماليك، وقد انهزموا من الظاهر، فرسم بدخولهم.

وفيه استدعى الخليفة والقضاة والفقهاء بسبب الفتيا، فكتب ناصر الدين محمد بن الصالحي - موقع الحكم - فتيا تتضمن السؤال عن رجل خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفًا في الشهر الحرام والبلد الحرام وهو محرم، واستحل أخذ أموال الناس وقتل الأنفس، وجعلها عشر نسخ.

وفي ثالث عشرينه: قدم سواق من سواقي البريد، وبدوي، وبشرا منطاش بأن الظاهر بعد ما ملك دمشق كبس في الليل، وهرب، فمشى ذلك عليه، وأنعم عليهما. وفيه رسم بفتح سجن قديم بالقلعة، وقد ارتدم، وسجن به عدة مماليك وسجن كثير منهم بأبراج القلعة، وضيق عليهم.

وفيه قدم الأمراء والمماليك المنهزمون من الظاهر، وهم: قطلوبك النظامي نائب صفد، وتنكز الأعور نائب حماة، ومحمد بن بيدمر أتابك نائب دمشق، ويلبغا العلاي أحد المقدمين بدمشق، وأقباي الأشرفي نائب قلعة المسلمين، ومن أمراء الطبلخاناة دمرداش الأطروش والي الولاة، وشكر ًاحمد، وجوبان الخاصكي، وقطلوبغا جَبْجَق، وجبرائيل. ومن العشرينات أقبغا الوزيري، وأزدمر الأشقتمري، وقُنُق الزيني، ومنكلي بغا الناصري، وبَمبغا، وطومان، وأقبغا الإينالي، وأحمد بن يانوق.

وفي خامس عشرينه: اجتمع الأمراء وأهل الدولة مع الأمير الكبير منطاش، واتفقوا على استبداد السلطان الملك المنصور، وأثبتوا رشده بحضرة القضاة والخليفة. فرسم السلطان بتعليق الجاليش بالطبلخاناة، ليعلم الناس بالسفر إلى الشام، وأفرج عن الأمير محمود الأستادار، وأمر بعرض أجناد الحلقة والمماليك السلطانية، ونودي أن العامة لا يركب أحد منهم فرسًا أصيلاً وأن المكارية لا تحمل على أكديش حملاً.

وفيه أحضرت نسخ الفتوى في الملك الظاهر، وزيد فيها: " واستعان بالكفار على قتال المسلمين " وحضر الخليفة المتوكل وقضاة القضاة الأربع وشيخ الإسلام سراج

الدين عمر البلقيني وولده جلال الدين عبد الرحمن قاضي العسكر، وقاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء، وولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون المالكي، وسراج الدين عمر بن الملقن الشافعي، وعدة دون هؤلاء؛ بالقصر الأبلق من القلعة بحضرة الملك المنصور والأمير الكبير منطاش، وقدمت إليهم الفتوى، فكتبوا عليها بأجمعهم وانصرفوا. وفيه نودي على أجناد الحلقة بالعرض، وهدد من تأخر منهم.

وفي ثاني عشرينه: رحل الأمير منطاش في عدة من الأمراء، ثم رحل السلطان والخليفة والقضاة وبقية العسكر، وقد أقيم نائب الغيبة بالقلعة الأمير تكا، ومعه الأمير دمرداش القشتمري، وبالإسطبل الأمير سراي تمُر، وبالقاهرة الأمير قُطلوبغا الحاجب، وجعل أمر العزل والولاية إلى الأمير سراي تمر.

* * *

سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة

أهل المحرم يوم الاثنين، وديار مصر والشام من الفرات إلى أسوان في غاية الاضطراب وترقب الشر.

وفي ثانيه: وصل السلطان الملك المنصور إلى مدينة غزة بعساكر مصر، وجميعهم السلاح، أبدانهم وخيولهم.

وفي تاسعه: قدم البريد بكتاب السلطان إلى الأمراء والمماليك بالسلام عليهم، فتزايدت مسرات الناس بنصرة الملك الظاهر، وكثر فرحهم، حتى قل بيت لم يداخل أهله السرور بذلك.

وفيه نودي بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، فاهتم الناس في الزينة، وتناظروا في التفاخر بها، رغبة منهم في الدولة الظاهرية، حتى لم نعهد زينة نظيرها.

وفي ثالث عشره: نزل السلطان بالعكرشا، قريبًا من سرياقوس.

* * *

الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق

ابن أنص الجركسي رحمه الله تعالى سلطنته الثانية في بكرة نهار يوم الثلاثاء رابع عشر صفر، نزل الملك الظاهر بالريدانية خارج القاهرة، فخرج إلى لقائه الأشرف، مع السيد على نقيب الأشراف، وخرجت طوائف الفقراء بصناجقها، وخرجت العساكر بلبوسها الحربية.

وكانت العساكر منذ خرج بطا وأصحابه لابسة السلاح ليلاً ونهارًا. وخرجت اليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، ومعهم شموع كثيرة مشعلة. وخرج من عامة الناس رجالهم ونساؤهم ما لا يحصيه إلا الله، وعندهم من الفرح والسرور شيء زائد، وهم يضجون بالدعاء للسلطان، حتى لقوه وأحاطوا به، وقد فرشت الشقق الحرير من الترب إلى باب السلسة. فلما وصل إليها تنحى بفرسه عنها، وقدم الملك المنصور حاجي بن الأشرف حتى مشى بفرسه عليها، ومشى بجانبه، فصار كأن الموكب للمنصور، فوقع هذا من الناس موقعًا عظيمًا، ورفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال له لتواضعه مع المنصور في حال غلبته وقهره له، وأنه معه أسير، وعد هذا من فضائله. وصارت القبة والطير أيضًا على رأس المنصور الخليفة راكب بين أيديهما، وقضاة القضاة بين يدي الخليفة. فإذا تقدم الفرس عن شقة إلى أخرى تناهبها العامة من غير أن يمنعهم أحد. وكانت العادة أن الشقق الحرير لجمدارية السلطان، لكنه قصد بذلك التحبب للعامة، فإنه صاحب كيد ودهاء. وكذلك لما نثر عليه الذهب والفضة تناهبه العامة. وعندما وصل إلى باب القلعة نزل عن فرسه، ومشى راجلاً تجاه فرس المنصور - وهو راكب - حتى نزل، فأخذ يعضده وأنزله، فحسن هذا منه إلى الغاية. وأخذ في المبالغة في تعظيمه ومعاملته. مما يعامل به الأمراء سلطانهم، إلى أن أدخله داره بالقلعة ثم تفرغ لشأنه. واستَدعى الخليفة وشيخ الإسلام وقضاة القضاة وأهل الدولة، وهو بالإصطبل. وجدد عقد السلطنة وتجديد التفويض الخليفتي، فشهد بفلك القضاة على الخليفة ثانيًا، وأفيضت التشاريف الخليفتية على السلطان، ثم أفيضت التشاريف السلطانية على الخليفة. وركب السلطان من الإصطبل، وصعد القلعة، وتسلم قصوره، وقد عاد إليها حرمه وجواريه، فحقت البشائر. واستمرت التهاني والأفراح بالقلعة ودور الأموا‍ء وأهل الدولة، ونودي بالأمان والدعاء للسلطان، فسر الناس في هذا اليوم مسرة كبيرة جدًا.

وفي يوم الأربعاء خامس عشره: خلع السلطان على الفخر عبد الرحمن

بن مكانس ناظر خلعة الدولة خلعة الاستمرار. واستدعى كريم الدين عبد الكريم بن عبد العزيز صاحب ديوان الجيوش، واستقر به في نظر الجيش، عوضًا عن جمال الدين محمود العجمي القيصري. وخلع على الوزير الصاحب موفق الدين أبى الفرج، واستقر به في الوزارة ونظر الخاص. وخرج البريد إلى الإسكندرية بإحضار الأمراء المسجونين بها.

* * *

سنة ثالث وتسعين وسبعمائة

ففي ثانيه: عزل السلطان أكثر ولاة أعمال مصر، ورسم ألا يولي أحدًا ممن باشر الولاية، وأن يُعين الأمير سودن النائب جماعة من مقدمي الحلقة، فأحضر مقدمي الحلقة واختار منهم ثلاثة وهم: شاهين الكلفتي استقر في الغربية، وطرقجى في ولاية البهنسا، وقجماس السيفي في المنوفية، وأخلع عليهم في رابعه.

وفي سادسه: قدم البريد من دمشق بأن الأمير يلبغا الناصري تنافس هو والأمير الكبير أيتمش، فأظهر الخروج عن الطاعة، ولبس السلاح، وألبس حاشيته. ونادى بدمشق من كان من جهة منطاش فليحضر، فصار إليه نحو الألف ومائتي فارس من المنطاشية، فقبض عليهم كلهم وسجنهم، وكتب إلى السلطان يُعَرِّفه بذلك، فأجابه بالشكر والثناء.

وفي أول شهر رجب: قدم منطاش دمشق، وسار إليها من مرعش على العمق، حتى قارب من حماة، فانهزم منه نائبها إلى جهة طرابلس من غير لقاء، ودخلها منطاش، ولم يحدث حدثًا. وتوجه منها إلى حمص، ففر منه أيضًا نائبها إلى دمشق، ومعه نائب بعلبك، فخرج الأمير يلبغا الناصري يريد لقائه من طريق الزبداني، فثار أحمد شكر بجماعة البيدمرية، ودخل دمشق من باب كيسان، وأخذ ما في الإصطبلات من الخيول، وخرج في يوم الأحد تاسع عشرين جمادى الآخرة. وقدم منطاش في يوم الاثنين أول رجب من طريق أخرى، ونزل القصر الأبلق، ونزل جماعته حوله. وقد أحضر إليه أحمد شكر من الخيول التي نهبها ثمانمائة فرس، وندبه ليدخل المدينة ويأخذ من أسواقها المال، فبينا هو كذلك إذ قدم الناصري بعساكر دمشق فاقتتلا قتالاً كبيرًا مدة أيام.

وفي يوم الأربعاء: قدم البريد من السلطان بكسرة منطاش وفراره في سادس عشره، ومعه عنقاء بن شطي، فدقت البشائر، وتخلق الأمراء والممالك، ونودي بذلك في القاهرة.

وفي رابع شهر رمضان: قدم بريد السلطان بنزوله قطيا، وأن الأخبار صحت بفرار منطاش من دمشق في خمسين فارسًا.

* * *

سنة أربع وتسعين وسبعمائة

أهل المحرم يوم الأربعاء: فيه قدم البريد بأن السلطان يدخل إلى غزة في ثالثه.

وفي حادي عشره: قدم البريد بنزول السلطان قطيا.

وفي رابع عشره: تزوج السلطان بنت المعلم شهاب الدين أحمد الطولوني المهندس.

* * *

سنة خمس وتسعين وسبعمائة

وفي عشرينه: ابتدأ بالسلطان وعك اشتد به، وأفرط عليه الإسهال الدموي، وكثر الإرجاف إلى سادس عشرينه. وأبل من مرضه، فنودي بالزينة، فزينت القاهرة ومصر، وجلس للحكم بين الناس في يوم الأحد سابع عشرينه على عادته. وركب من الغد وشق القاهرة من باب النصر، وخرج من باب زويلة إلى بيت الأمير الكبير أيتمش، ودخل إليه يعوده من مرض به، وركض إلى القلعة.

وفي تاسع عشرينه: قدمت رسل القان طقتمش خان ملك الدشت.

وفي يوم الاثنين ثالث رمضان: قدم البريد من حلب بقبض منطاش، وذلك أن الأمير جلبان نائب حلب لم يزل يبذل جهده في أمر منطاش، حتى وافقه الأمير نعير على ذلك. وكان في طول هذه المدة مقيمًا عنده ويغزو معه، فبعث جلبان شاد شراب خاناته كمشبغا إلى نعير في خمسة عشر فارسًا، بعدما التزم له بإعادة إمرة العرب إليه. فلما قرب من أبيات نعير نزل وبعث يأمره بقبضه، فندب نعير أحد عبيده إلى منطاش يستدعيه إليه، فأحس بالشر، وهم بالفرار، فقبض العبد عنان فرسه وأدركه

عبد آخر، وأنزلاه عن فرسه وأخذا سيفه، فبدر إلى سكين معه ضرب نفسه بها أربع ضربات، وأغشى عليه، وحمل إلى كمشبغا ومعه فرسه وأربع جمال، فسار به إلى حلب في أربعمائة فارس من عرب نعير. فكان لدخوله يومًا مشهودًا، وسجن بقلعتها. فسر السلطان بذلك سرورًا عظيمًا، وأنعم على كمشبغا الواصل بالبشرى بخمسة آلاف درهم، وقباء مطرز بنصب، وتقدم إلى سائر الأمراء بخلعهم عليه، ودقت البشائر، ونودي بالزينة فزينت القاهرة ومصر، ونودي من الغد بأن منطاش قد قبض عليه.

وفيه قدم رسول صاحب بسطام بأن تيمور قتل شاه منصور متملك شيراز، بعث برأسه إلى بغداد، وبعث بالخلعة والصكة إلى السلطان أحمد بن أويس متملك بغداد، فلبس الخلعة وضرب الصكة. ثم أن تيمور مَلَكَ بغداد في يوم السبت حادي عشرينه، وذلك أن ابن أويس كان قد أسرف في قتل أمراء دولته، وبالغ في ظلم رعيته، وانهمك في الفجور، فكاتب أهل بغداد تيمور، بعد استيلائه على تبريز، يحثونه على المسير إليهم، فتوجه إليها بعساكره حتى بلغ الدربند، وهو عن بغداد مسيرة يومين. فبعث إليه ابن أويس بالشيخ نور الدين الخراساني، فأكرمه تيمور وقال: " أنا أترك بغداد لأجلك ". ورحل يريد السلطانية، فبعث الشيخ نور الدين كتبه بالبشارة إلى بغداد، وقدم في إثرها. وكان تيمور قد سار يريد بغداد من طريق آخر فلم يشعر ابن أويس - وقد اطمأن - إلا تيمور قد نزل غربي بغداد، قبل أن يصل إليها الشيخ نور الدين، فدهش عند ذلك ابن أويس وأمر بقطع الجسر، ورحل بأمواله وأولاده وقت السحر من ليلة السبت المذكور. وترك البلاد فدخل إليها تيمور، وأرسل ابنه في إثر ابن أويس، فأدركه بالحلة، ونهب ماله، وسبى حريمه، وقتل وأسر كثيرًا ممن معه. ونجا ابن أويس في طائفة، وهم عراة. فقصد حلب، وتلاحق به من تبقى من أصحابه.

وأما تيمور فإنه لما مَلَك بغداد صادر أهلها ثلاث مرات في كل مرة منهم ألف تومان، وخمسمائة تومان وكل تومان مبلغ ثلاثين ألف دينار عراقية، والدينار العراقي بقدر درهم مصر الفضة، حتى أفقرهم كلهم. وكان جملة ما أخذ منهم نحو مائة ألف ألف وخمسة وثلاثين ألف ألف درهم، بعد أن تنوع في عقوبتهم، وسقاهم الملح والماء، وشواهم على النار، ولم يبق لهم ما يستر عوراتهم. وصاروا يخرجون فيلتقطون الخرق من الطرقات حتى تستر عوراتهم وتغطى رؤوسهم. ثم إنه بعث ابنه إلى الحلة، فوضع في أهلها السيف يومًا وليلة، وأضرم فيها النار حتى احترقت، وفنى معظم أهلها ويقال إنه قتل في العقوبة من أهل بغداد ثلاثة آلاف نفس. وبعث

تيمور من بغداد العساكر إلى البصرة، فلقيهم صاحبها الأمير صالح بن جولان، وحاربهم وأسر ابن تيمور، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، فبعث إليه عسكرًا آخر في دجلة، فظفر بهم صالح أيضًا.

وأمر في القاهرة ومصر بتجهيز الناس للسفر لقتال تيمور لنك، فإنه قصد أخذ البلاد، وقتل العباد، وهتك الحريم، وقتل الأطفال، وأحرق الديار، فاشتد بكاء الناس، وعظم خوفهم، وكان من الأيام الشنعة.

وفيه قدم الخبر بأن أربعة من رهبان النصارى خرجوا بمدينة القدس، ودعوا الفقهاء لمناظرتهم، فلما اجتمع الناس لهم جهروا بالسوء من القول، وصرحوا بذم الملة الإسلامية، والأزراء على القائم بها، وأنه كذاب وساحر وما الحق إلا في دين عيسى، فقبض عليهم وقتلوا وحرقوا بالنار، فكان من الأيام المشهورة بالقدس.

* * *

سنة ست وتسعين وسبعمائة

أهل المحرم يوم الاثنين: والسلطان بقصور سرياقوس، وعساكره معه، ففي رابعه عاد إلى القلعة.

وفيه خرج عدة من الأمراء لملاقاة القان غياث الدين أحمد بن أويس.

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره: نزل السلطان إلى لقاء ابن أويس في جميع العساكر، وقعد بمسطبة مطعم الطيور من الريدانية خارج القاهرة إلى أن قرب منه ابن أويس، ونزل عن فرسه عدة خطوات، فمضى إليه الأمير بدخاص حاجب الحاجب، ومن بعده الأمراء للسلام عليه، والأمير بدخاص يعرفه اسم كل أمير ووظيفته، وهم يقبلون يده حتى أقبل الأمير أحمد بن يلبغا، فقال للأمير بدخاص: " هذا ابن أستاذ السلطان ". فعانقه ابن أويس، ولم يدعه يقبل يده. ثم جاء بعده الأمير بكلمش أمير سلاح فعانقه أيضًا، ثم بعده الأمير الكبير أيتمش رأس نوبة فعانقه، ثم الأمير سودن النائب فعانقه، ثم الأمير كمشبغا الحموي أتابك العساكر، فعانقه. وانقضى سلام الأمراء، فقام عند ذلك السلطان ونزل عن المسطبة، ومشى نحو العشرين خطوة، وهرول ابن أويس حتى التقيا، فأومأ ابن أويس لتقبيل يد السلطان فلم يمكنه وعانقه، وبكيا ساعة. ثم مضيا، والسلطان يطيب خاطره، وبعده يعوده إلى ملكه، ويده في يده، حتى صعدا إلى المسطبة، وجلسا معًا على البساط من غير

كرسي وتحادثا طويلاً. ثم قدم قباء من حرير بنفسجي بفرو فاقم، وطرز ذهب عريضة، فألبسه ابن أويس. وقدم له فرسًا من الخيل الخاص، بسرج وكنفوش، وسلسلة من ذهب، فركبه من حيث يركب السلطان، وركب السلطان بعده. وسارا يتحادثان، والأمراء والعساكر سائرة ميمنة وميسرة، وتارة يتقدم السلطان حتى يحجب ابن أويس، إلى أن قربا من القلعة، وقد خرج معظم الناس لمشاهدة ابن أويس، فكان يومًا مشهودًا. وعندما ترجل العسكر على العادة، صار ابن أويس مواكبًا للسلطان، حتى بلغا حد موضع الطبلخاناه، أومأ إليه السلطان بالتوجه إلى المنزل الذي أعده له على بركة الفيل، وجدد عمارته وزخرفته وملأه بالفرش والآلات، فسار إليه وجميع الأمراء في خدمته، وصعد السلطان إلى القلعة. فلما دخل ابن أويس إلى منزله ومعه الأمراء، مد الأمير جمال الدين محمود الأستادار بين يديه سماطًا جليلاً فأكل وأكل معه الأمراء، وانصرفوا. فبعث إليه السلطان مائتي ألف درهم فضة، ومائتي قطعة قماش سكندري، وثلاثة أفراس بقماش ذهب، وعشرين مملوكًا حسانًا، وعشرين جارية. فلما كان الليل قدم حريم ابن أويس وثقله.

وفي خامس عشرينه: عرض التتري على السلطان، فسأله عن أشياء فلم يعترف، فسلم لوالي القاهرة ليعاقبه، فأقر أن بالقاهرة عدة جواسيس، قبض على سبعة أنفس، ما بين تجار وغيرهم من العجم.

وفيه قدم كتاب تيمور لنك يتضمن الإرعاد والإبراق، وينكر قتل رسله، ونصه:{قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾} [الزمر: ٤٦]. اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه، مسلطون على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكي، ولا نرحم باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا، ومن جهتنا. فقد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل، فقل له:{إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً} [النمل: ٣٤]، وذلك لكثرة عددنا وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق، ورماحنا خوارق، وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعمد الرمال، ونحن أبطال، وأقيال، وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام، وعزنا أبدًا بالسؤدد مقام، فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل، وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم، فالحصون منا، مع تشييدها لا تمنع،

والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا، ولا يسمع، وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام، وضيعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعددتم لكم النار، وبئس المصير،{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ } [النساء: ١٠]. فلما فعلتم ذلك وأردتم أنفسكم موارد المهالك. وقد قتلتم العلماء، وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغي والإسراف، فأنتم بذلك في النار خالدون، وفي غد ينادي عليكم{فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: ٢٠] فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغي والعدوان، وقد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة. وقد سلطنا عليكم إله له أمور مقدرة، وأحكام مدبرة، فعزيزكم عندنا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقًا وغربًا، وأخذنا منها كل سفينة غصبًا. وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادي منادي الفراق: هل ترى لهم من باقية؟، ويسمعكم صارخ الغناء، بعد أن يهزكم هزًا،{هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} [مريم: ٩٨]، وقد أنصفناكم إذ راسلناكم، فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين، وتعصوا رب العالمين، فما على الرسول إلا البلاغ المبين. وقد أوضحنا لكم الكلام، فأسرعوا برد جوابنا، والسلام.

فكتب جوابه بعد البسملة:{ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ} [آل عمران: ٢٦]، حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية، ونزعاتكم الشيطانية، فكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية، وسيرة الكفرة الملاكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك، ولا ترحمون عسيرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذاك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين، لا من صفات السلاطين، ويكفيكم هذه الشهادة الكافية وبما وصفتم به أنفسكم ناهية{قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾} [الكافرون: ١ - ٦]، ففي كل كتاب لعنتم، وعلى كل لسان كل مرسل نعيتم، وبكل قبيح وصفتم، وعندنا خبركم من حين خرجتم، إنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول فلا يبالي بالفروع، نحن المؤمنون حقًا، لا يدخل علينا عيب ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا

نزوله، وعلمنا ببركته تأويله. فالنار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، إذا السماء انفطرت. ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع. نحن خيولنا برقية، وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مضرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة.{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)} [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]. وأما قولكم قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصَّاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم،{كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩]. الفرار الفرار من الرزايا وحلول البلايا. واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية، وإن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ألا إن حزب الله هم الغالبون. أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين تطلبون منا طاعة. لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ففي نظمه تركيك، وفي سلكه تلبيك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان. أم اتخذتم إلهًا ثان. وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم،{لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)} [مريم: ٨٩ - ٩٠]، قل لكاتبك الذي وضع رسالته، ووصف مقالته: وصل كتابك كضرب رباب، أو كطنين ذباب. كلا سنكتب ما يقول، ونمد له من العذاب مدا، ونرثه ما يقول إن شاء الله تعالى.{وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٧]. لقد لبكتم في الذي أرسلتم. والسلام ".

وفي سادسه: عرض السلطان أجناد الحلقة الذين عينوا للسفر، واختار منهم أربعمائة فارس للسفر معه، وعرض رأس نوبة الأجناد البحرية، وعين منهم مائتي فارس للسفر.

وفي سابعه: خرجت مدورة السلطان، ونصبت بالريدانية خارج القاهرة.

وفي يوم الأربعاء تاسعه، عقد السلطان على الخاتون تندي، بنت حسين بن أويس، ابنة أخي القان أحمد بن أويس، ومبلغ الصداق ثلاثة آلاف دينار، صرف الدينار يومئذ ستة وعشرون درهمًا، ونصف درهم، وبنى عليها في ليلة الخميس عاشره.

وفيه نزل السلطان من القلعة إلى الإصطبل، وخرج من باب السلسلة بالرميلة،

وقد وقف القان أحمد بن أويس وجميع الأمراء وسائر العساكر، وقد لبسوا للحرب ومعهم أطلابهم، فسار السلطان وعليه قرقل بغير أكمام، وكلفته على رأسه، وتحته فرس بعرقية من صوف سمك إلى باب القرافة، والعساكر قد ملأت الرميلة، فرتَّب بنفسه أطلاب الأمراء، ومر في صفوفهم عودًا وبدءًا، حتى ترتبت أحسن ترتيب، ومضى إلى قبر الإمام الشافعي فزاره، وتصدق على الفقراء. وسار إلى مشهد السيدة نفسية، فزاره وتصدق وعاد إلى الرميلة. وأشار إلى الطلب السلطاني فسار إلى الريحانية في أعظم قوة، وأبهج زي، وأفخر هيئة، وجر فيه مائتي جنيب من عتاق الخيل، عليها من الأسلحة والذهب ما يقصر الوصف عن حكايته. وسار في موكب تهتز له الأرض، وإلى جانبه ابن أويس على فرس بقماش ذهب، وبجانب ابن أويس الأمير كمشبغا الأتابك. وتبع العساكر من ورائها طلب الأمير كمشبغا، ثم طلب الأمير قلمْطاي الدوادار، ثم أطلاب بقية الأمراء فكان يومًا لم ير مثله، وقد حشر الناس في كل موضع، ونزل السلطان، وابن أويس بالمخيم من الريدانية.

وقدم الخبر بأن تيمور لنك رجع إلى بلاده، فدقت البشائر ثلاثة أيام.

وفيه قدم إلى القاهرة رسل ابن عثمان متملك الروم.

وفي أول شهر رجب: أخذ الفرنج عدة مراكب تحمل الغلال إلى الشام.

وفي سابع عشره: برزت العساكر من دمشق تريد حلب، وفيها الأمير الكبير كمشبغا الحموي أتابك العساكر، والأمير بكلمش أمير سلاح، وأحمد بن يلبغا، وبيبرس ابن أخو السلطان، ونائب صفد ونائب غزة.

وقدم الخبر على السلطان من القان أحمد بن أويس، أنه لما وصل إلى ظاهر بغداد، خرج إليه نائب تيمور بها، وقاتله فانكسر، ودخل بغداد، وأطلق المياه على عسكر ابن أويس ليغرقه، فأعانه الله وتخلص منها بعد يومين، وعبر بغداد، وقد هرب التمرية منها، فاستولى عليها، واستخدم جماعة من التركمان والعربان، فلما بلغ ذلك تيمور جهز أمراءه بالأموال إلى سمرقندي.

* * *

سنة سبع وتسعين وسبعمائة

وفي رابعه: خرج أتباع ابن أويس إلى بغداد بحريمه.

وفي سابعه: قدم السلطان من حلب إلى دمشق بعساكره.

وفي سابع عشره توجه السلطان من دمشق يريد مصر، وولي الأمير بدخاص السودوني - حاجب الحجاب - نيابة الكرك، عوضًا عن الشهاب أحمد بن الشيخ علي. ونقل الشهاب إلى دمشق حاجب الحجاب بها، عوضًا عن تمربغا المنجكي. وقدم تمربغا في الخدمة إلى مصر، واستقر قُنُق باي السيفي اللالا بصفد من جملة أمرائها. واستقر الجبغا الجمالي الحاجب أميرًا بدمشق، على طبلخاناه.

وفي ثالث عشرينه: نودي بزينة القاهرة ومصر، فزينتا.

وفي ثامن عشره: قدم البريد من حلب بأن تيمور توجه من قراباغ، وعدى السلطانية، وتوجه ابنه إلى كيلان، فإن طقتمش أخذ أكثر بلاده. وقد حدث ببغداد وباء عظيم، واشتد بها الغلاء، وانتقل ابن أويس عنها إلى الحلة.

وفيه عقد مجلس عند السلطان حضره القضاة وشيخ الإسلام سراج الدين، عمر البلقيني، بسبب يلبغا السالمي وشهاب الدين أحمد العبادي - أحد نواب القضاة الحنفية بالقاهرة - وذلك أن عدة الصوفية بخانكاه سعيد السعداء كانت عندما تحدث الأمير سودن النائب في نظرها من ابتداء دولة السلطان، دون الثلاثمائة، فتزايدت حتى بلغت نحو الخمسمائة. ولم يف ريع الوقف بالمصروف، فقطع ما كان لهم من الحلوى والصابون في كل شهر، ومن الكسوة في السنة. فلما شرقت ناحية دهمرو - الموقوفة على الخانقاه - في هذه السنة، من جملة ما شرق من النواحي، لقصور النيل، عزم مباشرو الخانقاه على غلق مطبخها ومخبزها من أول شهر رجب هذا، وقطع ما للصوفية من الطعام واللحم، والخبز في كل يوم، فلم يصبروا على ذلك. وتكرر وقوفهم للسلطان، وشكواهم، حتى ولي يلبغا السالمي نظر الخانكاه، وشرط عليه إجراء الأمور فيها على ما في كتاب وقفها من الشروط فوجد شرط الواقف أن يكون من بها من الصوفية أهل السلوك، فإن تعذر وجودهم كانت وقفًا على الفقراء والمساكين، وأفتاه شيخ الإسلام بوجوب اتباع شرط الواقف، فجمع القضاة وشيخ الإسلام بالخانقاه، وأحضر سائر صوفيتها، وقرأ عليهم كتاب الوقف، سألهم في الحكم بالعمل بشرط الواقف، فانتدب له من جملة الصوفية زين الدين أبو بكر القمني من

فقهاء الشافعية، وشهاب الدين أحمد العبادي من فقهاء الحنفية، وقضاتهم، وأخذا في مخاصمته. وطال النزاع فأضرب عن قولهما، وسأل القضاة عما يفعل. فقالوا كلهم مع شيخ الإسلام افعل شرط الواقف وانفضوا. فقطع من ليلته نحو الخمسين من الصوفية الذين يركبون البغلات، أو يلون القضاء والحكم بين الناس، أو لهم شهرة بغناء، وسعة مال، وفيهم القمني والعبادي، فأطلقا ألسنتهما فيه. وزاد العبادي في التعدي، وصرح بأن السالمي قد كفر، وصار يقول في المجالس الكافر يلبغا سالمي استنبطت آية من كتاب الله فيه. وهي قوله تعالى:{أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً } [الجاثية: ٢١]، وكتبت في ذلك كراريس، وهذا الكافر يلبغا يريد أن يكون مثل الفقراء الصالحين. فلما بلغ ذلك السالمي لم يحتمله، وشكا العبادي للسلطان. ونزل من القلعة إلى داره، فإذا بالعبادي قد مر في شارع القاهرة، فلشدة حنقه منه نزل عن فرسه، وقبض على كم العبادي، ودعاه إلى الشرع فزاد العبادي في التحامق، وقال: " تمسك كمي كفرت؛ فبينما هما في ذلك إذ مر سعد الدين نصر الله بن البقري، فنزل عن فرسه، وما زال بهما حتى أخذهما ومشى إلى المدرسة الحجازية برحبة باب العيد، وجلسوا بها، فأتاهم الأمير علاء الدين علي بن الطبلاوي. وأخذ في الإصلاح بينهما، فزاد تجانن العبادي، وقال: قد كفر السالمي بمسكه كمي، وأنا مذهبي من قال للفقيه يا فقيه بصيغة التصغير فقد كفر، لأنه احتقره، وكذلك مسك كمي فيه احتقاري، وهو كفر. فانفض المجلس عن غير صلح، فعاد السالمي إلى السلطان. وقد بلغ السلطان ما جرى بينه وبين العبادي، فقال له: قد كفرك الفقهاء يا يلبغا، فقال: يا مولانا قد كفروا أكبر مني. يعرض له بما كان من إفتاء الفقهاء فيه لمنطاش أيام كان بالكرك. ثم سأل في عقد مجلس له ولغريمه، فرسم بذلك، وحضر القضاة وشيخ الإسلام عند السلطان، في يوم الخميس ثامن شهر رجب هذا، وجيء بالعبادي، وأقيمت عليه البينة عند قاضي القضاة ناصر الدين محمد التنسي المالكي، بعد الدعوى فحكم بتعزيره، فقال السلطان: التعزير لي. وأراد ضربه بالمقارع، فشفع فيه الأمير قلمطاي الدوادار، حتى فوض تعزيره لقاضي القضاة جمال الدين محمود الحنفي، فأجابه، وأمر به الجمال عند ذلك، فكشف رأسه، وأنزل به بين يدي بغال القضاة من القلعة، وهو ماش، حتى سجن بحبس الديلم من القاهرة، ثم أخرج منه ونقل إلى سجن الرحبة. وطلب يوم السبت حادي عشره إلى بيت الجمال العجمي، وحضر ابن الطبلاوي، وضربه على قدميه نحو الأربعين ضربة، وأعيد إلى السجن. ثم خرج في ثامن عشره إلى بيت السالمي، وقد حضر

شيخ الإسلام عنده. وما زال به حتى أرج عنه، وتسامع القضاة فأتوا إلى السالمي، وحضروا إصلاح شيخ الإسلام بينهما.

* * *

سنة ثمان وتسعين وسبعمائة

وفي ثامن عشره: قدمت رسل الأمير قرا يوسف بن قرا محمد - صاحب تبريز - برجل يقال له أطلمش من نواب تيمور لنك، قبض عليه، فسلم لابن الطبلاوي.

وفي تاسع عشره: سلم ناصر الدين محمد بن محمود الأستادار لابن الطبلاوي، على مائة ألف دينار يخلصها منه، فأخرق به وبالغ في إهانته ونزع عنه ثيابه ليضربه بحضرة الناس، فقال له: يا أمير: قد رأيت عزنًا وما كنا فيه، وقد زال، فعزك أيضًا ما يدوم، وهذا أول يوم زال عني: عن أبي فيه السعادة وأقبل الإدبار. فلم يضربه.

* * *

سنة تسع وتسعين وسبعمائة

و ركب الأمير سودن طاز البريد لإحضار الأمير تنم الحسني نائب الشام.

وفي عاشره: توجه السلطان إلى سرحة سرياقوس، ونزل بالقصور على العادة في كل سنة، وخرج الأمراء وأهل الدولة، فأقام إلى سادس عشرينه وعاد إلى القلعة. واستقر محمد بن قرابغا الأنباقي في ولاية أكوم الرمان، وعزل أسنبغا السيفي. وحضر الأمير علاء الدين ألطبغا نائب الملك الظاهر مجد الدين عيسى صاحب ماردين، فأنعم عليه وعلى من معه، ورتب لهم اللحوم والجرايات. وكان سبب قدومه أن الظاهر عيسى لما قبض عليه تيمور لنك وأقام في أسره، قام ألطبغا بأمر ماردين ومنع تيمور لنك منها. وكان الظاهر قد أقام في مملكة ماردين الملك الصاع شهاب الدين أحمد بن إسكندر بن الملك الصالح صالح، وهو ابن أخيه وزوج ابنته، فقاتل أصحاب تيمور قتالاً شديدًا، وقتل منهم جماعة، فشق هذا على تيمور، ثم أفرج عن الظاهر بعد أن أقام في أسره سنتين وسبعة أشهر، وحلفه على الطاعة له وإقامة - الخطبة باسمه، وضرب السكة له، والقبض على ألطنبغا وحمله. فعندما حضر إلى ماردين، فر منه ألطنبغا إلى مصر، فرتب له السلطان ما يليق به.

وقدمت رسل تيمور إلى دمشق، فعوقوا بها، وحملت كتبهم إلى السلطان فإذا فيها طلب أطلمش، فأمر أن يكتب إلى أطلمش بما هو فيه ورفيقه من إحسان السلطان، وكتب جوابه بأنه متى أرسل من عنده من أصحاب السلطان، خبر إليه أطلمش.

وقدم البريد بوصول عساكر تيمور لنك إلى أزرنكان من بلاد الروم. وقتل كثير من التركمان، فتوجه الأمير تمربغا المنجكي على البريد لتجهيز عساكر الشام إلى أرزنكان، وندب شهاب الدين أحمد بن عمر بن قطينة، لتجهيز الشعير برسم الإقامات في منازل طريق الشام. وكان في أثناء هذه السنة قد قبض الأمير بَكْلَمِش العلاي أمير سلاح علي زين الدين مهنا - دواداره - بمرافعة موقعه وشاهد ديوانه، صفي الدين أحمد ابن محمد بن عثمان الدميري، وأخذ منه أربعمائة ألف وخمسين ألف درهم، ثم أفرج عنه، وقبض على الصفي الدميري وبالغ في عقوبته، وأخذ منه مائة ألف درهم.

* * *

سنة ثمانمائة

وفيه كُتب بعود العسكر المجرد بسبب تيمور لنك، وقد قربوا من بلد سيواس.

وفي ثاني عشرينه: خرج على البريد بكتمُر جلق لإحضار الأمير تغري بردي من يشبغا نائب حلب، وكتب بانتقال أرغون شاه الإبراهيمي من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب. وسار على البريد الأمير يشبك العثماني بتقليده. ورسم بانتقال أقبغا الجمالي من نيابة صفد إلى نيابة طرابلس، وتوجه لتقليده الأمير أزْدَمُر أخو أينال، ومعه أيضًا الأمير تنم الحسني باستمراره في نيابة دمشق، ورسم بانتقال شهاب الدين أحمد بن الشيخ على من نيابة غزة إلى نيابة صفد، وتوجه لتقليد الأمير يلبغا الناصري رأس نوبة.

وقدم رسول الملك الظاهر مجد الدين عيسى متملك ماردين بكتابه، يترامى على التزام الطاعة، ويعتذر من طاعته لتيمور لنك بأنه أقام عنده في قيد زنته خمسة وعشرين رطلاً من الحديد مدة سنتين، حتى حلف له بالطلاق، وغير ذلك من الأيمان، أنه يقيم على طاعته، فأفرج عنه، وأنه وفي بما حلف له عليه، وعاد إلى طاعة السلطان، فأجيب بالشكر والثناء، وجهز إليه تشريف ومبلغ ثلاثين ألف دينار، وكتب تقليده بنيابة ماردين.

* * *

سنة إحدى وثمانمائة

أهل هذا القرن التاسع وخليفة الوقت أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد، وليس له أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة، وإنما هو بمنزلة واحد من الأعيان. وسلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والحرمين - مكة والمدينة - الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن أنص أول ملوك الجركس، ونائبه بدمشق الأمير تنم الحسني، ونائبه بحلب الأمير أرغون شاه الخازندار، ونائبه بطرابلس الأمير قبغا الجمالي، ونائبه بحماة الأمير يونس بَلْطا، ونائبه بصفد الأمير شهاب الدين أحمد بن الشيخ علي، ونائبه بغزة الأمير طيفور، ونائبه بالإسكندرية الأمير صَرْغتمش، ونائبه بمكة المشرفة الشريف حسن بن عجلان الحسني، ونائبه بالمدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم - الشريف ثابت بن نعير. والأمير الكبير أتابك العساكر بديار مصر الأمير أيتَمش البجاسي. وقاضي القضاة الشافعي بها تقي الدين عبد الرحمن الزبيري، ورفقاؤه قاضي القضاة جمال الدين يوسف الملطي الحنفي وقاضي القضاة ناصر الدين أحمد التنسي المالكي، وقاضي القضاة برهان الدين إبَراهيم ابن نصر الله الحنبلي. وحاجب الحجاب الأمير فارس القطلوقجاوي، وناظر الخاص والجيش معًا سعد الدين إبراهيم بن غراب، وكاتب السر بدر الدين محمود الكلستاني العجمي، والوزير بدر الدين محمد بن محمد الطوخي.

شهر الله المحرم أوله الجمعة.

وفي خامس عشرة: حضر ابن خلدون وخلع عليه، واستقر في قضاء القضاة المالكية، عوضًا عن ناصر الدين محمد بن التنسي بعد موته، فشرع في عرض الشهود، وأغلق عدة حوانيت استجدت بعده. وهذه ولايته الثانية بعد ما أقام معزولاً نحو خمس عشرة سنة.

وفي يوم الثلاثاء خامسه: ابتدأ مرض السلطان. وذلك أنه ركب للعب الكرة بالميدان في القلعة على العادة. فلما فرغ منه قدم إليه عسل نحل ورد من كختا، فأكل منه ومن لحم بلشون، ودخل إلى قصوره، فعكف على شرب الخمر، فاستحال ذلك خلطًا رديًا لزم منه الفراش من ليلة الأربعاء، وتنوع مرضه حتى ًايس منه لشدة الحمى، وضعف القوى، فأرجفت بموته في يوم السبت تاسعه. واستمر أمره يشتد إلى يوم الأربعاء ثالث عشره، فشنع الأرجاف، وغلقت الأسواق، فركب الوالي ونادى بالإمعان. فلما أصبح يوم الخميس استدعى الخليفة المتوكل على الله أبا عبد الله

محمد، وقضاة القضاة وسائر الأمراء - الأكابر والأصاغر - وجميع أرباب الدولة إلى حضرة السلطان، فحدثهم في العهد لأولاده. فابتدأ الخليفة بالحلف للأمير فرج ابن السلطان أنه هو السلطان بعد وفاة أبيه، ثم حلف بعده القضاة والأمراء.

وتولى تحليفهم كاتب السر فتح الدين فتح الله، وكان منذ نزل بالسلطان مرضه أقام عنده ليلاً ونهارًا لثقته به. فلما تم الحلف لفرج حلفوا أن يكون القائم بعد فرج أخاه عبد العزيز، وبعد عبد العزيز أخوهما إبراهيم، ثم كتبت وصية السلطان، فأوصى لزوجاته وسراريه وخدامه. بمائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وأن تعمر له تربة تحت الجبل بجوار تربة الأمير يونس الدوادار خارج باب النصر بثمانين ألف دينار، ويشترى بما يفضل عن العمارة عقار ليوقف عليها، وأن يرفن بها في لحد تحت أرجل الفقراء الذين بحوش الخليلي، وهم علاء الدين علي السيرامي، وأمين الدين الخلوتي وعبد الله الجبرتي، وعبد الكريم الجبرتي، وطلحة وأبو بكر البجائي، وأحمد الزهوري. وقرر أن يكون الأمير الكبير أيتمش هو القائم بعده بتدبير دولة ابنه فرج. وجعله وصيًا على تركته، ومعه الأمير تغري بردي أمير سلاح، والأمير بيبرس الدوادار، والأمير يشبك الخازندار، وفتح الدين فتح الله كاتب السر، والأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البجكاوي، وسعد الدين إبراهيم بن غراب، والأمير قطلوبغا الكركي، والأمير يلبغا السالمي. وجعل الخليفة ناظرًا على الجميع. فلما تقرر ذلك انفض الجميع ونزل الأمراء بأسرهم في خدمة الأمير أيتمش إلى منزله. فوعدهم بخير، وأنه يبطل المظالم وأخذ البراطيل على المناصب والولايات. وأكثر السلطان من الصدقات، فبلغ ما تصدق به في هذه المرضة أربعة عشر ألف دينار وتسعمائة دينار وستة وتسعين دينارًا.

ومات بعد نصف ليلة الجمعة خامس عشر شوال، وقد تجاوز الستين سنة، منها مدة حكمه بديار مصر منذ صار أتابك العساكر، عوضًا عن الأمير طشتمر العلاي الدوادار، إلى أن جلس على تخت السلطة أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام. ومنذ تسلطن إلى أن مات ست عشرة سنة وأربعة أشهر وسبعة وعشرون يومًا، منها سلطنته إلى أن خلع ست سنين وثمانية أشهر وعشرون يومًا، وسلطنته منذ أعيد إلى أن مات تسع سنين وثمانية أشهر. والفترة بينهما ثمانية أشهر وتسعة أيام، ومدة حكمه أتابكًا وسلطانًا إحدى وعشرون سنة وعشرة أشهر وستة عشر يومًا.

* * *

السلطان زين الدين أبو السعادات

السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد برقوق بن الأمير الكبير سيف الدين آنص الجركسي ثاني ملوك الجراكسة بمصر جلس على تخت الملك بقلعة الجبل صبيحة موت أبيه، يوم الجمعة النصف من شوال، سنة إحدى وثمانمائة.

وذلك أنه اجتمع بالقلعة الأمير الكبير أيتمش وسائر الأمراء وأرباب الدولة، واستدعى الخليفة وقضاة القضاة، وشيخ الإسلام البلقينِي، ومن عادته الحضور. فلما تكاملوا بالإصطبل السلطاني أحضر فرج بن الملك الظاهر برقوق، وخطب الخليفة وبايعه بالسلطة، وقلده أمور المسلمين، فقبل تقليده. وأحضرت خلعة سوداء، أفيضت على فرج، ونعت بالملك الناصر. ومضى حتى جلس على التخت بالقصر، وقبل الأمراء كلهم له الأرض على العادة، وألبس الخليفة التشريف.

وأخذ بعد ذلك في جهاز الملك الظاهر، فغُسل وكفُن، وصَفي عليه بالقلعة قاضي القضاة صدر الدين محمد المناوي، وحُمل نعشه على الأعناق من قلعة الجبل إلى التربة قبل صلاة الجمعة، وسائر الأمراء والعساكر والأعيان والرعايا مشاة، يضجون ويصرخون، حتى ووري تحت التراب تحت أقدام الفقراء حيث أوصى. ولم يعهد قبله أحد من الملوك، دفن نهارًا بديار مصر.

فلما انقضى أمر دفنه عاد الأمراء، ونودي بالقاهرة ومصر بالترحم على الملك الظاهر، والدعاء للملك الناصر، وتطمين الناس وأمنهم. وخطب يومئذ على منابر القاهرة ومصر للناصر، وكثر الأسف على فقد الظاهر، وضربت خيمة على قبره، وقرأ القراء القرآن على قبره، وكان الناس يظنون قيام فتنة عظيمة لموته. فلم يتحرك ساكن في هذا اليوم.

وأنشد الأديب المقرئ شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدي في ذلك:

مضى الظاهر السلطان أكرم مالك ::: إلى ربه يرقى إلى الخلد في الحرج
وقالوا ستأتي شدة بعد موته ::: فأكذبهم ربي وما جاء سوى فرج

* * *

سنة اثنتين وثمانمائة

وورد الخبر بنزول ابن عثمان على ملطية ومحاصرتها، وبها الأمير جمق من الظاهرية. وأن العشير ببلاد الشام كانت بينهم فتن وحروب، قتل فيها آلاف. وكان من خبر أبي يزيد بن عثمان أن القاضي برهان الدين صاحب سيواس لما قتل، كتب أهل سيواس إلى ابن عثمان يستدعوه، فسار إليهم من فوره على عسكر كبير وملكها، وأقام عليها ابنه سلمان ثم مضى إلى أرزنجان، ففر منه طهر ابن حاكمها إلى تيمورلنك، فأخذ ابن عثمان ماله، وأفحش في حريمه بتمكين سواسه منهن، وعاد إلى مملكته.

وفي يوم الخميس سادسه: استدعي الملك الناصر فرج بالأمير الكبير أيتمش إلى القصر، وقال له: يا عم، أنا قد أدركت، وأريد أن أترشد. وكان هذا قد بيته معه الأمير يشبك، والأمير سودون طاز، فيمن معهما من الخاصكية، ليستبد السلطان، ويحصل لهم الغرض في أيتمش والأمراء، ويمتنع أيتمش من تصرف السلطان، فينفتح لهم باب إلى القتال، ومحاربة أيتمش والأمراء. فأجاب أيتمش السلطان بالسمع والطاعة، واتفق مع الأمراء والخاصكية على ترشيد السلطان، وأن يمتثل سائر ما يرسم به. واستدعى في الحال الخليفة، وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، وقضاة القضاة وقضاة العساكر، ومفتو دار العدل، وكاتب السر، وناظر الجيش، وغيره ممن عادته حضور المجالس السلطانية. وادعي القاضي سعد الدين إبراهيم بن غراب ناظر الجيش والخاص على الأمير أيتمش بأن السلطان قد بلغ راشدًا. وأشهد عدة من الأمراء الخاصكية بذلك، فحكم القضاة برشد السلطان، وخلع على الخليفة وشيخ الإسلام، وقضاة القضاة، ومن حضر من بقية القضاة والفقهاء، وعلى الأمير أيتمش. ونزل أيتمش إلى داره التي كان يسكنها في الأيام الظاهرية ونقل سائر ما كان له بالإصطبل السلطاني وللحال دقت البشائر، ونودي في القاهرة ومصر بالزينة والدعاء للسلطان، فزينتا.

فلما كان ليلة الاثنين عاشره: أشيع من العصر ركوب العساكر للقتال، وماج الناس، وكثرت حركاتهم، فلم يدخل الليل حتى لبس أيتمش. ممن معه آلة الحرب. وملك أيتمش الصوة تجاه باب القلعة، وأصعد عدة من المقاتلة إلى عمارة الأشرف تجاه الطبلخاناه، ليرموا على من فيها ومن يقف على باب القلعة.

و لم يخرج يشبك من بيته. وأخذ الأمير فارس حاجب الحجاب رأس الشارع

الملاصق لباب مدرسة السلطان حسن، ليقاتل من يخرج من باب السلسلة. وأخذ الأمير تغري بردي أمير سلاح، والأمير أرغون أمير مجلس رأس سويقة منعم تجاه القصر. وركب الأمير يشبك الخازندار، والأمير بيبرس الدوادار إلى القلعة. ودقت بها الكوسات الحربية. ولبست المماليك السلطانية. ولحق بهم من الأمراء سودون طاز وسودون الماريديني، ويلبغا الناصري، وبكتمر الركني، وأينال باي بن قجماس، ودقماق المجدي نائب ملطية.

ووقعت الحروب بين الفريقين من وقت العشاء الآخرة إلى السحر. وقد نزل السلطان من القصر إلى الإصطبل، فاشتد قتال المماليك السلطانية، وثب لهم الأمير فارس، وكاد يهزمهم لولا ما كادوه من أخذ مدرسة السلطان حسن، ورميه من أعلاها إلى أن هزموه، وأحاطوا بداره، وهزموا تعري بردى وأرغون شاه، بعدما أبلى تغري بردى بلاءًا كثيرًا، وأحاطوا بدورهما، فصار الجميع إلى أيتمش. وقد امتدت الأيدي إلى دورهم فنهبوا ما فيها، فنادى أيتمش بالقاهرة وظواهرها: من قبض مملوكًا جركسيا من المماليك السلطانية، وأحضره إلى الأمير الكبير أيتمش يأخذ عرية " فحنقوا من ذلك، وفارقه من كان معه من الجراكسة، وصاروا إلى جهة السلطان، ومالوا بأجمعهم على أيتمش، فإنهزم. ممن بقي معه وقت الظهر من يوم الاثنين يريدون جهة الشام، وانهزم معه من الأمراء الألوف أرغون شاه أمير مجلس، وتغري بردي أمير سلاح، وفارس حاجب الحجاب ويعقوب شاه الحاجب. ومن الطلخاناه ألطنبغا شادي، وشادي خجا العثماني، وتغري بردى الجلباني وبكتمر. جلق الناصري، وتنكر بغا الحططي، وأقبغا المحمودي الأشقر، وعيسي فلان وإلى القاهرة. ومن أمراء العشرينات أسندمر الأسعردي، ومنكلي بغا العثماني، ويلبغا الظريف من خجا علي. ومن أمراء العشرات خضر بن عمر ابن بكتمر الساقي، وخليل بن قرطاي شاد العمائر، وعلى بن بلاط الفخري، وبيرم العلاي، وأسنبغا المحمودي، ومحمد بن يونس النوروزي، وألجي بغا السلطاني، وتمان تمر الأشقتمري، وتغري بردى البيدمري، وأرغون السيفي، ويلبغا البلشون المحمودي، وباي خجا الحسني، وأحمد بن أرغون شاه الأشرفي، ومقبل أمير حاجب، وناصر الدين محمد ابن علاء الدين على بن كلفت نقيب الجيش، وخايربك بن حسن شاه، وجوبان العثماني، وكزل العلاي، ويدي شاه العثماني، وكمشبغا الجمالي، وألطنبغا الخليلي، وألطنبغا الحسني، في تتمة نحو الألف. فمروا بالخيول السلطانية في ناحية سرياقوس، فأخذوا من جيادها نحو المائة، وساروا إلى دمشق.

وتجمع من المفسدين خلائق، ونهبوا مدرسة أيتمش، وحفروا قبر ولده الذي بها، وأحرقوا الربع المجاور لها من خارج باب الوزير، فلم يعمر بعد ذلك. ونهبوا جامع أقسنقر، واستهانوا بحرمة المصاحف. ونهبوا مدرسة السلطان حسن، وأتلفوا عدة من مساكن المنهزمين، وكسروا حبس الديلم وحبس الرحبة، وأخرجوا المسجونين.

وفي خامس عشره: ورد الخبر بخروج تنم نائب الشام، وأيتمش. ممن معهما من دمشق إلى جهة غزة، فرسم بالتجهيز للسفر، وكثر عمل الناس في القاهرة للدروب والخوخ خوفًا من النهب، وتتبع ابن الزين وإلى القاهرة المماليك البطالة، وقبض عليهم، وسجنهم بخزانة شمايل.

فلما كان يوم السبت ثالث عشرينه: ورد الخبر أنه ركب. ممن معه يريد الحرب، فسار السلطان بعساكره من غزة، إلى أن أشرف على الجينين قرب الظهر، فعاين تنم قد صف عساكره، ويقال: إنهم خمسة آلاف فارس وستة آلاف راجل. فتقدمت عساكر السلطان إليهم وقاتلوهم، فلم يكن غير يسير حتى انهزمت عساكر تنم، ووقع في الأسر تنم نائب الشام، وأقبغا نائب حلب، ويونس نائب طرابلس، وأحمد ابن الشيخ علي، وفارس حاجب الحجاب وبيغوت، وشادي خجا، وبيرم رأس نوبة أيتمش، وجلبان نائب حلب. ومن أمراء الطبلخاناه والعشرات ما ينيف على مائة أمير، وفر أيتمش، وتغري بردى، ويعقوب شاه، أرغون شاه، وطيفور، في ثلاثة آلاف إلى دمشق ليملكوها. وعندما قبض على تنم كتب إلى دمشق بالنصرة ومسك تنم، فوصل البريد بذلك يوم الثلاثاء سادس عشرينه على نائب الغيبة بدمشق، فنودي بذلك.

ثم قدم الأمير أيتمش إلى دمشق يوم الأربعاء سابع عشرينه، فقبض عليه، وعلى تعري بردى، وطيفور، وأقبعا اللكاش، وحبسوا بدار السعادة. ثم أمسك بعد يومين أرغون شاه، ويعقوب شاه. وتقدم القاضي سعد الدين إبراهيم بن غراب إلى دمشق، فقدمها في يوم السبت سلخه.

وأما يلبغا المجنون فإنه نزل البير البيضاء في يوم الخميس ثامن عشرينه، فبعث إليه الأمير بيبرس أمانًا، فقبض على من أحضره إليه وطوقه بالحديد. فاستعد الناس بالقاهرة، وباتوا ليلة السبت على أهبة اللقاء. وركب الأمراء كلهم بكرة يوم السبت سلخه إلى قبة النصر خارج القاهرة، وأقبل يلبغا المجنون، فواقعهم عند بساتين المطرية، ومعه نحو ثلاثمائة فارس، وقصد القلب، وفيه سودون بن زادة، وأينال حطب، وثلاثمائة من المماليك السلطانية، فأطبق عليه الأمير بيبرس من الميمنة، ومعه الأمير يلبغا السالمي، وساعدهما إينال باي. ممن معه من الميسرة، فتقنطر

سودون من زادة، وخرق يلبغا المحنون القلب في عشرين فارسًا، وصار إلى جهة الجبل الأحمر، وانكسر سائر من معه من الأمراء وغيرهم، فتبعهم العسكر وفي ظنهم أن يلبغا المجنون فيهم، فأدركوا الأمير تمربغا المنجكي بالزيات وأخذوه، وأخذ طلب يلبغا المجنون من عند خليج الزعفران برأس الريدانية، فوجد فيه الأمير ناصر الدين محمد بن سنقر الأستادار، والأمير بيسق أمير أخور، فأطلقوهما، ونهبوه، وعاد العسكر إلى تحت القلعة. وسار المجنون في عشرين فارسًا مع ذيل الجبل إلى تجاه دار الضيافة. فلما رأى كثرة من اجتمع من العامة خاف منهم أن يرجموه، فقال لهم: أنتم ترجوني بالحجارة وأنا أرجمكم بالذهب، فدعوا له وتركوه، فسار من خلف القلعة، ومضى إلى جهة الصعيد من غير أن يعرف به الأمراء. وفيه استقر علاء الدين علي بن طرنطاي كاشف الوجه البحري، وتغري برمش والي الشرقية.

شهر شعبان، أوله الأحد: في أوله: قدم الأمير سيف الدين جكم رأس نوبة إلى دمشق، وقيد أيتمش ومن معه ونقلهم من دار السعادة إلى قلعة دمشق، ونادى في الناس بالأمان، ومنع المماليك السلطانية من المعرض للناس، وألا ينزلوا داخل المدينة.

وفي ليلة الاثنين قال: وصل الأمير سردون الدوادار قريب السلطان وقد والي نيابة دمشق، ومعه الأمير تنم، وعشرة من الأمراء في القيود فحبسهم بالقلعة أيضًا.

وفي يوم الاثنين المذكور: دخل السلطان الملك الناس بأمرائه وعساكره إلى قلعة دمشق، فكان يوما مشهودًا وسر الناس به سرورًا كبيرًا. وقدم معه شرف الدين مسعود، وقد استقر في قضاء دمشق، عوضًا عن الأخناي. ووقعت الحوطة على حواشي تنم وأسبابه، وعلى ابن الطبلاوي. ولم يفقد في هذه الواقعة من الأعيان سوى الأمير صلاح الدين محمد بن تنكز، فإنه قتل.

وفي سادس عشره: نودي في القاهرة بقلع الزينة فقلعت.

شهر رمضان، أوله الاثنين:

في ليلة الخميس رابعه: قتل الأمير تنم نائب الشام والأمير يونس الرماح نائب طرابلس بقلعة دمشق خنقًا بعد أن استصفيت أموالهما، ولم يبق لهما شيء، ثم سلما إلى أهلهما، فدفن تنم بتربته بميدان الحصى خارج دمشق، ودفن يونس بالصالحية. فكانت مدة ولاية تنم نيابة الشام سبع سنين وستة أشهر ونصفًا، وولاية يونس طرابلس نحو ست سنين.

وكان سودون الظريف نائب الكرك قد خرج منها، وقدم دمشق على السلطان بعد أن استخلف على الكرك الحاجب شعبان بن أبي العباس، فعزل سودون في هذا اليوم، وأقام السلطان في نيابة الكرك الأمير سيف الدين بدخاص السودوني، وخرج إليها.

وفيه خرج السلطان من قلعة دمشق بعساكره، ونزل الكسوة يريد مصر، فكانت إقامته بدمشق أحدا وثلاثين يومًا. وأخرج ابن الطلاوي، وابن أبي الطيب كاتب السر - في الترسيم، بعدما أهينا وأخذت أموالهما. وسار البريد إلى القاهرة بخروج السلطان من دمشق فقدم في ثامنه، فدقت البشائر ثلاثة أيام بقلعة الجبل. ونودي في القاهرة أن يبيض الناس حوانيتهم وظواهر أملاكهم وكثروا القناديل التي تعلق على الحوانيت كل ليلة.

* * *

سنة ثلاث وثمانمائة

وفي سادسه: قدم البريد من دمشق بأن تمرلنك نزل على سيواس، وانهزم سليمان ابن أبي يزيد بن عثمان، وقرا يوسف بن قرا محمد إلى جهة برصا، بلد الروم، وأنه أخذ سيواس، وقتل من أهلها جماعة كبيرة.

وفي ثامن عشرينه: استقر الأمير شهاب الدين أحمد بن الوزير الأمير ناصر الدين محمد بن رجب بن كلفت في شد الدواوين، عوضًا عن الشريف علاء الدين على البغدادي. وفيه استدعى الخليفة، وقضاة القضاء، والأمراء، وأعيان الدولة، وأعلموا أن تمرلنك وصل إلى سيواس وأخذها، ووصلت مقدمته إلى مرعش وعين تاب والقصد أخذ مال من التجار إعانة على النفقة في العساكر. فقال القضاة: أنتم أصحاب اليد، وليس لكم معارض، وإن كان القصد الفتوى فلا يجوز أخذ مال أحد، ويخاف من الدعاء على العساكر إن أخذ مال التجار، فقيل لهم نأخذ نصف الأوقاف نقطعها للأجناد البطالين، فقيل وما قدر ذلك ومتى اعتمد في الحرب على البطالين من الأجناد؟ خيف أن يأخذوا المال؟ ويميلون عند اللقاء مع من غلب وطال الكلام حتى استقر الرأي على إرسال الأمير أسنبغا الحاجب لكشف الأخبار، وتجهيز عساكر الشام إلى جهة تمرلنك.

وفيه قدم رسول تمر بكتابه للمشايخ والأمراء والقضاة بأنه قدم في عام أول إلى العراق، يريد أخذ القصاص ممن قتل رسله بالرحبة ثم عاد إلى الهند لما بلغه ما

ارتكبوه من الفساد، فأظفره الله بهم. فبلغه موت الظاهر، فعاد وأوقع بالكرج. ثم قصد، لما بلغه قلة أدب هذا الصبي - أبي يزيد بن عثمان - أن يعرك أذنه، ففعل بسيواس وغيرها من بلاده ما بلغكم. ثم قصد بلاد مصر ليضرب بها السكة، ويذكر اسمه في الخطة، ثم يرجع بعد أن يقرر سلطان مصر بها. وطلب أن يرسل إليه أطلمش ليدركه، إما بملطية أو حلب أو دمشق، وإلا فتصير دماء أهل الشام وغيرهم في ذمتكم، مخرج نائب صفد في رابع عشره، وخرجت الأطلاب في نصفه.

وقدم الخبر من حلب بنزول تمر على بهسنا فأخذ الناس في الرحيل من دمشق، فمنعهم النائب من ذلك، ورحل النائب من برزه في ثاني عشرينه يريد حلب، فلقيه نائب طرابلس في طريقه.

وكان من خبر أخذ تمرلنك مدينة حلب، أنه لما نزل على عين تاب، بعث إلى دمرداش نائب حلب يعده باستمراره في نيابة حلب، ويأمره بمسك الأمير سودن نائب الشام. فلما قدم عليه الرسول بذلك أحضره إلى نواب ممالك الشام، وقد حضروا إلى حلب وهم: سودن نائب دمشق، وشيخ المحمودي نائب طرابلس ودقماق نائب حماة، وألطنبغا العثماني نائب صفد، وعمر بن الطحان نائب غزة بعساكرها، فاجتمع منهم بحلب نحو ثلاثة آلاف فارس منهم عسكر دمشق ثمانمائة فارس، إلا أن الأهواء مختلفة، والآراء مفلولة، والعزائم محلولة والأمر مدبر. فبلغ رسول تمرلنك الرسالة دمرداش، فأنكر مسك سودن نائب دمشق. فقال له الرسول إن الأمير - يعني تمرلنك - لم يأت إلا بمكاتبتك إليه، وأنت تستدعيه أن ينزل على حلب، وأعلمته أن البلاد ليس بها أحد يدفع عنها. فحنق منه دمرداش، وقام إليه وضربه، ثم أمر به فضربت رقبته. ويقال أن كلام هذا الرسول كان من تنميق تمرلنك ومكره، ليغرق بذلك بين العساكر. ونزل تمر على جبلان خارج حلب، يوم الخميس تاسع ربيع الأول. وزحف يوم الجمعة، وأحاط بسور حلب، وكانت بين الحلبيين وبينه في هذين اليومين حروب.

فلما أشرقت الشمس يوم السبت حادي عشره، خرجت نواب الشام بالعساكر وعامة أهل حلب إلى ظاهر المدينة وعبوا للقتال. ووقف سودن نائب دمشق في الميمنة، ودمرداش في الميسرة، وبقية النواب في القلب، وقدموا أمامهم عامة أهل حلب. فزحف تمرلنك بجيوش قد سدت الفضاء، فثبت الأمير شيخ نائب طرابلس، وقاتل - هو وسودن نائب دمشق - قتالاً عظيمًا، وبرز الأمير عز الدين أزدمر أخو أينال اليوسفي، وولده يشبك ابن أزدمر في عدة من الفرسان، وأبلوا بلاء عظيمًا. وظهر عن أزدمر وولده من الإقدام ما تعجب منه كل أحد، وقاتلا قتالاً عظيمًا، فقتل

أزدمر وفقد خبره، وثخنت جراحات يشبك، وصار في رأسه فقط زيادة على ثلاثين ضربة بالسيف، سوى ما في بدنه، فسقط بين القتلى، ثم أخذ وحمل إلى تمرلنك.

ولم يمض غير ساعة حتى ولت العساكر تريد المدينة، وركب أصحاب تمر أقفيتهم، فهلك تحت حوافر الخيل من الناس عدد لا يدخل تحت حصر، فإن أهل حلب خرجوا حتى النساء والصبيان، وازدحم الناس مع ذلك في دخولهم من أبواب المدينة، وداس بعضهم بعضًا، حتى صارت الرمم طول قامة، والناس تمشي من فوقها.

وتعلق نواب المماليك بقلعة حلب، ودخل معهم كثير من الناس، وكانوا قبل ذلك قد نقلوا إلى القلعة سائر أموال الناس بحلب. واقتحمت عساكر تمرلنك المدينة وأشعلوا بها النيران، وجالوا بها ينهبون ويأسرون ويقتلون. واجتمع بالجامع وبقية المساجد نساء البلد، فمال أصحاب تمر عليهن، وربطوهن بالحبال، ووضعوا السيف في الأطفال فقتلوهم بأجمعهم، وأتت النار على عامة المدينة فأحرقتها. وصارت الأبكار تفتض من غير تستر ولا احتشام، بل يأخذ الواحد الواحدة ويعلوها في المسجد والجامع، بحضرة الجم الغفير من أصحابه، ومن أهل حلب، فيراها أبوها وأخوها ولا يقدر أن يدفع عنها، لشغله بنفسه.

وفحش القتل، وامتلأ الجامع والطرقات برمم القتلى، واستمر هذا الخطب من صحوة نهار السبت إلى أثناء يوم الثلاثاء، والقلعة قد نقب عليها من عدة أماكن، وردم خندقها، ولم يبق إلا أن تؤخذ. فطلب النواب الأمان، ونزل دمرداش إلى تمرلنك، فخلع عليه ودفع إليه أمانًا، وخلعًا للنواب، وبعث معه عدة وافرة إلى النواب، فأخرجوهم. ممن معهم، وجعلوا كل اثنين في قيد وأحضروا إليه، فقرعهم ووبخهم، ودفع كل واحد منهم إلى من يحتفظ به. وسيقت إليه نساء حلب سبايا. وأحضرت إليه الأموال، ففرقها على أمرائه. واستمر بحلب شهرًا. والنهب في القرى لا يبطل، مع قطع الأشجار، وهدم البيوت وجافت حلب وظواهرها من القتلى، بحيث صارت الأرض منهم فراشًا، لا يجد أحد مكانًا يمشي عليه إلا وتحت رجليه رمة قتيل. وعمل من الروس منابر عدة، مرتفعة في السماء نحو عشرة أذرع، في دور عشرين ذراعًا، حرز ما فيها من رؤوس بني آدم، فكان زيادة على عشرين ألف رأس. وجعلت الوجوه بارزة يراها من يمر بها.

ثم رحل تمر عنها، وهي خاوية على عروشها، خالية من ساكنها وأنيسها، قد تعطلت من الأذان، وإقامة الصلوات. وأصبحت مظلمة بالحريق، موحشة، قفراء مغبرة، لا يأويها إلا الرخم. وأما دمشق، فأنه لما قدم عليهم الخبر بأخذ حلب، نودي

في الناس بالتحول إلى المدينة والاستعداد للعدو، فاختبط الناس، وعظم ضجيجهم وبكاؤهم، وأخذوا ينتقلون في يوم الأربعاء نصفه من حوالي المدينة إلى داخلها. واجتمع الأعيان للنظر في حفظ المدينة.

فقدم في سابع عشره المنهزمون من حماه، فعظم الخوف، وهم الناس بالجلاء، فمنعوا منه، ونودي من سافر نهب. فورد في ثامن عشره الخبر بنزول طائفة من العدو على حماه، فحصنت مدينة دمشق، ووقف الناس على الأسوار، وقد استعدوا، ونصبت المناجنيق على القلعة، وشحنت بالزاد.

فقدم الخبر في ثاني عشرينه بأخذ قلعة حلب، وبوصول رسل تمر بتسليم دمشق، فهم نائب الغيبة بالفرار، فرده العامة ردًا قبيحًا، وماج الناس وأجمعوا على الجلاء. واستغاث الصبيان والنساء فكان وقتًا شنعًا، ونودي من الغد لا يشهر أحد سلاحًا، وتسلم البلاد لتمر، فنادى نائب القلعة بالاستعداد للحرب، فاختلف الناس. فقدم الخبر بمجيء السلطان، ففتر عزم الناس عن السفر، ثم تبين أن السلطان لم يخرج من القاهرة.

وفي خامس عشرينه: ورد الخبر بهزيمة نواب الشام، وأخذ تمرلنك حلب ومحاصرته القلعة، فقبض على المخبر، وحبس. ووقع الشروع في النفقة للسفر، فأخذ كل مملوك ثلاثة آلاف وأربعمائة درهم. وخرج الأمير سودن من زاده، والأمير أينال حطب على الهجن في ليلة الأربعاء تاسع عشرينه، لكشف هذا الخبر.

وفي هذا الشهر: أيضًا أخذت مدينة حماه وكان من خبرها أن مرزه شاه ابن تمرلنك، نزل عليها بكرة يوم الثلاثاء رابع عشره، وأحاط بسورها، ونهب المدينة، وسبي النساء والأطفال، وأسر الرجال، ووقع أصحابه على النساء يطؤوهن ويفتضوا الأبكار جهارًا، من غير استتار، وخربوا جميع ما خرج عن السور. وقد ركب أهل البلد السور، وامتنعوا بالمدينة، وباتوا على ذلك. فلما أصبحوا يوم الأربعاء فتحوا بابًا واحدًا من أبواب المدينة، ودخل ابن تمر في قليل من أصحابه ونادي بالأمان. فقدم الناس إليه أنواع المطاعم فقبلها، وعزم أن يقيم رجلاً من أصحابه على حماه، فقيل له أن الأعيان قد خرجوا منها، فخرج إلى مخيمه، وبات به. ودخل يوم الخميس ووعد الناس بخير، وخرج. ومع ذلك، فإن القلعة ممتنعة عليه.

فلما كان ليلة الجمعة نزل أهل القلعة إلى المدينة وقتلوا من أصحاب مرزه شاه رجلين كانا أقرهما بالمدينة، فغضب من ذلك وأشعل النار في أرجاء البلد، واقتحمها أصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون، حتى صارت كمدينة حلب، سوداء، مغبرة، خالية

من الأنيس.

وفيه تكاثر جمع الناس بدمشق، بمن فر إليها من مملكة حلب وحماه وغيرها، واضطربت أحوال الناس بها، وعزموا على مفارقتها، وخرجوا منها شيئًا بعد شيء، يريدون القاهرة.

وفيه ركب شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وقضاة القضاة، والأمير أقباي حاجب الحجاب، والأمير مبارك شاه الحاجب. ونودي بين أيديهم بالقاهرة من ورقة تتضمن أمر الناس بالجهاد في سبيل الله لعدوكم الأكبر تمرلنك، فإنه أخذ البلاد، ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدور والمساجد والجوامع، وجعلها إسطبلات للدواب، وهو قاصدكم، يخرب بلادكم، ويقتل رجالكم وأطفالكم، ويسبي حريمكم. فاشتد جزع الناس وكثر صراخهم، وعظم عويلهم، وكان يومًا شديدًا.

شهر ربيع الآخر، أوله الجمعة: في ثالثه: قدم الأمير أسنبغا السيفي الحاجب، وأخبر بأخذ تمرلنك مدينة حلب وقلعتها، باتفاق دمرداش معه، وأنه بعد أن قبض عليه أفرج عنه. وحكى ما نزل من البلاء بأهل حلب، وأنه قال لنائب الغيبة بدمشق أن يخلي بين الناس وبين الخروج منها، فإن الأمر صعب وأن النائب لم يمكن أحدًا من المسير. فخرج السلطان في يومه، ونزل بالريدانية ظاهر القاهرة، وتبعه الأمراء والخليفة والقضاة إلا قاضي القضاة جمال الدين يوسف الملطي الحنفي، فإنه أقام لمرضه. وألزم الأمير يشبك قاضي القضاة ولي الدين عبد الرحمن بالسفر إلى دمشق، فخرج مع العسكر وتعين الأمير تمراز أمير مجلس لنيابة الغيبة. وأقام من الأمراء الأمير جكم من عوض في عدة من الأمراء. وأمر تمراز بعرض أجناد الحلقة، وتحصيل ألف فرس وألف جمل، وإرسال ذلك مع من يقع عليه الاختيار من أجناد الحلقة.

وفيه استقر الأمير أرسطاي من خجا علي في نيابة الإسكندرية، عوضًا عن أمير فرج بعد موته. وكان أرسطاي منذ أفرج عنه مع الأمير نوروز قد أقام بثغر الإسكندرية بطالاً. فوردت إليه الولاية بالتقليد والتشريف.

وفي خامسه: نودي على أجناد الحلقة بالحضور للعرض في بيت الأمير تمراز، وهدد من تأخر عن الحضور. وخرج البريد إلى أعمال ديار مصر بالوجهين القبلي والبحري بجمع أقوياء أجناد الحلقة من الريف، وبتجهيز العربان للخروج إلى حلب تمرلنك.

وفي بكرة يوم الجمعة ثامنه: سار الجاليش، وفيه من الأمراء والأكابر نوروز رأس نوبة، وبكتمر الركني أمير سلاح، ويلبغا الناصري، وأقباي حاجب الحجاب، وأينال باي بن قجماس، وبيبرس الأتابك ابن أخت السلطان الظاهر.

وفي عاشره: رحل السلطان ببقية العساكر.

وفي ثاني عشره: قدم الخبر إلى دمشق بوصول جماعة تمرلنك قريبًا من حمص، فأنزعج الناس، وأخذوا في الاستعداد وحمل الناس أموالهم إلى القلعة، وجفل جماعة من الناس بقدوم الأمير دمرداش نائب حلب إلى دمشق، في يوم السبت رابع عشرينه، فارًا من تمرلنك. وخرج لملاقاة السلطان فقدم من الغد الناس - وقد جفلوا - من بعلبك وأعمالها، بنسائهم ومواشيهم، لنزول تمر عليهم، فخرج كثير من أهل دمشق في ليلة الأربعاء ثامن عشرينه.

وفي رابع عشره: استقر البدر محمود العينتابي في حسبة القاهرة بسفارة الأمير جكم، وعزل البخانسي.

وفي خامس عشره: استقر الأمير أسنبغا الحاجب في كشف الجسور بالأشمونين. وخليل الشرفي جسور المنوفية، وقجماس والي العرب في كشف جسور الغربية.

وفي عشرينه: دخل السلطان مدينة غزة واستقر بالأمير تغري بردى من أسنبغا في نيابة دمشق، وبأقبغا الجمالي في نيابة طرابلس، وبتمربغا المنجكي في نيابة صفد، وبطولو من علي شاه في نيابة غزة، وبصدقة بن الطويل في نيابة القدس، وبعثهم إلى ممالكهم. وسار الجاليش من غزة في رابع عشرينه.

وسار السلطان في سادس عشرينه، وقد انضم إليه كثيرة ممن فر من البلاد الشامية.

وفي آخره: استقر الأمير تمراز نائب الغيبة بمنكلي بغا - مملوك مبارك شاه - في ولاية البهنسا، عوضًا عن يلبغا الزيني. فلما حضر إلى الأمير يلبغا السالمي نزع عنه الخلعة، وضربه بالمقارع ومقترح، ووكل به. فلما أصبح خلع عليه، وأذن له في السفر إلى ولايته، وذلك بعد ما دخل عليه في أمره، فراعى الأمير تمراز، وتلافى ما وقع منه، فلم يرض هذا تمراز، وحقد عليه حقدًا زائدًا.

شهر جمادى الأول، أوله السبت: في ثانيه: قدم البريد من السلطان، بأنه قد ورد خمسة من أمراء طرابلس بكتاب أسندمر نائب الغيبة، يتضمن أن أحمد بن رمضان التركماني، وابن صاحب الباز، وأولاد شهري، ساروا وأخذوا حلب، وقتلوا من بها

من أصحاب تمرلنك، وهم زيادة على ثلاثة آلاف فارس. وأن تمرلنك بالقرب من سليمة، وأنه بعث عسكرًا إلى طرابلس، فثار بهم أهل القرى وقتلوهم عن أخرهم بالحجارة، لدخولهم بين جبلين، وأنه قد حضر إلى الطاعة خمسة من أمراء المغل، وأخبروا بأن نصف عسكر تمرلنك على نية المصير إلى الطاعة السلطانية. وأن صاحب قبرس، ووزيره إبراهيم كرى، وصاحب الماغوصة، وردت كتبهم بانتظار الإذن في تجهيز المراكب في البحر لقتال تمرلنك.

وفيه استقر تمراز بناصر الدين محمد بن خليل الضاني في ولاية مصر. وعزل عمر بن الكوراني. وفيه قبض الأمير يلبغا السالمي على متا بترك النصارى ليعاقبه، وألزمه بمال ليأخذ عنه بضائع، فحلف أنه ليس عنده مال، وأن سائر ما يرد إليه من المال يصرفه في فقراء المسلمين وفقراء النصارى، فوكل به.

وفي ثالثه: قدم الأمير تغري بردي - نائب الشام - دمشق.

وفيه جفل أهل قرى دمشق إليها لوصول طائفة من أصحاب تمرلنك نحو الصنمين.

وفي سادسه: قدم السلطان دمشق بعساكره، وقد وصلت أصحاب تمرلنك إلى البقاع.

وفي عاشره: اقتتل بعض العسكر مع التمرية.

وفي يوم السبت خامس عشره: نودي في القاهرة ومصر أن الأمير يلبغا السالمي أمر أن نساء النصارى يلبسن أزرارًا زرقًا. ونساء اليهود يلبسن أزرارًا صفرًا.

وأن النصارى واليهود لا يدخلون الحمامات إلا وفي أعناقهم أجراس وكتب على بترك النصارى بذلك إشهادًا، بعد أن جرت بينه وبينه عدة محاورات، حتى أشهد عليه بالتزام ذلك، إلزامه سائر النصارى بديار مصر، وألزم سائر مدولبي الحمامات ألا يكونوا يهوديًا ولا نصرانيًا من الدخول بغير جرس في عنقه، فقام الأمير تمراز في معارضته.

وفي يوم السبت: هذا نزل تمرلنك إلى قطا فملأت جيوشه الأرض، وركب طائفة منهم إلى العسكر وقاتلوهم، فخرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء ثامن عشره إلى يلبغا، فكانت وقعة انكسرت ميسرة العسكر، وانهزم أولاد الغزاوي وغيرهم إلى ناحية حوران، وجرح جماعة، وحمل تمر حملة منكرة، ليأخذ بها دمشق، فدفعته عساكر السلطان.

وفي عشرينه: نادي الأمير تمراز بالقاهرة من كانت له ظلامة فعلية ببيت الأمير وأن اليهود والنصارى على حالهم، كما كانوا في أيام الملك الظاهر. فبطل ما أمر به السالمي.

وفيه أمر السالمي أن يضرب دنانير الذهب محررة الوزن، على أن كل دينار مثقال، سواء عزم على إبطال المعاملة بالدنانير الأفرنتية المشخصة، فضرب الدينار السالمي، وتعامل الناس به عددًا، ونقش عليه السكة الإسلامية.

وفي ثاني عشرينه: قدم البريد من السلطان أنه دخل دمشق يوم الخميس سادسه، وأقام بقلعتها إلى يوم السبت ثامنه، ثم خرج إلى مخيمه ظاهر المدينة عند قبة يلبغا. فحضر جاليش تمرلنك وقت الظهر من جهة جبل الثلج، وهو نحو ألف فارس، فسار إليهم مائة فارس من عساكر السلطان، وكسروهم وقتلوا منهم جماعة، وأنه حضر في تلك الليلة عدة من التمرية للطاعة، وأخبروا بنزول تمر على البقاع العزيزي فلتكونوا على حذر، فإن تمر كثير الحيل والمكر فدقت البشائر بقلعة الجبل ثلاثة أيام.

وفيه قدم من أخبر باختلاف الأمراء على السلطان، وعوده إلى مصر، فكثر خوض الناس في الحديث، وكان من خبر السلطان أن تمرلنك بعث إليه وإلى الأمراء في طلب الصلح، وإرسال أطلمش من أصحابه، وأنه يبعث من عنده من الأمراء والمماليك، فلم يجب إلى ذلك. وكانت الحرب بين أصحاب تمر وطائفة من عساكر السلطان في يوم السبت ثامن جمادى الأولى كما تقدم. ثم كانت الحرب ثانيًا في يوم الثلاثاء حادي عاشره. وفي كل ذلك يبعث تمرلنك في طلب الصلح فلا يجاب.

وأما دمشق فإن الناس بها أصبحوا يوم الجمعة بعد هزيمة السلطان، ورأيهم محاربة تمرلنك، فركبوا أسوار المدينة ونادوا بالجهاد، وزحف عليهم أصحاب تمر، فقاتلوهم من فوق السور، وردوهم عنه، وأخذوا منهم عدة من خيولهم. وقتلوا منهم نحو الألف، وأدخلوا رءوسهم إلى المدينة، فقدم رجلان من قبل تمر، وصاحا بمن على السور: أن الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى نحدثه في ذلك. فوقع اختيار الناس على إرسال قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، فأرخى من السور، واجتمع بتمرلنك وعاد إلى دمشق، وقد خدعه تمرلنك، وتلطف معه في القول، وقال: هذه بلدة الأنبياء، وقد أعتقتها لرسول الله صدقة عن أولادي. فقام ابن مفلح في الثناء على تمر قيامًا عظيمًا، وشرع يخذل الناس عن القتال، ويكفهم عنه، فمال معه طائفة من الناس، وخالفته طائفة، وقالت: لا نرجع عن القتال. وباتوا ليلة السبت على ذلك، وأصبحوا وقد غلب رأي ابن مفلح، فعزم على

إتمام الصلح، وأن من خالف ذلك قتل.

وفي الوقت، قدم رسول تمر إلى سور المدينة في طلب الطقزات، وهي عادة تمر إذا أخذ مدينة صلحًا أن يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المآكل والمشارب والدواب والملابس تسعة، يسمون ذلك طقزات، فإن التسعة بلغتهم يقال لها طقز. فبادر ابن مفلح واستدعي من القضاة والفقهاء والتجار حمل ذلك، فشرعوا فيه حتى كمل وساروا به إلى باب النصر ليخرجوه إلى تمرلنك، فمنعهم نائب القلعة من ذلك، وهددهم بحريق المدينة عليهم. فلم يلتفتوا إلى قوله، وتركوا باب النصر، ومضوا إلى جهة أخرى من جهات البلد. وأرخوا الطقزات من السور، وتدلي ابن مفلح ومعه كثير من الأعيان وغيرهم، وساروا إلى مخيم تمرلنك، وباتوا به ليلة الأحد. ثم عادوا بكرة الأحد وقد استقر تمر منهم بجماعة في عدة وظائف، ما بين قضاة قضاة، ووزير، ومستخرج الأموال، ونحو ذلك، ومعهم فرمان، وهو ورقة فيها تسعة أسطر، تتضمن أمان أهل دمشق على أنفسهم، وأهليهم خاصة. فقري على منبر جامع بني أمية، وفتح من أبواب المدينة باب الصغير فقط، وقدم أمير من أمراء تمرلنك، فجلس به ليحفظ البلد ممن يعبر إليها وأكثر ابن مفلح ومن كان معه من ذكر محاسن تمرلنك وبث فضائله، ودعا العامة إلى طاعته، وموالاته، وحثهم بأسرهم على جمع المال الذي تقرر جمعه وهو ألف ألف دينار، ففرض ذلك على الناس كلهم، وقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم. فلما كمل المال، حمله ابن مفلح وأصحابه إلى تمر، ووضعوه بين يديه. فلما عاينه غضب غضبًا شديدًا، ولم يرض به، وأمر بابن مفلح ومن معه أن يخرجوا عنه، فاخرجوا، ووكل بهم. ثم ألزموا بحمل ألف تومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب، إلا أن سعر الدينار عندهم يختلف، فتكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار، فالتزموا بها، وعادوا إلى البلد، وفرضوه على الناس، فجبوا أجرة مساكن دمشق كلها عن ثلاثة أشهر، وألزموا كل إنسان من ذكر وأنثى، وحر وعبد، وصغير وكبير بعشرة دراهم. وألزم مباشر كل وقف من سائر الأوقاف بمال، فأخذ من أوقاف جامع بني أمية ألف درهم، ومن بقية أوقاف الجوامع والمساجد والمدارس والمشاهد والربط والزوايا شيء معلوم، بحسب ما اتفق، فنزل بالناس في استخراج هذا بلاء عظيم. وعوقب كثير منهم بالضرب، وشغل كل أحد بما هو فيه، فغلت الأسعار، وعز وجود الأقوات، وبلغ المسد من القمح - وهو أربعة أقداح - إلى أربعين درهمًا فضة. وتعطلت الجمعة والجماعة من دمشق كلها، فلم تقم بها جمعة إلا مرتين، الأولى في يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة، ودعا الخطب فيها بجامع

بني أمية للسلطان محمود، ولولي عهده ابن الأمير تيمور كركان، ثم شغل الناس بعدها عن الدين والدنيا بما هم فيه. وذلك أنه نزل شاه الملك - أحد أمراء تمر - بجامع بني أمية، ومعه أتباعه، وادعى أنه نائب دمشق، وجمع كل ما كان في الجامع من البسط والحصر، وستر بها شرفات الجامع، وصلى الناس الجمعة في شمالي الجامع، وهم قليل. وشاهدوا أصحاب شاه ملك يلعبون في الجامع بالكعاب، ويضربون بالطنابير. ثم بعد الجمعتين منعوا من إقامة في الجمعة بالجامع، فصلى طائفة الجمعة بعد ذلك بالخانقاه السميساطية، فتعطلت سائر الجوامع والمساجد من إعلان الأذان، وإقامة الصلاة. وبطلت الأسواق كلها، فلم يبع شيء إلا ما كان مما يورد ثمنه في الجباية المقررة.

وزاد بالناس البلاء أن أصحاب تمر لا يأخذون إلا الدراهم والدنانير لا غير، وردوا الفلوس، فانحطت وصار ما كان بخمسة دراهم لا يحسب الناس فيه فيما بينهم غير درهم واحد.

هذا ونائب القلعة ممتنع بها، وقد حاصره تمر، فخرب ما بين القلعة والجامع بالحريق وغيره. ثم إن النائب سلم بعد تسعة وعشرين يومًا. فلما تكامل حصول المال الذي هو بحسابهم ألف تومان، حمل إلى تمر، فقال لابن مفلح وأصحابه: هذا المال بحسابنا، إنما هو ثلاثة آلاف دينار. وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار، وظهر أنكم قد عجزتم. وكان تمر لما خرجت إليه الطقزات، وفرض للجباية الأولى التي هي ألف ألف دينار، قرر مع ابن مفلح وأصحابه أن ذلك على أهل البلد، وأن الذي تركه العسكر المصري من المال والسلاح والدواب وغير ذلك لا يعتد به لهم، وإنما هو لتمر. فخرج الناس إليه بأموال أهل مصر. وبدا منهم في حق بعضهم بعضًا من المرافعات أنواع قبيحة، حتى صارت كلها إليه. فلما علم أنه قد استولى على أموال المصريين ألزمهم بإخراج أموال الذين فروا من التجار وغيرهم إلى دمشق خوفًا منه. وكان قد خرج من دمشق عالم عظيم، فتسارعوا إلى حمل ذلك إليه، وجروا على عادتهم في النميمة بمن عنده من ذلك شيء، حتى أتوا على الجميع. فلما صار إليه ذلك كله ألزمهم أن يخرجوا إليه سائر ما في المدينة من الخيل والبغال والحمير والجمال، فاخرج إليه جميع ما كان في المدينة من الدواب، حتى لم يبق بها شيء من ذلك. ثم ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع آلات السلاح، جليلها وحقيرها، فتتبعوا ذلك، ودل بعضهم على بعض، حتى لم يبق بها من آلات القتال وأنواع السلاح شيء. ثم بعد حمل الفريضتين ورميه ابن مفلح ومن معه بالعجز عن الاستخراج، قبض على

أصحاب ابن مفلح، وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها، فكتبوا ذلك ودفعوه إليه، ففرقه على أمرائه. وقسم البلد بينهم، فساروا إليها، ونزل كل أمير في قسمه، وطلب من فيه، وطالبهم بالأموال، فكان الرجل يوقف على باب داره في أزرى هيئة، ويلزم بما لا يقدر عليه من المال، فإذا توقف في إحضاره عذب بأنواع العذاب من الضرب وعصر الأعضاء، والمشي على النار، وتعليقه منكوسًا، وربطه بيديه ورجليه، وغم أنفه بخرقة فيها تراب ناعم، حتى تكاد نفسه تخرج، فيخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة. ومع هذا كله تؤخذ نساوه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذب امرأته وهي توطأ، وابنته وهي تفض بكارتها، وولده وهو يلاط به، فيصير هو يصرخ مما به من ألم العذاب، وابنته وولده يصرخون من ألم إزالة البكارة، وإتيان الصبي، وكل هذا نهارًا وليلاً، من غير احتشام ولا تستر. ثم إذا قضوا وطرهم من المرأة، والبنت والصبي، طالبوهم بالمال، وأفاضوا عليهم أنواع العقوبات، وأفخاذهم مضرجة بالدماء. وفيهم من يعذب بأن يشد رأس من يعاقبه بحبل ويلويه حتى يغوص في الرأس، وفيهم من يضع الحبل على كتفي المعذب ويديره من تحت إبطه، ويلويه بعصا حتى ينخلع الكتفين. وفيهم من يربط إبهام اليدين من وراء الظهر ويلقي المعذب على ظهره، ويذر في منخريه رمادًا سحيقًا، ثم يعلقه بإبهام يديه في سقف الدار، ويشعل النار تحته. وربما سقط في النار فسحبوه منها، وألقوه حتى يفيق، فيعذب أو يموت، فيترك.

واستمر هذا البلاء مدة تسعة عشر يومًا، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين رجب، فهلك فيها بالعقوبة ومن الجوع خلق لا يدخل عددهم تحت حصر.

فلما علموا أنه لم يبق في المدينة شيء له قدر، خرجوا إلى تمرلنك، فأنعم بالبلد على أتباع الأمراء، فدخلوها يوم الأربعاء آخر رحب، ومعهم سيوف مشهورة، وهم مشاة، فنهبوا ما بقي من الأثاث وسبوا نساء دمشق بأجمعهن، وساقوا الأولاد والرجال، وتركوا من عمره خمس سنين فما دونها، وساقوا الجميع مربطين في الحبال. ثم طرحوا النار في المنازل، وكان يومًا عاصف الريح، فعم الحريق البلد كلها، وصار لهب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وعملت النار ثلاثة أيام، آخرها يوم الجمعة.

وأصبح تمر يوم السبت ثالث رجب راحلاً بالأموال والسبايا والأسري، بعدما أقام على دمشق ثمانين يومًا، وقد احترقت كلها، وسقطت سقوف جامع بني أمية من

الحريق، وزالت أبوابه، وتفطر رخامه، ولم يبق غير جدره قائمة. وذهبت مساجد دمشق، ومدارسها، ومشاهدها، وسائر دورها، وقياسرها، وأسواقها، وحماماتها، وصارت أطلالاً بالية، ورسومًا خالية، قد أقفرت من الساكن، وامتلأت أرضها بجثث القتلى، ولم يبق بها دابة تدب، إلا أطفال يتجاوز عددهم آلاف، فيهم من مات، وفيهم من يجود بنفسه.

وأما بقية أمراء مصر وغيرهم، فإنهم لما علموا بتوجه السلطان من دمشق خرجوا منها طوائف طوائف، يريدون اللحاق بالسلطان، فأخذهم العشير، وسلبوهم ما معهم، وقتلوا خلقًا كثيرًا. وظفر أصحاب تمرلنك بقاضي القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوي الشافعي، فسلبوه ما عليه من الثياب، وأحضروه إلى تمرلنك، فمرت به محن شديدة، آلت إلى أن غرق بنهر الزاب، وهو في الأسر.

وفي خامسه: برز الأمراء الذين كانوا بالقاهرة في غيبة السلطان بدمشق، للمسير لحرب تمرلنك، وهم: الأمير تمراز أمير مجلس، والأمير أقباي حاجب الحجاب، والأمير جرباش الشيخي، والأمير تمان تمر، والأمير صوماي الحسني. وامتنع الأمير جكم من السمر، فبطل سمر الأمراء أيضًا.

وفي سابعه: قدم الأمير سيف الدين شيخ المحمودي نائب طرابلس هاربًا من تمرلنك، فتلقاه الأمراء، وقدموا إليه الخيول، بالسروج الذهب، والكنابيش الذهب، والقماش، والجمال، وغير ذلك، وفي ثامن عشره: أفرج عن ابن قطينة، ولزم داره.

وفي تاسع عشره: قدم الأمير دقماق المحمدي نائب حماه فارًا من تمرلنك، فأنعم عليه أيضًا. مما يليق به. وفيه برز الأمير تغري بردى من بشبغا نائب الشام للمسير إلى دمشق. وخرج بعده نواب البلاد الشامية وأمراؤها وأجنادها، وسائر أعيانها. وخلع على الأمير القاضي سعد الدين إبراهيم بن غراب جبة حرير بوجهين مطرزة، باستقراره فيما بيده عند استعفائه من الأستادارية. وعلى جمال الدين يوسف بن القطب بقضاء الحنفية بدمشق، عوضًا عن محيي الدين محمود بن الكشك.

وفي ثامن عشرينه: استقر تمربغا المنجكل في نيابة صفد، وخرج إليها واستقر تنكز بغا الحططي في نيابة بعلبك وناصر الدين محمد بن الطويل في كشف الوجه البحري، وعزل طيبغا الزيني.

وفي رابع عشرينه: قبض على مملوكين، فأقرا أنهما اتفقا مع جماعة من المماليك - سموهم - على إثارة فتنة وقتل الأمراء، فعفي عنهما، ولم يتحرك في ذلك

ساكن. وفيه نودي ألا يقيم بديار مصر عجمي، وأجلو ثلاثة أيام، وهدد من تأخر بعدها، فلم يتم من ذلك شيء. ولهج الناس بالكتابة على الحيطان من نصرة الإسلام قتل الأعجام.

* * *

سنة أربع وثمانمائة

وفي هذه السنة: كانت كائنة طرابلس وذلك أنه قدم إليها في يوم الاثنين عاشره مركب فيه عدة من الفرنج، فخرج الناس لحربهم، وكان بالميناء مراكب لتجار الفرنج، فاجتمعوا على مراكب المسلمين التي قد شحنت بالبضائع لتسير إلى أرض، وأخذوا منها مركبين، فيهما مال كبير، وأسروا خمسة وثمانين مسلمًا بعدما قاتلوا قتالاً شديدًا وغرق جماعة وفر جماعة، وأصبحوا من الغد على الحرب، فوقع الاتفاق على فكاك من أسروه بمال يحمل إليهم فلما حمل إليهم بعض المال أسروا الرجل، ومضوا في ليلة الخميس خامس عشره، ونزلوا على قرية هناك فقاتلهم أميرها، وقبضهم وجاء بهم إلى طرابلس، فسجنوا، وأخذ المسلمون مركبهم.

شهر وبيع الأول، أوله الاثنين: في خامسه: لبس آقبغا خلعة بنيابة الشام، وقد وصلت إليه من القاهرة إلى دمشق، وقوي تقليده.

* * *

سنة خمس وثمانمائة

وفيه كانت وقعة الطاغية تيمور كركان ملك الشرق مع خوند كار أبي يزيد بن مراد عثمان ملك الروم. وملخص ذلك أنه سار من العراق إلى جهة بلاد الروم، فجمع ابن عثمان عساكره وعوضهم على مدينة آقشهر - يعني المدينة البيضاء - فبلغ عدد الفرسان نحو السبعمائة ألف فارس، وثلاثمائة ألف راجل. ومات يوم العرض تحت الأقدام من الدوس في الازدحام خمسة وعشرون رجلاً. وسار يريد لقاءه نحو الخمسة عشر يومًا. فبعث إليه تمرلنك يخدعه ويقول: أنت رجل مجاهد غازي في سبيل الله، وليس غرضي قتالك، ولكني أريد منك أن تقتنع بالبلاد التي كانت مع أبيك وجدك، وآخذ أنا بلاد الأمير أرطنا أمير الروم أيام السلطان أبي سعيد. فانخدع لذلك ومال إلى الصلح، فلم يشعر إلا بالخبر قد ورد عليه أن تمرلنك نزل على كماخ وقتل

أهلها وسباهم وخربها، فعلم أنه ما أراد إلا مخادعته، وسار إليه حتى قرب منه، فكاده تمرلنك ورجع، فظن أبو يزيد أنه قد خافه. وإذا به سلك طريقًا من وراء أبي يزيد، وساق في بلاد الروم مسيرة ثمانية أيام، ونزل على عمورية - ويقال لها اليوم أنكورية - وحاصرها، وألقي فيها النيران، فبلغ ذلك ابن عثمان فساق في عساكره إليه مدة ثمانية أيام، إلى أن أشرف عليه، وقد جهده التعب، وتقطعت عساكره، وتلفت خيولهم. فعندما وصل ركب تمرلنك إلى حربه في أول يوم من المحرم هذا، وقد علم أنه وعساكره في غاية التعب، فلم يجد بدًا من محاربته، فاقتتل كل منهما مع الآخر في يوم الأحد خامسه من أول النهار إلى العصر، وتمرلنك مشرف على مكان مرتفع يرتب عساكره. وثبت كل من الفريقين حتى قتل بينهما على ما قيل نحو الثمانين ألفًا، وتعين الغلب للروم على عساكر تمرلنك، حتى هموا بالهزيمة. فلما كان في آخر النهار خرج كمن لتمرلنك، فيه نحو المائة ألف، وصدم الأمير سلمان بن أبي يزيد بن عثمان، فانكسر ولحق بأبيه في ثلث العسكر، فانكشفت الميمنة، وانقلبت على القلب، ففر الأمير سلمان في نحو مائة ألف يريد مدينة برصا تخت الملك. وأحاطت عساكر تمرلنك عند ذلك بابن عثمان ومن ثبت معه، وأخذوه أسرًا، وجاءوا به إلى تمرلنك، وقد تفرقت جمائعه، وتمزقوا كل ممزق، فلو لم يحل بينهم الليل، لما أبقي التمرية منهم أحدًا، ولما جيء بابن عثمان إلى تمرلنك أوقفه وأبنه، ثم وكل به. وبعث من الغد في تتبع المنهزمين، فأحضر إليه من الجرحى نحو الثلاثة آلاف. وتفرقت التمرية في بلاد الروم، تعبث وتفسد وتنهب، وتنوع العذاب على الناس، وأحرقوا مدينة برصا. ومكثوا ستة أشهر يقتلون ويأسرون وينهبون ويفسدون. وعدى الأمير سلمان بن أبي يزيد بن عثمان إلى بر القسطنطينية.

* * *

سنة ست وثمانمائة

وفي يوم الاثنين ثالثه: قدم رسل الطاغية تيمورلنك، وكبيرهم مسعود الكحجاني، فتلقاهم الحجاب ونحوهم من الأمراء، وشقوا القاهرة ومعهم هدية، فيها فيل عليه رجل قائم بيده علمان أخضران. قد نشرهما وقبض عليهما بيديه، وفيها فهد وصقران وثياب، فأنزلوا في دار، وأحضروا بين يدي السلطان بقلعة الجبل في يوم الخميس سادسه، ثم أمر بهم إلى دار، وأجرى عليهم في كل يوم ثلاثمائة رطل من لحم الضأن، وعدة من الأوز، والدجاج، وغير ذلك، وألف درهم، ومنعوا من الاجتماع بالناس مدة أيام، ثم أذن لهم في الركوب والحركة.

وفيه نودي بإشارة الأمير يلبغا السالمي أن يتعامل الناس بالفلوس وزنًا لا عددًا، وأن يكون كل رطل منها بستة دراهم حسابًا عن كل قنطار ستمائة درهم، فاستمر ذلك ولم ينتقض.

وفي يوم الثلاثاء رابعه: خلع على الأمير ركن الدين عمر بن قايماز، واستقر في الأستادارية عوضًا عن الأمير يلبغا السالمي. وقبض على السالمي وسلم إليه، فسكن بدار السالمي وسجنه بمكان منها، ثم نقل من عنده، وسلم إلى أمير أخور بالإصطبل السلطاني، في عصر يوم الجمعة سابعه.

وفيه قدم الخبر بنزول الفرنج إلى صيدا وبيروت، وأن الأمير شيخ المحمودي نائب الشام سار إليهم وقاتلهم، وقتل منهم عدة، وهزم باقيهم، وبعث إلى القاهرة سبع رءوس منهم.

وفي سادس عشرينه: قدم الخبر بتكاثر مراكب الفرنج على الإسكندرية، فندب برهان الدين إبراهيم المحلي كبير التجار بمصر للمسير إلى الإسكندرية، وتبعه عدة من الأمراء، فأقاموا أيامًا ثم عادوا، ولم يلقوا كيدًا.

وفي سابع عشرينه: خلع على رسل تيمورلنك خلعة السفر، وخلع على الأمير قاني باي التمربغاوي - أحد أمراء الطبلخاناه - وتوجه لإحضار الأمير دقماق نائب حلب.

* * *

سنة سبع وثمانمائة

وارتفع سعر الذهب، فبلغ المثقال بالإسكندرية إلى مائتي درهم بالفلوس، وبالقاهرة إلى مائة وعشرة. وسبب ذلك فساد الفلوس، وذلك أن سنة الله في خلقه أن النقود التي تكون أثمانًا للمبيعات وقيمًا للأعمال إنما هي الذهب والفضة فقط، وأما الفلوس فإنها لمحقرات المبيعات التي يقل أن تباع بدرهم أو بجزء منه. وكانت الفلوس أولا تعد بمصر: في درهم الكاملي منها ثمانية وأربعون فلسًا، ويقسم الفلس منها بأربع قطع، تقام كل قطعة مقام فلس، فيشترى بها ما يشترى بالفلس، إلى أن كانت سنة تسع وخمسين وسبعمائة ضربت الفلوس الجدد، وجعلت أربعة وعشرين فلسًا بدرهم كاملي، زنة الفلس منها مثقال. فلما استبد الأمير محمود بن علي بن أصفر عينه - المعروف بجمال الدين الأستادار - وتحكم في أمور الدولة، منذ أعوام بضع وتسعين، أكثر من ضرب الفلوس شرقًا في الفائدة. فلم يمت الظاهر برقوق حتى صارت الفلوس هي النقد الرائج الذي ينسب إليه قيم الأعمال كلها وأثمان المبيعات بجملتها. وقلت الدراهم الكاملية بترك السلطان والرعية ضربها، ولسبكهم إياها، واتخاذها حليًا وأواني وردف ذلك كثرة النفقات في العساكر من الذهب المخلف عن الظاهر، فكثر بالأيدي، وصار أيضًا نقدًا رائجًا، إلا أنه ينسب إلى الفلوس، ولا تنسب الفلوس إليه، فيقال: كل دينار بكذا كذا درهم من الفلوس. وصارت الفضة مع هذا كأنها من جملة العروض، تباع بحراج في النداء، كل درهم من الكاملية بكذا وكذا من الفلوس. وكل درهم من الفضة الحجر - وهي الخالصة التي لم تضرب ولم تغش - بكذا وكذا درهم من الفلوس. ثم دخل الفساد في الفلوس، فضرب بالإسكندرية منها شيء أقل من وزن فلوس القاهرة وتمادى أمرها في النقصان حتى صار وزن الفلس أقل من ربع درهم وكانت القفة زنة مائة وعشرين رطلاً - عنها خمسمائة درهم - فصارت زنة مائة وثمانية عشر رطلاً، ثم صارت مائة وسبعة عشر رطلاً ما ثم صارت مائة وخمسة عشر رطلاً، ثم صارت مائة واثني عشر رطلاً، واستمرت كذلك عدة أعوام. فلما كان في هذه المحن والحوادث، كثرت فلوس الإسكندرية حتى بقيت زنة القفة ثمانية وعشرين رطلاً، فشنعت القالة، وكثر تعنت الناس في الفلوس، وزهدوا فيها، وكثرت رغبتهم في الذهب، فبدلوا فيه الكثير من الفلوس حتى بلغ هذا المقدار، فامتعض الأمير يشبك الدوادار لذلك، وتقدم بإبطال ضرب الفلوس بالإسكندرية، فبطلت.

وبلغ سعر لحم الضأن كل رطل بخمسة دراهم ونصف، والدرهم الكاملي، كل عشرة دراهم بثلاثة وثلاثين درهمًا من الفلوس، والطائر الأوز بسبعين درهمًا. وقلت اللحوم، فلم توجد إلا بعناء، وهي هزيلة وأبيع الرطل من لحم البقر بثلاثة دراهم ونصف، واللبن كل رطل بدرهمين، والرطل السمن بثمانية عشر درهمًا. وبيعت خمس بقرات بخمس وعشرين ألف درهم، وخروفان بألفين وأربعمائة درهم، وزوج أوز بثلاثمائة درهم. وانحل سعر الغلات، فبيع الأردب القمح بمائتين وعشرين بعد أربعمائة ونيف، والأردب الشعير بمائة وأربعين بعد مائتين ونيف، والحمل التبن بثلاثين إلى أربعين بعد مائة ونيف. وأبيع في شهر ربيع الأول الأردب الحمص بخمسمائة، والأردب من حب البرسيم بثمانمائة. والفضة الكاملية كل مائة درهم بأربعمائة درهم من الفلوس. وبلغ الرطل اللحم من الضأن إلى اثني عشر درهمًا، والرطل من اللحم المسموط عشرة دراهم، ورطل اللحم البقري إلى أربعة دراهم وربع. والبيضة الواحدة بنصف درهم، والرطل الزيت بستة دراهم، والسيرج بتسعة دراهم، وعسل النحل كل رطل بثمانية عشر درهمًا، والجبن من الحالوم بسبعة دراهم الرطل، والقدح الحمص المصلوق بثلاثة دراهم، والقدح الفول المصلوق بدرهمين ونصف، وكل رغيف زنة سبع أواقي بدرهم، والبطة الدقيق زنة خمسين رطلاً بمائة درهم وعشرة دراهم. وارتفع سعر القمح بعد انحطاطه، فبلغ الأردب إلى أربعمائة درهم، سوى كلفة وهي: عشرة عشرة دراهم، وحمولة سبعة دراهم، وغربلته بدرهمين، وأجرة طحنه ثلاثون درهمًا. وأكثر ما يخرج عنه خمس ويبات ونصف، فينقص الأردب نصف سدسه وبلغ الأردب الفول إلى ثلاثمائة وعشرين درهمًا غير حمولته وعسرته، والشعير كذلك. وبيعت الفجلة الواحدة بربع درهم، والدجاجة بنحو عشرين درهمًا، والجيدة بأربعين درهمًا، والمعلوفة بمائة درهم ونيف، وأبيع الكتان كل رطل بعشرة دراهم واشترى جمل من الحجاز بخمسة وأربعين درهمًا كاملية، فبيع بسوق الجمال تحت قلعة الجبل بنحو تسعمائة درهم. واشتري جمل آخر من الحجاز بمائة وأربعين درهمًا كاملية، فأبيع بريف مصر بألف ومائتي درهم، واسترخص، وقيل قد غبن بائعه، وارتفع سعر الثياب، فبلغ الذراع من الكتان المنسوج عشرة دراهم بعد ثلاثة. وبيع الثوب الصوف بألفين وخمسمائة بعد ثلاثمائة، والبدن الفرو السنجاب بألفين ونيف بعد ثلاثمائة، وبلغ ثلاثة آلاف درهم البدن، وبلغ البدن الفرو السمور بخمسة عشر ألف درهم. وبيع زوج أوز بثلثمائة وخمسين درهمًا.

وأما أمر الشام، فإن الأمير جكم خرج من حلب في حادي عشره يريد دمشق، وقد حضر إليه شاهين دوادار الأمير شيخ يستدعيه. وكان جكم قد سلم القلعة إلى شرف الدين موسى بن يلدق، وعمل حجابًا وأرباب وظائف، وعزم على أن يتسلطن ويتلقب بالملك العادل. ثم أخر ذلك وقدم دمشق في ثالث عشرينه، ومعه الأمير قانباي، والأمير تغري بردى القجقاري وجماعة. وقد خرج الأمير شيخ والأمراء إلى لقائه، وأنزله في الميدان، فترفع على الأمراء ترفعًا زائدًا أوجب تنكرهم عليه في الباطن، إلا أن الضرورة قادتهم إلى الإغضاء فأكرموه، وأنزلوه، وحلفوه على القيام معهم على السلطان، وموافقتهم. وأخذ في إظهار شعار السلطة، فشق عليهم ذلك، ومازالوا به حتى تركه. وأقام معهم بدمشق إلى ليلة الأحد سابع عشرينه، فتوجه منها مخفا إلى طرابلس، وترك أثقاله بدمشق، ليجمع عساكر طرابلس وغيرها ممن انضم إليه.

وأما الأمير دمرداش نائب حلب، فإنه قدم على ظهر البحر إلى دمياط في سابع عشره، وبعث يستأذن في الحضور فإذن له، وقدم إلى قلعة الجبل.

وفيه قبض بدمشق على الأمير جركس الحاجب في رابع عشرينه، وأنعم بموجوده على الأمير قرا يوسف بن قرا محمد.

وأما الأمير الشيخ فإنه في ليلة الجمعة ثامن عشره، وقع الصلح بينه وبين الأمير بكتمر نائب صفد، ونزل إليه أمراء صفد في يوم السبت تاسع عشره ثم نزل إليه الأمير بكتمر في يوم الاثنين حادي عشرينه، وتحالفوا جميعًا على الاتفاق. فكانت مدة الحرب اثنين وعشرين يومًا، أولها ثاني عشرين شعبان، وآخرها نصف شهر رمضان، مستمرة ليلاً ونهارًا، نقب فيها على القلعة ستة نقوب، وخرب كثير من المدينة، ونهب أموال أهلها، وقطعت أشجارها. وفشت الجراحات في أكثر المقاتلة، وجرح الأمير شيخ، والأمير يشبك، والأمير جركس المصارع، وقتل في الحرب عدد كثير. وعاد الأمير شيخ إلى دمشق، فقدم عليه الأمير جكم كما تقدم، ومنعوا في يوم الجمعة خامس عشرينه من الدعاء للسلطان على المنبر.

وفي ثاني عشرينه: مرض السلطان بحمى حادة، قيل: إنها دوسنطاريا، وكثر رميه للدم، واستمر به بقية الشهر. وأما الأمير شيخ فإنه قدم إلى غزة، ومعه جكم، وقرا يوسف في نحو الخمسمائة فارس، معظمهم أصحاب قرا يوسف، وقد غنموا شيئًا كثيرًا، وفروا به، وتمزقت عساكر الأمير شيخ، وتلفت أمواله وخيوله. ومضى إلى دمشق، فقدمها يوم الجمعة ثامن عشرينه، بعد ما نهب اللجون وخرج إليه بكتمر

نائب صفد، وشيخ السليماني نائب طرابلس - وقد قدم صفد في نحو المائتين - فتبعاه إلى عقبة فيق فلم يدركاه، وتخطفا من أعقابه بعض خيل. فوجد السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد فر من دمشق في ليلة الأحد سادس عشره. وكان قد تأخر بدمشق، ولم يتوجه مع الأمراء إلى مصر، فأوقع الأمير شيخ الحوطة ببيوت الأمراء، الذين خامروا عليه.

وأما حلب، فإن الأمير جكم لما سار عنها ثار بها عدة من أمرائها، ورفعوا سنجق السلطان بباب القلعة، فاجتمع إليهم العسكر، وحلفوا للسلطان، فقدم ابنا شهري الحاجب، ونائب القلعة من عند التركمان البياضية إلى حلب. وقام بتدبير الأمور يونس الحافظي. وامتدت أيدي عرب العجل بن نعير وتراكمين ابن صاحب الباز إلى معاملة حلب، فقسموها، ولم يدعوا لأحد من الأمراء والأجناد شيئًا من المغل.

وفي سادس عشرينه: أشيع بمكة أن ركب العراق قدم صحبة ابن تمرلنك بعسكر، فاستعد الشريف حسن بن عجلان أمير مكة إلى لقائه. وكشف عن الخبر، فتبين أن محمل العراق قدم ومعه حاج ضعفاء بغير عسكر. فلما قضوا مناسك الحج تأخروا بعد مضي الركب المصري يومًا، ثم قاسوا طول الكعبة وعرضها، وعدوا عمد المسجد الحرام وأبوابه، فأسر إلى ابن عجلان رجل ممن حضر معهم من بني حسن بأن تمرلنك كان قد عزل على بعث جيش عدتهم عشرة آلاف فارس، صحبة المحمل، فخوف من عطش الدرب فأخرهم وبعث لكشف الطريق، حتى يبعث من قابل عسكرًا بكسوة الكعبة، فكتب بذلك ابن عجلان إلى السلطان.

وفي هذا الشهر: أخذ ناصر الدين محمد بن دلغادر قلعة درنده صلحًا. واستهم لمحاربة محمد بن كبك، وأخذ ملطية منه.

وفيه أخذ قرا يلك قلعة الرها بعد حصارها مدة، وأنزل بها ولده، ومضى إلى ماردين فأخذ المدينة وأحرقها وخربها، وحصر قلعتها، وأخذ التركمان كركر وكختا وبهسنا، وعدة قلاع. ولم تنسلخ هذه السنة حتى كل الخراب إقليم مصر، وتلاشى الصعيد، ودثرت عدة مدن، وكثير من القرى وتعطلت معظم أراضيه من الزراعة، وتمزق أهله أيدي سبا وبيع من الأطفال ما لا يدخل تحت حصر، فاسترقوا بعد الحرية، وذلوا بعد العز.

* * *

سنة ثمان وثمانمائة

وفي ثالث عشره: نودي بالزينة لعافية السلطان، فزينت القاهرة ومصر إلى خامس عشره وتوجه الأمير يشبك الموساوي الأفقم إلى الشام، يبشر بعافية السلطان.

وفي يوم الثلاثاء سادسه: تخبطت الأحوال بين السلطان وبين المماليك، فوقف طائفة من المماليك الجراكسة، وسألوا أن يقبض على الأمير تغري بردى، والأمير دمرداش، والأمير أرغون، من أجل أنهم من جنس الروم.

وذلك أن السلطان اختص بهم، وتزوج ابنة تغري بردى، وأعرض عن الجراكسة، وقبض على أينال بيه فخاف الجراكسة من تقدم الروم عليهم، وأرادوا من السلطان إبعادهم، فأبى عليهم، فتحزبوا عليه، واجتمعوا على الأمير الكبير بيبرس، وتأخروا عن الخدمة السلطانية، فتغيب في ليلة الأربعاء الأميران تغري بردى ودمرداش. وأصبح الناس يوم الأربعاء سابعه، وقد ظهر الأمير يشبك الدوادار، والأمير تمراز، والأمير جركس المصارع، والأمير قانباي العلاي، وكانوا مختفين من حين الكسرة، بعد وقعة السعيدية. وذلك أن الأمير بيبرس ركب سحرًا إلى السلطان وتلاحى معه طويلاً، وعرفه بمواضع الأمراء المذكورين، فاستقر الأمر على مصالحة السلطان للجراكسة، وإحضار الأمراء المذكورين، والإفراج عن إينال باي وغيره، فانفضوا على ذلك.

وفي يوم السبت هذا: نزل السلطان إلى باب السلسلة، واجتمع معه بعض الأمراء ليصلح الأمر، فلم يفد شيئًا، وكثرت الشناعة عليه. وباتوا على ما هم عليه. وأصبحوا يوم الأحد خامس عشرينه وقد كثروا، فطلبوا من السلطان أن يبعث إليهم بالأمير تغري بردى والأمير أرغون. فلما بعثهما قبضوا عليهما، وأخرجوا تغري بردى منفيًا في الترسيم إلى القدس. فلما كان عند الظهيرة، فقد السلطان من القلعة، فلم يعرف له خبر. وسبب اختفائه أن النوروز كان في يوم السبت رابع عشرين ربيع الأول هذا، فجلس السلطان مع عدة من خاصكيته لمعاقرة الخمر، ثم ألقي نفسه في بحره ماء وقد ثمل، فتبعه جماعة وألقوا أنفسهم معه في الماء. وسبح بهم في البحرة، وقد ألقي السلطان عنه جلباب الوقار، وساواهم في الدعابة والمجون، فتناوله من بينهم شخص، وغمه في الماء مرارًا، كأنه يمازحه ويلاعبه، وإنما يريد أن يأتي على نفسه. مما هو إلا أن فطن به فبادر إليه بعض الجماعة - وكان روميًا - وخلصه من الماء، وقد أشرف على الموت، فلم يبد السلطان شيئًا، وكتم في نفسه. ثم باح بما

أسره، لأنه كان لا يستطع كتمان سر. وأخذ يذم الجراكسة - وهم قوم أبيه، وشوكة دولته، وحل عسكره - ويمدح الروم، ويتعصب لهم، وينتمي إليهم، فإن أمه شيرين كانت رومية. فشق ذلك على القوم، وأخذوا حذرهم، وصاروا إلى الأمير الكبير بيبرس ابن أخت الظاهر واستمالوه، فخاف السلطان وهم أن يفر، فبادره الأمير بيبرس وعنفه، وما زال به حتى أحضر الأمراء من الإسكندرية ودمياط، وأظهر الأمراء المختفين كما ذكر، فاجتمع الأضداد، واقترن العدي والأنداد. ثم عادوا إلى ما هم عليه من الخلاف بعد قليل، وأعانهم السلطان على نفسه، بإخراج يشبك بن أزدمر، وأزبك، فأبدوا عند ذلك صفحات وجوههم، وأعلنوا بخلافه، وصاروا إلى أينال باي بن قجماس، ليلة الجمعة، وسعوا فيما هم فيه. ثم دسوا إليه سعد الدين بن غراب كاتب السر، فخيله منهم، حتى امتلأ قلبه خوفًا. فلما علم ابن غراب بما هو فيه من الخوف، حسن له أن يفر، فمال إليه. وقام وقت الظهر من بين حرمه وأولاده، وخرج من ظهر القلعة فن باب السر الذي يلي القرافة، ومعه الأمير بيغوت، فركبا فرسين قد أعدهما ابن غراب، وسارا مع بكتمر مملوك ابن غراب، ويوسف بن قطلوبك صهره أيضًا، إلى بركة الحبش. ونزلا وهما معهما في مركب، وتركوا الخيل نحو طرا وغيبوا نهارهم في النيل، حتى دخل الليل، فساروا بالمركب إلى بيت ابن غراب، وكان فيما بين الخليج وبركة الفيل، فلم يجدوه في داره، فمروا على أقدامهم حتى أووا في بيت بالقاهرة لبعض معارف بكتمر مملوك ابن غراب. ثم بعثوا إلى ابن غراب فحول السلطان إليه وأنزله عنده بداره، من غير أن يعلم بذلك أحد. وقد حدثني بكتمر المذكور بهذا فيما بعد، وقد صحبته في السفر، فبلوت منه دينًا، وصدق لهجة، وشجاعة، ومعرفة ومحبة في العلم وأهله.

* * *

السلطان الملك المنصور عز الدين أبو العز

عبد العزيز بن السلطان الظاهر أبي سعيد برقوق بن أنص ثالث ملوك الجراكسة أمه أم ولد تركية، اسمها قنقباي. ولد بعد التسعين وسبعمائة بسنيات، وجعل أبوه إليه السلطنة بعد أخيه الناصر فرج.

فلما فقد الملك الناصر وقت الظهر من يوم الأحد خامس عشرين ربيع الأول، بادر الأمراء بالركوب إلى القلعة، وهم طائفتان: الطائفة التي خالفت على الناصر في السنة الماضية وحاربته، ثم مضت إلى الشام، فشنت الغارات وأقبلت بالعساكر وبيتته بالسعيدية. وانتهبت ما كان معه ومع عساكره، حتى رجع إلى قلعة الجبل على جمل. فجمع وحشد.، وأعد واستعد، فقاتلوه أيامًا، ثم غلبوا، فكر بعضهم راجعًا إلى الشام، واختفى بعضهم إلى أن أمنهم وأعادهم إلى رتبهم. وهم عدة، يرجع أمرهم إلى الأمير يشبك الدوادار.

والطائفة الأخرى هي التي وفت للناصر وحاربت من ذكرنا معه، وكبيرهم الأمير الكبير بيبرس ابن أخت الظاهر. فلما صار الفريقان إلى القلعة، منعهم الأمير سودون تلى المحمدي أمير أخور من صعود القلعة، وهم يضرعون إليه من بعد نصف النهار إلى بعد غروب الشمس. ثم مكنهم من العبور من باب السلسلة.

وقد أحضروا الخليفة والقضاة الأربع، واستدعوا الأمير عبد العزيز بن الظاهر، وقد ألبسه بن غراب الخلعة الخليفتية، وعممه. فعهد إليه الخليفة أبو عبد الله محمد المتوكل على الله بالسلطنة، ولقبوه الملك المنصور عز الدين، وكنوه بأبي العز. وذلك عند أذان عشاء الآخرة، من ليلة الاثنين سادس عشرين ربيع الأول، وقد ناهز الاحتلام.

وصعدوا به من الإسطبل إلى القصر. ولم تدق البشائر على العادة، ولا زينت القاهرة، وأصبح الناس في سكون وهدوء، فنودي بالأمان والدعاء للملك المنصور. فتحيرت المماليك التي من عصبة الناصر. وأشاعوا أنه مضى به دمرداش نائب حلب وبيغوت إلى الشام.

وهم كثير منهم باللحاق به، فأشاع آخرون أنه قتل، وأعرض الأمراء عن الفحص عنه، وتواصوا بالاتفاق. وقام بن غراب بأعباء المملكة، يدبر الأمراء كيف شاء. والمنصور تحت كفالة أمه. ليس له من السلطنة سوى مجرد الاسم في الخطة، وعلى أطراف المراسيم.

وفي يوم الثلاثاء سابع عشرينه: استقر الأمير بيبرس لالا السلطان، وخلع عليه.

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه: عملت الخدمة بالإيوان المعروف بدار العدل وجلس السلطان على تخت الملك. وحضر الأمراء والقضاة وأهل الدولة على العادة، وخلع على أرباب الوظائف. فاستمر الأمير الكبير بيبرس على عادته أتابك العساكر، والأمير أقباي أمير سلاح، وسودن الطيار أمير مجلس، وسودن تلى المحمدي أمير أخور، وبشباي رأس نوبة كبيرًا، وأرسطاي حاجب الحجاب، وسعد الدين بن غراب كاتب السر، وفخر الدين ماجد بن غراب وزيرًا، وفخر الدين بن المرزوق ناظر الجيش. وخلع على القضاة الأربع خلع الاستمرار.

وظهر بين أهل الدولة حركة، فكثرت القالة، وبات المماليك تسعى بعضها إلى بعض، فظهر الملك الناصر في بيت الأمير سودن الحمزاوي، وتلاحق به كثير من الأمراء والمماليك، ولم يطلع الفجر حتى ركب السلطان بآلة الحرب. وإلى جانبه ابن غراب. وعليه آلة الحرب. وسار بمن اجتمع إليه يريد القلعة، فقاتله سودن المحمدي أمير أخور، وأينال بيه بن قجماس، وبيبرس الكبيري، ويشبك بن أزدمر، وسودن الماردينى، قتالاً ليس بذاك.

ثم انهزموا، وصعد السلطان إلى القلعة، فكانت مدة عبد العزيز سبعين يومًا.

* * *

عود السلطان زين الدين فرج إلى الملك

عود السلطان الملك الناصر زين الدين فرج ابن الملك الظاهر برقوق إلى الملك ثانيا وذلك أنه لما فقد من القلعة، وصار إلى بيت سعد الدين بن غراب، ومعه بيغوت، قام له بما يليق به. وأعلم الأمير يشبك به، فخفي على أهل الدولة مكانه، ولم يعبأوا به. وأخذ ابن غراب يدبر في القبض على الأمير أينال بيه، فلم يتم له ذلك، فلما تمادت الأيام، قرر مع الطائفة التي كانت في الشام من الأمراء، وهم: يشبك، وقطلو بغا الكركي، وسودن الحمزاوي في آخرين، أنه يخرج إليهم السلطان، ويعيدوه إلى الملك، لينفردوا بتدبير الأمور.

وذلك أن الأمير بيبرس الأتابك قويت شوكته على يشبك، وصار يتردد إليه، ويأكل على سماطه، فعز عليه، وعلى أصحابه ذلك، فما هو إلا أن أعلمهم ابن غراب بالخبر، وافقوه على ذلك، وواعد بعضهم بعضًا. فلما استحكم أمرهم، برز الناصر نصف ليلة السبت خامس جمادى الآخرة من بيت ابن غراب. ونزل بدار الأمير سودن الحمزاوي، واستدعى الناس، فأتوه من كل جهة. وركب وعليه سلاحه. وابن غراب إلى جانبه، وقصد القلعة، فناوشه من تأخر عنه من الأمراء قليلاً، ثم فروا، فملك السلطان القلعة بأيسر شيء. وذلك أن صوماي رأس نوبة كان قد وكل بباب القلعة، فعندما رأى السلطان فتح له، فطلع منه، وملك القصر، فلم يثبت بيبرس ومن معه، ومروا منهزمين. فبعث السلطان بالأمير سودن الطيار في طلب الأمير بيبرس فأدركه خارج القاهرة، فقاتله وأخذه وأحضره إلى السلطان، فقيده، وبعثه إلى الإسكندرية فسجن بها. واختفي الأمير أينال بيه بن قجماس، والأمير سودن المارديني.

وفي يوم الاثنين سابعه: خلع على الأمير يشبك الشعباني، واستقر أتابك العساكر، عوضًا عن الأمير بيبرس. وعلى الأمير سودن الحمزاوي، واستقر دواداراً، عوضًا عن سودن المارديني، وعلى جركس المصارع، واستقر أمير أخور، عوضًا عن سودن تلى المحمدي.

وفيه قبض على الأمير جرقطلو رأس نوبة، والأمير قنباي أمير أخور، والأمير أقبغا رأس نوبة، وكلهم أمراء عشرات. وقبض على الأمير بردبك رأس نوبة، أحد أمراء الطبلخاناه.

وفيه استقر سعد الدين بن غراب رأس مشورة. وأنعم عليه بإمرة مائة تقدمة

ألف. ولبس الكلفته. وتقلد السيف كهيئة الأمراء، وترك زي الكتاب. ونزل إلى داره. فلم يركب بعدها إلى القلعة ومرض.

وفي ثالث عشره: قدم الخبر إلى دمشق بعود السلطان الملك الناصر إلى السلطة، واستقراره بشيخ في نيابة الشام، وجكم في نيابة حلب، فضربت البشائر، ونودي بذلك في دمشق. ودعي للسلطان الملك الناصر في يوم الجمعة ثامن عشره.

وفي خامسه: اقتتل الأمير جكم، والأمير شيخ المحمودي نائب الشام، بأرض الرستن - فيما بين حماة وحمص -، قتل فيها الأمير طولو نائب صفد، والأمير علاق نائب حماة، وجماعة كثيرة من الفريقين، وانهزم الأمير شيخ ومعه الأمير دمرداش المحمدي إلى دمشق. ومضى منها إلى الرملة يريد القاهرة.

وقدم الأمير نوروز إلى دمشق من قبل الأمير جكم في يوم الاثنين سابع عشرين ذي الحجة.

وكان من خبر الأمير شيخ، والأميرين جكم ونوروز، أن الأمير شيخ توجه من دمشق بعد عيد الأضحى، ومعه الأمير دمرداش، فنزل مرج عذراء في عسكره يريد حمص، وقد نزل بها عسكر جكم عليهم الأمير، ونزل جكم على سلمية، فلبس الأمير دمرداش خلعة نيابة حلب الواصلة إليه مع تقليده وهو بالمرج. وقدم إليهم الأمير عجل ابن نعير بعربه طالبًا أخذ ثأره من جكم.

ووصل أيضًا ابن صاحب الباز يريد أيضًا أخذ ثأر أخيه من حكم، ومعه جع من التركمان، فسار بهم الأمير شيخ من المرج في ليلة الاثنين ثالث عشره إلى أن نزل قارا ليلة الثلاثاء، فوصل تقليد العجل بن نعير بإمرة العرب.

وقدم الأمير علان نائب حماة وحلب - كان - من مصر، وقد استقر أتابك دمشق. ونزل الأمير شيخ حمص يوم الخميس سادس عشره، فكاتب الفريقان في الصلح فلم يتم، واقتتلا في يوم الخميس ثالث عشرينه بالرستن، فوقف الأمير شيخ والأمراء في الميمنة، ووقف العرب في الميسرة، فحمل جكم بمن معه على جهة الأمير شيخ فكسره، وتحول إلى جهة العرب - وقد صار شيخ إليها وقاتلوا قتالاً كبيرًا ثبتوا فيه، فلم يطيقوا جموع جكم وانهزموا، وسار شيخ بمن معه - من دمرداش وغيره - إلى دمشق، فدخلوها يوم السبت خامس عشرينه، وجمعوا الخيول والبغال، وأصحابهم متلاحقيين بها. ثم مضوا من دمشق بكرة الأحد.

فقدم في أثناء النهار من أصحاب الأمير جكم الأمير نكبيه، وأزبك، دوادار

الأمير نوروز. ونزل أزبك بدار السعادة، وقدم الأمير جرباش، فخرج الناس إلى لقاء نوروز، فدخل دمشق يوم الاثنين سابع عشرينه، ونزل الإسطبل. ودخل الأمير جكم يوم الخميس سلخه، ونادى ألا يشوش أحد على أحد. وكان قد شنق رجلاً في حلب رعى فرسه في زرع، وشنق آخر بسلمية، ثم شنق جنديًا بدمشق على ذلك، فخافه الناس، وانكفوا عن التظاهر بالخمر. وقتل في وقعة الرستن الأمير علان نائب حماة وحلب، والأمير طولو نائب صفد، قدما بين يدي الأمير جكم فضرب أعناقهما، وعنق طواشي كان في خدمة الأمير شيخ، كان يؤذي جماعة نوروز المسجونين، ومضى الأمير شيخ إلى جهة الرملة.

وفي ليلة الأربعاء خامس عشره: خسف القمر من آخر الليل.

ومات تيمورلنك كوركان بن أنس قتلغ، وقيل بل هو تيمور بن سرتختته بن زنكي بن سبنا بن طارم بن طغرل بن قليج بن سنقرر، بن كنجك بن طوسبوقا بن ألتان خان، ومعني لنك الأعرج، ومعني كوركان صهر الملك. توفي تيمور بآهنكران من شرقي سمرقند، في ثالث عشر شعبان، وملك عامة بلاد العراق، وخراسان. وسمرقند، والهند، وديار بكر، وبلاد الروم، وحلب، ودمشق، وخرب مدن العالم، وحرقها، وهدم بغداد، وأزال نعم الناس، وكان قاطع طريق. أول ظهوره سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة.

* * *

سنة تسع وثمانمائة

استهلت والخليفة المستعين بالله أبو الفضل العباس بن محمد المتوكل على الله والسلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق، ودمشق بيد الأمير نوروز، من قبل الأمير جكم، وحلب وحماة وطرابلس بيد الأمير جكم، وهو خارج عن طاعة السلطان. ونائبه بديار مصر الأمير تمراز، وبدمشق الأمير شيخ، وقد توجه بعد الكسرة على حمص إلى جهة الرملة.

شهر الله المحرم، أوله الجمعة، ويوافقه رابع عشرين بؤونة: والمثقال الذهب بمائة درهم وخمسة وثلاثين درهمًا بالفلوس، وكل دينار أفرنتي بمائة وخمسة عشر درهمًا، والقمح بمائة وثلاثين درهمًا الأردب، والشعير والفول بنحو مائة درهم، والفلوس كل رطل بستة دراهم، والفضة لا تظهر بين الناس، وإذا ظهرت تباع كل درهم كاملي بخمسة دراهم من الفلوس - زنة عشر أواقي - وبهذا فسدت أحوال

أرباب الجوامك من الفقهاء وأمثالهم، الذين رزقهم على الأوقاف، والمرتبات السلطانية، فصاروا يأخذون معاليمهم عن كل درهم فضة أوقيتين فلوسا، وتسمي درهمًا، وارتفعت أسعار جميع المبيعات حتى بلغت أضعاف قيمتها المعتادة بالفضة، فصار من معلومه مثلاً مائة درهم في الشهر - وكان قبل هذه الحوادث والمحن يأخذها فضة، عنها خمسة مثاقيل ذهبًا - فإنه الآن يأخذ عن المائة سبعة عشر رطلاً، وثلثي رطل من الفلوس، يقال لها مائة درهم، ولا تبلغ دينارًا واحدًا، فيشتري بهذه المائة ما كان قبل هذا يشتريه بأقل من عشرين بكثير، فإن كل سلعة كانت تباع بدينار لا تباع الآن إلا بدينار وبأكثر من دينار.

وفي رابع عشرينه: نزل السلطان غزة، ورحل منها في سابع عشرينه.

وأما الشام فإن الأمير نوروز جهز في أوله عسكرًا من دمشق، عليهم الأمير سودن المحمدي، وأزبك الدوادار، فساروا إلى جهة الرملة.

وفي حادي عشره: خرج الأمير بكتمر شلق من دمشق لجمع العشران، فقدم في ثالث عشره الأمير أينال بيه بن قجماس، والأمير يشبك بن أزدمر، وكانا مختفيين بالقاهرة، من حين عاد الملك الناصر إلى الملك بعد أخيه المنصور عبد العزيز، ووصل معهما الأمير سودن المحمدي لضعف حصل له، فأكرمهما الأمير نوروز، وأنعم عليهما. وعقيب ذلك عاد العسكر المتوجه مع سودن المحمدي إلى الرملة، لوصول الأمير خير بك نائب غزة إليها - هو والأمير ألطنبغا العثماني - وأخبروا باستقرار الأمير شيخ في نيابة الشام، وأن السلطان قد خرج من القاهرة، فاضطرب نوروز، وخرج من دمشق في يوم الثلاثاء سابع عشره، فبلغه وصول الأمير ألطنبغا العثماني إلى صفد، وقد ولي نيابتها، ومعه شاهين دوادار الأمير شيخ. ففر منه بكتمر شلق، وقدم على نوروز، فعاد حينئذ من جسر يعقوب، وقد عزم على الفرار خوفًا من السلطان، ولحق به من كان بدمشق من أصحابه. وسار من دير زيتون في سادس عشرينه على بعلبك إلى حمص، فدخل شاهين - دوادار شيخ - من الغد يوم الجمعة سابع عشرينه إلى دمشق، ثم قدم الأمير شيخ في يوم الاثنين آخره، ومعه دمرداش نائب حلب، وألطنبغا العثماني نائب صفد، والأمير زين الدين عمر بن الهذباني أتابك دمشق، فلم يجد من يمانعه.

شهر ربيع الآخر، أوله الثلاثاء: في ليلة الاثنين سابعه: مات الملك المنصور عبد العزيز بن الظاهر برقوق بالإسكندرية. بعد مرضه مدة إحدى وعشرين ليلة. ومات بعقب موته من ليلته أخوه إبراهيم، ودفنا من الغد، فكانت جنازتهما جمعها كبير،

ولهج الناس بأنهما ماتا مسمومين.

وفي هذا اليوم: دخل السلطان إلى دمشق في تجمل عظيم، ونزل بدار السعادة إلى أن توجه يريد حلب في سابع عشره، فدخلها في سادس عشرينه، وقد رحل الأمير جكم عنها، وعدى الفرات ومعه الأمير نوروز، والأمير تمربغا المشطوب، وجماعة، منزل السلطان بالقلعة، وبعث الأمراء في طلب جكم.

وفي ثامن عشرينه: قدمت رمة الملك المنصور عبد العزيز وأخيه إبراهيم من الإسكندرية على ظهر النيل إلى ساحل القاهرة، وحملا إلى تحت القلعة، وأمهاتهما وجواريهن مسلبات، فصلى عليهما، ودفنا عند أبيهما تحت الجبل بتربته التي أوصى بعمارتها.

شهر جمادى الآخرة، أوله السبت: فيه خرج السلطان من حلب عائدًا إلى دمشق، وولي بحلب الأمير جركس المصارع. وولي الأمير سودن بقجة نيابة طرابلس. وأقر الأمير شيخ على نيابة الشام، وجد في مسيره حتى قدم دمشق في خمسة أيام، وترك الخام وراءه.

فثارت طائفة من المماليك ومعهم عامة حلب على جركس المصارع، وقدم الأمير نوروز بعسكره ففر جركس يريد دمشق، ونوروز في أثره، فعثر بخام السلطان فقطعه، ووقع النهب فيه. وخلص الأمير جركس إلى السلطان، ودخل معه دمشق في ثامنه، فنزل السلطان دار السعادة، ونادى بالإقامة في دمشق شهرين. وكان الأمير يشبك قد دخل بالأمس وهو مريض، ومعه الأمير دمرداش، والأمير باش باي رأس نوبة.

وفي ثامن عشره: قبض بغزة على الأمير خير بك. وحمل مقيدًا إلى القاهرة وقدم في ثاني عشرينه.

وفي هذا الشهر: تسلطن الأمير جكم بحلب يوم حادي عشره، وتلقب بالسلطان الملك العادل أبي الفتوح عبد الله جكم، وخطب باسمه من حلب إلى الفرات إلى غزة، ما عدا صفد، فإن الأمير شيخ المحمودي نائب الشام كان قد أخذها من الحمزاوي وأقام بقلعتها. ففر منه الحمزاوي، وقام الأمير شيخ على طاعة السلطان. ولم يجب جكم إلى التوجه إليه.

شهر شوال، أوله الجمعة: في رابعه: خلع الأمير نوروز على الأمير بكتمر شلق بنيابة صفد، عن أمر الملك العادل عبد الله جكم.

وفي ثامن عشره: قدم إلى دمشق قاصد الملك العادل جكم، ومعه مرسومه بتقرير الأمير سودن الحمزاوي دوادارًا، وتقرير الأمير إينال بيه بن قجماس أمير أخور، والأمير يشبك بن أزدمر رأس نوبة، والأمير سودن الحمزاوي. أمير مجلس، والأمير نوروز قسيم الملك، وما يختار يفعل، وأمرهم بلبس الكلفتاة، وكانوا قد تركوها مدة، إشارة منهم أنهم غير طالعين السلطان.

وفيه دقت البشائر بموت جكم. وكان من خبره أنه لما تسلطن، استعد لأخذ بلاد الشمال، وأعرض عن مصر. ثم حرج من حلب يريد الأمير عثمان بن طور علي بن قوايلك، وقد نزل بتركمانه في أراضي آمد. فحضر جكم البيرة حتى أخذها وقتل نائبها كزل ثم عدا الفرات من البيرة، فأتته رسل قرايلك ترغب إليه في رجوعه إلى حلب، وأنه يحمل إليه من الجمال والأغنام عددًا كثيرًا، فلم يقبل. وسار حتى قرب من ماردين، فنزل وأقام أيامًا، حتى نزل إليه الملك الظاهر مجد الدين عيسى وحاجبه فياض من ماردين، فسار به إلى قرايلك وحطم عليه، فقاتله قتالاً كبيرًا أبلي فيه جكم بنفسه بلاء عظيمًا، وقتل بيده إبراهيم بن قرايلك، فانهزم لقتله التركمان إلى مدينة آمد، وامتنعوا بها، فاتحكم جكم في طائفة عليهم حتى توسط بين بساتين آمد، فإذا هم قد أرسلوا المياه فوحلت الأراضي بحيث يرتطم فيها الفارس بفرسه فلا يقدر على الخلاص، فأخذ جكم ومن معه الرجم من كل جهة، وقد انحصروا في مضيق لا يمكن فيه كر ولا فر، وصوب بعض التراكمين على جكم ورماه بحجر في مقلاع أصاب جبهته، فتجلد قليلاً، ومسح الدم عن وجهه ولحيته، ثم اختلط وسقط عن فرسه، فتكاثر التركمان على من معه وقتلوهم، فانهزم بقية العسكر، والتركمان في أعقابهم تقتل وتأسر، فلم ينج منهم إلا القليل، وطلب جكم بين القتلى، حتى عرفه بعض التراكمين، فقطع رأسه وبعثها إلى مصر، وقتل في هذه الوقعة الأمير ناصر الدين محمد بن شهري حاجب حلب، والأمير أقمول نائب عينتاب، والملك الظاهر عيسى صاحب ماردين، وحاجبه فياض، وفر الأمير كمشبغا العيساوي، والأمير تمربغا المشطوب، حتى لحقا بحلب. وكانت هذه الوقعة في سابع عشرين ذي القعدة، فدقت البشائر بقلعة الجبل ثلاثة أيام.

وفي هذا الشهر: أيضًا ركب الأمير شيخ نائب الشام من صفد يريد الأمراء بغزة، وهم سودن الحمزاوي، والأمير أينال بيه بن قجماس، والأمير يشبك بن أزدمر فطرقهم على حين غفلة، فقاتلوه على الجديدة في يوم الخميس رابعه، فقتل أينال بيه ويونس الحافظي نائب حماة وسودن تلي المحمدي، وسودن قرناس.

سنة عشر وثمانمائة

أهلت ودمشق بيد نوروز الحافظي، وقد تغلب تمربغا المشطوب على حلب بعدما حاربه أهلها، وأعانهم الأمير علي بك بن دلغادر، وقد قصد حلب بجمع كبير من التراكمين، بعد قتل جكم، ليأخذها، فكانت بينهم حروب آلت إلى استيلاء المشطوب على القلعة بموافقة من بها، فانهزم ابن دلغادر، وتمكن المشطوب، وأخذ أموال حكم، واستخدم مماليكه، فعز جانبه.

وأهل المحرم بيوم الأربعاء: وسعر الدينار المشخص بالقاهرة مائة وأربعون درهمًا فلوسًا. وكل درهم كاملي بخمسة دراهم من الفلوس. وكل رطل من الحم الضأن بتسعة دراهم. وكل رطل من لحم البقر بسبعة، وهو قليل الوجود. وكل أردب من القمح بمائة وثمانين فما دونها.

وفي يوم الخميس ثانيه: جلس السلطان للنفقة، فلم يتهيأ.

شهر ذي القعدة، أوله الجمعة: فيه كتب تقليد الأمير شيخ المحمودي باستمراره في كفالة الشام على عادته، وتوجه به ألطنبغا بشلاق وألطنبغا شقل، وقاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجي الشافعي، وقاضي القضاة صدر الدين علي بن الآدمي الحنفي، ومعهم تشريفة ولسخة اليمين، وكتب تقليد باستقرار الأمير بكتمر شلق في نيابة طرابلس على عادته، وجهز إليه مع تشريفة، وكتب باستقرار الأمير يشبك بن أزدمر في نيابة حماة، وجهز إليه تشريفة.

وفي رابعه: قدم الأمير نوروز إلى دمشق، بعد غيبته خمسًا وثلاثين يومًا، انتهى فيها إلى الرملة.

* * *

سنة إحدى عشرة وثمانمائة

وفي هذا الشهر: عاد الأمير بشباي بمن خرج معه من الأمراء وغيرهم إلى القاهرة. وكان من خبرهم أن الأمير بكتمر جلق، والأمير جانم خرجا من صفد إلى غزة، وملكاها، ففر منها سودن المحمدي المعروف بتلي - يعني المجنون - في نفر، ولحق بالأمير نوروز. فلما انتهى عسكر مصر إلى العريش بلغهم إقامة الأمير نوروز بالرملة، وأنه جهز إليهم سودن المحمدي، وسار في أثره، فردوا على أعقابهم إلى القاهرة. وقدم " لمحمدي فلم يدركهم فعاد إلى نوروز، فمضى عند ذلك نوروز إلى دمشق، فقدمها في حادي عشره، بعد غيبته عنها ثمانية وثلاثين يومًا، بعدما قصد صفد، فقدم عليه الخبر بحركة الأمير شيخ، فضاق بذلك ذرعه، واستعد له. ثم سار من دمشق في عشرينه ونزل برزة، فقدم عليه من الغد سودن المحمدي، فارًا من بكنمر حلق، وقد قدم عليه غزة وأخذها، فأعاده إلى دمشق، حتى أصلح شأنه، ولحق به في ليلة الأربعاء رابع عشرينه، فسار إلى حمص، وكان الأمير شيخ قد جمع من العربان والتراكمين طوائف. وسار بهم من حلب يريد دمشق، في ثاني عشره.

وفي حادي عشرينه: قدم الخبر بأن التركمان أطلقوا الأمير نوروز.

وفي ثاني عشرينه: فر الأمير تمربغا المشطوب نائب حلب من الأمير شيخ بدمشق.

شهر شعبان، أوله الأربعاء: في رابعه: قدم دمشق قاصد السلطان ومعه تشريف للأمير شيخ، فركب إلى داريا ولبسه، وعاد إلى دار السعادة في أبهة جليلة، وبين يديه الأمير برسباي الحاجب، وعليه تشريف سلطاني قدم من مصر، والأمير تمراز الأعور وعليه أيضًا تشريف سلطاني، وقاضي القضاة شمس الدين محمد الأخناي وعليه تشريف سلطاني قد بعثه إليه السلطان، وأعاده إلى قضاء دمشق عوضًا عن نجم الدين بن حجي.

* * *

سنة اثنتي عشرة وثمانمائة

أهلت وخليفة الوقت المستعين بالله أبو الفضل العباس بن محمد المتوكل على الله أبي عبد الله محمد. والسلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن الظاهر أبي سعيد برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي. وهو مستقل بتدبير الأمور، ومعتمد على وزيره

الأمير الوزير المشير ناظر الخواص، وكاشف الكشاف جمال الدين يوسف بن أحمد الأستادار البجاسي البيري، وكاتب سره فتح الدين فتح الله بن معتصم بن نفيس الإسرائيلي الداودي التبريزي. وناظر جيشه الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله النستراوي، ونائب الشام الأمير شيخ المحمودي. ونائب حلب الأمير دمرداش المحمدي ونائب حماة الأمير جانم، ونائب طرابلس الأمير بكتمر جلق، ونائب صفد الأمير قرقماس ابن أخي دمرداش. ونائب غزة الأمير ألطنبغا العثماني. ونائب الكرك الأمير ناصر الدين محمد التركماني، ولم يمكن منها لتغلب سودن الحلب عليها.

وقضاة مصر شيخ الإسلام قاضي القضاة جلال الدين أبي الفضل بن شيخ الإسلام قاضي القضاة سراج الدين عمر بن رسلان بن نصر البلقيني الشافعي. وقاضي القضاة أمين الدين عبد الوهاب بن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أبي بكر الطرابلسي الحنفي، وقاضي القضاة شمس الدين محمد بن علي بن معبد القدسي المدني المالكي، وقاضي القضاة مجد الدين سالم بن سالم المقدسي الحنبلي. وقضاة دمشق نجم الدين عمر ابن حجي الشافعي، وصدر الدين علي بن الآدمي الحنفي. وشرف الدين عيسى المغربي المالكي، وشمس الدين محمد بن عبادة الحنبلي.

وفي يوم الخميس: سار السلطان إلى أن نزل ظاهر مدينة بصرى، فتحقق هناك خبر الأمير شيخ، وأنه في عصر يوم الأربعاء الماضي بلغه أن السلطان قد سار في إثره، فوحل فزعا يريد صرخد، فأقام السلطان على بصرى إلى بكرة السبت. وقدم عليه ببصرى من الشيخية الأمير برسباي والأمير سودن اليوسفي، فكتب بذلك إلى دمشق. ثم سار ونزل بقرية عيون - تجاه صرخد - فكانت حرب بين أصحابه وبين الشيخية، قتل فيها فارسان من الشيخية، وجرح من السلطانية جماعة، ففر منهم جماعة إلى الأمير شيخ، فلحقوا به.

وكثر تخوف السلطان من أمرائه ومماليكه. وبلغه أنهم عولوا على أنه إذا وقع مصاف الحرب، تركوه ومضوا إلى الأمير شيخ، فبات ليلته مستعدًا لأن يؤخذ، ودبر أمرًا كان فيه نجاته. وهو أنه لما أصبح عند طلوع الفجر، نادى ألا تهد خيمة، ولا يحمل جمل، وأن يركب العسكر خيولهم، ويجر كل فارس جنيبه مع غلامه، من غير أن يأخذوا أثقالهم ولا جمالهم. وسار بهم كذلك، وقد أخر الأمراء ومن يخشاه من المماليك وراءه، وتقدم أمامهم في ثقاته. فلم يفجأ القوم إلا ومد طلع عليهم من ثنية هناك، وقد عبأ الأمير شيخ أصحابه، فأوقف المصريين ناحية، وقدم عليهم الأمير تمراز الناصري نائب السلطة، ووقف في ثقاته - وهم نحو الخمسمائة فارس - وحطم

عليهم السلطان بنفسه ومن معه، فانهزم تمراز بمن معه من أول وهلة، وثبت الأمير شيخ فيمن معه، فكانت بينهم معارك صدرًا من النهار، وأصحاب الأمير شيخ تتسل منه، وهو يتأخر إلى جهة القلعة. وكانت الحرب بين جدران مدينة صرخد، فولى السلطان وطاق الشيخية، وانتهب أصحابه جميع ما كان فيه من خيل، وجمال، وثياب، وأثاث، وخيام، وآلات، وغيرها، فحازوا شيئًا كثيرًا. واستولى السلطان على جامع صرخد، وأصعده أصحابه، فرموا من أعلى المنارة بمكاحل النفط والأسهم الخطالية على الأمير شيخ، وحمل السلطان عليه حملة واحدة منكرة، فانهزم أصحاب شيخ، والتجأ في نحو العشرين إلى قلعة صرخد، وكانت خلف ظهره، وقد أعدها لذلك، فتسارع إليه عدة من أصحابه، وتمزق باقيهم، فأحاط السلطان بالمدينة، ونزل على القلعة، فأتاه الأمراء فهنوه بالظفر، وامتدت الأيدي إلى صرخد، فما تركوا بها لأهلها جليلاً ولا حقيرًا، حتى أخذوه نهبًا وغصبًا.

فامتلأت الأيدي مما لا يدخل تحت حصر. وسار الأمير تمراز، وسودن بقجة، وسودن الحلب، وسودن المحمدي، وتمربغا المشطوب - نائب حلب - وعلان، في عدد كبير إلى دمشق، فقدموها يوم الاثنين تاسعه، فقاتلهم العامة في عاشره، ودفعوهم عن البلد، فولوا يريدون جهة الكرك، بعدما قتل منهم وجرح جماعة. وتأخر كثير منهم بدمشق، ومضى طائفة إلى جهة حماة وحلب، فأخذ منهم بدمشق وغيرها عدد كثير.

وفي عاشره: قدم كتاب السلطان إلى دمشق بخبر الواقعة. وفيه قدم من صرخد إلى دمشق الأمير برد بك نائب حماة، وسار إليها في رابع عشره.

وفي رابع عشره: قدم دمشق الأمير تغري بردى ابن أخي دمرداش من صرخد، متوجهًا إلى حلب، نائب الغيبة بها، عن عمه الأمير دمرداش. وقدم أيضًا الأمير أقباي حاجب الحجاب، وقد مرض بصرخد، ليقيم بدمشق حتى يبرأ. وقدم الأمير قردم، وقضاة مصر، وتاج الدين رزق الله ناظر جيش دمشق، في جماعة، فأقاموا بدمشق.

وقدم أيضًا كتاب السلطان فقرئ بالجامع الأموي. وفيه خبر وقعة صرخد، وأنه قد حصر الأمير شيخ بالقلعة، وعزم ألا يبرح حتى يأخذه، وأنه رد أمور دمشق إلى الأمير قردم، وأن من ظفر بأحد من الأمراء المنهزمين وأحضره فله من المال كذا. وفيه قبض بدمشق على الكليباتي والي دمشق في أيام الأمير شيخ، فضرب ضربًا مبرحًا.

وفي ثامن عشره: قدم الخبر على السلطان بأن التراكمين كسروا الأمير نوروز كسرة قبيحة، فدقت البشائر بصرخد. وفيه قبض بدمشق على علم الدين داود الكويز وأخيه صلاح الدين خليل من بيت نصراني. وفيه قدم من صرخد إلى دمشق الأمير دمرداش نائب حلب وطرابلس، فأقام بها إلى حادي عشرينه، وسار إلى محل كفالته.

وفي حادي عشرينه: اشتد الطلب بدمشق على من اختفى من الشيخية. وفيه أخرج من دمشق بالمنجنيق إلى صرخد.

وفيه قدم من صرخد إلى دمشق الطواشي فيروز الخازندار، فتسلم ابني الكويز والشهاب أحمد الصفدي، موقع الأمير شيخ. ولم يزل السلطان على قلعة صرخد يرميها بالمدافع والسهام، ويقاتل من بها ثلاثة أيام بلياليها، حتى أحرق جسر القلعة، فامتنع الأمير شيخ ومن معه بداخلها، وركبوا أسوارها، فأنزل السلطان الأمراء حول القلعة، وألزم كل أمير بقتال جهة من جهاتها، واستدعى المدافع ومكاحل النفط من الصبيبة وصفد ودمشق، ونصبها حول القلعة، فكان فيها ما يرمي بحجر زنته ستون رطلاً دمشقيًا. وتمادى الحصر ليلاً ونهارًا، حتى قدم المنجنيق من دمشق على مائتي جمل. فلما تكامل نصبه ولم يبق إلا أن يرمي بحجره - وزنته تسعون رطلاً شاميًا - ترامى الأمير شيخ ومن معه من الأمراء على الأمير الكبير تغري بردى الأتابك، وألقوا إليه ورقة في سهم من القلعة، يسألونه فيها الوساطة بينهم وبين السلطان، فما زال حتى بعثه السلطان إليهم، فصعد إلى القلعة، ومعه الخليفة، وكاتب السر فتح الله، وجماعة من ثقات السلطان، في يوم السبت ثامن عشرينه، فجلسوا على شفير الخندق، وخرج الأمير شيخ، وجلس بداخل باب القلعة، ووقف أصحابه على رأسه، وفوق سور القلعة، وتولى كاتب السر محادثة الأمير شيخ، فطال الخطب بينهما، واتسع مجال الكلام، فتارة يعظه وأخرى يؤنبه ويوبخه، وآونة يعدد بالله على السلطان من جميل الأيادي وعوائد النصر على أعدائه، ويخوفه عاقبة البغي، وفي كل ذلك يعتذر الأمير شيخ، ثم انصرفوا على أن الأمير شيح لا يقابل السلطان أبدًا خوفًا من سوء ما اجترمه، وقبيح ما فعله، فأبى السلطان إلا أن ينزل إليه، وأعاد الأمير تغري بردى وفتح الله فقط، بعدما ألح تغري بردى على السلطان في سؤاله العفو، فأحلف الأمير شيخ، وأخذ منه الأمير كمشبغا الجمالي وأسنبغا، بعدما خلع عليهما، وأدلاهما بحبال من سور القلعة، ثم أرخى أيضًا ابنه ليبعث به إلى السلطان، فصاح الصغير وبكي من شدة خوفه، فرحمه من حضر، وما زالوا به حتى نشله. وتصايح الفريقان من أعلى القلعة، وفي جميع خيم العسكر. فرحًا وسرورًا بوقوع

الصلح. وذلك أن أهل القلعة كانوا قد أشفوا على الأخذ لقلة زادهم ومائهم، وخوفًا من حجارة المنجنيق، فإنها كانت تدمرهم تدميرًا، لو رمى بها عليهم.

وأما العسكر فإنهم كانوا طول إقامتهم يسرحون كل يوم، فينهبون القرى نهبًا قبيحًا، ويأخذون ما يجدونه من الغلال، والأغنام، وآلات النساء، ويعاقبون من ظفروا به حتى يطلعهم على ما عنده من علف الدواب وغيره، وفيهم من يتعرض للحريم فيأتون من القبائح بما يشنع ذكره، وهذا وهم في خصاصة من العيش، وقل من المأكل. وكادت بركة صرخد أن ينزح ماؤها. ومع ذلك فإن أصحاب السلطان معظمهم غير مناصح له، لا يريدون أن يظفر بالأمير شيخ خشية أن يتفرغ منه لهم. فلهذا حسن موقع الصلح من الطائفتين، وبات العسكر على رحيل، وأصبحوا يوم الأحد، فركب الأمير تغري بردى، وكاتب السر فتح الله، والأمير جمال الدين، ومعظم الأمراء، فصعدوا إلى قلعة صرخد، وجلسوا على شفير خندقها - وكنت معهم - فخرج الأمير شيخ وجلس بداخل باب القلعة، ووقف من معه على رأسه، ومن فوق السور. وأحلف فتح الله من بقي مع الأمير شيخ من الأمراء للسلطان، وهم جانم نائب حماة، وقرقماس ابن أخي دمرداش نائب صفد، وتمراز الأعور وأفرج الأمير شيخ عن يحيي بن لاقي وتجار دمشق، وغيرهم ممن كان مسجونًا معه، وبعث للسلطان تقدمة، فيها عدة مماليك، وتقرر الحال على مسير الأمير شيخ نائبًا بطرابلس، وأن يلبس التشريف السلطاني إذا رحل السلطان. فلما عادوا إلى السلطان رحل من صرخد، وقد رحل أكثر المماليك من الليل، فسار في قليل من ثقاته، وترك عدة من الأمراء على صرخد، وأفق فيهم خمسة وعشرين ألف دينار وستين ألف درهم فضة، خارجًا عن الغنم والشعير ونزل زرع، فبات بها.

شهر ربيع الآخر، أوله الثلاثاء:

فيه قدم السلطان دمشق قبيل الغروب، وقد جد في المسير، فنزل بدار السعادة، وأما الأمير شيخ فإنه نزل من قلعة صرخد بعد رحيل السلطان، ولبس تشريف نيابة طرابلس، وقبل الأرض على العادة، وعاد إلى القلعة، وجهز ابنه إلى الأمير تغري بردى، فرحل به من صرخد، ورحل معه سائر من تأخر من الأمراء السلطانية، وقدم الأمير جمال الدين الأستادار دمشق في يوم الخميس ثالثه. وفيه أفرج السلطان عن المسجونين، إلا ابني الكويز والصفدي.

وفي سادسه: قدم الأمير تغري بردى والأمير بكتمر جلق وبقية الأمراء.

وفي سابعه: قدم ابن الأمير شيخ - وعمره سبع سنين - فأكرمه السلطان، وخلع

عليه، وأعاده إلى أبيه، ومعه خيول وجمال وثياب ومال كبير. وفيه ولى السلطان بدمشق الشريف جماز بن هبة الله إمرة المدينة النبوية، وشرط عليه عادة ما أخذ من الحاصل وولى أيضًا جمال الدين محمد بن عبد الله الكازروني قضاء المدينة، وبعث لهما توقيعهما وتشريفهما. وأفردت خطابة المسجد النبوي لابن صالح.

وفي ثامنه: أعفي نجم الدين عمر بن حجي من قضاء طرابلس، وكتب بإحضاره.

وفي رابع عشره: توجه قضاة مصر من دمشق، وكثير من الأثقال، يريدون القاهرة، فنزلوا بداريا. ثم عاد القضاة من يومهم لعقد ابنة السلطان على الأمير بكتمر جلق نائب الشام.

وفي يوم الخميس سابع عشره: حمل بكتمر المهر وزفته المغاني حتى دخل دار السعادة. ثم عقد العقد بحضرة السلطان والأمراء والقضاة، فتولى السلطان العقد بنفسه، وقبله عن الأمير بكتمر الأمير الكبير تغري بردى.

وفي يوم الجمعة ثامن عشره: توجه القضاة سائرين إلى مصر. وفيه أعيد الصدر على بن الآدمي إلى قضاء الحنفية بدمشق. وعزل ابن الكشك. وصلى السلطان الجمعة بالجامع الأموي، وسار بعساكره، يريد مصر، فنزل الكسوة. وفيه استقر الأمير نكباي حاجب الحجاب بدمشق، عوضًا عن الهيدباني.

وفي تاسع عشره: استقر سودن الحلب في نيابة الكرك.

وفي ليلة الأحد: سار السلطان من الكسوة، وقد ولى غرس الدين خليل الأشقتمري حاجبًا بدمشق، ومتحدثًا في أستادارية السلطان بها، واستولى الأمير بكتمر جلق على دمشق، ونزل بدار السعادة على العادة.

وفي رابع عشرينه: نزل السلطان على الرملة، وسار منها يريد القدس، فقدمها. وبعث الأثقال إلى غزة، فزار، وتصدق بخمسة آلاف دينار وعشرين ألف فضة. وبات ليلة بالقدس. وسار من غده إلى الخليل، فبات به، وتوجه إلى غزة، فدخلها في سابع عشرينه، وأقام بها.

شهر جمادى الأولى، أوله الأربعاء: في ثانيه: شنق السلطان بغزة ثلاثة من مفسدي بلد الخليل، ورحل.

وفي ثالثه: قرئ بدمشق كتاب السلطان بأنه قد ولى الأمير شيخ نيابة طرابلس فإن قصد دمشق فدافعوه عنها وقاتلوه. وكان الأمير شيخ قد قصد دمشق، وكتب إلى الأمير بكتمر جلق بأنه يريد دخول دمشق، ليقضي بها أشغاله ويرحل إلى طرابلس،

فكثر تخيل السلطان من دخوله إليها. وفيه قدم من حلب إلى دمشق جمال الدين الحسفاوي، ومحب الدين محمد بن الشحقه الحنفي وأخوه، وقد طلبهم السلطان لينكل بهم، من أجل أنهم وافقوا الأمير جكم على السلطة، وأفتوه بذلك.

وفي سادسه: جمعت قضاة دمشق وقرر عليهم ما فرض على القرى الموقوفة من المغارم، كما فرض على بقية القرى.

وفي يوم الخميس تاسعه: نزل السلطان على غيفا خارج بلبيس، وقبض على الأمير جمال الدين الإستادار، وعلى ابنه الأمير شهاب الدين أحمد وعلى ابني أخته الأمير شهاب الدين أحمد وحمزة، وعامة حواشيه وأسبابه، وقيدوا. ومضى بهم الأمير الكبير تغري بردى إلى القاهرة. وسار السلطان فدخل قلعة الجبل في يوم السبت حادي عشره، وقد ختم على حواصل جمال الدين ودوره، وأحيط بها. وتقدم فتح الله كاتب السر لحفظ موجوده.

وفي ليلة الجمعة عاشره: نزل الأمير شيخ على شقحب، وكان الأمير بكتمر قد خرج إلى لقائه بعسكر دمشق. ونزل قبة يلبغا. وثم ركب ليلاً يريد كبس الأمير شيخ، فلقي كشافته عند خان ابن ذي النون، فواقعه فبلغ ذلك الخبر شيخًا، فركب وأتاه. فلم يثبت بكتمر، وانهزم وأتى الأمير شيخ فنزل بمن معه قبة يلبغا. ودخل بكرة يوم الجمعة إلى دمشق، ونزل بدار السعادة من غير ممانع، وقد تلقاه الناس، فاعتذر لهم بأنه لم يقصد سوي النزول في الميدان خارج دمشق، ليقضي أشغاله، وأنه كتب يستأذن الأمير بكتمر في ذلك، فأبى ثم خرج وقاتله، فانهزم بكتمر وأما بكتمر فإنه توجه نحو صفد، ومعه قريب مائة فارس، وتخلف العسكر عنه بدمشق.

وفي ثالث عشره: ولى الأمير شيخ شهاب الدين أحمد بن الشهيد نظر الجيش بدمشق. وولى شمس الدين محمد التباني نظر الجامع الأموي، وتغري برمش - استادار - نيابة بعلبك، وأياس الكركي نيابة القدس، ومنكلي بغا كاشف القبلية والشريف محمد ابن دغا محتسب دمشق.

وإلى يوم الثلاثاء رابع عشره: خلع علي تاج الدين عبد الرازق بن الهيصم ناظر الإسطبل، وكاتب المماليك. واستقر استادار السلطان، عوضًا عن الأمير جمال الدين، ولبس زي الأمراء - وهو القباء - وشد بوسطه السيف، وعمل على رأسه كلفتاه، وخلع على أخيه مجد الدين عبد الغني بن الهيصم، مستوفي الديوان المفرد، واستقر في نظر الخاص، وخلع على سعد الدين إبراهيم البشيري ناظر الدولة، واستقر في الوزارة. وخلع علي تقي الدين عبد الوهاب بن أبي شاكر، واستقر ناظر الديوان

المفرد على عادته، وأضيف إليه أستادارية الأملاك والأوقاف السلطانية، عوضًا عن الأمير شهاب الدين أحمد ابن أخت جمال الدين، وخلع على تاج الدين فضل الله بن الرملي، واستقر في نظر الدولة بمفرده، وخلع على حسام الدين حسين الأحول، واستقر أمير جاندار. وفيه ركب الأمير شيخ، ومعه عسكر دمشق بأجمعهم، يريدون صفد.

ولم يتأخر بدمشق سوى الأمير تمراز نائب السلطنة، والأمير علان.

وفيه كتب الأمير شيخ محضرًا بأنه كان متوجهًا إلى طرابلس، فلما وصل شقحب قصده بكتمر، وأراد أن يركب عليه، ويبدد شمله، فدفع عن نفسه. وشهد له فيه جماعة، وقصد تجهيزه إلى السلطان، فلم يجسر أحد على المضي به، فسار - وهو معه - حتى بلغ إلى المنية قريبًا من صفد وجد إمام الصخرة بالقدس، فبعثه به إلى القاهرة.

وفي ثامن عشره: سار سودن المحمدي من دمشق ليلحق الأمير شيخ. وكان الأمير شيخ لما قارب صفد جهز الأمير جانم والأمير قرقماش ابن أخي دمرداش، وسودن الجلب، وشاهين الدوادار إلى صفد، فطرقوها على غفلة فثار إليهم أهل القلعة ودفعوهم، فولوا راجعين.

وفي سابع عشرينه: قدم الأمير بكتمر جلق نائب الشام، ومعه الأمير برد بك نائب حماة، والأمير نكباي حاجب دمشق، والأمير ألطنبغا العثماني نائب صفد، والأمير يشبك الموساوي الأفقم نائب غزة، فخرج السلطان إلى لقائهم، ودخل من باب النصر، فشق القاهرة، وخرج من باب زويلة، ونزل بدار الأمير طوخ أمير مجلس يعوده في مرضه. وصعد إلى القلعة. وفيه خلع على شهاب الدين أحمد بن أوحد، واستقر في مشيخة خانكاه سرياقوس، عوضًا عن شمس الدين محمد القليوبي.

وفيه أحضر الأمير جمال الدين الأستادار محمولاً إلى بين يدي السلطان، لعجزه عن المشي من العقوبة. وكان قد عوقب بالعصر في رجليه، فأخرج عدة دخائر منها دخيرة في حادي عشره من حارة زويلة، وجدت مدفونة في التراب، ذهبًا صبيبًا من غير وعاء، زنته خمسة وخمسون ألف مثقال، غربلت من التراب، ووزنت بحضرة قضاة القضاة الأربع، ودخيرة أخرى في غده، وجد فيها تسع قفاف مملوءة ذهبًا، وحق فيه نفاش من الجوهر، ودخيرة ثالثة أخرجها ابنه أحمد بحضرة القضاة وكاتب السر من منزله، بلغت مائتي ألف دينار، واثنتين ألف دينار، عنها اثنان وعشرون قنطارا وخمس قنطار، حضروا بها القضاة وكاتب السر، ثم خبية أخرى من داره،

بلغت ستين ألفي دينار. ومن السلاح والقماء وسائر الأصناف شيئًا كثيرًا، فكان يحمل منه في كل يوم عدد كثير من الأحمال ثم عصر في ثاني عشرينه عصرًا شديدًا، وعصر ابنه بحضرته، فاعترف الابن بدخيرة وجد فيها أحد عشر ألف دينار، وثلاثمائة دينار، ولم يعترف جمال الدين بشيء، فأنزل بابني أخته شهاب الدين أحمد الحاجب وأخيه حمزة إلى بيت الأمير تاج الدين بن الهيصم الأستادار، فسلما إليه، فعاقب جماعة من أقارب جمال الدين وألزامه. فلما مثل جمال الدين بحضرة السلطان عنفه على ما كان منه فاعترف بالخطأ، وسأل العفو، وقبل الأرض، ثم أعاده إلى موضع حبسه من القلعة، وأمر بمعالجته حتى يبرأ.

وفي سابع عشريه: أيضًا قدم الأمير نوروز من عند التركمان إلى حلب، ومعه الأمير يشبك بن أزدمر وجماعة. فخرج الأمير دمرداش إلى لقائه، وبالغ في إكرامه، وأنزله. وقام له ولمن معه بما يليق بهم، وحلفهم للسلطان، وكتب يعلم السلطان بذلك، ويسأله أن يعيد الأمير نوروز إلى نيابة الشام، وأن يولي يشبك بن أزدمر طرابلس، ويولي ابن أخيه تغري بردى حماة.

شهر جمادى الآخرة، أوله الجمعة.

فيه توجه الأمير مقبل الرومي أحد أمراء الألوف إلى دمياط، ليركب البحر إلى الأمير نوروز، ومعه تشريف وتقليده نيابة الشام، ومبلغ خمسة عشر ألف دينار. وإنما ركب البحر لتعذر السلوك في البر إلى الشام.

وفيه وجد لجمال الدين بمدرسته بيت فيه سبعمائة قفة فلوس، فكان مبلغ ما وجد له تسعمائة ألف دينار وأربعة وستين ألف دينار.

وفي ثانيه: قدم إمام الصخرة، ومعه جندي بكتاب الأمير شيخ والمحضر، فغضب السلطان ووسط الجندي، وضرب الإمام ضربًا مبرحًا، وسجنه بخزانة شمايل.

وفي رابعه: أنزل بجمال الدين وابنه أحمد من قلعة الجبل على قفصي حمال، إلى بيت ابن الهيصم. وفيه قدم الأمير شيخ من سفره إلى دمشق، وقد وصل إلى غزة في طلب الأمير بكتمر، فلم يدركه، فولى في غزة سودن المحمدي، وفي الرملة جانبك، فقدم الخبر إلى دمشق بأن يشبك ابن أزدمر، وتغري بردى بن أخي دمرداش، بعثهما نوروز إلى حماة، ففر منها جانم، وكان قد بعثه الأمير شيخ إليها.

وفي سابعه: قبض السلطان على الأمير بلاط أحد أمراء الألوف، وعلى الأمير

كزل الحاجب، وبعثا مقيدين إلى الإسكندرية.

وفي ثامنه: بعث الأمير شيخ الأمير قرقماس ابن أخي دمرداش من دمشق على عسكر إلى طرابلس.

وفي تاسعه: أعيد شمس الدين محمد الطزويل إلى حسبة القاهرة، وعزل ابن شعبان، واستقر زين الدين حاجي في قضاء العسكر وعزل شمس الدين محمد البرقي الحنفي.

وفي حادي عشره: نقل جمال الدين الأستادار ليلاً من بيت ابن الهيصم في قفص حمال إلى بيت الأمير حسام الدين حسين الأحول، فعاقبه أشد العقوبة لإحن كانت في نفسه منه، ثم خنقه من الغد، وقطع رأسه، وحمله إلى السلطان حتى رآه، ثم أعاد الرأس، فدفن مع جثته.

وفيه استقر علاء الدين علي الحلبي قاضي غزة في مشيخة خانكاه بيبرس بالقاهرة، عوضًا عن شمس الدين محمد البيري قاضي حلب وأخي جمال الدين، واستقر نور الدين على التلواني في تدريس الشافعي، عوضًا عن أخي جمال الدين.

وفيه أحضر السلطان رجلاً يعرف بالشهاب أحمد بن الزعيفريني، وقطع يسيرًا من لسانه، وبعض عقد أصابع يده، من أجل أنه كتب ملحمة قيل أنها من نظمه، زعم أن الملك يصل إلى جمال الدين وإلى ابنه أحمد.

وفي رابع عشره: خلع على الأمير يلبغا الناصري، واستقر حاجب الحجاب عوضًا عن كزل العجمي.

وفي سابع عشره: قبض سنان نائب قلعة صفد على الأمير ألطنبغا العثماني، لممالأته الأمير شيخ. وقام الأمير علان بنيابة صفد من قبل الأمير شيخ. وفيه ولى الأمير شيخ صدر الدين علي بن الآدمي نظر الجيش بدمشق، وولي محب الدين محمد بن الشحنة الحلبي قضاء الحنفية بدمشق.

وفي حادي عشرينه: ولي الأمير شيخ الشهاب أحمد بن الحسباني خطابة الجامع الأموي، وعزل الباعوني، ثم أعاده من الغد، وخطب، ثم قسم الخطابة بعد صلاة الجمعة بينه وبين الحسباني. ثم في عصر يومه ولي الحسباني قضاء الشافعية بدمشق، وعزل الباعوني.

وفي رابع عشرينه: خرج الأمير شيخ من دمشق، يريد حماة.

وفي ثامن عشرينه: وصل الأمير يشبك الموساوي من مصر إلى رفح، فلقيت

كشافته كشافه سودن المحمدي فكسروهم، ففر المحمدي من غزة، ودخلها الموساوي من يومه نائبًا بها، بعدما نهب المحمدي شيئًا كثيرًا من غزة فتبعه يشبك، ومن قدم معه من مصر، وهم الأمير قانبك رأس نوبة، والأمير فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج كاشف الشرقية، والأمير حسين بن قطايا وعدة من المماليك السلطانية، فلحق بجهة الكرك، وقدم خبر ذلك إلى دمشق، فانزعج الشيخية انزعاجًا شديدًا.

وفي هذا الشهر: كانت فتنة بين الأمير علان وأهل صفد، هزموه فيها، لما بلغهم من قدوم عسكر السلطان مع الموساوي إلى غزة، فقدم دمشق في سابعه. وفيه تقرر الصلح بين الأمير نوروز والأمير شيخ، فدقت البشائر بدمشق عدة أيام. وفيه قدم شرف الدين يعقوب بن الجلال التباني الحنفي إلى دمشق، فارًا من السلطان في أوائله. وفيه سار أبو شوشة صديق التركمان من صفد بطائفة، وكبس حولة بانياس، ففر من كان بها من جهة الأمير شيخ، ولحقوا بدمشق.

وفي سادس عشرينه: نودي في دمشق بالتأهيب للخروج مع الأمير سودن بقجة، ليشر إلى صفد، فإنه استقر في نيابتها من جهة الأمير شيخ، وكان قد وصل الأمير شاهين الزردكاش إلى صفد من قبل السلطان نائبًا بها، وولي أيضًا جانبك دوادار الحمزاوي نيابة غزة، وشاهين الحلبي كاشف الرملة، ووعدهم أن يسيرهم جميعًا إلى محل ولاياتهم في عيد الفطر.

وفي هذا الشهر: كتب الأمير شيخ كتابًا إلى السلطان يخادعه فيه، من مضمونه أنه لما عفي السلطان عنه بصرخد امتنع من الحلف الأمير بكتمر جلق، والصلح معه. ثم توجه بعد رحيل السلطان، وصحبته الأمير سودن الأسندمري متسفره، حتى بلغ عجلون أعاده السلطان ليعود إليه بما يرسم به، فلما تأخر حضوره توجه إلى محل كفالته، فبلغه أن الأمير بكتمر جمع عليه ثم أنه كبسه على شقحب، فكان من أمره ما كان. ثم توجه إلى عزة وجهز قصاده بمطالعته، تتضمن صورة ما اتفق، فلم يصل إليه الجواب، وأن ذلك بوساطة من قصده إبعاده عن خاطر السلطان، ثم بلغه أن الأمير نوروز حضر إلى حماه وتطرق إلى حمص وأعمالها، وشن الغارات بها، وأظهر الفساد ونهب، فما وسعه سوى المبادرة إليه ليردعه، وتعب البلاد والعباد مما حل بهم، فلما قربه تحصن بمدينة حماة، فنازله وضايقه، وحاصره مدة، إلى أن حضر إليه الأمير دمرداش نائب حلب بعسكرها، وطوائف التركمان والعرب، وخرج إليه فقاتله وكسره، وقتل منه جماعة. فلما أن أدركه شهر رمضان رفع القتال تعظيمًا لحرمته، ونزل بحمص ليصوم بها، فبلغه أن سودان المحمدي كاتب نوروز ووعده

أن يأخذ له دمشق فبادر وجهز فرقة ليسير بها إليه خوفًا على المسلمين، فوافوه وقد قدم بالعشير والتركمان، فكسروه، وأخذوا غالب جماعته، وجميع ما كان معه، ثم أخذ بعد هذه الأخبار يذكر أنه تاب وأناب، ورجع إلى طاعة السلطان. ثم أخذ يغري نوروز، وأنه يريد الملك لنفسه، ولا يطيع أبدًا، وأنه هو لا يريد إلا الانتماء إلى السلطان فقط، ورغبته في عمل مصالح العباد والبلاد، وسأل العفو والصفح عنه، فلم يمش هذا على السلطان.

شهر شوال، أوله الخميس: في ثالثه: قدم قاضي القضاة شمس الدين محمد الأخنادي إلى صفد، فارًا من الشيخية بدمشق، فأكرمه الأمير شاهين الزردكاش، وأنزله ثم بعث الأخناي كتبا يخبر فيه السلطان بما جرى له، ويغريه بالأمير شيخ، وأنه خارج عن طاعته، ويحثه فيه على سرعة الحركة إلى الشام.

في ثامنه: خرج من دمشق عسكر، عليه شاهين الدوادار، وخرج من غده عسكر آخر عليه الأمير سودن بقجة، والأمير ألطنبغا القرمشي الحاجب، فساروا إلى سعسع وأقاموا بها، وقد جمع الأمير شاهين نائب صفد العشير، واستعد لهم، وكان تغري برمش نائب بعلبك قد جمع منها أموالاً جزيلة، بأنواع الظلم على عادته، ثم فر بها، وقدم صفد مفارقا للأمير شيخ، ثم سار إلى السلطان.

وفي يوم السبت عاشره: وكتب السلطان من قلعة الجبل وعدى النيل إلى بر الجيزة، ونزل بناحية أوسيم عند مرابط خيوله على البرسيم الخضر ليتصيد ويتنزه.

وفي ثالث عشره: أعاد السلطان ابن شعبان إلى الحسبة وعزل الهوى بم ثم عدي النيل في يوم الخميس ثالث عشرينه، وركب يريد القلعة، حتى وصل قريبًا من قناطر السباع عند الميدان، أمر بالقبض على الأمير قردم الخازندار، والأمير أينال المحمدي الساقي، فقبض في الطريق على قردم.

وأما أينال فإنه شهر سيفه، وساق فرسه، ومضى فلم يلحقه غير الأمير قجق أدركه وضربه على يده ضربة جرحه جرحًا بالغًا، وفاته، فلم يقدر عليه، وصعد السلطان إلى القلعة سالمًا. وسبب ذلك أنه بلغه عنهما أنهما يريدان إثارة فتنة. وقام بعض المماليك فحاققهما أنهما يكاتبان الأمير شيخ، فنودي على الأمير أينال بالقاهرة، عدة أيام، فلم يعرف خبره،. وحمل قردم إلى الإسكندرية، فسجن بها، ورتب له في كل يوم مبلغ خمسمائة درهم من الفلوس. ولم يؤخذ له خيل ولا قماش، ولا غير ذلك.

وفي ثالث عشره: نزل على صفد عسكر دمشق، وفيه شاهين الدوادار، وقرقماش

ابن أخي دمرداش وسودن بقجة، وألطنبغا القرمشي، وخليل الجشاري، وحسن بن قاسم بن متيرك مقدم عرب حارثة، وأبو بكر بن مشاق شيخ جبل نابلس، في جمع كثير من العشير والتركمان، فخرج إليهم الأمير شاهين وقاتلهم يومه، وباتوا متحاربين، وعدوا على حربهم، فاقتتلوا يومهم بطوله قتالاً شديدًا، جرح فيهم شاهين بوجهه ويده، وكاد يؤخذ لولا أنه فر، فتبعه قرقماش وبقية العسكر، وقد جرح أكثرهم، ونهب لهم شيء كثير، وقتل بين الفريقين جماعة، وأسر من أهل صفد أسندمر كاشف الرملة، فنزل الشيخية قريبًا من صفد، ومنعوا الميرة أن تصل إليها، وبعثوا بأسندمر إلى الأمير شيخ، وسألوه في نجدة، فعين لهم أقبردي المنقار بمائة وخمسين فارسًا، وأردفه بيشبك الأيتمشي، وبنائب بعلبك.

وفي خامس عشره: قدم إلى صفد الأمير يشبك الموساوي نائب عزة من قبل السلطان. وقدم أيضًا سودن اليوسفي، وبردبك من أصحاب نوروز.

ثم سار قرقماش ابن أخي دمرداش عن صفد، وقدم على الأمير شيخ بحمص، مسيره إلى دمشق، فقدمها في ثاني عشرينه، ومعه مائة فارس لتجهيز الآلات لقتال صفد، وقد حصنت قلعة دمشق، ونصب عليها المنجنيق خوفًا من قدوم الأمير نوروز إليها.

وفيه قدم أيضًا إلى دمشق ناصر الدين محمد بن خطب نقيرين، وقد ولاه الأمير شيخ قضاءها. وعزل الشهاب الحسباني. وقدم شرف الدين يعقوب بن التباني وقد ولاه أيضًا مشيخة السميساطية، وعزل الباعوني عنها.

وفي خامس عشرينه: ركب الشيخية بأجمعهم على صفد، وقد أتاهم من العشران وغيرهم طوائف، فافترقوا عن المدينة ثلاث فرق، وزحفوا عدة زحوف، فكان قتالاً شديدًا من بكرة النهار إلى الظهر، فانكسر قرقماس، وجرح، وقتل عدة من أصحابه، فانهزم البقية، وتبعهم الصفديون، ونهبوا وطاقهم، وعدة دواب لهم وخرج من الغد الأمير بردبك السيفي نوروز من صفد بعسكر إلى حولة بانياس، ومعه الأمير مهنا ابن الغزاوي بقومه، وقد أبلى في أمه على صفد بلاء كثيرًا، وقتل ولده الأكبر، وعورت عين ابنه الآخر، وأصيبت رجل ابنه الثالث. وتوجه معه أيضًا فضل بن غنام بن زامل من آل مهنا. وكانت له أيضًا في الوقعة آثار مشهورة. وتوجه أيضًا محمد بن هيازع، فعاثوا في تلك النواحي.

وفيه سار يشبك الموساوي من صفد عائدًا إلى غزة، وعاد أولاد ابن بشارة أيضًا بعشيرهم إلى بلدانهم، فكانت وقعة صفد هذه من الحروب المذكورة، قل من سلم فيها

من عسكر صفد، فكانوا بين قتيل وجريح، وتلفت خيول كثيرة، وأقام الشيخية بأراضي الحول هوهم بأسوأ حال، فاشتد الأمر بدمشق، وطلب سودن بقجة نائب شيخ من تجارها وأعيانها الأموال والخيول، وجبى من الجناد ومن الطواحين عدة خيول، واستجد بها عسكرًا. هذا والأمير شيخ بحمص، حاصر الأمير نوروز بحماة.

وفيه قدم على الأمير شيخ كتاب قرا يوسف، بأنه قد ملك عراق العجم وديار بكر وماردين، وأنه سلطن ابنه محمد شاه، ونزل في الموصل، وقصده الحضور إلى الشام نجدة له لاستمراره على ما بينه وبينه من العهود والمودة. فجمع الأمير شيخ الأمراء واستشارهم، فما منهم إلا من أشار بحضور قرا يوسف إلا الأمير تمراز الناصري نائب السلطة، فإنه أنكر ذلك وخوفهم عاقبة قدومه، وأشار بتأخير جوابه حتى يعلم السلطان بذلك، ويراجع في أمر الأمير شيخ ومن معه، ثم يعمل بمقتضى جوابه عن ذلك، فوافقوه على هذا، وكتبوا إلى السلطان يخوفوه من قدوم قرا يوسف إلى بلاد الشام أن يتطرق منها إلى مصر، وسألوه حسن النظر للأمراء، بما فيه مصلحة العباد والبلاد.

وفي سابع عشرينه: استقر شمس الدين محمد بن علي بن معبد المدني في قضاء القضاة المالكية بديار مصر، وعزل جمال الدين يوسف البساطي. وفيه أنعم على سودن الأشقر رأس نوبة بتقدمة ألف بديار مصر.

شهر ذي القعدة، أوله السبت: فيه سارت نجدة من دمشق إلى من في الحولة من الشيخية، فمضوا إلى بيسان وكبسوا محمد بن هيازع أمير عرب بني مهدي في خامه، وأخذوا ما كان معه، وتوجهوا إلى صفد، فكانت بينهم وبين الأمير شاهين وقعة جرح فيها جماعة.

وفي عاشره: قبض على الأمير أينال المحمدي الساقي أمير سلاح في بعض حارات القاهرة، فأخرج إلى الإسكندرية في يومه. وفيه استقر أقتم أحد المماليك الظاهرية في ولاية القاهرة، وعزل ابن الطلاوي. واستمر حسام الدين حسين الأحول أمير جاندار في شد الدواوين، وعزل آدم البريدي، وكان ظالمًا فاجرًا، وقبض عليه، وعوقب.

وفي آخره: أضيفت ولاية القاهرة إلى الحسام حسين الأحول.

شهر ذي الحجة، أوله الأحد: في ثانيه: قدم كتاب الأمير شيخ من الوطاق إلى دمشق، بأن الشيخ أبا بكر بن تبع وصل إليه رسولاً من رسول الله عن منام رآه

شخص، فيه أن النبي يقول لـه: " قل لشيخ أن لم يرجع عما هو فيه وإلا هلك ومن معه ". فقال: " يا رسول ا لله أخاف ألا يصدقني ".

فقال: " قل لابن تبع: يذهب إليه ". فقال: " ما يصدقه ". فذكر لـه علامـة من تحويط نفسه عند النوم بذكر ذكره. متوجه هو وابن تبع إليه فقص عليه المنام، مصدق العلامة، وكتب إلى دمشق برفع المظالم، وأنه قد رجع وأناب إلى الله تعالى، وسأل الدعاء له بالتوفيق والسداد. فقرئ الكتاب في الجامع الأموي بحضرة القضاة والأعيان والعامة. ونادى الأمير سودن بقجة نائب الغيبة برفع المظالم، فلم يرفع شيء منها، بل قدم تاج الدين محمد بن الشهاب أحمد الحسباني من الوطاق بحمص إلى دمشق، وقد ولاه الأمير شيخ حسبة دمشق ووكالة بيت المال وقضاء العسكر، وإفتاء دار العدل، على أن يقوم له بألف دينار، كتب بها خطه، حتى بيها من وجوه المظالم. وقدم أيضًا الطواشي مرجان الهندي الخازندار بالكشف عن أوقات الصدقات ومحاسبة المباشرين عليها.

وفي سادسه: سار من دمشق شاهين الدوادار على عسكر، وسار جقمق الدوادار من الغد إلى البقاع.

وفي ليله الاثنين تاسعه: قتل سنان نائب قلعة صفد، بحيلة دبرت عليه.

وأما الأميران شيخ ونوروز، فإنه لما كان في أول هذا الشهر اجتمع على الأمير شيخ جمع كبير من عسكره، ومن طائفة التركمان البازية والأشرية، والكبكية، والذكرية، والأسقية، والبزقية. وقدم عليه الأمير شهاب الدين أحمد بن رمضان، ونزل العمق، فسار الأمير شيخ من حمص إلى وادي الخزاندار، واجتمع بأمير الملا العجل بن نعير وأخذه معه، وقد قدم ببيوته وبوشه، ونزل بظاهر حماة في يوم الخميس ثاني عشره، وخيم بظاهرها. هذا وقد اجتمع عند الأمير نوروز ودمرداش بحماة طائفة التركمان الأوشرية والبياضية، وقدم على ابن دلغادر، ونزل قريبًا من العمق ببيوته، فاقتتل أصحاب شيخ ونوروز قتالاً يسيرًا، وأصبح الأمير شيخ في يوم الجمعة على ألا يقاتل، فما أحس وقت صلاة الجمعة، إلا ونوروز قد خرج من مدينة حماة - هو ودمرداش بعساكرهما، مركب حينئذ واقتلوا إلى قريب العصر فخامر على نوروز طائفة التركمان الأوشرية، فانهزم وعبر المدينة - هو ودمرداش - وقد أخذ الأمير شيخ سودن الجلب وجان بك القرمي وشاهين الأياسي وسودن أمير أخور، ونوروز، وبيازير، وجماعة. وغرق بوزجا أمير التركمان البياضية في نهر العاصي، وغرق أسطاي أخو يونس، وجماعة كثيرة، وتسحب منهم جماعة، وغنم

الأمير شيخ نحو ألف فرس. وتفرق أكثر التركمان والعربان عن نوروز، ولحق بالأمير شيخ منهم جماعات. ونزل بالميدان خارج حماة ومعه العجل، وأقاما يومي السبت والأحد بغير قتال، فلما كان ليلة الاثنين صلع تمربغا المشطوب وسودن المحمدي وتمراز نائب حماة، وكبسوا العجل ليلاً، فاقتتلوا إلى قريب الفجر وأخذوا مواشي كثيرة، فركب الأمير شيخ نجدة للعجل، فخرج نوروز ونهب وطاقه وعاد إلى حماة، فنزل الأمير شيخ بكرة يوم الاثنين قريبًا من شيزر، ونزل العجل بطرف البر، وقد كملت مدة الحرب سبعة أشهر. وكتب الأمير شيخ إلى دمشق بكسرة نوروز، فدقت البشائر بها وزينت، وكتب دمرداش إلى السلطان يطلب منه نجدة، ويحثه على سرعة المسير إلى الشام، ويخوفه عاقبة تأخره لخروج البلاد من يده.

وفي تاسع عشره: وصلت كشافة برد بك السيفي إلى عقبة شحورا ظاهر دمشق، ونزل هو بشقحب، وتأهب أهل قلعة دمشق لحربه.

وفي عشرينه: وصل إلى دمشق الأمراء المأخوذون من أصحاب نوروز، وهم سودن الجلب، وكشكنا، وجان بك القرمي، ونحو خمسين مملوكًا، ما بين ماش وراكب حمار، فسجنوا بقلعة دمشق. وفيه خرج عسكر من دمشق مع سودن بقجة وألطنبغا القرمشي، فاقتتلوا مع برد بك، فانكسر جاليش بقجة، فركب ومال على تركمان برد بك وكسرهم، وحمل بمن معه على برد بك هزمه على خان ابن ذي النون، فمر إلى صفد، ونهب ما كان معه، ومضى سودن بقجة وألطنبغا القرمشي، والأجرود نائب بعلبك وأينال المنقار بجمع كبير من العشير والتركمان والعرب يريدون غزة، فاشتد الأمر على نوروز من طول الحصار، ومنع الميرة، وفرار أكثر التركمان عنه، بحيث لم يبق عنده غير كردي باك، وابن دلغادر، وانضم ابن رمضان وابن صاحب الباز إلى الأمير شيخ. وأخذت له إنطاكية، فكثر جمعه، وجهز شاهين الدوادار، وأيدغمش من كبك، إلى حلب، ولم يبق بيد السلطان من البلاد الشامية غير غزة وصفد، ومعه بردبك السيفي، ونوروز بحماة وهو محصور، فلما تزايد الضيق على نوروز ودمرداش، استدعيا أعيان مدينة حماة.

وما زالا بهم حتى كتبوا إلى العجل بن نعير بأن نوروز فر من حماة، ولم يبق بها إلا دمرداش، وسألوه أن يأخذ لهم الأمان من الأمير شيخ، فمشى ذلك على العجل، وركب إلى الأمير شيخ، وأعلمه بذلك، فبعث فرقة من مماليكه ومن عرب العجل بسلالم تسوروا منها على السور، وتركوا خيولهم بباب الجسر، ونزلوا المدينة، فأخرج النوروزية خيولهم وركبوا عليهم وقتلوهم جميعًا، إلا رجلين من أمراء

العجل، وعلقوا الرءوس على السور، وألزم أمير العجل حتى كتب إليه بأن الصلح قد انعقد بين نوروز وشيخ على أن يمسك نوروز دمرداش يسلمه لشيخ، ويمسك شيخ يسلمه لنوروز، فلم يكذب العجل ذلك، وركب لوقته وسار يريد البر، فركب الأمير شيخ في إثره ليرده، فخرج نوروز ودمرداش بمن معهما، ونهبوا وطاقه وخيله، فبلغه ذلك، فعاد إلى حمص، ثم سار عنها إلى القريتين وكتب إلى سودن بقجة أن يبعث الأمراء النوروزية والمماليك إلى قلعة المرقب، وكتب يطلب الصلح من نوروز فأبى عليه، وخرجت السنة وهم على ذلك والسلطان متحرك للسفر إليهما.

ومات في هذه السنة ممن له ذكر جماعة منهم: نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر التستري البغدادي مدرس المدرسة الظاهرية برقوق للحنابلة، في حادي عشرين صفر. ومولده ببغداد في حدود الثلاثين وسبعمائة، وله مصنفات ونظم ونثر.

ومات الأمير جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن قاسم البيري الحلبي. قتل في ليلة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة، بعدما حكم إقليمي مصر والشام، ولم يفته من السلطة إلا الاسم، وقد بسطت ترجمته في التاريخ الكبير المقفي، وفي كتاب درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة هو وكل من له وفاة في هذا الجزء، ويستحق بها أن يذكر، إما بشهرته أو بفضيلته.

ومات الأمير أقباي الكبير الطرنطاي رأس نوبة الأمراء، في ليلة الأربعاء سابع عشرين جمادى الآخرة، ونزل السلطان إلى داره، ثم تقدم راكبا إلى المصلى فصلى عليه، وشهد دفنه. وترك من العين أربعين ألف دينار مصرية واثني عشر ألف دينار مشخصة، ومن الغلال والخيول والجمال وغير ذلك شيئًا كثيرًا، فأخذ السلطان الجميع، ولم يترك لأولاده شيئًا، وكان عسوفًا، شرهًا في جمع المال، بخيلاً.

ومات الأمير طوخ الخازندار، في آخر جمادى الآخرة.

ومات الأمير بلاط، أحد المقدمين، مقتولاً بين الإسكندرية ودمياط.

ومات شمس الدين محمد بن عبد الله، أبي بكر القليوبي، شيخ خانكاه سرياقوس، بها في يوم الخميس ثاني عشرين جمادى الأولى، وكان من فضلاء الشافعية، متواضعًا، دينًا.

وقتل الأمير الشريف جماز بن هبة الله بن جاز بن منصور الحسيني، أمير المدينة النبوية، في جمادى الآخرة، بالفلاة، وهو في عشر الستين.

وولي إمارة المدينة ثلاث مرات، آخرها في سنة خمس وثمانمائة، واستمر إلى

صفر سنة إحدى عشرة، وما خرج حتى نهب ما في القبة من حاصل الحرم النبوي.

ومات الشريف أحمد بن ثقبة بن رميثة بن أبي نمى الحسني بمكة، في المحرم، وقد أناف على الستين، وكان الشريف عنان بن مغامس في ولايته الأولى على مكة أشركه معه في ولايتها وهو مكحول، وكان ابن أخته الشريف محمد بن أحمد بن عجلان، وكبيش بن عجلان قد خافا منه، فكحلاه، وقتل ابن أخته بعد ثلاثة أشهر، وكبيش بعد ستة أشهر من كحله.

ومات محمد بن أميرزه، الشيخ عمر بن الطاغية تيمورلنك، في المحرم، مقتولاً، على يد بعض خواصه، وكان مشكور السيرة، وقام من بعده بمملكة جغطاي أخوه اسكندر شاه بن أمير زه شيخ عمر بن تيمورلنك.

* * *

سنة ثلاث عشرة وثمانمائة

أهلت والخليفة المستعين بالله أبو الفضل العباسي بن محمد، والسلطان الملك الناصر فرج بن برقوق، ونائب الشام الأمير نوروز، ولم يتمكن من المباشرة بل هو محصور بحماة، والأمير شيخ وجماعته يحيطون به، ونائب حلب الأمير دمرداش، وهو بحماة مع نوروز، وعنده أيضًا نائبي حماة وطرابلس، ونائب صفد الأمير شاهين الزردكاش، ونائب غزة الأمير يشبك الموساوي الأفقم.

والذهب في القاهرة بمائة وثمانين المثقال، وبمائة وستين الدينار المشخص، والأردب القمح بمائتي درهم، وقد هافت الزروع، إلا قليلاً، بسبب ريح هبت، سيما الشعير فإنه كاد يهيف كله، والفلوس كل رطل منها بستة دراهم، تسمية لا معنى لها، والفضة إن وجدت فكل درهم نقرة خالص باثني عشر درهمًا ممن الفلوس التي زنتها رطلان. وكل درهم كاملي بستة وسبعة دراهم من الفلوس.

شهر المحرم، أوله الثلاثاء: في ثالثه: قدم الأمير شاهين، دوادار الأمير شيخ، إلى حلب، على عسكر، فقاتله أهلها من أعلى السور، فلم يزل حتى أصعد جماعة من عسكره فوق السور بسلالم قد أحضرها معه، فأخذوا له المدينة في خامسه، وامتنع من كان يقاتله بالقلعة.

وفي عاشره: خلع السلطان على الأمير قراجا شاد الشراب خاناه، وجعله دوادارًا كبيرًا، عوضًا عن الأمير قجاجق بعد موته، وخلع على سودن الأشقر، واستقر شاد

الشراب خاناه.

وفيه كانت وليمة الأمير بكتمر جلق، وزفت عليه ابنة السلطان ليلاً، فبني عليها ليلة الجمعة حادي عشره.

وفي ليلة السبت ثاني عشره: أخرج من قلعة دمشق سودن الجلب، ومن معه من المسجونين، وتوجه بهم الأمير ألطنبغا القرمشي إلى قلعة المرقب، فسجنهم بها، وعاد إلى دمشق.

وفي ليلة الاثنين حادي عشرينه: اجتمع رجلان بصالحية دمشق، أحدهما تراس والآخر قيم حمام، وشربا الخمر، فأصبحا محرقين، ولم يكن عندهما نار، ولا وجد أثر الحريق في غير يديهما، وبعض ثيابهما. وقد مات أحدهما، وفي الآخر رمق، فأقبل الناس أفواجًا أفواجًا لرؤيتهما، والاعتبار بحالهما.

وفي هذا الشهر: فشا الطاعون ببلاد الشام، فعم طرابلس وحوران وبالس ودمشق، ووقع جراد بالرملة والساحل. وفيه توجه السلطان أحمد بن أويس من بغداد إلى توريز، ليأخذها من قرا يوسف، وقد سار عنها إلى أرزنكان.

شهر صفر، أوله الأربعاء.

في ثانيه: قدم الأمير ألطنبغا القرمشي من قلعة المرقب إلى دمشق، بعدما مر على الأمير شيخ وعمله نائب الغيبة بدمشق، وأذن لسودن بقجة أن يخرج ويسير من دمشق للدورة لأخذ مال يرتفق به.

وفي يوم الخميس ثالث عشرينه: خرج الأمير بكتمر الناصري جلق الأتابك وخيم بالريدانية ظاهر القاهرة، ليشير جاليش العسكر إلى الشام، ومعه الأمير طوغان الحسني رأس نوبة النوب، والأمير سنقر الرومي، والأمير يلبغا الناصري حاجب الحجاب، والأمير خاير بك، والأمير ألطنبغا العثماني، والأمير شاهين الفرم رأس نوبة، وعدة من أمراء الطبلخاناه، وغيرهم.

وفيه نودي بالقاهرة أن تكون الفلوس باثني عشر درهمًا الرطل، وكانت بستة دراهم الرطل، وقد بلغ المثقال الذهب إلى مائتين، والدينار المشخص إلى مائة وثمانين، فغلقت الأسواق، وتعطلت أسباب الناس، فنودي بذلك في يوم الجمعة، وهدد من خالف، فاشتد الأمر، وفقد الخبز وغيره من المأكل، فلم يقدر على شيء منها، فغضب السلطان، وهم أن يركب بنفسه بعد صلاة الجمعة، ويضع السيف في العامة، فما زال الأمراء به حتى كف عن الركوب. وبات الناس في كربة. وأصبحوا يوم

السبت خامس عشرينه، فسأل الأمراء السلطان في أمر سعر الفلوس، وما زالوا به حتى رسم - بعد جهد - أن يكون الرطل بتسعة، فنودي بذلك في القاهرة، فسكن الحال قليلاً، وظهرت المآكل، ثم نودي في يوم الاثنين سابع عشرينه أن تكون الفلوس بستة دراهم الرطل، كما كانت، ففتحت الأسواق، وعاد الأمر كما كان أولاً. وكان لهذا الحادث سبب، وهو أن السلطان اشترى نعالاً للخيل، وسك حديدًا لأجل السفر، فحسب ثمنها كل رطل باثني عشر، فقال: هذا غبن أن يكون الحديد الأسود باثني عشر درهمًا الرطل، والنحاس المصفى المسكوك - وهو الفلوس - كل رطل بستة دراهم، ووجد عنده عشرة آلاف قفة من الفلوس، زنة كل قفة مائة رطل، عنها ستمائة درهم، قد حملت إلى القلعة لتنفق في المماليك عند السفر إلى الشام، فأراد أن يجعل الرطل الفلوس بخمسة عشر ليعطي القفة الفلوس التي حسبت عليه بستمائة في النفقة بألف وخمسمائة، وتخيل في ذلك ربحًا عظيمًا إلى الغاية، وخشي ألا يتمشى له هذا، فرسم أن تكون الرطل باثني عشر درهمًا، ثم وجع عنه إلى تسعة، ثم إلى ستة. وسبب رجوعه تنمر المماليك عليه، ليفطنهم بما أراده من الفائدة عليهم، وحدثوه غير مرة فلم يجد بدًا من عود الأمر إلى حاله، خشية نفورهم عنه وقت حاجته إليهم.

وفي سابع عشرينه: رحل الأمر بكتمر من الريدانية بمن معه يريد الشام.

وفي يوم الخميس سلخه: عمل السلطان المولد النبوي ليلاً، بعمارته التي أنشأها في الحوش من قلعة الجبل، على عادته، وحضر القضاة، فجلسوا صفًا عن يساره، وجلس عن يمينه الشيخ إبراهيم بن زقاعة، والشيخ نصر الله الجلالي، ومشايخ العلم، ومدت الأسمطة، وفرقت الخلع.

شهر وبيع الأول، أوله الجمعة: وفي يوم الاثنين رابعه: ركب السلطان من قلعة الجلبل إلى الريدانية بعساكره، فنزل بمخيمه، وبات به، ثم عاد من الغد إلى التربة التي أنشأها على قبر أبيه، خارج باب النصر، في سفح الجبل، وقرر في مشيختها صدر الدين أحمد بن جمال الدين محمود العجمي، ورتب عنده أربعين صوفيًا، وأجرى عليهم الخبز واللحم الضأن المطبوخ أنواعًا في كل يوم، مع المعاليم في كل شهر.

وفي سادسه: أخذ ما في الطواحين والمعاصر من الخيل والبغال، وسيرت إلى العسكر، فتضرر الناس بالقاهرة من ذلك.

وفيه تقرر الصلح بين الأمير شيخ والأمير نوروز، بعدما اشتد الأمر بحماة، وقلت العلوفات منها، حتى أخذت حصر الجامع، وقدمت للخيل، فأكلتها من الجوع.

وحلف كل منهما لصاحبه بموافقته، وما ذاك عن حب ولا رغبة سوى الخوف من السلطان أن يظفر بأحدهما فيتطرق إلى أخذ الآخر. فلما تم صلحهما عزما على أخذ دمرداش نائب حلب، وابن أخيه قرقماش. فلما أحسا بذلك، فر دمرداش من حماة، ولحق بالعجل بن نعير، ثم سار إلى السلطان، فقدم عليه. وسار ابن أخيه إلى إنطاكية. وتوجه نوروز إلى حلب، فدخلها في عاشره، وتسلم قلعتها من بيتحار مملوك دمرداش، وفر الأمير مقبل الرومي، ولحق بالسلطان وهو على غزة، وعاد الأمير شيخ إلى دمشق، فقدمها في ثامن عشره، ومعه الأمير يشبك بن أزدمر، وسودن الجلب، وقد أفرج عنه وعن أصحابه من سجنهم بقلعة المرقب، وترك خامه على قبة يلبغا - خارج دمشق - وأشاع أنه يسير إلى غزة، ونزل بدار السعادة.

وأظهر بدمشق، ونوروز بحلب، الخروج عن طاعة السلطان، وأعلنا بذلك. وصارا يكتبان في كتبهما ومراسيمهما بدل الملكي الناصري ما مثاله الملك لله فظهر ما كان خافيًا، وانكشف ما كان خافيًا، وانكشف ما كان من سنين مستورًا.

وفي يوم السبت تاسعه: استقل السلطان بالمسير من الريدانية يريد الشام، ومعه من الأمراء الألوف تغري بردى الأتابك، وقنباي، وقجق العيساوي، وسودن الأسندمري، وسودن من عبد الرحمن، وسودن الأشقر، وكمشبغا المزوق، وبرد بك لخازندار، وعدة من أمراء الطبلخاناه، والعشرات، والمماليك، والخليفة، والقضاة، وأرباب الوظائف. وجعل نائب الغيبة الأمير أرغون، وأنزله بباب السلسلة، وجعل بقلعة الجبل الأمير كمشبغا الجمالي نائب القلعة، وجعل بظاهر القاهرة الأمير أينال الصصلاني الحاجب الثاني، وأنفق في هذه الحركة مالاً عظيمًا، فأعطى كل مملوك عشرين ألف درهم من الفلوس، وأعطى الأمير تغري بردى والأمير بكتمر جلق ثلاثة آلاف دينار لكل منهما، ولكل من المقدمين ألفين ألفين، ولكل من أمراء الطبلخاناه خمسمائة دينار، ولمن دونهم ثلاثمائة دينار، ولمن دونهم مائتي دينار. وأعطى لقاضي القضاة مجد الدين سالم الحنبلي مائة دينار. ولم يعط غيره من القضاة.

وفي ليلة الاثنين خامس عشرينه: توجه الأمير شيخ من دمشق، وأوقع بالعربان، وأخذ لهم جمالاً وأغنامًا كثيرة، فرقها في أصحابه، وعاد، فكثر عنده الإرجاف بمسير السلطان، فلم يثبت للقائه، وخرج من دمشق يوم الثلاثاء سادس عشرينه، ومعه العسكر، وتبعه جانم نائب حماة، فلم يشعر الناس بدمشق في يوم الأربعاء سابع عشرينه إلا والأمير بكتمر جلق قد قدم بعد الظهر على حين غفلة، فأدرك أعقاب

الأمير شيخ، وأخذ منه جماعة.

وفيه وصل قرا يوسف إلى توريز وقد جمع أحمد بن أويس قدر ستين ألف فارس، فيهم ابن الشيخ إبراهيم بن الدربندي، وأمراء البلاد، فاقتتلا قتالاً عظيمًا في يوم الجمعة ثامن عشرينه، فانكسرت عساكر ابن أويس، وقتل هو وولده سلطان علي، في ليلة الأحد آخره، وقتل أيضًا كثير من الأمراء، وأسر ابن الشيخ إبراهيم، وعدة من الأمراء، ونهبت أموالهم، وملك قرا يوسف بلاد توريز وغيرها، وقدم كتابه بهذا إلى السلطان، ويقال أن ابن أويس لما وقعت الكسرة اختفى في عين ماء، ودخل عليه بعض فرسان قرا يوسف ليقتله، فعرفه بنفسه، فأخذه، وأعلم قرا يوسف به، فأحضره إليه وبالغ في إكرامه، ووكل به أحد أمرائه، فلم يرض كثير ممن مع قرا يوسف بذلك، وما زالوا به حتى قتله خنقًا.

وفي خامس عشرينه: كتب السلطان إلى أرغون كاشف الرملة بمنع الفرنج من عمارة بيت لحم، والقبض عليهم، وعلى من معهم من الصناع، وأخذ ما عندهم من السلاح والآلات والمال، والجمال التي استأجروها لنقل آلات، وحمل ما معهم من العجل والدهن الذي إذا وضع على الحجارة هان قطعها، فختم أرغون على مخازن ثلاثة من الفرنج، وقبض عليهم، وحملهم، ومعهم ما رسم به.

وفي هذا الشهر: كثرت الفتن بين التركمان، وخربوا قرى كثيرة ببلاد حلب. وفيه قدم رسل ابن عثمان متملك الروم إلى حلب. وفيه خالف أقبغا شيطان - أحد أصحاب الأمير شيخ - عليه، وسار من قلعة المرقب في عشرين رجلاً، وقدم حلب، منتميًا إلى طاعة السلطان، وفيه تنكر سودن الجلب عن الأمراء النازلين عنده بالكرك، وسار عنهم حتى عدى الفرات، فبعث معه يغمور من يوصله إلى ماردين، فلما نزل بها أقام ثلاثًا، وعزم على المضي إلى قرا يوسف، فأتاه الخبر بأن أيدكي بك ملك الترك، والشيخ إبراهيم الدربندي، وشاه رخ ابن تيمورلنك ملك جقطاي، قد اجتمعوا على محاربة قرا يوسف، فتحير في أمره.

وفي يوم الجمعة رابع عشرينه: نزل السلطان على مدينة الكرك، وحصرها.

وأخذت في هذه السنة مدينة أشقيرة من بلاد الأندلس، وذلك أن الطاغية صاحب قشتالة لما أوقع بالمسلمين في الزقاق، كثرت غاراته في بلاد المسلمين بالأندلس، وكثرت غاراتهم أيضًا على بلاد قشتالة، وكان ألفنت قد قام بأمر أخيه دون، وكان عارفًا بالحروب والمكايد، شجاعًا، دريًا، شديد البأس، فجمع لحرب المسلمين، ونزل على أنتقيرة - تجاه مالقة - أول ذي الحجة، فلم يستنجد أبو الحجاج يوسف بن يوسف

بن محمد بن إسماعيل بن نصر بن الأحمر - صاحب غرناطة - عساكر فاس كما هي العادة، بل رأى أن في عسكره كفاية، وجهز أخويه محمد وعليًا على عسكر الأندلس، وقد جمع أهل القرى بأسرها، وخرجوا من غرناطة في ثامن عشر ذي الحجة سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، ونزلوا على حصن أرشذونة - وهو على ستة أميال من أنتقيرة - حتى تكاملت الجموع في ثامن عشرينه، ثم ساروا في ليلة التاسع والعشرين وعسكروا تجاه العدو، بسفح جبل المدرج، فما استقرت، وقد أعجبتهم أنفسهم بهم الدار حتى زحف العدو لحربهم، فثاروا لقتاله، وقد أعجبتهم أنفسهم، واغتروا بكثرتهم، وتباهوا بزينتهم، ولم يراقبوا الله في أمرهم، فما أحد إلا ومعه نوع من المعاصي كالخمر والأحداث، حتى لقد أخبرني من شهد الوقيعة انه سمع عالم الأندلس - أبا يحيى بن عاصم - يقول: ما أظن إلا أنا مخذولون. فلما اشتد القتال في الليل، انهزم العدو بعد ما قتل من المسلمين عشرة فرسان، ولما كان أول يوم من محرم سنة ثلاث عشرة، نادى أخو السلطان في العسكر بالنقة، وكانت نفقة السفر قد أخرت عن وقتها، لئلا يأخذها العسكر ولا يشهدوا الحرب، وجعلت عند حضور الجهاد، فهم في أخذ النفقة، وإذا بالعدو وقد أقبل عند طلوع الشمس، فخرجت المطوعة وقاتلتهم، وأقام العسكر بأجمعهم لأخذ النفقة، وعلم العدو بذلك فرجعوا كأنهم منهزمين، والمطوعة تتبعهم. وتنادي في العسكر: يا أكالين الحرام العامة هزمت النصارى، وأنتم في خيامكم جلوس.

فلما وصل العدو إلى معسكرهم، وقفوا للحرب، وقد اجتمع جميع رجالة المسلمين طمعًا في الغنيمة، فإذا العدو وقد خندق على معسكره ورتب عليه الرماة، فسقط في أيديهم، ووقفوا إلى الظهر في حيرة، فخرج أمراء الطاغية عند ذلك من جوانب الخندق، وحملوا على المسلمين، فقتلوا من قاتلهم، وأسروا من ألقى منهم سلاحه، حتى وصلوا مخيم المسلمين، فركب طائفة من بني مرين وبني عبد الواد، وقاتلوا على أطراف خيمهم قليلاً، وانهزموا هم وجميع أهل الأندلس، بحيث خرج أخوا السلطان بمن معهما مشاة إلى الجبل على أقدامهم، فأحاط العدو بجميع ما كان معهم، وأكثروا من القتل فيهم.

وكانت عدة من قتل من المعروفين من أهل غرناطة خاصة مائة ألف إنسان، سوى من لم يعرف، وسوى أهل أقطار الأندلس، بحرها وبرها، سهلها وجبلها، فإنهم عالم لا يحصيه إلا الله تعالى. واستشهد أبو يحيى بن عاصم في عدة من الفقهاء. وأقام النصارى ثلاثة أيام يتتبعون المسلمين، فيقتلون ويأسرون.

وبعث الطاغية إلى أعماله يخبرهم بنصرته. فلما بلغ ذلك أهل أبده وسبته، وأهل حيان، خرجوا إلى وادي أش - وهو بيد المسلمين - ولزلوا قريبًا من حصن أرتنة، فاستغاث أهل الحصن بأهل غرناطة، فأمدوهم بعسكر، فصار النصارى إلى حصن مشافر، وقاتلوا أهله حتى أخذوا الربض، وشرعوا في تعليق الحصن. وإذا بعسكر غرناطة قد جاءهم في سابع المحرم، فأوقعوا بهم وقيعة شنعاء، أفنوهم فيها، وأسروا منهم زيادة على ألف وخمسمائة، وعادوا إلى غرناطة بهم، فدخلوا في تاسعه، وبلغ ذلك الطاغية - وهو على حصار أنتقيرة - فكف أصحابه عن الدخول بعدها إلى بلاد المسلمين، وأقام على الحصار ستة أشهر حتى ضعفت أحوال المسلمين بأنتقيرة، ورفعوا كرائم أموالهم إلى حصنها، وتعلقوا به، فملك الطاغية المدينة بما فيها من الأزواد والأمتعة. ووقع مع هذا في المسلمين الوخم، فمات منهم جماعة كثيرة، فاضطرهم الحال إلى طلب الأمان ليلحقوا ببلاد المسلمين بأموالهم فأمنهم ألفنت على أن يخرجوا بما يطيقون حمله، فخرجوا بأجمعهم إلى معسكره، فوفي لهم، حتى أن بعض البطارقة من أكابر أمرائه أخذ بنتا جميلة، وخلا بها يومه كله، ثم خلى سبيلها. فوقفت بها أمها، وشكت ما نزل بها، فقال لها: أتعرفيه قالت: إذا رأيته عرفته فنادى بحضور جميع من معه، فأتوا بأسرهم، ووقفوا صفوفًا، فقال للمرأة: سيري فيهم حتى تعرفي غريمك. فما زالت تتصفح وجوههم إلى أن رأت خصمها، فقادته إليه، فشنقه لوقته. وجهز جميع المسلمين، وبعث من أوصلهم إلى غرناطة، فلم يفقد أحد منهم، ولا شراك نعل وأقام بأنتقيرة من يثق به، وعاد عنها قافلاً إلى بلاده في أوائل جمادى الآخرة، فكانت هذه الحادثة من أشنع ما أصاب المسلمين بالأندلس، ولا قوة إلا بالله.

* * *

سنة أربع عشرة وثمانمائة

أهلت، وسلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية وأرض الحجاز الملك الناصر أبو السعادات فرج بن السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق بن أنص، وخليفة الوقت الإمام المستعين بالله أبو الفضل العباس بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد. وأتابك العساكر الأمير تمرتاش المحمدي. والدوادار الكبير الأمير طوغان الحسني ورأس نوبة قنباي، وحاجب الحجاب يلبغا الناصري. وقاضي القضاة بديار مصر شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان البلقيني الشافعي، وقاضي القضاة الحنفية ناصر الدين

محمد بن قاضي القفساة كمال الدين عمر بن العديم، وقاضي القضاة المالكية شمس الدين محمد بن علي بن معبد المدني، وقاضي القضاة الحنابلة مجد الدين سالم بن سالم المقدسي. وكاتب السر فتح الدين فتح الله بن معتصم بن نفيس، وناظر الجيش الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله والوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم البشيري. والأستادار الأمير تاج الدين عبد الغني بن الهيصم ونائب الشام الأمير تغري بردى، ونائب حلب الأمير شيخ المحمودي، ونائب طرابلس الأمير نوروز الحافظي، ونائب حماة الأمير تغري بردى ابن أخي دمرداش، ويعرف بسيدي الصغير، ونائب صفد الأمير قرقماس بن أخي دمرادش، المعروف بسيدي الكبير، ونائب غزة الأمير أينال الرجبي، وقد عزل واستقر عوضه الأمير سودن من عبد الرحمن، ومتملك بغداد وتبريز قرا يوسف ابن قرا محمد التركماني، وينوب عنه ببغداد ولده محمد شاه. وأمير مكة المشرفة الشريف حسن بن عجلان، وصاحب اليمن الملك الناصر أحمد بن الملك الأشرف إسماعيل، وصاحب بلاد قرمان الأمير ناصر الدين محمد باك بن الأمير علاء الدين بن قرمان، وصاحب أجات الأمير موسى جلبي بن الأمير أبي يزيد بن مراد خان بن أزمان بن عثمان جق. وصاحب قرم وصراي وبلاد الدشت الأمير أيدكي، وصاحب سمرقند وبخاري وبلاد فارس فرخشاه بن تيمورلنك.

وفي سابع عشرينه: ورد كتاب الملك مانويل صاحب إصطانبول، وهي القسطنطينية، وهدية خمس كواهي، فتضمن كتابه ما عنده من المحبة، ويسأل الوصية بالنصارى، ومراعاة كنائسهم، ونحو ذلك.

وفي هذا الشهر: قدم الخبر بأن قرا يوسف سار ونزل على بلاد قرايلك، وحصر آمد، ففر قرايلك إلى جهة الأطاغ، وأن عساكر قرا يوسف تفرقت على قلاع قرايلك، وسار ابنه على عسكر كبير إلى ماردين، وأن الحرب امتدت بين قرا يوسف، وقرايلك مدة اثنين يومًا، قتل بينهما خلائق كثيرة، فبينما هم في ذلك، إذ قدم الخبر على قرا يوسف بأن ابن تيمورلنك نزل على توريز، فرحل من وقته وترك أثقاله، فركب قرايلك في أثره، وأخذ منه جماعة، ومضى إلى أرزنكان، ليخرب بلادها، كما خرب قرا يوسف بلاده، وأن نائب عينتاب كبس أكراد قلعة الروم، وقاتلهم فقبض عليه طوغان نائب قلعة الروم، واعتقله بها، وأن كردي بن كندر ركب على نائب إنطاكية وأخذه، ومضى به، وأن الأمير نوروز نائب طرابلس، نزل على قلعة صهيون وحاصرها أيامًا، حتى صالحه أهلها على مال، ثم رحل وعاد إلى طرابلس،

وأن الأمير شيخ نائب حلب قبض على المماليك الذين فروا من الكرك، وأنه مشى هو والأمير نوروز على الأمير العجل بن نعير، فتركهم وتوجه إلى الرحبة من غير لقاء، فعاد الأمير شيخ ونزل على سرمين وعاد الأمير نوروز ونزل على جبلة، وأن الأمير شيخ ما زال حتى أفرج عن نائب عنتاب، وأن نائب صهيون قبض على نائب اللاذقية، وقتله. وأن ابن أوزر التركماني حصر إنطاكية وأخذ الأمير جانبك نائبها، واعتقله. وأن الأمير العجل بن نعير استولى على بلد عانة، فبعث إليه قرا يوسف عسكرًا، فكسره، ومضى إلى الأنبار، فرحل من بغداد من التركمان، خوفًا منه، فبعث إليهم وطيب قلوبهم، وكانوا في اختلاف شديد.

وفي هذا الشهر: ضربت الحوطة على قرايب الأمير جمال الدين يوسف الأستادار، فأمسك ابنه الأمير شهاب الدين أحمد، وأخواه القاضي شمس الدين محمد، وناصر الدين، وابنا أخته الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب، وحمزة، وزوج ابنة أخيه شرف الدين أبو بكر بن العجمي، وعوقبوا عقوبات شديدة، وألزموا بأموال كثيرة. فمات ناصر الدين أخو جمال الدين في العقوبة بعد ما أخذ منه نحو مائة ألف درهم، وأخذ من الأمير أحمد ابن أخته ستة آلاف دينار مصرية.

وفيه وردت من طائفة الفرنج الكيتلانية والجنوية جماعة إلى ميناء الإسكندرية، واقتتلوا، فخاف أهل الإسكندرية، وظنوا أنها مكيدة، فلما تمادى الشر بينهم، وبلغت عدة قتلاهم نحو الألفين، اطمأنوا قليلاً، وكان من الجنويين رجل من العتاة المفسدين - يعرف بالبسقاوني - قد أسرته الكيتلانية، فأسلموه للسلطان، وحمل في الحديد إلى قلعة الجبل، فالزم بمائة وخمسين ألف دينار، فذكر أن ماله بيد الجنويين، فطلب منهم ذلك، فأبوا أن يعطوه شيئًا، فقبض على تجارهم بالإسكندرية، فغضبوا، وساروا بمراكبهم إلى الطينة، فسبوا نساء أهلها وبنيهم بعد وقعة كانت لهم مع المسلمين، فخرجت طائفة من دمياط لنجدتهم، فاستشهد منهم فقير معتقد، يعرف بمحيي الدين، في نفرين من فقرائه، وأخذ الفرنج ما كان بالطينة من مال أهلها، وأموال التجار، وساروا. وصالح السلطان البساقي بستين ألف دينار.

وفي هذا الشهر: أخذت عساكر قرا يوسف بن قرا محمد بغداد بعد حصارها نحو عشرة أشهر، وهم ببغداد يشيعون أن السلطان أحمد بن أويس قد وصل إليهم مختفيًا، وتبرز المراسيم عن أمره، ويخرجونه أحيانًا فيكبسون عسكر قرا يوسف، ويأخذون ما قدروا عليه، ثم أشاعوا خروجه غدًا، وزينوا المدينة. فلما كان الليل، اجتمع عسكرهم، وساروا نحو تستر بأجمعهم، فدخلها أصحاب قرا يوسف مع ولده شاه

محمد، ونهبوها، وقتلوا بها جماعة. واستمرت بغداد بيد قرا يوسف.

وفيه تواترت الأخبار بأن الأميرين شيخ ونوروز قد اتفقا على الخروج عن طاعة السلطان، وعزما على أخذ حماة، فوقع الشروع في عمارة قلعة دمشق، وكتب تقدير المصروف على ذلك، مبلغ ثلاثين ألف في ينار. وفيه وقع الاهتمام في بلاد الشام بتجهيز الإقامات للسلطان، فإنه عزم على السفر. وفيه شنعت المصادرات بالقاهرة، وفحش أخذ الأموال من الناس، حتى خاف البريء، وتوقع كل أحد أن يحل به البلاء من الأمير فخر الدين الأستادار.

وتأكد عند السلطان خروج الأميرين شيخ ونوروز عن طاعته، وأنهما عزما على أخذ دمشق، وأن سودن الجلب ويشبك بن أزدمر سعيا في ذلك، وأن الأمير نوروز قتل أقسنقر الحاجب، وأن الأمير شيخ بعث في رابعه إلى ناصر الدين محمد بن دلغادر خلعة وبدلة قماش كاملة - حتى السراويل - برسم لباسه، وبدلة نسائية كاملة برسم امرأته، وذلك بعدما بعث الأمير شيخ يشبك الساقي، وجقمق الدوادار إليه، وإلى أخيه على باك بن دلغادر، يستدعيهما ليحضرا إلى عينتاب، فامتنعا من ذلك وأعادا قاصديه، ثم أنهما اختلفا فمضى على باك إلى جهة بلاد الروم، فلما بلغ ذلك الأمير شيخ أعاد يشبك الساقي ومعه تتر إلى محمد بن دلغادر، لقياه بأبلستين، وما زالا به حتى سار معهما إلى عينتاب، فقدموها في حادي عشره، ونزل بها محمد ابن دلغادر حتى أتته الخلعة والبدلتان.

والأمير جانم، قتل في ثاني عشرين شهر رجب، وكان من شرار الخلق المفسدين في الأرض.

والأمير يشبك الموساوي الأفقم، وكان كثير الشر والظلم، محبًا للفتن، مفسدًا، لا خير فيه.

والأمير قردم الحسني، قتل بالإسكندرية، وكان من أمراء الألوف، خازندارًا كبيرًا، وله تربة بباب الفافة.

* * *

سنة خمس عشرة وثمانمائة

أهلت وخليفة الوقت أمير المؤمنين المستعين بالله أبو الفضل العباس، ابن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد، والسلطان الملك الناصر أبو السعادات زين الدين فرج ابن السلطان الملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين برقوق، ابن الأمير أنص، وهما بدمشق. وأتابك العساكر الأمير دمرداش المحمدي، وأمير أخور الأمير أرغون البشبغاوي الرومي، والدوادار الكبير الأمير طوغان الحسني، وقد خرج عن طاعة السلطان، ومضى إلى الأمير شيخ بحمص، هو والأمير بكتمر جلق الناصري رأس نوبة، والأمير شاهين الأفرم أمير سلاح ورأس نوبة الأمير الكبير سنقر الرومي. وبديار مصر الأمير يلبغا الناصري نائب الغيبة، والأمير أسنبغا الزردكاش شاد الشربخاناه، والأستادار الأمير منكلي الخليلي، والقضاة الأربع، وكاتب السر، والوزير وناظر الخاص، وناظر الجيش، الذين تقدم ذكرهم في السنة الماضية، وهم بدمشق صحبة السلطان. ونائب حلب الأمير شيخ المحمودي، وقد أعلن هو والأمير نوروز الحافظي نائب طرابلس بمخالفة السلطان، ونزلا على حمص، ونائب دمشق الأمير تغري بردى، وهو شديد المرض، ونائب غزة الأمير سودن من عبد الرحمن، ونائب صفد الأمير قرقماس ابن أخي دمرداش، وهو بدمشق، وقد ولاه السلطان نيابة حلب، عوضًا عن الأمير شيخ، فلم يتمكن من المسير إليها. ونائب حماة الأمير تمراز. ومتملك بلاد قرمان الأمير محمد باك ابن الأمير علاء الدين بن قرمان. ومتملك بقية الروم الأمير موسى جلبي بن أبي يزيد خوندكار بن مراد خان بن أرخان بن عثمان جق. متملك بغداد وتوريز الأمير قرا يوسف بن قرا محمد التركماني وهو مقيم بتوريز، وعلى بغداد لابنه محمد شاه. ومتملك اليمن الملك الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل بن رسول. وأمير مكة الشريف حسن بن عجلان الحسني، وأمير المدينة النبوية الأمير ثابت بن نعير الحسيني.

وفي يوم الاثنين سادسه: سار السلطان من دمشق، ونزل برزة، ثم رحل بعسكره يريد محاربة الأميرين شيخ ونوروز، ومن انضم إليهما من الأمراء المصريين، ومن معهم. فنزل حسيا بالقرب من حمص، فبلغه رحيل القوم من قارا إلى جهة بعلبك، فترك أثقاله بحسيا. وسار في أثرهم إلى بعلبك، وقد توجهوا إلى البقاع، فقصدهم، فمضوا نحو الصبيبة وهو يتبعهم، حتى نزلوا باللجون، فأشار عليه كاتب سره فتح الله أن يعود إلى دمشق، ولا يتوجه إلى اللجون فإذا استقر بدمشق، تخير لنفسه إما أن

يبعث إليهم عسكرًا، أو يصفح عنهم ويوليهم أماكن، أو يريح عساكره ويخرج إليهم، فمال إلى قوله، وكاد أن يعود، فخلا به شياطينه - أقبغا النظامي، أحد الدوادارية، وألطنبغا شقل، وأضرابهما من الفجار المفسدين - وقبحوا هذا الرأي، وشجعوه على المسير إلى أعدائه، وأنه عندما يلقاهم يأخذهم عن آخرهم أخذًا باليد، فإنهم كلهم في قبضته، ورموا عنده فتح الله بأنه ما قال هذا ولا أشار به إلا وهواه مع القوم. وكان الناصر يميل مع من يستميله، ويؤثر فيه قول كل قائل، فانفعل لهذا، واستدعى فتح الله، وأوسعه سبًا، وملأ آذانه توبيخًا وتهديدًا بحضرة الملأ، ورماه بأنه مع أعدائه عليه فخرج وقد اشتد غيظه وغضبه، وملئ حنقًا وحقدًا.

وركب السلطان من ساعته وساقه وهو ثمل، فما وصل إلى اللجون حتى تقطعت عساكره من شدة السوق، ولم يبق معه غير من ثبت وهم أقل ممن تأخر، وكان قد دخل وقت العصر من يوم الاثنين ثالث عشره، والقوم قد نزلوا قبله، وأراحوا، وفي ظنهم أنه يتمهل ليلته ويلقاهم من الغد، فإذا جنهم الليل، ساروا بأجمعهم من وادي عارة إلى جهة الرملة، وسلكوا البر عائدين إلى حلب، وليس في عزمهم أن يقاتلوه أبدًا، خوفًا منه وعجزًا عنه. فلما أراد الله سبحانه لم يتمهل، وحمل بنفسه من فوره - حال وصوله - واقتحم عليهم، فارتطمت طائفة ممن معه في وحل كان هناك من سيل عظيم حصل عن قريب. وخامر مع ذلك عليه طائفة أخرى، ومضوا إلى القوم، فقووا. وثبت السلطان في حماته وثقاته، فقتل الأمير مقبل الرومي أحد أمراء الألوف، وزوج ابنة الملك الظاهر التي كانت تحت الأمير نوروز، وتركها عند خروجه من مصر، فأنكحها السلطان قبل هذا بعقد ملفق، لا يعبأ الله به، وقتل أيضًا أحد رءوس الفتنة ألطنبغا شقل. وانهزم السلطان وقد جرح في عدة مواضع، ونجا بنفسه، وهو يريد دمشق، ليكون بها مصرعه. وفاته الرأي أخيرًا كما فاته أولاً، فلم يتوجه إلى مصر، وعدل عنها ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

وأحاط القوم بالخليفة المستعين بالله، وكاتب السر فتح الله، وناظر الخاص تقي الدين عبد الوهاب بن أبي شاكر، وناظر الجيش بدر الدين حسن بن نصر الله. وكان الناصر أمرهم أن يقفوا على حدة. فذكر لهم كاتب السر أن الرأي أن يتوجه إلى صفد، فإذا انتصر السلطان أتيناه، فأبى وكان هذا من سوء تدبيره أيضًا، فإن القوم إزدادوا بالخليفة ومن ذكرنا قوة إلى قوتهم، وبهم تم لهم الأمر، وأحاطوا أيضًا بجميع ما كان مع الناصر من مال وخيول وجمال وغير ذلك، ما عدا الأثقال التي تركها بحسيا، فإنها عادت إلى دمشق، في ثاني عشره، قبل الوقعة بيوم، فما غربت الشمس

حتى صار القوم من الخوف إلى الأمن، ومن الذل إلى العز، فتقدم شهاب الدين أحمد بن حسن بن الأذرعي - إمام الأمير شيخ - وصلى بهم المغرب، فقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة بصوته الشجي " واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون " فوقعت قراءة هذه الآية أحسن موقع بمناسبة الحال.

وباتوا بمخيماتهم ليلة الثلاثاء، وأصبحوا ليس فيهم واحد ينقاد لآخر، فينادي الأمير شيخ بأنه الأمير الكبير، ويرسم بما شاء وينادي الأمير نور بأنه الأمير الكبير، ويرسم بما شاء، وينادي بكتمر جلق بأنه الأمير الكبير، ويرسم بما شاء وأخذ الأمير سودن تلي المحمدي بيده الإصطبل السلطاني، وحواه لنفسه، فبعث الأميران شيخ ونوروز إلى كاتب السر فأحضراه إليهما في خلوة، وبالغا في إكرامه، وأراداه أن يكتب بما جرى إلى الديار المصرية، ويعلم الأمراء به، فقال لهما من السلطان الذي يكتب عنه، فأطرق كل منهما رأسه ساعة، ثم قال ابن أستاذنا ما هو هنا حتى نسلطنه، يريدان الأمير فرج بن السلطان الملك الناصر فرج. فلما رأى انقطاعهما قال: الرأي أن يتقدم كل منكما إلى موقعه بأن يكتب عنه إلى أمراء مصر كتابًا بصورة الحال، ويأمر بحفظ القلعة والمدينة حتى يقدم عليهم، ويعدهم بالخير ثم يكتب الخليفة أمير المؤمنين عنه كتابًا إلى الأمراء بصورة الحال، ويأمرهم بامتثال ما تضمنه كتابيكما. فوقع هذا الرأي منهما الموقع الجيد، وكتب كل منهما كتابًا، وكتب الخليفة كذلك. وندب قجقار القردمي بحمل الكتب وجهز إلى القاهرة، فمضى إليها من يومه.

ونودي بالرحيل، فرحل العسكر يريدون دمشق في يوم الأربعاء خامس عشره، وليس عندهم من السلطان علم، وكان السلطان قد قدم دمشق آخر ليلة الأربعاء في ثلاثة نفر، ونزل بالقلعة، وأصبح الناس في اضطراب. فاستدعى القضاة والأعيان ووعدهم بكل خير، وحثهم على نصرته، والقيام معه، ورغبهم فيما لديه، فانقادوا له، وقووا قلبه، وشجعوه فأخذ في تدبير أموره، وتلاحقت به عساكره شيئًا بعد شيء. وقدم عليه الأمير دمرداش، لمحمدي عصر يوم الخميس، فولاه سادس عشره نيابة الشام، عوضًا عن الأمير تغري بردى، وقد مات في هذا اليوم. ثم قدم الأمير أرغون أمير أخور، والأمير سنقر، وبقية من تأخر من عسكر السلطان.

وأخذ السلطان في الاستعداد، فأخرج الأموال وصبها بين يديه ظاهرة. ودعا الناس إلى القيام بنصرته، فأتاه جمع كبير من التركمان وغيرهم، فكتب أسماءهم، وأنفق فيهم، وقواهم بالسلاح، وأنزل كل طائفة في موضع لحفظه. فكانت عدة من استنجده من المشاة زيادة على ألف رجل قد أجلسوا فوق سقائف الحوانيت وأعلى الحيطان. وجمع العساكر المصرية والشامية، وقواها، وأنفق فيها. وحصن القلعة بالمجانيق، ومدافع النفط الكبار، وبالمكاحل، وجعل بين كل شرفتين من شرفات سور المدينة، جنوية، ومن ورائها الرماة بالسهام والجروخ، والمدافع والأسهم الخطائية. ونصب على كل برج من أبراج السور شيطانيًا يرمى به الحجارة. ورفع الجسور عن الخنادق، وأتقن تحصين القلعة، بحيث لم يبق سبيل إلى التوصل لها بالقوة. وفيه ولي السلطان الأمير نكباي الحاجب نيابة حماة.

وفيه وكتب قاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن البلقيني، ومعه بقية قضاة مصر ودمشق، وجماعة من أرباب الدولة، ونودي بين أيديهم بأسواق دمشق عن لسان السلطان، أنه قد أبطل المكوس وأزال المظالم، فادعوا له. فقوي ميل الشاميين إليه، وتعصبوا له، وصار أكثرهم من حزبه وفريقه.

وفي آخر هذا اليوم: بعث الأمير شيخ إلى شهاب الدين أحمد بن الحسباني، وشهاب الدين أحمد الباعون، وقاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم - وكان قد انقطع بالشبلية لمرض به - فلم يدخل إلى جامع بني أمية مع رفاقه قضاة مصر، فأحضر الثلاثة وأنزلهم عنده.

وفيه أيضًا لحق بالأمير شيخ، ناصر الدين محمد بن البارزي الحموي، وصدر الدين علي بن الآدمي، فتأنس بهما، وأخذا في تعريفه بأمر البلد، ومواضع العورات منها، ونحو ذلك مما يتقرب به إليه. فلما بلغ السلطان ذلك استدعى محب الدين محمد بن الشحنة الحلبي، وخلع عليه، وولاه قضاء القضاة الحنفية بديار مصر، عوضًا عن ناصر الدين محمد بن العديم، في يوم الخميس ثالث عشرينه.

وفي يوم الجمعة رابع عشرينه: أحضر الأمير شيخ إلى بين يديه الأمير بلاط آقشق شاد الشربخاناة، وكان ممن قبض عليه في وقعة اللجون، ووسطه من أحل أنه كان يتولى ذبح المماليك الظاهرية، ليل قتلهم السلطان بقلعة الجبل. ووسط أيضًا الأمير بلاط أمير علم، وكان ممن قبض عليه أيضًا.

وفي يوم السبت خامس عشرينه: خلع الخليفة المستعين بالله الملك الناصر من الملك، فكانت مدته في السلطنة منذ مات أبوه الملك الظاهر وجلس بعده على سرير الملك إلى أن خلع بأخيه السلطان الملك المنصور عبد العزيز ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يومًا. ومدة سلطنته الثانية من حين وثب على أخيه عبد العزيز إلى أن خلعه الخليفة أمير المؤمنين ست سنين وعشرة أشهر سواء. فجميع مدة سلطنته ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يومًا.

* * *

الخليفة المستعين بالله أبو الفضل

الخليفة أمير المؤمنين المستعين بالله أبو الفضل.

العباس بن محمد المتوكل على الله أبي عبد الله العباسي

اجتمع عليه الأمراء وبايعوه خارج دمشق، في آخر الساعة الخامسة من نهار السبت الخامس والعشرين من شهر الله المحرم الحرام سنة خمس عشرة وثمانمائة، والطالع برج الأسد. وسبب ذلك أنه خرج صحبة الملك الناصر فرج من القاهرة إلى الشام عند سفره إليها، كما جرت العادة به. فلما وافى اللجون ليقاتل الأمراء، أوقف الخليفة ناحية، وأوقف معه كاتب السر ورفقاءه، من المباشرين. فما هو إلا أن نزلوا وصلوا صلاة العصر، إذ انهزم الناصر، فأشار كاتب السر حينئذ على الخليفة أن ينشر علمه الأسود، يريد بذلك أن يصيروا في حمايته خشية من معرة العساكر. فعندما نشر العلم، وعاينه الأمراء تباشروا بالفتح. وفي ذلك الوقت جاء صلاح الدين خليل بن الكوير صاحب ديوان الأمير شيخ، وشهاب الدين أحمد الصفدي، في طائفة من العسكر، فأخذوا الخليفة، ومن معه وأتوا بهم إلى الأمراء، فأجلوا مقدم الخليفة، وأنزلوه ومن معه عند الأمير طوغان الدوادار. فلم يزل عنده حتى نزلوا ظاهر دمشق، فاستدعى الأميران شيخ ونور وكاتب السر فتح الله - وقد بلغهم أن الناصر قد صار في قلعة دمشق وحصنها، وأعد لهم - واستشاراه فيما يعملاه فقال لهما: ما هكذا يقاتل السلطان. وذكر لهما ما هم فيه من الافتراق، وعدم الانقياد إلى واحد منهم، وأن كلا من الأمراء يرى أنه الأمير الكبير، وهذا أمر لابد فيه من إقامة واحد ترجع الأمور كلها إليه وتصدر عنه. فأطرق كل منهما ساعة، ثم رفع رأسه وقال: ابن أستاذنا ما هو حاضر هنا حتى نسلطه، فلما رأى عجزهم وانقطاعهم قال: أقيموا الخليفة يتحدث، وقوموا معه، فإن أحدًا لا يتجاسر عليه. فقالا له: أو يرضى بذلك. قال: أنا أرضيه. وقام عنهما إلى الخليفة، فذكر له شيئًا من هذا، فأبى أن يقبل، وفرق من الناصر فرقًا شديدًا، وخاف ألا يتم له هذا الأمر فيهلك، وصمم على الامتناع، وفتح الله يلح عليه، لما داخل قلبه من خوف الناصر والحقد عليه، فلما رأى أن الخليفة لا يوافقه على القيام بالأمر، دبر عليه حيلة يقوده بها لما يريد منه، وهو أنه حسن للأمير شيخ حتى أمر ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازي أخا الخليفة لأمه، فركب ومعه ورقة تتضمن أسطرًا عديدة، فيها مثالب الناصر ومعايبه، وأن الخليفة قد خلعه من الملك وعزله من السلطة، ولا يحل لأحد معاونته، ولا مساعدته،

فإنه الكذا الكذا. فلما بلغ الخليفة هذا، سقط في يده، وأيس من انصلاح الناصر له وأراد أن يبقى له حيلة مع الأمراء، يعيش بها حينًا من الدهر في رحيله معهم، وفي ظنه وظن غيره عجز الأمراء عن الناصر، فأذعن حينئذ لهم أن يقوم بالأمر، فبايعوه بأجمعهم، وأطبقوا كلهم على يده، يعطوه صفقة أيمانهم، وحلفوا له على الوفاء بتبعيته، ونصبوا له كرسيًّا خارج باب الدار، تجاه جامع كريم الدين. وجلس فوقه وعليه سواده الذي أخذوه من الجامع، وهو بثياب الخطب عند خطبته للجمعة. ووقفوا بين يديه على قدر منازلهم، ما عدا الأمير نوروز فإنه لم يحضر لاشتغاله بحفظ الجهة التي هو بها. ثم قبلوا الأرض بين يديه على العادة، وتقدم الأمير بكتمر جلق فخلع عليه، واستقر به في نيابة الشام، وخلع على الأمير قرقماس ابن أخي دمرداش، واستقر به في نيابة حلب. وخلع على الأمير سودن الجلب واستقر به في نيابة طرابلس.

ثم ركب أمير المؤمنين والأمراء، ونادي مناد ألا إن الناصر فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة، فلا يحل لأحد مساعدته، ومن حضر إلى أمير المؤمنين من جماعته فهو آمن، وأمدكم إلى يوم الخميس، في كلام كبير من هذا المعني قد رتب. وسار أمير المؤمنين بعساكره من تجاه جامع كريم الدين إلى قرب المصلى، ثم عاد وأمر فنودي بذلك أيضًا في الناحية الشرقية من دمشق. فتفخذ الناس عن الناصر، وصاروا حزبين، حزب يرى أن مخالفة أمير المؤمنين كفر، وأن الناصر قد انعزل من الملك، فمن قاتل معه فقد عصى الله ورسوله، ومنهم من يرى أن القتال معه واجب، ومن قاتله فإنما هو باغ عليه. وكثر الناس في ذلك. وكتب أمير المؤمنين إلى أمراء مصر، باجتماع الكلمة على إقامته، وأنه خلع الناصر، وقد أبطل المكوس والمظالم. وبعث بذلك على يد الأمير كزل العجمي.

وفي سادسه: دقت البشائر بقلعة دمشق، ونودي أنه قد وصلت أمراء التركمان - قرا يلك وغيره - ونواب القلاع لنجدة السلطان، فنودي بمعسكر الأمير شيخ - عن أمير المؤمنين - باستعداد العوام لقتال المذكورين، فإنهم مقدمة تمرلنك وجاليشه. ثم اجتمع الأمراء والمماليك السلطانية كلهم، وحلفوا بأجمعه يمينًا ثانية لأمير المؤمنين، بأنهم يلتزمون طاعته، ويأتمرون بأمره، وأنهم راضون بأنه الحاكم عليهم، وأنه يستبد بجميع الأمور من غير أن يعارضه أحد في شيء، وأنهم لا يسلطوا أحدًا غيره، وقبلوا كلهم له الأرض، ومضى كاتب السر فتح الله إلى الأمير نوروز بدار الطعم - حيث هو نازل - فحلفه على ذلك، وقبل الأرض لأمير المؤمنين، وقد استقبل جهته

وأظهر من الفرح والسرور، باستبداد أمير المؤمنين بالأمر ما لا يوصف كثرة، وحمد الله تعالى على ذلك، وقال: حينئذ استقام لنا الأمر. وسأل كاتب السر أن ينوب عنه في تقبيل الأرض بين يديه، وسؤاله في أن ينفرد بالتدبير ولا يشارك في أمره الأمير شيخ، ولا هو، ولا غيره.

وفي ليلة الجمعة ثامنه: اشتد القتال إلى الغاية، واستمر من بعد العصر إلى ثلث الليل.

وفي يوم الجمعة هذا: وصل الأمير كزل العجمي الحاجب من دمشق إلى القاهرة يبشر بقيام أمير المؤمنين، فشق القاهرة، وخرج من باب زويلة، ونزل عند الأمير يلبغا الناصري، وحضر إليه الأعيان. فقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليه، بأن العساكر المصرية والشامية قد اتفقت على إقامته، وبايعوه، وحلفوا له. وأنه قد خلع الناصر فرج من الملك، لما ظهر منه، وثبت عليه، بمقتضى محضر شهد فيه خمسمائة نفس بقوادح في الدين، توجب إراقة الدم. ويأمر في كتابه أن ينادي في القاهرة ومصر: لا سلطان إلا الخليفة، وأنه قد أبطل المكوس والمظالم، وأخذ البراطيل، ورمى البضائع على التجار، وأن يأمر الخطباء بقطع اسم الناصر من الخطب، وإقامة اسم أمير المؤمنين بمفرده. فلم يتمكن الأمير يلبغا الناصري من ذلك، خوفًا من أسنبغا الزردكاش، فإنه كان قد امتعض الناصر، وعزم على أخذ كزل هذا، فسبقه الأمير يلبغا، وأنزله. هذا، والكتب من الناصر تأتي مع السعاة إلى أسنبغا بأنه محصور بقلعة دمشق، فيهم بأمور من الشر، فيوسوسه الأمير يلبغا الناصري، ويتلطف به، حتى يكف عن ذلك.

وأقبل الأمير شيخ نحو باب النصر، وركب نوروز إلى جهة باب أتوما، ونصبت السلالم حتى فتح باب النصر، وأحرق باب الجبية، فعبر الأمير شيخ من باب النصر، وأخذ المدينة، ونزل بدار السعادة، وامتدت أيدي النهابة من الغوغاء، فما عفوا ولا كفوا. وأخذوا من المال ما يجل عن الوصف. فلم يكد أحد يسلم من معرة النهب. ونزل أمير المؤمنين بدار في طرف من ظواهر دمشق، وتحول الأمير شيخ إلى الإصطبل. وأنزل الأمير بكتمر جلق بدار السعادة.

وأخذ الناصر يرمي من أعلى القلعة يومه، وبات ليلة الأحد على ذلك، فلما كان يرم الأحد عاشره بعث بالأمير أسندمر أمير أخور ليحلف له الأمراء فكتب نسخة اليمين، فحلفوا له، ووضعوا خطوطهم. وكتب أمير المؤمنين خطه أيضًا. وصعد به إليه ناصر الدين محمد بن مبارك أخو الخليفة، فطال الكلام بينهما، وكثر الترداد بغير

طائل. وعاد الناصر إلى الرمي من القلعة بمدافع النفط، والنشاب. فركب القوم وأحاطوا به يريدون قتاله. فأرسل يسأل في الكف عنه، فضايقوا القلعة خشية أن يفر منها، فأضطره الحال إلى أن نزل ليلة الاثنين حادي عشره، ومعه أولاده يحملهم ويحملون معه، وهو ماش من باب القلعة إلى الإصطبل، حيث منزل الأمير شيخ، فقام إلى لقائه وقبل له الأرض، وأجلسه بصدر المجلس، وسكن روعه، وتركه وانصرف عنه، فأقام بمكانه إلى يوم الثلاثاء ثاني عشره، فجمع فقهاء مصر والشام بدار السعادة بين يدي أمير المؤمنين، وقد تحول إليها وسكنها، فأفتوا بإراقة دم الناصر شرعًا. فأخذ في ليلة الأربعاء من الإصطبل، وأنزل بموضع من قلعة دمشق وحده، وقد ضيق عليه، وأفرد من خدمه إلى ليلة السبت سادس عشره دخل عليه ثلاثة، أحدهم ابن مبارك أخو الخليفة، وآخر من ثقات الأمير شيخ، وآخر من ثقات الأمير نوروز، ومعهم رجلان من المشاعلية، فعندما رآهم ثار إليهم، ودافع عن نفسه فساوره الرجلان حتى صرعاه، بعدما أثخنا جراحه. وتقدم إليه بعض صبيان الفداوية بخنجر فخنقه، وقد أصابته الجراحة في خمسة مواضع. فلما ظن أنه قد أتى على نفسه وقام عنه، تحرك فعاد وخنقه مرة ثانية، حتى قوى عنده أنه هلك تركه، فإذا به يتحرك، فعاوده مرة ثالثة، وفرى أوداجه بخنجر، وسحب بعدما سلب جميع ما عليه من الثياب. وألقى على مزبلة مرتفعة عن الأرض تحت السماء، وهو عاري البدن، يستر عورته وبعض فخذيه سراويله، وعيناه مفتوحتان، والناس تمر به، ما بين أمير ومملوك، قد صرف الله قلوبهم عنه. وغوغاء العامة وأراذل الغلمان تعبث بلحيته ويديه ورجليه طول نهار السبت، نكالاً من الله له، فإنه كان مستخفًا بعظمة الله سبحانه، فأراه الله قدرته فيه:

لا تيأسن على شيء فكل فتى ::: إلى منيته يستن في عنق
بأيما بلدة تقدر منيته ::: ألا يسارع إليها طالعًا يسق

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث ابن لهيعة: حدثنا يزيد بن أبي حبيب أن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: أن رسول الله قال: **«من شدد سلطانه بمعصية الله عز وجل، أوهن الله كيده إلى يوم القيامة»**.

فلما كانت ليلة الأحد: حمل وكفن بعدما غسل، وصلى عليه، ودفن بمقبرة باب الفراديس، بموضع يعرف بمرج الدحداح، ولم يكن له جنازة مشهودة، ولا عرف من تولى غسله وكفنه، ويقال: إنه تصدق عليه بالكفن، فسبحان المعز المذل.

وقد كان الأمير شيخ لا يريد قتله، وعزم على أن يحمله مع الأمير طوغان الدوادار إلى الإسكندرية ويسجنه بها، فقام الأمير نوروز والأمير بكتمر جلق في قتله قيامًا بذلاً فيه جهدها، فإن الأمير يشبك بن أزدمر ممن امتنع من الموافقة على قتله، وشنع في ذلك، واحتج بالأيمان التي حلفت له، فتقوى نوروز وبكتمر بالخليفة، فإنه اجتهد هو وكاتب السر فتح الله في ذلك، وحمي الفقهاء والقضاة على الكتابة بإراقة دمه. وتجرد قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم الحنفي لذلك، وكافح من خالف في قتله، وأشهد على نفسه أنه حكم بقتله شرعًا، فأمضى قتله، وقتل كما تقدم ذكره. وكان الناصر هذا أشأم ملوك الإسلام، فإنه خرب بسوء تدبيره جميع أراضي مصر وبلاد الشام، من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات، فطرق الطاغية تيمورلنك بلاد الشام في سنة ثلاث وثمانمائة، وخرب حلب وحماة وبعلبك ودمشق، وحرقها، حتى صارت دمشق كومًا ليس بها دار، وقتل من أهل الشام ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وقطع أشجارها حتى لم يبق بدمشق حيوان، ونقل إليها من مصر، حتى الكلاب، وخربت أراضي فلسطين بحيث أقامت القدس مدة إذا أقيمت صلاة الظهر بالمسجد الأقصى لا يصلي خلف الإمام سوى رجلين.

وطرق ديار مصر الغلاء من سنة ست وثمانمائة، فبذل أمراء دولته ومدبروها جهدهم في ارتفاع الأسعار، بخزنهم الغلال وبيعها بالسعر الكبير، ثم زيادة أجرة أطيان أراضي مصر، حتى عظمت كلفة ما تخرجه الأراضي، وأفسدوا مع ذلك النقود بإبطال السكة الإسلامية من الذهب، والمعاملة بالدنانير المشخصة، التي هي ضرب النصارى. ورفعوا سعر الذهب حتى بلغ إلى مائتين وأربعين كل مثقال، بعدما كان بعشرين درهمًا. وعكسوا الحقائق، فصيروا الفلوس - التي لم تكن قط في قديم الدهر ولا حديثه نقدًا رابحًا - هي التي ينسب إليها ممن المبيعات، وقيم الأعمال. وأخذت على نواحي مصر مغارم تجبى من الفلاحين في كل سنة، وأهمل عمل جسور أراضي مصر، وألزم الناس أن يقوموا عنها بأموال تجبى منهم، وتحمل إليه.

وأكثر وزرائه من رمي البضائع على التجار ونحوهم من الباعة بأغلى الأثمان، واضطروهم إلى حمل ثمنها، فعظمت مغارمهم للرسل التي تستحثهم، ولمستخرجي المال منهم مع الخسارة في أثمان ما طرح عليهم من البضائع، لا جرم أن خرب إقليم مصر، وزالت نعم أهله، وقلت أموالهم، وصار الغلاء بينهم كأنه طبيعي، لا يرجى زواله.

هذا مع تواتر الفتن واستمرارها بالشام ومصر، وتكرار سمره إلى البلاد

الشامية، مما من سفرة إليها إلا وينفق فيها خارجًا عما عنده من الخيول والسلاح وغير ذلك، زيادة على ألف ألف دينار، يجبيها من دماء أهل مصر، ومهجهم. ثم يقدم إلى الشام، فيخرب الديار ويستأصل الأموال، ويدمر القرى. ثم يعود وقد تأكدت أسباب الفتنة، وعادت أعظم ما كانت. فخربت الإسكندرية، وبلاد البحيرة، وأكثر الشرقية، ومعظم الغربية، والجيزة، وتدمرت بلاد الفيوم، وعم الخراب بلاد الصعيد، بحيث بطل منها زيادة على أربعين خطة كانت تقام في يوم الجمعة، ودثر ثغر أسوان، وكان من أعظم ثغور المسلمين، فلم يبق به أمير ولا كبير لا سوق ولا بيت، وتلاشت مدائن الصعيد كلها، وخرب من القاهرة وظواهرها زيادة على نصف أملاكها. ومات من أهل إقليم مصر بالجوع والوباء نحو ثلثي الناس. وقتل في الفتن بمصر مدة أيامه خلائق لا تدخل تحت حصر، مع تجاهره بالفسوق من شرب الخمر، وإتيان الفواحش، والتجرؤ العظيم على الله - جلت قدرته، والتلفظ من الاستخفاف بالله تعالى ورسله ما لا تكاد الألسنة تنطق بحكايته لقبيح شناعته.

ومن العجيب أنه لما ولد كان قد أقبل الأمير يلبغا الناصري بعساكر الشام لينزع أباه الملك الظاهر من الملك، وهو في غاية الاضطراب من ذلك، فعندما بشر به، قيل له: ما نسميه؟ فقال: بلغاق يعني فتنة، وهي كلمة تركية، فقبض على أبيه وسجن بالكرك - كما تقدم ذكره - وهو لم يسم. فلما عاد برقوق إلى الملك عرض عليه، فسماه فرج، فما كان في الحقيقة إلا فتنة. أقامه الله سبحانه نقمة على الناس لذيقهم بعض الذي عملوا. ومن عجيب الاتفاق أن حرف اسمه فرج وعددها ثلاثة وثلاثون ومائتان، وهي عدد جركس، فكان فناء طائفة الجركس على يديه، فإن حروفها يعني إذا أسقطت بحروف اسمه. وكانت وفاته عن أربع وعشرين سنة، وثمانية أشهر، وأيام.

شهر ربيع الآخر، أوله الاثنين: في يوم الثلاثاء ثانيه: قدم أمير المؤمنين والأمير شيخ والعسكر إلى القاهرة، فشقوا القصبة من باب النصر إلى باب زويلة، ومضوا إلى القلعة وقد زينت الشوارع، فنزل الخليفة بالقصر من قلعة الجبل، ونزل الأمير شيخ باب السلسلة. وظهر اتضاع جانب الخليفة. وظن الأمير شيخ أنه لما دخل إلى القاهرة، أن الخليفة كان يمضي إلى داره، ولا يصعد إلى القلعة. ولم يخلع على أحد ممن جرت العادة بأنه يخلع عليه عند القدوم من السفر. وأقبل الناس إلى باب الأمير شيخ للسعي في الوظائف، وترك الخليفة وحده، ليس له سوى من يخدمه من حاشيته قبل مصير ما صار إليه.

السلطان أبو النصر

السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري.

سرق من بلاده وهو صغير، فصار إلى تاجر يقال له محمود شاه اليزيدي، اشتراه بثلاثة آلاف درهم فضة، وقدم به إلى القاهرة على ظهر بحر الملح، في سنة اثنتين وثمانين وسبع مائة، وعمره قريبًا من اثنتي عشرة سنة، فأخذه السلطان الملك الظاهر بعد موت محمود هذا من تركته، ودفع إلى ورثته ثلاثة آلاف درهم، ورقاه في خدمته، فعرف بشيخ المحمودي، ثم أنعم عليه بإمرة عشرة ثم بإمرة طبلخاناه، وجعله رأس نوبة، ثم سار من جملة أمراء الألوف. وولي نيابة طرابلس، ثم نيابة الشام، وحاربه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق إلى أن انهزم وقتل، كما تقدم ذكره، وقدم بعد قتله إلى الديار المصرية من دمشق بالخليفة المستعين بالله. وفوض الخليفة إليه جميع الأمور، ولقبه نظام الدولة، فتصرف في الولايات والعزل والأخذ والعطاء وغير ذلك، بحيث لم يكن للخليفة معه أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة، وإنما هو مقيم في دار وحشة بقصور قلعة الجبل، وتحضر إليه المراسيم، فيكتب عليها بحسب ما يختاره الأمير شيخ، إلى أن كان يوم الاثنين مستهل شعبان هذا، واجتمع قضاة القضاة الأربع، وجميع الأمراء وكافة أرباب الدولة، بمجلس الخدمة مع الحراقة، وعمل الموكب على العادة، قام فتح الدين فتح الله كاتب السر على قدميه، وقال لمن حضر أن الأحوال ضائعة، ولم يعهد أهل نواحي مصر عندهم اسم الخليفة، ولا تستقيم الأمور إلا بأن يقوم سلطان على العادة. ودعاهم إلى الأمير شيخ، فقال الأمير شيخ: هذا أمر لا يتم إلا برضى أهل الحل والعقد، فقال من حضر من الأمراء بلسان واحد: نحن راضون بالأمير الكبير. فمد قاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن البلقيني يده، وبايعه، فلم يختلف عليه أحد، وقام من فوره إلى مخدع بجانبه، ولبس الخلع السود الخليفتية، وتقلد بالسيف على العادة، وخرج شيخ مركب فرس النوبة، والأمراء وغيرهم مشاة، إلى أن عبر القصر الكبير من قلعة الجبل، فجلس على تخت الملك وسرير السلطنة، وقبل الأمراء الأرض بين يديه، وقبلوا يده.

فلما استقر له الأمر بعث وهو بالقصر القضاة إلى الخليفة ليسلموا عليه، ويشهدوا عليه بأنه فوض إليه السلطنة، كما جرت به عادة ملوك الترك بمصر، فدخلوا إليه وراودوه على ذلك، فتوقف في الإشهاد عليه بتفويض السلطنة توقفًا كبيرًا. ثم اشترط

أن يؤذن له في النزول من القلعة إلى داره، وأن يخلص له السلطان بأنه يناصحه سرًا وجهرًا، ويكون سلمًا لمن سالمه، حربًا لمن حاربه، فعاد القضاة إلى السلطان، وردوا الخبر عليه، وحسنوا عبارة الرد، فأجاب. ليمهل علينا أيامًا، فإن الآن لا يمكن نزوله إلى بيته. فنزلوا إلى دورهم، وكانت مدة إقامة الخليفة حاكمًا - منذ جلسته خارج دمشق إلى هذا اليوم - سبعة أشهر وخمسة أيام.

وإلى يوم الثلاثاء ثانيه: قدم الأمير جقمق الدوادار إلى دمشق، فتلقاه الناس، وأنزله الأمير نوروز بدار السعادة، وخلع عليه خلعة سنية، وفي ظنه أن الأمر بيد الخليفة. ثم سار بعد أيام إلى طرابلس.

* * *

سنة ست عشرة وثمانمائة

أهلت هذه السنة، وسلطان مصر والحرمين الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي، والخليفة المستعين بالله، ممنوع من التصرف، موكل به، وأتابك العسكر الأمير يلبغا الناصري. والدوادار الكبير الأمير طوغان الحسني. وأمير أخور الأمير قنباي المحمدي. وكاتب السر ناصر الدين محمد بن البارزي الحموي، وقضاة القضاة على ما كانوا عليه في السنة التي قبلها، ما عدا الحنفي، فإنه قاضي القضاة صدر الدين علي بن الآدمي الدمشقي. والمباشرون على ما كانوا عليه، ما عدا الأستادار، فإنه الأمير بدر الدين حسن بن محب الدين الطرابلسي، وحاجب الحجاب الأمير أينال الصصلاني، ووالي القاهرة الأمير تاج الدين تاج بن سيفا الشويكي، ونائب الإسكندرية الأمير غرس الدين خليل الجشاري، ونائب غزة الأمير ألطنبغا العثماني، والشام كله بيد الأمير نوروز الحافظي، وهو يدعو على المنابر بها لأمير المؤمنين المستعين بالله، ويضرب السكة باسمه، ويفتتح كتبه التي يبعثها إلى البلاد ومراسيمه التي تصدر عنه، بالإمامي المستعيني. ما خلا حلب، فإنها بيد السلطان، ونائبه بها الأمير دمرداش المحمدي.

وفي هذا الشهر: تزايد الطاعون في الناس بالقاهرة ومصر، وكان ابتداؤه من أخريات ذي الحجة الحرم، وهب يوم النحر ريح في غاية الشدة من ناحية الجنوب، واستمرت أيامًا، ففشا الطاعون والحميات الحادة المحرقة في الناس، لاسيما الأطفال والشباب.

* * *

سنة سبع عشرة وثمانمائة

أهلت هذه السنة، وخليفة الوقت المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد، والسلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، وأتابك العساكر الأمير الكبير يلبغا الناصري، وقاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابن قاضي القضاة شيخ الإسلام سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح البلقيني الشافعي، وقاضي القضاة الحنفية ناصر الدين محمد ابن كمال الدين عمر بن العديم الحلبي، وقاضي القضاة المالكية شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد الأموي المغربي، وقاضي القضاة الحنابلة مجد الدين سالم بن سالم بن أحمد ابن سالم بن عبد الملك المقدسي، وكاتب السر ناصر الدين محمد بن عثمان بن البارزي الحموي، والوزير الصاحب تاج الدين عبد الرزاق بن الهيصم، وناظر الخاص الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله بن حسون الفوي، وناظر الجيش علم الدين داود بن زين الدين عبد الرحمن بن الكويز الكركي. والأستادار الأمير فخر الدين عبد الغني ابن الأمير الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج، ونائب الإسكندرية الأمير المشير بدر الدين حسن بن محب الدين عبد الله الطرابلسي، ونائب عزة الأمير سودن قرا صقل. والشام كله بيد الأمير نوروز الحافظي ويقيم الخطة ويضرب السكة باسم أمير المؤمنين المستعين بالله، وهو مقيم في داره بقلعة الجبل، وقد منع من التصرف.

وفي يوم الثلاثاء عشرينه: نزل السلطان بغزة، ورحل منها في تاسع عشرينه.

شهر صفر أوله الأحد: في ثامنه: نزل السلطان على قبة يلبغا - خارج دمشق - وقد استعاد نوروز وحصن القلعة والمدينة، فأقام السلطان أيامًا، ثم رحل ونزل بطرف القبيبات. وكان السلطان - من الخربة - قد بعث قاضي القضاة مجد الدين سالم الحنبلي إلى الأمير نوروز ومعه قرا أول المؤيدي في طلب الصلح، فامتنع من ذلك، ووقعت الحرب، فانهزم نوروز، وامتنع بالقلعة في سادس عشرينه ونزل السلطان بالميدان، وحاصر القلعة، ورمى عليها بالمكاحل، والمدافع والمنجنيق، حتى بعث نوروز بالأمير قمش الأمان، فأجيب، ونزل من القلعة، ومعه الأمراء طوخ، ويشبك بن أزدمر، وسدن كستا، وقمش، وبرسبغا، وأينال، فقبض عليهم جميعًا في حادي عشرين شهر ربيع الآخر وقتل من ليلته، وحملت رأسه على يد الأمير جرباش إلى القاهرة، وعلى يده كتب البشارة. وذلك أن الأمير كزل نائب طرابلس قدم في

العشر الأخير من صفر، وقاتل عسكر نوروز، فركب السلطان بمن معه، فانهزم النوروزية إلى القلعة، وملك السلطان المدينة، ونزل بالإسطبل ودار السعادة، وحصر القلعة.

وفي يوم الخميس مستهل جمادى الأولى: قدم رأس نوروز، فعلق على باب القلعة، وارتجت البلد، ونودي بتقوية الزينة. وفيه خرج السلطان من دمشق، ونزل برزة، ورحل منها في ثانيه يريد حلب، فلما قدمها أقام بها إلى آخره، ثم سار منها أول جمادى الآخرة، ومضى إلى أبلستين، وأقام بها أيامًا، ودخل إلى ملطية، واستناب بها الأمير كزل المذكور، ثم عاد إلى حلب، وأقر بها الأمير أينال الصصلاني. وولى بحماة الأمير تنباك البجاسي، وبطرابلس الأمير سودن من عبد الرحمن، وبقلعة الروم جانباك الحمزاوي، بعد ما قتل نائبها طوغان، ثم قدم دمشق في ثالث شهر رجب، فقرر بنيابتها الأمير قنباي المحمدي، وسار منها.

أول شعبان: قد وصل السلطان إلى القدس، ومضى إلى غزة، فولى نيابتها الأمير طرباي في ثاني عشرينه، وسار فنزل على سرياقوس يوم الخميس رابع عشرين شعبان، فأقام هناك بقية الشهر، وعمل أوقاتًا بالخانكاه، أنعم فيها على أهلها وغيرهم بمال جزيل. وركب يوم الأربعاء سلخه، ونزل تجاه مسجد تبر، وبات هناك.

وفيه اشتد السلطان في أيام جلوسه للحكم بين الناس على المباشرين من الكتاب الأقباط، وضرب جماعة منهم بالمقارع، ووضع منهم، ولهج بذمهم، فذعروا ذعرًا زائدًا. وفيه ألزم اليهود بمبلغ ألفي مثقال من الذهب، وألزم النصارى بثمانية عشر ألف مثقال، لتتمة عشرين ألف مثقال، وذلك في نظير تفاوت ما كانوا يقومون به فيما مضى من الجزية، وتولى استخراج ذلك منهم زين الدين قاسم البشتكي المعروف بسيدي قاسم.

وفيها نزل ملك البرتقال من الفرنج على مدينة سبتة في ثلاثمائة مركب، وأقام بجزيرة فيما بينها وبين جبل الفتح - يقال لها طرف القنديل - مدة، حتى مل المسلمون الذين حشروا بسبتة من الجبال، ونفدت أزوادهم، وعادوا إلى حبالهم، فطرقها عند ذلك الفرنج، وقاتلوا المسلمين، وهزموهم، وركبوا أقفيتهم، وعبروا باب الميناء فتحمل المسلمون بما قدروا عليه، ومروا على وجوههم، فتملك البرتقال سبتة في سابع شعبان منها. وكان لذلك أسباب، منها أن بني مرين - ملوك فاس - لما ملكوها ساءت سيرتهم في أخذ أموال أهلها، ثم أن موسى بن أبي عنان، لما ملك، أعطى سبتة لأبي عبد الله محمد بن الأحمر، فنقل منها العدد الحربية بأجمعها إلى غرناطة،

فلما استرد بنو مرين سبتة ساءت سيرة عمالهم بها، وكثر ظلمهم، فوقع الوباء العظيم بها، حتى باد أعيانها، وكان من فساد ملك بني مرين وخراب فاس وأعمالها ما كان، فاغتنم الرند ذلك، ونزلوا على سبتة، فلم يجدوا فيها من يدفعهم، ولله عاقبة الأمور.
وفيها كانت وقعة بين الأمير محمد ابن عثمان وبين الأمير محمد بن قرمان، انهزم فيها ابن قرمان، ونجا بنفسه.

* * *

سنة ثمان عشرة وثمانمائة

أهلت، وخليفة الوقت المعتضد بالله أبو الفتح داود، والسلطان بديار مصر والشام والحرمين الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، وأتابك العساكر الأمير ألطنبغا العثماني، وأمير أخور الأمير ألطنبغا القرمشي والدوادار الأمير أقباي المؤيدي، ورأس نوبة النوب تنباك ميق، وأمير مجلس جانباك الصوفي، وأستادار الأمير بدر الدين حسن بن محب الدين عبد الله الطرابلسي، وقاضي القضاة الشافعية شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن بن البلقيني وقاضي القضاة الحنفية ناصر الدين محمد بن عمر ابن العديم، وقاضي القضاة المالكية جمال الدين عبد الله بن مقداد بن إسماعيل الأقفهسي. وقاضي القضاة الحنابلة مجد الدين سالم بن سالم بن عبد الملك المقدسي، وكاتب السر قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن محمد بن عثمان بن البارزي الحموي الشافعي، والوزير تاج الدين عبد الرزاق بن الهيصم، وناظر الخاص الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله، وناظر الجيش علم الدين داود بن عبد الرحمن بن الكويز، ونائب الإسكندرية الأمير صوماي الحسني، ونائب غزة الأمير طرباي، ونائب الشام الأمير قنباي المحمدي، ونائب طرابلس الأمير سودن من عبد الرحمن، ونائب حماة تنباك البجاسي، ونائب حلب الأمير أينال الصصلاني، وأمير مكة الشريف حسن بن عجلان الحسني، وأمير المدينة النبوية الشريف عزيز بن هيازع بن هبة الحسيني، ومتملك اليمن الملك الناصر أحمد بن الشرف إسماعيل بن رسول، ومتملك الروم محمد كرشجي بن خوندكار أبي يزيد بن مراد خان بن أورخان بن عثمان جق، وكان قد عدى من بر قسطنطينية يريد الأمير محمد باك بن قرمان، ففر إليه أعيان دولة بن قرمان، فملك أكثر بلاده وفر منه إلى بلاد الورسق، وامتنع بها، وأهلت هذه السنة وهم على هذا.

وفي هذا الشهر: اشتد الطلب على اليهود والنصارى، وأهينوا في استخراج العشرين ألف دينار إهانة بالغة، ونالهم للأعوان كلف كبيرة.

وفي هذه السنة: حدث غلاء عظيم بديار مصر، وذلك أن هذه السنة لما أهلت كانت الأسعار رخيصة، فلا يتجاوز الأردب القمح نصف دينار، إلا أن الغيث كان في أوانه قليلا بأرض مصر، فلم ينجب الزرع بنواحي الوجه البحري كله من الشرقية والغربية والبحيرة، ولا حصل منها وقت الحصاد طائل.

* * *

سنة تسع عشرة وثمانمائة

أهلت، وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والحجاز، الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، وخليفة الوقت المعتضد بالله أبو الفتح داود، وأتابك العساكر الأمير ألطنبغا القرمشي، وأمير أخور كبير تنبك ميق ورأس نوبة النوب الأمير بردباك. والدوادار الكبير الأمير جقمق، وحاجب الحجاب الأمير سودن قرا صقل، وقضاة القضاة على ما تقدم في السنة الماضية، ما عدا الحنبلي، فإنه قاضي القضاة علاء الدين علي بن محمود بن أبي بكر بن مغلي الحمري، ومباشري الدولة على ما مر في السنة الماضية، ما خلا الوزارة، فإنها شاغرة، ونائب الإسكندرية الأمير أقبردي المنقار، ونائب غزة الأمير مشترك، ونائب صفد الأمير خليل الجشاري، ونائب الشام الأمير ألطنبغا العثماني، ونائب طرابلس الأمير ونائب حماة الأمير جرقطلو، ونائب حلب الأمير أقباي.

وأما مكة فإن الشريف حسن بن عجلان عزل عن نيابة السلطنة ببلاد الحجاز، وعزل ابناه الشريف بركات والشريف أحمد عن إمرة مكة، في صفر من السنة الماضية، واستقر الشريف رميثة بن محمد بن عجلان في إمرة مكة. ودخل إليها بعد ما فارقها المذكورون في مستهل ذي الحجة منها، وأقام بها، فأهلت هذه السنة والأمر على هذا.

وفي سابع عشره: أشهد عليه السلطان بوقف الجامع الذي أنشأه بجوار باب زويلة، ووقف عليه عدة أماكن بالشام ومصر. وفيه تزايد بالسلطان ألم رجله، وتمادى به أيامًا.

وفي تاسع عشرينه: قدم الخبر بنزول الفرنج على ثغر نستراوه، ونهبهم وتحريقهم الثغر. فيه استقر الشيخ ولي الدين أبو زرعة أحمد بن الشيخ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي الشافعي في مشيخة المدرسة الجمالية برحبة باب العيد، بعد موت الشيخ همام الدين محمد بن أحمد الخوارزمي. وانقضى هذا الشهر، وقل دار بالقاهرة ومصر وظواهرهما لم يكن بها حزن على ميت وأقل ما قيل أنه مات من عاشر المحرم إلى آخر هذا الشهر عشرون ألفًا والمكثر يبالغ في العدد.

وفي هذا الشهر: قدم الفرنج في أربعة أغربة إلى مدنية يافا، وأسروا نحو الخمسين امرأة وطفلاً، وحاربهم المسلمون، وقتلوا منهم واحدًا، ثم افتكوا الأسرى

بخمسة عشر دينارًا كل أسير. ونزل في ثاني عشرينه على الإسكندرية فرنج في مركب بضاعة، فثار بينهم وبين بعض العتالين شر، إلى أن آل القتال، وأخذ الفرنج مركبًا فيها عدة من المسلمين، ولم يكفوا عن الحرب حتى بعث إليهم النائب غرماءهم من العتالين، وهم ثلاثة، فردوا ما أخذوه عند ذلك، ثم قدمت مركب للمغاربة، فأخذها الفرنج بما فيها، ولم ينج منهم سوى خمسة عشر نفرًا، سبحوا في الماء إلى البر، وأسر بقيتهم.

* * *

سنة عشرين وثمانمائة

أهلت، ومتملك مصر والشام والحجاز السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ المحمودي الظاهري، والأمير الكبير سيف الدين ألطنبغا القرمشي، وأمير سلاح سيف الدين قجقار القردمي، وأمير مجلس الأمير بيبغا المظفري، وأمير أخور تنبك ميق والدوادار الكبير الأمير جقمق، ورأس نوبه الأمير برد بك. وأمير جندار نكباي. ونائب الشام الأمير ألطنبغا العثماني، ونائب حلب الأمير أقباي، ونائب طرابلس الأمير يشبك اليوسفي، ونائب حماة الأمير حار قطلي، ونائب غزة الأمير اجترك، ونائب الكرك الأمير شاهين، وقضاة القضاة بمصر، وكاتب السر، وبقية المباشرين على حالهم كما تقدم.

شهر الله المحرم، أوله الخميس: فيه ورد الخبر بأن حديثة بن سيف أمير آل فضل لما توجه إلى مدينة الرحبة، صحبه نائبها الأمير زين الدين عمر بن شهري وطائفة من عسكر الشام، افترق عذرا وموسى ولدًا على بن نعير وتسحبا، فعادت العساكر، وأقام الأمير حديثة على الرحبة، ثم نزل قريبًا من تدمر، فأتاه عذرًا في نحو ثلاثة آلاف فارس، فحاربهم وكسرهم.

وفي ثانيه: جلس السلطان لعرض الأجناد البطالين، فعن منهم طائفة ليسافروا صحبته إلى الشام.

وفي سادس عشرينه: مات الأمير فرج بن السلطان الملك الناصر فرج بن السلطان الملك الظاهر برقوق، بثغر الإسكندرية، وقد ناهز الاحتلام فكان في هذا عبرة لمن يعتبر، فإن أباه الناصر فرج أخرج أخويه - عبد العزيز وإبراهيم - إلى الإسكندرية لما توجه إلى الشام، فماتا بها، واتهم أنه سمهما، ففعل الله كذلك بأولاده،

وأخرجهم المؤيد شيخ عند مسيره إلى الشام، وسجنهم بالإسكندرية، فمات فرج - أكبرهم - في هذا اليوم، وبموته يثورون، ويقيمونه في السلطة، ولا يزالون يتربصون الدوائر لأجل ذلك، فبطل ما كانوا يعملون.

وفي هذا الشهر: كثر الموت بدمياط والإسكندرية وما حولهما، وكان منه بالقاهرة شيء بلغ في اليوم عدة من يموت نحو الأربعين، وكل ذلك بالطاعون. وفيه واقع الأمير فخر الدين العرب بناحية القلندون من الأشمونين، وهزمهم.

* * *

سنة إحدى وعشرين وثماني مائة

أهل شهر الله المحرم بيوم الثلاثاء.

فيه قدم مبشرو الحاج، وأخبروا بسلامتهم.

وقدم الخبر من حلب بوقعة عظيمة بين علي باك بن دلغادر وأخيه محمد باك، انتصر فيها محمد، وكسر أخاه، وغنم جميع موجوده، فأدركه الأمير يشبك نائب حلب بعد الواقعة وقد انتصر، فتلقاه وأضافه، وقدم له وحلف على الطاعة. وفيه جهز الأمير جار قطلو نائب حماة وصفد إلى الإسكندرية، فسجن بها عند حضوره من صفد إلى قطيا، فحمل منها.

وفي رابع عشرينه: قدم الخبر بأن نائب غزة، وكاشف الرملة ونائب القدس، ساروا نجدة للأمير شاهين نائب الكرك على العرب، فتلقاهم ليسير بهم، ويقاتل العرب، فامسكوه - كما أسر إليهم السلطان - وحمل مع نائب القدس إلى دمشق، وسجن بقلعتها، وقبض معه على حاجب الكرك، واعتقل بقلعتها، وسبب إمساك شاهين هذا لم يحضر لملاقاة السلطان عند عوده من بلاد الروم. وقدم الخبر بأن نائب حلب سار بالعسكر الحلبي ونواب القلاع، وأمراء تركمان الطاعة، ونزل على قلعة كركر، في ثاني جمادى الآخرة هذا، وحصر خليل نائبها، وقد جلا أهل كركر عنها، واستعد خليل بقلعتها وحصنها.

وفيه قدم الخبر باستمرار ابن قرمان على حصار طرسوس ونزول قرايوسف على آمد، وفرار قرايلك منه، ونزوله على جانب الفرات تجاه قلعة نجمة، واستئذانه نائب حلب في التعدية، وأن أهل البلاد الحلبية عظم خوفهم، وعزموا على الفرار منها، مخافة أن يصيبهم مثل ما أصابهم في نوبة تمرلنك.

شهر رمضان، أوله الأحد: فيه قدم الخبر بأن قرايلك رحل من حلب، وأقام بها الأمير يشبك نازلاً بالميدان، وعنده نحو مائة وأربعين فارسًا، وقد خلت حلب من أهلها، إلا من التجأ إلى قلعتها. فأتاه النذير ليلاً أن عسكرا قرايوسف قد أدركه، فركب قبيل الصبح فإذا مقدمته معلى وطأة بابلاً فواقعهم وهزمهم، وقتل وأسر جماعة، فأخبروه أنهم جاءوا لكشف خبر قرايلك، وأن قرايوسف بعين تاب. فعاد وتوجه إلى سرمين، فلما بلغ قرايوسف هزيمة عسكره، كتب إلى نائب حلب يعتذر عن نزوله بعين تاب، وأنه ما قصد إلا قرايلك، فإنه أفسد في ماردين، فبعث إليه صاروخان - مهمندار حلب - فلقيه على جانب الفرات، وقد جازت مجموعة الفرات وهو على نية الجواز، فأكرمه واعتذر عن وصوله إلى عين تاب، وحلف أنه لم يقصد دخول الشام، وأعاده بهدية للنائب، فسر السلطان بذلك.

وكان سبب حركة قرايوسف، أن الأمير فخر الدين عثمان بن طر علي بن محمد - ويقال له قرايلك - صاحب آمد، نزل في أوائل شعبان على مدينة ماردين من بلاد قرايوسف، فأوقع بأهلها، وأسرف في قتلهم، وسبي نساءهم، وباع الأولاد والنساء، حتى أبيع صغير بدرهمين، وحرق المدينة، ورجع إلى آمد، فلما بلغ قرايوسف ذلك، اشتد حنقه وسار، ومعه الطائفة المخالفة للسلطان، يريد أخذ قرايلك، ونزل على آمد، ثم رحل عنها في ثامن شعبان جريدة خلف قرايلك، وقطع الفرات من شميصات في عاشره ولحق قرايلك، وضربه على نهر المرزبان ففر منه إلى حلب، وهو في أثره، فتوجه قرايلك من حلب، وكان من مواقعة نائب حلب لعسكر قرايوسف ما ذكر.

وفي تاسعه: قدم الخبر بأن قرايوسف أحرق أسواق عين تاب ونهبها، فصالحه أهلها على مائة ألف درهم، وأربعين فرسًا، فرحل عنها بعد أربعة أيام، إلى جهة البيرة، وعدى معظم جيشه إلى البر الشرقي في يوم الاثنين سابع عشر شعبان، وعدى من الغد، ونزل ببساتين البيرة وحصرها، فقاتله أهلها يومين وقتلوا منه جماعة، فدخل البلد، ونهب، واحرق الأسواق، حتى بقيت رمادًا، امتنع الناس منه ومعهم حريمهم بالقلعة، ثم رحل في تاسع عشره إلى جهة بلاده، بعد ما حرق ونهب جميع معاملة البيرة، فسر السلطان برجوع قرايوسف، وفتر عزمه عن السفر إلى الشام. وقدم الخبر بأن ابن قرمان حارب أهل طرسوس، فقتل بين الفريقين خلق كثير، إلى أن رحل عنها في سابع شعبان من ألم اشتد بباطنه.

وفي خامسه: ركب السلطان المحفة - وهو مريض - وسرح، ثم عاد من آخره.

* * *

سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة

أهلت وخليفة الوقت المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد، وسلطان مصر والشام والحجاز الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، والأمير الكبير ألطنبغا القرمشي، وأتابك العساكر المقام الصارمي إبراهيم ابن السلطان، والدوادار الأمير جقمق، ورأس نوبة الأمير ألطنبغا الصغير، وأمير سلاح الأمير قجقار القردمي، وأمير مجلس الأمير ططر، وكاتب السر ناصر الدين محمد بن البارزي، والوزير وناظر الخاص الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله، أحد الأمراء مقدمي الألوف، والأستادار الأمير أبو بكر، وناظر الجيش علم الدين داود بن الكويز، وقضاة القضاة على حالهم، ونائب الشام الأمير تنبك ميق العلاي، ونائب حلب الأمير يشبك اليوسفي، ونائب طرابلس الأمير سودن القاضي، ونائب حماة الأمير شاهين الزردكاش، ونائب صفد الأمير قرا مراد خجا، ونائب الإسكندرية ناصر الدين محمد بن العطار.

وفي سابعه: استدعى بطرك النصارى، وقد اجتمع القضاة ومشايخ العلم عند السلطان، فأوقف على قدميه، ووبخ وقرع، وأنكر عليه ما بالمسلمين من الذل في بلاد الحبشة، تحت حكم الحطي متملكها، وهدد بالقتل، فانتدب له محتسب القاهرة صدر الدين أحمد بن العجمي وأسمعه المكروه له من أجل تهاون النصارى فيما أمروا به من التزام الذلة والصغار في ملبسهم وهيأتهم، وطال الخطاب في معنى ذلك إلى أن استقر الحال على أن لا يباشر أحد من النصارى في ديوان السلطان، ولا عند أحد من الأمراء، ولا يخرج أحد منهم عما يلزموا به من الصغار، ثم طلب السلطان بالإكرام فضائل النصراني كاتب الوزير، وكان قد سجن منذ أيام، فضربه بالمقارع وشهره بالقاهرة، عريانًا بين يدي المحتسب، وهو ينادي عليه هذا جزاء من يباشر من النصارى في ديوان السلطان. ثم سجن بعد إشهاره، فانكف النصارى عن مباشرة الديوان ولزموا بيوتهم، وصغروا عمائهم، وضيقوا أكمامهم، وألتزم اليهود مثل ذلك، وامتنعوا جميعهم من ركوب الحمير في القاهرة، فإذا خرجوا من القاهرة ركبوا الحمير عرضًا، وأنف جماعة من النصارى الكتاب أن يفعلوا ذلك، وبذلوا جهدهم في السعي، فلما لم يجابوا إلى عودهم إلى ما كانوا عليه، تتابع عدة منهم في إظهار الإسلام، وصاروا من ركوب الحمير إلى ركوب الخيول المسومة، والتعاظم على

أعيان أهل الإسلام، والانتقام منهم بإذلالهم، وتعويق معاليمهم ورواتبهم، حتى يخضعوا لهم، ويترددوا إلى دورهم، ويلحوا في السؤال لهم، ولا قوة إلا بالله.

وفيه قدم الخبر بتوجه ابن السلطان من مدينة قيسارية إلى جهة قونية في خامس عشر شهر ربيع الآخر، بعدما مهد أمور قيسارية، ورتب أحوالها، ونقش اسم السلطان على بابها وأن الأمير تنبك ميق نائب الشام، لما وصل إلى العمق، حضر إليه الأمير حمزة ابن رمضان بجمائعه من التركمان، وتوجه معه هو - وابن أرزر - إلى قريب المصيصة، وأخذ أذنة وطرسوس.

* * *

سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة

أهلت وخليفة الوقت المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد. وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والحجاز والروم، السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، والأمير الكبير ألطنبغا القرمشي. وأتابك العساكر المقام الصارمي إبراهيم ابن السلطان. وأمير أخور الأمير طوغان. والدوادار الأمير مقبل، من أمراء الطبلخاناه. وأمير سلاح الأمير قجقار القردمي. وأمير مجلس الأمير ططر. ورأس نوبة الأمير ألطنبغا من عبد الواحد، المعروف بالصغير، وحاجب الحجاب الأمير ألطنبغا المرقبي. ونائب الشام الأمير جقمق. ونائب حلب الأمير يشبك اليوسفي. ونائب حماة الأمير شاهين الزرد كاش. ونائب صفد الأمير قطلوبغا التنمي. ونائب غزة الأمير أينال السيفي نوروز. ونائب الأبلستين وقيسارية الروم ونكدة ولارندة ولؤلؤة الأمير على باك بن قرمان. ونائب سيس الأمير بردبك العجمي.

ونائب طرسوس الأمير بيكي باك التركماني، ونائب أياس الأمير في درمش. ونائب دوركي ناصر الدين محمد بن شهري. ونائب مالطية الأمير منكلى بغا الأرغن شاوي. ونائب كختا الأمير أكزل بغا. ونائب قلعة الروم الأمير أق فجا. ونائب البيرة الأمير ألطنبغا الصفوي. ونائب الرها الأمير طور علي ابن الأمير عثمان بن طور علي، المعروف بقرايلك. ونائب جعبر الأمير عمر الجعبري. ونائب الرحبة الأمير أرغون شاه الشرفي. وأمير مكة المشرفة الشريف حسن بن عجلان. وأمير المدينة النبوية الشريف عزيز بن هيازع. وأمير ينبع الشريف مقبل بن نخبار الحسني. ونائب

الإسكندرية الأمير ناصر الدين محمد بن العطار.

شهر الله المحرم، أوله الأربعاء: أهل والسلطان في الصيد، فقدم إلى القلعة. وجلس من الغد - يوم الخميس - بالإيوان المعروف بدار العدل. وحضر الأمراء والقضاة وسائر أرباب الدولة. وأوقفت العساكر من المماليك السلطانية. وأجناد الحلقة، والنقباء، والأوجاقية، صفوفًا من تحت القلعة إلى باب الإيوان. وأحضر بالأمير محمد بن قرمان - وهو مقيد - ومعه داود بن دلغادر، فمرا في العساكر، ثم في الطبردارية، والسلاح دارية، وبأيديهم السلاح، حتى دخلا، فمثلا قائمين بين يدي السلطان، وقد جلس على تخت الملك. فأمر بإيقاف الأمير دواوين بن دلغادر مع الأمراء، وتأخير ابن قرمان. ثم نهض السلطان قائمًا إلى القصر، وأحضر ابن قرمان وأنعم على داود، وأركب هو ومملوك أبيه قانباي بالقماش الذهب. ورتب له ما يليق به. ثم أمر بابن قرمان فجلس، ولامه السلطان على تعرضه لطرسوس، وشرهه لما أوجب وقوعه في الأسر. ووبخه على قبيح سيرته، وتعرضه لأخذ أموال رعيته، وعلى خيانته لكرشجي بن عثمان متملك برصا، وإحراقه بعض بلاده، بعد ما من عليه وأطلقه. فسأل العفو. ثم قال: لمن يعطي مولانا السلطان البلاد؟ فضحك منه، وقال له: وما أنت والبلاد؟. ثم أمر به فأخرج إلى الاعتقال، فسجن بالقلعة. وأمر السلطان بأن يكتب ابن قرمان إلى نوابه بالبلاد القرمانية أن يسلموا ما بقى بأيديهم منها إلى نواب السلطان، وأعلم أنهم متى لم يسلموا ما قد بقي بأيديهم منها إلى نواب السلطان وإلا قتل، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة.

واشتد بالسلطان الألم وتزايد به إلى يوم الأربعاء رابع عشرينه، نودي في القاهرة بإبطال مكس الفاكهة البلدية والمجلوبة، وهو في كل سنة نحو ستة آلاف دينار سوى ما يأخذه القبط الكتبة والأعوان - ويقارب ذلك - فبطل، ونقش ذلك على باب الجامع المؤيدي.

وفي هذا الشهر: كثر الوباء بالإسكندرية والبحيرة، وكثر الإرجاف بحركة قرا يوسف إلى جهة البلاد الشامية.

شهر جمادى الأولى، أوله الأربعاء: وفي ثانيه: ركب السلطان - وقد أبل من مرضه - إلى خارج القاهرة وعبر من باب النصر، وقد زينت المدينة فرحًا بعافيته، وأشعلت الشموع والقناديل، فمر إلى القلعة.

فيه وصل رأس بير عمر حاكم أرزنكان، وكان السلطان قد كتب محاضر وفتاوي بكفر قرا يوسف وولده حاكم بغداد، فأفتى مشايخ العلم بوجوب قتاله. ورسم

للأمراء بالتهيؤ للسفر، وحملت إليهم النفقات، فوقع الشروع في تجهيز أمور السفر. ونودي في رابعه، وقد ركب الخليفة والقضاة الأربع بنوابهم، وبين يديهم بدر الدين حسن البرديني أحد نواب الحكم الشافعية، وهو راكب يقرأ من ورقة استنفار الناس لقتال قرا يوسف، وتعداد قبائحه ومساوئه، فاضطرب الناس، وكثر جزعهم.

شهر رمضان المعظم، أوله الثلاثاء: أهل، وقد انتقض على السلطان ألم رجله.

وفي رابعه: ركب السلطان في المحفة إلى منظرة الخمس وجوه التي استجدها، وقد كملت، ثم عاد من يومه.

* * *

سنة أربع وعشرين وثمانمائة

أهلت وخليفة الوقت المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد. والسلطان بديار مصر والشام والحجاز الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري، وهو مريض، ومعظم عسكر مصر بمدينة حلب صحبة الأمير الكبير ألطنبغا القرماشي أتابك العساكر، ومعه من الأمراء طوغان أمير أخور، وألطنبغا من عبد الواحد - المعروف بالصغير - رأس نوبة النوب، وألطنبغا المرقبي حاجب الحجاب، وجرباش الكريمي رأس نوبة، وغيرهم. وعند السلطان من الأمراء قجقار القردمي أمير سلاح، وططر أمير مجلس، وتنبك ميق العلاي، ومقبل الدوادار. والوزير يومئذ الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله. ووظيفة نظر الخاص ليست بيد أحد، وإنما يتحدث فيها عن السلطان الطواشي مرجان الهندي الخازندار. وأستادار الأمير يشبك أينالي. وكاتب السر كمال الدين محمد بن محمد بن البارزي، وقاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن بن البلقيني الشافعي. وقاضي القضاة الحنفية زين الدين عبد الرحمن التفهني. وقاضي القضاة المالكية بديار مصر شمس الدين محمد البساطي. وقاضي القضاة الحنابلة علاء الدين علي بن مغلي. ونائب الإسكندرية ناصر الدين محمد بن أحمد بن عمر بن العطار. ونائب غزة أركماس الجلباني. ونائب الشام جقمق الدوادار. ونائب حلب يشبك اليوسفي، ونائب قيصرية الروم محمد بك بن دلغادر التركماني. ونائب صفد قطلوبغا التنمي. ونائب طرابلس اسنبغا الزردكاش. ونائب حماة أق بلاط. وأمير مكة الشريف حسن بن عجلان. وأمير المدينة النبوية الشريف عزير بن هيازع، ومتملك اليمن الملك الناصر

أحمد بن الأشرف إسماعيل. ومتملك بلاد الشرق شاه رخ بن تيمور كركان، ومتملك بلاد الروم سلطان محمد كرشجي بن خوندكار بايزيد بن مراد بن عثمان. ومحتسب القاهرة إبراهيم ابن الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام. ووالي القاهرة بكلمش ابن فري. وكاشف الوجه القبلي دمرداش. وكاشف الوجه البحري حسين الكردي ابن الشيخ عمر، وكان مشكور السيرة على تقوى، كما ذكر.

هذا والناس في القاهرة على تخوف وقوع الفتنة بموت السلطان. وقد كثر عبث المفسدين وقطاع الطريق ببلاد الصعيد. وفحش قتل الأنفس، وأخذ الأموال هناك. ومع ذلك فالأسواق كاسدة، والبضائع بأيدي التجار بايرة، والأحوال واقفة، والشكاية قد عمت، فلا تجد إلا شاكيًا وقوف حاله، وقلة مكسبه. وجور الولاة والحكام وأتباعهم متزايد، فنسأل الله حسن العاقبة.

وفي يوم الخميس خامسه: صعد الأمراء قلعة الجبل، وجلسوا على باب الدار، فخرج إليهم الطواشي واعتذر لهم عن دخولهم، فانصرفوا، وكانوا على هذا منذ أيام. والإرجاف يقوي، فإن السلطان أفرط به الإسهال مع تنوع الأسقام، وتزايد الآلام، بحيث قال لي طبيبه: لم يبق مرض من الأمراض حتى حصل له. وقد افترق الأمراء فرقا، فطلب الأمراء الذين في القلعة - وكبيرهم ططر - الأمير التاج الشويكي، وخلعوا عليه في بعض دور القلعة، وجعلوه والي القاهرة، وشقها في تجمل زائد، أرهب به من كان يخاف منه أن يمد يده إلى النهب من مفسدي العامة. وما برح الإرجاف بالسلطان في كل يوم، حتى مات قبيل الظهر من يوم الاثنين تاسعه، فارتج الناس ساعة، ثم سكنوا. فطلب القضاة والخليفة لإقامة ابن السلطان، فأقيم في السلطنة. وأخذ في جهاز المؤيد، وصلى عليه خارج باب القلة، وحمل إلى الجامع المؤيدي، فدفن بالقبة قبيل العصر، ولم يشهد دفنه كثير أحد من الأمراء والمماليك، لتأخرهم بالقلعة، فيما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

واتفق في أمر المؤيد موعظة فيها أعظم عبرة، وهو أنه لما غسل لم يوجد له منشفة ينشف بها، فنشف بمنديل بعض من حضر غسله. ولا وجد له مئزر تسر به عورته، حتى آخذ له مئزر رصوف صعيدي من فوق رأس بعض جواريه فستر به ولا وجد له حتى أخذ له طاسة يصب عليه بها الماء وهو يغسل مع كثرة ما خلفه من أنواع الأموال.

ومات وقد أناف على الخمسين، وكانت مدة ملكه ثماني سنين، وخمسة أشهر، وثمانية أيام. وكان شجاعًا، مقدامًا، يحب أهل العلم، ويجالسهم، ويجل الشرع النبوي،

ويذعن له، ولا ينكر على من طلبه منه إذا تحاكم إليه أن يمضي من بين يديه إلى قضاة الشرع، بل يعجبه ذلك. وينكر على أمرائه معارضة القضاة في أحكامهم. وكان غير مائل إلى شيء من البدع. وله قيام في الليل إلى التهجد أحيانًا. إلا أنه كان بخيلاً، مسيكًا يشح حتى بالأكل، لجوجًا، غضوبًا، نكدًا، حسودًا، معيانًا، يتظاهر بأنواع المنكرات، فحاشًا، سبابًا بذيا شديد المهابة، حافظًا لأصحابه، غير مفرط فيهم، ولا مضيعًا لهم، وهو أكثر أسباب خراب مصر والشام، لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن أيام نيابته بطرابلس ودمشق. ثم ما أفسده في أيام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد، وتسليط أتباعه على الناس، يسومونهم الذلة، ويأخذون ما قدروا عليه، بغير وازع من عقل، ولا ناه من دين.

* * *

السلطان أبو السعادات أحمد بن المؤيد

السلطان الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ أقيم في السلطة يوم مات أبوه، على مضى خمس درج من نصف نهار الاثنين، تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثماني مائة، وعمره سنة واحدة، وثمانية أشهر، وسبعة أيام. وأركب على فرس من باب الستارة، فبكى. وساروا به وهو يبكي إلى القصر، حيث الأمراء والقضاة والخليفة، فقبلوا له الأرض، ولقبوه بالملك المظفر أبي السعادات. وأمر في الحال، فنودي في القلعة والقاهرة أن يترحم الناس على الملك المؤيد، ويدعوا للملك المظفر ولده. وأخذ في جهاز المؤيد ودفنه. وقبض على الأمير قجقار القردمي أمير سلاح قبل دفن المؤيد، وأحيط بمباشريه وحواصله، بإشارة الأمير ططر، وبات بالقلعة والناس على تخوف.

وفي عاشره: جمع الأمير الكبير ططر عنده بالأشرفية من القلعة قضاة القضاة وأمراء الدولة ومباشريها، وكثيرًا من المماليك السلطانية، وأعلمهم بأن نواب الشام والأمير ألطنبغا القرمشي ومن معه من الأمراء المجردين لم يرضوا بما عمل بعد موت المؤيد، ولا بد للناس من حاكم يتولى تدبير أمورهم، ولا بد أن يعينوا رجلاً ترضونه ليقوم بأعباء المملكة ويستبد بالسلطنة. فقال الجميع قد رضينا بك. وكان الخليفة حاضرًا فيهم، فأشهد عليه أنه فوض جميع أمور الرعية إلى الأمير الكبير ططر، وجعل إليه ولاية من يرى ولايته، وعزل من يريد عزله من سائر الناس، وأن يعطي من شاء ما شاء ويمنع من يختار من العطاء، ما عدا اللقب السلطاني، والدعاء له على المنابر، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم، فإن هذه الثلاثة أشياء باقية على ما هي عليه للملك المظفر. وأثبت قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التفهني هذا الإشهاد، وحكم بصحته. ونفذ حكمه قضاة القضاة الثلاثة. ثم حلف الأمراء للأمير الكبير يمينهم المعهودة. وكان سبب هذا أن بعض فقهاء الحنفية تقرب إلى الأمير الكبير بنقل أخرجه إليه من فروع مذهبه أن السلطان إذا كان صغيرًا وأجمع أهل الشوكة على إقامة رجل ليتحدث عنه حتى يبلغ رشده نفذت أحكامه، وأقام أيامًا يحسن له ذلك، فاتفق ورود الخبر باستيلاء جقمق على قلعة دمشق. ثم ردفه خبر آخر، بأنه جهز عدة أمراء إلى غزة، فعمل ما تقدم ذكره ليكون فيه تقوية لقلوب العسكر، وأنهم على حق، ومن يخالفهم على باطل.

شهر شعبان، أوله الجمعة: في يوم الاثنين حادي عشره - الموافق لثامن عشر

مسرى -: كان وفاء النيل ستة عشر ذراعًا، وفتح الخليج على العادة. وقدم الخبر بأن الأمير برسباي الدقماقي نائب طرابلس - كان - بعثه الأمير ططر من حلب، ومعه القاضي بدر الدين محمد بن مزهر ناظر الاصطبل إلى صرخد، وأنه ما زال بالأمير جقمق حتى أذعن، وسار معه إلى دمشق، وصحبه الأمير طوغار أمير أخور. فلما قدموا دمشق قبض الأمير تنبك ميق النائب على جقمق وطوغان وسجنهما. وأن الأمير ططر برز من حلب بمن معه في حادي عشره، وأنه قدم بهم إلى دمشق في ثالث عشرينه، فقتل جقمق نائب الشام ونفى طوغان إلى القدس بطالا. وأنه قبض في ثامن عشرينه على كثير من الأمراء منهم سبعة من أمراء الألوف بمصر، وهم أينال الأزعري حاجب الحجاب وأينال الجكمي نائب حلب، وأمير سلاح، وسودن اللكاشي، وجلبان أمير أخور، وألي بيه الدوادار، ويشبك أينالي أستادار، وأزدمر الناصري. وقبض على الطواشي مرجان الخازندار، ثم أفرج عنه. وعزم على خلع المظفر من السلطنة، وخلعه في تاسع عشرينه فكانت مدته سبعه أشهر وعشرين يومًا.

* * *

السلطان سيف الدين أبو الفتح ططر

السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر جلس على تخت الملك بقلعة دمشق في يوم الجمعة تاسع عشرين شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، الموافق له يوم نوروز القبط بمصر، وتلقب بالملك الظاهر. وخطب له من يومه على منابر دمشق وكتب إلى مصر وحلب وحماة وحمص وطرابلس وصفد وغزة بذلك.

وفي ثامنه: قدم الخبر بسلطنة الأمير ططر، فنودي بذلك في القاهرة، ودقت البشائر بقلعة الجبل.

وفي يوم الاثنين سابع عشره: برز السلطان من دمشق عائدًا إلى مصر، بعد ما أثر بدمشق آثارًا جميلة، منها أن نائب الشام كان له محتسب دمشق في كل سنة نحو الألف وخمسمائة دينار يحملها إليه، ويتعوضها بزيادة من مظالم العباد، فعوض السلطان نائب الشام عن هذا المبلغ بلد أربل، ويتحصل له منها في السنة نحو الألفين وخمسمائة دينار، وولى حسبة دمشق لرجل بغير مال، ونادى إن طلب منكم المحتسب يا أهل دمشق شيئًا فارجموه. ونقش بإبطال هذه الحادثة - وما كان منه فيها - على حجر بجامع بني أمية.

ثم مر السلطان في طريقة بمدينة القدس، فرفع إليه أن من عادة نائبها أن يجبي كل سنة من فلاحي الضياع نحو أربعة آلاف دينار، وبسبب ذلك خربت معاملة القدس، فعوض النائب عن ذلك. ونادى بإبطال هذه المغارم، ونقشه على حجر بالمسجد، فتباشر الناس بأيامه، ورجوا أن يزيل الله عنهم به ما هم فيه من الجور.

وفيه نزل السلطان بالصالحية، فخرج الناس إلى لقائه، وقد تزايد السرور به، فصعد قلعة الجبل في يوم الخميس رابعه، وأنزل المظفر مع أمه في بعض دور القلعة.

شهر ذي الحجة، أوله يوم الخميس.

أهل والسلطان مرضه متزايد، والإرجاف به كبيره وفي يوم الجمعة - ثانيه -: استدعى الخليفة والقضاة إلى القلعة، وقد اجتمع الأمراء والمباشرون والمماليك، وعهد السلطان لابنه الأمير محمد، وأن يكون القائم بدولته الأمير جانبك الصوفي، والأمير برسباي الدقماقي لالا، فحلف الأمراء على ذلك، كما حلفوا لابن الملك المؤيد.

وفيه أذن لقاضي القضاة ولي الدين بن العراقي أن يحكم، وأعيد إلى القضاء. وكان من حين عزل نفسه قد انكف هو ونوابه عن الحكم، فصلى بالناس الجمعة، بعد ما خطب في جامع القلعة، ونزل من غير أن يخلع عليه، شغلا. فمرض السلطان.

وفيه أخذ الناس في توزيع أمتعتهم من الدور والحوانيت خوفًا من الفتنة، فلما كانت ضحوة نهار الأحد رابعه، توفي السلطان، فاضطرب الناس ساعة، ثم غسل وأخرج من باب السلسة، وليس معه إلا نحو العشرين رجلاً، حتى دفن بجوار الليث بن سعد من القرافة. فكانت مدة تحكمه منذ مات المؤيد أحد عشر شهرًا تنقص خمسة أيام، منها مدة سلطنته أربعة وتسعون يومًا. وكان جركسي الجنس، رباه بعض التجار، وعلمه شيئًا من القرآن وفقه الحنفية. وقدم به القاهرة في سنة إحدى وثمانمائة، وهو صبي، فدل عليه الأمير قانبيه العلاي لقرابته به، فسأل السلطان الملك الظاهر فيه حتى أخذه من تاجره. ومات السلطان قبل أن يصرف ثمنه. فوزن الأمير الكبير أيتمش ثمنه اثني عشر ألف درهم. ونزله في جملة مماليك الطباق، فنشأ بينهم، وكان الملك الناصر فرج اعتقه، فلم يزل في مماليك الطاق، حتى عاد الناصر إلى السلطة بعد أخيه المنصور عبد العزيز، فأخرج له الخيل، وأعطاه إقطاعًا في الحلقة، فانضم إلى الأمير نوروز الحافظي، وتقلب معه في بحار تلك الفتن، وفر إليه بالشام، ثم صار منه إلى جماعة الأمير شيخ. وما زال معه حتى قتل الناصر، وقدم إلى مصر، وتسلطن، فأمره، وتنقل حتى صار سلطانًا، فلم يتهن. وكان أولا كالمحجور عليه مع إلى بيه الدوادار، وتغري بردي من قصروه أمير أخور. ثم تعلل منذ خرج من حلب، فلم يقم بقلعة الجبل سوى ثمانية عشر يومًا. وألجأه تعلله إلى لزوم الفراش، حتى مات. وكان يميل إلى تدين، وفيه لين، وإعصاء، وكرم، مع طيش، وخفة. وكان شديد التعصب لمذهب الحنفية. يريد أن لا يدع أحدًا من الفقهاء غير الحنفية. وأتلف في مدته - مع قلتها - أموالا عظيمة، وحمل الدولة كلفا كثيرة، أتعب بها من بعده. ولم تطل أيامه حتى تشكر أفعاله أو تدم.

* * *

السلطان ناصر الدين محمد بن الظاهر ططر

السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد بن الظاهر ططر.

أقيم في السلطنة بعهد أبيه إليه، وعمره نحو العشر سنين، عقيب موت أبيه. في يوم الأحد رابع ذي الحجة، سنة أربع وعشرين وثمانمائة قد اجتمع الأمراء بالقلعة، إلا الأمير جانبك الصوفي فإنه لم يحضر، فما زالوا به حتى حضر، وأجلسوا السلطان، ولقبوه بالملك الصالح. ونودي في القاهرة أن يترحموا على الملك الظاهر، ويدعوا للملك الصالح وسكن الأمير جانبك الصوفي بالحراقة من باب السلسة، وانضم إليه معظم الأمراء والمماليك. وأقام الأمير برسباي الدقماقي بالقلعة، في عدة من الأمراء والمماليك، منهم الأمير طرباي حاجب الحجاب، والأمير قصروه رأس نوبة، والأمير جقمق، وباتوا بأجمعهم مستعدين. وأصبحوا يوم الاثنين خامسه وقد تجمع المماليك يطلبون النفقة عليهم، والأضحية، وأغلظوا في القول، حتى كادت الحرب أن تكون. فترضاهم الأمراء حتى تفرق جمعهم. وبات العسكر على أهبة القتال. وأصبحوا يوم الثلاثاء سادسه في تفرقة الأضاحي، فأخذ كل مملوك رأسان من الضأن. وتجمعوا تحت القلعة لطلب النفقة، فطال النزاع بينهم وبين الأمير جانبك الصوفي، حتى تراضوا أن ينفق فيهم بعد عشرة أيام من غير أن يعين لهم مقدار ما ينفقه فيهم، فانفضوا وبعث الأمير جانبك إلى الأمير برسباي أن ينزل من القلعة هو والأمير طرباي والأمير قصروه، وأن يسكنوا في دورهم ويقيم الأمير جقمق عند السلطان. فنزل الأمير طرباي مظهرًا أنه في طاعة الأمير جانبك وهو في الباطن بخلاف ذلك، فإنه أخذ في تدبير أمره وإحكام الأمر للأمير برسباي. واستمال كثير من المماليك، وأصبح في يوم الأربعاء ثامنه الأمير جانبك الصوفي متوعكًا، وقد أشيع أنه قصد بذلك مكيدة فتمادى الحال إلى يوم الخميس تاسعه. وأصبح يوم الجمعة عاشره، وهو يوم النحر، وقد أخرج الأمير برسباي بالسلطان من قصره إلى الجامع بالقلعة، ومعه الأمير قصروه، فصلى بهم قاضي القضاة ولي الدين العراقي صلاة العيد، وخطب على العادة. ثم مضى الأميران بالسلطان إلى باب الستارة، فذبح السلطان هناك طائفة من غنم الأضحية، وذبح الأمير برسباي ما هنالك من البقر وبقية الغنم. وبينما هم في ذلك إذ رمى المماليك بالنشاب من أعلا القلعة على الأمير جانبك، وهو بالحراقة من باب السلسلة، فاضطرب الناس وللحال أغلق باب القلعة، ودقت الكوسات حربيا، فخرج الأمير طرباي من داره في عسكر كبير، وقد لبسوا

جميعهم لامة الحرب. وطلع ومعه الأمير قجق إلى الأمير جانبك الصوفي بالحراقة، وأخذ يلومه على تأخره عن الطلوع لصلاة العيد، ومازال يخدعه حتى انخدع له، وركب معه ليشتروا في بيت الأمير بيبغا المظفري على ما يعمل. وكان بيبغا قد تأخر عن الركوب، وأقام في داره. ومضوا وقد ركب مع جانبك الأمير يشبك أمير أخور. فما هو إلا أن صاروا في داخل بيت بيبغا المظفري إذا بباب الدار قد أغلق، وأحيط بجانبك الصوفي، ويشبك أمير أخور وقيدا، وأخذا أسيرين إلى القلعة، ونودي بالنفقة في المماليك مائة دينار لكل واحد، فكأنها جمرة طفيت. وللحال سكنت الفتنة، كأن لم تكن، فلم تنتطح فيها عنزان. ونودي في القاهرة بالأمان، فقد قبض على أعداء السلطان، ففتحت أبواب القاهرة، بعد ما أغلقت. واطمأن الناس بعد ما كان في ظنهم أن الفتنة تطول. وكل ذلك في ضحى النهار، فسبحان من بيده الأمر كله.

وفي يوم السبت حادي عشره: استدعى الأمير أرغون شاه أستادار الأمير نوروز الحافظي. وكان قد قدم من دمشق في خدمة الظاهر ططر، فصعد القلعة، وخلع عليه الأمير برسباي، واستقر استادارا، عوضًا عن الأمير صلاح الدين محمد بن نصر الله.

وفيه حمل الأمير جانبك الصوفي والأمير يشبك مقيدين من القلعة إلى الإسكندرية، فسجنا بها.

وفي يوم الأحد ثاني عشره: أعيد الصاحب تاج الدين بن الهيصم إلى نظر الديوان المفرد. وكان قد عزل عنه بدمشق في شهر رمضان. وعاد إلى القاهرة بطالاً.

وفي يوم الاثنين ثالث عشره: خلع على الأمير آق قجا، واستقر في كشف الوجه القبلي، وكان قد وليه في الأيام الظاهرية ططر. وساءت سيرته حتى أشيع أنه افتض مائة بكر غصبًا، إلى غير ذلك.

وفي يوم الخميس سادس عشره: اجتمع الأمراء بالخدمة في القصر. وقد أخرج السلطان من عند أمه وأجلس ثم خلع على الأمير برسباي الدقماقي الدوادار، واستقر نظام الملك، كما كان الظاهر ططر قبل أن يتسلطن. وكان الأمير برسباي منذ اشتد مرض الظاهر مقيمًا بالقلعة، لم ينزل منها طول هذه المدة.

وفيه فوض الخليفة إلى الأمير الكبير نظام الملك برسباي أمور المملكة بأسرها، ليقوم بها إلى أن يبلغ السلطان رشده. وحكم بصحة ذلك قاضي القضاة الحنفي.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرينه: ابتدأ الأمير نظام الملك برسباي في نفقة المماليك، وهو والأمراء على تخوف منهم أن يمتنعوا من أخذها. وذلك أنهم وعدوا في نوبة جانبك الصوفي. بمائة دينار لكل واحد، فلم يصرف لكل واحد منهم سوى خمسين دينارًا من أجل قلة المال، فإن الظاهر ططر أتلف المال الذي كان خلفه المؤيد شيخ حتى لم يبق منه غير ستين ألف دينار. ومع ذلك فإنه زاد في نفقة المماليك المقررة بالديوان المفرد كل شهر ما ينيف على عشرة آلاف دينار. فأحسن الأمير صلاح الدين محمد الأستادار بالعجز واستعفى؛ على أنه قام هو وأبوه الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخاص بعشرة آلاف دينار عن ثمن الأضحية، وبعشرين ألف دينار في نفقة المماليك. وتسلم منهما الأمير أرغون شاه عشرين ألف أردب شعيرًا. وعندما استقر أرغون شاه أستادارا، وهب الناس واشتد عليهم، وخشن جانبه، حتى غلقت أسواق القاهرة ومصر عدة أيام خوفًا من بطشه. وكتب يطلب متدركي النواحي ليصادرهم. وقرر على مباشري الدولة بأسرهم أموالاً يحملونها إليه، فقرر على الوزير الصاحب تاج الدين بن كلاب المناخ ستة آلاف دينار، وعلى الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخاص عشرة آلاف دينار، وعلى من دونهما بحسب ما سولت له نفسه، حتى اجتمع من ذلك نفقة المماليك، فأنفق في ثلاثة آلاف ومائتي مملوك مبلغ مائة وستين ألف دينار، فأخذوا النفقة، وانفضوا بغير شر، ولله الحمد.

* * *

سنة خمس وعشرين وثمانمائة

أهلت وسلطان مصر والشام الملك الصالح ناصر الدين محمد بن الظاهر ططر. والقائم بأمور الدولة الأمير الكبير نظام الملك برسباي الدقماقي. والأمير الكبير الأتابك طرباي. والدوادار الأمير سودن من عبد الرحمن. وأمير سلاح بيبغا المظفري. وأمير مجلس الأمير قجق. وأمير أخور الأمير قصروه. ورأس نوبة الأمير أزبك. والوزير تاج الدين عبد الرزاق ابن كاتب المناخ. وكاتب السر علم الدين داود بن الكويز. وناظر الخاص بدر الدين حسن بن نصر الله. وأستادار الأمير أرغون شاه. وقاضي القضاة الشافعي ولي الدين أبو زرعة أحمد ابن العراقي. وباقيهم كما تقدم في السنة الخالية. وكاشف الوجه القبلي الأمير أقجا ونائب الإسكندرية الأمير فارس. ونائب الشام الأمير تنبك العلاي ميق. ونائب حلب الأمير

تغري بردي من قصروه، وقد أظهر الخلاف. ونائب طرابلس الأمير تنبك البجاسي ونائب حماه الأمير شارقطلوا. ونائب صفد الأمير أينال. وبلاد الصعيد قد عاث بها العربان، وكثر فسادهم.

شهر الله المحرم، أوله الجمعة.

في ثالث عشره: قدم الخبر بفرار الأمير تغري بردي نائب حلب منها، بعد وقعة كانت بينه وبين الأمير تنبك البجاسي نائب طرابلس. وقد كتب له باستقراره في نيابة حلب ومحاربة المذكور، فسار إليه وحاربه، فانهزم منه وتسلم تنبك حلب، فدقت البشائر بقلعة الجبل أيامًا.

وفي تاسع عشره: خلع على بلبان الجمالي، واستقر كاشف الوجه القبلي، بعد موت أقجا.

وفي ثالث عشرينه: قد الركب الأول من الحجاج، وقدم المحمل ببقية الحاج في عدة صحبة الأمير تمر بيه اليوسفي، أحد الأمراء الألوف. وقد كثر ثناء الحجاج عليه لحسن سيرته فيهم، فقبض عليه في ثامن عشرينه.

وخلع الملك الصالح في يوم الأربعاء ثامنه، فكانت مدته أربعة أشهر وثلاثة أيام.

* * *

السلطان أبو النصر برسباي

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقمقاي الظاهري الجركسي.

تقدم التعريف به. ومازال قائمًا بتدبير أمر الدولة. ثم أحب أن يطلق عليه اسم السلطان، لما خلا له الجو، فأخذ طرباي وسجنه، تم بموافقة نائب الشام على ذلك، فاستدعى الخليفة والقضاة، وقد جمع الأمراء وأرباب الدولة، فبايعه الخليفة في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة. ولقب بالملك الأشرف أبي العز، ونودي بذلك في القاهرة ومصر. وكان في هذا موعظة وذكرى لأولي الألباب، فإن الملك المؤيد أنشأ ططر وآواه، بعد ما كان من أقل المماليك الناصرية الهاربين من الملك الناصر فرج. وما زال يرقية حتى صار من أكبر أمراء مصر، وائتمنه على ملكه. فقام بعد موت المؤيد بكفالة ولده أحمد المظفر. وما زال يحكم الأمر لنفسه إلى أن خلع ابن المؤيد، وتسلطن، وأودع ابن المؤيد وأمه ببعض دور القلعة في صورة معتقل. فلما أشفي ططر على الموت، عهد إلى ابنه محمد، واستأمن برسباي - لقرابة بينهما - على ولده، بعد ما كان برسباي مقيمًا بدمشق من جملة أمرائها وجل مناه أن يبقى المؤيد عليه مهجته، فآواه ططر، وجعله من أكبر أمراء مصر، فقام بأمر ابنه الملك الصالح قليلاً، واقتدى بأخيه ططر في أخذ الملك لنفسه. فلما أخذ طرباي، كما قبض ططر على الأمراء بدمشق، ولم يبق من يخشاه إلا نائب الشام، بعث يخيره بين أن يكون الأمير الكبير بديار مصر مكان طرباي وبين أن يستمر على نيابة الشام، فرغب في السلامة، وأتى إلى بين يديه، فأمن برسباي عند ذلك، وتسلطن، وأودع الصالح محمد بن ططر وأمه في دار بالقلعة. من يعمل سوءًا يجز به.

وفي يوم الخميس تاسعه خلع على الأمير بيبغا المظفري أمير سلاح، واستقر الأمير الكبير الأتابك، عوضًا عن طرباي. وخلع على الأمير قجق أمير مجلس واستقر أمير سلاح عوضًا عن بيبغا المظفري. وخلع على الأمير أقبغا التمرازي من مقدمي الألوف، واستقر أمير مجلس، عوضًا عن قجق. وخلع على حسن الكردي، واستقر نائب الوجه البحري على عادته. وأفرج عن جماعه كانوا مسجونين بالقلعة من أمراء العشرات قبض عليهم فيما تقدم. وكان أول ما بدأ به السلطان أن منع الناس كافة من تقبيل الأرض له، فامتنعوا. وجرت العادة عند ملوك مصر، منذ قدم أمير

المؤمنين الإمام المعز لدين الله أبو تميم معد الفاطمي إلى مصر، أن كل من تمثل بين يدي الخليفة ثم بين يدي السلطان أن يخر وهو قائم حتى يقبل الأرض. فلم يعف من ذلك أمير، ولو بلغ الغاية، ولا مملوك، ولا وزير ولا صاحب قلم، ولا رسول ملك من ملوك الأقطار، إذا قدم برسالة، ولا أحد من سائر الناس على اختلافهم، إلا قضاة الشرع، وجميع أهل العلم وأهل الصلاح وأشراف الحجاز من بني حسن وبني حسين، فإن هؤلاء أدركناهم ولا يقبل أحد منهم الأرض، إجلالاً لهم عن ذلك. وكذلك إذا ورد مرسوم السلطان على نائب مملكة أو والي عمل، فإنه يقوم عند وروده عليه، ويقبل الأرض. فأبطل السلطان برسباي ذلك كله، وجعل بدله إما تقبيل يده لمن عظم قدره، أو يقف فقط. فكان هذا حسنًا لو دام، لكنه بطل عن قليل، وعاد الأمر كما تقدم ذكره.

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره: خلع على الأمير تنبك ميق نائب الشام قباء السفر، وتوجه إلى دمشق، فخرج عظماء الدولة لوداعه، بعد ما قدموا له عدة تقادم، ما بين خيول وقماش وغير ذلك.

وفي يوم السبت خامس عشرينه: توجه الأمير سودن الحاجب، ومعه مال برسم حفر خليج سكندريه مما أجدي شيئًا.

وفي هذا الشهر: أجدبت أراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة، لعدم نزول المطر في أوانه، ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم، وقلت المياه عندهم. ومع هذا ففي بلاد حلب وحماة ودمشق وبلاد الساحل كلها رخاء من كثرة الأمطار التي عندهم، فسبحان الفعال لما يريد.

وفيه عظم الخطب، واشتد البلاء ببلاد الصعيد، من كثرة الفتن، ونهب البلاد.

وفيه قتل، وادي قوص، تعذر أخذ الخراج.

وفي هذا الشهر: كثر عبث الفرنج بالسواحل، وهجم في الليل غرابان، فيهما طائفة من الفرنج، على ميناء الإسكندرية فوجدوا فيها مركبًا للتجار فيه بضائع بنحو مائة ألف دينار، فاقتتلوا معهم عامة الليل، فخرج الناس من المدينة، فلم يقدروا على الوصول إليهم، لعدم المراكب الحربية عندهم، ولا وصلت سهامهم إلى الفرفج، بل كانت تسقط في البحر، فلما طال الحرب بين الفرنج والتجار المسلمين، واحترقت مركب التجار، نجوا في القوارب إلى البر، فأتت نار الفرنج على سائر ما في المركب من البضائع، حتى تلف بأجمعها، ومضى الفرنج نحو برقة، فأخذوا ما قدروا عليه، ثم عادوا إلى الإسكندرية، ومضوا إلى نحو الشام.

وفيه قدم رسول اسكندر بن قرا يوسف، ومعه رأسان، زعم أنهما رأس متملك السلطانية نيابة عن شاه رخ بن تيمور لنك، ورأس نائبه بشيراز.

وفيه أغلقت كنيسة قمامة بالقدس عن أمر السلطان.

وفي سلخه: نودي بمنع النساء من الخروج إلى الترب في أيام العيد، وهددن بالعقوبة إن خرجن، فامتنع كثير منهن عن الخروج إليها.

* * *

سنة ست وعشرين وثمانمائة

أهلت وسلطان مصر والشام والحجاز الملك الأشرف برسباي الدقماقي، والأمير الكبير الأتابك بيبغا المظفري، والدوادار الكبير الأمير سودن بن عبد الرحمن، وأمير سلاح الأمير قجق، وأمير مجلس الأمير أقبغا التمرازي، وأمير أخور الأمير قصروه، نوبة النوب الأمير أزبك، والوزير أستادار الأمير أرغون شاه، وكاتب السر علم الدين داود بن عبد الرحمن بن الكويز، وناظر الخاص الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله وقاضي القضاة الشافعي علم الدين صالح بن البلقيني، ونائب الشام الأمير تنبك العلاي ميق، ونائب حلب الأمير تنبك البجاسي، ونائب طرابلس الأمير أينال النورزي ونائب صفد الأمير مقبل الدوادار ونائب، حماة شار قطلوا.

* * *

سنة سبع وعشرين وثمانمائة

أهلت هذه السنة وسلطان مصر والشام والحجاز الملك الأشرف أبو العز برسباي والأمير الكبير الأتابك بيبغا المظفري. والدوادار الكبير سودن بن عبد الرحمن. وأمير سلاح قجق. وأمير مجلس أينال النوروزي. وأمير أخور جقمق. ورأس نوبة أزبك. وحاجب الحجاب جرباش قاشق. والوزير كريم الدين عبد الكريم بن عبد الرزاق بن محمد ابن كاتب المناخ. وناظر الخاص بدر الدين حسن بن نصر الله. وكاتب السر جمال الدين يوسف بن الصفي الكركي. وأستادار ناصر الدين محمد بن محمد بن أبي والي القدسي. ونائب الشام تنبك البجاسي. ونائب حلب شارقطلوا. ونائب حماة جلبان ونائب طرابلس قصروه. ونائب صفد مقبل. ونائب الإسكندرية أقبغا التمرازي. والسلطان في قلق من جانبك الصوفي، وهو حثيث الطلب له، والفحص عنه. والناس في تخوف من ذلك، فما بين الواحد وبين هلاكه، إلا أن يقول

عدو له: جانبك الصوفي عند فلان فيؤخذ ويعاقب حتى يهلك.

ومع ذلك فالناس في ضيق من الحجر على السكر، والامتناع من بيعه إلا للسلطان بأربعة آلاف درهم القنطار، ولا يشتريه أحد إلا من الحوانيت التي يباع منها سكر السلطان.

شهر الله المحرم، أوله الأحد: في ثانيه: قدم الأمير مقبل نائب صفد باستدعاء، فأكرمه السلطان، وخلع عليه خلعة الاستمرار.

وفي رابعه: ركب السلطان في طائفة يسيرة، وعبر من باب زويلة، حتى شاهد عمارته. ومضى عائدا إلى القلعة من باب النصر، وهو بثياب جلوسه، كآحاد الأجناد، من غير شعار المملكة.

وفي رابع عشره: قدم الخبر بخروج تنبك البجاسي عن الطاعة ومحاربته أمراء دمشق. وسبب ذلك أنه لما ولي سودن بن عبد الرحمن نيابة الشام، تقدمت الملطفات السلطانية إلى أمراء دمشق، بالقبض على تنبك البجاسي، فأتوا دار السعادة في ليلة الجعة رابعه، واستدعوه ليقرأ عليه كتاب السلطان، فارتاب من ذلك، وخرج من باب السر، وقد لبس السلاح في جمع من مماليكه. فثار إليه الأمراء واقتتلوا معه حتى مضى صدر نهار الجمعة، فانهزموا منه، وتحصن طائفة منهم بالقلعة، ومضى آخرون إلى سودن بن عبد الرحمن، وقد نزل على صفد.

وفي تاسع عشره: خلع على نور الدين السفطي - أحد مباشري دواوين الأمراء - واستقر في وكالة بيت المال، بعد موت شرف الدين يعقوب بن الجلال التباني.

* * *

سنة ثمان وعشرين وثمانمائة

أهلت وخليفة الوقت المعتضد بالله أبو الفتح داو بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد وليس له من الخلافة إلا مجرد الاسم بلا زيادة. وسلطان مصر والشام والحجاز الملك الأشرف برسباي الدقماقي. والأمير الكبير الأتابك قجق. والدوادار الكبير أزبك - وهو اسم - معناه الأمير جانبك، فهر صاحب الأمر والنهي في الدوادارية، بل في سائر أمور الدولة وأمير سلاح أينال النوروزي. وأمير مجلس أينال الجكمي. وأمير أخور جقمق.

ورأس نوبة تغري بردي المحمودي. وحاجب الحجاب جرباش قاشق. وأستادار

صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله. وناظر الخاص الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله. والوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن الوزير تاج الدين عبد الرزاق ابن كاتب المناخ. وكاتب السر نجم الدين عمر بن حجي الدمشقي.

ناظر الجيش زين الدين عبد الباسط بن خليل. وليس لأحد في الدولة تصرف غير، والأمير جانبك الدوادار. وقاضي القضاة الشافعي شمس الدين محمد الهروي. وقاضي الحنفي زين الدين عبد الرحمن التفهني. وقاضي القضاة المالكي شمس الدين محمد البساطي وقاضي الحنبلي علاء الدين علي بن مغلي. ونائب الشام سودن من عبد الرحمن. ونائب حلب شار قطلوا. ونائب حماة جلبان أمير أخور. ونائب طرابلس قصروه ونائب صفد مقبل الدوادار. ونائب الإسكندرية أقبغا التمرازي. وبمكة الشريف علي بن عنان والأمير قرقماس. وأسواق القاهرة ومصر ودمشق في كساد. وظلم ولاة الأمر من الكشاف والولاة فاش. ونواب القضاة قد شنعت قالة العامة فيهم من تهافتهم. وأرض مصر أكثرها بغير زراعة، لقصور مد النيل في أوانه، وقلة العناية يعمل الجسور، فإن كشافها، إنما دأبهم إذا خرجوا لعملها أن يجمعوا مال النواحي لأنفسهم وأعوانهم. والطرقات. بمصر والشام مخوفة من كثرة عبث العربان والعشير. والناس على اختلاف طبقاتهم قد غلب عليهم الفقر. واستولى عليهم الشح والطمع، فلا تكاد تجد إلا شاكياَ مهتمًا لدنياه وأصبح الدين غريبًا لا ناصر له. وسعر القمح بمائتي درهم الأردب.

وفي هذا الشهر: وقع الشروع في عمل مراكب حربية لغزو بلاد الفرنج.

وفي هذا الشهر: الشهر ابتدئ بعمل طريدتين حربيتين، لتتمة أربع طرائد، وأنشئت بساحل بولاق فيما انحسر ماء النيل عنه تجاه جامع الخطيري، وأخذت لها أخشاب كثيرة من قصور سرياقوس التي كان ينزل بها السلاطين أيام السرحة بسرياقوس.

* * *

سنة تسع وعشرين وثمانمائة

أهلت وخليفة الزمان المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله أبو عبد الله محمد، وسلطان الإسلام الملك الأشرف أبو العز برسباي الدقماقي، وأتابك العساكر الأمير الكبير قجق، وأمير مجلس الأمير أينال الجكمي، وأمير سلاح الأمير أينال النوروزي، وأمير أخور الأمير جقمق، والدوادار الأمير أزبك، ورأس نوبة تغري بردي المحمودي، وحاجب الحجاب الأمير جرباش قاشق، وأستادار الأمير زين الدين عبد القادر ابن الأمير الوزير فخر الدين عبد الغني ابن الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج، والوزير كريم الدين عبد الكريم ابن الوزير الصاحب تاج الدين عبد الرزاق بن شمس الدين عبد الله بن كاتب المناخ، وناظر الخاص كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة بن كاتب جكم، وكاتب السر بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن مزهر، وناظر الجيش زين الدين عبد الباسط بن خليل، وقاضي القضاة الشافعي الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر، وقاضي القضاة الحنفي زين الدين عبد الرحمن التفهني، وقاضي القضاة المالكي شمس الدين محمد بن عبد البساطي، وقاضي القضاة الحنبلي محب الدين أحمد بن نصر الله البغدادي، ونائب الشام الأمير سودن من عبد الرحمن، ونائب شارقطوا، ونائب حماة الأمير جلبان أمير أخور، ونائب طرابلس الأمير قصروه، ونائب صفد الأمير مقبل الداوادار، ونائب الإسكندرية الأمير أقبغا التمرازي، وأمير مكة الشريف حسن بن عجلان، وأمير المدينة النبوية عجلان بن نعير.

* * *

سنة ثلاثين وثمانمائة

أهلت وسلطان الإسلام ببلاد مصر والشام والحجاز الملك الأشرف برسباي الدقماقي، والأمير الكبير أتابك العساكر سيف الدين يشبك الساقي الأعرج، ورأس نوبة النوب الأمير تغري بردي المحمودي، وأمير سلاح الأمير أينال الجكمي، وأمير مجلس الأمير جرباش الكريمي، وأمير أخور الأمير جقمق، والدوادار الكبير الأمير أزبك، وحاجب الحجاب الأمير قرقماس، وأستادار الأمير زين الدين عبد القادر بن الأمير فخر الدين عبد الغني بن الأمير الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج، والوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن الصاحب تاج الدين عبد الرزاق بن عبد الله، المعروف بابن كاتب المناخ، وناظر الخاص كريم الدين عبد الكريم بن سعد

الدين بركة المعروف بابن كاتب جكم، وكاتب السر بدر الدين محمد بن بدر الدين محمد بن أحمد بن مزهر، وناظر الجيش زين الدين عبد الباسط بن خليل، وقاضي القضاة الشافعي الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر، وقاضي القضاة الحنفي بدر الدين محمود العنتابي، وقاضي القضاة المالكي شمس الدين محمد البساطي، وقاضي القضاة الحنبلي عز الدين عبد العزيز البغدادي، ونائب الشام الأمير سودن من عبد الرحمن، ونائب حلب شارقطلوا، ونائب حماة الأمير جلبان أمير أخور، ونائب طرابلس الأمير قصروه، ونائب صفد الأمير مقبل الدوادار، وأمير مكة الشريف بركات بن حسن بن عجلان، وأمير المدينة النبوية الشريف خشرم بن دوغان بن جعفر، ونائب الإسكندرية الأمير أقبغا التمرازي.

وفي يوم السبت سادس عشرينه: أفرج عن جينوس بن جاك متملك قبرس من سجنه بقلعة الجبل، وخلع عليه، وأركب فرسًا بقماش ذهب، ونزل إلى القاهرة في موكب، فأقام في دار أعدت له، وصار يمر في الشوارع ويزور كنائس النصارى ومعابدهم، ويمض في أحواله بغير حجر عليه، وقد أجرى له راتب يقوم به وبمن معه.

وقدم الخبر بأن صاحب أغرناطة ومالقة والمرية ورندة ووادي آش وجبل الفتح من الأندلس، وهو أبو عبد الله محمد الملقب بالأيسر ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف ابن الشيخ السلطان أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن نصر الأنصاري الخزرجي الأرجوني الشهير بابن الأحمر، خرج من غرناطة - دار ملكه - يريد النزهة في فحص غرناطة - يعني مرج غرناطة - في نحو مائتي فارس في مستهل ربيع الآخر هذا وكان ابن عمه محمد بن السلطان أبي الحجاج يوسف محبوسًا في الحمراء، وهي قلعة أغرناطة، فخرج الجواري السود إلى الحراس الموكلين به، وقالوا لهم: تخلو عن الدار حتى تأتي أم مولاي تزوره وتتفقد أحواله. فظنوا أن الأمر كذلك، فخلوا عن الدار، فخرج في الحال شابان من أولاد صنايع أبي المحبوس، وأطلقوه من قيده وأظهروه من الحبس، وأغلقوا أبواب الحمراء، وذلك كله ليلاً، وضربوا الطبول والأبواق على عادتهم، فبادر الناس إليهم ليلاً، وسألوا عن الخبر، فقيل لهم من الحمراء: قد ملكنا السلطان أبا عبد الله محمد ابن السلطان، فأقبل أهل المدينة وأهل الأرباض فبايعوه محبة فيه وفي أبيه، وكرهًا في الأيسر، فما طلع النهار حتى استوسق له الأمر، وبلغ الخبر إلى الأيسر فلم يثبت وتوجه نحو رندة وقد فر عنه من كان معه من جنده، حتى

لم يبق معه منهم إلا نحو الأربعين. وخرجت الخيل من غرناطة في طلبه، فمنعه أهل رندة، وأبوا أن يسلموه، وكتبوا إلى المنتصب بغرناطة في ذلك فآل الأمر إلى أن ركب سفينه وسار في البحر، وليس معه سوى أربعة نفر. وقدم تونس مترامياً على متملكها أبي فارس عبد العزيز الحفصي، وبلغ ألفنش متملك قشتلة ما تقدم ذكره، فجمع جنوده من الفرنج، وسار يريد أغرناطة في جع موفور، فبرز إليه القائم المذكور بغرناطة، وحاربه، فنصره الله على الفرنج، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وغنم ما يجل وصفه.

* * *

سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة

أهلت وخليفة الزمان المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد العباسي، وسلطان الإسلام بمصر والشام والحجاز الملك الأشرف أبو العز برسباي الدقماقي الظاهري الجركسي، ثامن الملوك الجركسة، والأمير الكير الأتابك يشبك الأعرج الساقي، وأمير أخور الأمير جقمق العلاي وأمير سلاح أينال الجكمي. وأمير مجلس الأمير شارقطلوا، ورأس نوبة الأمير أركماس الظاهري، والدوادار الأمير أزبك، وحاجب الحجاب الأمير قرقماس وأستادار الأمير زين الدين عبد القادر ابن الأمير فخر الدين عبد الغني ابن الأمير الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج، والوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن محمد، المعروف بكاتب المناخ، وناظر الخاص كريم الدين عبد الكريم بن بركة، المعروف بابن كاتب جكم، وكاتب السر بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن مزهر الدمشقي. وناظر الجيش القاضي زين الدين عبد الباسط، وقاضي القضاة الشافعي الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر، وقاضي القضاة الحنفي بدر الدين محمود العنتابي، قاضي القضاة المالكي شمس الدين محمد البساطي، وقاضي القضاة الحنبلي عز الدين عبد العزيز البغدادي، ومحتسب القاهرة ومصر الأمير أينال الششماني، ووالي القاهرة التاج الشويكي، ونائب الشام سودن من عبد الرحمن، ونائب حلب الأمير قصروه، ونائب طرابلس الأمير جرباش قاشق، ونائب حماة الأمير جلبان، ونائب صفد الأمير مقبل الزيني، ومتولي مكة - شرفها الله تعالى - الشريف بركات بن حسن بن عجلان الحسني، ومتولي المدينة النبوية الشريف مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جماز الحسيني، ومتولي ينبع الشريف عقيل بن وبير بن مختار بن مقبل بن راجح بن إدريس الحسني، ونائب الإسكندرية الأمير أقبغا

التمرازي.

و أحضرت هدية ملك كلبرجة من الهند، وهي أربعة سيوف، وستة عشر جمالاً، عليها شاشات وأزر، وقد أهدى إلى غير واحد من أعيان الدولة، وسأل أن تمكن رسله من بناء رباط بالقدس، وكان من خبر الهند أن بلاد الهند قسمان، قسم بيد أهل الكفر وهم الأكثر، وقسم بأيدي المسلمين. وكان ملك الهند صاحب مدينة دله، وهي قاعدة الملك. وكان ملكها فيروز شاه بن نصرة شاه من عظماء ملوك الإسلام، فلما مات، ملك دله بعده مملوكه ملو وعليه قدم الأمير تيمور لنك بعد سنة ثمانمائة، وأوقع بالهند وقيعة شنعاء، وخرب مدينة دله، وعاد إلى بلاده، فأتى بلاد الشام بعد ذلك. وكان ملو قد فر منه، فعاد مسير تيمور لنك إلى دله، ومضى منها إلى ملطان فخرج عليه خضر خان بن سليمان، وحاربه فقتل في الحرب. وكان قد ملك دله دولة يار، فنازله خضر خان وحصره مدة، ففر منه، وملك خضر خان دله حتى مات، فقام من بعده ابنه مبارك شاه بن خضر خان هذا، وقد انقسمت بعد أخذ تيمور مدينة دله مملكة الهند، وصار بها عدة ملوك، أجلهم ملك بنجالة، وملك كلبرجة، وملك بزرات. فأما بنجالة فقام بها رجل من أهل سجستان يقال له شمس الدين، فلما مات قام من بعده ابنه اسكندر شاه ثم ابنه غياث الدين أعظم شاه بن اسكندر شاه بن شمس الدين، ومات سنة خمس عشرة وثمانمائة فملك بعده ابنه سيف الدين حمزة، فثار عليه مملوكه شهاب الدين وقتله، فلم يتهن بعد أستاذه، وأخذه الكافر فندو، وملك بنجالة وما معها، فثار عليه ولده - وقد أسلم - وقتله، وملك بنجالة، وتسمى. بمحمد، وتكنى بأبي المظفر، وتلقب بجلال الدين، ثم جدد ما دثر أيام أبيه فندو من المساجد، وأقام معالم الإسلام.

فأما كلبرجة فإن محمد شاه صاحب مدينة دله، بعث إليها حسن بهمن، فأخذها له، وأقام نائبها عن محمد شاه حتى مات، فقام ابنه أحمد بن حسن بهمن، ثم قام بعد أحمد ابنه فيروز شاه بن أحمد بن حسن بهمن ثم قام بعده أخوه شهاب الدين أحمد أبو المغازي بن أحمد بن حسن بهمن، وهو الذي بعث الهدية المذكورة.

وأما بزرات وكنباية فإن ظفر خان كان ساقيًا عند الملك فيروز شاه بن نصرة شاه صاحب دله، فولاه كنباية على ألف ألف تنكة حمراء عنها من الذهب ثلاثة آلاف ألف مثقال وخمسمائة ألف مثقال. وكان ظفر هذا كافرًا، وله أخ اسمه لاكه. وفي ولايته خرب تيمور دله، فقام عليه ابنه تتر خان وسجنه، وصانع تيمور فأقره، فلما سار تيمور عن الهند، خرج لاكه على ابن أخيه تتر خان وقتله، وأعاد أخاه ظفر خان

إلى ملكه، فوثب أحمد خان بن تتر خان بن ظفر خان على جده، وقتله، وأحرق عم أبيه لاكه، وذلك بعد سنة عشر وثمانمائة. وقد أسلم وتلقب بالسلطان. وما عدا هذه المماليك الثلاثة، فإنها دونها كديوه ومهايم وتانه ونحو ذلك مما هو بأيدي المسلمين.

وفي تاسع عشرينه: قدمت رسل ملك الروم بمدينة برصا، مراد بك بن كرشجي محمد بن بايزيد، بكتاب وهدية فاحتفل السلطان لقدومهم، وأركب العسكر إلى لقائهم. ومن خبر ملوك الروم أن خوندكار بايزيد بن مراد بن عثمان ترك أربعة أولاد: سلمان وهو أكبرهم، ومحمدًا، وعيسى، وموسى، فقام بالأمر سلمان، وأقام ببر قسطنطنية في مدينة أدرنة وكالي بولي، وقام أخوه عيسى. بمدينة برصا، وتحاربا، فقتل عيسى، واستبد سلمان. مملكة أبيه، فثار عليه أخوه موسى وحاربه، فقتل سلمان، وملك بعده موسى ببر أدرنة، وقام ببرصا أخوه محمد كرشجي وقاتله، فقتل موسى، واستبد بالمملكة حتى مات فأقيم من بعده ابنه مراد بك بن محمد كرشجي.

* * *

سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة

شهر الله المحرم، أوله الاثنين: ففي ليلة الاثنين خامس عشره: حدث مع غروب الشمس برق متوال، تبعه رعد شديد، ثم مطر غزير، واستمر معظم الليل، فلم يدرك بمصر مثله برقًا ورعدًا، ولا عهدنا مثل غزارة هذا المطر في أثناء فصل الخريف. وقدم الخبر بأنها أمطرت وقت العشاء من ليلة الاثنين ثامنه بناحية بني عدي من البهنساوية بردًا في قدر بيضة الدجاجة وما دونها كبيضة الحمامة، فهلك به من الدجاج والغنم والبقر شيء كثير، فهلك لرجل ستون رأسًا من الضأن، وهلك لآخر خمسون رأسًا من المعز، ولم يتجاوز هذا البرد بني عدي، وكان مع البرد والمطر راعد مرعب من شدته، وبرق متوال ورياح عاصفة.

وفي هذا الشهر: تتبع الأمير قرقماس حاجب الحجاب مواضع الفساد، فأراق من الخمور وحرق من الحشيشة المغيرة للعقل شيئًا كثيرًا، وهدم مواضع، ومنع من الاجتماع في مواضع الفساد.

وفي سادسه: ثارت فتنة بين طائفة من مماليك السلطان الجلب وبين طائفة من مماليك الأمير الكبير شارقطلوا، فباتوا على تخوف وأصبح الجلب تحت القلعة في جمع كبير، وقد امتنع الأمير الكبير منهم بداره - وهي تجاه باب السلسلة - فماج

الناس، وخشوا من النهب، فكانت حركة مزعجة بالقاهرة، من تكالب الناس على شراء الخبز والدقيق، وانتشار أهل الفساد في الشوارع للنهب، ثم سكن الحال، وأقام الجلب يومهم لا يقدرون على الأمير الكبير، لعجزهم وقلة دريتهم بالحرب، وعدم السلاح، فطلب السلطان ثلاثة من مماليك الأمير الكبير وضربهم وسجنهم من أجل أنهم أصل هذه الفتنة، فخمد الشر، ولله الحمد.

وفي خامسه: ورد إلى ميناء الإسكندرية خمسة أغربة للفرنج، وباتوا وقد استعد لهم المسلمون ثم واقعوهم من الغد، وقد أدركهم الأمير زين الدين ابن أبي الفرج أستادار في سابعه. وكان بتروجة ومعه جمع كبير من العرب، فلما اشتد الأمر على الفرنج، انهزموا وردوا من حيث أتوا، في يوم الأحد حادي عشره، ولم يقتل سوى فارس واحد من جماعة ابن أبي الفرج.

وفيه قدم الخبر بأخذ مدينة الرها. وذلك أن العسكر سار من القاهرة لأخذ قلعة خرت برت، وقد مات متوليها، ونازلها عسكر قرا يلك صاحب آمد، فلما وصلوا إلى مدينة حلب، ورد إليهم الخبر بأخذ قرا يلك قلعة خرت برت وتحصينها، وتسليمها لولده، فتوجه العسكر وقد انضم إليه الأمير سودن من عبد الرحمن نائب الشام، وجميع نواب المماليك الشامية، ومضوا بأجمعهم إلى الرها، فأتاهم بالبيرة كتاب أهل الرها بطلب الأمان، وقد رغبوا في الطاعة، فأمنوهم، وكتبوا لهم به كتابًا، وساروا من البيرة، وبين أيديهم مائتا فارس من عرب الطاعة كشافة، فوصلت الكشافة إلى الرها في تاسع عشر شوال، فإذا الأمير هابيل قد وصل إليها من قبل أبيه الأمير عثمان بن طور علي، المعروف بقرا يلك صاحب آمد، وحصنها، وجمع فيها عامة أهل الضياع بمواشيهم وعيالهم وأموالهم، فناولوها وهم يرمونهم بالنشاب من فوق الأسوار ثم برز إليهم الأمير هابيل في عسكر نحو ثلاثمائة فارس، وقاتلهم، وقتل منهم جماعة، وعلق رءوسهم على قلعة الرها، فأدركهم العسكر، ونزلوا على ظاهر الرها في يوم الجمعة عشرينه، وقد ركب الرجال السور. ورموا بالحجارة، فتراجع العسكر المصري والشامي عنهم، ثم ركبوا بأجمعهم بعد نصف النهار وأرسلوا إلى أهل قلعة الرها بتأمينهم، وإن لم تكفوا عن القتال وإلا أخربنا المدينة. فجعلوا الجواب رميهم بالنشاب، فزحف العسكر وأخذوا المدينة في لحظة، وامتنع الأكابر وأهل القوة بالقلعة. فانتشر العسكر وأتباعهم في المدينة ينهبون ما وجدوا، ويأسرون من ظفروا به، فما تركوا قبيحًا حتى أتوه ولا أمرًا مستشنعًا إلا فعلوه. وكان فعلهم هذا كفعل أصحاب تيمور لما أخذوا بلاد الشام. وأصبحوا يوم السبت محاصرين القلعة، وبعثوا

إلى ما فيها بالأمان فلم يقبلوا، ورموا بالنشاب والحجارة، حتى لم يقدر أحد على أن يدنو منها. وباتوا ليلة الأحد في أعمال النقوب على القلعة، وقاتلوا من الغد يوم الأحد حتى اشتد الضحى، فلم يثبت من بالقلعة، وصاحوا الأمان. فكفوا عن قتالهم حتى أتت رسلهم الأمير نائب الشام، وقدم مقدم العساكر، فحلف لهم - هو والأمير قصروه نائب حلب - على أنهم لا يؤذوهم ولا يقتلون أحد منهم فركنوا إلى أيمانهم. ونزل الأمير هابيل بن قرا يلك ومعه تسعة من أعيان دولته عند دخول وقت الظهر من يوم الأحد المذكور، فتسلمه الأمير أركماس الدوادار، وتقدم نواب المماليك إلى القلعة ليتسلموها فوجدوا المماليك السلطانية قد وقفوا على باب القلعة ليدخلوا إليها، فمنعوهم فأفحشوا في الرد على النواب، وهموا بمقاتلتهم،، وهجموا القلعة، فلم تطق النواب منعهم، ورجعوا إلى مخيماتهم فمد المماليك أيديهم ومن تبعهم من التركمان والعربان والغلمان، ونهبوا جميع ما كان بها، وأسروا النساء والصبيان، وألقوا فيها النار، فأحرقوها بعد ما أخلوها من كل صامت وناطق، وبعد ما أسرفوا في قتل من كان بها وبالمدينة حتى تجاوزوا الحد، وخربوا المدينة وألقوا النار فيها فاحترقت. ولقد أخبرني من لا أتهمه أنه شاهد المماليك، وقد أخذوا النساء، وفجروا بهن فكانت الواحدة منهن إذا قامت من تحت واحد منهم، مضت - إن كان لها ولد - هي وولدها، إلى موضع كان به تبن لتختفي فيه. قال فاجتمع بذلك الموضع نحو الثمانين امرأة، ومعهن أو مع غالبهن أولادهن، وقد زنوا بهن جميعًا، ثم أضرموا النار عليهن، فاشتعل التبن فاحترقن جميعًا. وأخبرني الثقة أنه كان يدوس في المدينة القتلى لكثرتهم بها، وأنه كاد الماء الذي لهم أن يمتلئ بجيف القتلى. ثم رحلوا من الغد يوم الاثنين ثالث عشرينه، وأيديهم قد امتلأت بالنهوب والسبي، فتقطعت منهم عدة نساء من التعب، فمتن عطشًا، وبيعت منهن بحلب وغيرها عدة. وكانت هذه الكائنة من مصائب الدهر.

وكنا نستطيب إذا مرضنا ::: فجاء الداء من قبل الطبيب

فأما بالعهد من قدم، لقد عهدنا ملك مصر إذا بلغه أحد من ملوك الأقطار أنه قد فعل ما لا يجوز أو فعل ذلك رعيته، بعث منكر عليه ويهدده، فصرنا نحن نأتي من الحرام بأشنعه، ومن القبيح بأفظعه وإلى الله المشتكى.

* * *

سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة

شهر المحرم: في يوم السبت ثانيه: خلع على الأمير زين الدين عبد القادر أستادار خلعة الإستمرار، ثم خلع عليه ثانيًا في يوم الاثنين رابعه، وخلع على الأمير أقبغا الجمالي كاشف الوجه القبلي خلعة الاستمرار، وقد أرجف باستقراره أستادارا وألزم بحمل عشرين ألف دينار.

وفي تاسعه: خلع على الصاحب كريم الدين الوزير، واستقر في نظر الديوان المفرد، مضافًا إلى الوزارة، ليتقوى به الأمير زين الدين أستادار.

وفي رابع عشرينه: قدم رسول ملك المشرق - شاه رخ بن تيمور - بكتابه يطلب فيه شرح البخاري للحافظ قاضي القضاة شهاب الدين، أحمد بن حجر، وتاريخي السلوك للدول الملوك ويعرض فيه بأنه يريد أن يكسو الكعبة ويجري العين بمكة.

وفي ثامن عشره: بعث صاحب تونس وإفريقية وتلمسان - أبو فارس عبد العزيز - أسطولاً فيه مائتا فرس، وخمسة عشر ألف مقاتل من العسكرية والمطوعة، لأخذ جزيرة صقلية، فنازلوا مدينة مارز حتى أخذوها عنوة، ومضوا إلى مدينة مالطة. وحصروها حتى لم يبق إلا أخذها فانهزم من جملتهم أحد الأمراء من العلوج، فانهزم المسلمون لهزيمته، فركب الفرنج أقفيتهم، فاستشهد منهم في الهزيمة خمسون رجلاً من الأعيان، ثم إنهم ثبتوا وقبضوا على العلج الذي كادهم بهزيمته، وبعثوا به إلى أبي فارس، فأمدهم بجيوش كثيرة.

شهر صفر، أوله الأحد: في رابع عشره: خلع على السيد الشريف شهاب الدين كاتب السر ونزل إلى الجامع المؤيدي، وقد استقر ناظره على العادة، فقرئ به تقليده بكتابة السر، تولى قراءته منشأة القاضي شرف الدين أبو بكر الأشقر نائب كاتب السر. وقد حضر قضاة القضاة الثلاث، ولم يحضر الحنفي، وحضر الأمير أركماس الدوادار، وكثر من الأعيان، فكان من المجامع الحفلة الحشمة.

شهر ذي القعدة، أوله السبت: في ثانيه: قدم رسول شاه رخ أيضًا بكتابه.

فكانت هذه السنة ذات مكاره عديدة من أوبئة شنعة، وحروب وفتن، فكان بأرض مصر - بحريها وقبليها - وبالقاهرة ومصر وظواهرهما، وباء مات فيه - على أقل ما قيل - مائة ألف إنسان والمجازف يقول المائة ألف من القاهرة فقط، سوى من مات بالوجه القبلي والوجه البحري، وهم مثل ذلك، وغرق ببحر القلزم في شهر ذي القعدة

مركب فيه حجاج وتجار يزيد عددهم على ثمانمائة إنسان، لم ينج منهم سوى ثلاث رجال، وهلك باقيهم، وهلك في ذي القعدة أيضًا بطريق مكة - فيما بين الأزلم وينبع - بالحر والعطش ثلاثة آلاف ويقول المكثر خمسة آلاف، وغرق بالنيل في مدة يسيرة اثنتا عشرة سفينة، تلف من البضائع والغلال ما قيمته مال عظيم. وكان بغزة والرملة والقدس وصفد ودمشق وحمص وحماة وحلب وأعمالها وباء، هلك فيه خلائق لا يحصى عددها إلا الله تعالى. وكان ببلاد المشرق بلاء عظيم، وهو أن شاه رخ بن تيمور ملك المشرق، قدم إلى توريز في عسكر يقول المجازف عدتهم سبعمائة ألف. فأقام على خوي نحو شهرين، وقد فر منه اسكندر بن قرا يوسف، فقدم عليه الأمير عثمان بن طر علي - المعروف بقرا يلك التركماني - صاحب آمد في ألف فارس، فبعثه على عسكر لمحاربة اسكندر، وسار في إثره، وقد جمع اسكندر جمعًا يقول المجازف إنهم سبعون ألفًا، فاقتتل الفريقان خارج توريز، فقتل بينهما آلاف من الناس، وانهزم اسكندر وهم في أثره يقتلون ويأسرون وينهبون فأقام اسكندر ببلاد الكرج، ثم نزل بقلعة سلماس، وحصرته العساكر مدة، فنجا منهم، وجمع نحو الأربعة آلاف، فبعث إليه شاه رخ عسكرًا أوقعوا به وقتلوا من معه، فنجا بنفسه جريجًا.

وفي مدة هذه الحروب ثار أصبهان بن قرا يوسف، ونزل على الموصل ونهب تلك الأعمال، وقتل وأفسد فسادًا كبيرًا، وكانت بعراقي العرب والعجم نهوب وغارات ومقاتل، بحيث أن شاه محمد بن قرا يوسف - متملك بغداد - من عجزه لا يتجاسر على أن يتجاوز سور بغداد، وخلا أحد جانبي بغداد من السكان، وزال عن بغداد اسم التمدن، ورحل عنها حتى الحياك، وجف أكثر النخل من أعمالها، ومع هذا كله، فوضع شاه رخ على أهل توريز مال الأمان، حتى ذهبت في جبايته نعمهم، ثم جلاهم بأجمعهم إلى بلاده، وكثر الإرجاف بقدومه إلى الشام، فأوقع الله في عسكره الغلاء والوباء حتى عاد إلى جهة بلاده، وعاد قرا يلك إلى ماردين فنهبها، ونهب ملطية وما حولها إلى عينتاب وحرقها.

وكان ببلاد السراي والدشت وصحاري في هذه السنة والتي قبلها قحط شديد، ووباء عظيم جدًا، هلك فيه عالم كبير، بحيث لم يبق منهم ولا من أنعامهم إلا أقل من القليل. وكان ببلاد الحبشة بلاء لا يمكن وصفه، وذلك أنا أدركنا ملكها داود بن سيف أرعد بن قسطنطين - ويقال له الحطي - ملك أمحرة، وهو وهم نصاري يعقوبية. فلما مات في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، قام من بعده ابنه تدرس بن داود، فلم تطل مدته، ومات. فملك بعده أخوه أبرم، ويقال له إسحاق بن داود بن سيف أرعد، وفخم أمره،

وذلك أن بعض مماليك الأمير بزلار نائب الشام ترقى في الخدم، وعرف بألطنبغا مغرق، حتى باشر ولاية قوص من بلاد الصعيد، ثم فر إلى الحبشة واتصل بالحطي هذا، وعلم أتباعه لعب الرمح، ورمي النشاب وغير ذلك من أدوات الحروب، ثم لحق بالحطي أيضًا بعض المماليك الجراكسة - وكان زرد كاشا - فعل له زرد خاناه ملوكية، وتوجه إليه مع ذلك رجل من كتاب مصر الأقباط النصارى - يقال له فخر الدولة - فرتب له مملكته، وجبى الأموال وجند له الجنود، حتى كثر ترفه، بحيث أخبرني من شاهده وقد ركب في موكب جليل وفي يده صليب من ياقوت أحمر، وقد قبض عليه ووضع يده على فخذه، فصار يبين ويظهر لهذا الصليب الياقوت طرفان كبيران من قبضته، فشرهت نفسه إلى أخذ ممالك الإسلام لكثرة ما وصف له هؤلاء من محاسنها، فبعث بالتوريزي التاجر ليدعو الفرنج للقيام معه، وأوقع في بمن مملكته من المسلمين، فقتل منهم وأسر وسبي عالمًا عظيمًا. وكان ممن أسر منصورًا ومحمدًا، ولدى سعد الدين محمد بن أحمد علي بن ولصمع الجبرتي - ملك المسلمين بالحبشة، فعاجله الله بنقمته، وهلك في شهر ذي القعدة، فأقيم بعده ابنه اندراس بن إسحاق، فهلك لأربعة أشهر، فأقيم بعده عمه حزبناي بن داود بن سيف أرعد، فهلك في شهر رمضان سنة أربع وثلاثين، فأقيم بعده ابن أخيه سلمون بن إسحاق بن داود بن سيف أرعد، فكانت على أمحرة أربعة ملوك في أقل من سنة.

وفي هذه المدة: ثار جمال الدين ابن الملك سعد الدين محمد بن أحمد بن علي بن ولصمع الجبرتي. وذلك أن سعد الدين محمد لما قام بأمر المسلمين أكثر من محاربة النصارى، واتسعت مملكته، وحارب الحطي غير مرة حتى استشهد بعد سنة عشر وثمانمائة، فتمزق أصحابه، وذهب ملكه، ولحق أولاده بزبيد، فأكرمهم ملك اليمن، ثم عادوا إلى الحبشة بعد سنين، فقام بالأمير صبر الدين علي بن سعد الدين مدة ثماني سنين ومات، فقام من بعده أخوه منصور بن سعد الدين بأمر المسلمين في بلاد الحبشة، وحارب الحطي مرارًا آخرها في سنة ثمان وعشرين وثمانمائة، وقد سار إليه في عدد جم، وأوقع بالنصارى واقعة شنعاء، قتل فيها وأسر وسبي عالمًا كبيرًا، بحيث كان عدد من أسر عشرة آلاف، ورجع مظفرًا منصورًا، فسار عليه الحطي في آلاف كثيرة وواقعه، فقتل من أمحرة أتباع الحلي خلق كبير، ولم يقتل من المسلمين سوى دون العشرين رجلاً، إلا أنه وقع في قبضة الحطي إسحاق بن داود بن سيف أرعد منصور بن سعد الدين، وأخوه محمد، وانهزم المسلمون، فقيدهما ورجع إلى مقر ملكه، وقد كاد يطير فرحًا، فلما قرب من مدينة الملك، أركب الملك المنصور

كهيئته في مملكته، وسار في العساكر به حتى دخل المدينة، فأنزله وأخاه محمدًا بدار وأجري لهم ما يليق بهما، ووكل بهما الحرس، فقام بأمر المسلمين بعد منصور أخوه جمال الدين بن سعد الدين، فلما مات الحطي إسحاق بن داود جمع جمال الدين المسلمين وأغار على بلاد أمحرة، فدوخ تلك البلاد، وقتل وأسر وسبي عالمًا عظيمًا، واستسلم منهم أممًا كثيرة، فأقر كل من أسلم ببلاده، وولى عليهم من قبله، فاتسع نطاق مملكته، وقويت عساكره، وكثرت أموالهم، وبعث بالسبي إلى الآفاق، فكثر الرقيق من العبيد والإماء ببلاد اليمن والهند وهرمز والحجاز ومصر والشام والروم، وظهر من ثبات جمال الدين وشجاعته وصرامته ومهابته وعدله ما يتعجب منه، بحيث أن بعض أولاده الصغار لعب مع صبيان من الحبشة، فضرب منهم صبيًا كسر يده، فكتموا ذلك عنه مدة ثم بلغه الخبر، فجمع أعيان الدولة ولامهم على كتمان خبر ولده عنه، ثم أمر بولده فجيء به محمولاً على الكتف لصغره حتى يقتص به، فقام إليه الأعيان بأجمعهم يشفعون فيه ويلتزمون بإحضار أولياء الغريم، فلم يقبل شفاعتهم فيه، فأحضروا أبا الصبي وأهله، فأسقطوا حقهم، وتضرعوا إليه جهدهم في العفو عن ولده، فلم يجبهم، وأخذ ابنه بيده، ومد يده على حجر، وضرب عضده بحديده، فكسره، والأعيان قيام يبكون لبكاء الصغير، وهو يقول له: تألم كما آلمت هذا الصغير. ثم سار به الخدم وهو يصيح من الألم إلى أمه، حتى تمرضه فكان يومًا مهولاً، ولم يجسر بعد ذلك أحد في مملكته أن يظلم أحدًا. وله من هذا النمط عدة أخبار، مع العفة والنسك والإستبداد بجميع أموره، وأمور مملكته، ووفور الحرمة، وقمع أهل الفساد، وإزالة المنكرات، فالله يؤيده بعونه.

وأما بلاد المغرب، فإن متملك فاس أبا زيد عبد الرحمن حفيد السلطان أبي سالم إبراهيم، ثار عليه السعيد أبو عبد الله محمد المعروف بالجبلي ابن أبي عامر عبد الله بن أبي سعيد عثمان بن أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن، في أوائل سنة ثمان وعشرين، وملك فاس، وقتله، وخرج إلى الشاوية فقتلوه، وأقيم ولده أبو عبد الله محمد، فقام الوزير صالح وبايع الناصر أبي علي بن أبي سعيد عثمان، فقدم أبو عمرو بن السعيد محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن من إفريقية، وملك فاس، ثم فر، فأعيد الناصر أبو علي، فعالجه أخوه أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد وملك فاس بعد قتال في آخر، شهر رجب، سنة ثلاث وثلاثين.

* * *

سنة أربع وثلاثين وثمانمائة

أهل شهر الله المحرم بيوم الأربعاء: والأسعار رخيصة؛ القمح كل أردبين - وشيء - بدينار، والشعير والفول كل أربعة أرادب بدينار هرجة.

وفي يوم الخميس عاشره - وثاني بابة -: انتهت زيادة النيل إلى تسعه عشر ذراعًا وعشرين إصبعًا، ونقص من الغد.

وفي ثامن عشره: قدم الأمراء المجردون، وهم قرقماش حاجب الحجاب، وأركماس الدوادار، وبقية الأمراء.

وفي ثالث عشرينه: قدم ركب الحاج الأول، وقدم المحمل ببقية الحاج في رابع عشرينه، وقد هلك كثير منهم - ومن جمالهم وحميرهم - عطشًا فيما بين أكره وينبع، وهم متوجهون إلى مكة.

وفي سابع عشرينه: برز الأمراء المجردون إلى ظاهر القاهرة، وهم الأمير الكبير شارقطلوا، والأمير أينال الجكمي، والأمير تمراز الدقماقي، والأمير أقبغا التمرازي، والأمير مراد خجا، في عدة من أمراء الطبلخاناه والعشرات، ومن المماليك السلطانية خمسمائة مملوك، وسبب تجردهم أن قرا يلك نزل في أول هذا الشهر على معاملة ملطية فنهبها وحرقها، وحصر ملطية، فخرج إليه الأمير سودن من عبد الرحمن نائب الشام بالعساكر الشامية، وأردف بالعسكر المذكور.

شهر صفر، أوله الجمعة: فيه رسم بعود الأمراء والمماليك المجردين فرجعوا من خانكاه سريا قوس، واستعيدت منهم النفقات التي أنفقت فيهم، فاحتاجوا إلى رد الأمتعة والأزواد على من ابتاعوها منهم، واحتاجوا إلى استعادة ما أنفقوه على غلمانهم، وقد تصرف الغلمان فيما أخذوه، فاشتروا منه احتياجهم، ودفعوا منه إلى أهاليهم، فنزل من أجل هذا بالناس ضرر كبير. وفي هذا الشهر: نزل الفول إلى خمسين درهمًا الأردب، والشعير إلى ستين درهمًا الأردب، والقمح إلى مائة وثلاثين درهمًا الأردب. هذا والذهب. بمائتين وثمانين درهمًا الدينار. وفي يوم الاثنين حادي عشره ركب السلطان من قلعة الجبل في موكب جليل ملوكي، احتفل له، ولبس قماش الركوب كما كان يلبس الظاهر برقوق، وهو قباء أخضر. بمقلب أحمر، وعلى رأسه كلفتاه، وجر الجنائب، وصاحت الجاويشية وهو سائر، وحوله الطبردارية، حتى عبر من باب زويلة، فشق القاهرة وخرج من باب الشعرية يريد الصيد، فبات ليلة الثلاثاء

وعاد يوم الثلاثاء آخر النهار. ولم يركب منذ تسلطن للصيد سوى هذه الركبة.

في حادي عشره: كانت زلزلة عظيمة شديدة، بعد صلاة الظهر، بجزيرة الأندلس، وبمرج أغرناطة، سقطت بها أبنية كثيرة على سكانها فهلكوا، وخسف بثلاث بلاد كبيرة في مرج أغرناطة - وهي بلد همدان وبلد أوطورة وبلد دارما - فابتلعت الأرض هذه البلاد بأناسها وبقرها وغنمها وسائر ما فيها، حتى صار من يمر من حولها يقول كان هنا بلد كذا وبلد كذا، وانخسف في كثير من البلاد عدة مواضع، وسقط نصف قلعة أغرناطة، وتهدم كثير من الجامع الأعظم، وسقط أعلى منارته، ورؤى حائط الجامع يرتفع ثم يرجع، ومقدار ارتفاعه نحو عشرة أذرع، ارتفع كذلك مرتين، وخاف رجل عند حدوث الزلزلة، فأخذ ابنه وأراد أن يخرج من باب داره، فالتصق جانبا الباب، وانفرج الحائط فخرج من ذلك الفرج هو وابنه وامرأته، فعاد الحائط كما كان، وتراجع جانبا الباب إلى حالهما قبل الزلزلة، وأقامت الأرض بعد ذلك نحو خمسة وأربعين يومًا تهتز، حتى خرج الناس إلى الصحراء ونزلوا في الخيم خوفًا من المدينة أن تسقط مبانيها عليهم، وكان هذا كله بعد وصول السلطان المخلوع أبي عبد الله محمد الأيسر من تونس إلى الأندلس، وحصره قلعة أغرناطة سبعة أشهر، وقتله الأجناد والرجال حتى فنيت العدد والأموال، فبلغ ذلك ملك قشتالة الفنشي فجمع عساكره من الفرنج، وركب البحر إلى قرطبة يريد أخذ أغرناطة من المسلمين، فاشتد البلاء عليهم لقلة المال بأغرناطة، وفناء عسكرها في الفتنة، وموت من هلك في الزلزلة، وهم زيادة على ستة آلاف إنسان، ونزل الفرنج عليهم، فلقوهم في يوم الجمعة عاشر رمضان من هذه السنة، وقاتلوهم يومهم ومن الغد، قتل من المسلمين نحو الخمسة عشر ألف، وألجأهم العدو إلى دخول المدينة، وعسكر بإزائها على بريد منها، وهم نحو خمسمائة وثمانين ألف، وقد اشتد الطمع في أخذها، فبات المسلمون ليلة الأحد في بكاء وتضرع إلى الله، ففتح عليهم الله تعالى، وألهمهم رشدهم، وذلك أن الشيخ أبا زكريا يحيى بن عمر ابن يحيى بن عمر بن عثمان بن عبد الحق - شيخ الغزاة - خرج من مدينة أغرناطة في جمع ألفين من الأجناد، وعشرين ألفًا من المطوعة، وسار نصف الليل على جبل الفخار. حتى أبعد عن معسكر الفرنج إلى جهة بلادهم، ورفع إمارة في الجبال يعلم بها السلطان بأغرناطة، فلما رأى تلك العلامات من الغد خرج يوم الأحد، بجميع من بقي عنده إلى الفرنج، فثاروا لحربهم، فولى السلطان بمن معه من المسلمين، كأنهم قد انهزموا، والفرنج، تتبعهم، حتى قاربوا المدينة، ثم رفعوا الأعلام الإسلامية، فلما رآها الشيخ أبو زكريا نزل بمن معه

إلى معسكر الفرنج، وألقي فيه النار، ووضع السيف فيمن هنالك، فقتل وأسر وسبى، فلم يدع الفرنج إلا والصريخ قد جاءهم، والنار ترتفع من معسكرهم، فتركوا أهل أغرناظة ورجعوا إلى معسكرهم، فركب السلطان بمن معه أقفيتهم، يقتلون ويأسرون، فبلغت عدة من قتل من الفرنج ستة وثلاثون ألفًا، ولحق باقيهم ببلادهم، بعد ما كادوا أن يملكوا أغرناطة.

وبلغت عدة من أسر المسلمون من الفرنج نحو اثني عشر ألفًا، ويقول المكثر إنه قتل ومات وأسر من الفرنج في هذه الكائنة زيادة على ستين ألفًا. وكان سبب هذه الحادثة أنه وقع بين ملك القطلان صاحب برجلونة، وبين ملك قشتالة صاحب أشبيلية وقرطبة، فجمع القشتيلي، وسار لحرب القطلاني، حتى تلاقى الجمعان، فمشى الأكابر بين الملكين في الصلح، فاعتذر القشتيلي بأنه أنفق في حركته مالاً كثيرًا، فأشير عليه بأخذ ما أنفقه من المسلمين، بأن يغزوهم فإنهم قد ضعفوا، وما زالوا حتى تقرر الصلح، ونزل على أغرناطة، وكان ما تقدم ذكره.

* * *

سنة خمس وثلاثين وثمانمائة

شهر الله المحرم، أوله الأحد: في عاشره - الموافق لعشرين مسرى -: انتهت زيادة النيل إلى عشرين ذراعًا واثني عشر إصبعًا، ثم نقص خمسة عشر إصبعًا، وزاد ونقص إلى حادي عشرينه، وهو أول بابه. ثم لم يناد عليه لاستمرار النقص.

وقدم الخبر بأن الخراب شمل البلاد من توريز إلى بغداد، مسيرة خمسة وعشرين يومًا بالأثقال، وأن الجراد وقع بتلك البلاد حتى لم يدع بها خضرًا، مع شدة الوباء وانتهاب الأكراد ما بقي، وأن الغلاء شنع عندهم حتى أبيع المن من لحم الضأن - وهو رطلان بالمصري - بدينار ذهب، وأبيع لحم الكلب كل من بستة دراهم، وقد كثر الوباء ببغداد والجزيرة وديار بكر، ومع ذلك فقد عظم البلاء بأصبهان بن قرا يوسف بناحية الحلة والمشهد.

وفيها نزل الطاغية الفنشو بن دون فرنادو بن أندريك بن جوان قتيل الفرس بن فدريك بن أندريك ملك الفرنج القطلان، وصاحب برشلونة، على جزيرة صقلية، في شهر رمضان، وسار ومعه صاحب صقلية في نحو مائتي قطعة بحرية حتى أرسى على جربة في سابع عشر ذي الحجة وملكها. وكان ملك المغرب أبو فارس عبد

العزيز غائبًا عن تونس في جهات تلمسان، فلما بلغه ترك معظم عسكره وسار على الصحراء حتى دنا من جربة، وكانت بينه وبين الفرنج وقعة كاد يؤخذ فيها، وقتل من الفريقين جماعات كثيرة. وهذا الطاغية الفنشو مات جده أندريك، وملك بعده ابنه جوبان بن أندريك بن جوبان. خرج فرناندو بن أرندريك من بلد أشبيلية يريد محاربة القطلان أهل برشلونة - وقد مات ملكهم مرتين، فغلبهم، وملك برشلونة وأعمالها، حتى مات، فملك بعده ابنه الفنشو هذا.

وقتل نصراني في سابع شوال، ضربت رقبته تحت شباك المدرسة الصالحية، بسبب وقوعه في حق نبي الله داود بعد ما سجن مدة، وعرض عليه الإسلام، فامتنع.

* * *

سنة ست وثلاثين وثمانمائة

أهلت هذه السنة والخليفة المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل، وسلطان مصر والشام والحجاز وقبرس الملك الأشرف أبو الفرج برسباي، والأمير الكبير الأتابك سودن من عبد الرحمن، وأمير سلاح أينال الجكمي، وأمير مجلس أقبغا التمرازي، ورأس نوبة الأمير تمراز القرمشي، وأمير أخور جقمق، والدوادار الأمير أركماس الظاهري، والوزير كاتب السر كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ، وناظر الجيش عظيم الدولة ومدبرها القاضي زين الدين عبد الباسط وناظر الخاص سعد الدين إبراهيم ابن كاتب الجكمي، وقاضي القضاة الشافعي الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر، وقاضي القضاة الحنفي ناظر الأحباس بدر الدين محمود العينتابي، وقاضي القضاة المالكي شمس الدين محمد البساطي، وقاضي القضاة الحنبلي محب الدين أحمد بن نصر الله البغدادي، والمحتسب الأمير الحاجب صلاح الدين محمد بن نصر الله، والوالي التاج الشويكي، ونائب الشام الأمير شار قطلوا، ونائب حلب الأمير قصروه، ونائب طرابلس الأمير طرباي، ونائب حماة الأمير جلبان، ونائب صفد الأمير مقبل الزيني، ونائب غزة الأمير أينال الأجرود، ومتولي مكة - شرفها الله تعالى - الشريف بركات بن حسن بن عجلان، ومتولي مدينة الرسول الشريف مانع بن علي بن عطية، ومتولي ينبع الشريف عقيل بن وبير بن نخبار، وملك المغرب أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس الحفصي، وملك المشرق شاه رخ بن تيمورلنك، ومتملك بغداد شاه محمد بن قرا يوسف، وملك الروم مراد بن محمد كرشجي بن عثمان، وملك اليمن الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل بن

العباس بن رسول.

ونيل مصر متزايد، والأسعار رخيصة، القمح من مائة وثلاثين درهمًا الأردب إلى ما دون ذلك والشعير والفول من ثمانين درهمًا الأردب إلى ما دونها. والدينار الأشرفي بمائتين وستين درهمًا من الفلوس التي كل رطل منها بثمانية عشر درهمًا، ومصر الدرهم الأشرفي بعشرين درهمًا من الفلوس، والدينار الأفرنتي بمائتين وخمسين درهمًا من الفلوس، والأسواق كاسدة.

شهر الله المحرم، أوله الخميس: في يوم الجمعة ثانيه: كان نوروز القبط بأرض مصر، وهو أول توت.

وقد صار ماء النيل على ثمانية عشر ذراعًا، وثلاثة وعشرين إصبعًا. واتفق من الغرائب أن يوم الخميس أول السنة وافقه أول يوم من تشرين وهو رأس سنة اليهود، فاتفق أول سنة اليهود مع أول سنة المسلمين، ويوم الجمعة وافقه أول توت - وهو أول سنة النصارى القبط - فتوالت أوائل سنين الملل الثلاث في يومين متوالين واتفق ذلك أن طائفة اليهود الربانيين يعملون رءوس سنينهم وشهورهم بالحساب، وطائفة القرائين يعملون رءوس سنينهم وشهورهم برؤية الأهلة.

كما هو عند أهل الإسلام، فيقع بين طائفتي اليهود في رءوس السنين والشهور اختلاف كبير، فاتفق في هذه السنة مطابقة حساب الربانيين والقرائين للرؤيا، فعمل الطائفتان جميعًا رأس سنتهم يوم الخميس. وهذا من النوادر التي لا تقع إلا في الأعوام المتطاولة.

وفي سابعه: قدمت الرسل المتوجهة إلى قبرس. وكان من خبرهم أنهم ركبوا البحر من دمياط في شينين، فوصلوا إلى الملاحة يوم السبت عاشر المحرم، وسار أعيانهم في البر يريدون مدينة الأفقسية دار مملكة قبرس، فتلقاهم وزير الملك جوان بن جينوس بن جاك في وجوه أهل دولته، وأنزلهم خارج المدينة، وعبروا المدينة من الغد يوم الاثنين ثاني عشره، ودخلوا على الملك جوان. في قصره، فإذاهو قائم على قدميه، فسلموا عليه وأوصلوه كتاب السلطان وهو قائم وبلغوه الرسالة، فأذعن وأجاب بالسمع والطاعة وقال: أنا مملوك السلطان، ونائب عنه، وقد كنت على عزم أن أرسل التقدمة. فطلبوا منه أن يحلف، فأجابهم إلى ذلك، واستدعى القسيس، وحلف على الوفاء والاستمرار على الطاعة، والقيام بما يجب عليه من ذلك، فأفيض عليه التشريف السلطاني المجهز له.

وخرجت الرسل من عنده، فداروا بالمدينة وهو ينادي بين أيديهم باستمرار الملك جوان في نيابة السلطنة، وأن للناس الأمان والاطمئنان، وأمروا بطاعته وطاعة السلطان، ثم أنزلت الرسل في بيت قد أعد لهم، وأجرى لهم ما يليق بهم من المأكل، وحمل إليهم سبعمائة ثوب صوف قيمتها عشرة آلاف دينار مما تأخر على أبيه أظهر خصم أربعة آلاف دينار ووعد بحمل العشرة آلاف دينار بعد سنة، وبعث إليهم أيضًا بأربعين ثوبًا صوفًا برسم الهدية للسلطان الملك، المالك الأشرف أبو النصر برسباي الدقماقي، وأرسل لكل من الرسل شيئًا يليق به على قدره.

وساروا بعد عشرة أيام من قدومهم إلى اللمسون، وركبوا البحر ستة أيام حتى أرسوا على دمياط، وعبروا في النيل إلى القاهرة فقبل السلطان ما حملوه إليه وقرئ كتابه، فإذا هو يتضمن السمع والطاعة، وأنه نائب السلطنة فيما تحت يده، ونحو هذا.

وفي ثامنه: خلع على حسن باك بن سالم الذكري أحد أمراء التركمان، وابن أخت قرا يلك، واستقر في نيابة البحيرة، ورسم أن يكون ملك الأمراء، عوضًا عن أمير علي، وأنعم عليه بمائة قرقل، ومائة قوس، ومائة تركاش، وثلاثين فرسًا.

وفي سادس عشرينه: ضربت رقبة رجل ارتد عن الإسلام. وكان من خبره أنه كان نصرانيًا، فوجده بعض الناس عند زوجته، فاتقي من القتل بأن أظهر الإسلام، ومضى لسبيله، فلم يقم سوى أشهر وجاء يوم جمعة إلى بعض القضاة وذكر له أنه كان نصرانيًا وأسلم، ثم أنه رغب أنه يعود إلى النصرانية.

وقصد أن يطهر بالسيف، وتكلم بما لا يليق من القدح في دين الإسلام وتعظيم دين النصرانية وصرح بما يعتقد من إلاهية المسيح وأمه، فتلطف به القاضي ومن عنده، وهو يلح ويعاند ويفحش في القول، فأمر به فسجن، وعرض عليه الإسلام مرارًا في عدة أيام وهو متماد في غيه، فلما أعياهم أمره، وملت الأسماع من فحش كلامه، وجهره بالسوء، ضربت رقبته ثم أحرقت جثته.

فيه قدم رسول ملك القطلان من الفرنج بكتابه، وقد نزل على جزيرة صقلية، في ثاني رمضان، بما ينيف على مائتي قطعة بحرية، فتضمن كتابه الإنكار على الدولة ما تعتمده من التجارة في البضائع، وأن رعية الفرنج لا يشترون من السلطان ولا من أهل دولته بضاعة، فرد رسوله ردًا غير جميل.

* * *

سنة سبع وثلاثين وثمانمائة

أهلت هذه السنة وخليفة الوقت المعتضد بالله داود. وسلطان الإسلام بمصر والشام، والحجاز وقبرس الملك الأشرف برسباي. والأمير الكبير سودن من عبد الرحمن. وأمير سلاح أينال الجكمي. وأمير مجلس أقبغا التمرازي. ورأس نوبة الأمير تمراز القرمشي، وأمير أخور جقمق. والدوادار أركماس الظاهري. وحاجب الحجاب قرقماس. والوزير وأستادار كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ. وكاتب السر كمال الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن البارزي. وناظر الجيش القاضي زين الدين عبد الباسط، وهو عظيم الدولة وصاحب تدبيرها. وناظر الخاص سعد الدين إبراهيم ابن كاتب حكم. وقضاة القضاة على حالهم. ونواب السلطنة وملوك الأطراف كما تقدم في السنة الخالية.

والنيل قد تأخر وفاءه، والناس لذلك في قلق وتخوف، وقد كثر تكالبهم على شراء الغلة، وبلغ القمح إلى مائة وأربعين درهمًا الأردب. على أن الذهب بمائتين وخمسة وثمانين درهمًا الدينار.

وفي ثاني عشره: ورد الخبر بمسير السلطان من دمشق، بمن معه في أوله فنودي بالزينة، فزين الناس الحوانيت. ووافق هذا اليوم أول توت، وهو نوروز أهل القبط بمصر. وماء النيل على سبعة عشر ذراعًا وثمانية أصابع.

وفي خامس عشره: نصب المدفع الذي أعد لحصار آمد، وهو مكحلة من نحاس زنتها مائة وعشرون قنطارًا مصريًا. وكان نصبها فيما بين باب القرافة وباب الدرفيل، فرمت إلى جهة الجبل بعدة أحجار، منها ما زنته خمسمائة وسبعون رطلاً. وقد جلس السلطان بأعلا سور القلعة لمشاهدة ذلك، واجتمع الناس. واستمر الرمي بها عدة أيام.

* * *

سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة

شهر الله الحرام، أوله السبت: في ثالثه: قدمت التجريدة المجهزة في البحر، بغير طائل.

وفي رابعه: قدم قاصد الأمير عثمان قرا يُلك بكتابه، وتسعة أكاديش تقدمة للسلطان، وبعث بدراهم، عليها سكة السلطان.

وفي حادي عشره: قبض على الأمير بردبك الإسماعيلي، أحد أمراء الطبلخاناه وحاجب ثاني، وأخرج إلى دمياط. وأنعم بإقطاعه على الأمير تغري بردي البكلمشي، المعروف بالمؤذي، أحد رؤوس النوب. واستقر الأمير جانبك الذي عزل من نيابة الإسكندرية حاجبا، عوض الإسماعيلي.

وفي خامس عشره: قدم الأمير جقمق من الحج، بمن معه، على الرواحل.

وفيه شرع سودن المحمدي - المجهز لعمارة الحرمين - في هدم سقف الكعبة.

وفي ثاني عشرينه: - الموافق لآخر أيام النسئ نودي على النيل بزيادة إصبعين، لتتمة تسعة عشر ذراعًا ونصف ذراع.

وفيه خلع على الأمير دولات خجا وأعيد إلى ولاية القاهرة، عوضًا عن التاج الشويكي وكان أخوه عمر يتحدث عنه في الولاية، وقد ترفع عنها بمنادمته السلطان.

وفي ثالث عشرينه: قدم الركب الأول من الحاج. ووافق هذا اليوم نوروز القبط. ونودي فيه بزيادة إصبعين لتتمة تسعة عشر ذراعًا وأربعة عشر إصبعًا. وهذه زيادة كبيرة يندر أن يكون يوم النوروز والنيل على ذلك.

وفي رابع عشرينه: قدم المحمل ببقية الحاج، وقد هلك جماعة من المشماة، وتلفت جمال كثيرة.

وفي يوم الخميس ثالث عشره: ثارت مماليك السلطان سكان الطباق بقلعة الجبل، وطلبوا القبض على المباشرين بسبب تأخر جوامكهم في الديوان المفرد، ففر المباشرون منهم، ونزلوا من القلعة إلى بيوتهم بالقاهرة، فنزل جمع كبير من المماليك إلى القاهرة، ومضوا إلى بيت القاضي زين الدين عبد الباسط ناظر الجيش، وهو يومئذ عظيم الدولة، وصاحب حلّها وعقدها، فنهبوا ما قدروا عليه. وقصدوا بعده بيت الوزير أمين الدين إبراهيم بن الهيصم، وبيت الأمير كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ أستادار، فنهبوهما. ولم يقدروا على أحد من الثلاثة؛ لفرارهم منهم، فكان يومًا

شنيعًا.

وفي يوم الثلاثاء غده: غُلقت أسواق القاهرة وماج الناس في الشوارع والأزقة، وفر الأعيان من دورهم لإشاعة كاذبة بأن المماليك قد نزلوا من القلعة للنهب. وكان ذلك من أشنع ما جرى، إلا أن الحال سكن بعد ساعة؛ لظهور كذب الإشاعة، وأن المماليك لم تتحرك.

وفي سابع عشره: ركب القاضي زين الدين عبد الباسط إلى القلعة بعد ما نزل له الأمراء في أمسه بأن يتوجه إلى الإسكندرية، فما زال حتى انصلح حاله. وركب بقية المباشرين إلى القلعة للخدمة السلطانية على العادة، فتقرر الأمر على أن يقوم عبد الباسط للوزير من ماله بخمسمائة ألف درهم مصرية، عنها نحو ألفي دينار أشرفية، تقوية له، وأن السلطان يساعد أستادار بعليق المماليك لشهر، ونزلوا وقد أمنوا واطمأنوا.

وفيه سار الشريف تاج الدين علي - رسول شاه رخ - وصحبته الأمير أقطوة المؤيدي المهمندار. وأجيب شاه رخ عن طلبه كسوة الكعبة بَأن العادة قد جرت ألا يكسوها إلا ملوك مصر، والعادة قد اعتبرت في الشرع في مواضع وجُهزت إليه هدية.

وفي هذا الشهر: ظهر الأمير جانبك الصوفي، بعد ما أقام منذ خرج من سجن الإسكندرية في شهر شعبان سنة ست وعشرين لا يوقف له على خبر، حتى قدم في يوم الثلاثاء حادي عشر شوال هذا إلى مدينة حلب تركماني يقال له محمد، قد قبض عليه الأمير قرقماس نائب حلب بالعمق، ومعه كتاب جانبك الصوفي في سابعه، فسجن بقلعة حلب، وجهز الكتاب إلى السلطان.

وقدم الخبر بأن اسكندر بن قرا يوسف مشى على قرا يلوك وغزا على مدينة أرزن الروم وأخذها. فعاد قرا يلوك إلى آمد، وخرج منها بعد ليلة إلى أرقنين خوفًا من اسكندر. وأن كتاب الأمير جانبك الصوفي ورد على الأمير بلبان نائب درنده، فقبض على قاصده، وسجنه، وحمل كتابه إلى السلطان.

وفي سابع عشرينه: عاد الأمير قرقماس نائب حلب إليها، بعد غيبته عنها بالعمق ومرج دابق وعينتاب خمسة وسبعين يومًا، وقد فات أخذ قيصرية؛ لاستيلاء إبراهيم بن قرمان عليها. وكان القصد أخذها واستنابة أحد أمراء السلطان بها، ولظهور جانبك لصوفي، وانتمائه إلى ابن دلغادر، ووصلت خديجة خاتون وابنها فياض إلى

زوجها ناصر الدين محمد بن دلغادر فبلغ مراده، وترك مداة السلطان، وأشغل فكر الدولة؛ لأنه قد جاء من خروج جانبك ما هو أدهى وأمر.

* * *

سنة تسع وثلاثين وثمانمائة

شهر الله المحرم، أوله يوم الخميس: في خامسه - الموافق ثامن مسرة: - كان وفاء النيل ستة عشر ذراعًا، وأربعة أصابع، فركب المقام الجمالي يوسف ابن السلطان حتى خلق المقياس، وفتح الخليج على العادة.

وقدم الخبر بأن شاه رخ، لما خرج من مدينة هراة - كرسي مُلكه - في ثاني عشر شهر ربيع الأول من السنة الماضية نزل على مدينة قزوين في شهر رجب منها. ورسم لأمير الأمراء فيروز شاه أن يتوجه إلى بغداد. ونادى في معاملة قزوين إلى السلطانية تبريز وسائر ممالك العراقيين، بعمارة ما خُرب، وزراعة ما تعطل من الأراضي، وغراسة البساتين. وأن من زرع أرضًا لا يؤخذ منه خراجها مدة خمس سنين، ومن عجز عن العمارة دفع إليه ما يقوي به على ذلك. وأن أصبهان بن قرا يوسف حاكم بغداد كتب بدخوله في طاعة شاه رخ، فكفَّ عن تجهيز العسكر إليه، وسار حتى نزل على تبريز في عساكر كثيرة جدًا؛ لقتال اسكندر بن قرا يوسف، وأن جانبك الصوفي بكماخ عند ابن قرا يلوك، وقد أمده قرا يلوك بخيل ومال. وجهز شاه رخ ابنه أحمد جوكي إلى نحو ديار بكر على عسكر في ذي الحجة من السنة الحالية، ونزل هو على قرا باغ، وبعث إلى بلاده بحمل الميرة إليه، فأتته من كل جهة. وأخذ في عمارة مدينة تبريز في محرم هذا. ونادى في مملكة أذربيجان بالعدل. وتقدم إلى جميع عساكره بألا يؤخذ لأحد قمح فما فوقها إلا بثمنه، ومن خالف ذلك قتل.

وفي هذا الشهر: بعث القان شاه رخ إلى مراد بن عثمان ملك الروم، وإلى صارم الدين إبراهيم بن قرمان، وإلى قرا يلوك وأولاده، وإلى الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر بخلع.

شهر ربيع الأول أوله يوم الأحد: الموافق لسابع عشر توت، ابتدأ نقص ماء النيل، وذلك قبل انقضاء أيام الزيادة، ثم رد في ثالثه، واستمرت الزيادة إلى يوم الخميس خامسه، وهو أول بابه، وقد بلغت الزيادة إلى عشرين ذراعًا وعشرين إصبعًا، فثبت أيامًا ثم انحط بخير. ولله الحمد.

وفي هذا الشهر: قُبض على جانبك الصوفي، وكان من خبره أنه ظهر بمدينة

توقات في أوائل شوال من السنة الماضية، فقام متوليها أركج باشا بمعاونته، حتى كتب إلى الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر نائب أبلستين، وإلى أسْلماس بن كُبَك، ومحمد ابن قُطبكي، وعثمان قرا يلوك، ونحوهم من أمراء التركمان، فانضم إليه جماعة. وخرج من توقات، فأتاه الأمير قَرْمش الأعور وابن أسْلماس وابن قُطبكي، ومضوا إلى الأمير محمد بن عثمان قرا يلك صاحب قلعة جمُركَسَك فقواهم. وشنوا منها الغارات على قلعة دوركي، وضايقوا أهلها ونهبوا ضواحيها.

فاتفق ورود كتاب القان شاه رخ ملك المشرف على قرا يلك، يأمره بالمسير بأولاده وعسكره لقتال إسكندر بن قرا يوسف سريعًا عاجلاً، فكتب إلى ولده محمد بالقدوم عليه لذلك، فترك محمد جانبك ومن معه على دوركي، وعاد إلى أبيه. فسار جانبك بابن أسْلماس وابن قُطبكي حتى نزلوا على ملطية وحصروها، فكادهم سليمان بن ناصر الدين محمد بن دلغادر وكتب إلى جانبك بأنه معه فكتب إليه أن يقدم عليه، وبعث بكتابه فرمش الأعور، فأكرمه وسار معه في مائة وخمسين فارسًا. فتلقاه جانبك وعانقه، ثم عادا، وحصرا ملطية، فأظهر سليمان من المناصحة ما أوجب ركون جانبك إليه، فأخذ في الحيلة على جانبك، وخرج هو وإياه في عدة من أصحابه ليسيرا إلى مكان يتنزهوا به. ورتبا قَرْمِش وبقية العسكر على الحصار، فلما نزل سليمان وجانبك للنزهة، وثب به أصحاب سليمان، وقيدوه، وسرى به سليمان على أكديش ليلته ومن الغد، حتى وافى به بيوته على أبلستين، وكتب يعلم السلطان بذلك. وكان القبض على جانبك في سابع عشر شهر ربيع الأول هذا.

شهر ربيع الآخر، أوله يوم الاثنين: فيه قدم جمال الدين يوسف بن الصفي الكركي ناظر الجيش بدمشق مطلوبًا، وهو مريض بضربان المفاصل، ومعه تقدمة جليلة، فقبلت تقدمته، وأمر بالإقامة في منزله حتى يبرأ.

وفيه ورد إلى السلطان كتاب شاه رخ إلى جانبك الصوفي وقد قبض على حامله وحبس بحلب، فتضمن الكتاب تحريضه على أخذ البلاد الشامية، وأنه سيقدم عليه أحمد جوكي وبابا حاجي، نجدة له. فكتب إلى نواب الشام بالتأهب والاستعداد، لنجدة نائب حلب، إذا أستدعاهم.

وفي ثالثه: ورد الخبر بالقبض على جانبك الصوفي، كما تقدم.

وفي هذا الشهر: قدمت رسل أصبهان بن قرا يوسف حاكم بغداد إلى القان معين الدين شاه رخ، وهو على قرا باغ، بدخوله في الطاعة، وأنه من جلة الخدم. فأقامت رسله ثلاثين يومًا لا تصل إلى القان. ثم أجابه ينكر عليه خراب بلاده، ويأمره

بعمارتها، وأنه إن لم يعمرها وإلا، وأهمله سنة. وكان أصبهان قد بعث بهدية، فلم يعوضه عنها شيئًا، وإنما جهز له خلعة وتقليدًا، وخلع على رسله.

شهر رجب، أوله الجمعة: في ثانيه: أحضر صفا رسول شاه رخ ومن معه، وقرئ كتابه، فإذا هو يتضمن أن يخطب وتضرب السكة باسمه، وأخرج صفا خلعة بنيابة مصر ومعها تاج ليلبس السلطان ذلك. وخاطب السلطان بكلام لم يسمع معه صبر، فضرب صفا ضربًا مبرحًا، وألقي في بركة ماء. وكان يومًا شديد البرد ثم أنزلوا، ورسم بنفيهم، فساروا في البحر إلى مكة، فوصلوها، وأقاموا بها بقية السنة، وحجوا.

وفي رابعه: كتب إلى مراد بن عثمان - متملك بلاد الروم - بأن يكون مع السلطان على حرب شاه رخ. وكتب إلى بلاد الشام بتجهيزهم الإقامات للسفر.

وفي هذا الشهر: رحل القان شاه رخ عن مملكة أذربيجان، بعدما زوج نساء إسكندر بن قرا يوسف لشاه جهان الذي استنابه على تبريز في شهر رمضان شهر ذي القعدة، أوله يوم الجمعة.

وفي هذه السنة: غزت العساكر السلطانية الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر غير مرة، فسار الأمير تغري برمش نائب حلب، ومعه الأمير قانباي الحمزاوى نائب حماة بعساكر حلب وحماة، في أول شهر رمضان إلى عينتاب، وقد نزل جانبك الصوفي على مرعش فتوجهوا إليه من الدربند، ونزلوا بَزرْجُق، وأقاموا يومين، وقد عدوا نهر جيحان، وقطعوا الجسر من ورائهم، وقصدوا الأمير ناصر الدين محمد بن خليل بن قراجا بن دلغادر من جهة دربند كينوك، فلم يقدروا أن يسلكوه من كثرة الثلوج التي ردمته، فمضوا إلى دربند أترنيت من عمل بهنسي، وقد ردمته الثلوج أيضًا، فقدم نائب حلب بين يديه عدة رجال ممن معه، ومن أهل البلاد المجاورة للدربند لفتح الطريق، ودروس الثلج بأرجلهم، حتى يحمل مسير العسكر ثم ركب في يوم الاثنين ثامن شهر رمضان، وعبر الدربند المذكور بمن معه، وسار يومه. ثم نزل تحت جبل بزقاق وقدَّم أربعين فارس كشافة، فظفروا في خان زليِّ بدمرداش مملوك ناصر الدين محمد بن دلغادر، وقد بعثه في ثلاثة لكشف خبر العساكر، ففر الثلاثة، وقبض على دمرداش وأتوا به، فأخبر أن القوه على أبلستين. فركب نائب حلب بمن معه في الحال، وجد في سيره حتى طرق أبلستين يوم الثلاثاء تاسعه، وقد رحل ابن دلغادر بمن معه عند عودة رفقة دمرداش إليه بخبر قبض كشافة العساكر عليه، فسار في أثره يومه، وقد عبر بمن معه نهر جيحان فلم يدركهم ثم عاد نائب

حلب وجماعته ونزل ظاهر أبلستين، وأمر بأهلها، فرحلوا إلى جهة درنده وأضرم النار في البلد حتى احترقت بأجمعها، بعد ما أباحها للعسكر فنهبوها وسائر معاملاتها، فحازوا من الخيول والبغال والأبقار والجواميس والأغنام والحمير والأقمشة والأمتعة ما لا نهاية له، بحيث أنه لم يبق أحد من العسكر إلا وأخذ من ذلك ما قدر عليه. وعاد نائب حلب بمن معه، والغنائم تساق بين يديه على طريق بهسني، ثم عم عينتاب، فلم يبق بأبلستين ولا معاملتها قدح واحد من الغلال. وحرقت ونهبت - هي وبلادها - فبقيت قاعًا صفصفًا. وعبر بالعسكر إلى حلب بعد غيبتهم عنها خمسين يومًا، ثم إن ابن دلغادر جمع جمائعه ورحل ببيوته إلى أولخان، بالقرب من كينوك وكانت الأمراء المجردة من مصر نازلة بحلب، فجهز الأمير تغري برمش نائب حلب الأمير حسام الدين حسن خجا حاجب الحجاب بحلب، ومعه مائة وخمسون فارسًا، إلى عينتاب تقوية للأمير خجا سودن، وقد نزل بها.

فلما كان يوم الاثنين رابع عشرين ذي الحجة: وصل الصوفي ومعه الأمير قرمش الأعور وكمشبغا أمير عشرة - من أمراء حلب - وقد خامر منها، وصار من جلة جانبك الصوفي، وأولاد ناصر الدين محمد بن دلغادر - سوى سليمان - يريدون لقاء الأمير خجا سودن، فنزلوا على مرج دلوك، ثم ساروا منه إلى عينتاب، فقابلهم الأمير خجا سودن في آخر النهار وباتوا ليلتهم، وأصبحوا يوم الثلاثاء خامس عشرينه. فقدم الأمير حسن خجا حاجب حلب في جمع كبير من تركمان الطاعة، فتقدم إليهم جانبك الصوفي بمن معه، وهم نحو الألفي فارس، فقاتلهم عسكر السلطان المذكور، وقد انقسموا فرقة عليها الأمير خُجا سودن حاجب حلب، وفرقة عليها الأمير تمرباي الدوادار بحلب، وتركمان الطاعة، كل فرقة في جهة فكانت بينهم وقعة انجلت عن أخذ الأمير قُرمش الأعور، وكمشبغا أمير عشرة، وثمانية عشر فارسًا، فانهزم جانبك الصوفي ومن معه، وتبعهم العسكر إلى انجاصوا. ثم عادوا، وحمل المأخوذون إلى حلب، فسجنوا بقلعتها في الحديد، وكتب بذلك إلى السلطان.

* * *

سنة أربعين وثمانمائة

أهلت وخليفة الوقت والزمان أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل على الله أبى عبد الله محمد، وسلطان الإسلام بديار مصر وبلاد الشام وأراضى الحجاز مكة والمدينة وينبع وجزيرة قبرس، السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى الدقماقى. والأمير الكبير أتابك العساكر جقمق السيفى رأس الميمنة. والمقام الجمالى يوسف ولد السلطان رأس الميسرة. وأمير سلاح الأمير قرقماس الشعبانى. وأمير مجلس أقبغا التمرازى. والدوادار الأمير أركماس الظاهرى. ورأس نوبة النوب الأمير تمراز القرْمِشى.

وحاجب الحجاب الأمير يشبَك. وأمير آخور جاثم أخو السلطان. وبقية المقدمين الأمير تغرى بردى البكلمشى المؤذى، وخُجا سودن، وقراقُجا الحسنى، وأينال الأجرود نائب الرها، والأمير تنبك، فهم ثلاثة عشر، بعدما كانوا أربعة وعشرين مقدما.

ونواب السلطنة بالممالك الأمير أينال الجمكى نائب الشام. والأمير تغرى برمش الجقمقى نائب حلب والأمير قانباى الحمزاوى نائب حماة. والأمير جلبَان المؤيدى نائب طرابلس، والأمير تمراز المؤيدى نائب صفد، والأمير يونسْ نائب غزة والأمير عمر شاه نائب الكرك، والأمير أقباى البْشبَكى نائب الإسكندرية. والأمير أسَنْدمر الأسعردى نائب الوجه القبلى، والأمير حسن بيك الدكرى التركمانى نائب الوجه البحرى، ولم يعد في الدول الماضية أن يستقر أحد من النواب تركمانيا، إلا فيما بعد عن بلاد حلب، فاستجد في هذه الدولة الأشرفية ولاية عدة من التركمان ولايات ونيابات وإمريات. بمصر والشام.

وأمير مكة المشرفة الشريف زين الدين أبو زهير بركات بن حسن بن عجلان الحسنى. وبالمدينة النبوية الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام الشريف، وميان ابن مانع بن على بن عطة بن منصور بن جاز بن شيحة الحسينى، وبالينبع الشريف عقيل بن وبير بن نخبار بن مقبل بن محمد بن راجح بن إدريس بن حسن بن أبى عزيز قتاده الحسنى. وهؤلاء الأشراف الثلاثة نواب عن السلطان.

وفي بقية ممالك الدنيا القان معين الدين شاه رخ سلطان ابن الأمير تيمور كوركان صاحب ممالك ما وراء النهر، وخراسان وخوارزم وجرجان وعراق العجم،

ومازندران، وقندهار، ودله من بلاد الهند، وكرمان، وجميع بلاد العجم إلى حدود أذربيجان، التي منها مدينة تبريز، ومتملك تبريز إسكندر بن قرايوسف بن قرا محمد، وهو مشرد عنها خوفا من القان شاه رخ.

وحاكم بغداد أخو أصبهان بن قرايوسف، وقد خرجت بغداد ولم يبق بها جمعة ولا جماعة، ولا أذان، ولا أسواق. وجف معظم نخلها، وإنقطع أكثر أنهارها، بحيث لا يطلق عليها اسم مدينة بعدما كانت سوق العلم. وعلى حصن كيفا الملك الكامل خليل بن الأشرف أحمد بن العادل سليمان بن المجاهد غازى بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن الموحد عبد الله ابن السلطان الملك المعظم توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى وعلى بلاد قرمان من بلاد الروم إبراهيم بن قرمان. وملك الإسلام ببلاد الروم خوندكار مراد بن محمد بن كُرْشجى بن بايزيد يلدَريم بن مراد بن أرخان بن أردن على ابن عثمان بن سليمان بن عثمان، صاحب برصا وكالى بولى. وبجانب من بلاد الروم أسفنديار بن أبى يزيد، وعلى ممالك إفريقية من بلاد المغرب أبو عمرو عثمانين أبى عبد الله محمد بن أبى فارس عبد العزيز الحفصى صاحب تونس وبجاية وسائر إفريقية. وعلى مديْنة تلمسادْ والمغرب الأوسط أبو يحيى بن أبى حمو، وبمملكة فاس ثلاثة ملوك أجلهم صاحب مدينة فاس، وهو أبو محمد عبد الحق بن عثمان بن أحمد بن إبراهيم ابن السلطان أبى الحسن المرينى، وليس له أمر ولا نهى ولا تصرف في درهم، فما فوقه. والقائم بالأمر دونه أبو زكريا يحيى بن أبى جميل زيان الوطَاسى وبعد صاحب فاس صاحب مكناسة الزيتون على نحو نصف يوم من فاس. والآخر بأصِيلا على نحو خمسة أيام من فاس، وهما أيضا تحت الحجر، ممن تغلب عليهما. وقد ضْعفت مملكة بنى مرين هذه، ويزعم أهل الحدثان أن الشاوية تملكها، وقد ظهرت إمارات صدق ذلك. وبالأندلس أبو عبد الله محمد بن الأيسر ابن الأمير نصر ابن السلطان أبى عبد الله بن نصر المعروف بابن الأحمر، صاحب أغرناطة. وببلاد اليمن الملك الظاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل صاحب تعز وزبيد وعدن. وعلى صنعاء وصعدة الإمام على بن صلاح الدين محمد بن على الزينى. وبممالك الهند الإسلامية عدة ملوك. وممأليك الفرنج بها أيضًا نحو سبعة عشر ملكا، يطول علينا إيرادهم. وببلاد الحبشة الحطى الكافر، ويحاربه ملك المسلمين شهاب الدين أحمد بدلاى ابن سعد الدين أبى البركات محمد بن أحمد بن على بن صبر الدين محمد بن ولخوى بن منصور بن عمر بن ولسْمَع الجبرتى.

وأرباب المناصب بالقاهرة الأمير جانبك أستادار. والقاضي محب الدين محمد بن الأشقر كاتب السر. وناظر الجيش عظيم الدولة زين الدين عبد الباسط، ولا يبرم أمر ولا يحل ولا يولى أحد ولا يعزل إلا بمشورته. وناظر الخاص سعد الدين إبراهيم بن كاتب حكم. وقاضى القضاة الشافعي الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على ابن حجر، وإليه المرجع في عامة الأمور الشرعية لسعة علمه وكثرة إطلاعه، لاسيما علم الحديث ومعرفة السنن والآثار فإنه أعرف الناس بها فيما نعلم. وقاضى القضاة الحنفي بدر الدين محمود العيني. وقاضى القضاة المالكي شمس الدين محمد البساطي. وقاضي القضاة الحنبلي محب الدين أحمد بن نصر الله البغدادى. والمحتسب الأمير صلاح الدين محمد ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر اللة. ووالى القاهرة عمر الشويكى.

* * *

سنة إحدى وأربع وثمانمائة

شهر المحرم، أوله يوم السبت:

في ليلة الأحد تاسعه: بلغ القاضى زين عبد الباسط، والوزير كريم الدين، وسعد الدين ناظر الخاص، أن المماليك السلطانية على عزم نهب دورهم، فوزعوا ما عندهم، واختفوا. ثم صعدوا إلى الخدمة السلطانية على تخوف، وعادوا إلى دورهم، والإرجاف مستمر إلى يوم الأحد سادس عشرة، فنزل عدة من المماليك، فاقتحموا دار عبد الباسط ودار الأمير جانبك أستادار ودار الوزير، ونهبوا ما وجدوا فيها.

وفي ثانى عشرينه: قدم الركب الأول من الحجاج. وقدم من الغد المحمل ببقية الحاج.

وقدم الخبر بأن نائب دوركى توجه في خامس عشرة في عدة من نواب تلك الجهات وغيرهم، وعدتهم نحو الألفى فارس، حتى طرقوا بيوت الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادره وقد نزل هو والأمير جانبك الصوفى على نحو يومين من مرعش، فنهبوا ما هنالك، وحرقوا. ففر ابن دلغادر وجانبك الصوفى في نفر قليل. وذلك أن جموعهما كانت مع الأمير سليمان بن ناصر الدين بن دلغادر على حصار قيصرية الروم.

شهر صفر، أوله يوم الأحد: فيه توجه الأمير أينال الجكمى نائب الشام من دمشق

يريد حلب. وقد سارت نواب الشام حتى يوافوا قيصرية، مددًا لإبن قرمان على سليمان بن دلغادر.

وفي رابعة الموافق له رابع عشرى مسرى: كان وفاء النيل ستة عشر ذراعا، فركب المقام الجمالى يوسف ابن السلطان حتى خلق عمود المقياس بين يديه، ثم فتح خليج القاهرة على العادة، وعاد إلى القلعة.

وفي سابعه: قدمت تقدمة الأمير أينال الجكمى نائب الشام، وهى ذهب عشرة آلاف دينار، وخيول مائتا فرس، منها ثلاثة أرؤس بسروج ذهب وكنابيش ذهب، وسمور عشرة أبدان، ووشق عشرة أبدان، وقاقم عشرة أبدان، وسنجاب مائة بدن، وثياب بعلبكى خمسمائة ثوب، وأقواس حلقة مائة قوس، وجمال بخاتى ثلاث قطر، وجمال عراب ثلاثمائة جمل، وصوف مربع مائة ثوب، ذات ألوان.

وفي يوم السبت سابعه: رسم بخروج تجريدة إلى بلاد الشام، وعين من الأمراء المقدمين ثمانية، وهم الأمير قرقماس الشعبانى أمير سلاح، والأمير أقبغا التمرازى أمير مجلس، والأمير أركماس الظاهرى الدوادار، والأمير تمراز الدقماقى رأس نوبة النوب، والأمير يشبك حاجب الحجاب، والأمير جانم أمير أخور، والأمير خجا سودنْ، والأمير قراجا الأشرفي.

وفي هذا الشهر: هدم للنصارى دير المغطس عند الملاحات، قريب من بحيرة البرلس وكانت نصارى الإقليم قبليا وبحريا تحج إلى هذا الدير كما يحجون إلى كنيسة القيامة بالقدس، وذلك في عيده من شهر بشنس، ويسمونه عيد الظهور، وقد بسطت الكلام على هذا عند ذكر الكنائس والديارات من كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار.

وفي هذه الأيام: إشتد البلاء بأهل الذمة من اليهود والنصارى، وألزمهم الذى ولى أمر مواريثهم أن يعملوا له حساب من مات منهم من أول هذه الدولة الأشرفية، وإلى يوم ولايته. وأخرق بهم وأهانهم. وألزمهم أيضًا أن يوقفوه على مستنداتهم في الأملاك التى بأيديهم، فكثرت الشناعة عليه، وساءت القالة في الدولة.

وفي هذه الأيام: تزايد بالسلطان مرضه. ومنذ إبتدأ به المرض، وهو أخذ في التزايد، إلا أنه يتجلد، ويظهر أنه عوفي. ويخلع على الأطباء، ويركب وسحنته متغيرة، ولونه مصفرًا، إلى أن عجز عن القيام من ليلة الأربعاء سابعه. هذا، وقد شنع الموت بالدور السلطانية في أولاد السلطان الذكور والإناث، وفي حظاياه

وجواريه، وجوارى نسائه، وفي الخدام الطواشية، وفي المماليك السلطانية سكان الطباق بالقلعة. وشنع الموت أيضًا في الناس بالقاهرة ومصر وما بينهما، وفي سكان قلعة الجبل، سوى من ذكرنا، وفي بلاد الواحات والفيوم، وبعض بلاد الصعيد، وبعض الحوف بالشرقية.

وفي يوم الثلاثاء رابعه: عهد السلطان إلى ولده المقام الجمالى يوسف، وذلك أنه لما تزايد به المرض، حدث عظيم الدولة القاضى زين الدين عبد الباسط الأمير صفى الدين جوهر الخازندار في أمر المقام الجمالى، وأشار له أن يفاوض السلطان في وقت خلوته به، أن يعهد إليه بالسلطة من بعد وفاته، ويحسن له ذلك، فاتفق أن السلطان أمر الأمير جوهر أن يحرر له جملة ما يتحصل من أوقافه على أولاده، فلما أوقفه على ذلك، وجد السبيل إلى الكلام، فأعلمه. بما أشار به القاضى زين الدين عبد الباسط من العهد إلى المقام الجمالى، فأعجبه ذلك، وأمر بإستدعائه ه فلما مثل بين يديه، سأله عما ذكر له جوهر عنه، فأخذ يحسن ذلك، ويقول: " في هذا إجتماع الكلمة، وسد باب الفتن، وعمارة بيت السلطان، ومصلحة العباد، وعمارة البلاد " ونحو ذلك من القول. فأجاب السلطان إلى ذلك، ورسم له باستدعاء الخليفة والقضاة والأمراء والمماليك وأهل الدولهْ، وحضورهم في غد، فمضى عنه القاضى زين الدين ونزل إلى داره بالقاهرة، وبعث إلى المذكورين أن يحضروا غدًا بين يدى السلطان بكرة النهار، وتقدم إلى القاضى شرف الدين أبى بكر الأشقر نائب كاتب السر بكتابة عهد المقام الجمالى، وذلك أن القاضى صلاح الدين محمد بن نصر الله كاتب السر من حين وسط العفيف وخضر تغير مزاجه، وإشتد جزعه إلى أن حم في ليلة الجمعة، ونزل من القلعة، ولزم الفراش ومرضه يتزايد، وقد ظهر به الطاعون في مواضع من بدنه، فبادر القاضى شرف الدين، وكتب العهد ليلاً. وأصبح الجماعة في يوم الثلاثاء رابعه وهم بالقلعة، فأخرج السلطان إلى موضع يشرف على الحوش، وقد وقف به الأمير خشقدم الطواشى مقدم المماليك، ومعه جميع من بقى من المماليك السلطانية سكان الطباق بالقلعة، وجميع من هو أسفل القلعة، من المشتروات والمستخدمين. وجلس الخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو الفتح داود، وقضاة القضاة الأربع على مراتبهم، والأمير الكبير جقمق العلاى أتابك العساكر، ومن تأخر من أمراء الألوف والمباشرون، ماعدا كاتب السر فإنه شديد المرض. ثم قام القاضى زين الدين عبد الباسط وفتح باب الكلام في عهد السلطان من بعد وفاته لإبنه المقام الجمالى بالسلطنة وقد حضر أيضًا مع أبيه، فاستحسن الخليفة ذلك وأشار به. فتقدم

القاضى شرف الدين الأشقر بالعهد إلى بين يدى السلطان، فأشهد السلطان على نفسه بأنه عهد إلى ولده الملك العزيز جمال الدين أبى المحاسن يوسف من بعد وفاته بالسلطة فأمضى الخليفة العهد، وشهد بذلك القضاة. ثم إن السلطان التفت إلى مقدم المماليك وكلمه بالتركية والمماليك تسمعه كلاما طويلا ليبلغه عنه إلى المماليك، حاصله أنه إشتراهم ورباهم، وأنهم أفسدوا فسادًا كبيرًا، عدد فيه ذنويهم، وأنه تغير من ذلك عليهم ومازال يدعو الله عليهم حتى هلك منهم من هلك في طاعون سنة ثلاث وثلاثين، ثم إنه إشترى بعدهم طوائف ورباهم، فشرعوا أيضًا في الفساد، كما فعل أولئك الهالكون بدعائه: وأنه قد وقع فيكم الطاعون فمات منكم من مات، وقد عفوت عنكم، وأنا ذاهب إلى الله وتارك ولدى هذا وهو وديعتي عندكم، وقد إستخلفته عليكم، فإدعوا له وأطيعوه، ولا تختلفوا، فيدخل بينكم غيركم فتهلكوا. وأوصاهم ألا يغيروا على أحد من الأمراء وأن يبقوا الأمراء المجردين على أمرياتهم، ولا يغيروا نواب الممالك. فإشتد عند ذلك بكاؤهم، وبكى الحاضرون أيضًا ثم أقسم السلطان وأعيد إلى فراشه، وقد كتب الخليفة بإمضاء عهد السلطان، وشهد عليه فيه القضاة بذلك، ثم كتب القاضى شرف الدين الأشقر إشهادًا على السلطان بأنه جعل الأمير الكبير جقمق العلاى قائما بتدبير أمور الملك العزيز، وأخذ فيه خط الخليفة بالإمضاء، وشهادة القضاة عليه بذلك، فألصقه بالعهد، وإنفضوا جميعهم.

ومن يوم السبت خامس عشرة: إشتد مرض السلطان، ثم حجب عن الناس، فلم يدخل إليه أحد من الأمراء والمباشرين عدة أيام، سوى الأمير أينال شاد الشربخاناه، والأمير على بيه، والأمير صفى الدين جوهر الخازندار، والأمير جوهر الزمام. فإذا صعد القاضى زين الدين عبد الباسط والمباشرون إلى القلعة، أعلمهم هؤلاء بحال السلطان. هذا، والإرجاف يقوى، والأمراء والمماليك السلطانية في حركة، وقد صاروا فرقًا مختلفة الآراء. والناس على تخوف من وقوع الحرب، وقد وزعوا في دورهم، وأخفى أهل الدولة أولادهم ونساءهم خوفًا من النهب، وأهل النواحى بالصعيد والوجه البحرى قد نجم النفاق فيهم، وخيفت السبل، شامًا ومصرًا. وقد تناقصت عدة الأموات بالقاهرة ومصر منذ أهل هذا الشهر، كما تقدم.

وفي أخريات هذا الشهر: هجم على المسجد على الحرام بمكة سيل عظيم، ملأ الحرم من غير تقدم مطر بمكة.

وأما السلطان فحدث له مع سقوط شهوة الغذاء مدة أشهر، ومع إنحطاط قواه، ما ليخوليا فكثر هذيانه وتخليطه، ولولا أن الله تعالى أضعف قوته لما كان يؤمن مع ذلك من إفساد شيء كثير بيده، إلا أنه في أكثر الأوقات غائب، فإذا أفاق هذى وخلط. وصار العسكر في الجملة قسمين: قسم يقال عنهم أنهم قرانصة، وهم الظاهرية والناصرية والمؤيدية، وكلمتهم متفقة على طاعة الملك العزيز، وأن يكون الأمير الكبير جقمق العلاى نظام الملك، كما قرره السلطان، وأنهم لا يصعدون إلى القلعة خوفًا على أنفسهم من المماليك الأشرفية. والقسم الآخر المماليك الأشرفية سكان الطباق بالقلعة ورأيهم أن يكون الملك العزيز مستبدًا بالأمر وحده، وأعيانهم الأمير أينال شاد الشرابخاناه، والأمير يخضى باى أمير أخور ثاني، والأمير على بيه الخازندار، والأمير مغلباى الجقمقى أستادار الصحبة، والأمير قرقماس قريب السلطان. وهذه الطائفة الأشرفية مختلفة بعضها على بعض. فلما إشتهر أمر هذين الطائفتين وشنعت القالة عنهما، قام عظيم الدولة القاضي زين الدين عبد الباسط في لم هذا الشعث، وإخماد نار الفتنة ليصلح بين الفريقين. ووافقه على ذلك الأمير أينال الشاد، فاستدعى سكان الطباق من الممالك إلى جامع القلعة، وأرسل إلى القضاة.

فلما تكامل الجمع مازال بهم حتى أذعنوا إلى الحلف، فتوفى تحليفهم القاضي شرف الدين الأشقر نائب كاتب السر، على الإقامة على طاعة الملك العزيز، والإتفاق مع الأمير الكبير جقمق، وألا يتعرض أحد منهم لشر ولا فتنة، ولا يتعرضوا لأحد من الأمراء المقيمين بديار مصر، ولا إلى الأمراء المجردين ولا إلى كفلاء ممالك الشام في نفس ولا مال ولا رزق. فلما حلف الأمير أينال والأمير على بيه، والأمير تمرباى الدوادار، وعامة المماليك، حلف القاضي زين الدين عبد الباسط أن يكون مع الفريقين، ولا يباطن طائفة على الأخرى، ثم قام الجميع، وقصد القاضي زين الدين دار الأمير الكير جقمق، ومعه عدة من أعيان الأشرفية، حتى حلفه، وحلف بعده من بقى بديار مصر من الأمراء. ثم نزل بعد ذلك الأمير أينال ثم الأمير على بيه إلى الأمير الكبير جقمق، وقبل كل منهما يده، فإبتهج بهما، وبالغ في إكرامهما. وسكنت تلك الثائرة. ولله الحمد.

وفي يوم الأربعاء عاشره: وهو يوم عيد النحر خرج الملك العزيز، فصلى صلاة العيد بجامع القلعة، وقد صعد إلى خدمته بالجامع الأمير الكبير جقمق، ومن عداه من الأمراء. ثم مشوا في الخدمة بعد الصلاة، حتى جلس على باب الستارة. وخلع على الأمير الكبير، وعلى من جرت عادته بالخلع في يوم عيد النحر. ونزلوا إلى دورهم.

فقام الملك العزيز، ودخل، وذبح، ونحر الضحايا بالحوش هذا، وقد توالت على السلطان نوب الصرع مرارًا، وتخلت قواه، حتى صار كما قيل.

ولم يبق إلا نفس خافت ومقلة إنسانها باهتيرثى له الشامت مما به ياويح من يرثى له الشامت.

حتى مات عصر يوم السبت ثالث عشره. تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته.

* * *

السلطان الملك العزيز جمال الدين

أبو المحاسن يوسف ابن الأشرف برسباى.

أقيم في الملك بعد أبيه، وذلك أن السلطان برسباى لما مات بادر القاضي زين الدين عبد الباسط، والأمير أينال الشاد، والأمير على بيه، والأمير تمربای الدوادار، وقد اجتمعوا بالقلعة، وبعثوا في الحال القاضي شرف الدين الأشقر في إستدعاء الخليفة، وبعث القاضي زين الدين بعض غلمانه في طلب القضاة، فأتوا جميعًا. ودخل الأمير جوهر الزمام، فأخرج بالملك العزيز إلى باب الستارة، وأجلس هناك، وطلب الأمير الكبير جقمق وبقية الأمراء، ونزل المماليك من الطباق. فلما تكامل جمعهم، وحضر الوزير وكاتب السر، وناظر الخاص، فوض الخليفة السلطة للملك العزيز، وأفاض عليه التشريف الخليفتى، وقلده السيف وقد بقي لغروب الشمس نحو ساعة. وعمر السلطان يومئذ أربع عشرة سنة وسبعة أشهر، فقام من باب الستارة، وركب فرسه، ورفعت القبة والطير على رأسه، وقد حملها الأمير الكبير وسار، والكل مشاة في ركابه، حتى عبر إلى القصر، فجلس على تخت الملك وسرير السلطنة، وقبل الأمراء وغيرهم الأرض له. وقرأ العهد بالسلطنة الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله كاتب السر، فخلع على الخليفة، وعلى الأمير الكبير، وعلى كاتب السر. وخرجوا من القصر، وقد غسل السلطان الملك الأشرف برسباى وكفن، وأخرج بالجنازة من الدور إلى باب القلة فوضعت هنالك. وتقدم قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر الشافعي فصلى بالناس عليها قبيل الغروب، وشيع الأمراء والمماليك وغيرهم الجنازة حتى دفنت بالتربة التى أنشأها رحمه الله خارج باب المحروق بالصحراء، تحت القبة. وقد اجتمع من الناس ما لا يحصيهم إلا خالقهم، سبحانه. والناس بالقاهرة في بيعهم وشرائهم بالأسواق في أمن ودعة وسكون. ونودى في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء، وأن يترحموا على الملك الأشرف، والدعاء للسلطان الملك العزيز جمال الدين، أبى المحاسن. وأن النفقة في يوم الاثنين مائة دينار، لكل واحد من المماليك، فازداد الناس طمأنينة. ولم يكن شيء مما كان يتوقع من الشر، والحمد لله.

وفي يوم الأحد رابع عشره: اجتمع أهل الدولة للصبحة عند قبر السلطان. وقد بات القراء يتناوبون القراءة، عند قبره ليلتهم، فختموا القرآن الكريم، ودعوا، ثم انفض الجمع. وأقام القراء للقراءة عند القبر سبعة أيام. وفيه عملت الخدمة السلطانية

بالقصر، وحضر الأمير الكبير وسائر أهل الدولة على العادة، فزاد السلطان الخليفة جزيرة الصابونى زيادة على ما بيده.

وفيه كتبت البشائر إلى البلاد الشامية وأعمال مصر، بسلطنة الملك العزيز.

وفى يوم الاثنين خامس عشره: جلس السلطان بالحوش من القلعة، وعنده الأمراء والمباشرون، وابتدئ في النفقة على المماليك، فأنفق فيهم مائة دينار لكل واحد. وفيه توجه الأمير أينال الأحمدى المعروف بالفقيه بالبشارة إلى البلاد الشامية، وعلى يده مع الكتب للنواب، الكتب للأمراء المجردين.

وقدم الخبر بأن ملك البرتغال صاحب مدينة شلب من الأندلس سار يريد مدينة طنجة، فنزل على سبتة في المحرم، ومضى منهما وهى بيده في البر والبحر، ومعه فيما يقال ثمانية عشر ألف رام، وستة آلاف فارس، حتى نزل على طنجة فحصرها مدة شهر إلى أن أتته جموع المسلمين من فاس ومكناسة وأصيلاً في شهر ربيع الآخر، فكانت بينهم وبين البرتغال من النصارى حروب عظيمة، نصر الله فيها المسلمين، وقتل نحو الثلثين من النصارى. والتجأ باقيهم إلى محلتهم فضايقهم المسلمون حتى طلبوا الأمان على أن يسلموا المسلمين مدينة سبتة، ويفرجوا عن سبعمائة أسير من المسلمين، ويدفعوا ما بأيديهم من آلات الحرب للمسلمين فأمنوهم، وبعثوا برهائنهم على ذلك، فصار المسلمون يأخذون النصارى ويوصلونهم إلى أسطولهم بالبحر. فحسد أحمد اللحيانى القائم بتدبير مكناسة الأزرق وهو أبو زكريا حى بن زيان بن عمر الوطاسى القائم بتدبير مدينة فاس وقتل عدة من النصارى، ورحل، فحنق النصارى، من ذلك، وحطموا على المسلمين حطمة قتل فيها جماعة، وخلصوا إلى أصطولهم وبقى ابن ملكهم في يد المسلمين، فلما وصلوا إلى بلادهم، لم يرض أكابرهم بتسليم سبتة للمسلمين، وبعثوا في فداء ابن الملك بمال، فلم يقع بينهم وبين الرسول إتفاف، وسجنوه مع ابن الملك المرتهن عند صالح بن صالح بن حمو، بطنجة فيقول المكثر أن الذى قتل من النصارى في هذه الواقعة خمسة وعشرون ألفًا، وغنم المسلمون منهم أموالاً كثيرة. ولله الحمده

* * *

سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة

أهلت هذه السنة ومعظم عساكر مصر والشام في التجريدة، وبقيتهم بالقاهرة وظواهرها في إختلاف.

شهر الله المحرم، أوله الثلاثاء فيه رجل العسكر المجرد عن مدينة أرزنكان، عائدًا إلى حلب.

وفي رابعه: توجه الأمير تغرى بردى المؤذى على عدة من المماليك السلطانية إلى البحيرة، بسبب قرب لبيد عرب برقة من البلاد. وفيه خلع على جكم الخاصكى خال السلطان، واستقر خازندارً، عوضًا عن على بيه.

وفي خامس عشره: أعيد مراد بك قاصد الأمير حمزة بن قرايلك صاحب ماردين وآمد، والقاضي شمس الدين القطماوى موقع الدست بحلب. وجهز صحبتهما مبارك شاه البريدى، وعلى يده جواب كتاب الأمير حمزه، بشكره والثناء عليه، وتشريف له بنيابة السلطنة، وفرس بقماش ذهب، وهدية ما بين ثياب سكندرى وغيره، وسلاح، ونسخة يمين ليحلف بها على طاعة السلطان ومناصحته. وأجيب الأمراء المجردون أيضًا عن كتبهم، وأن يسارعوا بالحضور.

وفي هذا الشهر: بعد رحيل العساكر السلطانية عن أرزنكان سار الأمير حمزة بن قرايلك من ماردين لأخذ أرزنكان. وقد تنكر على أخيه يعقوب من أجل أنه سالم العساكر السلطانية، حتى دخلوا المدينة، فخرج إليه جهان كير ابن أخيه، وأقام جعفر إبن أخيه يعقوب بمدينة أرزنكان، فعندما التقى الجمعان خامر أكثر من مع حمزة، وصاروا إلى جهان كر، فانهزم بعد وقعة كانت بينهما، وقد جرح.

والرسل تتردد من الأمير جقمق إلى الأشرفية بالقلعة، في طلب جماعة أخرى حتى نزل إليه منهم الأمير على بيه الخازندار، والأمير يخشباى أمير أخور، وهما من عظماء الأشرفية وأعيانهم. فللحال طلب الأمير جقمق الأمير خشقدم مقدم المماليك، وألزمه بإنزال جميع الأشرفية من الطباق بالقلعة، فاستسلموا بأجمعهم، ونزلوا طبقة أبعد طبقةَ، وقد حضر القضاة وأهل الدولة، فحلفوا للأمير الكبير جقمق، وحكم قاضي القضاة سعد الدين

سعد الديرى الحنفي بسفك دم من خالف منهم هذا اليمين. وزعم أن في مذهبه نقلاً بذلك. فكان هذا الحكم أيضًا مما لم نعهد مثله. ثم أمر جميع المماليك الأشرفية بإخلاء طباقهم من القلعة إلا المماليك الكتابية فقط فما منهم إلا من بادر وحول ما كان له بطقته من القلعة من أثاث وغيره، حتى خلت منهم، فكان هذا من أعجب ما سمعنا به في الخذلان، فإن عددهم يبلغ ألف وخمسمائة وعندهم خزائن الأموال الجمة العدد، وحواصل الأسلحة العظيمة القدر في الكثرة والقيمة، وهم بالقلعة دار الملك وسرير السلطنة، ومعهم السلطان، ولهم من الأمتاع والأموال والنعم ما لا يقدر قدره، إلا أنهم أغمار جهال، متفرقون في اجتماعهم{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ } [الحشر: ١٤].

ومن حينئذ تبين إدبار أمر الأشرفية، وزوال عزهم، وإقبال جد الأمير جقمق، وتجديد سعادته.

وسبب هذه الكائنة أن جكم خال السلطان إتفق هو وعدة من الأشرفية على، أن يقبضوا على الأمير جقمق ومن معه من الأمراء، وعلى أخذْ عبد الباسط وناظر الخاص، فلم يوافقهم الأمير أينال، ومنعهم من ذلك مرارًا. فلما علم جكم بمخالفة أينال له أخذ يدبر مع أصحابه في قتل أينال، فعندما أرادوا الإيقاع به، أعلمه بعض أصحابه بذلك، ففر منهم، وقد حماه منهم بعضهم كما تقدم ذكره، والتجأ إلى الأمير جقمق، وقص عليه الخبر. ومازال يوضحه للأمير حتى تبين له صحة مقالته، فأختص به، وباين من حينئذ أينال الأشرفية، وصار في جملة الأمير جقمق، هو وجماعته، فكان هذا أول زوال دولة العزيز، وصار أينال يبكى في خلواته ويقول: " ما كان جزاء الملك الأشرف مني أنه إشترانى ورباني وعلمني القرآن، وخولني في نعمه، أن أخرب بيته بيدي ولقد بلغني من جهة صحيحة أن الأشرف برسباى نظر إلى أينال هذا في مرض موته ثم قال لمن حضره عنده وأينال قائم على قدميه " هذا مخرب بيتي. وقد قيل قديمًا: " اتق شر من أحسنت إليه ".

وفي يوم الثلاثاء عشرينه: أفرج عن جكم خال السلطان، ومن سجن معه، وخلع عليه بشفاعة السلطان فيهم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه: صعد الأمير الكبير جقمق، وسائر الأمراء والمباشرون، إلى الخدمة السلطانية. ومنع المماليك الأشرفية من العبور إلى القصر

في وقت الخدمة، وذلك أن الأمير الكبير لما ظهر عليهم، وأنزلهم من الطاق التي بالقلعة، كان مما حلفهم عليه ألا يدخل إلى القصر في الخدمة منهم أحد إلا من له نوبة، في يوم نوبتة لا غير.

وفيه خلع على الأمير الكبير جقمق تشريف جليل، ونزل من القصر بعد انقضاء الخدمة إلى الحراقة بباب السلسلة، وسكنها على أنه على أمور الدولة وتدبير المملكة، وتخرج الإقطاعات على ما يريد ويختار، ويولي ويعزل، ومعنى هذا أن السلطان لا يبقى له أمر ولا نهى، ويقتصر من السلطنة على مجرد الإسم فقط. فشق ذلك على الأشرفية، وركب عدة منهم، ووقفوا تحت القلعة بالرميلة، وأكثروا من الكلام في الإنكار، لما كان من سكنى الأمير الكبير بباب السلسلة. ثم انفضوا فأخذ الأمير الكبير يحصن الإصطبل، ويستعد بالسلاح والرحال، ونزل الخدمة السلطانية بالقلعة. فمال الناس بأجمعهم من الأمراء والقضاة والمباشرين إلى جهته، وترددوا إلى مجلسه، وتلاشى أمر السلطان، وأخذ في الانحلال.

هذا والأمير قرقماس وسائر الأمراء وأرباب الوظائف تحضر عند الأمير نظام الملك الخدمة بالحراقة، وتأكل على سماطه، إلى أن خلع العزيز في يوم الأربعاء تاسع عشره، فكانت مدته أربعة وتسعين يومًا، ومن الاتفاق الغريب أن عدة حروف عزيز بالجمل أربعة وتسعين.

* * *

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق

العلائى الجركسى الظاهري: هذا الملك سبى صغيرًا من بلاد الجركس، وجلب إلى القاهرة، وربي في بيت الأمير أينال اليوسفي، وإنتقل إلى الملك الظاهر برقوق من على ولد الأمير أينال، فتنقل في الخدم إلى أن صار بعد الأشرف برسباى نظام الملك، كما تقدم ذكره.

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول: هذا، إستدعى الخليفة والأمراء والقضاة وجميع أرباب الدولة إلى الحراقة بالاصطبل، وأثبت عدم أهلية الملك العزيز يوسف؛ لأنه لا يحسن التصرف، فخلعه الخليفة، وفوض السلطة للأمير نظام الملك جقمق في أخر الساعة الثانية، وتلقب بالملك الظاهر أبى سعيد، وأفيضت عليه الخلع الخليفتية، وقلد بالسيف. وركب من الحراقة، والجميع مشاة في خدمته، وقد دقت البشائر حتى صعد إلى القصر. وجلس على تخت الملك فقبل الأمراء الأرض وانصرفوا. ونودى في القاهرة وظواهرها بالدعاء للملك الظاهر، وأن النفقة مائة دينار لكل مملوك.

وفيه ثارت عدة من المماليك القرانصة الذين قاموا مع السلطان قبل ذلك على الأشرفيه كما تقدم، وطلبوا الآن من السلطان الزيادة في جوامكهم ومرتب لحمهم ووقفوا تحت القلعة وأصبحوا يوم الأربعاء وقد كثر جمعهم، حتى نزل الأمراء من خلسه السلطان، فصاروا يجتمعون على واحد واحد منهم، ويذكرون له ما يريدون إلى أن نزل الأمير الكبير الأتابك قرقماس فأحاطوا به وحدثوه، فوعدهم أن يتحدث لهم مع السلطان، فأبوا أن يمكنوه من العود إلى القلعة، وأرادوه أن يوافقهم على محاربة السلطان وساروا معه بأجمعهم إلى داره، وتلاحق بهم جماعة فلم يزالوا به حتى وافقهم بعد جهد منهم وإمتناع منه، ولبسوا سلاحهم ولبس هو الآخر أيضًا، وأتاه كثير من الأشرفية وساروا به حتى وقف بالرميلة تجاه باب السلسلة، وهم في إجتماعهم مختلفة آراؤهم، فمنهم من يقول: " الله ينصر الملك العزيز ". فإذا سمع ذلك قرقماس منهم قال: " الله ينصر الحق " وآخرون سواهم يقولون: " الله ينصر السلطان ". وفي عزم الأشرفية إذا أخذوا السلطان بقرقماس قتلوا قرقماس في الحال، وأقاموا العزيز. وفي ظن قرقماس أن تكون السلطة له. واتفق أنه لما خرج من داره، وسمعهم ينوهون بالدعاء للعزيز، كشف رأسه وقال: " الله ينصر الحق ". فتطير من له خبرة وتجارب بزوال أمره، لكشفه رأسه في الشارع خارج باب زويلة، بمرأى

من العامة، ثم لما وقف بالرميلة سقطت ذرفته عن كتفه إلى الأرض، وأظلمت الدنيا في عينيه، فتأكدت الطيرة عليه بسقوط عزه وعماه عن الرشد، فكان كذلك. وعندما وقف تجاه باب السلسلة من القلعة سار بعض أتباعه ونادى في القاهرة على لسانه بمجيء المماليك إلى الأمير قرقماس، وأنه ينفق فيهم مائتي دينار لكل واحد، وبمجيء الزعر إليه وأنه يعطى كل واحد منهم عشرين دينارًا. فعظم جمعه، بحيث توهم كثير من الناس أن الأمر له.

وكان السلطان عند ذلك في نفر قليل، فبادر بنزوله من القصر إلى المقعد الذي بجانب باب السلسلة، ومعه المال، وبعث بجماعة للقتال، فوقعت الحرب بين الفريقين مرارًا، والجراح فاشية فيهم، وقد قتل جماعة وتعين الغلب لقرقماس ومن معه، إلا أن عدة من الأمراء فروا عنه، وصعدوا من باب السلسلة إلى السلطان، فسر بهم، ثم أقبل أيضًا من جهة الصليبية عدة أمراء، ووقفوا تجاه قرقماس، في هيئة أنهم جاءوا ليقاتلوا معه ثم ساقوا خيولهم بمن معهم. ودخلوا باب السلسلة، وصاروا مع السلطان، فازداد بهم قوة، هذا وقد دقت الكوسات السلطانية حربيًا بالطبلخاناه من القلعة، وقامت ثلاثة مشاعلية على سور القلعة تنادى من كان في طاعة السلطان فليحضر وله من النفقة كذا وكذا. ونثر مع ذلك السلطان من المقعد على العامة ذهبًا كثيرًا. وصار يقف على قدميه ويحرض أصحابه على القتال، فأقبلت الفرسان نحوه شيئًا بعد شيء داخلة في طاعته، وتركت قرقماس. والحرب مع هذا كله قائمة بين الفريقين ضربًا بالسيوف، وطعنًا بالرماح إلا أن الرمي من القلعة على قرقماس ومن معه بالنشاب كثير جدًا، مع رمى العامة لهم بالحجارة في المقاليع لبغضها في قرقماس وفي الأشرفية، فتناقص جمعهم، وتزايد جمع السلطان إلى قبيل العصر، فتوجه بعض الأشرفية وأخذوا في إحراق باب مدرسة السلطان حسن ليتمكنوا من الرمي على القلعة من أعلاها. فلم يثبت قرقماس، وفر وقد جرح، فثبتت الأشرفيةَ وقاتلت ساعة، حتى غلبت بالكثرة عليها، فانهزمت بعدما قتل من الفرسان والرجالة، جماعة، وجرح الكثير. فمن جرح من السلطانية الأمير تغرى بردى المؤذى حاجب الحجاب من طعنة برمح في شدقه، والأمير أسنبغا الطيارى الحاجب في آخرين فكانت هذه الوقعة من الحروب القوية بحسب الوقت، إلا أن قرقماس جرى فيها على عادته في العجلة والتهور، ففاته الحزم، وأخطأه التدبير من وجوه عديدة، ليقضى اللّه أمرًا كان مفعـــــــــــــــــــــــــــــــولا{وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ} [الرعد: ١١]. وعندما انهزم القوم ندب السلطان لأمير أقبغا التمرازى أمير سلاح في

جماعة لطلب المنهزمين، فتوجه نحو سرياقوس خشية أن يمضوا إلى الشام، فكانوا أعجز من ذلك، ولم يجد أحدًا فعاد.

وفي يوم الخميس خامسه: جلس السلطان على تخت الملك بالقصر، وعملت الخدمة على العادة، فهنأه الناس بالظفر والنصر على أعدائه. وقد وقف على باب القلة من القلعة عدة لمنع من بقي من الأشرفيةَ من الدخول إلى الخدمة، فكان المملوك منهم إذا جاء منع من الدخول، فإن لم يمتنع ضرب على رأسه حتى يرجع من حيث أتى. ورسم بقطع مرتبهم من اللحم في كل يوم، ثم أعيد بعد ذلك.

وفيه اجتمع القضاة بجامع القلعة، وحكم قاضي القضاة شمس الدين محمد البساطى المالكي بهدم سلالم مأذنتى مدرسة السلطان حسن، وهدم سلالم سطحها وألزم الناظر في مجلس الحكم بهدم ذلك فمضى وهدمه، فكان هذا الحكم أيضًا من الأحكام التي لم نعهد من القضاة مثله.

وفي هذا الشهر: هدم جانب من المعلقة إحدى معابد النصارى بمدينة مصر وقد حضر القضاة مع أمين من قبل السلطان. وفيه ادعى على بطرك اليعاقبة عند قضاة القضاة بين يدي السلطان. مما وضع عليه يده من أموال من مات من النصارى ولا وارث له، فأجاب بأن عنده مستندًا بأخذ ذلك، مْخرج في الترسيم على البيان، ثم انحل أمره في ذلك. وفيه فشت الأمراض في الناس بالحميات إلا أنها في الأكثر سليمة تقلع في السابع.

وفي يوم الاثنين سلخه: عملت الخدمةَ بالقصر على العادة، ونزل الناس إلى دورهم، فبلغ السلطان أن الملك العزيز فقد من داره بالقلعة، فاشتد قلقه وتزايد إضطرابه، واستدعى الأمراء والمباشرين، وأعلمهم بذلك، فماج الناس، وكثرت أقاويلهم وترقبوا وقوع فتنة كبيرة، وكان سبب ذلك أن العزيز لما خلع أنزل في بعض دور القلعة من داخل باب الستارة حيث سكنى الحريم السلطانى، وأقرت عنده دادته التي ربته من صغره، ومعها عدة جوارى للعزيز، ما بين سرارى له وخدم، ومكنت مرضعته من التردد إليه، والإقامة عنده ما أحبت، وكان القائم بأمره في قبض ما رتب له على السلطان من لحم ودجاج وأوز وحلوى في كل يوم، وما فرض له من أوقاف أبيه في كل شهر، طواشي من عتقاء أمه خوند جلبان هندي، لم يبلغ العشرين سنة، اسمه صندل، فيه يقظة وكيس، فاحتوى على جميع أحواله لانفراده بخدمته، وكان يشاع غير مرة الارجاف بكحل العزيز وبنقله إلى الإسكندرية وهو يخبر العزيز بذلك، فيرتاع له إلى أن اشتهر أن بعض القضاة أفتى بأن في قتل العزيز حقن

الدماء وصيانة الأموال، فلم يطق صندل صبرًا على كتمان ذلك، وأكثر من إلقائه إلى العزيز وترويعه، وتحسين الفرار، إلى أن انفعل له وكان للعزيز طباخ أيام أبيه فداخله صندل في إخراج العزيز فوافقه على أنه ينهض بإخراجه، وشرعت جوارى العزيز في نقب موضع من الدار بمساعدة الطباخ من خارج، حتى تهيأ هذا، وصندل يحدث جماعة من الأشرفية في القيام معه إذا خرج، وذلك أقصى مرادهم وغاية أملهم، فاتعدوا لذلك، حتى كان وقت الإفطار في ليلة الاثنين، والناس في شغل بأكلهم وقف الطباخ من خارج النقب، فخرج العزيز عريانا مكشوف الرأس، فألبسه الطباخ من خلقانه ثوبًا مملوءًا بالدهن، وسواد القدور وجعل على رأسه قدرًا، وحمله على يده وعاء فيه طعام، بعد أن غير محاسن وجهه وبياض يديه ورجليه بسواد القدور، وخرج وهو معه، كأنه من جملة صبيان المطبخ، فلم يفطن أحد له، حتى خرج من باب القلعة، وقد خرج الأمراء من الفطر من عند السلطان، فضرب الطباخ العزيز ضربة منكرة وصادى به، ليرد بذلك الوهم، فمشى بين الأمراء على تلك الهيئة إلى أن نزل من باب القلعة، فإذا صندل وطوغان الزردكاش، وأزدمر في آخرين من المماليك غير كثير، فقبلوا يده، ومضوا به إلى دار بعضهم.

وكان في ظن العزيز ودادته وجواريه أنه إذا نزل من القلعة يجد مماليكه ومماليك أبيه مستعدين له، فإما يحارب بهم وإما يتوجه إلى الشام، فلما لم ير منهم ما كان يؤمل أراد أن يعود إلى موضعه، وليته عاد، فلم يمكنوه، وقام طوغان في منعه من التوجه إلى الشام، والتزم أنه يمضي إلى بلاد الصعيد، ويأتي بمن هناك من المماليك الأشرفية، في التجريدة لقتال هوارة، وهم سبعمائة فارس، ومضي من ليلته، فكان من أمره ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

واختفى العزيز هو وطواشيه صندل الهندي ومملوكه أزدمر وطباخه وصار ينتقل من موضع إلى موضع، والقوم في طلبه، فمرت به في مدة اختفائه أهوال وشدائد، حتى قبض عليه كما سنراه إن شاء الله تعالى.

شهر شوال، أوله الثلاثاء: في ليلة الثلاثاء: كانت بالقلعة حركات مزعجة، خرج فيها السلطان من الدور إلى القصر واجتمع معه من ثقاته غير واحد، ومرج أيضًا أمر من كان تحت القلعة، فصلى السلطان صلاة العيد بالقصر وهو على تخوف، وقد وقف جماعة بالسلاح مصليتا على رأسه، حتى قضى صلاته، ثم صعد قاضي القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر بعدما صلى إمامًا على كرسي، فخطب وأوجز في خطبته، كما أسرع في صلاته، فما هو إلا أن فوغ من الخطبة إذ جاء

الخبر بأن الأمير أينال قد تسحب ليلا، فعظم الخطب وجل الأمر، وكان سبب ذلك أن الطائفة المؤيدية لم يكن لها في أيام الأشرف برسباى كبير حظ منه، فلما مات خافت المؤيدية من الأشرفية، وإنضموا إذ ذاك على الأمير نظام الملك جقمق، وقاموا بأمره، حتى كان من أمره ما تقدم ذكره، وأخرج الأشرفية إلى السجن بالإسكندرية، وإلى الحجاز، وإلى الصعيد، فأهينوا بعد عزمهم، واتضع جانبهم بعد رفعتهم، وصار المؤيدية هي المشار إيها، وإليهم الحل والعقد، فجدوا في الإغراء بالعزيز، كي يستريحوا من الأشرفية، فإنهم غير آمنين من ثورتهم وإقامة العزيز.

فلما قام الأمير أينال الجكمى بدمشق، ودعا للعزيز، وحلف أمراء دمشق على طاعته وكان الأمير تغرى برمش أيضًا ممن يميل إلى العزيز شق ذلك على المؤيدية، وعلموا أنهم مقتولون شر قتلة، إن كانت للعزيز دولة، فأخذوا في التحريض على قتله، حتى إشتهر أنه إذا فرغ شهر رمضان أمضى فيه ما أرادوه، ففر العزيز لما خامر قلبه من الخوف الشديد، وخاف الأمير أينال أن يتهم به، واجتمع عنده في ليلة العيد عدة من الأشرفية، فلم ينهض بشيء لخوره وضعفه، وتركهم وخرج من جانب داره على بغل في ظلام الليل، ثم نزل عن البغل، ومضى على قدميه، فلم يعلم خبره، فلما بلغ السلطان تسحبه، أمر فنودي بالقاهرة ألا يتخلف أحد من المماليك عن الخدمة، وهدد من تخلف بالقتل، وقبض على جماعة من المماليك الأشرفية، ثم نودي أيضًا بإصلاح الناس الدروب وغلقهم أبواب دورهم، وألا يخرج أحد إلى الشوارع بعد عشاء الآخرة، وغلقت أبواب القاهرة قبل عادة إغلاقها من الليل، فكانت ليلة هذا العيد ويومه من الأوقات النكدة، حتى كأنه ليس بعيد.

وفي يوم الخميس ثالثه: خلع على الأمير تنبك بن تنبك، واستقر أمير الحاج، عوضًا عن أينال، وخلع على قراجا البواب، وإستقر في ولاية القاهرة، عوضًا عن علاء الدين على بن محمد بن الطبلاوى، فباشر الولاية بعسف، وخلع على الأمير ممجق واستقر في نيابة القلعة.

وفيه قبض على عدة من الأشرفية. وفيه دقت البشائر عند ورود كتاب الأمير حطط نائب قلعة حلب بكسرة تغرى برمش، وخروجه من حلب، كما تقدم ذكره.

وفي يوم الجمعة: رابعه سار عسكر من القاهرة تزيد عدته على سبعين فارسًا، يريدون المحلة الغربية، لمسك الأمير قراجا الأشرفي.

وفي يوم السبت خامسه: أخذت خيول الأمير أركماس الظاهري الدوادار، وعزل من الدوادارية الكبرى، وأخذ إقطاعه، وأخرج من داره، وأخذت خيول الأمير قراجا،

وإقطاعه، وشون غلاله.

وفيه قبض العسكر المتوجه على الأمير قراجا، وحمل في الحديد إلى الإسكندرية، فسجن بها.

وفي يوم الاثنين سابعه: نودي بأن من وجد أحدًا من غرماء السلطان وطلع به فله خمسمائة دينار وإقطاع، ومن غمز عليه أنه أخفى أحدًا منهم حل ماله ودمه، هذا والمؤيدية قد تجردت للفحص عن العزيز وعن أينال، وعن المماليك الأشرفية في جميع الأماكن، وقبض على الغلمان، حتى دلوهم على أماكن بعضهم.

وصاروا يكبسون الدور، والترب، وديارات النصارى، والبساتين، وضواحي القاهرة ومصر، ويرون بالليل في الأزقة متنكرين إلى غير ذلك من أنواع الفحص والتفتيش، فإنهم صاروا هم الدولة في هذه الأيام الظاهرية، ولله در القائل:

وإذا سخر الإله أناسًا ::: لسعيد فإنهم سعداء

وفي ليلة الأحد سابع عشرينه: قبض على الملك العزيز، وذلك أنه ضاقت عليه الأماكن لكثرة ما يكبس عليه، وهو يتنقل من موضع إلى موضع آخر ومعه أزدمر شاد شواب خاناته، وصندل طواشيه، وإبراهيم طباخه، فطرد أزدمر صندل الطواشي، ومازال به حتى فارقهم من أربع ليال، ثم طرد الطباخ وانفرد هو والعزيز فيقال: إن العزيز بعث إلى خاله أخي أمه، واسمه بيبرس ليختفي عنده، فواعده على أنه يأتيه. وخاف عاقبة أمره، فأعلم جار له من المؤيدية يقال له يلبيه رأس نوبة، بأمر مجيء العزيز، وأنه يقبح به أن يكون مسكه على يديه، ولكن " إفعل أنت ذلك ".

فترصده يلبيه حتى مر به ومعه أزدمر بعد عشاء الآخره، في خط زقاق حلب وهما في هيئة مغربيين. فوثب يلبيه بأزدمر ليقبض عليه، فإمتنع منه، فضربه أدمى وجهه، وأعانه عليه أعوانه حتى أوثقوه وأخذوا العزيز وعليه جبة صوف، وقادوه وأزدمر إلى باب السلسلة وصعدوا بهما إلى السلطان، والعزيز حاف، وقد أخذ رجل بأطواقه، يسحبه وجماعة محيطة به. فأوقف بين يدي السلطان ساعة، وهو يؤنبه ثم سجن في موضع، حتى أصبح، وطلع الأمراء وغيرهم إلى الخدمة، فأعلموا بخبر العزيز ثم أدخله السلطان إلى قاعة العواميد، وأسلمه لزوجته خوند مغل بنت البارزي، وأمرها أن تجعله في المخدع المعد لمبيت السلطان، ولا تبرح على بابه، وأن تتولى أمر أكله وشربه وحاجاته بنفسها، فأقام على ذلك حتى نقل من المخدع، كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وأما أزدمر فإنه سجن بالبرج من القلعة، حيث كان صندل وغيره من الأشرفية، ولم يوقف للطباخ على خبر، ويقال: إن العزيز دفع إليه مبلغ ستمائة دينار، ودفع لصندل خمسين دينارًا.

ووجد مع العزيز ثمانمائة دينار دفع السلطان منها إلى يلبيه خمسمائة دينار، ولمملوكه الذي عاونه في القبض على أزدمر مائة دينار، وفرق باقي ذلك، ونزع عن العزيز ما كان عليه من الثياب المغربية، وألبس من ثياب السلطنة ما يليق به، ووعد يلبيه بإمرة طلبخاناه.

وعندما صعد العزيز إلى القلعة دقت البشائر ليلاً ومن الغد، وركب الأعيان لتهيئة السلطان، فإنه وأتباعه من أهل الدولة كانوا في قلق زائد وخوف شديد لما داخلهم من عود دولة العزيز بخروج نائبي دمشق وحلب عن طاعة السلطان، وقيام الأشرفية ببلاد الصعيد، وكلهم جميعًا في طاعة العزيز، والله يؤيد بنصره من يشاء.

وفي يوم الأحد: هذا، توجه جانم المؤيدي إلى البلاد الشامية وعلى يده عدة مثالات سلطانية بالبشارة بالقبض على العزيز.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرينه: أحضر بالأمير أينال البوبكري الأشرفي وذلك أنه مازال مختفيًا حتى ظهر العزيز، فغرته الخدع التي خودع بها، من الثناء عليه وبسط عذره في إختفائه، ودخل عشاء على الأمير جرباش قاشق أمير مجلس، وإستجار به، فأجاره، وقد ظن أن السلطان يقبل شفاعته، ثم صعد به من الغد، وقد بعث يعلم السلطان به، فعندما وقع في قبضة السلطان، أمر به فقيد وسجن حتى يحمل إلى الإسكندرية، والأمير جرباش يكرر تقبيل يد السلطان ورحله في أن يشفعه فيه، فلم يفعل، وأخرج في يومه إلى الإسكندرية فسجن بها.

وفي ليلة الأربعاء: المذكور نقل العزيز من حبسه بالمخدع من قاعة العواميد إلى سجن ضيق في الحوش تحت الدهيشة، بعد أن سدت طاقاته، ووكل به من يحفظه، ومنع من جميع خدمه.

وفي يوم الأربعاء: هذا أخذ ما كان للعزيز بالقاهرة من الحواصل التي تشتمل على سروج وثياب وحلي وفرش وأواني وغير ذلك، مما حمل على نيف وسبعين حمالاً، ولها قيمة تزيد على خمسين ألف دينار سوى خمسة آلاف دينار وجدت له لتتمة ستين ألف دينار، وسوى جواهر لها قيمة عظيمة، وسوى حلي للنساء يجل وصفه وقيمته، مما كان للأمه.

وفي يوم الخميس تاسعه: دقت البشائر لورود الخبر بمسك الأمير أينال الجكمي، وإنبثت قصاد السلطان في أهل الدولة يبشرونهم بذلك، ويأخذون ممن يأتوه مالاً على هذه البشرى، فمنهم من يعطي البشير أربعين دينارًا، أو أقل من ذلك أو أكثر، وفعلوا مثل ذلك في الليلة التي قبض على العزيز فيها، فكسبوا مالاً جزيلاً.

وفي يوم الاثنين سابع عشرينه: قدم النجاب برأس الأمير أينال الجكمي، فشهرت على رمح، ثم علقت على باب زويلة، وكان قتله في ليلة الاثنين ثاني عشرينه، بعدما قرر على أمواله، ونودي عليه هذا جزاء من حارب الله ورسوله، وقتل معه بقلعة دمشق الأمير تنم العلاي.

وفي هذه الأيام: بعث السلطان إلى قاضي القضاة علم الدين صالح ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني بألف دينار ذهبًا، فإنه كان قدم له كتبًا وغيرها قبل ذلك. وفيها حكم بقتل الأمير يخشي بك، وقد تَقدم أنه ادعي عليه أنه سب شريفًا، ولعن والديه، فالتجأ إلى قاضي القضاة الشافعي، فحكم بعض نوابه بحقن دمه، وسكن الحال مدة أشهر، ثم تحركوا عليه بعد سجنه، وراودوا القاضي المالكي على قتله، فاحتج بحكم الشافعي بحقن دمه، فعورض بأن المطلوب الآن من الدعوى عليه غير المحكوم فيه بحقن الدم، فصمم على أنهما قضية واحدة، ووافقه غير واحد من المالكية على ذلك، فسكنت الثائرة مدة، ثم تحركوا لإراقة دمه، وأفتي بقتله بعض المالكية، ممن يظهر للناس نسكًا على وظيفة وعد بولايتها، وأرادوا قاضي القضاة المالكي أن يحكم بمقتضى الفتوى فامتنع، فعرضت على غير واحد من نواب المالكي، فلم يقدم أحد على الحكم، وكان منهم واحد لم يوله القاضي نيابة الحكم، وأقام مدة بطالاً، فأذن له السلطان في الحكم فأقدم على ما أحجم عنه غيره، وحكم بقتل يخشي بك.

وفي يوم الخميس سلخه: خلع على ناصر الدين محمد ابن الأمير الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج، واستقر نقيب الجيش، عوضًا عن ناصر الدين محمد ابن أمير طبر.

شهر ذي الحجة الحرام، أوله الجمعة: فيه دقت البشائر بقلعة الجبل لورود خبر من غزة بأن التركمان الصوجية قبضوا على تغرى برمش، وعلى طرعلي بن سقل سيز.

* * *

سنة ثلاثين وأربعين وثمانمائة

شهر الله المحرم الحرام، أوله يوم الأحد: فيه أفرج عن زوجة القاضي زين الدين عبد الباسط، وعن أرغون دواداره.

وفيه حمل عبد الباسط الخزانة السلطانية ثلاثين ألف دينار ذهبًا، وأحيط له بخمسين ألف أردب من الغلة، وبمائة هجين فيها ما تبلغ قيمة الواحد منها آلاف، وبهار قيمته خمسون ألف دينار، وبعدة كثيرة من الجمال.

وفي ثانيه: خلع على ولى الدين محمد السفلي مفتي دار العدل، وأحد خواص السلطان، واستقر في نظر الكسوة المحمولة إلى الكعبة المشرفة، عوضًا عن زين الدين عبد الباسط، مضافًا لما بيده من وكالة بيت المال، فإن شرط الواقف أن يكون وكيل بيت المال ناظر الكسوة.

وخلع على فتح الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب المحرقي، واستقر في نظر الجوالي، عوضًا عن عبد الباسط. وكانت بيده قديمًا فأعيدت إليه.

وفي ثالثه: قدم مبشرو الحاج، وأخبروا بسلامة الحجاج، ورخاء الأسعار.

وفي خامسه: أفرج عن أبى بكر بن عبد الباسط، وعن شرف الدين موسى بن البرهان إبراهيم الكازروني مباشر ديوان عبد الباسط على مال يقوم به. هذا وعبد الباسط يورد المال شيئًا بعد شيء، والسلطان مصمم على أنه لا يقنع منه بأقل من ألف ألف دينار، ويتهدد بعقوبته، ويعدد له ذنوبًا يحقدها عليه.

وفي يوم الأحد ثامنه: أبتدأ بالنداء على النيل، وقد بلغت القاعدة وهي الماء القديم في القياس أربعة أذرع وعشرة أصابع، وأنه زاد ثلاثة أصابع.

وفي تاسعه: نقل الأمير جانبك الزيني أستادار من سجنه بقلعة الجبل إلى بيت الأمير تغرى بردى المؤذى الدوادار ليحاسبه عما في جهته للديوان المفرد، وألزم بحمل عشرة آلاف دينار، فلم يتأخر في القلعة سوى زين الدين عبد الباسط بمفرده في مقعد بالحوش من القلعة، وقد رسم عليه عدة من المماليك السلطانية، وأتباع تبيع أصناف أمواله وعقاره، وتورد أثمانها ذهبًا إلى الخزانة السلطانية.

وفي جمادي عشره: أفرج عن الأمير جانبك الزيني، ونزل من بيت الأمير تغري بردى الدوادار إلى بيته، وقد شطب عليه بمبلغ ألف ألف درهم وثلاثمائة ألف درهم، وجبت عليه لديوان، أكثرها تحامل عليه، فإنها بواق في جهات متسحبين وغير ذلك،

مما لو أنصف لم تلزمه، وذلك سوى العشرة آلاف دينار التي ألم بها.

وفي رابع عشره: قدم القاضي معين الدين عبد اللطيف ابن القاضي شرف الدين أبى بكر كاتب السر بحلب، وحمل التقديمة في خامس عشره، ما بين ثياب حرير، وفرو سمور وثياب صوف، وثياب بعلبكي وخيل، وبغال، قومت بألف وخمسمائة دينار. وفيه رسم بنقل سودن المغربي من سجن الإسكندرية إلى القدس ليقيم به بطالاً، ورسم بسجن الخواجا شمس الدين محمد بن المزلق كبير تجار الشام في قلعة دمشق، حتى يحمل ثلاثين ألف دينار للخزانة السلطانية، وعشرة آلاف دينار للديوان الخاص، فقدم ولده وصالح عن ذلك بخمسة آلاف دينار للخزانة وألف دينار للخاص، وخلع عليه.

وفي ثاني عشرينة: قدم الركب الأول من الحاج ثم قدم محمل الحاج ببقية الحجاج في غده، وأخبروا برخاء الأسعار في بلاد الحجاز وأمنها من الفتن. وأن وميان أمير المدينة النبوية عزل بسليمان بن عزير، وأن جماعة من الحجاج لما قدموا المدينة الشريفة مضوا لزيارة البقيع فخرج عليهم عدة من العربان وقاتلوهم، فقتل ثلاثة نفر من المماليك المجردين.

وفي هذه الأيام: كثرت القالة باختلاف أمراء الدولة والمماليك السلطانية، فنودي في يوم الخميس سادس عشرينه بألا يخرج أحد في الليل وأن يصلح الناس دروب الحارات ونحوها.

وفي سلخه: قدم الأمير يشبك من بلاد الصعيد بمن معه من الأمراء والمماليك المجردين، فخلع عليه، وإستقر أميرًا كبيرًا أتابك العساكر، وخلع على من قدم معه من الأمراء.

وفي هذا الشهر: وقع الصلح بين الفنش ملك أشبيلية وقرطبة وغيرهما من ممالك الفرنج، وبين محمد بن الأحمر ملك المسلمين بغرناطة من بلاد الأندلس، بعدما امتدت الفتنة بين الفريقين عدة سنين، ولله الحمد.

شهر صفر، أوله يوم الاثنين: فيه قدم الأمير قانبيه البهلوان أتابك العساكر بدمشق، فأكرم وخلع عليه لنيابة صفد، عوضًا عن الأمير أينال الأجرود المستقر في جملة أمراء الألوف بديار مصر، ورسم باستقرار الأمير أينال الششمانى أحد أمراء الألوف بدمشق في الأتابكية بها، عوضًا عن الأمير قانبيه البهلوان.

وفي يوم الخميس رابعه: طبق السحاب أفاق السماء بالقاهرة وما حولها، ثم

أمطرت مطرًا غزيرًا كثيرًا، فكان هذا مما يستغرب، فإن الزمان صيف، والشمس في برج الأسد، والنيل ينادي عليه، وقد بلغ نحو عشرة أذرع، ونحن في شهر أبيب أحد شهور القبط " وَلَكِن الله يفعل مَا يُرِيد ".

وفي سادسه: قدم الأمراء المجردين إلى الشام بمن معهم من المماليك السلطانية فخلع على الأمير قراقجا الحسنى أمير أخربر، ونزل بباب السلسلة من القلعة، وعلى الأمير تمرباي رأس نوبة النوب.

وفي حادي عشرة: نقل زين الدين عبد الباسط من المقعد بالحوش من القلعة إلى برج بها، وكانت حاله في مدة سجنه بالمقعد على أجمل ما عهد ممن نكب، فإنه أنزل بهذا المقعد وهو أحد المواضع المعدة لجلوس السلطان ورتب له في كل يوم سماط من أول النهار، وسماط في أخره يحمل إليه من المطبخ السلطاني، مع الحلوى والفاكهة، ولم يمنع أحد من التردد إليه، فكان أمراء الدولة ومباشروها وأعيان الناس وجميع أتباعه وألزامه لا يزالون يتناوبون مجلسه، ويكونون بين يديه، كما هي عادتهم في أيام دولته، بحيث لم يفقد مما كان عليه سوى الحركة والركوب، وهو مطلوب بألف ألف دينار، والسلطان مصمم على ذلك.

وقد توسط بينه وبين السلطان المقر الكمالى محمد بن البارزي كاتب السر، وراجع السلطان في أمره مرارًا وعبد الباسط يورد من أثمان ما يباع له من ثيابه وأثاثه وحلي نسائه وأمتعتهم ومن عقاراته، حتى وقف طلب السلطان بعد اللتيا والتي على أربعمائة ألف دينار، وأبى أن يضع عنه منها شيئًا، إلى أن كان يوم الخميس هذا، تحدث كاتب السر مع السلطان في الحططة من الأربعمائة ألف دينار، وأعانه عدة من أعيان الدولة في التلطف بالسلطان، وسؤاله في ذلك، فغضب، وأمر أن يخرج إلى البرج على حالة ردية، وأشار لبعض خواصه بالمضي لما رسم به، فأخرج في الحال من المقعد، لكن على حالة غير ردية، ومضوا به ماشيًا حتى سجنوه بالبرج، ورسم له أن يدفع إلى المرسمين عليه بالمقعد وهم ثمانية من خاصكية السلطان مبلغ ألفي دينار ومائتي دينار، فدفعها إليهم، وإذا بوالي القاهرة قد دخل عليه بالبرج، وأمره أن يخلع جميع ما عليه من الثياب، فإنه نقل للسلطان أن معه الاسم الأعظم، ولذلك كلما هم بعقوبته صرفه الله عن ذلك. فخلع جميع ما كان عليه من الثياب والعمامة، ومضى بها الوالي، وبما في أصابع يديه من الخواتيم، فواجد في عمامته قطعة أديم، ذكر لما سئل أنها من نعل النبي ، ووجدت فيها أوراق بها أدعية ونحوها.

وفي يوم السبت ثالث عشره: وهو أول مسرى نودي على النيل بزيادة خمسين إصبعًا، لتتمة أربعة عشره ذراعًا وإصبعين، وهذا المقدار مما يستكثر مثله في أول مسرى، ولله الحمده

وفي هذا الشهر: ارتفع سعر الغلال، فارتفع سعر القمح من مائة وأربعين درهمًا الأردب إلى مائة وتسعين، والشعير من ثمانين درهمًا الأردب إلى مائة وخمسين، وبلغ القول نحو مائتي درهم الأردب، وشره الناس في خزن الغلال، ظنًا منهم أن أسعارها تعلو من أجل أن أكثر أراضي الزرع كانت شراقي، ومع ذلك فتولد من الفأر شيء عظيم أفسد في الزروع فسادًا كبيرًا، ووقعت ببلاد الصعيد فتن كبيرة، رعى فيها من الزروع ما شاء الله، فلذلك نقص متحصل غلال النواحي حتى أرجف المشنعون بوقوع الغلاء، ولهجوا بذكره، فأغاث الله العباد والبلاد، وأجرى النيل سريعًا غزيرًا، فضعفت قلوب خزان الغلال، وإطمأنت قلوب الكفاية، فانكفوا عن كثرة الطلب لها{إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحج: ٦٥].

وفي هذا اليوم: قدم الأمير أينال الأجرود من صفد، والأمير طوغان نائب القدس، والأمير طوخ أتابك العسكر بغزة، وقد صار من جملة مقدمي الألوف بدمشق على تقدمة مغلبية الجقمقي، فخلع عليهم وأركبوا خيولاً بقماش ذهب، ونزلوا إلى دورهم. وفي هذه الأيام: ندب السلطان من جرف جميع الأتربة التي كانت بالرميلة تحت القلعة، ونقلها إلى الكيمان، وجرف الأتربة التي كانت بالصوة تحت القلعة إلى قريب مدرسة الأمير أيتمش بطرف التبانة.

وفي رابع عشرة: رسم بإحضار من في سجن الإسكندرية، وهم جانم أمير أخور، وأينال البوبكرى، وعلى باى الدوادار، وحكم، وبيبرس خالي العزيز وتنم ويشبك الدواداران، وتنبك القيسي، ويشبك الخاصكيان، وبيرم خجا أمير مشوي، وأزبك خجا رأس نوبة، وأن يترك الأمير قراجًا بالسجن، فسار الأمير أسنبغا الطيارى لذلك. وفيه توجه الأمير قانبيه البهلوان إلى محل كفالته بصفد بعد ما أنعم عليه بمال جزيل.

وفي يوم الخميس ثامن عشرة: الموافق له سادس مسرى: نودي على النيل بزيادة عشر أصابع، فوفاه الله تعالى ستة عشر ذراعًا وإصبعين من سبعة عشره ذراعًا، وهذا أيضًا من النوادر في وقت الوفاء، فركب الأمير الكبير يشبك الأتابك حتى خلق المقياس بين يديه، ثم فتح الخليج على العادة.

وفي ثاني عشرينه: قدم الأمير أسنبغا الطيارى بمن معه من المسجونين

بالإسكندرية إلى بلبيس، وكلهم في الحديد، وعدتهم أربعة عشر، فأفرج منهم عن بيرم خجا أمير مشوى، ونفي إلى طرابلس، وأخرج من البرج بقلعة الجبل رجلان أضيفا مع الثلاثة عشر، فصاروا خمسة عشر، فرسم أن يتوجه منهم سبعة نفر إلى قلعة صفد ليسجنوا بها، وهم: أينال، وعلى بيه، وتنبك القيسي، وأزبك حجا، وجرباش، وحزمان، وقانبيه اليوسفي، ومتسفرهم الأمير سمام، وأن يتوجه ثلاثة منهم إلى قلعة الصبيبة ليسجنوا بها، وهم جانم أمير أخور، وبيبرس خال العزيز، ويشبك بشقشي ومتسفرهم، هم ومن يمضي إلى المرقب، وهم خمسة نفر: أزبك البواب، وجكم خال العزيز، وتنم الساقي، ويشبك الفقيه، وجانبك قلقسيز، والأمير أينال أخو قشتمر، فساروا في حالة سيئة{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف: ٤٩].

وفي سابع عشرينه: قدم الأمير طوخ مازى نائب غزة فخلع عليه، وأنزل في بيته.

وفي تاسع عشرينه: نقل زين الدين عبد الباسط من البرج إلى موضع يشرف على باب القلعة، ووعد بخير بعد ما كان يوعد بالعقوبة.

وفي سلخه وهو ثامن عشر مسرى: نودي بزيادة ثلاثة أصابع لتتمة عشرة ذراعًا وإصبعين من عشرين، وهذا مقدار يندر وقوع مثله في ثامن عشر مسرى ولله الحمد.

شهر ربيع الأول، أوله يوم الأربعاء: في سادسه: خلع على الأمير طوخ مازى، وتوجه عائدًا إلى محل كفالته بغزة. وقد أنعم عليه، وأكرم.

وفي عاشره: نودي بتجهيز الناس للسفر إلى مكة شرفها اللّه في شهر رجب، فسر النار بذلك وأخذوا في أسباب السفر. وفيه توجه الكاشف عمد الصغير ومعه جماعة لأخذ سواكن بعد ما أنفق فيهم.

وفي ليلة السبت حادي عشره: أخرج بالعزيز يوسف من محبسه بالقلعة، وأركب فرسًا، وقد وكل به جماعة، حتى أنزل في الحراقة، ومضوا به إلى الإسكندرية، ومعه جانبك القرماني أحد أمراء العشرات ليودعه بالبرج، محتفظًا به، ورسم أن يصرف له من مال أوقاف الأشرف ألف دينار، وحمل مع العزيز ثلاث جوارى لخدمته، وجهز من أوقافه بما لابد منه بحسب الحال، ورتب له في كل يوم ألف درهم من أوقافه، وخرج عدة من جوارى أبيه يبكين، وعدن بعد انحداره في النيل، فجمعن من رفاقهن وصواحباتهن كثيرًا، وعملن عزاء في تربة الأشرف برسباي، وتربة جلبان أم العزيز.

وفي جمادى عشره: خلع على شمس الدين أبى المنصور نصر الله كاتب اللالا، واستقر في نظر الإصطبل، عوضًا عن زين الدين يحيى قريب بن أبى الفرج.

وفي يوم الأحد ثاني عشره: عمل المولد النبوي بين يدي السلطان بالحوش من القلعة.

وفي سابع عشره وهو خامس أيام النسيء: نودي بزيادة إصبع واحد تكملة عشرين ذراعًا، وهذا المقدار من زيادة النيل قبل النوروز مما يندر وقوعه، وربنا المحمود على جزيل نعمائه.

وفي هذه الأيام أخرج بجماعة من الأشرفية منفيين.

وفي ثامن عشره: أخرج عز الدين محمد بن قاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطي المالكي أحد نواب القضاة المالكية، وناصر الدين محمد الشنشي أحد نواب القضاة الحنفية في الترسيم إلى بلاد الصعيد منفيين. ثم أعيد البساطي بشفاعة وقعت فيه، ومضى الشنشي وإبنه إلى قوص، ونفى أيضًا أربعة من المماليك الأشرفية.

وفي تاسع عشره: سارت تجريدة في النيل، تريد ثغر رشيد، وقد ورد الخبر بأن أربع شواني للفرنج قاربت رشيد، وأخذت أبقارًا أو غيرها، فأخرج لذلك الأمير شادي بك الظاهري ططر، والأمير أسنبغا الطيارى، وهما من أمراء الألوف، وحمل لكل منهما خمسمائة دينار، فما هو إلا أن انحدرت سفنهم واحترق مركب الطيارى من مدفع نفط رموا به، فعاد عليهم، وأحرق كثيرًا مما معهم، وأصاب بعضهم، فألقي الطيارى بنفسه في النيل حتى نجا، ثم ركب في السفينة وساروا.

وفي عشرينه: صعد الخليفة المعتضد أبو الفتح داود إلى السلطان، ومعه الأمير بيبرس ابن بقر، وقد إستجار به، فقبل السلطان شفاعته، وأمنه، ونزل مع الخليفة، ولم يتعرض له بعد ذلك وفي العشر الثالث من هذا الشهر: إتفق حادث شنيع، وهو أن طباخًا خارج باب الفتوح من القاهرة يطبخ كروش البقر ويبيعها مدة سنين في كل يوم، فباع على عادته في بعض أيام هذا العشر، فما دخل الليل إلا وعدة كثيرة ممن إشترى منه وأكل قد مرضوا، وتتابع الموت فيهم، بحيث أنه مات في يومين سبعة نفر، وبقي نحو الأربعين مرضى، لم ينضبط لي ما جرى لهم، ثم بلغني أنه مات منهم جماعة.

وفي سادس عشرينه: رسم بتوجه القاضي زين الدين عبد الباسط إلى الحجاز بأهله وأولاده، فأخذ يتجهز للسفر. وفيه وردت مطالعة الأمير أقبغا التمرازي نائب

الشام، يشكو فيها من بهاء الدين محمد بن حجي قاضي القضاة وكاتب السر بدمشق، فرسم بعزله وإخراجه من دمشق إلى القدس، ثم رسم له بتدريس الصلاحية بالقدس ونظرها، عوضًا عن عز الدين القدسي، وتوجه الأمير يلبغا الجركسى رأس نوبة وأحد خواص السلطان لذلك، وأن يكشف عن شكوى نائب الشام من أرباب الوظائف بدمشق. وفيه ورد الخبر بأن الأمير أقبغا التركماني الناصري نائب الكرك، لما قدم عليه من الأبواب السلطانية جائرًا من بني عقبة ابن منجد أمير بني عقبة، وعليه الخلعة السلطانية، ونزعها عنه وقتله.

وفي سابع عشرينه: رسم بسفر خمسين من المماليك السلطانية صحبة زين الدين عبد الباسط، وأقيم عليهم منهم رأس باش.

وفي تاسع عشرينه: جهز إلى الأمير أركماس الظاهري الدوادار كان فرس وبغل بقماش من الإصطبل السلطاني، وأذن له أن يركب من دمياط، ويسير حيث شاء من أقطار البلد، فقط.

شهر ربيع الآخر، أوله يوم الجمعة:

فيه خلع على شهاب الدين أحمد العجلوني موقع الأمير أركماس الدوادار كان وإستقر في كتابة السر بدمشق، عوضًا عن بهاء الدين محمد بن حجى، ورسم باستمرار عز الدين عبد السلام القدسي على عادته في تدريس الصلاحية بالقدس ونظرها، وأن يحضر ابن حجى إلى القاهرة، ورسم بنقل صلاح الدين خليل بن محمد بن محمد بن محمود بن سابق من كتابة السر بحماة إلى نظر الجيش بحلب، عوضًا عن سراج الدين عمر بن شهاب الدين أحمد بن السفاح.

وفي ثانيه: خلع على ابن السفاح المذكور، واستقر في نظر الجيش بدمشق، عوضًا عن جمال الدين يوسف بن الصفي الكركي، وكان قد قدم القاهرة.

وفيه وهو رابع عشر مسرى:. بلغ النيل عشرين ذراعًا وعشرة أصابع.

وفيه ادعي رجل على بعض نواب القاضي الشافعي أنه سجن غريمًا له على دين ثبت له عليه، فأثبت الغريم إعساره على آخر من نواب القاضي، فأخرجه من السجن، كأنكر السلطان إخراج الغريم من السجن بغير إعذار رب الدين وأمر بالقاضي الذي أخرجه من السجن أن يسجن حتى يدفع لرب الدين دينه وهو ثمانية آلاف درهم فسجن بالبرج من قلعة الجبل، حتى دفع ذلك إليه من ماله، وهذا من نوادر الأحكام.

وفيه رسم بعزل نواب القضاة الأربع بأجمعهم. وألا يستنيب الشافعي سوى أربعة

فقط، وكل من الثلاثة لا يستنيب إلا اثنين لا غير.

وفي سابعه: أنفق في المماليك المجردين إلى مكة صحبة زين الدين عبد الباسط وهم خمسون فارسًا مبلغ خمسين دينارًا لكل واحد، سوى الخيل والجمال.

وفيه خلع على شمس الدين محمد بن إسماعيل بن محمد الونائي واستقر في قضاء الشافعية بدمشق، عوضًا عن ابن حجى، وأنعم عليه السلطان بخيل وجمال، ورسم بتجهيزه. والونائي هذا مولده في شعبان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة بقرية ونا من عمل الفيوم، وقدم القاهرة، واشتغل بها من سنة سبع وثمانمائة، فبرع في الفقه والعربية، وتكسب بتحمل الشهادة مدة، ثم اشتهر وتصدى للأشغال، فقرأ عليه جماعة، وصحب عدة من أعيان الدولة الأشرفية برسباى، منهم الأمير جقمق فلما تسلطن جقمق لزم الترداد إلى مجلسه حتى ولاه مسؤولاً بالولاية، ونعم الرجل هو علمًا ودينًا.

وفي عاشره: استدعى السلطان بأولاد القاضي زين الدين عبد الباسط الثلاثة، وخلع عليهم كوامل حرير بفرو سمور وقاقم، ونزلوا إلى دورهم مكرمين.

وفي حادي عشره: ورد الخبر من دمياط بأن العامة قتلوا رجلا نصرانيًّا اسمه جرجس ابن ضو الطرابلسي بعد ما أظهر الإسلام ثم نهبوا كنائس النصارى.

وفي ثاني عشره: استدعى السلطان بزين الدين عبد الباسط من محبسه "، فدخل في جماعة من أعيان الدولة إلى السلطان، فبالغ في إكرامه، وخلع عليه وعلى عتيقه الأمير جانبك، ونزل من القلعة وفي خدمته أعيان الدولة، وقد اجتمع خلائق لرؤيته فرحًا به، حتى نزل بمخيمه قريبًا من قبة النصر ليتوجه إلى الحجاز بأولاده ونسائه وأتباعه، بعد ما حمل إلى الخزانة السلطانية مائتي ألف دينار وخمسين ألف دينار ذهبًا، سوى ما أخذ له من الخيول والجمال وغير ذلك وسوى تحفًا جليلة قدمها، فحماه الله في محنته فلم يسمع فيها ما يكره، بل كان في هذه المدة يتردد إليه أمراء الدولة ومباشروها، وهو من العز والكرامة على حاله في أيام دولته، ولا أعلم أحدا رأى من الإجلال والاحترام في أيام نكبته ما رآه، ورأى ذلك بما كان يجريه الله على يديه من الصدقات، سرًا وجهرًا.

وفي ثالث عشره: عزل أبو المنصور من نظر الإصطبل، بعد ما حمل مما التزم به نحو سبعمائه دينار، واستقر عوضه تاج الدين محمد بن نور الدين على بن القلاقسي الفوي، على مال إلتزم به.

وفي سحر يوم الجمعة خامس عشره: رحل زين الدين عبد الباسط من منزلته بقبة النصر، حتى أناخ ببركة الحجاج، ورافقه في سفره جماعات من الرجال والنساء، فصار في ركب من الحجاج، وكان يتردد إليه في منزلته هذه عامة الأمراء، والمقام الناصري محمد ولد السلطان، وجميع مباشري الدولة، من الوزير، وكاتب السر، وناظر الجيش، وناظر الخاص، ومعظم أعيان القاهرة من القضاة، ومشايخ العلم، والتجار، وغيرهم من سائر طبقات الناس، فأقام ببركة الحجاج وهم يترددون إليه، ويحملون له المبالغ الكثيرة من الذهب والثياب والخيول والأغنام وغير ذلك، حتى استقل بالمسير في ليلة الاثنين ثامن عشره، فما زادته هذه المحنة إلا رفعة وعزًا، {ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].

وفي خامس عشرينه: عزل ناصر الدين محمد بن أحمد بن سلام عن ولاية دمياط، ولعزله خبر يذكر، وهو أن جماعة من المطوعة بدمياط ركبوا البحر يريدون جهاد الفرنج، فمضوا من دمياط حتى أرسوا بميناء بيروت، وهم في ثلاثة مراكب، فاجتمع عليهم عدة من الغزاة، وساروا غير بعيد، وإذا بطائفة كبيرة من الفرنج في أربعة مراكب قد أقبلوا فاحتربوا معهم حربًا شديدة، حتى استشهدوا بأجمعهم، إلا طائفة من البحارة فإنهم ألقوا أنفسهم في البحر، وأخذ الفرنج مراكب المسلمين بما فيها وأقلعوا، فما هو إلا أن وصل الخبر بذلك إلى دمياط وإذا بالعزاء والمأتم قد أقيمت على من فقد من الغزاه حيث عم ذلك أهل البلد بأسرهم، إلا رجلا من نصارى دمياط يقال له: جرجس بن ضو، فإنه في وقت عزاء الناس عمل فرحًا، وجمع على طعامه عدة أناس، وأظهر الشماتة والمسرة بما أصاب المسلمين، وكان قبل يتهمه الناس بدمياط أنه يكاتب الفرنج ويدلهم على عورات المسلمين، ويحضهم على محاربتهم، فلما عمل هذا المجتمع، لم تصبر العامة على ذلك، وثاروا به وأخرجوه، وادعوا عليه عند القاضي بقوادح، قامت عليه بها بينات أوجبت قتله، فلما أيقن بالهلاك أظهر الإسلام، وتلفظ بالشهادتين، فقام ابن سلام على العامة، وتخلصه من بين أيديهم على مال فيما زعموا أنه وعده به، فتعصبت العامة، وقتلت النصراني الأسلمي، وأحرقوه بالنار، ونهبوا كنائس النصارى، فحنق ابن سلام، وكتب إلى السلطان وإلى ناظر الخاص، وهو يشنع الأمر، ويذكر أن حرمة السلطان قد انكسرت، وضاع مال السلطان، وتعطل استخراجه، فاشتد غضب ناظر الخاص، وأغرى السلطان بأهل دمياط، حتى غضب عليهم، وبعث ثلاثين مملوكًا صحبة بعض الأمراء ليقبضوا على التجار بدمياط، وعلى أعيانها، فدخلوا دمياط وقد طار الخبر

إليها، فرحل جمهور أهلها، وتركوا دورهم وضعفة أهاليهم.

هذا، وكتب ابن سلام تتواتر مرة بعد أخرى لإغراء السلطان بأهل دمياط، وقد طار الخبر إليها، والسلطان يشتد غضبه على العامة، ويهم أن يفتك بهم، فأخذ جماعة من أعيان الدولة في تسكين غضبه، وبالغوا في تقبيل يديه، وسألوه. العفو عنهم، حتى تمهل عن قتلهم، ورسم بعزل ابن سلام، وقد إتضح أمره.

وفي خامس عشرينه: قدم أحد حجاب دمشق بسيف الأمير أقبغا التمرازي نائب الشام، وقد مات فجأة، في سادس عشره، فرسم لنائب حلب الأمير جلبان بإستقراره في نيابة الشام، وأن ينتقل نائب طرابلس الأمير قانباى الحمزاوي إلى نيابة حلب، وينتقل الأمير برسباى الناصري حاجب الحجاب إلى بدمشق إلى نيابة طرابلس، ويستقر عوضه في الحجوبية الكبرى بدمشق الأمير سودون النوروزي حاجب حلب، وينتقل حاجب حماة الأمير سودون المؤيدي إلى الحجوبية الكبرى بحلب، وأن يستقر الأمير جمال الدين يوسف بن قلندور نائب خرت برت في نيابة ملطية، عوضًا عن الوزير الأمير غرس الدين خليل، ويستقر خليل المذكور أحد أمراء الألوف بدمشق، عوضًا عن الأمير ألطبغا الشريفي، ويستقر الشريفي المذكور أميرًا كبيرًا بحلب، عوضًا عن الأمير قطج وأن يحضر الأمير قطج إلى القاهرة، وجهزت تقاليدهم ومناشيرهم في سابع عشرينه، ورسم للأمير دولات باى المريدي الدوادار أن يكون متسفر الأمير جلبان نائب الشام، وأن يكون الأمير أرنبغا اليونسي رأس نوبة متسفر الأمير قانباى الحمزاوي نائب حلب، وأن يكون الأمير سودون المحمدي المعروف بأتمكجي رأس نوبة متسفر الأمير برسباى نائب طرابلس، وخلع عليهم في تاسع عشرينه خلع السفر، فسافروا.

وثبتت زيادة النيل إلى يوم الثلاثاء سابع عشرينه الموافق له ثامن بابة على أصابع من عشرين ذراعًا، وقد انقضت أيام الزيادة وشمل الري أراضي الزراعات بالنواحي، ولم نعهد منذ سنين أن زيادة النيل ثبتت إلى هذا التاريخ من شهور القبط على هذا المقدار، إلا أن أسعار الغلال ارتفعت عما كانت عليه، لا سيما الفول، فإنه تجاوز المائتي درهم الأردب، بعد ثمانين، وقل وجود اللحم الضأن من قلة مراعي بلاد الصعيد، ولما وقع بها من الفتن.

وفي يوم الخميس ويوم الجمعة سلخه: طبق الأفق بالقاهرة جراد منتشر، فأضرب ببعض الزروع، وهلك سريعًا. وفيه أعيد محمد الصغير إلى ولاية دمياط، عوضًا عن ابن سلام.

شهر جمادي الأولى، أوله يوم السبت: فيه نودي من أراد السفر في رجب إلى الحجاز فليتجهز على المسير في نصفه، فسر الناس، وجدوا في أمر سفرهم.

وفي عاشره: برز الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير أينال أحد خواص السلطان، ليتوجه وصحبته أربعين مملوكًا لقتال بلى من عرب الحجاز.

وفي خامس عشره: استقر الأمير مازي أحد الأمراء الألوف بدمشق في نيابة الكرك، عوضًا عن أقبغا التركماني، وقد قبض عليه وسجن بقلعة الكرك. وفيه استقر محمد الصغر والى قوص في كشف الوجه القبلي، عوضًا عن أركماس الجاموس، وجهز له التشريف.

وفي عشرينه: خلع على الأمير أسنبغا الطياري، واستقر في نيابة الإسكندرية، عوضًا عن يلبغا البهائي بعد وفاته، وأقر إقطاعه بيده.

ومضي في هذا الشهر عدة أيام من هتور أحد شهور القبط: والنيل ثابت على تسعة عشر ذراعًا، وهذا من النوادر.

وفي خامس عشرينه: رسم بالإفراج عن الأمير قراجا الأشرفي برسباى، وحضروه ليستقر أميرًا كبيرًا بحلب.

شهر جمادي الآخرة، أوله يوم الأحد: في خامسه: اتفقت بالقاهرة حادثة شنيعة، وهي أن بعض التجار تردد إليه قباني لوزن بضائعه مرارًا وسافر معه إلى الحجاز، فعرف بكثرة ملازمته له كثيرًا من ماله، وداخله الطمع، بحيث عزم على أنه يقتله ويأخذ ماله. ثم جاء إليه في الليل ومعه سكين ماضية قد أعدها لقتله، وأخفاها بين ثيابه، وقال. قد وقع بيني وبين زوجتي مخاصمة، وجئت لأبيت عندكم ". فأقام يحادث عبيده طائفة من الليل، وكان قد ورد إلى التاجر رجل مغربي من أصحابه وبات عنده، فلما ناموا، وهو يراقبهم حتى جن الليل، دخل على التاجر وذبحه، فانتبه من نومه، وقد مضت السكين على حلقه، ولم تفري وديجيه، ودافعه عن نفسه، ومر لينجو وهو يصيح، فخرج البائس وذبح المغربي وهو نائم فقتله، ومال على عبد صغير فذبحه أيضًا، فثار به، وهذا البائس يضربه بالسكين مرارًا حتى مات، هذا وقد قام التاجر ودماؤه تشخب حتى صعد سطح الدار، وصاح بالجيران يغيثوه، فخرج إليه منهم طائفة، وإذا هم بهذا البائس قد خرج من بيت التاجر لينجو بنفسه، فقبضوا عليه، وأخذوا منه السكين، فقال: إن عبد التاجر قام وذبح أستاذه وأراد ذبحي فدافعته عني وقتلته، فرابهم أمره لكثرة ما رأوه عليه من دماء، ودخلوا به إلى بيت التاجر،

فرأوا المغربي والعبد مذبوحين، والتاجر قد قطع خده وبعض رقبته، وكانوا قد بعثوا في طلب والى القاهرة، فأدركهم سريعًا، ورأى ما هنالك، وأعلمه التاجر بما جرى عليه من القباني، فتسلمه وأوثقه بالحديد، وطلع به بكرة إلى السلطان، فبعث على أنه إنما قتل العبد دفعًا عن نفسه، وأن العبد هو الذي قتل المغربي، وفعل بالتاجر ما فعل " وأني صرخت في العبد لما انحط علي، فأخطأت يده حلقي، وقام عني، فثرت به عند ذلك، فأمر السلطان أن ينظر القضاة في أمره، فحكم بعضهم نواب الحنفية بقتله، لأنه اعترف أنه قتل عبد التاجر ومذهبهم أن الحر يقتل بالعبد.

فسمره عند ذلك الوالي، وشهره على جمل، ثم وسطه، وقد اجتمع لرؤيته عالم لا يحصيهم إلا الذي خلقهم، فأكدت هذه الحادثة قول الأول أو إذا كان الغدر في الناس طباعًا فالثقة بكل أحد عجز، وكان هذا القباني شابًا عمره نحو العشرين سنة، وهو نحيف الجسم، وهو وأبوه وأمه وزوجته معروفون، فتكشف عن جرأة عظيمة، وتهور زائد، نعوذ بالله من سوء عاقبة القضاء.

وفي هذا اليوم: قدم رسول القان معين شاه رخ ملك المشرق.

وفي ثانيه: قدم الأمير قراجا فخلع عليه، واستقر أميرًا كبيرًا بحلب وسار إليها في ثاني عشره

وفيه أحضر رسول القان وقت الخدمة السلطانية بالقصر، فقدم كتابه، فإذا فيه أنه بلغه موت الأشرف وجلوس السلطان على تخت الملك، فأراد أن يتحقق علم ذلك فأكرم وأنزل، ورسم بكتابة جوابه.

وفي هذا الشهر والذي قبله: ارتفعت أسعار كثير من المأكولات، وقل وجود الأجبان والألبان والسمن واللحم، وعاشت الدودة في الزروع فأكلتها، وأعيد البذر مرة، وفي بعض النواحي أكلت الدودة ما زرع ثانيًا، فزرع ثالث مرة، وغلا أيضًا سعر التبن والفول والشعير، ثم انحل في هذا الشهر سعر الغلال.

وفي هذا الشهر: كان بين أصبهان بن قرا يوسف التركماني متملك بغداد وبين عليان أمير عرب العراق قتال انهزم فيه أصبهان أقبح هزيمة، ولحق ببغداد وقد خرجت بأجمعها، ولم يبق بها من أهلها إلا من لا يؤبه له، وهم قليل جدًا. وتعطلت منها الأسواق جلة، وحف معظم نخلها وإنقطعت مياه أنهارها، وصارت دون أقل القرى، بعد أن أربت في العمارة على جميع مدائن الدنيا، حقا على الله ما رفع شيئًا من هذه الدنيا إلا وضعه.

شهر رجب، وأوله يوم الثلاثاء: فيه خرج ثقل الأمير قانبك المحمدي أمير الرجبية ومقدم المجردين إلى مكة، وأناخ ببركة الحجاج، وتلاحق به المسافرين طائفة بعد طائفة، ثم استقلوا بالمسير من البركة في خامسه وفي يوم الاثنين رابع عشره: أدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر على العادة في كل سنة، وزاد السلطان في عدة الصبيان الذين يلعبون بالرمح عما كانوا عليه في الأيام الأشرفية، وأنفق في الفرسان الذين ركبوا في هذا اليوم قدام المحمل مالاً، ولم تجر بذلك عادة، وكان الحال في هذا اليوم، وفي ليلته الماضية جميلاً، ولم يقع فيه شيء من الشناعات التي كانت تقع في الأيام الأشرفية، من فساد المماليك، ولله الحمد. وفيه استقر في نيابة غزة الأمير طوخ المؤيدي أحد أمراء الألوف بدمشق.

وفي عشرينه: قدم الأمير دولات باى الدوادار من دمشق، وقد كثرت أمواله مما حصل له في هذه السفرة، فاستقر على ما هو عليه من الدوادارية.

وفي حادي عشرينه: قدم ابن أينال من التجريدة إلى عرب بلى بالحجاز، ومعه أحد عشر رجلاً، سمورًا على الجمال، ثم طيف بهم القاهرة، ووسطوا، وكان من خبر ابن أينال معهم أنه لما سار من القاهرة لقيه الشريف عقيل المعزول عن إمرة ينبع، وقد كتب له بمساعدة المجردين على قتال بلى، فبعث أخاه ليأتي بأكابرهم إليه، وكتب يرغبهم في طاعة السلطان، فلم يطمئنوا إليه، فسار هو وابن أينال بمن معهم من المماليك والعرب، حتى طرقوا بلى، وقبضوا منهم على الجماعة المذكورين، وفر باقيهم، فنهبوا من بيوت بلى ما قدروا عليه، وخرجوا من أوديتهم، ومضى من المماليك ثلاثون فارسًا إلى المدينة النبوية، بدلاً من المماليك المجردة إليها صحبة الأمير خشقدم المقدم، وقدم من المماليك المتوجهة صحبة الأمير سودون المحمدي إلى مكة خمسون فارسًا، وعادوا إلى القاهرة.

وفي هذا الشهر والذي قبله: قل وجود اللحم بأسواق القاهرة، وارتفع سعر أكثر المأكولات، وتوالى هبوب الرياح المريسية أيامًا كثيرة، خيف على الزرع منها أن يجف ليبسها، وعدم وقوع المطر، هذا مع إتلاف الدودة كثيرًا مما زرع. وفيه أيضًا غرق في البحر ما بين طرابلس الشام من دمياط بضعة عشر مركبًا موسوقة دبسًا وزبيبًا وغير ذلك، فارتفع سعر الدبس من سبعة دراهم الرطل إلى عشرة، وغرق أيضًا فيما بين جدة والسويس عدة مراكب، هلك فيها خلق من الحجاج، وتلف بها من الدقيق وغيره شيء كثير، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

شهر شعبان، أوله يوم الأربعاء: في يوم الجمعة عاشره: تعذر وجود الخبز بأسواق القاهرة ومصر، وتمادى على ذلك من الغد وبعده.

وفي حادي عشره: خلع على بهاء الدين محمد بن نجم الدين عمر بن حجى، وكان قدم إلى القاهرة واستقر في نظر الجيش بدمشق، عوضًا عن سراج الدين عمر بن أحمد بن السفاح الحلبي، ورسم لابن السفاح بنظر الجيش بحلب على ما كان عليه في الأيام الأشرفية، عوضًا عن صلاح الدين بن سابق. وفيه خلع أيضًا على جمال الدين يوسف ابن أحمد الباعوني وإستقر في قضاء طرابلس، وكان ولي منذ أيام رجل من أهل دمشق يعرف بابن الزهري وتوجه من القاهرة، فعزل بابن الباعوني قبل وصوله إلى طرابلس، وكلاهما تكلف مالاً، ولا قوة إلا بالله.

وقدم الخبر بان دوكات ميلان يعني صاحب ميلان وهي طائفة من الفرنج، تجاوز مملكة البندقية، ولم يزالوا يحاربونهم، ولدوكات هذا مملكة متسعة، وله سطوة، ويوصف بعقل ومعرفة، وكان قد ملك جنوه مدة، ثم انتزعت منه في سنة أربعين وثمانمائة، فلما كان في هذه الأيام كتب إلى البابا برومية يسائه ويرغب إليه في أن يجتمع به في محفل يجتمع فيه القسيسون والرهبان وأعيان الروم والفرنج؛ ليتفقوا جميعًا على أمر ديني يعقدوه، فأجابه إلى ذلك، فساروا جميعًا حتى توافوا على فرارة وهى في طرف مملكة دوكات ميلان يجوار مملكة فرنتين، وكان ذلك جمعًا عظيمًا بحيث ضاق بهم الفضاء، فساروا بأجمعهم ونزلوا أرض مدينة فرنتين، وذلك في فصل الصيف وفصل الخريف، ثم افترقوا، وعاد كل منهم إلى وطنه، فبينما الدوك سائر إذ طرقه البنادقة على حين غفلة، فكانت بينهما وقعة عظيمة، قتل فيها ما شاء الله، وانهزم دوكات أقبح هزيمة، وقد فني معظم عسكره ونهبت أمواله، ولله الحمد، فإنه يقال: إن إجتماعه بالبابا كان بسبب محاربته للمسلمين، وأن يفوض إليه التصرف والحكم، فكفي الله أمره.

وفي ثالث عشره: خلع على القاضي علاء الدين على بن محمد بن سعد المعروف بابن خطب الناصرية، وأعيد إلى قضاء حلب، وكان قدم القاهرة وعزل ابن الجزري.

وفي يوم الجمعة: استقر وجود الخبز بحوانيت الأسواق بعد ما كان تعذر وجوده خمسة عشر يومًا بعامة أسواق القاهرة ومصر والجيزة، وتكالب الناس على طلبَ الدقيق من الطواحين، وكثر ازدحامهم على أبوابها، وقل وجود الغلال، وارتفع سعرها، حتى بلغ سعر القمح ثلاثمائة درهم الأردب. وتجاوزت البطة من الدقيق مائة

درهم، وقل مع ذلك وجود الشعير والفول والتبن، فقلق أرباب الدواب، وعزت المأكولات، لاسيما الألبان، فإنا لم نعهد فيما أدركناه من الغلوات أن اللبن قل كما قل في هذه السنة، ولله عاقبة الأمور.

شهر رمضان، أهل بيوم الجمعة: والقمح بثلاثمائة وثلاثين درهمًا الأردب، والبطة من الدقيق بمائة عشرة دراهم، والخيول مرتبطة على البراسيم، وقد بلغ الفدان البرسيم زيادة على ألفي درهم، وقل وجود اللحم من الضأن بالأسواق عدة أيام في هذا الشهر، ولم يكد يوجد السمن ولا عسل النحل، هذا مع علو النيل وطول مكثه، ومع ذلك فلم تنجب عدة أنواع من الزروع، كاللفت، والفجل، والكزبرة، ونحو ذلك.

وفي حادي عشره: رسم بعزل معين الدين عبد اللطف بن شرف الدين أبى بكر الأشقر من كتابة السر بحلب، وأضيفت لابن السفاح مع نظر الجيش، على مبلغ ستة آلاف دينار يقوم بحملها.

وفي ثامن عشره: رسم لوالى القاهرة أن يستخدم مائة ماش يسعون في ركابه، وبين يديه إذا ركب، ونودي بألا يخرج أحد من المماليك السلطانية بالليل، وكانت الإشاعة بين الناس قد قويت باختلاف أهل الدولة. وقدم الخبر بأن الأمير جلبان نائب الشام ركب في الموكب يوم السبت تاسعه على العاده، فوقفت العامة له تستغيث من غلاء اللحم، فإنه بلغ الرطل سبعة دراهم بعد ثلاثة دراهم، فلم يلتفت لهم، بل أمر مماليكه بضربهم، وكان جمع العامة كثيرًا فما هو إلا أن ضرب بعضهم إذا هم قد رجموا النائب ومن معه رجمًا متتابعًا، فانهزم منهم من باب الجابية وقد ركبوا قفاه، وأقفية أصحابه، حتى عبروا من باب النصر إلى دار السعادة، وأغلق أبوابها، فتسوروا الحيطان، وعبثوا بطلخاناته يدقوها، وجمعوا الأحطاب وألقوها ليضرموا النار فيها، فأدركه الأمراء والقضاة، وكتبوا محضرًا بصورة الحال، وبعثوا به إلى السلطان، وتلطفوا بالعامة حتى تفرقوا، فورد المحضر في يوم الجمعة ثاني عشرينه، فاشتد غضب السلطان على عامة دمشق، وجمع في يوم الأحد رابع عشرينه أمراء الدولة، واستدعي بالقضاة الأربع فحضر قاضي القضاة سعد الدين سعد الديري الحنفي، وقاضي القضاة بدر الدين محمد التنسي المالكي، وتأخر حضور قاضي القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن حجر الشافعي، وقاضي القضاة محب الدين أحمد الحنبلي، حتى حنق السلطان، وأمر فقرئ المحضر الوارد من دمشق، وأخذ يعدد لعامة دمشق ذنوبًا، منها قيامهم مع أينال الجكمى مدة عصيانه، ونهبهم بيوت الأمراء، وقتلهم جلبان شيخ كرك نوح، وصمم على وضع السيف فيهم،

واستلحامهم عن آخرهم، فكثرت مراجعة الأمراء في طلب العفو عنهم، والتأني بهم، إلى أن تقررت الحال على أن يجهز للنائب تشريف وفرس بقماش ذهب، وتقوى يده، وأن يكتب بالإنكار على العامة وتهديدهم، وبينما هم في ذلك إذ استؤذن على القاضيين أحمد بن حجر ومحب الدين البغدادي، فلم يؤذن لهما، وأظهر السلطان الغضب لبطئهما، وانفض الجمع.

وفيه رسم بعزل الونائى، واستقرار ابن قاضي شهبة في قضاء دمشق عوضه، ورسم بحضور الأمير أينال الششماني والأمير ألطنبغا الشريفي، وجهزت المراسيم بذلك، وأن يقرأ كتاب العامة في يوم الجمعة بجامع بنى أمية.

وفي هذا الشهر: ختمت قراءة صحيح البخاري بالقصر من قلعة الجبل بحضرة السلطان، وخلع على قضاة القضاة الأربع، ومشايخ العلم الحاضرين، وفرقت صرر الدراهم في جميع من حضر، وزادت عدتهم في هذه السنة عن عدة الحاضرين عن السنين الماضية زيادة كبيره وفي ثامن عشرينه: خلع على الأمير علاء الدين على بن محمد بن الطبلاوي والي القاهرة كان واستقر نقيب الجيش، بعد موت ناصر الدين محمد أمير طبر. وفيه ورد كتاب الأمير ناصر الدين محمد بن منجك من دمشق، يخبر بورود كتاب القاضي زين الدين عبد الباسط إليه من مكة يشكو من ثقل الإقامة عليه بمكة، وأنها لم توافقه ولا أهله، وأنه يرغب في النقلة من مكة إلى القدس، فمازال القاضي كمال الدين محمد بن البارزي يتلطف بالسلطان حتى سمح بذلك، فكتب لابن منجك بأنه إذا توجه للحج في الموسم ينقله بأهله وولده ومملوكه الأمير جانبك إلى القدس، على أنه يكون في ضمانه، وكتب إلى الشريف بركات أمير مكة بذلك، وجهزت الكتب إلى ابن منجك.

وفي هذا الشهر والذي قبله: وقع بالطائف ووج ولية وعامة بلاد الحجاز، وباء عظيم، هلك من ثقيف وغيرهم من العرب عالم لا يحصيهم إلا خالقهم، بحيث صارت أنعامهم هملاً، وأخذها من ظفر بها. وامتد الوباء إلى نخلة على يوم من مكة.

شهر شوال، أوله السبت: في هذا الشهر: انحل سعر الغلة، وكثر وجودها، وأبيع القمح من مائتي درهم إلى مائتين وخمسين درهمًا الأردب.

في هذا الشهر: انحلت أسعار الغلال، ودخلت الغلة الجديدة، ثم بعد أيام تحرك سعر الغلال وارتفع ثم اتضع.

وفي يوم الخميس رابعه: عقد السلطان على الخاتون بنت الأمير ناصر الدين

محمد بيك بن دلغادر، بعد أن حمل لها المهر ألف دينار وشقق حرير وغير ذلك، وكانت تحت الأمير جانجك الصوفي، وأتت منه بابنة لها من العمر نحو الثلاث سنين. وفيه خلع على الشيخ على بن العجمي أحد خواص السلطان كاملية بفرو سمور، وإستقر في حسبة مصر، فسار فيها سيرة حسنة، بعفة ونهضة. وفيه نودي بعرض أجناد الحلقة، فابتدئ بعرضهم على السلطان في يوم السبت سادسه، فامتحنهم في رمي النشاب، وأكد عليهم في تعليمه، ولم يبد لهم منه إلا الجميل، ثم فوض عرضهم إلى الأمير تغرى بردى الدودار.

واتفق في هذا الشهر حادث شنيع، وهو أن السلطان يريد أن تكون تصرفاته على مقتضى أهل العلم، وهو يعلم أن القان معين الدين شاه رخ ملك المشرق كان يبعث بالإنكار على الأشرف برسباى لأخذه بجدة ساحل مكة من التجار الواردين إليها من الهند والصين، وهو من عشور أموالهم. وأن ذلك من المكس المحرم أخذه، فنمق بعض الفقهاء سؤالا يتضمن أن التجار المذكورين كانوا يردون إلى عدن من بلاد اليمن فيظلمون بأخذ أكثر أموالهم، وأنهم رغبوا في القدوم إلى جدة ليحتموا بالسلطان، وسألوا أن يدفعوا عشر أموالهم، فهل يجوز ذلك منهم فإن السلطان يحتاج إلى صرف مال كبير في عسكر يبعثه إلى مكة، فكتب قضاة القضاة الأربع بجواز أخذه وصرفه في المصالح، وتمحلوا لذلك ما قووا به فتواهم.

فانطلقت الألسنة بالرقيعة في القضاة، وأنهم اعتادوا اتباع أهواء الملوك، خوفًا على مناصبهم أن يعزلوا منها، وأن هذه الفتوى بهذه الحادثة من جنس ما تقدم من الفتاوي في قرقماس يخشي بك وإيمان المماليك وأي فرق بين ما يؤخذ بقطيًا من التجار الواردين من بلاد الشام والعراق، وما يؤخذ بالإسكندرية من التجار، وما يؤخذ بالقاهرة ومصر ودمشق وسائر بلاد الشام من الناس عند بيعهم العبيد والإماء والخيل والبغال والحمير والجمال وغير ذلك، وبين ما يؤخذ من أموال التجار الواردين إلى جدة فإن كل أحد يعلم أن ذلك كله مكس لا يحل تناوله ولا الأكل منه، وأن الآكل منه فاسق، لا تقبل شهادته لسقوط عدالته، ولكن الهوى يعمي ويصم، وما كفتهم وما أغنتهم هذه الحالة حتى بعثوا بالفتاوي، فقرئت بالمسجد الحرام على رؤوس الأشهاد، ليقضى الله أمرا كان مفعولا.

وفي يوم الخميس عاشره: كتب باستقرار برهان الدين إبراهيم بن الباعوني في خطابة الجامع الأموي بدمشق، عوضًا عن ابن قاضي شهبة.

وفي سادس عشره: قدمت رسل ملك الروم خوند كار مراد بن محمد كرشجي بن بايزيد بن عثمان.

وفي ثامن عشره: قدم الأمير أينال الششماني، والأمير ألطنبغا الشريفي من دمشق. وفيه خلع على ناصر الدين محمد بيك بن دلغادر خلعة السفر، وسافر يوم الاثنين ثاني عشرينه، بعد أن بلغت النفقة عليه ثلاثين ألف دينار. وفيه حضرت رسل مراد بن عثمان وقت الخدمة بالقصر، وقدموا هديته، وهى عشرة مماليك، وثياب حرير، وفرو سمور، وغير ذلك مما تبلغ قيمته نحو خمسة آلاف دينار، وتضمن كتبه السلام، وتهنئة السلطان بجلوسه على تخت الملك، وإن تأخر إرساله بالتهنئة لإشتغاله بمحاربة بني الأصفر حتى ظفره الله بهم. وفيه رسم بفك قيد الأمير أينال ونقله من سجنه بصفد إلى موضع أوسع منه، وأن يتوجه إليه من جواريه من تخدمه.

شهر ذي الحجة الحرام، أوله يوم الثلاثاء: فيه خلع على نور الدين على بن أقبرس، أحد نواب الشافعية، وإستقر في نظر الأوقاف، عوضًا عن تقي الدين بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله، وهذا الرجل نشأ بالقاهرة في سوق العنبرانيين وطلب العلم، وناب في الحكم عن الحافظ قاضي القضاة شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن حجر، وصحب السلطان منذ سنين، وصار ممن يتردد إلى مجلسه أيام سلطته، فداخل الناس منه وهم كبير، ولم يبد منه إلا خيرًا.

وفي يوم الأربعاء سادس عشره: نودي بمنع المعاملة بالدراهم الأشرفية، وأن تكون المعاملة بالدراهم الظاهرية الجدد، وهدف من خالف ذلك، فاضطرب الناس لتوقف أحوال في المبيعات، فنودي آخر النهار بأن الفضه الأشرفية تدفع إلى الصيارف بسعرها، وهو كل درهم بعشرين درهمًا من الفلوس، وأن تكون المعاملة بالظاهرية الجدد، وهي دراهم ضربت بإسم السلطان، على أن يكون وزن كل درهم فضة بأربعة وعشرين درهمًا من الفلوس، وجعلت عددًا لا وزنًا، فمنها ما هو نصفي درهم عن اثنا عشر درهمًا ومنها ما هو ربع درهم فيصرف بستة دراهم، على أن كل دينار من الدنانير الأشرفية التي هي الآن النقد الرائج بمائتين وخمسة وثمانين درهمًا من الفلوس وكانت الصيارف قد جمعت، ودفع إليها من الدراهم الظاهرية المذكورة جملة ليفرقوها في الناس، فجلسوا لذلك، وصاروا يأخذون الأشرفية على محادتها بعشرين درهمًا، كل درهم وزنًا، ويعوضون عنها من الظاهرية الجدد كل درهم بأربعة وعشرين، لكنها بالعدد لا بالوزن.

ثم يدخلون بالأشرفية إلى دار الضرب ويعيدونها ظاهرية، هذا والناس مع ذلك

يتعاملون في بيعهم وشرائهم وقيم أعمالهم بالأشرفية على عادتهم وزنا، فصار للناس بالقاهرة ستة نقود، ثلاثة من الذهب، واثنان من الفضة، وواحد من الفلوس، فأما الذهب فإنه هرجة، وهو قليل جدًا، وأفرنتي من ضرب الفرنج، وقد قل عما كان عليه منذ أخذ الأشرف برسباى في ضرب الأشرفية وسبك الأفرنتية وإعادتها أشرفية، والنقد الثالث من الذهب الدنانير الأشرفية وهي النقد الرائج، وقد كثرت بأيدي الناس لاسيما منذ أنفق السلطان ذخائر الأشرف في المماليك وغيرهم.

وأما الفضة فإن الدراهم الأشرفية دائرة في أيدي الناس على ما هي عليه وزنًا لعشرين درهما كل درهم، والدراهم الظاهرية الجدد يتعامل بها عددًا بحساب كل درهم بأربعة وعشرين درهمًا، وأما الفلوس الأشرفية والظاهرية، فإنها عددًا لا وزنًا، يعد في كل درهم ثمانية فلوس، فيصرف الدرهم الأشرفي بمائة وستين فلسًا، ويصرف الدرهم الظاهري الجديد بمائة واثنين وتسعين فلسًا، وإذا، اعتبرت بالوزن كان كل رطل منها بستة وثلاثين درهمًا من الفلوس، ولا أعلم أنه وقع في تعدد النقود المتعامل بها مثل ذلك، وإنما كان الناس قديمًا وحديثًا نقدهم الرائج الذي تنسب إليه أثمان المبيعات وقيم الأعمال الذهب الهرجة المضروب بالسكة الإسلامية، ومع هذا الذهب الدراهم والفلوس، ثم كثرت الدراهم الكاملية أو الظاهرية بمصر والشام والحجاز في الدولة التركية، حتى صارت هي النقد الرائج، وإليها ينسب سعر الدينار الرجة وأثمان المبيعات كلها وقيم الأعمال بأسرها، والفلوس مع ذلك إنما هي لشراء المحقرات من المبيعات.

فلما أكثر الأمير محمود الإستادار في الأيام الظاهرية برقوق من ضرب الفلوس، صارت الفلوس هي النقد الرائج دون الذهب والفضة، ونسب إليها سعر الدينار الذهب والدرهم الفضة، وجميع أثمان المبيعات بأسرها، وعامة قيم الأعمال إلى أن ضرب المؤيد شيخ الدراهم، صار للناس ثلاثة نقود: وهي الذهب والفضة والفلوس.

وكان الذهب أربعة أقسام. هرجة وهو قليل جدًا، وسالمي وهو قليل لا يوجد منه إلا في النادر، وأفرنتي وهو كثير جدًا قد طبق الأرض وكثر بعامة بلاد الله، والدينار الناصري وهو أقل من الأفرنتي، والنقد الثاني الدراهم المؤيدية وتعامل الناس بها عددًا لا وزنًا، والنقد الثالث الفلوس، ويتعامل بها وزنًا كل رطل بستة دراهم، وربما زاد الرطل عن الستة دراهم، وهذه الفلوس هي النقد الرائج المنسوب إليه أثمان المبيعات وقيم الأعمال، وأراد المؤيد شيخ أن يجعل قيم الأعمال وأثمان المبيعات منسوبة إلى الدراهم المؤيدية، فعمل ذلك مدة يسيره، ثم عادت الفلوس هي المنسوب

إليها قيم الأعمال وثمن المبيعات فلما كانت الأيام الأشرفية برسباى، وضرب الدراهم الأشرفية عملها وزنًا كل درهم بعشرين درهمًا من الفلوس، فبطلت الدراهم المؤيدية.

وضرب أيضا الدنانير الأشرفية، وجد في إبطال الدنانير الأفرنتية، حتى قلت، وجدد أيضًا ضرب الفلوس الأشرفية عددًا، ومات والنقود على هذا، فمازالت كذلك حتى جدد السلطان الآن هذه الدراهم الظاهرية الجدد، وقد تقدم في هذا الكتاب تفصيل هذه الجملة في أوقاتها.

وفي ثاني عشرينه: خلع على غرس الدين خليل بن أحمد بن على السخاوي أحد خواص السلطان واستقر في نظر القدس والخليل عوضًا عن الأمير طوغان نائب القدس، وهذا الرجل قدمت به وبأخيه أمهما إلى القدس صبيان، فنشأ بها، ثم قدم القاهرة واستوطنها مدة وعانى المتجر وتعرف بالأمير جقمق وصحبه سنين، وتحدث في إقطاعه وما يليه من نظر الأوقاف، فعرض بالنهضة، وشهر بالخير والديانة، فلما تسلطن الأمير جقمق لازم حضور مجلسه حتى ولاه نظر القدس والخليل.

وفي هذا اليوم: توجه الأمير علاء الدين على بن أينال أحد خواص السلطان إلى ملك الروم مراد بن عثمان بهدية جليلة. وفيه قدم مبشرو الحاج، وأخبروا بسلامة الحجاج، وأن كراء الجمال بلغ الغاية لكثرة من بمكة من المجاورين، بحيث بلغ كراء الجمل أربعين دينارًا. وأن الشريف بركات بن حسن بن عجلان أعفى من تقبيل خف جمل المحمل، فشكر هذا من فعل السلطان، وأن الفتاوي الذي تقدم ذكرها بسبب أخذ العشور من التجار بجدة قرئت بالمسجد الحرام على رؤوس الأشهاد، وقرئ المرسوم السلطاني أيضًا بألا يؤخذ من التجار الواردين في البحر إلى جدة سوى العشر فقط، ويؤخذ صنفا لا مالاً من كل عشرة واحد، وأن يبطل ما كان يؤخذ سوى العشر من رسوم المباشرين ونحوهم، فكان هذا من جميل ما فعل، ورسم أيضًا بأن تمنع الباعة من المصريين الذين سكنوا مكة وجلسوا بالحوانيت في المسعى وحكروا المعايش، وتلقوا الجلب من ذلك، وأن يخرجوا من مكة، فشكر ذلك أيضًا، فإن هؤلاء الباغين كثر ضررهم، واستقووا بحماية المماليك لهم، فغلوا الأسعار وأحدثوا بمكة ما لم يعهد بها، وعجز الحكام عن منعهم لتقوية المماليك المجردين لهم بما يأخذونه منهم من المال.

وفي تاسع عشرينه: أفرج عن ابن أبي الفرج استادار، وخلع عليه.

وفي هذا العام: جرت حروب بأفريقية من بلاد المغرب، وذلك أنه لما مات أبو فارس عبد العزيز، وقام من بعده حفيده المنتصر أبو عبد الله محمد بن أبى عبد الله

ولى عمه أبا الحسن على بن أبي فارس بجاية وأعمالها، فلما مات المنتصر، وقام من بعده أخوه أبو عمرو عثمان بن أبي عبد الله، امتنع عمه أبو الحسن من مبايعته، ورأى أنه أحق منه، ووافقه فقيه بجاية منصور بن على بن عثمان وله عصبة وقوة فاستبد بأمر بجاية وأعمالها، فسار أبو عمرو من تونس في جمع كبير لقتاله، فالتقيا قريبًا من تبسة وتحاربا، فانهزم أبو الحسن إلى بجاية، ورجع أبو عمرو إلى تونس، ثم خرج أبو الحسن من بجاية، وضم إليه عبد الله بن صخر من شيوخ إفريقية، ونزل بقسطنطينة وحصرها وقاتل أهلها مدة، فسار إليه أبو عمرو من تونس في جمع كبير، فلما قرب منه سار أبو الحسن عائدًا إلى جهة بجاية، فتبعه أبو عمرو حتى لقيه وقاتله، فانهزم منه بعد ما قتل أبو الحسن عدة من أصحابه، وعاد كل منهما إلى بلده، فلما كان في هذه السنة أعمل أبو عمرو الحيلة في قتل عبد الله بن صخر حتى قتله، وحملت رأسه إليه بتونس، ففت ذلك في عضد أبي الحسن، ثم جهز أبو عمرو العساكر من تونس في إثر ذلك، فنازلت بجاية عدة أيام، حتى خرج الفقيه منصور بن على إلى قائد العسكر، وعقد معه الصلح ودخل به إلى بجاية، وعبر الجامع وقد اجتمع به الأعيان.

وجاء أبو الحسن ووافق على الصلح وأن تكون الخطبة لأبي عمرو، ويكون هو ببجاية في طاعته، وترجع العساكر عن بجاية إلى تونس، فلما تم عقد الصلح أقيمت الخطة باسم أبي عمرو، وعادت العساكر تريد تونس فبلغهم أن أبا عمرو خرج من تونس نحوهم لقتال أبي الحسن، فأقاموا حتى وافاهم، ووقف على ما كان من أمر الصلح، فرضي به، وأخذ في العود إلى جهة تونس، فورد عليه الخبر بأن أبا الحسن خاف على نفسه من أهل بجاية، فخرج ليلاً حتى نزل جبل عجيسة فأقر عساكره حيث ورد عليه الخبر، وسار جريدة في ثقاته، ودخل مدينة بجاية، فسر أهلها بقدومه، وزينوا البلد، فرتب أحوالها واستخلف بها أصحابه، وعاد إلى معسكره، واستدعى شيوخ عجيسة فأتاه طائفة منهم فأرادهم على تسليم أبى الحسن إليه، وبذل لهم المال، فأبوا أن يسلموه، فتركهم وعاد إلى تونس فكثر جمع إلى الحسن بالجبل، وأقام به مدة، ثم خاف من عجيسة أن تغدر به، ولم يأمنهم على نفسه، فسار ونزل جبل عياض قريبًا من الصحراء، ولله عاقبة الأمور.

وفي هذا الشهر: قدم عسكر من مدينة طرابلس، فنازلوا قلعة الكهف ومدينتها وبها إسماعيل بن العجمي أمير الإسماعيلية مدة أيام، حتى أخذوها، وهدموا القلعة حتى سووا بها الأرض، وأنعم على إسماعيل المذكور بإمرة في طرابلس، فزالت

قلعة الكهف، وكانت أحد الحصون الإسماعلية المنيعة وذلك بسعاية ناصر الدين محمد، وحجي، وفرج، أولاد عز الدين الداعي.

* * *

سنة أربع في أربعين وثمانمائة

أهلت هذه السنة، والخليفة المعتضد بالله أبو الفتح داود بن المتوكل، وسلطان الإسلام الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق، والأمير الكبير يشبك الظاهري ططر، وأمير سلاح الأمير تمراز القرمشي، وأمير مجلس الأمير حرباش الكريمي قاشق، والمقام الناصري محمد ابن السلطان أحد مقدمي الألوف، والدوادار الكبير الأمير تغرى بردى البكلمشي ويعرف بالمؤذى، وأمير أخور كبير الأمير قراجًا الحسني الناصري، وحاجب الحجاب الأمير تنبك بن تنبك، ورأس نوبة الأمير تمرباى الظاهري ططر، وبقية الأمراء المقدمين الأمير أينال العلاي الأجرود، والأمير شادي بك الظاهري ططر، والأمير ألطنبغا المرقبي، والأمير أسنبغا الطياري وهو نائب الإسكندرية، ونائب الشام الأمير جلبان المؤيدي، ونائب حلب الأمير قانباى الحمزاوي ونائب طرابلس الأمير برسباي والناصري، ونائب حماة الأمير برد بك العجمي، ونائب صفد الأمير قانبيه البهلولان، ونائب غزة الأمير طوخ المؤيد، ونائب القدس الأمير طوغان السيفي ألطبغا العثماني، ونائب الكرك الأمير مازي، ونائب الوجه القبلي من ديار مصر الأمير محمد الصغير ونائب البحيرة الأمير قشتمر المؤيدي، وكاتب السر القاضي كمال الدين محمد ابن البارزي، وناظر الجيش شيخ الشيوخ محب الدين محمد بن الأشقر، والوزير الصاحب كريم الدين ابن كاتب المناخ، وناظر الخاص الصاحب جمال الدين يوسف ابن كاتب حكم، وأستادار الأمير ناصر الدين محمد بن أبي الفرج، وقضاة القضاة على حالهم، والمحتسب الأمير تنم المؤيدي، والوالي الأمير قراجا البواب، والأسعار رخية بحمد الله.

شهر الله المحرم الحرام، أهل بيوم الخميس: ففي يوم الخميس ثامنه: خلع على طوغان السيفي علان ويقال له رقز، أحد أمراء العشرات، ومن جملة أمراء أخورية، وإستقر أستادار السلطان عوضًا عن ابن أبي الفرج، وقبض على ابن أبي الفرج، وعوق بالقلعة إلى يوم الأحد حادي عشره، تسلمه الصاحب الوزير كريم الدين ابن كاتب المناخ، ونزل به إلى بيته.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره: خلع على سراج الدين عمر الحمصي وأعيد إلى قضاء القضاة بدمشق، عوضًا عن ابن قاضي شهبة. وكان قد قدم إلى القاهرة، وعني به بعض أهل الدولة، حتى أعيد إلى وظيفة القضاء، وسار من القاهرة إلى محل ولايته بدمشق في عشرينه.

وفي يوم الثلاثاء عشرينه: نودي على النيل بزيادة ثلاثة أصابع، وجاءت القاعدة وهي الماء القديم ست أذرع وأربع أصابع.

وفي يوم الأربعاء حادي عشرينه: قدم الأمير جرباش الكريمي قاشق من الحج، ومعه ابنته زوجة السلطان في ركب من الحجاج، وحكيت عنه أمورًا، منها أنه رسم على قاضي المدينة النبوية ليحضر لخوند ابنته خمسين صاعًا من تمر، فبعد لأي أخذ منه ثلاثين صاع تمر وأشياء من هذا، مع المال الجم والشيخوخة. ثم قدم من الغد ركب ثان، وقدم محل الحاج بركب ثالث في يوم الجمعة ثالث عشرينه، تتمة أربع ركوب، وقد مات جماعة كثيرة في الطريق من حر بسموم محرق، وهلك معظم الجمال، بحيث مشي من لم يعتد بالمشي، ورمي الناس أمتعهم لعجزهم عن حملها، مع عسف أرماء الركب، فكانت رجعتهم مشقة لما نزل بهم من أنواع البلاء.

وفي يوم السبت رابع عشرينه: خلع على زين الدين يحيى الأشقر قريب بن أبى الفرج، واستقر في نظر الديوان المفرد رفيقًا للأمير طوغان قز، عوضًا عن عبد العظيم بن صدقة وقد قبض عليه ونقل ابن أبي الفرج من تسليم الوزير، وسلم هو وعبد العظيم للأمير طوغان قز الأستادار، فعاقب ابن أبي الفرج، وأفحش في عقوبته من غير تجمل ولا احتشام.

وفي يوم الاثنين سادس عشرينه: قبض على بهاء الدين أبي البركات الهيتمي، أحد نواب قاضي القضاة الشافعي، وسجن في البرج بالقلعة، بغير موجب يقتضي ذلك ثم أفرج عنه.

وفي يوم الجمعة سلخه: أمر شيخ الإسلام قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجو الشافعي أن يلزم بيته، واستدعي برهان الدين إبراهيم بن شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن ميلق أحد نواب القاضي الشافعي حتى خطب بجامع القلعة، وصلى السلطان صلاة الجمعة.

ونقل ابن أبي الفرج من بيت الأمير طوغان قز أستادار إلى تسليم الصاحب برهان الدين إبراهيم ابن كاتب جكم ناظر الخاص، بعدما حمل عشرة آلاف دينار

وتأخر عليه أربعة آلاف دينار، مما ألزم به، وأسلم عبد العظيم إلى الوزير الصاحب كريم الدين ابن كاتب المناخ، ليحمل ألفي دينار.

وفي هذه الأيام: وقع الاهتمام بتجهيز تجريدة في البحر لغزو الفرنج. وفيها قدم القاضي زين الدين عبد الباسط بأهله وعتيقه الأمير جانبك أستادار من مكة إلى بيت المقدس، ليقيم به حسب ما رسم له به، فنزل بمدرسته التي أنشأها على مسجد بيت المقدس، فسكن جأشه، لأنه كان كثير القلق وهو بمكة.

شهر صفر، أوله يوم السبت: في يوم الاثنين ثالثه: خلع على الحافظ قاضي القضاة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن على بن حجر الشافعي واستمر على عادته، بعد أن عين شمس الدين محمد الونائي لولاية قضاء القضاة، فقام المقام الناصري محمد ابن السلطان في استقرار الحافظ شهاب الدين حتى استقر، ولله الحمد، فو الله ما يبلغ أحدهم في العلم مده ولا نصيفه، وكان سبب هذه الحادثة أن رجلاً أسند وصيته بعد موته لإمرأتيه، وأقام عليهما ناظرًا سماه في وصيته. ومات الموصي، فأقام القاضي رجلاً يتحدث مع الناظر، فاختلفا وترافعا إلى السلطان فأنكر السلطان إقامة الرجل المتحدث مع الناظر، وسجن أبا البركات الهيتمي من أجل أنه أثبت أهلية المذكور، وأذن له في التحدث مع الناظر في تركة الموصي. وأمر بالرجل المتحدث مع الناظر، فعمل في الحديد، وسجن أيضًا فكثرت الشناعة على ابن حجر بلا موجب، إلى أن فوض السلطان أمر تركة الموصي إلى من يثق به من أمرائه، فجمع الناظر على التركة والرجل الذي أقامه القاضي يتحدث معه وحسابهما، فلم يجد في جهة المتحدث مع الناظر شيئًا من التركة، وظهر أن تلك الشناعات كلها كذب. فلما تبين للسلطان حقيقة الأمر سكنت حدة غضبه، وأفرج عن الهيتمي وعن الرجل المتحدث مع الناظر، وأقر قاضي القضاة على عادته.

وفي يوم الأربعاء ثاني عشره: قدمت تقدمة القاضي زين الدين عبد الباسط من القدس، على يد دوادره أرغون أحد مماليكه، وهي فرسان، وعشرون جملاً، وشاشات، وأزر وصيني، وثياب حرير، وتخت يماني، وغير ذلك مما تبلغ قيمة الجميع نحو الألفي دينار، فقبل السلطان ذلك، وقرئ عليه كتابه، فشكره، وخلع على أرغون. وفيه أفرج عن ابن أبي الفرج، فلزم داره.

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه وهو أول مسرى: نودي على النيل بزيادة ثلاثين إصبعًا، لتتمة أربع عشرة ذراعًا وإصبعين، وهذا القدر من الزيادة ومبلغ الأذرع مما يستكثر في أول مسرى ولله الحمد.

وفيه خلع على الأمير عيسى بن يوسف بن عمر الهواري أمير هوارة بالصعيد، وقد رضي السلطان عن بني عمر بن عبد العزيز أمراء هوارة ورسم بإحضار أخيه الأمير إسماعيل من سجنه بمدينة الكرك، ليستقر على عادته في إمرة هوارة، على أن يحمل سبعين ألف دينار، يعجل منها أربعين ألف دينار.

وفي يوم الأربعاء سادس عشرينه: رضي السلطان على الأمير أيتمش الخضري، وخلع عليه بشفاعة بعض الأمراء.

وفي يوم الخميس سابع عشرينه ورابع مسرى: نودي بوفاء النيل ست عشرة ذراعًا وإصبعين، من سبع عشره، فركب المقام الناصري محمد إلى المقياس حتى خلق العامود بين يديه على العادة، ثم فتح الخليج، وكان وفاء النيل في رابع مسرى من النوادر التي يجب الحمد لله عليها.

شهر ربيع الأول، أوله يوم الأحد: وفي هذا الشهر والذي قبله: كثرت الفواكه والبطيخ، بزيادة في الطيب والخصب ورخص السعر، ولله الحمد.

وفي يوم الاثنين تاسعه: انحدر من ساحل بولاق ظاهر القاهرة خمسة عشر غرابًا لغزو الفرنج، بأحسن هيئة، وأكمل عدة، وأتم زاد، وفيها من الأجناد والمطوعة جماعة. فعلى الأجناد وعدتهم مائتان تغرى برمش الزردكاش من أمراء العشرات، ويونس المحمدي أمير أخور من العشرات أيضًا، وسبب هذه التجريدة كثرة عبث المتجرمة من الفرنج، وأخذها مراكب التجار بما فيها، فأنشأ السلطان هذه الأغربة وشحنها بما تحتاج إليه من العدد والأسلحة والمقاتلة، وسيرها، عسى الله أن يظفرهم، فانضم إليهم طوائف من أوغاد العامة، وأراذل المفسدين، ومن الزعر المجرمين، حتى بلغوا ألفًا أو يزيدون. ولم ينفق في المماليك مال.

وفي يوم الأربعاء حادي عشرينه: ضربت رقبة رجل من سقاط العجم وسفلتهم، وقد ثبت عليه بشهادة جماعة فوادح وعظائم أوجبت إراقة دمه شرعًا، وكان من جملة أشياع الأمير قرقماس المقتول، وتكلم في السلطان وفي الأنبياء وغيرهم تعجل به العقوبة " ومن ورائه عذاب غليظ ".

وفي يوم الخميس ثماني عشره: خلع على الأمير إسماعيل بن يوسف بن عمر بن عبد العزيز الهواري، واستقر في إمرة هوارة على عادته، وكان قد عزل بيوسف بن محمد ابن إسماعيل بن مازن، وسجن وأشيع أنه يقتل، وخرجت العساكر إلى بلاد الصعيد لقتال هوارة، ثم نفي إلى الكرك، وسجن بها، فلم تطع هوارة ابن مازن،

وجرت مفاسد ببلاد الصعيد آلت إلى فرار ابن مازن وعوده خائبًا إلى السلطان، فقام عدة من الأمراء في عود بني عمر، حتى أجابهم السلطان بعد ما اختلت أحوال البلاد خللاً فاحشًا، ولله عاقبة الأمور.

وفي هذه الأيام: رسم بتتبع من في القاهرة وظواهرها من العجم الذين يطوفون بالأسواق وفي الطرقات، يستجدون الناس تارة، ويظهرون الصلاح تارة، فقبض على عدة منهم، فضرب قوم نفي جماعة، وضرر هذه الطائفة كثير جدًا فإن كثيرًا منهم ينتحلون مذهب الإلحاد، ويصرحون بتعطل الصانع تعالى، وينكرون شرائع الأنبياء، ويجهرون بإباحة المحرمات، فالله يبيدهم، ويعجل بعقوبة من ينصرهم.

وفي يوم الأحد سادس عشره: عمل المولد النبوي بقلعة الجبل بين يدي السلطان على العادة في مثل ذلك.

وفي خامس عشرينه: جهزت كاملية حرير بفرو سمور للقاضي زين الدين عبد الباسط، على يد مملوكه أرغون، وكتب بشكره على تقدمته. وفيه تأخر المقر الكمالي محمد بن البارزي عن الركوب إلى الخدمة السلطانية، تبرمًا بثقل مقالبة الخدمة السلطانية، وطلبًا للإعفاء من المباشرة، فأتاه عظماء الدولة يتلافوا خاطره، وهو مصمم على ترك المباشرة، فما زالوا به حتى ركب من الغد يوم الأربعاء سادس عشرينه إلى الخدمة، فخلع عليه، ونزل في موكب جليل إلى داره، وأعيان الدولة وأماثلها بين يديه، فباشر الأمور، ونفذ أحوال الناس على عادته.

وفي يوم الأحد سلخه وهو آخر أيام النسيء: نودي على النيل بزيادة إصبع لتتمة عشرين ذراعًا إلا إصبعًا واحدًا، وهذا القدر من الزيادة في مثل هذا الوقت من الشهور القبطة كثير جدًا، وهو مما يندر وقوعه، ولله الحمد. وفيه كتب باستقرار صلاح الدين خليل بن محمد بن محمد بن محمد بن سابق الحموي في كتابة السر بدمشق، عوضًا عن شهاب الدين أحمد بن زين الدين عبد الرحمن العجلوني.

شهر ربيع الآخر، أوله يوم الثلاثاء: فيه وقع الشروع في الاهتمام بملاقاة رسل القان معين الدين شاه رخ بن تيمور كركان ملك المشرق.

وفي يوم الاثنين سابعه: خلع على قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي وأعيد إلى حسبة القاهرة، وكان منذ عزل عن قضاء القضاة الحنفية متوافرًا على مباشرة نظر الأحباس.

وفي يوم الثلاثاء ثامنه: وردت تقدمة ثانية من زين الدين عبد الباسط من القدس، وهي ثمانية أفراس، ومائة درهم مينًا فضة.

وفي يوم الخميس رابع عشرينه وخامس عشرين توت: انتهت زيادة النيل إلى أحد وعشرين إصبعًا من أحد وعشرين ذراعًا، فشمل الري الأراضي وعم به النفع، ولله الحمد.

وفي يوم السبت سادس عشرينه: قدم رسل شاه رخ إلى القاهرة، وقد زينت الشوارع لقدومهم، وخرج المقام الناصري ولد السلطان وعدة أمراء إلى لقائهم. واجتمع الناس لرؤيتهم، فكان يومًا مشهودًا، لم نعهد مثله لقدوم الرسل في الدول المتقدمة، ثم أنزلوا في دار أعدت لهم، ثم توجهوا من دارهم بخط بين القصرين إلى القلعة في يوم الاثنين ثامن عشرينه، والمدينة مزينة بأحسن زينة، والشموع وغيرها تشعل، وقد اجتمع عالم عظيم لرؤيتهم، وأوقفت العساكر من تحت القلعة إلى باب القصر في وقت الخدمة، فلما مثل الرسل بين يدي السلطان بالقصر، قرئ كتاب القان، فإذا هو يتضمن السلام والتهنئة بجلوس السلطان على تخت الملك وسرير السلطنة، ثم

قدمت الهدية، وهى مائة فص فيروزج، وإحدى وثمانون قطعة من الحرير، وعدة ثياب، وفرو، ومسك، وثلاثون بختيًا من الجمال، وغير ذلك، مما تبلغ قيمته خمسة آلاف دينار، ثم قدمت هدية جوكى بن القان وكتابه وأعيد الرسل إلى منزلهم، وأجري لهم من المأكل والحلوى والفاكهة والمال ما عمهم، ثم قلعت الزينة في يوم الثلاثاء سلخه، وكان الناس قد تفننوا في أمور بديعة، أبدوها من أعمالهم في الزينة، ونصبوا قلاع وفي ظنهم أنها تتمادى أيام، فانقضى أمرها بخير.

شهر جمادى الأولى، أهل بيوم الأربعاء: وماء النيل أخذ في النقص، والناس قد شرعوا في زراعة الأراضي.

وفي يوم الاثنين سادسه: نودي بمنع النساء من الخروج إلى الشوارع والأسواق إلا العجائز والجواري، فامتنعن، ثم نودي لهن بالخروج إلى الأسواق والشوارع من غير تبرج بزينة.

وفي يوم الخميس تاسعه: خلع علي شمس الدين أبي المنصور كاتب اللالا، وأعيد إلى نظر الإصطبل، عوضًا عن ابن القلانسي.

وفي يوم الجمعة عاشره: ورد الخبر بنصرة الغزاة المجردين على الفرنج.

وفي يوم الأحد ثاني عشره: جمع السلطان الرسل الواردين من القان بين يديه على وليمة عملها لهم، ثم خلع عليهم، ونزلوا في تجمل زائد.

وفي يوم الاثنين عشرينه: خلع على القاضي بدر الدين أبى المحاسن محمد بن ناصر الدين محمد بن الشيخ شرف الدين عبد المنعم البغدادي، أحد نواب الحنابلة، واستقر قاضي القضاة الحنابلة، عوضًا عن محب الدين أحمد بن نصر الله بعد موته.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشرينه: قدم الغزاة في البحر، وكان من خبرهم أنهم إنحدروا في النيل من ساحل بولاق إلى دمياط، ثم ركبوا بحر الملح من دمياط وساروا في جزيرة قبرس فقام لهم متملكها بزوادتهم، ومروا إلى العلايا فأمدهم صاحبها بطائفة في غرابين. ومضوا إلى رودس، وقد إستعد أهلها لقتالهم، فكانت بينهم محاربة طول يومهم، لم يكن فيها نصفه. وقتل من المسلمين إثنا عشر من المماليك، وجرح كثير، وقتل وجرح من الفرنج كثير فلما خلص المسلمون بعد جهد، مروا بقرية من قرى رودس، فقتلوا وأسروا ونهبوا ما فيها، وقدموا دمياط، ثم ركبوا النيل الى القاهرة، وأسفر وجه الأمراء أنهم لم يكن لهم طاقة بأهل رودس.

وفي ليلة الخميس ثالث عشرينه: سقطت قنطرة باب البحر خارج القاهرة، وهلك طائفة ممن كان عليها.

وفي يوم السبت خامس عشرينه: ورد جواب السيد الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة المشرفة، الذي جهز إليه بحضوره، يتضمن أنه تجهز للقدوم، ودخل المسجد الحرام ليطوف طواف الوداع، فتعلق به التجار، وجماعة المجاورين، وأهل مكة، يسألونه ويرغبون إليه في أن يقيم ولا يسافر، فإنه حتى سافر لا يأمنون على أنفسهم، وأنه بعرض ذلك على الآراء الشريفة فإن اقتضت أن يحضر حضر، وإن اقتضت أن يقيم أقام، وورد قرين مطالعته مطالعة الأمير سودون المحمدي المقيم بمكة، يشير بأن المصلحة في إقامة الشريف وعدم سفره، فبعد اللتيا واللتي أذن له في الإقامة، وأعفى من الحضور، على أن يحمل عشرة آلاف دينار، وجهز له تشريف.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرينه: خلع على خواجا كلال رسول القان شاه رخ خلعة السفر، وقد إعتني بها عناية لم تتقدم مثلها لرسول، وهي حرير مخمل بوجهين، وطراز زركش فيه خمس مائة مثقال من الذهب، وأركب فرسًا بسرج ذهب وكنفوش ذهب فيها ألف دينار ذهبًا، وجهزت صحبته هدية، ما بين ثياب حرير سكندري، وسرج وكنفوش ذهب وسيوف مغلفة بذهب وغير ذلك مما تبلغ قميته سبعة آلاف دينار، سوى الهدية المذكورة.

وفي هذا الشهر: ادعي على يهودي متزوج أنه زنى بيهودية، فعني به بعض خواص السلطان حتى حكم له بعض نواب القضاء الحنفية برفع الرجم عنه. ونفذ حكمه من عداه من القضاة الذين مذهبهم رجمه، فكان هذا من شنيع ما حكم به زمنًا. وهو وإن كان مذهب الحنفية أن الكتابي المتزوج لا يرجم، فإنه لم يحكم به قاض فيما أدركناه، لكن حكم بعض نواب القضاة الحنفية في الأيام الأشرفية برسباى بشنعاء، وقد ضرب العفيف النصراني بحضرة السلطان حتى أظهر الإسلام. وكان له أولاد بالغون، فكره إسلامهم، وخاف أن يكرهوا عليه، فرغب إلى من حكم له ببقائهم على النصرانية، وأن لا يدخلوا في دين الإسلام، فجاء من حكمه بطامة لم يعص الله بأقبح منها، وعدت مع ذلك أنها حكم شرعي، فيا لله، ما أخوفني من سوء عاقبة هذه الأحكام، ولله در القائل:

إذا جار الأمير وصاحباه ::: وقاض الحكم داهن في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويل ::: لقاضي الأرض من قاضي السماء

شهر جمادي الآخرة، أهل بيوم الجمعة: وأهل النواحي مشغولون بزراعة الأراضي.

وفي يوم السبت ثانيه: ضرب شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني الشافعي، ورسم بنفيه. وكان من خبره أنه قدم إلى القاهرة قبيل سنة أربعين وثمانمائة وهو في فاقة، فاستدناه المقر الكمالي محمد بن البارزي كاتب السر، ووالي إحسانه عليه، فتعرف بالناس، وتردد إلى الأمراء، واختص بالقاضي زين الدين عبد الباسط، وصارت له وظائف ومرتبات، وتردد إلى السلطان، وعرف بالفضيلة، فصار له أعداء، واتفق أن كانت بينه وبين شخص من الحنفية تعصب بسببها على الكوراني جماعة، وكأنه طاش في رياسته، ونقم السلطان وغيره عليه أشياء، ساعدهم فيها سوء المقدور عليه، حتى أهين في مجلس السلطان بحضرة القضاة، وأخرجت وظائف لغيره، ونفي إلى دمشق ثم أخرج منها، وقد عزم على الحج إلى جهة حلب، فلم يشعروا به إلا وقد وصل إلى الطور، فرسم عليه، وأخرج من الطور إلى الشام، ورسم أن يعدى به من الفرات، وكثر ذامه لسوء حظه، ولا قوة إلا بالله.

وفي ثالثه: استقلت رسل شاه رخ بالمسير إلى بلادهم، بجواب كتابه، والهدية المذكورة.

وفيه نودي من كانت له مظلمة فعليه بالوقوف للسلطان في يومي الثلاثاء والسبت.

وفي يوم الاثنين رابعه: خلع على الأمير تمرباى رأس نوبة النوب، واستقر أمير الحاج.

وفي يوم الثلاثاء خامسه: ابتدأ السلطان بالجلوس للحكم بين الناس.

وفي يوم الخميس سابعه: خلع على الشريف بدر الدين حسين بن أبي بكر الفراء الحسيني واستقر نقيب الأشراف، عوضًا عن الشريف حسن بن علي بن أحمد بن علي بن حسين الحسني المعروف بابن قاضي العسكر الأرموي.

وفي يوم الخميس رابع عشره: قدم الأمير سيف الدين جلبان المؤيدي نائب الشام، فركب السلطان من القلعة إلى لقائه، ومنذ تسلطن لم ينزل من القلعة إلا هذا اليوم، فلقيه بمطعم الطور طرف الريدانية خارج القاهرة، وعاد والنائب في خدمته، حتى أنزل في بيت أعد له.

وفي يوم السبت سادس عشره: أحضر نائب الشام تقدمته، وهي ثمانون فرسًا بغير سروج، وثلاثون بختيًا، وعدة بغال، وقماش ما بين ثياب حرير وثياب بعلبكي وثياب صوف مربع، وفرو ما بين وشق وسمور وقاقم وسنجاب، وغير ذلك مما قيمة الجميع نحو عشرة آلاف دينار، وجلبان هذا من جملة مماليك الأمير تنبك أمير أخور الظاهري برقوق، رباه صغيرًا، ثم صار من بعد موته في خدمة الأمير جركس المصارع، وانتقل من بعده إلى خدمة الأمير شيخ المحمودي، وتقلب معه في أطوار تلك الفتن حتى تسلطن شيخ وتلقب بالملك المؤيد، فأنعم عليه بإمرة، ثم عمله أمير آخور، وولى نيابة حماة في الأيام الأشرفية برسباى عدة سنين، كثر فيها شكاته، ثم نقل بعد موت الأشرف إلى نيابة حلب، ثم إلى نيابة الشام.

وفي ليلة الاثنين ثامن عشره: قدم قاضي القضاة الحنفية بدمشق، شمس الدين محمد ابن علي بن عمر الصفدي في الترسيم، فسلم إلى المقر الكمالي محمد بن البارزي كاتب السر، وقد رسم للذي أحضره من دمشق أن يأخذ تسفيره ألف دينار، توزعها وناظر الجيش وكاتب السر بدمشق، وسبب ذلك أن رجلاً بغداديًّا من فقهاء الحنفية يذكر أنه من ولد الإمام أبي حنيفة رحمه الله قدم من دمشق، وتردد إلى مجلس السلطان، فكانت محنة أحمد الكوراني بسببه كما هو مذكور في ترجمته من كتاب " درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة " ثم أفرغ سمه ثانيًا في شمس الدين الصفدي، ووشي به إلى السلطان أنه سئل عن الحكمة في كثرة جماع النبي نساءه، فقال: " ليحصنهن من الزنى " وأن هذا كفر يوجب إراقه دمه، وشنع، وأبدى وأعاد " وأعانه عليه قوم آخرون " فرسم بإحضاره، وفي الذهن أنه يقتل.

وفي هذه الأيام: مرت سحابة، فأصبح كثير من المزروعات وقد صقع وأسود، كالخيار والفول والجزر، فلم ينتفع به، وأفسدت الدودة كثيرًا من البرسيم المزروع بالوجه البحري، فأعيد بذره.

وفيه أيضًا غلا سعر اللبن والجبن واللحم، وقل وجود ذلك بالأسواق.

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه: خلع علي تقي الدين عبد الرحمن بن تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله، أحد موقعي الدست، وناظر دار الضرب، واستقر في نظر جده، عوضًا عن تاج الدين بن حتى السمسار، وخلع على شاهين أحد المماليك واستقر شاد جده، وخلع على الأمير جلبان نائب الشام خلعة السفر، وتوجه من الغد يوم الثلاثاء سادس عشرينه إلى محل كفالته.

وفيه أنعم بإقطاع الأمير ممجق بعد موته على تغرى برمش بن جركس. ثم خلع في يوم الاثنين ثالثه، واستقر نائب القلعة، عوضًا عن ممجق وتغرى برمش من محاسن هذه الدولة، لمعرفته الحديث ورجاله المعرفة الجيدة إلى غير ذلك من الفضائل.

شهر رجب أوله يوم السبت: في يوم الاثنين ثالثه: ركب السلطان بثياب جلوسه، ومضي من القلعة، فمر من صليبة جامع ابن طولون إلى الميدان الكبير بخط موردة الحبس وقد خرب فكشف ما يحتاج إليه من العمارة، ورسم بمرمته، وعاد سريعًا وهذه ثاني ركبة ركبها في سلطته.

وفي يوم الاثنين عاشره: أنعم بإقطاع الأمير ألطنبغا المرقبي بعد موته على الأمير طوخ الجمكي رأس نوبة ثانيًا، وأنعم بإقطاع الأمير طوخ على الأمير قانبيه الجركسي شاد الشراب خاناه، وأنعم بإقطاع قانبيه على ثلاثه نفر: الأمير تغري برمش واستقر نائب القلة عوضًا عن الأمير ممجق، وعلى الأمير يوسف بن محمد بن الأمير إسماعيل ابن مازن واستقر شيخ لهانة بالبهنساوية، وعلى تغرى بردي دوادار قراسنقر وهو كاشف الجيزة.

وفي هذه الأيام: أيضًا برزت التجريدة المتوجهة إلى المدينة النبوية، حتى أناخت بالريدانية خارج القاهرة، وعدتها خمسون مملوكًا، عليهم الأمير جانبك المعروف بنائب بعلبك، أحد أمراء العشرات، واستقلت بالمسير في يوم الجمعة رابع عشره وتوجه صحبتهم ناظر جدة وشادها، وعدة ممن يريد الحج والعمرة، وتوجه أيضًا أحد خاصكيه السلطان لإحضار ولي الدين محمد بن قاسم مضحك السلطان الملك

الأشرف برسباى وكان قد رسم بإحضاره غير مرة آخرها أن كتب للأمير سودون المحمدي بتجهيزه من مكة في البحر إلى القاهرة، فأخرجه من مكة وأركبه البحر من جدة، فنزل ينبع، ومضى إلى المدينة النبوية. ثم عاد إلى ينبع، واعتذر عن الحضور، فلم يقبل عذره، وجهز له الخاصكي، ورسم به أن يأخذه تسفيره من ابن قاسم ألف دينار.

وفي يوم الأحد سادس عشره: عقد مجلس بن يدي السلطان، حضرة قضاة القضاة الأربع، وجيء بشمس الدين محمد الصفدي قاضي الحنفية بدمشق من منزله بجوار كاتب السر، فأوقف، وأدعي عليه غريمه حميد الدين بن أبي حنيفة عند قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر بأنه قال: أنا أتخير في الحكم، فتارة أحكم بقول أبي حنيفة، وتارة بمذهب الشافعي أو مالك " فأجاب: " بأني إنما قلت أتخير من قول أبي حنيفة وأصحابه أبي يوسف ومحمد وزفر، وأحكم. بما أختاره من ذلك "، فأجاب القضاة الأربع بأنه لا شيء عليه في ذلك، ودفعوا خصمه بحجاج وجدال طويل، وهو يأبى إلا أن يعزر، حتى قال الشافعي للسلطان: وأي تعزير حمله من دمشق إلى مصر، وغرمه للمسفر ما غرم، ثم ها هو قائم على رجليه يدعي عليه فانفضوا على ذلك، وجلس بين يدي السلطان وقبل يده، وإنصرف منصورًا بعناية القاضي الشافعي وكاتب السر به، وإلا فما كان ظن المتعصبين مع حميد الدين إلا أنه ينكل بالصفدي، ويحكم بفسقه، وتخرج وظائفه، إلى غير ذلك، وكان قد كتب إلى دمشق بالكشف عما نسب إليه من قوله في أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أن رسول الله يحصنهن من الزنى فكتب جماعة من قضاتها وأعيان فقهائها بأنهم فحصوا عن ذلك فلم يجدوا له أصلاً، وأبدوا مخاصمة وقعت بينهما، فلما سكن غضب السلطان عند قراءة ذلك عليه، علم حميد الدين وعصبته أنه قد نجا غريمهم من القتل برغمهم، فعدلوا إلى ما يوجب بزعمهم النكال به فكان ما كان، ورد الله حاسده بغيظه، لم ينل بسعيه عرضًا.

وفي يوم الاثنين سابع عشره: عزل سراج الدين عمر الحمصي عن قضاء القضاة بدمشق وقد وشي به شخص إلى السلطان من خواصه أنه أخذ على حكمه في قضية ذكرها مبلغًا من المال، وكان السلطان لما ولي الحمصي لم يكلفه لمال، وشرط عليه ألاّ يرتشي في أحكامه. وعين السلطان شمس الدين محمد بن الونائى لقضاء دمشق.

وفيه خلع على الأمير يوسف بن محمد بن إسماعيل بن مازن، واستقر أمير هوارة البحرية، عوضًا عن علي بن غريب، وذلك أنه كانت في هذه الأيام فتن بين

فزارة ومحارب، وبين هوارة البحرية بناحية البهنساوية، فقبض الكاشف على ابن غريب، فولي السلطان عوضه ابن مازن، وعين معه تجريدة.

وفي يوم الخميس عشرينه: خلع علي شمس الدين محمد بن علي بن عمر الصفدي، وإستقر على عادته في قضاء الحنفية بدمشق.

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه: ورد كتاب الغالب بالله عبد الله بن محمد بن الأمير أبي الجيوش نصر بن أمير المسلمين أبى عبد الله بن أمير المسلمين أبي الحجاج بن أبي الوليد إسماعيل بن نصر، متملك أغرناطة من الأندلس، يتضمن ما فيه المسلمون بغرناطة من الشدة مع النصارى أهل قرطبة وأشبيلية، ويسأل النجدة.

شهر شعبان، وأوله يوم الاثنين: فيه ركب السلطان إلى الرصد المطل على بركة الجيش، خارج مدينة مصر الفسطاط، ومعه الأمراء ومباشرو الدولة، وعمل لهم مدة، فأكلوا وعادوا في أثناء نهارهم. وفيه توجه الأمير سيف الدين طوغا قز السيفي أستادار إلى ناحيتي الشرقية والغربية، لأخذ ضيافات أهلها التي أحدثوها على أهل النواحي، فيحل بالناس من ذلك بلاء لا يوصف. وفيه أضيف نظر دار الضرب إلى نظر الخاص كما هي العادة القديمة، عوضًا عن جوهر الخازندار والزمام بعد موته.

وفي يوم الأربعاء ثالثه: سارت التجريدة مع ابن مازن إلى بلاد البهنساوية، وعدتها ثلاثمائة مملوك وعليهم بايزيد، أحد أمراء العشرات.

وفي يوم السبت سادسه: خلع على الطواشي زين الدين هلال شاد الحوش ونائب الزمام، وهو أحد خواص خدام السلطان الملك الظاهر برقوق، ربي في داره بين حرمه، واستقر زمام الدار، عوضًا عن جوهر السيفي قناق باى بعد موته.

وفي يوم الأحد سابعه: خلع على الأمير زين الدين عبد الرحمن ابن القاضي علم الدين داود بن زين الدين عبد الرحمن بن الكويز، واستقر أستادار الذخيرة عوضًا عن الجوهر المذكور وخلع على الطواشي جوهر التمرازي الحبشي، وإستقر خازندارا عوضًا عن جوهر السيفي المتوفي وفي تاسعه: هبت ريح شرقية بطرابلس الشام وأعمالها، واشتدت، فهدمت الدور والموادن وصعقت أقصاب السكر بإجمعها.

وفي هذه الأيام: إشتد البرد بالقاهرة، حتى جمدت المياه بعدة مواضع، وأبيع الجليد بالأسواق في يوم الخميس حادي عشره، وجمدت بركة من مستنقع ماء النيل في بعض الضواحي بحيث صارت قطعة واحده، ومشي فوقها الأوز، وأصبحت زروع كثيرة من الفول وقد إسودت وحفت، فحملت وأوقدت في الأفران، واسود

ورق كثير من شجر الجميز وغيره.

وفي يوم الأربعاء سابع عشره: ولي شمس الدين محمد الونائي قضاء القضاة بدمشق، عوضًا عن الحمصي، ولم يخلع عليه، وحملت له الخلعة ليلبسها إذا قدم دمشق بسؤاله ذلك، وأمهل بالسفر إلى أثناء شوال، وأضيف إليه عدة وظائف، منهما خطابة الجامع الأموي، عوضًا عن البرهان إبراهيم بن الباعوني، ونظر الأسوار، ونظر الأسرى، وأخرج له من الإصطبل السلطاني بغلة بقماش كامل وزناري، وهذا شيء قد بطل منذ سنين، فجدده عناية من السلطان به.

وفي يوم السبت عشرينه: ركب السلطان من القلعة ونزل بخليج الزعفران، كعادة المؤيد شيخ والأشرف برسباى، ومدت للأمراء أسمطة جليله بحسب الوقت، وحمل جماعة من المباشرين أنواعًا من الحلوى والفواكه وغيرها، ثم ركب بعد صلاة الظهر، ودخل من باب القصر، فشق شارع القاهرة، وخرج من باب زويلة إلى القلعة، وهذه أول مرة شق فيها القاهرة بعد سلطنته، وكان هذا وهو بثياب جلوسه، ولم يكن هذا في القديم، وأول من ترخص فيه الناصر فرج، فإنه ركب بثياب جلوسه، ثم اقتدي به في ذلك الملك المؤيد شيخ، ومن بعده، وعد هذا مما ضيع من قوانين المملكة، وبطل من رسومها.

وفي هذا الشهر: هم السلطان بإخراج الرزق الأحباسية عمن هي بيده. ثم استقر الحال على أن جبي من الرزق الأحباسية التي بأراضي الجيزة التي ببلاد الملك من ضواحي القاهرة، عن كل فدان مائة درهم من الفلوس، فجبيت، وأنعم بما يجبي من الجيزة على الوزير إعانة له، وما يجبي من الضواحي يصرف في عمل الجسور. وفيه أيضًا رسم بفك قيد الأمير جانم أمير أخور الأشرفي، بفك وبقي في سجنه بالمرقب بغير قيد.

وفي ثامن عشره: قبض بمكة على أمين الدين محمد بن قاسم، فألزمه المتسفر لإحضاره ألف دينار، فأورد له منها، ونزلا في البحر يريدان القاهرة.

شهر رمضان، أوله يوم الثلاثاء: فيه ورد الخبر بأنه قبض على الأمير قانصوه بدمشق، فرسم بسجنه في القلعة.

وفي يوم الخميس عاشره: خلع علي شمس الدين محمد بن عامر أحد نواب الحكم المالكية، وإستقر في قضاء الإسكندرية، عوضًا عن جمال الدين عبد الله الدماميني.

وفي يوم السبت ثاني عشره: خلع على القاضي معين الدين عبد اللطف بن شرف

الدين أبي بكر الأشقر، واستقر في نيابة كتابة السر وغيرها من وظائف أبيه بعد موته.

وفي هذه الأيام: ألزم القاضي زين الدين عبد الباسط بحمل خمسة آلاف دينار. وذلك أنه وجد في تركة جوهر الخازندار الزمام أنه حمل إلى عبد الباسط في أيام مصادرته خمسة آلاف دينار، فتوجه القاصد إليه بحملها فعوض عنها قماشًا، وأذن أن يباع من عقاره بالقاهرة ما يكمل تتمة ذلك، فسامحه السلطان بألف دينار، فأورد إلى الخزانه أربعة آلاف دينار.

وفيها أيضًا فوض السلطان نظر الجامع الحاكمي بالقاهرة إلى الأمير دولت بيه الدوادار. وأنعم برسم عمارته بألف دينار، وحملت إليه من الخزانة السلطانية فركب وكشف أحواله، فوجد سقوفه قد سقط منها مواضع، وفيها مواضع ساقطة، وبلاطه قد تلف منه كثير، ومقاصيره الخشب قد تلف كثير منها، وميضات الجامع متهدمة، وأحوال الجامع بمرور النساء والصبيان وغيرهم ملعبة فمنع دخول النساء الجامع وألزم بوابيه ألاّ يمكنوا إمرأة ولا صغيرًا من الجلوس فيه، ولا المرور منه، وكان هذا الجامع قد فسدت أحواله، فأصلحه الله على يد هذا الأمير، وغلقت أبوابه عدة أيام، سوى بابين، ثم فتحت أبوابه كلها، وامتنع الناس كافة من المرور في صحن الجامع بنعالهم، وشرع في عمارة السقوف والمقاصير والبلاط، وهدم الميضأة بأسرها، وأنشأها إنشاء جديدًا وتشدد في جباية ريعه، واستولى على جميع ما هو موقوف عليه، وهو ثلاث جهات: إحدها الوقف القديم، وهو ما بين مساكن وأحكار، وكان من القديم إلى آخر وقت بيد قضاة القضاة الشافعية، ومنه تصرف معاليم المؤذنين، والإمام والخطب، والقومة ونحو ذلك، وهو وقف ضعيف متهدم، والجهة الثانية: وقف المظفر بيبرس الجاشنكير على أرباب وظائف سماها في كتاب وقفة ما بين دروس فقه وحديث وقراء وملء صهريج بالجامع، ونظره أيضًا للقاضي الشافعي، والجهة الثالثة: رزقة وقفها الناصر حسن، على الرماس وذريته، وأن يشترى منها حصر وزيت للجامع، ونظرها لهم، فاستوى دولت بيه على جمع ذلك.

وفي هذا الشهر: أيضًا رسم بنفل الطواشي خشقدم المقدم من المدينة النبوية إلى القدس، وإقامته هناك بطالاً.

وفي سلخه: قدم الأمير طوغان قز أستادار من الوجه البحري، وقد جبي من أموال أهله الضيافات التي أحدثوها، وحمل تقدمته ما بين خيل وجمال وغير ذلك مما تبلغ قيمته زيادة على عشرة آلاف دينار.

شهر شوال، أوله يوم الخميس: فيه صلى السلطان صلاة العيد بجامع القلعة على العادة، وعندما سلم الإمام في آخر الصلاة، وثب كثير من المماليك يدًا واحدة يريدون المبادرة لدخول القصر حتى تلبس أرباب الخلع خلعهم، وقام بقيامهم جماعة، فاشتد زحام الناس بحيث مات والي باب القلة، وسقط جماعة أشفوا على الموت مغمي عليهم، فأفاق أكثرهم، ومات بعضهم.

وفي يوم الجمعة ثانيه: كتب بعزل ابن عامر عن قضاء الإسكندرية، وطلب ابن الدماميني.

وفي ثالثه: قدم الأمير بايزيد ومن معه من المجردين بالبهنساوية، وقد قرروا على هوارة ما لا يقومون به.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره: قدم قود الشريف بركات أمير مكة، وأخبر قاصده بوصول ما رسم به وهو فلفل بعشرة آلاف دينار إلى الطور، فبطل الأرجاف بعزله وولاية أخيه، وقدم أيضًا القاضي جمال الدين عبد الله بن الدماميني من الإسكندرية، فخلع عليه في يوم الخميس نصفه، وإستقر في قضاء الإسكندرية على عادته، وعاد بن عامر إلى منزله، فلزمه بطالاً، لا حاجتك قضيت ولا صديقك أبقيت.

وفي يوم الاثنين تاسع عشره: خرج محمل الحاج مع الأمير تمرباى رأس نوبة النوب. وخرج في هذه السنة للحج ثلاثة من أمراء الألوف: تمرباى هذا، وطوخ، وتمراز أمير سلاح، وسبعة أمراء ما بين عشرات وطبلخاناه، منهم والي القاهرة، ومنهم سودون قرقاش النوروزي أحد رؤوس النوب، وأمير عشرة وهو أمير الركب الأول، فرحل من بركة الحجاج الأمير تمراز في حادي عشرينه، وتبعه كثير من الحجاج، ورحل سودون قرقاش في ركب كبير من الغد، ورحل الأمير تمرباى بمحمل الحاج في ثالث عشرينه، وكتب إلى الشريف بركات، وإلى أمير المدينة النبوية، وإلى أمير ينبع بإعفائهم مما كانوا يقومون به من المال لأمير الركب في كل سنة، وأكد السلطان على الأمراء عندما وادعوه أن لا يأخذوا من المذكورين شيئًا، فما أجمل هذا وأحسنه إن عمل به.

وفي حادي عشرينه: قدم بن قاسم من مكة، فسلم إلى الأمير دولت بيه الدوادار.

وفي هذا للشهر: خربت مدينة الفيوم، وجلا أهلها عنها، لغلبة ماء بحر يوسف.

شهر ذي القعدة أوله يوم الجمعة: في ثالثه: ركب مولانا السلطان لهدم ميضاتين ودور في زيادة الجامع الطولوني، كما هدم دار ابن النقاش، فصرف الله قلبه عن

ذلك، ومضي من الجامع، بعدما كشف أحواله إلى الميدان الكبير، فنظر ما عمر في سورة، وعاد سريعًا.

وفي يوم السبت تاسعه: قدم الأمير قانباى الحمزاوي نائب حلب بإستدعاء، فركب السلطان إلى مطعم الطيور ونزل به، وتقدم الأمير الكبير الأتابك في عدة من الأمراء حتى قدموا به، فخلع عليه، وعاد السلطان وهو في الخدمة، فصعد السلطان إلى القلعة، ومضي النائب إلى دار أعدت له، فنزلها، وقدم من الغد تقدمته، وهي مماليك، وخيول، وجمال، وقماش، وفرو، وغير ذلك مما قيمته نحو عشرة آلاف دينار.

وفي يوم الاثنين حادي عشره: توجه الأمير أينال الأجرود مجردًا في جماعه من المماليك نحو بلاد الصيد، لقتال محارب.

وفي هذه الأيام: أفرج عن ولي الدين محمد بن قاسم من عاقته ببيت الأمير دولت بيه، على أن يحمل خمسة عشر ألف دينار، ضمنه فيها جماعة. وفيها زاد النيل نحو ذراعين ونصف، حتى صار في اثني عشر ذراعًا ونصف، والوقت زمن الربيع، والشمس في برج الحمل، ويوافق من شهور القبط برمودة، وجرت العادة أن في مثل هذا الزمان يأخذ النيل في النقصان، ويسمى الإحتراق، وهذا من النوادر، إلا أنه وقع مثل ذلك في سنة تسع وثلاثين وثمانمائة. وكثر في هذا الزمان تخاصم الناس، وتعدي بعضهم على بعض، وتزايد وقوع الشر فيما بينهم، وشنع جهرهم بالسوء، وتناجيهم بالإثم والعدوان، فالله تعالى يكفي شر ذلك. وقدم الخبر بأن صاحب قشتيلة من بلاد الفرنج عمر أربعين بيوني وعشرة أغربة يريد رودس، ليأخذ بثأرهم من المسلمين. وفيها منع الأمير أيتمش الخضري من الإجتماع بالسلطان، وأمر بلزوم بيته، وهذا ثاني مرة منع فيها.

وفي حادي عشرينه: استقل نائب حلب بالمسير عائدًا إلى محل كفالته على عادته، بعد أن خلع عليه.

وفي رابع عشرينه: قدم الخبر أيضًا من طرابلس بأن أهل رودس قد استعدوا للحرب، وهم في انتظار عمارة الفنش صاحب قشتيلة، وأن كثيرًا من المسلمين سكان الساحل قد أخلوا ضياعهم، وصعدوا إلى الجبال.

وفي يوم الأربعاء سابع عشرينه: ورد الخبر بأن عشرة أغربة من عمارة الفنش وصلت إلى ساحل بيروت، فأخذت مركبًا مشحونًا بالبضائع، وأنهم باعوا ممن أسروا منه من المسلمين أربعين رجلاً، وأقلعوا من غير أن يقاتلهم أحد، فأمر بعرض أجناد

ليخرجوا إلى السواحل، فبدأ الأمير تغري بردي الدوادار.

في يوم السبت سلخه: بعرضهم، على أيخرج منهم مائة جندي إلى رشيد والطينة.

شهر ذي الحجة، أوله يوم الأحد: في يوم الأربعاء رابعه: عرض الأمير تغري بردي الدوادار أجناد الحلقة المجردين، ولم يعين إلا من كان سجل إقطاعه بثلاثين ألف درهم فما فوقها، ثم عفوا من التجريدة لما جرت به عادتهم من تداول كلمة ألقاها الشيطان بينهم، أن من تعرض لأجناد الحلقة زالت دولته.

وفي يوم الأربعاء خامس عشرينه: قدم مبشرو الحاج وأخبرت كتبهم بكثرة المراعى ورخاء الأسعار وأمن الحجاج وسلامتهم، وأن الشريف بركات أمير مكة قابل الأمراء ولبس التشريف السلطاني على العادي، إلا أنه كانت وقعة قريب خليص بين أمير ركب الكركيين وبين حجاج ينبع، قتل فيها من الينابعة زيادة على عشرين رجلاً، ونهبت أموالهم، وبلغت نفقات السلطان في نفقات المماليك وصلات الأمراء والتراكمين وغيرهم وفي أثمان مماليك اشتراهم ونفقات تجاريد جردها وغير ذلك، في مدة أولها موت الأشرف برسباى وأخرها سلخ هذه السنة، وذلك مدة ثلاث سنين، مبلغ ثلاثة آلاف ألف دينار ذهبًا، وهي ما خلفه الأشرف برسباى من الذهب والدراهم والبهار، والجمال، والخيل، وثياب الحرير، والبعلبكي، وأنواع الفرو، ومن الغلال والقنود، والأعسال، والسلاح، وغير ذلك، مع ما دخل إلى الخزانة في أيام سلطنته وهو نحو خمسمائة ألف دينار، نفذ ذلك كله، وعلى الله العوض.

وفي هذا الشهر: زاد النيل بعد نقصه حتى تجاوز إثني عشر ذراعان وذلك في بشنس.

وفيه وردت تقدمة أربعة من القاضي زين الدين عبد الباسط، بعد ما وصلت له كاملية بفرو سمور، وحجرة بقماش كامل، فكانت تقدمته هذه خيلاً وفروًا وثياب وحرير.

وفي هذه السنة: تجددت عمارة مواضع عديدة، منها مشهد السيدة رقية قريبًا من المشهد النفيسي كان قد اتخذه بعض الناس سكنًا، وتعطلت زيارته مدة سنين، فجدد عمارته السيد بدر الدين حسين بن الفراء نقيب الأشراف، في أول شعبان.

وفي هذا الشهر: أيضًا جددت عمارة جامع الصالح طلائع بن رزيك خارج باب زويلة، وقام بذلك رجل من الباعة وجدد أيضًا جامع الفاكهيين بالقاهرة، وجامع الفخر

بخط سويقة الموفق قريب من بولاق وجدد أيضًا عمارة جامع الصارم قريب من بولاق.

وفي يوم الجمعة رابع شهر رمضان: أقيمت الجمعة بالجامع الذي أنشأه في هذه السنة الطواشي جوهر نائب مقدم المماليك بالرميلة تحت القلعة.

وفي أول شوال: أقيمت الجمعة بالجامع الذي أنشأه الأمير تغري بردي البكلمشي الدوادار المعروف بالمؤذي، بخط الصليبة. وأما اليمن فقد خرج عن متملكها ضياع تعز، وحسبه أنه يحفظها، فإن البلاد خرجت عنه من زبيد إلى بيت حسين، وصارت العرب المعازبة تركب في نحو ألف فارس.

* * *

الفهرس

* * *